تكوين الملكة التفسيرية



دستور الاستخلاف

قراءة تحليلية لسورة البقرة

نموذجٌ تطبيقيّ:

- لتثوير النص وقَيْد الفوائد البلاغية.
- وصيد الخواطر التربوية والدعوية.
- وتحديد ما في السورة من معالم منهجية.

تأليف

د. رأفت محمد رائف المصري

المشرف العام على مؤسسة مدارج

المقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ حمداً مباركاً دائماً لا ينقطع، فقد منَّ علينا بأجلِّ النعم وأعظم الآلاء؛ نتقلب في نعمه؛ لا نحصيها، فالحمد له حمداً محلّىً بالإيمان بما اتصف به من اللائق بعظمته وجلاله وجماله، ومكلَّلاً بالإقرار بنعمه كلها؛ ما جال في الخاطر منها وما غاب، وما عَرَف العقلُ منها وما جهل، وما أنعم به وما سيلحق بنا منها؛ فإنا والله لا نظن به إلا هذا، ونسأله أن يجعل نعمه تلك علينا موصولة في الدنيا والآخرة غير منقطعة ولا زائلة؛ إنه أهل ذلك وإن كنا لا نستحق!

والحمد له حمداً عظيماً خاصاً على ما اختصَّنا به من بين الأمم من إنزال القرآن العظيم، وجْعلِه معجزةَ نبيه الكريم، ودستورَ الهداية لهذه الأمة الرائدة بين الأمم؛ ما اهتدت بهديه والتزمت منهاجه القويم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠].

والصلاة والسلام على رسوله المختَصِّ من بين الرسل بالرسالة الخاتمة، وبالنور المبين، وبالروح الذي أحيا الله به الموات: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢].

ورضي الله عن أصحابه الذين رأوا في القرآن منهاج حياة، فتلقَّوه بالاحتفاء والتكريم؛ فحازوا سبْق الصدارة وقصَب السبق، وأجادوا رفع اللواء؛ ذلك أنهم فهموا المنهج، واهتدوا بالكتاب؛ فاستحقوا الامتياز وكانوا "الجيل القرآني الفريد"!

وبعد:

فقد شهدت الأعوام الأخيرة "صحوة تدبرية" مباركة، وقد تعالت أصوات العلماء والمرشدين إلى الاعتناء بالقرآن تدبراً وفهماً؛ بعد أن عمّ الإقراءُ وكثُر المجازون والحفظة، ورأى رواد الدعوة والتربية وفلاسفة الصحوة الإسلامية:





ضرورة التوجه بعد هذا الخير إلى استكمال الطريق وحصد النتائج بتحقيق القرآن في الحياة والواقع بعد أن عملوا على تحقيقه في التجويد وعلوم التلاوة واعتنوا بها زماناً غير قليل، فكثرت الإصدارات العلمية، وانتشرت الدورات التدريبية، وتلاحقت الإعلانات عن ملتقيات هنا وهناك في ذلك السبيل المبارك، فلله الحمد.

وقد أردتُ الإسهام في إيقاد جذوة الصحوة القرآنية التدبرية، فصممت بالتعاون مع الفريق المبارك في مؤسسة مدارج: برنامج "تفهيم القرآن"؛ الذي حظيَ بقبول طيب بين المهتمين، وشارك في تقديمه زمرة من أكابر أهل العلم في الأردن.

ثم أصدرت كتابي: "إرشاد المتدبر؛ نحو توظيف أهم أبواب البلاغة في استنباط فوائد القرآن"، ولقي الكتاب بفضل الله قبولاً حسناً، وبدأت بتدريسه في مواطن متعددة، فلله الحمد مرة بعد أخرى؛ حمداً لا يفتر ما دامت السماوات والأرض، وما شاء ربنا من بعد.

وكنت قد عزمت منذ حين أن أقدم نموذجاً تطبيقياً لأولئك الراكبين في سفينة الصحوة التدبرية؛ أعرض فيه سورة البقرة:

1

أسجل فيه ما جال في القلب من خواطر التدبر؛ أتتبعها في ساحات التربية، ووديان السياسة، وسهول الدعوة، وجبال الفكر، وواحات المعاني الإيمانية المبثوثة بين الآيات.

2

وأودِع فيه مطارحات المفسرين؛ أستنبط من بطون كتبهم ما احتوت عليه من كنوز، أقارن بينها أحياناً؛ لأدلَّ طالب التفسير على منهج المقارنة وأقيِّد ثمة المناسب من أصول التفسير، وقواعد الترجيح بين المفسرين، وأتمم بها- في أكثر الأحيان- التدفق الغزير في معاني الآيات وفوائدها ولطائفها.



حاولت – باختصار – أن أقدِّم نموذجاً تطبيقياً لما جاء في:

• كتاب "إرشاد المتدبر"، بما اشتمل عليه من تطبيقات لأهم أبواب البلاغة التي يحتاج إليه من يمارس "التفسير التحليلي" للقرآن الكريم، وأهمها:

التضمين | التقديم | الحذف | التعريف والتنكير

الالتفات

وما يتعلق بذلك من أبواب الخبر والإنشاء، وبلاغة استعمال الجملة الاسمية والجملة الفعلية في الكلام

• برنامج "تفهيم القرآن"؛ الذي احتوى على ورشات متعددة في مفاصل التدبر؛ وأهمها:

1. ترابط النص القرآني
2. بلاغة الكلمة القرآنية
3. الفهم الموضوعي للسورة القرآنية
4. تتبع الموضوعات وإنشاء المنظومات القرآنية، والربط ما بين المواضع المتشابهة

وقد ورد كل ذلك تطبيقياً في هذا الكتاب من خلال تفسير سورة البقرة؛ وإنْ بنسب متفاوتة الحضور حسبما يقتضيه واقع السورة.

وقد أجلت ذهني واستشرت أحبابي في عنوان مناسب لمضمون الكتاب؛ وانتهيت إلى تسميته:

"هداية المتدبرين"

ورأيت أن هذا العنوان مناسب جدُّ مناسب للمضمون، وأسأل الله السداد.



وبعد؛ ثانية:

فإن أحقَّ ما بُذلت فيه الأموال والأعمار هو هذا الكتاب الهادي؛ الذي انتشل الله تعالى به أمة كانت غارقة في ضلالاتها إلى الهلَكَة، غيرَ مُلتفَتٍ إليها بين الأمم، تعيش على هامش حياة البشر؛ هناك حيث لم يلتفت إليها أحد ولم يشعر بوجودها أحد؛ حتى صارت بعد ذلك ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ {آل عمران ١١٠}، والقرآن أخرجها!

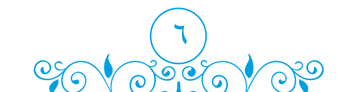
فيا ويح الأمة اليوم؛ كيف تضل وتخزى، وبين يديها ما لا تحتاج معه إلى غيره لتعاود الصعود بعد أن سقطت؛ كما سقط من قبلها بنو إسرائيل يوم نبذوا الكتاب وراءهم ظهرياً؟!

كيف يلتبس عليها الحق؟ وكيف تضيع البوصلة؟ وكيف تعمى عن الطريق؛ وهذا القرآن ينادي عليها من أول الطريق: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ {البقرة ٢}؟!

وهذا متعلق بالسبب الذي اخترت لأجله سورة البقرة كنموذج تطبيقي للتنظير التفسيري والتدبري الذي قدمته من خلال: كتاب "إرشاد المتدبر"، وبرنامج "تفهيم القرآن"، ويمكن أن أجيب على السؤال المركزي المتعلق باختيار سورة البقرة ببسط أكثر فأقول:

- امتازت السورة بميزات كثيرة؛ سيأتي عرض شيء منها في محطات الكتاب الأولى، لكن أبرزها: أنها سورة رافقت نشوء المجتمع المدني أو بعبارة أدق: صنعت المجتمع وعالجت نشوء الأمة وتشكلها الحضاري، صنعته من بدايات التشكل "المدني" أو "الاجتماعي" وقد كان من قبلُ أفراداً مسلمين لا أمة مسلمة ولا مجتمعاً بالمعنى الحضاري، نزلت السورة في أوائل الهجرة إلى المدينة، وأُغلقت قُبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم!

تنزلت عشرَ سنوات؛ وقلوب المسلمين وحركتهم الاجتماعية وفاعليتهم الحضارية تحت أضوائها؛ تباشر توجيههم وحل مشكلاتهم، وتجيب على سؤالاتهم الناشئة عن "التكوين الحضاري" الجديد.



وأظننا اليوم مرة أخرى حيث بدأنا؛ أفراداً مسلمين؛ لكن بلا "اجتماع إسلامي"، ولا "هوية حضارية"، ولا "رسالة عالمية"!

نحن بحاجة ماسّة إذاً إلى تلمُّس الطريق، وإعادة التموضع لاستئناف "تكويننا الحضاري"، ولا يظنن أحد أن الأمر بعيد! وأن المهمة مستحيلة، لا والله! لكنها سنة الله، فالنيةَ والقصدَ، ثم الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

❖ ثم إن سورة البقرة بطولها وتنوع موضوعاتها تتيح للباحث أن يطبق بجديةٍ وراحةٍ تنظيرَه التفسيريَّ والتدبري؛ فالأمثلة وافرة، والمواضع كثيرة، والتنوع ثريّ، وهذا ما قد لا يجده في سورة أخرى بهذا القدر.

وبعد؛ ثالثة:

فقد سلكت مسلكاً أتحرى فيه الجمع بين طريقتي القدماء والمعاصرين؛ وحاولت أن أجعل هذا النموذج متكاملاً في ذلك ما استطعت، ويمكن أن أجمل بيان المنهج في الخطوط الآتية:

❖ بدأت بالدراسة الموضوعية الموجزة للسورة، وبينت معالم شخصيتها، بدءاً بتتبع المميزات العامة لسورة البقرة، والتدبر في الموضوع الرئيس الذي عالجتْه، وملاحظة المعاني الكلية التي حظيَتْ فيها بالتركيز، وانتهيتُ إلى ذكر ما تيسر في فضائل السورة.

❖ قسَّمتُ السورة إلى مقاطع موضوعية متجانسة، وقدمت لتفسير كل مقطع بـ "التمهيد والمناسبة"، تكلمت باختصار عن موضوع المقطع، وأردفت ببيان مناسبته مع ما سبقه أو مع السياق؛ ليظهر بذلك إحكام نظم السورة واجتماع دروسها على خدمة الموضوع الرئيس فيها، وتسلسلُ موضوعاتها الجزئية وترابطها.

❖ تناولت تفسير كل آية وحدها ليكون أسهل على القارئ، مع بيان علاقتها بالسياق؛ إظهاراً لانسجام المقطع.





❖ وظفت البلاغة في استنباط فوائد الآية؛ كما تم التنظير لذلك في كتابي "إرشاد المتدبر"، وقد نبهت على جانبي الصفحات على مواضع ذلك، واستطردتُ أحياناً لدلالة طالب التفسير عليه، وتذكيره بالمقتضى البلاغي للفائدة القرآنية المقيَّدة.

❖ حرصت في عرض "مطارحات المفسرين" على الترجيح بالمقتضى الأصولي، وإعمال قواعد الترجيح بين المفسرين، ونبهت على ذلك وأرشدت إليه.

❖ استهداء بالقرآن؛ حرصت على تفعيل التنزيل الواقعي للقرآن، وعلى قراءة الواقع من خلال النص القرآني، والتعليق عليه بمقتضى التوجيه الرباني، ولله الحمد، بحيث يجد القارئ التفسير مقارناً للواقع؛ يعالج مشكلاته، ويحلله بناء عليه، ونبهت كذلك على ذلك؛ إرشاداً للقارئ وتدريباً لطالب التفسير بالتمثيل.

❖ حلّيت التفسير بالاستنباطات التربوية والإيمانية والدعوية، والتنبيه إلى التقعيد الفكري في النص، وحسَّنتُ الصياغة في كل ذلك ما استطعت؛ بحيث تلامس قلب القارئ وتحرك وجدانه، ودللتُ عليها في جوانبِ الصفحات.

❖ حرصتُ على ألا أخرج بالقارئ من الجوِّ القرآني، ولذا؛ فقد آثرت التقليل من الاستطرادات النحوية؛ إلا ما دعتْ إليه الحاجة، وكذلك: المباحث الفقهية، واكتفيتُ منها بما يتعلق من الأحكام بلفظ الآي؛ دون ما اعتاده المؤلفون في آيات الأحكام من استقصاء لمسائل الباب.

وكذا في التقعيد الفكري، ذلك أن بعض المواضع تغريك بالاستطراد في بيانها واستكمال تقعيدها ومناقشة المعاصرين فيها، لكني ألجمت ذلك الاستطراد؛ لئلا يخرج بنا عن المقصود، ولئلا يطول الكتاب طولاً يزهِّد القراء فيه، واكتفيت منه بالإشارة الواضحة والعبارة الجامعة.

❖ حرصتُ على أن أترك للقارئ فسحة يسجل فيها ما يجول في ذهنه من أفكار، ويوضح ما قد يحتاج المبتدئ إلى استيضاحه، ويستدرك المتقدم على ما يراه من المسائل ويناقش ويخالف، وقد جعلت هذا كله على جوانب الصفحات؛ حيث توفرت لنا مساحات لم نشأ أن تذهب هدراً بعد أن اخترنا التعليق بالمهمات والتنبيه على الفوائد والاستنباطات على تلك الجوانب بين الحين والآخر.

❖ سيلحظ القارئ تدرجاً في تناول المسائل العلمية كلما قرأ أكثر إلى آخر الكتاب، فقد أقللت في البداية من تناول مطارحات المفسرين والمقارنة بين آرائهم والموازنة بينها؛ في حين أنه سيجد هذا بوفرة في النصف الثاني من الكتاب.

وإنما أردت من ذلك تهيئة القارئ المبتدئ والمتوسط قبل إدخاله في خضم المسائل العلمية الاختصاصية، على وعد القراء على اختلاف مستوياتهم بالجديد المفيد فيما يقرؤون في هذا الكتاب وفي شكله الفني وأسلوبه في العرض والصياغة، والله الموفق.

هذا؛ وقد بذلت جهدي في تقديم نموذج تفسيري يجمع بين العلوم الأصيلة والتنزيل الواقعي، ويجمع إلى جانب التطبيق البلاغي المناحي التربوية والدعوية، والتقعيد الفكري، والإشارات السياسية؛ بذلت جهدي لتقديم نموذج مناسب، فإن أحسنت فإنما هو فضل الله وحده، وأبرأ من حولي وقوتي إلى حوله وقوته؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

وإن أخطأت وغفلت فإنما هو عجز البشر المعهود وقصورهم وضعفهم، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

وأسأل الله العون على إتمام تفسير كامل للقرآن؛ أقدمه بين يدي الأمة في زمانها الصعب هذا، وأقدمه بين يدي قدومي على الله على أمل القبول.

رأفت محمد رائف المصري

عمان / شفا بدران







الملامح العامة لشخصية سورة البقرة

الكلام بين يدي سورة البقرة من حقِّه أن يطول ويمتدّ امتدادَ السورةِ ونفوذها في موضوعاتها المتعددة المتكاملة، لكن الاختيار على الاختصار، والاقتصار على الإشارة دون البسط والإطالة.

وسنتناول التفسير الموضوعي للسورة مبيِّنين مَعالِمِ شخصيَّتها من خلال نقاطٍ محدَّدة؛ نقدِّم من خلالها للقارئ رؤية عامة لسورة البقرة.

وبين يدي البدء فلأسجل هذا التنظير "القطبي" لمفهوم "شخصية السورة" وعناصرها:

في ضبط الأعمال التدبرية المتعلقة بتحديد ملامح الشخصية القرآنية

"يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة، شخصية لها روح، يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس!

- ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص.
- ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.
- ولها إيقاع موسيقي خاص- إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً.

ولا يشذُّ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة"[1].

---

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٢٨.





شخصية سورة البقرة

ويمكننا أن نلمح ملامح شخصية السورة بدقة، من خلال النظر في نقاط:

أولاً: ميـزات عـامة لسورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة في القرآن؛ من حيث عدد آياتها البالغة (٢٨٦) آية، ومن حيث عدد كلماتها؛ بل ومن حيث المدّة التي استغرقَها تنزُّلُها كذلك.

فالسورة من أوائل ما نزل من القرآن بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد أغلقت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسعِ ليال، كما في رواية سعيد بن جبير: "آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ {البقرة ٢٨١}، وعاش النبي صلّى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليـال، ثم مات ليلة الاثنين، لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول"[٢].

وعليه؛ فالسورة قد امتدَّ نُزولُها عشر سنوات تقريباً؛ كانت هذه العشر مدة مكوثه في المدينة صلى الله عليه وسلم؛ وهي المدّة التي بنى فيها القرآنُ مجتمعاً مؤسسياً: "دولة"؛ بالمعنى الحديث.

فالسورة إذاً هي:

- الأطول من حيث عدد آياتها.
- الأطول من حيث وقت تنزلها.
- أكثر السور التي وردت آيات الأحكام فيها، وامتلأت بالتشريعات كما لم يحصل في سورة أخرى.

---

(٢) الحديث عند البخاري في الصحيح من رواية الشعبي عن ابن عباس، (ج٦/ ص٣٣/ ح٤٥٤٤).





❖ "تمتاز السورة بأنها تحدثت عن أركان الإسلام الخمسة"[٣]، وقد جاء برهان ذلك في تفسير الآيات.

وفيها:

❖ الآية الأعظم في القرآن الكريم: آية الكرسي.

❖ الآية الأطول في القرآن الكريم، وهي آية الدّين.

❖ وفيها: آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

ثانياً: الوحدة الموضوعية لسورة البقرة؛ نظرة عامة

وكانت هذه السورة تعالج مشكلات هذا المجتمع الناشئ وتتعاهده وتربيّه وتوجّهه كيما يتحمّل مسؤولية الخلافة في الأرض والقيام بواجب "الأستاذية" فيها.

فالسورة جاءت- إذاً- لتُعِدَّ هذا المجتمعَ الناشئَ للقيامِ بالمهمَّة الكبرى، ولحمل الأمانة العظمى، ويُشير إلى ذلك من السورة ما جاء في قصة بداية الخلق من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ {البقرة ٣٠}، وما تلا ذلك من الآيات في القصة ذاتها: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {البقرة ٣٨ ٣٩}.

وحول هذه الخلافة دار الكلام في آيات السورة؛ لا من حيث هي، لكن من حيثتين:

❖ الحيثية الأولى: تَعرض السورة في مساحة واسعة منها قَصصَ بني إسرائيل، الذين أُسنِدَ إليهم حملُ لواءِ الاستخلاف من قبل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {البقرة ٤٧}، وتكرُّ عليهم السورة بسياط اللوم والتثريب والتعـيير نكوصَهم عن حمل تكاليف الاستخـلاف، وتبيِّن أنهم قابلـوا كل

(٣) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، محمد الغزالي، ١٢.





نعمة أنعمها الله عليهم بالكفر والجحود، وتُجرّدهم من ادّعاءات التديّن الحقّ؛ لتعلنَ بوضوح على العالمين: أن لواء الاستخلاف قد انتُزع ممن خان أمانة التكليف، ولم يوفِ بحق اللواء؛ انتُزع اللواء وللأبد!

- الحيثية الثانية: الإعدادُ الفكريُّ والتنظيميُّ لهذه الأمة لِتحمِلَ عبءَ الخلافة في الأرض، ولِترفعَ لِواءَ الخيرية أو "الأستاذية" فيها، والتهيئةُ للقيام بتكاليفها، ويمكنك أن تلحظ هذا المعنى في كل مقطع من مقاطعها ودرْسٍ من دروسها؛ على كثرة هذه المقاطع والدروس وتنوّعها، وسنشيرُ إلى ما تحصل به الكفايةُ من ذلك.

ولنقرأ على مهل ما قاله صاحب الظلال رحمه الله في تقرير موضوع السورة الرئيس:

"هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكولَ بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.

وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين، كما سيأتي في استعراضها التفصيلي"[٤].

وبيّن ابن عاشور رحمه الله أثر تنزل السورة من بداية المرحلة المدنية وعلى امتدادها: فقال: "وإِذْ قَدْ كَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدٍ بِإِقَامَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاسْتِقْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَدِينَتِهِمْ كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ تَصْفِيَةُ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِعَنَاصِرَ مُفْسِدَةٍ لِمَا أَقَامَ اللهُ لَهَا مِنَ الصَّلَاحِ سَعْيًا لِتَكْوِينِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ شَوَائِبِ الدَّجَلِ وَالدَّخَلِ"[٥].

أما الشيخ دراز رحمه الله في كتابه العظيم: "النبأ العظيم" فقد قدّم عرضاً نضيداً لموضوعات السورة؛ نذكر لك هنا مختصر ذلك، ويلزمُك العودة إلى كتابه إذا أردت رؤية ذلك العقد الفريد، قال تحت عنوان "نظام عقد المعاني في سورة البقرة":

اعلَم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب:

المقدمـة	المقصد الأول	المقصد الثاني
في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيـه من الهداية قد بلغ حـدا من الوضوح لا يـتردّد فيـه ذو قلب سليم، وإنما يعـرض عنه من لا قلب له أو من كان في قلبه مرض.	في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.	في دعوة أهل الكتـاب دعوةً خـاصـةً إلى تـرك باطلهـم والدخول في هذا الدين الحق.

(٤) في ظلال القرآن، ١/ ٢٨.

(٥) التحرير والتنوير، ١/ ٢٠١.



الخاتمـة	المقصد الرابع	المقصد الثالث
الخاتمـة في التعريـف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجـى لهم في آجلهم وعاجلهم"[٦].	ذكـر الوازع والنـازع الدينـي الذي يبعث على ملازمـة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.	في عرض شرائع الدين تفصيلاً.

أما الشيخ فريد الأنصاري في "مجالس القرآن" فقد أدلى إدلاء رائعاً فيما يتعلق بالنظر الموضوعي لسورة البقرة، وبيّن أن بؤرة البناء المجتمعي الذي دارت رحى السورة عليه: تعزيز معنى الطاعة، فجعلها البذرة، وأن ما ورد فيها من التشريعات: الشجرة، ولْيأذن لي القارئ الكريم بنقل ما تيسر من الكلام هنا مع الاختصار للاقتصار على الفكرة:

"سورة البقرة سورة حصينة منيعة، ترتفع أسوارها على ربوة عالية من القرآن، بحيث تشرف على كل سوره جميعاً، إنها شجرة ضخمة؛ شجرة ذات أغصان وفروع، تزهر وتثمر وتمد المؤمنين بوارف الظلال.

ولأصحابها الذين قرؤوها حقَّ قراءتها تميز خاصّ، سواء في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعده، ليس ذلك لأنها أطول سورة في كتاب الله، ولكن لأنها تتضمن مناهج العمل بهذا القرآن، وكيفية تلقي هداه، فما من سورة بعدها إلا وهي تستند في هذا إليها.

ذلك أن الموضوع الرئيس الذي تعرضه هذه السورة هو: منهاج إخراج الأمة المسلمة من البذرة إلى الشجرة، فما من آية فيها إلا وهي ترد إلى هذه الحقيقة، وتخدم قضيتها، إنها سورة تعرض الهدى القرآني الشامل لبناء الإنسان المؤمن فرداً وجماعة، بحيث يستطيـع

(٦) النبأ العظيم، ١٦٤.





كل من تتبع خريطتها بدقة، وسلك منهاجها بإخلاص أن يصل بإذن الله إلى حقيقة المجتمع والأمة، كما أنها تعرض طريقة صيانته وأسرار حفظه وضمان استمراره بعد بنائه وإخراج أمته.

والمنهاج كل المنهاج كما تعرضه سورة البقرة بذرةٌ وشجرةٌ، فأما البذرة فهي عودها وغصنها ولونها، وورقها وطيبها وزهرها وثمرها، صيفها وشتاؤها، كل ذلك منطوٍ على نفسه في كمون داخل البذرة، وأما الشجرة فهي نشر تلك الخواص كلها، وكشف تلك الأسرار جميعها، وعرض تلك الأحوال وأطوارها، فالحياة في الشجرة، وسرها في البذرة، ومنهاج إخراج الأمة المسلمة كما تعرضه سورة البقرة دائر على هذين.

فأما البذرة فهي الطاعة، نعم الطاعة بكل ما تحمل هذه العبارة من حقائق إيمانية ومنازل ربانية، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما بينه للناس من تفاصيل ذلك الهدى، طاعة كاملة تامة بلا تذبذب ولا التواء ولا استدراك على الله ورسوله بشيء، إنها طاعة العبودية التامة لله، طاعة الإخلاص والتوحيد والتفريد، فمن تخلق بها وتحقق فقد امتلك بذرة المنهاج وسر صناعته.

وسورة البقرة تضع هذا المقام الإيماني لطالبي الهدى أول شرط للانطلاق، وتجعله كلمة السر الخاصة لفك رموز المنهاج ورسم خريطته، فمنذ بدايتها عرضت قصة آدم بما تضمنته من ابتلاء الطاعة وما كان من ضعف آدم ومعصيته حتى إهباطه عليه السلام إلى الأرض، وأمره وذريته بالطاعة والاتباع، ولم تزل السورة بعد ذلك تعرض مواقف بني إسرائيل في هذه الحقيقة، ونكوصهم المستمر في شتى المواقف والمشاهد عن الالتزام بمقامها وتعرض في الآن نفسه نموذج الأمة الإسلامية وسر فلاحها واستخلافها بما تحلت به من طاعتها لربها، حتى ينتهي سياق الآيات في أواخر السورة إلى بيان ذلك الامتياز الذي امتاز به أهلها، حيث استجابوا لله بلا تلكؤ أو استدراك: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة ٢٨٥]، متذللين مستغفرين.

وأما الشجرة فإنها ما انبثق عن مفهوم الطاعة من الهدى المنهاجيِّ الذي به تنمو الحياة الإيمانية في الأرض وترعرع، وهو آيات التشريع الذي امتازت به سورة البقرة، فقد بينت من أصوله أمراً ونهياً القواعدَ الكبرى التي بها يكون المجتمع الإسلاميّ أو لا يكون، والتي بها يتمُّ إخراجُ أمته للناس أمة متميزة متفردة ..."[٧].

ويطول الأمر لو حاولتُ التتبعَ التامَّ لامتداد الموضوع ونفوذه في آيات السورة ومقاطعها هنا، لكني أعدُ القارئ بأنه سيجدُ ذلك عَذْباً بعيداً عن التكلُّف فيما بثثتُه أثناء التفسير التحليليِّ للآيات، ولا يُغني ذلك عن عرض سريع هنا:

فالسورة قد بدأت بذكر "الكتاب" الذي هو عماد التوجيه في أمّة الخلافة في الأرض ودستورها وهاديها: ﴿ذلك الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ {البقرة}.

وأمام هذا الكتاب الكامل في أوصافه قُسّم الناس إلى أقسام ثلاثة:

1. فالمتقون؛ وهم أهلُه والمهتدون به، وهؤلاء لهم صفاتٌ بارزةٌ في الاعتقاد والعمل: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ {البقرة}.

وهؤلاء المتقون بما أنّهم يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، كذلك: هم الوارثون لراية الخلافة في الأرض، وهم الحاملون للواء التوحيد وإرث النّبوة على طول تاريخها.

2. والكافرون، وهم الذين لم ينتفعوا بهذا الكتاب وعادَوه وصدّوا عنه، وأغلقوا أبواب قلوبهم دونه، فلا تنفعهم آياته ولا يستفيدون من هداياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ولهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ {البقرة}.

---

(٧) مجالس القرآن، فريد الأنصاري، ٣٢-٣٣ مختصراً.



3 والمنافقون، وهم الذين زعموا الانتفاع به، ولم يدخل قلوبهم، فهم الأشقياء الذين سَفُلوا ولم ينفعهم الإيمان والقرآن، وكانوا أولياءَ لشياطينهم على المؤمنين وأعواناً لهم على المتقين:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٨].

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة ١٤].

وأتبع ذلك التقسيم بخطاب النّاس جميعاً بالدعوة إلى صدق الاستسلام لله تعالى وعبادته وحده دون سواه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ٢١].

وذكرٌ آخرُ للكتاب: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة ٢٣] فهذا عود للتذكير بمطلع السورة وما فيه من ذكر انتفاع المتقين بالكتاب: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهنا أمرهم بالعبادة الخالصة؛ وهي سبيل وصولهم إلى التقوى، وذَكَرَ الكتاب ونفى الريبَ عنه، وتحدّاهم به.

ولمّا كان من مقاصد السورة إعداد الأمة لحمل أعباء الخلافة في الأرض؛ ذكر قصة بداية الخلق، وبيّن أنّ الغاية من الخلق في الأرض إقامة الخلافة فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠] وذكر ما حصل بعد ذلك من الصراع بين الحق والباطل متمثلَين بآدم وزوجه، وإبليس الذي استكبر وكان من الكافرين.

ثمّ أوضح وبيَّن وحذَّر من أنّ نزولهم إلى الأرض قام على أساسٍ من العداء بين آدم وذريّته وبين إبليس: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة ٣٦]، وعلى هذا الأساس قامت الخلافة في الأرض: رعايةً للحق وقياماً بلوازمه في مواجهة الباطل الذي يرعاه الشيطان.



والذي استعجَمَ على بعضهم فهمُه: مناسبة الحديث بعد ذلك عن بني إسرائيل، ولذلك عقد الإمام الشوكاني رحمه الله مبحثاً هنا أطال فيه الكلام في نفي اطِّراد المناسبة بين آيات القرآن الكريم، وقد ردّ عليه أهل العلم ردوداً وافية، والحقُّ أنّ المناسبة واضحة بيّنة، ذلك أنّ الموضوع هنا هو الخلافة في الأرض والقيامُ عليها ورعايتُها، وإنّه قد حمل بنو إسرائيل يوماً ذلك اللواء وتضلّعوا بمهام الواجب: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {البقرة ٤٧}.

وبيّن سبحانه أنّهم قد خانوا الأمانة، ولم يقوموا بأعبائها، فنزعها منهم سبحانه، ولقد جاء تمام البيان في آيات كثيرة استغرقت مساحة واسعة في السورة؛ امتلأت بذكر أسباب تجريد بني اسرائيل من هذا الشرف العظيم، وفي الحين ذاته كان تبصيراً لأصحاب الراية الجدد وتحذيراً لهم من الوقوع فيما وقع فيه الأشقياء.

وعرّجت السورة على انتماء هذه الأمة لإبراهيم عليه السلام واستحقاقها قبلته، وعلى تجريد بني إسرائيل من شرف الانتساب إليه وكونه بريئاً صلى الله عليه وعلى نبيّنا وسلّم من دين اليهود وطريقتهم؛ نجد ذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ {البقرة ١٢٤} إلى آخر الكلام عن تحويل القبلة.

وقد جاء تحويل القبلة في سياق الموضوع الرئيسي للسورة واضح المقصد، فالأمة الجديدة متميزة مستقلة من جهة، وقبلتُها بيتُ التوحيد الأول في الأرض، ونسبتها إلى أبي الأنبياء ودينُها دينُه، ورسولُها دعوته كما في رواية أشار إليها ابن كثير، "عن أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنهم قالوا له: أَخبِرْنا عن نفسِك، قال: نعم، أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ، وَبُشرى عيسى عليهما السلامُ"[٨].

وتنّوعت موضوعات السورة بعد ذلك ما بين حديثٍ عن شعائر الإسلام الكبرى، مع إطناب في ذكر الصيام والحج، وهذه الأركان أساسُ قيامِ أمةِ الخلافة العابدة لله في الأرض.

---

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (ج٣٦/ ص٥٩٦/ ح٢٢٢٦١)، وقال الشيخ شعيب: صحيح لغيره.

وجاء فيها الحديث عن أحكام الأسرة المسلمة، وهي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وتنظيمِ أحكامها والعناية بها لتكوين المجتمع المسلم والأمةِ الرائدة؛ قويةَ اللَّبِنات مُحكَمة البناء.

والحديثُ كذلك عن الجهاد؛ وهو السياج الحامي لهذه الأمة ومنظومتها القيمية والاجتماعية، وهو طريق الدعوة الرئيس على صعيد العلاقات بين الأمم، إذ يستهدف إزالة طواغيت الأرض والتخلية بين الناس والإسلام؛ يختارونه أو يدعونه.

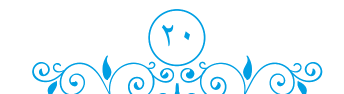
وهذا- كما ترى- منسجمٌ تمامَ الانسجام مع وظيفة الخلافة في الأرض والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ {ال عمران ١١٠}.

وكان ممّا ذُكر وأُطنب في ذكر تفاصيل تتعلق به وأحكام: المال ووجهاه المتضادّان: الصدقة والربا، الصدقة التي هي مصدر بناء المجتمع وحفظ توازنه الاقتصادي وتماسك أبنائه وتعاضدهم، والإنفاق على الجهاد للقيام بواجب الخلافة.

والربا؛ المؤدّي إلى ضدّ ذلك؛ من تفرّقٍ وتحاسد، وزراعةٍ لروح الشح والطمع والتنابز بين أبناء الأمة، وهو في الوقت ذاته مَظهرٌ من مظاهر الظُّلم في الأرض الذي جاءت الأمة الرائدة لإزالته ورفعه عن العباد مهما كانت أديانهم وأجناسهم وألوانهم.

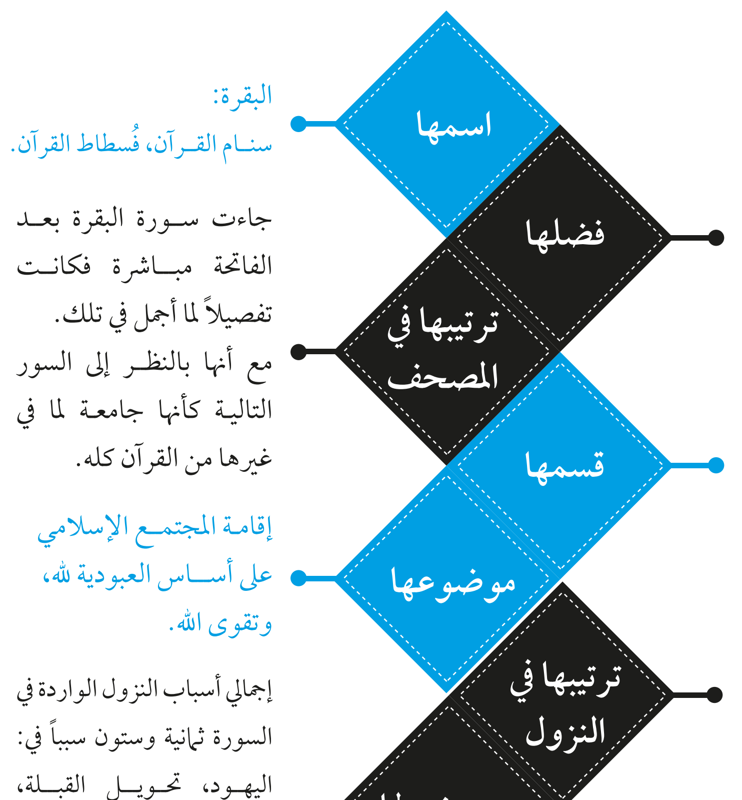
ونلحظ أنَّ فاتحةَ السورة في آياتها الأولى قد شكّلت محوراً تدور عليه معانيها ومقاطعها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾ {البقرة}، وسيأتيك نبأ ذلك أثناء التفسير إن شاء الله.

ومن بديع المناسبة في السورة أنّها اختُتمت بما افتتحت به، فقد افتتحت بذكر المتقين المتّصفين بما ذكر، واختتمت بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ {البقرة ٢٨٥}، وجاءت



الآية الأخيرة كالخاتمة لما في السورة من الأحكام والتكاليف: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة ٢٨٦]، وعرّض بذكر الأمم السابقة التي فشلت بامتحان الخلافة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة ٢٨٦].

وانتهت بسؤال الله تعالى الإعانة على مهام الخلافة والانتصار على أعدائها: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٨٦].





ثالثاً: علاقة اسم السورة بموضوعها الرئيس:

منهج النظر في تعليل أسماء السور، وبيان مناسبة أسمائها لموضوعاتها

ينحو الكثيرون في تعليل أسماء السور بكلمة وردت فيها أو قصة، فيقولون مثلا: سميت سورة العنكبوت بهذا الاسم لذكر العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ {العنكبوت ٤١}، وسورة المائدة لذكر قصة مائدة بني إسرائيل، وقالوا: سميت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، ولم ترد القصة في غيرها.

وليس هذا المسلك خطأ؛ إنما الذي يأمله المتدبر الحاذق أن يصل إلى جواب عميق يرتاح إليه؛ إذ الجواب بأن السورة كاملة سميت باسمها للفظة وردت فيها أو لقصة لم تتجاوز آياتها صفحة واحدة في سورة طويلة كثيرة الموضوعات ليس جواباً مقنعاً لنهم الباحث العميق، بل هو جزء من الجواب، وبيانه:

أن الحذاق من المفسرين والمتدبرين ينبغي أن يغوصوا في أعماق السورة ويروا الخيط الدقيق الذي يَنظُم موضوعات السورة وآياتها؛ ويتجنبوا التكلف في ذلك، فإذا استقر الأمر عندهم على ما بدا لهم أنه الموضوع الرئيس للسورة نظروا في اسمها التوقيفي، وتفكروا فيما تمثله القصة أو اللفظة التي لأجلها سميت السورة بما سميت به، ويتأملون في موضعها ومعناها ومغزاها وعلاقتها بالموضوع الرئيس من السورة، وهذا ما يمكن أن نفعله فيما نحن بصدده من سورة البقرة.



فقد ذكرنا موضوعَ السورة الرئيس في النقطة السابقة، وانتهينا إلى أن السورة عمِدتْ إلى بناء الأمة الإسلامية ودفع لواء الاستخلاف إليها، من بعد أن نُزِع اللواء من فجرة بني إسرائيل، وذكرنا كذلك أن النقطة المحورية أو "البذرة"- كما سماها الأستاذ فريد الأنصاري- هي الطاعة، وحولها دارت رحى الجزء التأسيسي من السورة، وعليها بُني الجزء الآخر منها، وهو "الشجرة"- بتعبيره- التي تمثلها آيات التشريع.

وعِيْبَ على بني إسرائيل؛ إذ يَنزع عنهم لواء الاستخلاف ويُجرِّدهم من الامتيازات الدينية معصيتَهم وتركَهم طاعة الله تعالى، وترد في الأثناء قصة بقرة بني إسرائيل؛ يقول الأستاذ:

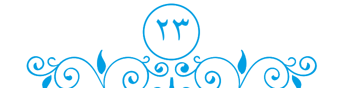
"وهذا هو السر في تسمية السورة كلها بسورة البقرة، مع أن قصة البقرة لا تكاد تتعدى ضمنها بضع آيات، إلا أن البقرة بعد ذلك صارت رمزاً لذلك المعنى الذي فقده بنو إسرائيل فخسروا الخسران المبين: الطاعة! بل أعلنوا مناقضته تماما تمرداً صريحاً على الله وعصياناً؛ حيث قالوا: سمعنا وعصينا، فلم يزالوا مذ أمرهم الله بذبح بقرة يتلكؤون ويفتئتون على الله ويشترطــون؛ حتى ما كادوا يفعلون، ولولا ضرورتهم لما كانوا في الحقيقة يفعلون، ومثل هذا لا يسمى في المنطق الإيماني: طاعة، لأن الطاعة من المطاوعة، وإنما تكون مع الذلة والمحبة للفعل وللآمر به، والتلكؤ والتحايل والمراوغة- ولو انتهت إلى إنجاز الأفعال- لا يكون لها من معنى الطاعة نصيب، وأما الاتباع الذلول والسماع الصدوق والاستجابة الخالصة لله كلما دعا فهو محض الطاعة حقاً"[٩].

والمقصود:

أن السورة لما كانت تدور حول الموضوع الذي تمثل الطاعة ركنه الأعظم والأظهر، ولمّا كانت قصة البقرة تمثل ما في الشخصية الإسرائيلية من انحراف منبعه التلكؤ في الطاعة، والاستثقالُ للأمر والنهي؛ ناسب أن تُسمى السورة باسم القصة، فالقصة ورمزيتها ومغزاها كالروح السارية في آيات السورة، والله أعلم.

---

(٩) مجالس القرآن، ٣٢.





رابعـاً: معانٍ تدور في آيـات السـورة.

المعنى الأول:

✣ ممّا نلحظه من المعاني بادياً في السورة: التقوى، وقد وردت تصريفاتها هنا أكثر ممّا وردت في أيّة سورة أخرى، السبب بيِّن، فالمتقون هم المهتدون بالكتاب الذي يصنعُ أمةَ الخلافة ويربّيها، والتقوى هي الصفة الأولى لهذه الأمة صاحبة الخيريّة.

وكذلك:

لعلّ ما ذكرناه من كون الطاعة معنى مركزياً في نزع اللواء من بني إسرائيل وضرورته للأمة المستخلَفة له تعلُّق بذِكرِ التَّقوى وبروزِها في السورة؛ فإن التقوى هي التعبيرُ القرآني البارز للطاعة: الائتمار بما أمر والانتهاء عما نهى؛ فلا غرو إذاً أن اجتمعت معاني السورة على هذا الخط الذي بيناه، والحمد لله رب العالمين.

وذكر التقوى فيها قد برز في صور متعددة؛ منها:

✣ الثناء على المتقين، وبيان صفاتهم السامية التي تحلَّوا بها: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ {البقرة}.

✣ الأمر المتكرر بتقوى الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا﴾ {البقرة ۝٢٠٣}، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا﴾ {البقرة ۝٢٧٨}، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ {البقرة ۝٤١}، ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ {البقرة ۝١٩٧}، وبتقوى اليوم الذي يلاقون فيه الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ {البقرة ۝٢٨١}، وبتقوى عذاب الله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ {البقرة ۝٢٤}.

- بيان السبيل إلى التقوى، وأنها غاية الغايات من تشريع العبادات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {البقرة ٢١}، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {البقرة ١٨٣}.
- معية الله للمتقين: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ {البقرة ١٩٤}.
- تعليق الفلاح بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ {آل عمران ٢٠٠}.
- ذمُّ الذين يتكبَّرون إذا أُمِروا بتقوى الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ {البقرة ٢٠٦}.

وأحسب أن التقوى في سورة البقرة وحدها يحسن أن تخصص ببحث موضوعي منفرد.

المعنى الثاني: ذكرت السورةُ أركانَ الإسلام

ومن الملاحظ أنّ السورة التي تصنع الأمة المستخلَفة ذَكَرت أركانَ الإسلام وشعائره الكبرى:

- الصلاة، التي أُمر بها في السورة مراراً، ووُصف المتقون بإقامتها في أول السورة.
- الزكاة والصدقات؛ فقد عرضت السورة بياناً هو الأوسع في القرآن والأكثر تفصيلاً فيما يتعلّق بالصدقات.
- الصيام؛ الذي أُعلنت فرضيته، وبُينت أحكامه كلها في القرآن في هذه السورة.
- الحج والعمرة؛ التي عرضا سورة البقرة أوسع عرضٍ لأحكامهما في القرآن الكريم.
- الجهاد؛ الذي كُرر ذكره والأمر به وبيان أحكامه في هذه السورة.

إنه لم يُعرض شيء من التفاصيل المتعلقة بهذه الأركان والشعائر الكبرى في القرآن بمثل ما عُرض هنا في سورة صناعة الأمة المستَخلَفة، وهذا من مميزات سورة البقرة.



خامساً: ما ورد في السـورة من الفضائل.

قد أَجَلَّ الصحابة- وهمُ الأئمة الأعلام- مَن قرأ سورة البقرة فيهم، وحرَصوا على تعلّمها، وأقاموا على ذلك الآماد الطويلة، من ذلك ما رواه ابن سعد في كتابه عن ميمون: أن ابن عمر تعلّم سورة البقرة في أربع سنين"[10].

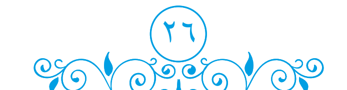
والفضائل المروية في سورة البقرة كثيرة، منها ما جاء في عموم السورة، ومنها ما خُصَّ به بعض آياتها، كآية الكرسي وخواتيم البقرة، ونذكرُ هنا بعض ما يتعلق بالعموم، ونترك ذكر ما يتعلق بها ورد في خصوص آيات معينة إلى مواضع تفسيرها إن شاء الله.

وما نذكره غيض من فيض مرويٍّ في فضائل السورة، وليس المقام للاستقصاء:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كلَّ رجلٍ منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم مِنْ أحدثهم سنًا، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «فاذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول اللهَّ ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلَّمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوٍّ مسكًا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جرابٍ أُوْكِئ على مسك»[11].
- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبـي صلى الله عليه وسلـم قال: «إن

(١٠) أخرجه ابن سعد في الطبقات (ج٤/ ص١٦٤) بإسناد صحيح.

(١١) أخرجه الترمذي في السنن (ج٥/ ص١٥٦/ ح٢٨٧٦)، وقال الألباني: ضعيف.



لكل شيء سنامًا، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تُقْرَأ خرج من البيت الذي يُقرأ فيه سورة البقرة»[١٢] .

قال العلامة المباركفوري في «تحفة الأحوذي»: قوله صلى الله عليه وسلم: «لكل شيء سنام» بفتح السين أي رفعة وعلو استعير من سنام الجمل ثم كثر استعماله فيها حتى صار مثلاً، ومنه سميت سورة البقرة سَنام القرآن قاله الطيبي[١٣] .

وقال ابن الأثير في النهاية: «كل شيء علا شيئاً فقد تسنَّمه»[١٤] .

وقوله صلى الله عليه وسلم: «وإن سنام القرآن سورة البقرة» إما لفضلها وعلوّها على ما سواها في القرآن أو لما فيها من الأمر بالجهاد وبه الرفعة الكبيرة.

❖ وفي حديث سهل بن سعد عند ابن حبان: «من قرأها -يعني سورة البقرة- ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال، ومن قرأها نهارًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»[١٥] ، وخص سورة البقرة بذلك لطولها وكثرة أسماء الله تعالى والأحكام فيها.

❖ عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه في السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال: فأشفقت يا رسول اللهَّ أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذاك»، قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت

---

(١٢) أخرجه أحمد في مسنده (ج١٣/ ص٢٢٤/ ح٧٨٢١)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

(١٣) أخرجه الترمذي في السنن (ج٥/ ص١٥٧/ ج٢٨٧٨)، وقال الألباني: ضعيف.

(١٤) النهاية في غريب الحديث، ٢ /٣٦٧

(١٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (ج٣/ ص٦٠/ ح٧٨٠)، وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف.



لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»[16] .

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شمَّاس رضي الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد عن جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدَّثوه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: (فسُئل ثابت) فقال: قرأت سورة البقرة».

قال ابن كثير: وهذا إسنادٌ جيدٌ إلا أن فيه إبهامًا، ثم هو مرسل، والله أعلم[17] .

✣ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يدخله الشيطان"[18] ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

✣ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكم، يَضع إِحْدَى رِجلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يتغَنَّى، وَيَدعُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ يَقْرَؤُهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ أَصفَرَ الْبُيُوتِ، الجَوْفُ الصِّفْر مِنْ كِتَابِ الله".

✣ عَبْدُ اللهَّ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "تعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ"، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: "تعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظِلان صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ فِرْقان مِنْ طَيْرٍ صَوافّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا".

---

(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص١٩٠/ ح٥٠١٨).

(١٧) قال ابن كثير: وهذا إسنادٌ جيدٌ إلا أن فيه إبهامًا، ثم هو مرسل، والله أعلم

(١٨) أخرجه الترمذي في السنن (ج٥/ ص١٥٧/ ج٢٨٧٧)، وقال الألباني: صحيح.





التفسير التحليلي للسورة

بدأنا بتقسيم السورة إلى مقاطع ودروس حسبما رأيناه مناسباً؛ بحيث تجتمع المجموعة من الآيات المتتالية لتقديم درس أو موضوع جزئي، وعنونّا لكل مقطع بعنوان مناسب؛ اجتهدنا في اختياره ليكون منسجماً مع ما انتهينا إليه في الموضوع الرئيس للسورة، وهو انتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل، وصناعة الأمة المستخلَفة.

المقطع الأول
الاهتداء بالكتاب والمهتدون به

﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ {البقرة}.

التمهيد

هذا الدرس الأول من سورة البقرة؛ مفتتحاً بالحروف المقطعة؛ التي أُتبعت- كالعادة القرآنية - بذكر القرآن الكريم وتعظيمه، ووصفه بأنّه " هدىً للمتقين " ثمّ تُذكر صفات هؤلاء المتّقين المنتفعين بهدي القرآن.



وتُختم بإثبات كمالَ تمكُّنْهم من الهدى- الذي انتفعوه من القرآن- والحكم لهم بالفلاح، وهذا الدرس روح تسري في آيات السورة؛ إذ السورة جاءت لصناعة الأمة المستخلفة؛ وهؤلاء هم أفرادها وبُناتُها، وهذه صفاتهم.

التفسيــر

❖ ﴿الم﴾.

هذه الفواتح المشهورة في القرآن المسمّاة بـ "الحروف المقطعة"، وهي مجموعة متنوِّعة من الحروف افتُتحت بها بعض سور القرآن الكريم، ومعظم هذه السور المفتتحة بالحروف المقطعة سور مكيّة، والمقطوع منها بمدنيته منها سورتان: البقرة وآل عمران.

ومن الملاحظات المتعلِّقة بها: أنّها إذا افتتحت بها السورة أُتبعت بذكر القرآن الكريم وتمجيده والثناء عليه أو القسم به؛ كما في سورة البقرة هنا: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ {البقرة}، وكما في قوله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ {يس}، وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ {ص}، وقوله: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ {الدخان}، وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ {ق}، وهكذا.

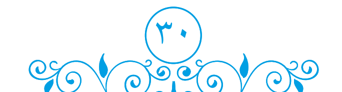
وقد اختلف أهل العلم في فهمها، ويمكننا هنا إجمال أهم الأقوال فيها:

❖ قيل: الله أعلم بمعناها، ونفوض علم معناها إلى الله تعالى، وعدّها هؤلاء من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

❖ وقيل: هي رموز الكلمات، وكل حرف منها يدل على كلمة ويرمز لها، وهو مرويّ عن ابن عباس وسعد رضي الله عنهما، مثل: ألف: الله، لام: جبريل، ميم: محمد، أو: ألم لام ميم: أنا الله أعلم، وأمثال هذا[١٩].

---

(١٩) انظر: كتاب تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه مجد الدين الفيروز آبادي، ٤.





- قيل: هي أسماء للسور.
- قيل: هي أقسام أقسم الله تعالى بها، ومنهم من جمع بين الأخيرين؛ فقال: هي أسماء للسور أقسم الله تعالى بها.
- قيل: لا معنى لها، وإنّما هي حروف جيء بها في فواتح السور للتنبيه على إعجاز القرآن، ووجه ذلك: أنّه سبحانه قد تحدّاهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولمّا كان هذا القرآن من جنس ما يتكلمون به من الحروف: أراد تذكيرهم بأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله مع ما تقدّم من كونه من حروف هي المادة الأساسية التي يبنون منها كلامَهم.

وهذا القول لا يتنافى مع القولين الأخيرين من قبله، فقد يكون أُتيَ بهذه الحروف للإشارة إلى هذا المعنى من التحدي والإعجاز، وهي في الوقت نفسه أسماء للسور، وقد أقسم بها.

ويبدو أنّ الأستاذ سيد قطب رحمه الله في الظلال يرى هذا؛ وهو أجمع الأقوال وأكثرها اتفاقاً مع الأصول العامة، وهو المختار إن شاء الله.

أمّا القول: إنها مما استأثر الله بعلمه فممّا لا يتفق مع النظر، ذلك أنّ مقتضاه: أن الله تعالى قد أنزل في كتابه شيئاً لا يفهمه أحد من الناس وهذا ممنوع بطبيعة الحال، وإنه لو كان كذلك لاعترضه أهل الجاهلية الذين يتربصون بالقرآن الكريم؛ ولم يُؤثَر أنّ أحداً من العرب قد اعترض على هذه الحروف زاعماً أنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم قد أتى بشيءٍ غيرِ مفهوم، ممّا يدلُّ على أنهم فهموا المراد منها، ومقتضاه: أنهم فهموا أنها مسوقة للإشارة إلى مادة القرآن الذي وقع تحدِّيهم به.

وهذا في الواقع ينسحب على القول الثاني، الذي فيه أنّ هذه الحروف رموزٌ لكلمات! فلو كان كذلك لكان محلّاً لنقدهم ورميهم القرآن بأنّ فيه ما ليس بمفهوم.

وهذا- كذلك - مما لا يناسب بلاغة القرآن، ولا طريقة العرب في الكلام؛ وقد نزل القرآن على طريقتهم! وأمّا روايته عن ابن العباس فلا أظنّ أنّها تصح، والله أعلم.

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال أن تتعلق أسرار أخرى كثيرة بهذه الحروف المقطعة، وخواطرُ المتدبرين في الواقع تطرح الكثير من المعاني الرفيعة المستنبطة من التأمل في هذه الفواتح، وتسجلُ اللّطائف الرائقة حول ورودها، ويمكن أن نطرح أكثر من سؤال مفتاحي يسترشد به المتدبر؛ غير قاصدين إلى الاستطراد في تتبع جواباتها:

- هل من مناسبة بين هذه الحروف وما يتلوها مباشرة من معان في السور بشكل عام؟
- لماذا اختيرت هذه السور دون سواها لتفتتح بالحروف المقطعة؟
- لماذا اختيرت هذه الحروف دون سواها من حروف العربية لتكون في فواتح السور؟
- ما المناسبة بين الحروف المقطعة وبين موضوعات السورة التي افتتحت بها؟

والحاصل:

أنّه ابتدأ هذه السورة العظيمة بالإشارة إلى التحدي، وبيان علّو رتبة هذا الكتاب على سائر الكتب، ولذا؛ لمّا افتتح السورة بهذه الحروف انتقل إلى بيان رتبة هذا الكتاب المنيفة، ومحلّه في الهداية؛ فقال:

ملاحظة مهمة تتعلق بباب من أبواب التدبر

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

﴿ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ۝٢﴾ {البقرة}.

وقد اختلف توجيه التركيب، واختلف بناء عليه الإعراب وتعددت الوجوه المحتملة فيه، والأفضل أن يقال: ﴿ذلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملةٌ مستقلَّة، لا تعلُّق لها بما سبقها نحْوياً، ويكون قوله: ﴿الم﴾ خبر المبتدأ محذوف تقديره: "هذه ألم".

التعريف بالألف واللام / التعريف والتنكير

وقوله: ﴿ذلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي الكامل في اتصافه بأوصاف الكتاب، والعريق في حيازته لكمالاته، دلّ على ذلك الألف واللام والداخلتان عليه المفيدتان لما ذكر، كما يقال: ذلك الرجل، قصداً إلى أنّه الكامل في الاتصاف بالرجولة.

إنه الكتاب الذي يصنع الأمة الحاملة للواء الاستخلاف، الكاملة -إلى حد الممكن في عرف البشر- في الاتصاف بأوصاف الأمة المختارة، التي تقوم بوظيفة الأستاذية في الأرض، وتليق بها الخيرية بين الأمم.

التعريف باسم الإشارة / التعريف والتنكير

وإنّما عُبّر باسم الاشارة للبعيد: ﴿ذلِكَ﴾ للإشارة إلى سموّه وارتفاع مكانته لفضله وإمامته على سائر الكتب من كل وجه، فالبعد هنا مجازي.

ثمّ استأنف فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، والريب: شكٌّ مع حيرة وتردُّد واضطراب.

و﴿لَا﴾ هنا نافية للجنس، ويفرّق اللغويون بينها وبين غيرها، وبيانه: أنّ النافية للجنس تنصب اسمها: لا ريبَ، وغير النافية للجنس لا تنصبه: لا ريبٌ، ويتضح الفرق إذا ما قلت: لا رجلَ في الدار، وإذا ما قلت: لا رجلٌ في الدار، فالأُولى نافيةٌ لجنس الرجال، في حين أن الثانية نافية للوحدة والانفراد، ولذلك يصحُّ أن تقول: لا رجلٌ في الدار بل رجلان، ولا يصحُّ أن تقول: لا رجلَ في الدار بل رجلان، ولا يصحُّ

أن تقول: لا رجلَ في الدار بل رجلان، لما أنّك هنا نَفَيْتَ جنسَ الرجال، فالجملة على هذا: متناقضة! والحاصل: أن نفيُ الرَّيْب عن هذا الكتاب بـ "لا" النافية للجنس: نفيٌ لجنس الريب عنه، وتنزيه له عنه؛ تنزيلٌ من حكيم حميد.

والمقصود: أن الريب كلَّه منفيٌّ عن هذا الكتاب المعجز نفياً تاماً لا مزيد عليه، فليحفل المؤمنون به وليقبلوا عليه، فإنهم إن استهدوا به هداهم الله، وإن انقادوا لمقتضاه رفعهم به في الدنيا والآخرة، وجعل لهم القيادة والريادة والنصر، وجعلهم خلفاء الأرض.

ثمّ بيَّن أنه سبب الهدى؛ فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إذ حريٌّ به ما دام متصفاً بالكمال منزهاً عن الريب أن يكون هدىً للمتقين، وحريٌّ بهم أن يتخذوه كذلك ويهتدوا به.

ووصْفُه بالهدى؛ والهدى مصدر لا اسم فاعل؛ إذ لقائلٍ أن يقول: ألم يكن الأصل أن يُقال: هاد للمتقين؟! فالجواب أنه إنما عبر بالمصدر مبالغة في بيان اشتماله على الهدى؛ حتى لَكَأَنّه صار الهدى نفسَه، فليت شعري كيف يسوغ لأمة وُهبت هذا الهدى أن تعدل عنه إلى غيره، وأن تتلمس الهدى في سواه؟!

وقد خُصَّ المتقون بهداه لِما أنّهم المنتفعون به المستفيدون بتلقيه مما فيه البينات والهدايات.

والتعبير عنهم بعنوان: "المتقين" للتنبيه على "فلسفتهم" في تلقيه ومنهجهم في ذلك، فهم "متقون"؛ قد تلقّوُا القرآن إيماناً به وعملاً بما فيه، ائتماراً بأوامره وانتهاءً عن نواهيه، وهؤلاء استحقوا النسبة إلى الرب وشرف الربانية: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ {آل عمران ٧٩}، فقد أقبلوا على الكتاب تعلماً وتعليماً، وتدبراً وعملاً به وتخلقاً بما فيه، حتى أكسبهم ذلك الانتساب إلى الرب سبحانه والتحقق بالهدى.



لمسة تربوية

وأصل التقوى : حذَرٌ وسلوكٌ لمسالك الأمن، وسدٌّ لذرائع الخطر، وتقوى الله: الائتمار بما أمر، والانتهاء عمّا نهى خوفاً من الوقوع في حيّز الوعيد، وإغلاقاً لمنافذ الغضب الشديد!

وتلقي القرآن بهذا المسلك؛ تلقيه بلهفة الغريق الباحث عن النجاة، والضّال الباحث عن الهدى، وهذا النمط من التلقي للقرآن الكريم هو ما عبّر عنه سيد قطب رحمه الله "معالم في الطريق" بالتلقي للتنفيذ، وليس تلقياً ثقافياً مجرَّداً أو ذهنياً بارداً!

ولأجل هذا المعنى وُصف هؤلاء المتقون بصفات؛ بعضها اعتقاديٌّ إيمانيّ، وبعضها عمليّ حركيّ، فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ {البقرة}.

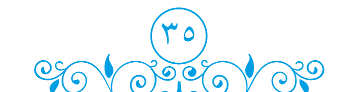
هذه صفاتهم الخمسة: ثلاثة منها اعتقادية إيمانية واثنتان عمليتان حركيتان:

- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: والغيب عكس الشهادة، وهو ما لا تقع عليه الحواس، ممّا قامت عليه الأدلة النقلية والعقلية.

وهذه أول الصفات، فهم ليسوا أسرى لعالم المادة، بل تعلّقهم بالله سبحانه وما وعد به وما أخبر عنه ينقلهم إلى رؤية الحياة بمنظار أوسع وأفسح وأحقّ.

- ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: الصلاة التي تربطهم بالله وتصلهم به، وتزوِّدهم بإيمان يعينهم على إتمام الطريق إلى الله.

والإقامة ليست مجرد أداء، بل أداء مقترن بإحسان للهيئات، وخشوع للقلب ونفيٍ لكلّ ما من شأنه إدخال العوج فيها.



- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: وهو ما يخرجونه من زكاة مالهم وصدقاتهم في مصارفها الشرعية المعروفة.

وإسناد فعل الرزق إلى الله تنبيه على أنّه سبحانه- وهو الذي أمرهم بالإنفاق منه- هو الذي رزقهم إيّاه ووهبه لهم، وهذا الخاطر ممّا يقوّي قلبَ العبدِ على الإنفاق ويهوّنه على نفسه.

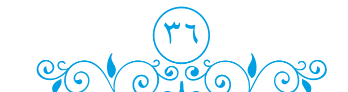
ويزيد على هذا المعنى أنّه لم يأمرهم بإنفاق كل ما رزقهم إياه، وإنّما أمرهم بإنفاق بعضه؛ هذا ما يدل عليه استعمال: ﴿مِن﴾ المفيدة للتبعيض في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، وقَرْنُ الزكاة بالصلاة من عادات القرآن الكريم، وهما طرفا العبادات العملية: عبادة بدنية: الصلاة، وعبادة مالية: الزكاة والنفقة.

وقوله: ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ يشمل كل أنواع ما تُشرع النفقة فيه من الوجوه المباحة والمستحبة الواجبة، والإشارة بهذا إلى أنّ نفوسهم قد تخلصت من الشحّ المجبولة عليه؛ فصار الإنفاق دأباً لهم وعادة من عادتهم.

- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: والذي أنزل إليك: القرآن، وسائر الشريعة التي أوحاها الله إليك، والذي أنزل من قبلك: سائر الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه من قبل، صلوات الله وسلامه عليهم.

والإيمان بكل ذلك سمة الإيمان في هذه الأمة، وسرٌّ من الأسرار التي أهَّلتها للخلافة في الأرض، وسببٌ بيّن من أسباب وراثتها رايةَ التوحيد عن كل نبيٍّ من الأنبياء، وإعلانٌ عامٌ بأنّها الأحقّ بهم والأولى من أقوامهم الذين تنكبوا مناهجهم وضلوا عمّا أوصاهم الله به.

- ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: نصٌّ على اعتقاد قوي محكَم، وإيمانٍ جازم مستقرٍّ بالآخرة وما فيها من نعيم أعدّه الله للمؤمنين بدينه؛ الداعين إلى شريعته.





عطف الخاص على العام

وإيمانُهم بالآخرة داخلٌ في إيمانِهم بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، لكن تخصيص الإيمان بالآخرة بالذِّكْر مِن باب عَطفِ الخاصّ على العامّ، لِما للإيمان بالآخرة مركزية في مفهوم الإيمان، ولِمَا له من أثرٍ على السلوك.

وجاء التعبير عن الإيمان باليقين، و"اليقين" من العلم: فوق المعرفة والدراية وأخواتها، ويقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكونُ الفهْم مع ثبات الحكم، كما قال الراغب الأصفهاني"[20].

التقديم الاصطلاحي / التقديم والتأخير

وإنّما قدّم الجارَّ والمجرورَ لإفادةِ الاهتمام: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وهو من التقديم الاصطلاحي؛ وهو ما كان متعلقاً من التقديم والتأخير بالنحو؛ كما بينا في "إرشاد المتدبر"، والاهتمامُ من فوائدِ تقديم الجارِّ والمجرور على المتعلّق بهما، ووجهُ الاهتمام: التركيزُ على مفهوم الآخرة في السياق، والقصدُ إلى إبرازه.

القصر الإضافي أو المجازي / القصر

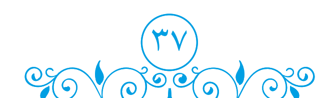
وإقحامُ ضمير الفصل : ﴿هُم﴾ بين الجار والمجرور وبين ما تعلّق بهما: ﴿يُوقِنُونَ﴾ لإفادة القصر الإضافي أو المجازي، فهم أهل هذا النوع من اليقين؛ وكأن غيرهم ليس له يقين!

لمسة تربوية

فهؤلاء يعيشون مع الناس في دنياهم، ولكن قلوبَهم حيث الآخرة، لا يشغلهم عنها هوىً، ولا تنسيهم إياها شهوة، يرونها في كل حركة وسكنة، وتلحظها قلوبهم في كل مشهد وموقف!

وهؤلاء الذين جمعوا كمال الإيمان وحسن الاعتقاد إلى صالح الأعمال، وجمعوا عبادة القلب إلى عبادة الجوارح هم الحقيقون بالاستخلاف في الأرض، وهم المؤتمنون عليها؛ بما انتفعوه من الكتاب العظيم الذي هو هدىً للمتقين:

(٢٠) مفردات ألفاظ القرآن، ٨٩٢



﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: اسم الإشارة للبعيد، إنّما جيءَ به للإشارةِ إلى سموِّ منزلتِهم وارتفاعها بما رفعهم ذلك الكتاب، وربّاهم مُنزِله سبحانه وتعالى وصانعهم على عينه.

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ تعلّموه من ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، إذ هو هدىً للمتقين، فطبيعيٌّ- إذاً- أن يكون متّبعوه وأهلُه: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وأيّ هدىً أعظم من الهدى الذي يأتيهم من عند ربهم سبحانه! إنّه الهدى الذي لا ضلال فيه، والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

و﴿عَلَىٰ﴾ تفيد الاستعلاء، والاستعلاء قد يكون حقيقياً أو مجازياً، وهو هُنا مجازيٌّ، عبارةٌ عن تمام التمكُّن، فكأنّ الهدى مركوبٌ عَلَوْهُ فارتاض لهم، وتمكّنوا منه أشدّ التمكن؛ تمكّنَ الفارس الماهر من قياد فرسه المِطْواع!

والتنكير في: ﴿هُدًى﴾ للتعظيم، كأنّه قيل: أولئك على هدىً، وأيُّ هدىً ذلك الهدى؟! فالتنكيرُ مفيدٌ للتعظيم من حيث إن الأمر إذا كانت عظمته خارجة عن المألوف لم يُعرَف!

وهذا الهدى ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لا من غيره، و"من" للابتداء، فالهدى مبتدأ من ربهم، صادر عنه! عظيم- إذاً- هو ذلك الهدى، ورحيمٌ ذلك الربُّ الذي لا يترك عِبَادَهُ هملاً؛ حتى يُنزل عليهم ما يهديهم به، ويُنجيهم من جحيم الدنيا والآخرة!

والتعبير بعنوان الربوبية وإضافة ضميرهم إليه: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: للتذكير بنعمته في تعاهدهم بتربيته؛ لا إله إلّا هو!

التعريف باسم الإشارة / التعريف والتنكير

....

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أولئك الذين تمكَّنوا من الهدى، وكانوا على قدْرٍ عظيمٍ فيه؛ هم أهل الفلاح وأصحابه وفاعلوه؛ فلاحٍ في الدنيا وفلاحٍ في الآخرة.

القصر والتخصص (ضمير الفصل)

وتكرار اسم الاشارة لمزيد الاهتمام، وإقحام ضمير ﴿هُمُ﴾ للقصر والتخصيص، والمعنى: هؤلاء هم المفلحون دون غيرهم، وكلُّ فلاحٍ بالنسبة إلى هذا ليس معتبراً!

والألف واللام في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ لإفادة كمال اتصافهم بالصفة وعراقتهم فيها، كما في: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾.

....
....
....
....

المقطع الثاني
صدود الكفار عن الكتاب

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

قد ابتدأت السورة بالثناء على الكتاب وبيان كونه هدىً، وذَكَرَت بعدُ مَن انتفعوا بهداه؛ وهم المتقون، وجرى تَعداد صفاتهم المستفادة من إقبالهم على القرآن وجلوسهم على مائدته، ثم خُتم المقطع بجميل ما ينتظرهم عند مُنزِل الكتاب من الفلاح، ولمّا انتهى من بيان ذلك على أبلغ وجه انتقل إلى بيان مَن لم ينتفعوا بالكتاب ولم يرفعوا بذلك رأساً؛ فلم يُقبلوا عليه ولم يحصل لهم ما حصل للمقبلين؛ بل كانوا سواءً في حصول الإنذار لهم وعدمه.



التفسيــر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

بيّنت الآية أنّ الإنذارَ وعدمَه مستويان في حقِّ أعيانٍ من شديدي الكفر وعُتاته، فهم لا يؤمنون على كل حال.

وافتتحت الآية ب ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة؛ ذلك أنّ السامع بعد أن عرف عظيم قدر القرآن في الهداية وأثره على المتقين؛ لعلّه يستبعد أن لا يحصل مثل ذلك الأثر في أحد من الخلق، فأكّد على وجه دفع هذا الوهم بـ ﴿إِنَّ﴾ أن هناك من لا ينتفع البتة بهذا الهدى.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لفظ عامّ يشمل كل كافر في أصله دلالة اللفظ، لكنّه يُراد به خصوص عتاة الكفر الذين لا ينتفعون ببيّنة ولا ينظرون في برهان، والذين يوافيهم الموت على ما هم عليه من الضلال، وإلا فإنّ كثيراً من الكفار غيرِ المتصفين بما ذُكر يؤمنون بعد وصول الإنذار إليهم وينتفعون به.

وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الأظهر، فالمعنى: الإخبار عن الذين كفروا بالتسوية بين حالَيْهم عند الإنذار وعدمه، والتعبير بحرف الاستعلاء: ﴿عَلَىٰ﴾ لإفادة تمكن حالة التسوية بين الإنذار وعدمه منهم، وكونها الأبرز في منهجهم في التعامل مع هذا الدين وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم وأدلته.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكِّدة لمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، مبيِّنة لحالهم في عدم الإيمان حالاً واستقبالاً.

والآية تصوِّر حال عُتاة الكفر وصناديده في كل زمان ومكان، أولئك الذين لا تَقْرَعُ قلوبهم آياتُ الله، ولا تلين قلوبهم وجلودهم لذكره، فلا يؤثّر فيهم الوعظ، ولا يحركهم الوعيد، ولا يكترثون لإدراك الحقّ!



مثلهم فيما قصَّه الله علينا من قصص السابقين: فرعون والملأ الذين كفروا من قومه عندما قالوا لنبيّهم موسى عليه السلام فيما قصّه الله علينا: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ {الأعراف ١٣٢}.

ثم علّل هذا الحال الغريب من الذين كفروا؛ فقال:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وعلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قام هذا مقامَ العلةِ في بيان سرِّ عدمِ تأثُّرهم وقلةِ استجابتهم، وقامَ كذلك مقامَ العقابِ لهم على قلّة اكتراثهم المذكور، ومن العقاب الذي يعاقب الله به هذا النوع من العبيد أن يختم على القلوب ويغلق دونها الأبواب بعد أن كانت مفتوحة يوماً ففرَّطت وعاندت وآثرت الهوى، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ {الأنعام ١١٠} يعني بسبب الحيرة التي امتلأوا بها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: جزاء إعراضهم عن الإيمان والتسليم لمّا جاءتهم أدلة الحق واضحة بيّنة.

والمذكور في هذه الآية انغلاقُ طريق العلم والفهم والإدراك عليهم فكأنهم سُلِبوها، وكأنّها لم تكن!

- أمّا القلوب، فهي مختوم عليها: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

والختم في الأصل السدّ على الإناء ونحوه بالطين للمنع من تسرب الهواء، أو وضع علامة مرسومة في خاتم لِمنع فتح المختوم.

والختم على القلوب مجاز في عدم نفوذ الإيمان والحق إليها، وعدم استقبالها له وتأثرها به.

- وأمّا الأسماع، فمختوم عليها كذلك، فهي لا تسمع سماع المنتفع بما يسمع، فكأنّه لا يدخلها شيء ولا يصل إليها صوت بسبب الختم.
- وأمّا الأبصار فعليها غشاوة، والغشاوة: فِعالة، من غشاه وتغشاه، بمعنى: الغطاء.



وهو مناسب للأبصار، كما أنّ الختم مناسب للقلوب والأسماع.

وقد اتُّفق على أنّ قلوبهم قد تعلّق بها الختم، وعلى أنّ أبصارهم تعلّقت بها الغشاوة، وتُكلِّم في الأسماع هل هي متعلقة بالختم أم بالغشاوة؟

والصحيح أنّها متعلقة بالختم، لقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣]، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا الاستدلالُ متوجهٌ جداً، وتفسير القرآن بالقرآن أفضل ما يلجأ إليه المفسر وأول ما يلجأ إليه.

تطبيق أصولي / تفسير القرآن بالقرآن

وحال هؤلاء الأشقياء مخيف -نسأل الله السلامة- فإنهم لما ينتفعوا بما وهبهم الله تعالى إياه من الحواس صاروا كالفاقدين لها! وهذا يشير إلى أن النعمة التي أنعم بها الله عبده؛ إن لم يجعلها فيما رزقها من أجله، وإن لم يؤد حقها على الوجه الذي أراده الله سبحانه منه؛ صارت في حقه مفقودة معدومة؛ بل لعلها تصير نقمة يحاسب على تضيعها وعدم أداء شكرها، والموفق من وفقه الله.

لمسة إيمانية

وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: إيعادٌ لهم بعد بيان ما أصاب قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم بعذاب عظيم في الآخرة ينتظرهم.

ولا مانع من أنّهم أُوْعِدُوا بعذاب عظيم في الدنيا كذلك؛ بزوال ملكهم وتقطُّعِ قلوبهم لرؤية نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

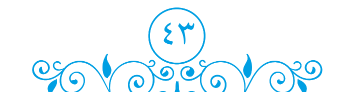


المقطع الثالث
صفات المنافقين الذين لم ينتفعوا بالكتاب

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

لمّا ذكر المنتفعين بالكتاب المؤمنين به؛ انتقل إلى ذكر أضدادهم، وهم الكفار المستعلنون بكفرهم، ثم عطف عليه صنفاً يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وبيَّن قبائحهم وصفاتهم، وعدّد شيئاً منها، وضرب لهم مثلَيْن عجيبين!



يظهر من خلال النظر أنّ الكلام عن هذا الصنف وهم المنافقون قد استغرق ما زاد على ما استغرقه عرضُ كلٍّ من حال المؤمنين وحال الكافرين!

ولعل ذلك راجع إلى خطورة هذا الفريق بسبب اندساسه في الصف المسلم واطِّلاعه على عورات المسلمين؛ في حين أنّ انتماءه وولاءه للشياطين خارج الصف؛ في حِلفٍ خبيث يستهدف النَّيل من هذا الدين وأهله.

ولعّل النازل هنا في شأن المنافقين من أوائل ما نزل في شأنهم من القرآن الكريم؛ ذلك أنّ المظنونَ كونُ هذه الآيات قد نزلت مبكراً بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ولأجل هذا- والله أعلم- قد احتوت هذه الآيات على بيان أبرز الصفات المميزة للمنافقين، وأهم الخطوط العامة التي تميزهم، وهذا يتناسب مع الموضوع الرئيس في السورة، وهو صناعة الأمة المستخلَفة في الأرض، وتمحيص الصف ركنٌ مهم من أركان صناعة الأمة وتقوية شوكتها.

وقد عرض المقطع للعديد من أهم صفات المنافقين وملامحهم الأساسية وطريقتهم في التفكير:

أولاً: أنّهم يدّعون الإيمان، وهو بريء منهم وهم بريئون منه! ويظنّون بذلك أنّهم يخادعون الله والذين آمنوا!

ثانياً: أنّهم يفسدون في الأرض، ويظنّون أنّهم فيها مصلحون، وقد انقلبت الموازين عندهم!

ثالثاً: أنّهم إذا دُعوا إلى الإيمان استهزؤوا، وازدروا المؤمنين، ونعتوا المؤمنين بالسفهاء؛ ظانّين أنّهم هم أصحاب العقول الراجحة!

رابعاً: أنهم لا يزالون يؤكدون انتماءهم للصف وولاءهم للمؤمنين، لكنهم يفزعون- إذا خلو إلى شياطينهم- إلى التملص من الإيمان، وبيان كون إيمانهم استهزاءً مجرداً ومحض سخرية.

ونستعرض النصَّ القرآني البليغ؛ الذي يصور خلجات نفوسهم وثنايا مشاعرهم وحركاتها الخفية آية آية، والله المستعان.



التفسير

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه السمة الأولى والأساسية التي صُنّف هذا الصِّنف من الناس وَفْقها ونالوا اسم النفاق! وهذا الأمر هو أساسُ النفاق، وحقيقتُه: ادّعاء الإيمان باللسان مع كفر في القلب وردٍّ للإيمان من أصله.

ولفظ النفاق- وإن لم يرد في النص الذي بين أيدينا- فإنّه يتطابق مع ما وُصِفوا به في هذا النص تطابقاً دلاليا تاماً، جاء في معجم مقاييس اللغة: "النون والفاء والقاف: أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه، ومتى حُصِّل الكلام فيهما تقاربا... النفق: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان، والنافقاء: موضع يرقّقه اليربوع من جحره، فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق؛ أي خرج، ومنه اشتقاق النفاق؛ لأنّ صاحبه يكتم خلاف ما يُظهِر، فكأنّ الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء..."[21].

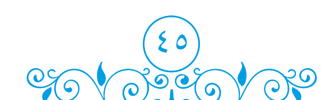
التعبير بالفعل المضارع / دلالة التعبير بالاسم والفعل

﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الفعل المضارع: (يقولون) يدل على أنهم يكرِّرون هذا الادّعاء كلما دعت الحاجة، فالفعل المضارع يدلُّ على التجدد؛ كما علمت في «إرشاد المتدبر».

وهم يتلفظون بادعاء الإيمان متبجحين: (يقولون)، ولا يتركون لفعالهم أن تدل على الإيمان المدّعى؛ فأفعالهم حتماً تناقض أقوالهم المكررة،

---

(٢١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس،١٠٣٩



والظاهر أنّهم يجدون حاجة إلى تأكيد ذلك وتكراره على أسماع النّاس في المجتمع المسلم، فإنّ من عادة المريب المتَّهم أن يتحسّس ظنون النّاس حوله فيسارع إلى دفع التهمة بإعلان ضدها، وقد كاد المريب أن يقول: خذوني!

وهم في إعلانهم هذا يزعمون الإيمان بالله واليوم الآخر:

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وفي إعادة الباء في قوله: ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إظهار لمزيد عنايتهم واهتمامهم بالإيمان بالله وما يقتضيه، والإيمانِ باليوم الآخر وما يقتضيه؛ كلٌّ منها باستقلاله؛ اهتماماً منهم وإظهاراً للعناية!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: ردٌّ من الله سبحانه عليهم بأحسم ردٍّ وأبلغه وأقطعه؛ ذلك أنّ هذه الدعوى قد تَروج في المجتمع المسلم المتَّصفِ بحسن الظنِّ وسلامة الخاطر، المتكلّل بالأخوة الإيمانية العميقة، وهؤلاء الأشقياء يستغلون هذا الخُلق في المجتمع المسلم ويروّجون أنفسهم من خلاله، فناسب أن يُكذِّبهم الله في دعواهم تكذيباً صريحاً مباشراً.

التعبير بالاسم / دلالة التعبير بالاسم والفعل

ومن بلاغة الرَّدّ أنّه جاء في جملة اسمية: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ في مقابل ادعائهم في جملة فعلية: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والجملة الاسمية الدالة على الثبات أبلغ في النفي؛ خصوصاً في مقابلة كلامهم المذكور.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بيان لحقيقة ما يفعلونه من زعم الإيمان مع خلو القلب منه؛ بل وامتلاء القلب بضده!



والخداع - كما يقول الراغب في مفرداته: "إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: يخادعون رسوله وأولياءه، ونُسب ذلك إلى الله تعالى من حيث إنّ معاملة الرسول كمعاملته، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ {الفتح ١٠}، وجعل ذلك خداعاً تفظيعاً لفعلهم وتنبيهاً على عِظَم الرسول وعِظَم أوليائه"[٢٢].

لمسة تربوية

ويمكن أن يقال: إنّهم يقومون بفعل من يظن أنّه يخادع الله سبحانه وتعالى عمّا يظن الجهّال علواً كبيراً، يظنون أنّهم يخادعونه وهو علام الغيوب، المطّلعُ على أسرارِ القلوب ومكنوناتها؛ فكيف يسوقهم الجهل إلى مثل هذا الاعتقاد؟!

ولعلّهم لا يظنون ذلك ظنّاً واعياً، وإنّما يظنونه فيما يسمى اليوم بـ "اللاواعي"، ويتصرفون كأنّهم قد حققوا معتقدهم فيه!! وإنّما جنى عليهم وأوردهم المهالك: جهلُهم بالله تعالى، وأنّهم لم يقدّروه قدره سبحانه عز وجل وتعالى! ولو صلح اعتقادهم وعرفوا ربهم لما صدر منهم ذلك، ولَعلموا أنّهم بهذا لم يخدعوا إلّا أنفسهم، ولم يجنوا إلا عليها، نسأل الله السلامة.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون أنهم حقاً يخادعون أنفسهم لا غيرها، وأنّ جريرة فعالهم لا تعود إلّا عليهم، وهذا أعظم الخذلان وأبلغ الحمق!

ثمّ بيّن سبحانه ما يجري كالعلة في ذلك فقال:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

(٢٢) مفردات ألفاظ القرآن، ٢٥٩



والمرض المستقر في قلوبهم عبارة عن الفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك المرض إما أن يكون شكّاً، أو جحداً بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يجحدون؛ كما قال ابن عطية رحمه الله[٢٣].

والتنكير في "مرض" للتعظيم والتهويل، فكأنّه قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وأيُّ مرض عظيم في قلوبهم؟!

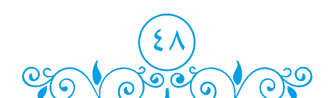
لمسة تربوية

أمّا زيادة الله تعالى قلوبهم مرضاً فهذا من عدل الله وحكمته، فكما أنّ العبد إذا ما أظهر الرغبة في الهدى يهديه الله تعالى ويوفقه، فإنّه سبحانه إذا أبدى العبد الرغبة في الضلالة وسعى إليها خذله الله ومدّ له في ذلك مدًّا! وتأمل علامة ذلك واسأل الله العافية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ {الأنعام ١٢٥}! وقد ذكرنا قبل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ {الأنعام ١١٠}، ويحسن في مقابل ذلك أن نضيء على قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ {محمد ١٧}، وعلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ {العنكبوت ٦٩}.

ثم جاءهم الوعيد المؤلم جزاء كذبهم الكذبة الكبرى، وهي ادّعاء الايمان وإبطان الكفر، وأيُّ كذبة أكبر منها: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾!

وتقديم: ﴿لَهُمْ﴾ على متعلَّقِه لمزيد الاهتمام ولقصد المبالغة في اختصاصهم بالعذاب الأليم.

(٢٣) المحرر الوجيز، ١/ ٩٢





والعذاب الأليم: المؤلم، صيغ على وزن الصفة المشبهة لما تفيده هذه الصيغة مع معنى الدوام والاستمرار.

ثمّ ذكر شيئاً من قبيح فعالهم وتصوّراتهم فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

وعدم إقرارهم بأنّهم مفسدون، والزعم بأنّهم مصلحون قد يكون ناشئاً عن أحد سببين:

الأول: أنّ مقاييس الفساد والصلاح عندهم مُختلّة؛ فهم يعدّون الصلاح فساداً؛ فيحذّرون منه! ويعدّون الفساد صلاحاً فيفعلونه!

وهذا مُلاحَظ مَرئيٌّ في مثل هذه الطوائف من المنافقين على مدى الأزمان، وما أكثرهم في زماننا! وما أوفرهم في بلداننا! يَسعَوْن في النكاية في الملّة وأهلِها؛ معتقدين أنّها وأنّهم سبب التأخر والتخلّف، وهؤلاء قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الانحراف؛ بحيث نكست عندهم الموازين، وعميتْ عليهم الحقائق، وزيّن لهم الشيطان سوء عملهم، وصدهم عن السبيل!

والثاني: أنهم إنّما قالوا ذلك سخرية وكذباً وادّعاءً، ونفَوا عن أنفسهم الإفساد في الأرض مع أنّه ملاحَظ مرئي؛ بدلالة نهيهم عنه، وهذا تمثيل منهم وكذب على المؤمنين، وهم في السّعاية في الإفساد وحربهم على الدين بحيث لا يتوقفون، والله من ورائهم محيط!

بلاغة أسلوب القصر

وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ هكذا مصدّراً بقولهم: "إنّما" للدلالة على الحصر والتخصيص: مبالغة منهم في ادّعاء الإصلاح ونفي الإفساد؛ فكأنّهم لا شيء من الأشياء ولا وصف من الأوصاف إلّا أنّهم مصلحون!

والتعقيب الربانيّ على قولهم هذا حاسم: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُون﴾.

وافتتح التعقيب ب ﴿أَلا﴾ المستعملة للتنبيه على مضمون الكلام، وحقيقٌ مضمونُهُ بالتنبّه، وحقيق بأن لا يُغفل عنه لخطره وأثره على الأمة وتماسكها وأدائها لرسالتها العالمية.

وتلا أداة التنبيه حرف تأكيد: ﴿إِنَّهُمْ﴾، وتلاه ضمير فصل، وهو يفيد الحصر الإضافي أو المجازي مبالغة في بيان إفسادهم، وأنّهم الحقيقون بهذا الوصف وأنّ إفساد غيرهم بالنسبة إلى إفسادهم كَـ "لا إفساد"!

ثمّ دخلت الألف واللام: ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ لبيان كمال اتصافهم بهذه الصفة المذمومة واستغراقهم فيها.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لا يَشْعُرُون﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أنّهم لا يشعرون أنّهم يفسدون، وهذا منسجم مع أحد السببين المبيّنين قبل قليل في سرِّ نفيهم عن أنفسهم الإفسادَ، وهو أنّهم يظنونه إصلاحاً؛ لانقلاب موازينهم وتنكيس فطرهم.

والثاني: أنّهم لا يشعرون أنّ الله يفضحهم ويبيِّن إفسادهم ويُبطل كيدهم، فإنّهم وإن نفوَا سعيهم في الإفساد وتظاهروا بالإصلاح؛ فإنّ الله سيفضح قبيح فعالهم ويُطلع الصف المؤمن على خبيث نواياهم وسوء طواياهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣﴾.

وهذا الصنيع منهم في مواجهة الدعوة إلى الإيمان قبيحة أخرى من قبائحهم، والسياق في تعدادها، وبيانها:





أنّهم إذا دُعُوا إلى إحداث الإيمان الحقِّ كما فعل غيرُهم من النّاس؛ رَدُّوا بنفي ذلك على أبلغ وجه؛ بأن نسبوا الإيمان الذي يُدعون إليه إلى السفهاء، ومقتضى الكلام: أنّ التشبه بالسفهاء سفاهة؛ فكيف يُدْعَوْن إليه؛ بله أن يقوموا به ويتمثلوه؟!

والقائل لهم ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ بعض المقربين منهم والمطلعين على أحوالهم من المؤمنين، ويحتمل أن يكون بعضَهم ممن ملَّ طريقة النفاق وعافَ التحيُّل والتمثيل، ورأى أنّ في صدق الإيمان والاتباع كما فعل جمهور أهل المدينة من المهاجرين والأنصار: منجاةً لهم من ذلك النفاق ومَخرجاً من مضايقه!

الاستفهام للإنكار / أغراض الاستفهام

واستعمال لفظ "النّاس" للإغراء بالإيمان والحثِّ على اتباعه؛ ذلك: أنّ أحدنا إذا وقع في قلبه أنّه إنّما يأتي أمراً اعتِيدَ واشتُهر، وأنّه ليس فرداً فيه ولا بدعاً: سَهُل عليه إتيانه ولم ينكره قلبه، وقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ردٌّ - كما ذكرت - على آكد وجه ، وذلك لأنّه استُعمل فيه الاستفهام المفيد للإنكار - مبالغة في ردِّ الطلب وبيان عدم معقوليته؛ فضلاً عن الاستجابة له.

لمسة حركية

وسَمَّوا المؤمنين: سفهاء، والسفيه: ضعيف الرأي ضعيف العقل، وهم بهذا يتظاهرون بأنّهم هم العقلاء المتفكرون الحليمون؛ الذين لم ينساقوا كما انساق عوامُّ النّاس بادي الرأي.

وما أحقّ منافقي زماننا بهذا التوصيف! أولئك الذين يتشدَّقون بهذا المنطق النفاقيّ، ويعتبرون المؤمنين من السفهاء الرجعيين ضعيفي الرأي قليلي الثقافة، والله يشهد إنّهم لكاذبون!

ويجيئهم الردّ الحاسم ببيان أنّه ليس ثمة من هو حقيق بهذا الوصف غيرهم، وأنّه مقصور عليهم، وأنّ سفاهة غيرهم بالنسبة إلى سفاهتهم: عقلٌ تامّ ومنطقٌ سامٍ!

لمسة تربوية

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مؤكد على استغراقهم في أوهامهم وكمالِ جهلهم، ذلك أنّ الجاهل إن أدرك كونه جاهلاً فقد أبرقت بوارق العلم في الأفق لتبدد ظلمات جهله، لكنّه إن كان جاهلاً ولم يدرك ذلك، بل ظنّ أنّه على النقيض الأتم منه: كان ذلك سقوطاً يصعب معه الاستنقاذ، وجهلاً مركباً يعسر معه الشفاء!

توجيه المتشابه اللفظي

وإنّما اختار الفاصلة هنا بـ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وفي الآية السابقة: ﴿لا يَشْعُرُون﴾ لمناسبة كل منهما لمضمون الآية، وذلك أنّ الآية السابقة كان الكلام فيها عن إفسادهم، وهو أمر تقع عليه الحواسّ، ويناسبه: الشعور؛ فنفاه عنهم، وهنا في هذه الآية الكلام عن اعتقادهم سفاهة المؤمنين وجهلهم بجهلهم، ويناسب هذا: العلم، فنفاه عنهم.

ثمّ عدّ قبيحة أخرى من قبائحهم متناسبة مع وصفهم بالنفاق، ومنبثقة من الوصف الأول الذي وُصفوه؛ وهو إظهار الإيمان وادّعاؤه وإبطان الكفر:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وفرقُ ما بين هذه الآية والمذكورة سابقاً في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أن الآية الأولى تصف حال إذا ما لقوا الذين آمنوا، وتصف الثانية: حال إذا ما خلوا إلى شياطينهم، فالآية تبين أنّهم ذوو وجهين، وكفى بذلك دلالة على انعدام المروءة ومخالفة حال الرجال!

وفرّق السياق بين وجدانهم المؤمنين ووجدانهم شياطينهم، فتأمل:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾؛ ذلك أنّهم ما



كانوا حريصين على لقاء المؤمنين ولا يغْشَون مجالسهم، لكنّهم قد يلقَونهم من غير قصد أو تعمد، في حين أنّهم "يخلون إلى" شياطينهم، والفعل "خلا" يُعدَّى بالباء ليفيد الانفراد بالمخلوّ به، وفي الحديث: " أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ" [٢٤]، وتعديته ب (إلى) لتضمينه معنى الأوبة والعودة والرجوع، فهم- إذاً -ينفردون ويخلون بشياطينهم آيبين إليهم راجعين إليهم، فهم يقصدونهم ويتخذونهم مآباً ومرجعاً وملاذاً! وهؤلاء الشياطين يمثلون المرجعية الدينية والفكرية والسياسية للمنافقين!

فمن هم شياطينهم هؤلاء الذين يأوون إليهم ويتخذونهم أولياء يخلُون إليهم؟

قيل: إنّهم قادة المنافقين ورؤساؤهم؛ فيكون الكلام في السياق السابق عن آحاد المنافقين! والذي أراه أنّ شياطين المنافقين هؤلاء هم اليهود، الذين حكى القرآن صوراً متعددة في غير سورة عن طبيعة علاقتهم بهم وألوان مؤتمراتهم، ويقوِّيه أنّ ذكر اليهود قريب في السورة، وسيكون طويلاً فيها، والله أعلم.

والشياطين: جمع شيطان، ويطلق على عتاة الكفر من الجن وعلى عتاته من الإنس، والظاهر هنا أنّهم عُتاته من الإنس، والمقصود بهم في الآية- قصداً أولياً-: اليهود، ويحتمل بعد ذلك كل صناديد الكفر والتآمر التي يأوي إليها المنافقون في كل زمان؛ من اليهود ومن غيرهم من أئمة الكفر!

لفتة فكرية وسياسية

وإن كان ثمة لفتة؛ فهي الإشارة إلى العلامة التاريخية والإستراتيجية بين اليهود وصَفِّ النفاق في الأمة المسلمة!

---

(٢٤) أخرجه أحمد في مسنده (ج١/ ص٢٦٩/ ح١١٤)، وقال الشيخ شعيب: صحيح



فالشياطين الذين يحفِّزون صفَّ النفاق ويدعمونه ويغرونه بالأمة هم اليهود، والمنافقون هم الأداة التنفيذية التي يحركها هؤلاء الشياطين في النيل من الأمة والوصول إلى أهدافهم عبرها.

وعلى الصف المؤمن أن يتنبّه إلى هذه العلاقة، ويفترضها ابتداء، ويأخذ درع الحذر في ملاحظة هذه العلاقة وما يدور فيها من خطط ومؤامرات.

وفرّق السياق كذلك بين أسلوب المنافقين في مخاطبة المؤمنين وبين أسلوبهم في مخاطبة شياطينهم، ففي كلامهم مع المؤمنين جاء الكلام في قالب الجملة الفعلية من غير توكيد، في حين أن كلامهم مع شياطينهم جاء في جملة اسمية مؤكّداً بالعديد من المؤكِّدات، وبيانه:

أنّهم قالوا للمؤمنين: آمنا، وقالوا للشياطين: إنّا معكم، إنّما نحن مستهزؤون.

لمسة حركية

فلعلّ نفوسهم لم تطاوعهم لتوكيد إيمانهم فقالوها وقد ضنَّت نفوسهم بها، ويمكن كذلك أنّهم جاؤوا بادّعاء الإيمان من غير توكيد لأنّها مقالةٌ لا تروج على المؤمنين بسبب انكشاف مرض قلوب المنافقين وهُزال أدائهم، فقصارى أمرهم أن يُقبل منهم ادّعاء الإيمان من غير توكيد الرسوخ فيه والتمكن منه.

لكنّهم في كلامهم مع شياطينهم أرادوا إظهار كمال اهتمامهم بمضمون الكلام، وكمال نشاطهم في بيان انتفاء الإيمان المزعوم، ولعلهم من إتقان أدائهم في ادّعاء الإيمان شّك شياطينهم في صحة بقائهم على دينهم وانتمائهم إلى شياطينهم فأكّدوا لهم صدق الانتماء والبقاء على العهد بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ استئناف بياني على الأظهر؛ جاء جواباً على سؤال مقدر يثيره قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ مع ما يُرى من



ادعائهم الإيمان، وتقديره: إذا كنتم معنا فكيف تدعون الإيمان؟ وعلى أيّ وجه وقع ذلك منكم؟ فجيء الجواب: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، والاستهزاء من الهزء وهو السخرية، والسين والتاء للمبالغة.

القصر، التعبير بالجملة الاسمية، إقحام ضمير الفصل

ومن الظواهر السياقية في الآية:

- استعمال أسلوب القصر وهو هنا إضافيٌّ للمبالغة.
- والتعبير بالجملة الاسمية المفيدة للثبات والاستقرار.
- وإقحام ضمير الفصل: (نحن)؛ لما فيه من توكيد مضمون الكلام والاهتمام به.
- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ذلك أنّ الذي يقع في ذهن السامع من حكاية حال المنافقين وتمثيلهم على المؤمنين تساؤل تقديره: فمن الذي ينتقم للمؤمنين منهم؟ ومن الذي يردّ كيدهم وسوء صنيعهم؟ فيأتي الجواب مبيناً مَن يدفع عن المؤمنين ويخزي المنافقين: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، فالله بعظمته وجلاله هو الذي يتولّى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ {الحج ٣٨}.

وإسناد الاستهزاء إلى الله تعالى في هذه الآية على طريقة المشاكلة والمقابلة، إذ سمّى صنيعه بهم وإذلالَه لهم إثر بيان قبيح استهزائهم: استهزاءً.

ويمكن أن يقال: إنّه يصنع بهم ما ظاهره الاستهزاء، إذ يملي لهم ويتركهم على حالهم وهم مكشوفون أمامه، وقد أعدَّ ما يهلكهم جزاء تدبيرهم السوء ومكرهم.

وقوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، بيانٌ لكون استمرارهم على ما هم عليه من النفاق عقوبة إثر عقوبة، وهذا ما تقتضيه عادة الله تعالى في مدّ العبد فيما رغب فيه وأقبل عليه، وقد بسطنا قبل قليل بيان هذا.

و"يمدّ" مشتقٌّ من المدَد وهو الزيادة، فالله يزيدهم في طغيانهم؛ بما تقتضيه سنته وحكمته، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ {هود ١٠٢}.

والطغيان مصدر على وزن: فُعلان، كالغفران والشكران، وهو مبالغة في الطغي، وهو الإفراط في الشرّ والكبر، ومجاوزةٌ للحدّ في أصله؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ {الحاقة ١١}،أي زاد عن الحدّ وتجاوز.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ جملة حالية، من عَمِهَ، والعَمَه: انطماس البصيرة وتحيّز الرأي.

وهذا وما بعده كالتحصيل والفذلكة لما مرّ من توصيفهم خلال الآيات، فتراهم متقلبين مذبذبين لا يقِرّون على رأيٍ ولا يطمئنّون لقرار: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ {النساء ١٤٣}.

ولّما بيّن قبيح صفاتهم عاد إلى بيان سبب عاقبتهم وسرّ أيلولة أمرهم إلى البوار والخسار، فقال:

❖ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

فالسبب إذاً هو إقبالهم على الضلالة راغبين بها زاهدين بالهدى الذي جاءهم بالرغم من شرفه وكونه من عند الله عبر كتابه الكريم: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾!

فالاشتراء للضلالة بالهدى مجاز واستعارة سائرة في القرآن؛ ذلك أنّهم لّما تركوا الهدى وهو معروضٌ لهم سهل التناول، ووقعوا في الضلالة واختاروها: شُبِّهوا بمن اشترى، فكأنّهم دفعوا الهدى ثمناً لينالوا في مقابله الضلالة راغبين!





واشتراؤهم الضلالة: حرصهم عليها وإقبالهم برغبة عليها، كحرص المشتري على سلعة يبذل في مقابلها ما يرى نفسه رابحاَ مرتاحاً! ولذلك لّما ذكر بذلهم للهدى في تحصيل الضلالة وعبَّر عنه بـ (الاشتراء) عقَّب عليه بعظيم الخسارة التي وقعت لهم ومقدار الغبن الذي وقعوا فيه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وقد سمى اشتراءهم الضلالة وبذلَهم في مقابلها الهدى تجارة، ثمّ نَفى الرّبحَ عنها على ما يسميه أهل البلاغة بترشيح الاستعارة؛ فإنَّ مرجع الترشيح إلى أن يُتبع المجاز بما يناسبه، وهو مما يزيد الاستعارة إيغالاً في معناها، ويزيدها جمالاً وبلاغة وتأدية للمعنى المطلوب.

ونفى الهدى عنهم عن طريق نفيِ "كونهم مهتدين"، وهذا أبلغ في بيان أنّهم بمعزلٍ تامٍّ عن الهدى؛ بحيث لا يصح وصفهم به في أي لحظة من اللحظات!

مثل المنافقين

ثم أتبع ذلك بذكر مثَلين يصحُّ كلٌّ منهما أن يضرب للمنافقين؛ زيادةَ توضيح لحالهم العجيب، وقد قيل: "بالمثال يتّضح المقال"، والنفس البشرية أميل إلى المحسوس منها إلى المعقول.

المثل الأول:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

المثل: الشبه، وقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ...﴾، معناه: أنّ الذي يحُصل في نفس الناظر في أمرهم كمثل الذي يحصل في نفس الناظر في أمر المستوقد ناراً على الحال المذكورة.



وقد شبّه الله حال المنافقين في إعراضهم عن الهدى، وبذلهم له في مقابل تحصيل الضلالة بحال: ﴿الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

واستوقد؛ تحتمل أن تكون بمعنى أوقد، والسين والتاء للمبالغة أو تكون السين والتاء للطلب على ما هو المعهود منها، وهو أبلغ- فيما أرى- في تصوير مدى حاجتهم إلى النار التي طلبوا هم إيقادَها؛ وإنّما يكون الطلب للإشارة إلى مزيدِ حاجتهم إليها، وكذلك كان حال المنافقين؛ الذين كانوا يطلبون الهدى -على ما يزعمون-، وينتظرون ما ينتشلهم مما هم فيه من شقاء الجاهلية وضلالها في كل باب، فلما جاءهم ما طلبوه تنكروا له وترددوا فيه؛ فكان من حالهم كما حصل لذلك المستوقد ناراً.

وكثير من الناس في زماننا على هذه الحال، يطلب التغيير وينظر للتطور والإصلاح ومحاربة الفساد، حتى إذا حصل ما أراده من ذلك عاداه ولم ينبسط له.

وقد يقع في ذهن أحدهم ملاحظة كون المشبه: "المنافقين"، وكون المشبه به: "الذي استوقد"، وأولئك جمع وهذا مفرد، والجواب أن يقال:

إنّ حال كل واحد من المنافقين كحال ذلك الذي استوقد ناراً، أو يقال: إنّ المقصود تشبيه حال المنافقين بصورة ذلك المستوقد؛ وهو تشبيه تمثيل؛ لا يُنظر فيه إلى أفراد التشبيه، وإنّما إلى صورته المركبة.

التعريف والتنكير

والتنكير في "ناراً" للتعظيم، فكأنّه قال: مثل المنافقين كمثل الذي استوقد ناراً عظيمة؛ كان من شأنها أن تنير له الطريق وتبدد له الظلمات، وهي والله كذلك! إنه أمر انكشاف الحق ومجيئه، وتبين الصواب وهو زهوق الباطل، جاء ذلك كله في القرآن الكريم؛ الذي تركوه ليجدوا أنفسهم بلا نور!



وقد حصل لذلك المستوقد أن أُوقدت له النار التي كان يحتاجها، لكنّها ما إن أوقدت حتى ذهب الله بنورها، وترك ذلك المستوقد بلا نور في الظلمات؛ لا يبصر شيئاً!

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾:
بعد طلبه إيقادَ النار أضاءت ما حوله وبدَّدت ظلماته؛ لكنّها إثر إضاءتها انطفأت، ولم يَستفد منها شيئاً!

و"لمّا" أداة وجود لوجود: لما وُجدت إضاءةُ النار وُجد معها ذهاب بالله بنورهم، وههنا نكتتان:

- **الأولى**: أنّه قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ والباء لتعدية الفعل "ذهب"، كقولي: أَذْهَب، وفرق بين " أذهب" و "ذهب به"، من حيث إن «ذهب به» أبلغ في تعدية الفعل، فكأنّه استصحبه معه وأخذه ومضى، فكيف السبيل من بعدُ إلى تحصيله؟!
- **والثانية**: أنّ الذي ذهب الله به من النار إنّما هو النور دون غيره، فسُلب؛ وبقي لهم منها ألسنةُ اللهب وإيذاءُ الدخان وغيره.

وتقرير هذا التمثيل بعبارة ابن عاشور:

"وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين في ترددهم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر، فوجه الشبه هو ظهور أمرٍ نافعٍ ثم انعدامه قبل الانتفاع به، فإنّ في إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته، لأن للإسلام نوراً وبركة، ثمّ لا يلبثون أن يرجعوا عند خلّوهم بشياطينهم، فيزول عنهم ذلك ويرجعوا في ظلمة الكفر أشد مما كانوا عليه"[٢٥].

(٢٥) تفسير التحرير والتنوير، ١/ ٣١٢



وقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، تقريرٌ لمعنى ما سبق من ذهاب الله بنورهم؛ لأنّ من ذهب الله بنوره بقي في ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاحِ الحالةِ التي صار إليها المنافقون؛ "فإنّ للدلالة الصريحة من الارتسام في ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية"، وقد علم السامع أنّ الله ذهب بنورهم لكنّه قد يذهل عن الحال التي استقر عليها المنافقون، وهي شرُّ حال!

وجمع "ظلمة" في قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ للمبالغة في بيان العماية التي يتخبطون فيها.

حذف المفعول / الحذف

وفعل "يبصر" في قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فعل متعدٍّ في الأصل، لكننا نرى مفعوله في الآية محذوفاً، فما سرُّ حذف المفعول ؟

في مثل هذه الحالة أمامنا توجيهان:

- **الأول**: أن نقول: يحتمل أن يكون الفعل متعدياً- على أصله-، ويكون المفعول محذوفاً بقصد التعميم؛ والتقدير: لا يبصرون شيئاً البتة، وهذا دالٌّ على عظم عِماية المنافقين وفقدانهم التمييز.
- **والثاني**: أن نقول: يحتمل أن يعامَل الفعل المتعدي معاملة الفعل اللازم؛ ويكون المعنى: أنّهم فقدوا الإبصار نفسه، وهو أبلغ كذلك في بيان فقدانهم التمييز وإيغالهم في العماية لكونهم فقدوا حاسة الإبصار أصلاً، والعياذ بالله!

عدم انتفاع المنافقين بما أنعم الله به عليهم من الحواسّ

- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾.

أخبار متعددة لمبتدأ محذوف، والتقرير: هم صمٌّ بكمٌّ عمي، وهو وصف للمنافقين الذين تسرد الآيات قبائحهم وصفاتهم، وهذا من حذف المبتدأ وهو يفيد الذم في مثل هذا السياق.





والصمم: تعطّل حاسة السمع، والبَكم: تعطُّل النطق، والعمى: تعطّل حاسة البصر، والمقصود: أنّ عدم الانتفاع بهذه الحواسّ في الإرشاد إلى الصواب والاستدلال على الحق جعلها بمنزلة المعطلة المفقودة أصلاً.

لمسة تربوية

ومن اتصف بهذه الصفات، لا ينتفع بسمع ولا بصر، ولا ينطق بحق: حريٌّ أن لا يرجع عمّا هو فيه من الكفر والضلال، إذ كيف له أن يدرك أنّه في طريق الهلاك وقد فقد كلّ سبيل لعلم ذلك؟!

المثل الثاني:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

هذا المثل الثاني الذي ضربه الله تعالى للمنافقين لبيان ما هم فيه من التردد والخوف وإظلام النفس وقلقها.

والمعنى: أنّ مثلهم كمثل الذي استوقد أو كفريق من النّاس ذوي صيِّب من شأنهم ما يأتي بيانه، وبكل من المثلين يمكنك أيّها السامع أن تشبه حالهم.

والصيّب: المطر الشديد النزول: "المصبوب من المطر" بعبارة الراغب[٢٦].

وتقييده بكونه من السماء، وإن كان المطر لا يكون إلّا من السماء للتنبيه على أنّه من جميع أقطار السماء؛ كما أشار إلى ذلك الزمخشري[٢٧]، وإمّا للإشارة إلى علو السحاب الذي ينزل منه المطر، والمطر إذا كان هذا حاله كان أسرع انصباباً وأشدّ هطولاً، والله أعلم.

(٢٦) مفردات ألفاظ القرآن،٣٠٥

(٢٧) تفسير الزمخشري، ١/ ٨٢.



ومثل هذا يسمونه: (بديهات القرآن)، أي القيود المفهومة التي يظن أنه لاداعي لها، من مثل قول الله: (ولا طائر يطير بجناحيه) ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه، وكقوله: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ومن المعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد، فيوجه حُذَّاق المفسرين مثل هذه البديهيات، ويبينون ما فيها من البلاغة.

وهذه العاصفة المطرية الشديدة فيها ظلمات؛ هي ظلمة الليل وظلمة السحاب المرتفع الحاجب لأنوار النجوم والقمر وسائر الكواكب المتلألئة في السماء، وفيها رعد وبرق، وهما معروفان، فالرعد: ذلك الصوت المفزع الناتج من اصطكاك السحب الكبار، والبرق: ذلك الضوء المتولد نتيجة ذلك، والتعليل العلمي للظاهرتين اليوم واضح معروف.

والصورة التي ترسمها الآية دقيقة الملامح ترسمها الكلمات في ذهن السامع للقرآن؛ فهي ليلة شديدة الظلمة شديدة المطرِ المنصبِّ بسرعةٍ وكثافة، يتخلَّل ذلك: المطرَ رعدٌ وبرقٌ شديدان.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

هؤلاء القوم السائرون في خضمّ العاصفة المطرية: يأخذهم الرعد والبرق كل مأخذ، فالرعد يكاد يمزّق أسماعهم ويذهب بنفوسهم؛ فلا يجدون إلّا أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم هروباً من سماعه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

والبرق: يكاد يذهب بأبصارهم من شدة لمعانه؛ لكنهم إن لمع البرق أفادوا منه لحظة ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ وما إن تنتهي لمعة البرق التي بدأت للتوّ حتى يَثْبُتوا في أماكنهم غير قادرين على الحراك للظلمة الدامسة وخفاء الطريق: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

ولو شاء الله أن يسلبهم السمع بالرعد والبصر بالبرق لفعل سبحانه: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.





إذاً؛ هذه هي الصورة التي شبهت حال المنافقين بها، ويمكن أن نجعلها على طريقة التشبيه التمثيلي المجمل، بأن نقول: شبّه حال المنافقين في ترددهم وضلالهم وقلقهم الدائم بحال هؤلاء القوم الذين من حالهم ما ذكر وفُصّل، وهو حال شديد الريبة والخوف والقلق.

وأفضل أن نحلّل التركيب الحاصل في صورة المشبَّه به، وهم القوم ذوي الصيب، ونقابل بين كل جزء من أجزائها وبين ما يشابهه من حال المنافقين، وقد اختلفت عبارات المفسرين في ذلك، والجمهور على أن الله تعالى في الآية قد مثَّل القرآن بالصيِّب لما فيه من الإشكال عليهم، وشبه العمى الذي هم فيه بالظلمات، وشبّه ما في القرآن من الوعيد والزجر بالرعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد تبهرهم بالبرق، وشبّه تخوَّفهم ورَوعهم وحذَرَهم بجعلهم يضعون أصابعهم في آذانهم، وشبّه فضح نفاقهم واشتهارَ كفرهم بالصواعق، كما جاء في المحرر الوجيز[28].

وهذا التمثيل القرآنيُّ البديع يُظهر خلجات نفوس المنافقين ويبيِّن خفايا مشاعرهم لمن تأمل.

تنزيل واقعي

وهو يدلّ على شقاء المنافق وضنك حياته وخوفه الدائم، ومن ثم تأذّيه مما ينتفع به الناس! فإن الناس ينتظرون المطر ويهِشُّون له، ويحتمُون من رعد العاصفة وبرقها وصواعقها في بيوتهم، في حين يحصل للمنافق من الخوف والجزع والتأذي من ذلك الكثير الذي يوشك أن يقتله!

ومن تأمل حال منافقي زماننا الذين نراهم بأعيننا من قليلي الثقة بدينهم، كثيري الثقة بأعداء دينهم يرى فيهم هذا المثال رأيَ العين، ويدرك مدى حيرتهم وترددهم وخوفهم وخذلان الله لهم، فإنهم لا

(٢٨) المحرر الوجيز،١/ ١٠٢





ينتفعون بدليل ولا يرون برهاناً، ألسنتهم مع الأمة وأفعالهم مع أعدائها.

وإلى هنا ينتهي الحديث عن المنافقين، بعد جولة من التعرية لما يخفونه من عورات طبائعهم وأخلاقهم، وتوضيح دقائق مشاعرهم وخلجات قلوبهم.

المقطع الرابع
دعوة الناس جميعاً إلى الإسلام

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ {البقرة}.



التمهيد والمناسبة

لمّا بيّن أقسام النّاس وصفات كلِّ قسم منها، وكان فيها معنى المدح للمؤمنين، والقدح والذم للكافرين والمنافقين: ناداهم جميعاً وأمرهم بعبادة الله تعالى وإخلاصه له دون سواه رجاءَ تحصيل التقوى التي اتصف بها المنتفعون بالكتاب؛ كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والخطابُ لكلٍّ من الأقسام الثلاثة باعتبارهم جميع الخلق من المكلَّفين؛ كلٌّ بما يناسبه، فإنّه من المناسب خطاب كلٍّ من المؤمنين والكافرين والمنافقين بهذا الخطاب وأمثاله، فالمؤمنون يؤمرون بذلك الخطاب: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لأجل الثبات عليه والاستمساك به وبمقتضياته.

والكافرون والمنافقون يخاطبون به للإقلاع عن شركهم ولإخلاص العبادة له دون سواه.

وإنّما حسُن خطابهم بهذا بعد ما مضى- وفيه ما فيه من تعداد سوء صنيعهم وقبيح ما قابلوا به القرآن الذي أنزله الله لهدايتهم-: لما في خطابهم بذلك من تأنيس لنفوسهم بعد التهديد واللوم، ليعلموا أنّ الإغلاظ السابق لهم ليس إلّا للحرص على منفعتهم وصلاحهم، كما يفعله المربيّ الناصح حين يزجر أو يوبخ، فيرى انكسار مُربَّاه؛ فيجبر خاطره بكلمة لينة وعطية يستجلب بها أوبته إلى الصراط وإقلاعه عن قبيح الصفات.



تقعيد فكري وتوجيه دعوي

وكذلك فيه إشارة واحدة إلى عالمية هذا الدين ووجوب أن يتوجه الدعاة به إلى العالمين على هذا النسق القرآني من الحرص على هدايتهم؛ ويقع اليوم إشكال عند الدعاة يتعلق بهذه النقطة المركزية في فهم الدعوة، وهو أن كثيراً من الممارسات الدعوية تدل على أن أصحابها لم يفهموا حقيقة الإسلام وعالميته، فترى بعضهم يقتصر في توجيه خطابه الدعوي على جزء من الأمة؛ على حزبه مثلاً أو جماعته، ثم لا ترى في خطابهم العام ما يتوجهون به إلى الأمة كلها أو عمومها فضلاً عن أن يتوجهوا به إلى العالم، وهذه مثلبة خطيرة ولوثة تشكل خطراً على المستقبل الإستراتيجي للإسلام.

إن هذا الدين يحمل رسالة للعالمين، وحمل هذه الرسالة كما هي في مضمونها وفي إطارها المستهدف هو أمانة في أعناق المسلمين وعلمائهم.

وكذلك ثمة إشكال آخر؛ لذكره هنا مناسبةٌ، ذلك أن الحرارة الدعوية التي ترى فيها الحرص على المدعوين في الخطاب القرآني لا تجد ما يناسبها في خطاب كثير من المنتسبين إلى الدعوة، حيث يمارسونها دعوة باردة خالية من الحرص على المدعوين، تملؤها الحماسة لإدخال الإيمان في قلوبهم واستجلابها إلى الدين، وهاتان نقطتان حريٌّ أن يُتنبه إليها.

⟵ التفسيـــر ⟶

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

افتُتح المقطع بنداء الناس جميعاً لأمرهم بعبادة الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، و﴿يَا﴾ النداء تستعمل لنداء البعيد، وقيل: للبعيد والقريب، واستفتاح خطاب الناس بها لاسترعاء انتباههم ولفتهم إلى ما في حيّز النداء من الأمر بعبادته وما تلا ذلك.

والأمر بعبادة الله تعالى أمر بالخضوع لمنهجه والاستسلام لشريعته، والاعتراف بألوهيّته، مع نزع الآلهة المدّعاة، ونبذ المناهج المخترعة، وإنّما عبّر بعنوان الربوبية المضاف إليهم: ﴿رَبَّكُمُ﴾ لاستدعاء إجابتهم، وتذكيرهم بالإقرار والاعتراف بروبيته، وإقرارُهم بربوبية الله وتصرّفه، وأنّه الخالق الرازق: مقتضٍ الإيمان بألوهيّته، وأنّه المستحق للعبادة لاعتبار أنّه الذي خلق ورزق، وأنّه الذي يضر وينفع ويحيي ويميت، ولذلك قال في وصف الرّب المأمور بعبادته: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهذا الوصف له سبحانه كالتعليل للأمر بعبادته، وخلقُهم: نعمته الأولى التي أنعمها عليهم وبقية النعم تابعة لها مترتبة عليها.

وإنّما ذكر خَلْقَه سبحانه للذين من قبلهم للتنبيه على أنّ عبادة الله دون سواه ليست بدعة فيهم، وفيه كذلك من تحذيرهم من حذوِ خطوِ آبائهم الذين خلقهم فأشركوا به، فكأنّ الكلام فيه إلماحٌ إلى دعوتهم لاطّراح تقليد آبائهم الذين أشركوا مع اعتقادهم أنّ الله خالقهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فيه التنبيه على أنّ بلوغ منزلة التقوى لأجل التأهُّل للانتفاع بالكتاب الذي هو هدى للمتقين: إنّما يحصل بإخلاص العبادة لله، والتوجه له دون سواه، وصدق عبادته سبحانه، وبيانه:





أنّ (لعل) حرف للترجّي، والترجي: توقُّع الحصول وقربه، والترجي هنا ليس في حقِّ الله تعالى لاستحالته عليه، فهو علام الغيوب! وإنما في حق العابدين، فالعابدون على رجاء الوصول إلى التقوى، واستعمال: (لعل) هنا للإشارة إلى أن من شأن العبادة والخضوع والانكسار لله أن تُنبتَ التقوى في القلب، ومن شأن العقلاء أن يحرصوا على تحصيل هذه المنزلة.

وفي الآية كذلك:

لمسة تربوية

أنّ التقوى تُصنع وتُنمّى وتُتعاهد، وأنّ السبيل إلى ذلك: عبادة الله تعالى واستشعار الخضوع له والاستسلام، ومثل هذا ما جاء في السورة نفسها من قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ {البقرة}، فدلّ على أنّ الدخول في عبادة الصيام من شأنه أن يصنع التقوى في القلب وينميَ شجرتها.

نِعمُ أخرى تستلزم التوحيد وإفراد العبادة:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

عدّدت الآية نعم الله الكبرى على الإنسان بعد ذكر النعمة الأصل؛ وهي الخلق، والخلق هو الإيجاد، وما في هذه الآية من النعم هو ما تستمر به حياة الإنسان وتستقر، فجمع الله في الآيتين بين نعمتي الإيجاد والرعاية.

وذكر هذه النعم إنما هو في سياق تعليل الأمر بعبادة الله، فإنّ مَن كانت هذه نعمُه كان حقيقاً بأن يُعبد دون سواه!

وجعْل الأرض فراشاً هو جعلُها مهيئةً لحياة الإنسان؛ كالفِراش الذي يستقرُّ عليه المرء ويضطجع، وجعل السماء بناءً؛ كالبناء الذي يقي الساكن فيه ممّا حوله من أحوال السماء من مطر وحرٍّ وريح وغيرها، وكذلك هي السماء بالنسبة إلى الأرض وساكنيها، وفي البحث العلمي عن أسرار هذه الكلمة كثير مما يحسن الوقوف عليه، ونُحيل على المظانّ خوف الإطالة.

وذَكَر السماء والأرض لما أنّهما أقرب المخلوقات التي يراها الإنسان وتظهر له، وبدأ بالأرض لمباشرة الإنسان لها، ولما فيهما مما يعلمه الإنسان من منافع له؛ فتقوم الحجة بذلك عليه.

ولمّا ذَكَر السماء ذَكَر أعظم ما ينتفع به الإنسان منها: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ إذ بهذه النعمة المُسداة تستمر حياة البشر وتستقيم، وفي سياقة هذه النعمة بهذا التركيب القرآني البليغ إشعارٌ بأنّ تسخير هذه السماء العظيمة وتلك الأرض إنّما هو لمنفعته وخدمته: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، والسماء هنا بمعنى السحاب، وقد مر في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثمَّ لّما ذكر ما امتنّ به عليهم من كل ذلك رتَّب عليه أمرهم بتجريد العبادة له ونزع الأنداد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وجاء هذا النهي في موضع بليغ، فمَن من الأنداد المدّعاة قد أنعم على الإنسان نعمة واحدة فضلاً عن هذه النعم الكبيرة التي تتعلق بإيجاده واستمرار حياته؟

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه زيادة تقبيح لحالهم إذ يتّخذون تلك الأنداد عالِمين بكمال نعمته ووجوب توحيده، وعالِمين بعجز الأنداد وفراغها عن الألوهية بكل معنى!

والأنداد: جمع ندّ، وهو المثيل المكافئ، وقيل: المناوئ.

والمتدبر للقرآن إنْ ما استحضر تلك النعم العظمى عليه وعلى بني جنسه تساقط من صدره كل ندّ، وخلا قلبه إلّا من تعظيم الله تبارك وتعالى.



تقعيد فكري

وقد احتوت الآيتان على نوعي الدلالة على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته؛ وهما:

- دليل الإيجاد؛ المذكور في قوله: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.
- دليل الرعاية أو دليل النظام؛ الذي يَستدلّ به المؤمن على الملاحدة بنظام الكون الشديد الإحكام، وبتهيئته لاستقبال الإنسان: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

بيان إعجاز القرآن لهم، وإقامة الحجة عليهم

كانت الآيات السابقة دعوة صريحة لاتباع الدين الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإقلاع عن سلوك طريق مناهضته صراحة؛ كما فعل الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾، أو في الباطن دون الظاهر؛ كما فعل المنافقون: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، ولمّا كانت الدعوة إلى ذلك تستلزم "معجزةً" تدلّ على صدقها: عرّج على ذكر تلك المعجزة، وبيّن سلامتها من المعارضة وكمال دلالتها على ما جاءت لتدل عليه؛ فقال:

- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾.

ولا تنسَ - أيّها الفطن المتدبر - مناسبة هذه الآية لقوله في بداية السورة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾؛ فإنّه نفى الريب عنه هناك، وهنا لمّا قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ فجعل احتمال كون الريب عندهم لا



عنده: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أنتم لا القرآن ﴿فِي رَيْبٍ﴾، فنزه ساحته عن كل ريب، وإنّما يتعلق الريب إن وجد بهم لا به!

وعبّر عن القرآن بـ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ تأكيداً على أنّه تنزيل الله سبحانه، وأنّه من لدنه لا من لدن غيره، وهذا مناسب لوصف النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية في هذا المقام، فالكتاب ليس من عنده إنما هو من عند الله، وهو صلى الله عليه وسلم محلُّ تنزيل القرآن والمأمور بتبليغه وبيانه ليس إلا!

وما أبلغ ضمير التعظيم "نا" في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إذ جاء بعد تعداد عظيم النعم التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يجرؤ على ادّعائها أحد أصلاً لعظمتها؛ ابتداءً من الخلق؛ وهو الإيجاد من العدم، إلى جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً، وإنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من إخراج الثمرات.

ثمّ إضافة العبد إلى ضمير التعظيم العائد إلى الله:﴿عَبْدِنَا﴾ الذي فيه من التشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى الرب العظيم المتصف بما ذكر.

وهذا كله شرط، وجوابه: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، وقد أنصف القرآن في جدلهم وإقامة الحجة عليهم، بأنْ أَمَرهم أولاً بالأمر الذي تدور عليه رحى الرسالات: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، ثم وصف الرب بما من شأنه بيانُ استحقاقه للألوهية وإفراده بالعبودية: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ثمّ بيّن لهم الدليل الواضح على رسالة عبده صلى الله عليه وسلم؛ وهو المعجزة القرآنية، الدالّة على ربانيته وصدق دعوى الرسول فيه.

ووجه التحدي بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وهو الغاية في إظهار عجزهم عن الإتيان ولو بسورة واحدة من مثله.

وليست هذه الآية الأولى في تحدّيهم؛ بل هي آخر ما نزل في هذا الشأن مقرِّرَاً غاية عجزهم ومنتهى استسلامهم في مواجهته، وقد نزل من قبلها من الآيات في القرآن ما تُحدّوا به، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ {الاسراء ٨٨} وكان هذا تحدياً لهم





بالإتيان بمثل القرآن، ثمّ تنزَّل فتحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله فحسب، قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ {هود ١٣} وكذلك هنا في سورة البقرة، وهي آخر ذلك نزولاً، إذ كل ما سبق من الآيات مكيّ، ولعلّ إدخال "مِن" في قوله: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ لإفادة التقليل، فكأنّه تنزّلٌ زائد عما ورد في سورة يونس، وهو قوله: (بسورة مثله)، والله أعلم.

وفي الآية الإشارة إلى أقل ما وقع به التحدي، أو ما يسميه بعض العلماء بالمقدار المعجز من القرآن، وهو سورة واحدة كما تنطق بذلك هذه الآية، وأقصر سور القرآن: الكوثر، ولذلك قال أهل العلم: إنّ أقل مقدار وقع به التحدي لهم هو بمقدار سورة الكوثر طولاً.

ثمّ إنّهم على كل ذلك التّنزل لم يجدوا هذا السبيل في معارضته أسهل من خوضهم الحروب؛ التي سفكت فيها دماؤهم، وطاحت عروشهم، وقتل أكابرهم ووجوههم، فدلَّ ذلك على عجزٍ تامٍّ أمام هذا النص القرآني المعجز الفريد سجله القوم للتاريخ، لينطق في ذلك كلُّ جيلٍ بَعدُ بعلوِّ رتبة هذا القرآن العظيم، وبلوغِه مبلغاً أعجز فرسان البلاغة في أعلى ما وصلت إليه رتبتها فيما عرفه البشر.

وقد بولغ في إظهار عجزهم بأن دعاهم أن لا يكتفوا في محاولة الإتيان بسورة واحدة من مثله بأنفسهم وبإمكانياتهم المحليّة، بل أفسح لهم أن يَدْعوا - كما في آية سورة الإسراء- من استطاعوا من الإنس والجنّ.

وقال هنا: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، والشهداء هم الذين يحضرون معهم ويشهدون محاولتهم ويشاركونهم فيها، فكأنّها في معنى آية الإسراء السالفة.

ويحتمل أن يكون المقصود أنّكم إذا عارضتم القرآن بشيء فأتوا أنتم من طرفكم بمن يشهد بذلك، ويحكم لكم أنّكم فعلتم ذلك واستطعتموه، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما زعمتموه من الريب.





استحقاقات التحدي

ثمّ جاء بيان استحقاق عجزهم إن هم عجزوا عمّا تحدّاهم به، وأخبر على سبيل القطع بأنّهم سيعجزون؛ إخباراً بالغيب وقطعاً لوهمِ أي متوهم باستطاعة البشر الإتيان بسورة واحدة من مثله:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فاستحقاق عجزهم هو التسليم بصدق دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وبربانية القرآن، وهو الذي عُبّر عنه باتقاء النار، إذ اتقاؤها ما هو إلا بالانقياد لمقتضى الكتاب الهادي للمتقين، وهذا جرى على طريقة المجاز المرسل، وما أروع هذا المجاز! إذ أقام اتِّقاءهم للنار مقام إيمانهم وانقيادهم؛ لِهَزِّهم وبيان خطورة التخلّف عن مقتضى الاستحقاق.

ووصْف النار بأنّ وقودها: الناس والحجارة؛ فيه مزيد تخويف وتحذير، وتسويةُ الناس- وهم الكفار الذي لم يتقوها- بالحجارة، فيه تسفيه لعقولهم بحيث استووا مع الحجارة في كونهم مجرد وقود تسعّر به تلك النار العظيمة، وقد أُعدَّت إعداداً مناسباً لجرم الكافرين وعنادهم لدعوة الله ومقاومتهم لدينه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

ما ينتظر المؤمنين بذلك الكتاب:

ولّما ذكر عاقبة الكافرين بالكتاب، الناكصين عن الإيمان به والتسليم بمقتضى الحجة والبرهان: ذكر أضدادهم في ذلك، وهم المؤمنون به، المنتفعون بهداه، فقال:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

والخطاب في الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من يصلح له الخطاب من بعده.

والآية فيها عظيم البشرى التي تنتظر المؤمنين بما أعدّه الله تعالى لهم، وفيها استحبابُ تغليبِ التبشير عند خطاب المؤمنين العاملين للصالحات، وإفراحِهم بما ينتظرهم عند الله تعالى جزاءَ أعمالهم، فتقوى بذلك قلوبُهم وتشتدُّ هممهم في إتمام الطريق والموافاةِ على المنهج، ويحبُّون لقاء الله لتحصيل الموعود؛ فيحبُّ الله لقاءهم.

والمبشَّر به: الجنات التي تجري من تحتها الأنهار- من تحت قصورها وأشجارها-، وهذا في مقابل النار التي أعدت للكافرين؛ فشتّان ما بين المقامين!

وذكر من أحوالهم العجيبة أنّهم: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف زمان أُشرب معنى الشرط، وذلك مقتضٍ أنّ الوصف الآتي هو ديدن حالهم؛ ذلك: أنّها تُقدَّم في كل مرة بطعوم مختلفة تُنشئ في نفوسهم العجب، والشيء العجيب لذيذُ الوقع عند النفوس، وقولهم: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يحتمل: أنهم رُزِقوه من قبلُ في الجنة، وتتجدّد طعومُ ثمراتِهم مع اتحاد شكلها في كل مرة من المرات.

ويحتمل: أنهم يشيرون إلى ما رُزقوه من قبل في الدنيا، وقد قال في الآيات السابقة: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وهنا قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾، فلعلّها شبيهة من حيث الشكل بثمرات الدنيا، مع اختلاف طعومها كما اختلاف الدنيا والآخرة، وما أعظمه من اختلاف!

لكن مشابهتها لثمرات الدنيا لإيناس نفوسهم، والنفسُ آنسُ بالمألوف خصوصاً ما يتعلّق بالطعام.

وقوله: ﴿وَأُتُوا﴾ بالبناء لِمَا لمْ يُسمَّ فاعلُه، للإشارة إلى أنّ القوم مخدومون مُكرمون، نسأل الله من فضله.

وهذا ما بشَّرهم به من السُّكنى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وما بشرهم من علوِّ مرتبة المطعوم وتجدد لذته: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾، وبقي تبشيرهم بالأزواج: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يعني مطهّرةٌ من ذميم الأخلاق والطباع، ومن الحيض وغيره، وكذا تبشيرهم بأنّ هذا النعيم ليس إلى زوال؛ بل هو نعيم مقيم ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فيخالف نعيم الدنيا من كل وجه، والموفق من أورثه الله ذلك:





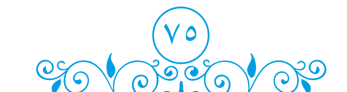
﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، نسأل الله من فضله.

المقطع الخامس
عناد الذين كفروا أمام آيات الله الكبرى

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ } ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

التمهيد والمناسبة

قد يبدو لأول وهلة انقطاع السياق هنا،؛ لكنّه مع قليل من النظر يبدو الاتصال جليّاً؛ ذلك أنّ الله قد عظَّم من شأن كتابه ونفى عنه كلّ شائبةِ ريب، وكان من قبل ذلك قد ضرب الأمثال في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وفي قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾، وإنّ الضُّلّال من المشركين والمنافقين واليهود لمّا عجزوا عن مجاراة القرآن وبَانَ عجزهم لجؤوا إلى طريق الطعن في معاني القرآن، وكان ممّا قالوه: الله أعلى وأجلُّ من أن يضرب هذه الأمثال، ولعلّ بعضهم - كما يظهر من روايات أسباب النزول - قد ذكر ضرب الله العنكبوت والذباب مثلاً - كما في سورتيّ العنكبوت والحج-، فجاءت هذه الآيات في هذا المقام المناسب للرد عليهم، وبيان اعتراضاتهم إنما هي محض عناد؛ لا ثبات لها أمام الأدلة القاهرة على وحدانية الله وقدرته، والله أعلم.



التفسير

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

افتتحت الآية بحرف التوكيد لدفع التوهم الذي قد ينشأ من شبهة أولئك المجرمين المضلّين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، والمعنى: إنّ الله لا يستنكف، وقيل: لا يخاف، والمقصود: أنّ كلّ ذلك من مخلوقاته، وهو لا يستنكف أن يضرب بها مثلاً، فالمقصود من المَثل في العموم: براعةُ معناه ودقةُ مبناه بما يحقق الغاية البليغة التي يبلغ بها إلى القلوب، وأيّما مَثل أدّى هذا فإنّ الله لا يستحيي ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، و ﴿مَّا﴾ تتصل بالفكرة فتؤكد معناها من تنويع أو تفخيم أو تحقير، و﴿بَعُوضَةً﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿مَثَلًا﴾، وهو واضح فتأمل.

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ يحتمل معنيين: الأول: فما فوقها في الكبر والزيادة، والثاني: ويحتمل: فما فوقها في الصغر والخِسَّة، والأظهر الأول، لما أنّ البعوضة يُضرب بها المثل في الصغر والوضاعة؛ فلا جرم حَسُن أن تُجعل الحدَّ الذي يَبدأ منه لا الذي ينتهي إليه.

وأمام هذه الأمثال القرآنية البليغة ينقسم الناسُ فريقين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ولذلك لمّا استعدوا للانتفاع بالكتاب الذي لا ريب فيه زادهم إيماناً بأنّه من عند الله، وأبصروا فيه مواطن الحق ومرامي البلاغة والمعاني الفخيمة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فلم يهتدوا إلى ذلك، وازداد ضلالهم وتردّدوا في حيرتهم، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ {الإسراء ﴿٨٢﴾}.





وهذه الأمثال في القرآن كنزٌ اهتمّ به العلماء وصنفوا فيه مصنفات مستقلة، كما فعل ابن القيم رحمه الله، وعُني به السلف حتى قال بعضهم: إذا سمعتُ المَثل في القرآن ولم أفهمه بكيتُ على نفسي، لأن الله تعالى قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت ٤٣]، وهذه الآية موافقة لما في آية البقرة التي نحن بصدد تفسيرها، فإنّ الذين كفروا حاروا ولم يهتدوا إلى مقصود الله تعالى من ضرب المثل: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟

وفي هذا:

الحثُّ على الاعتناءِ بفهمِ الأَمثال في القرآن والتفكّر فيها.

وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ تبين الآية اختلاف الناس في تلقي القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وهذا الكتاب كتاب هدى؛ كما قال في أول السورة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولكنه في الوقت ذاته- ولله الحكمة البالغة- يّضلُّ به أقوام ممن لا خلاق لهم: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، وإنّما ضلوا به لأنّهم لم يتلقَّوْه تلقيَ الباحث عن الحق المستعدّ لقبوله، وإنّما تلقوه تلقيَ المعاند المنتصر لهواه، المستعلي على الله!

هذا، ويحتمل أن يكون هؤلاء الفاسقون- الخارجون عن أمر الله- المعترضون على المثل من قريش أو من المنافقين أو من اليهود، ولا يمتنع أن يكونَ كلٌّ منهم قد ذَكَر نوعَ هذا الاعتراض، وإن كان يغلب على ظنّي أنّه من وحي اليهود وتدليسهم على الحق، ويدلُّ عليه أن هذا الاعتراض على المثل: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ من الاعتراضات التي تدل على عدم فهم الكلام العربي وعدم إدراك مرامي المثل! وقلةُ علم اليهود في العربية وسطحيةُ تذوقهم لها، وضعفُ عقولهم ومحدوديتُها ترجح لنا هذا الرأي، ولما أنّ وصف الفاسقين وما تلاه، وإن كان يصدق على المنافقين فإنّه يصْدق كذلك على اليهود، وقد كانوا معاً حِلْفاً؛ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً!



أبرز سمات هؤلاء الفاسقين من اليهود والمنافقين:

✤ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۝٢٧﴾.

هذه صفات ثلاثةٌ ذكرتها الآية لأولئك الفاسقين، ولعلها أهمُّ موانعِ انتفاعِهم بالقرآن والحيلولةِ بينه وبين قلوبهم:

✤ ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾:

هذه الصفة الأولى من صفات الفاسقين الذين لا ينتفعون بكتاب الله الذي ينتفع به المتقون، والنقض: ردُّ ما أُبرم على أوّله غيرَ مبرم، وعهْد الله: ما عَهِد به وأوصى، والميثاق: من الوثاقة وهي الشدّ في العقد والربط ونحوه، فهو تثريب عليهم بأنّهم يردّون مواثيق الله تعالى بعد توكيدها، ولا يقيمون لذلك وزناً، وهو دالٌّ على رقة الديانة وعدم قدْرِ الله تعالى حقّ قدره، وقد أضيف العهد إلى اسم الله صراحة: ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾؛ بياناً لجرأتهم وقلة اكتراثهم في جنب العظيم؛ الذي من شأنه أن يُهاب وتُراعى مواثيقه.

✤ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾:

قال بعضهم: هي الأرحام التي أمر الله بوصلها فقطعوها؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، والصحيح: أنّ الأرحام جزء ممّا أمر الله به أن يوصل، واللفظُ شاملٌ لكل ما أمر الله تعالى به من الدين.

فهُم - إذاً- كما أَخبرتِ الآية يضادّون مقصود الله ويعارضون شريعته، فما أجرأهم!

✤ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾:

شامل لكلّ أنواع الإفساد؛ من إفساد المعتقد إلى إفساد الأخلاق والاقتصاد وغيره، ومن نَظر في أحوال اليهود اليوم وقيامهم على هذا في الأرض، وإلى حال أوليائهم من المنافقين رأى تفسير الآية بعينيه، ولم يحتجْ إلى النظر في الكتب لتفسيرها!

التعبير بالفعل المضارع / دلالة استعمال الفعل والاسم

لمسة حركية

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

واستعمالُ الفعل المضارع في كل ذلك: (ينقضون، يقطعون، يفسدون) للدلالة على أنّ هذا ديدنهم ودينهم، وأنّهم لا ينفكّون من نقض وقطع وإفساد بعد إفساد، فالفعل المضارع في مثل هذه المواطن لإفادة التجدد والحدوث.

وختم الآية بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، نعم؛ قد يَحسب هؤلاء أنّهم رابحون فيما تقترفه أيديهم، ناجحون فيما يحيكونه من مؤامرات، والآية تبيّن لهم أنّهم الخاسرون حقاً إذا عُدَّ الخاسرون، ولذلك استعمل أسلوب القصر: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لا غيرُهم، وهو قصر مجازيّ، فإنّه قد يكون ثمة خاسرين آخرين، لكن هؤلاء هم الأبرز وهم الحقيقون بذلك الحكم الفاصل والقرار الحاسم!

وقد يتوهم المؤمن وهو يرى مؤامراتهم الدامية في بقاع الأرض ضد دينه وأهل دينه؛ فيحسب لوهلة أنهم ربحوا المعركة وأجادوا إدارتها، والحق أنهم خاسرون؛ خاسرون في النتائج النهائية للمعركة في الدنيا، وخاسرون فيما تؤول إليه عاقبتهم في الآخرة.

وبعد ذكر كل تلك النعم وإتباعها بذكر جحودهم للنعم وتنكرهم للبراهين قال:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتعجيب من الكفر مع قيام الموانع منه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ وهذه الجملة حالية، أي: كيف يجتمع كفركم مع هذا الحال القائمة بكم، المعلومة لديكم، وأنتم لا تنكرونها! فكيف يكون الكفر معها؟

وذكرت الآية موتتين وإحياءين، والظاهر- والله أعلم- أنّ الموتة الأولى هي العدم الذي خرجوا منه إلى الحياة الدنيا، والموتة الثانية هي الموت المعلوم في الدنيا الذي ينتقل به الإنسان إلى الآخرة، والحياة الأولى هي التي حصلت لهم بعد العدم عندما ينفخ المَلَكُ الروحَ؛ كما في الحديث المشهور: "إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكونُ في ذلكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكونُ في ذلكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ"[٢٩]، والثانية هي الحياة الحاصلة عند البعث والنشور، وقيل غير ذلك.

ومن اللطائف العجيبة أنّ السامعين من المشركين لا يقرّون بالحياة الثانية بعد الموت، لكنّ هذا سيق مساق ما يقرّونه ولا ينكرونه، تنبيهاً على وضوحه، وأنّهم إن أقروا بإخراجهم من العدم إلى الحياة فأَوْلى أن يقرّوا بإعادتهم ثانية إلى الحياة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ {الروم}.

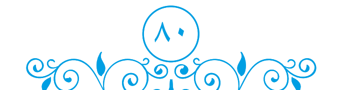
وأتبع ذلك بتذكيرهم بأنّه خالقٌ لتلك الأرض وما فيه، ولتلك السماء التي يرونها، ومزجَ ذلك بالامتنان عليهم بأن ما في الأرض من خلق فإنّما خُلِق لأجلهم وسُخِّر لخدمتهم:

❖ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد ذُكرت الأرض والسموات قريباً في سياق بيان استحقاقه الألوهية دون سواه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وذُكرتا هنا في سياق بيان الموانع من الكفر ببيان عظيم قدرته وجليل مِنّته.

---

(٢٩) أخرجه البخاري في صحيحه (ج/٤ ص/١١١ ح/٣٢٠٨).



استنباط أصولي

وفي الآية الدليل على ما عبّر عنه الأصوليون بأنّ الأصل في الأشياء الإباحة، ذلك أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فإنّ ﴿لَكُم﴾ مشيرة إلى معنى التسخير، والتسخيرُ مقتضٍ للإباحة، وهو ملحظ بديع.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ دليل على أنّ السماوات سبع، وهو مما لا خلاف فيه إذ هو منطوق الآية، ولعلّ تمام معرفة المقصود بالسماوات السبع ممّا لا ينتهي إليه علمُ البشر، وقد قيل فيها كلامٌ أغلبُه لا دليل عليه.

وتعدية ﴿اسْتَوَىٰ﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ تدل على أن معناه: قَصَد، والمعنى: أنّه سبحانه قصد إلى السماوات؛ ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ من التسوية: أنه خلقهن من أول الأمر سَوِيَّات، أي مصونات من النقص والعيب[٣٠].

و ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخي، وظاهرها دالُّ أنّ خلْق الأرض قبل خلْق السماء، وهو ما يدلّ عليه كذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ {فصلت}، قال ابن كثير فيما دلّت عليه الآيات من أنّ الأرض خلقت قبل السماء: "وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلّا ما نقله ابن جرير عن قتادة"[٣١].

---

(٣٠) التفسير الوسيط، ١/ ٦٨.

(٣١) تفسير ابن كثير،١/ ٢١٥





وقد ذهب بعضهم إلى قول قتادة هذا، وجعلوا الترتيب في ﴿ثُمَّ﴾ ترتيباً رُتبياً لا ترتيباً زمنياً كما هو الظاهر، والذي أشكل عليهم قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠﴾ {النازعات}، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس في الإجابة على هذا الإشكال وما أوهمه التعارض بين الآيتين بأنّ الأرض خلقت قبل السماء ولمْ تُدحَ، ثم خلقت السماء، ودحيت الأرض بعد ذلك[٣٢]، وهو ما أجاب به العديد من المفسرين قديماً وحديثاً، وهم بهذا يفرِّقُون بينَ خلْقِ الأرض الكائن قبل خلق السماء، ودحيِ الأرضِ الكائنِ بعدَه، ففسَّروا الدحَي بإخراج ما كان مُودَعاً فيها بالقوة إلى الفعل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١﴾ {النازعات}، والله أعلم.

وختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾، ومناسبتها: تعزيز المعنى المقصود من ذكر كُبريات النعم ومظاهر القدرة؛ إذ دلّت الآية على كمال القدرة، وفي هذا الختم صرّح بكمال العلم، وهما غاية الكمال: أن يجتمع كمال القدرة وكمال العلم، وهذا تعظيم لله سبحانه؛ يحمل تقبيح كفرِهم به، وتفريطهم في جنبه.

لمسة تربوية

والمتأملُ في هذه الآيات يَرى إقناعَ العقلِ وهزَّ العاطفةِ ليدفع إلى الاستجابة والانقياد، فهو يقيم الدلائل على سبْق النِّعم واستحقاق الألوهية، ويهزُّ الفِطرةَ السليمة لمقابلَةِ الإحسان بالإحسان، وللانقياد لمقتضيات العقل في أحكامه القطعيّة.

(٣٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً (ج٦/ ص١٢٧).



المقطع السادس
الاستخلاف في الأرض

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ {البقرة}.

جزء من هذا المقطع من سورة آدم لم يرد مفصّلاً في القرآن في غير هذا الموضع؛ وهو ما يتعلق بالحوار بين الله تعالى والملائكة من إخباره سبحانه الملائكة بإرادته جعل خليفة في الأرض.

المناسبة

تكلم المفسرون في بيان مناسبة الآيات هذه لسياقها الواردة فيه بوجوه متعددة، وينبغي أن تتنبّه- أيّها القارئ الكريم- إلى أنّ المناسبة بين الآيات تتعدد وجوهها حسب مؤدَّى نظر المفسر والمتدبّر، ولا بأس في ذلك ما دام في إطار المستفاد من النظر في الآيات وترتيبها من غير تكلّف.

ووجوه المناسبة تَنسج في السياق القرآني شبكةً كثيفة الخيوط تدلّ على إحكام النظم القرآني وسلامته من التفكك المعيب، وقد تقوى بعض هذه الخيوط وتظهر، وتضعف أخرى وتدقّ حتى تحتاج إلى إنعام النظر ليدركها المتدبر.

وعليه فلا علينا أن نُعمل النظر في مناسبة هذه الآيات في ضوء ما قررنا في بيان الوحدة الموضوعية لسورة البقرة في مقدمة السورة.

وحتى لا أشقّ عليك بالعودة إلى التفتيش في الكلام السابق أذكّرك بأنّ الوحدة الموضوعية والعنوان الرئيس الذي دارت عليه مقاطع السورة وآياتها كما أدّانا إليه النظر هو أنّ السورة سورة الاستخلاف، وأنّ السورة إنّما جاءت لتعدّ الأمة للنهوض بهذه الأمانة ورفع ذلك اللواء.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنّ المقطع الذي بين أيدينا هنا من قصة بدء الخلق هو مقطع محـوريٌّ رئيـس؛ إذ فيه بيان أنّ الله تعالى أراد خلق آدم وذريته لأجل استخلافهم في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

ولمّا كان الاستخلاف قائماً على دستورٍ؛ هو ما أنزله الله وأوحاه إلى رسله، وكان آخر ما أنزله الله من كتاب هو الذي ذكره في بداية السورة:



﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۝٢﴾، وهذا الدستور الموحى به والكتاب الذي لا ريب فيه قد وقع خلاف في تلقي الناس له، فمنهم من أخذه بقوة واهتدى بما فيه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ۝٣﴾، وآخرون كفروا به وردّوه وعادَوه جهرة وصراحة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾، ومنهم مَن آمن به بالقول واللسان ولم يعتقده قلبه ولم يؤمن به؛ لمّا كان كل ذلك نادى الناس ودعاهم إلى عبادته وحده دون سواه: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾، وأعلمهم بوجوب تلقي الوحي المنزَّل والدستور الهادي تلقيَ قبول وتسليم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾، وأنكر بعد ذلك على المستنكفين وعيّرهم بالكفر المستعجب منه، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾، ولمّا انتهى من كل ذلك أعلمهم بأنّ الغاية من خلق الإنسان هي الاستخلاف في الأرض، وقصّ عليهم قصة البداية، وذكر في نهايتها قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ۝٣٨﴾ فرجع إلى ذكر الكتاب الذي هو دستور الاستخلاف ومادة صناعة المستخلَفين، فالمقطع حقاً هو أحد محاور السورة المباشرة في معالجة موضوعها الرئيس: الاستخلاف، وقد رأيت عذوبة انسياب الآياتِ وتسلسل الموضوعات.

تقعيد فكري

وفهم هذا المقطع وما فيه من أسس قامت عليها البشرية من أهم العناصر التكوينية للفكر؛ ينبغي للأمة المستخلَفة أن تضعه في الحسبان: ما الغاية من الخلق؟ وما المقصود من الاستخلاف؟ ما الدستور الذي يقوم عليه الاستخلاف؟

ما علاقة الاستخلاف بالعبادة التي خلق الله الإنس والجنّ لأجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ {الذاريات}؟

وما طبيعة العلاقة بين الشيطان والإنسان؟ وما دوافع العداء الشيطاني وما أهدافه؟

وما محل هذه العداوة التاريخية فيما تواجهه الأمة من عقبات في طريق الاستخلاف؟

التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾.

يبدأ القصةَ من قبل خلق آدم، في مشهد إعلام الله تعالى الملائكة بإرادته النافذة في الاستخلاف في الأرض، والواو استئنافية، و﴿إِذْ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر إذ: اذكر حين، أو اذكر وقت، أو قريب منه.

فائدة سائرة في القرآن

والفائدة من التذكير بالوقت والزمن الذي حصل فيه الفعل بدل التذكير بالفعل نفسه: استحضار ملابسات المشهد كاملة وما فيها من تفاصيل وملابسات، وهذا أبلغ بطبيعة الحال من التذكير بالحدث مجرداً، والفرق يظهر فيما لو قدرت الكلام:





واذكر قول الله للملائكة...الخ!

والمُخاطب في الآية: محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً وإظهاراً للمزيد من الاختصاص، ولكل من يصلح للخطاب من بعده ليشاركه الفكر في الاتعاظ بالقصة.

وما أنبأ الله به الملائكة بأنّه جاعل في الأرض خليفة هو محضُ إعلام لهم بما هو فاعله، وليس استشارة كما قال بعض الكاتبين؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومقام الألوهية أعلى وأَجلّ.

والتعبير بالاسم: ﴿جَاعِلٌ﴾ دون الفعل "سأجعل"، للإشعار بانقضاء الإرادة فيه وإجرائه على سنن ما جُعل وانتُهيَ منه تأكيداً على وقوع الفعل وتحقيقاً، فإن التعبير بالإسم يدل على الثبوت والاستقرار كما عرفت.

دلالة التعبير بالإسم

و "الخليفة": مَن يخلف غيره وينوب عنه في شيء من الأشياء، واختُلف في كونه خليفة مَن؟ خليفة الله؟ جاء في المفردات للراغب الأصفهاني: "والخلافة: النيابة عن الغير؛ إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض"[٣٣].

وقيل: خليفةٌ يخلُف بعضهم بعضاً، وليس لخلافة الله؛ استكراهاً للفظ، وقد علمتَ أنَّ الخلافة قد تكون لتشريف المستخلَف لا لعلَّة في المستخلِف، فلا ضير إذاً إن شاء الله.

والتعبير بالخلافة مؤذن بأنّها على شرط المستخلِف، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {ص ٢٦}.

---

(٣٣) مفردات ألفاظ القرآن، ٢٩٤





وأنت ترى- سدّدك الله- أنّ الفاء في قوله: ﴿فَاحْكُم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فقد رتب أمْره بالحكم بالحق على أن جعله خليفة، فهذا يقتضي ذلك.

ولّما سمعت الملائكةُ مُرادَ الله تعالى في جعل خليفة في الأرض: استفهموا عن الحكمةِ في ذلك واستعلموا عن السرّ فيه: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ وليس ذلك منهم على سبيل الاعتراض- حاشا؛ فهم العباد المكرمون- وإنّما هو كما ذكرتُ استعلامٌ عن الحكمة من ذلك ، وهو الأصل الذي وُضع أسلوب الاستفهام لإفادته، فالاستفهام في الأصل إنما وُضع لطلب المعلومة.

دلالة الاستفهام الأصيلة

كيف عرفتْ الملائكة أنّ هذا الخلق يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ قيل في الجواب على هذا السؤال الكثير، والذي يبدو- والله أعلم- أنّ ثمة كلاماً لم يُذكر في النص ولم يُفصّل، وهو أن الله أخبرهم فيما أخبرهم به مع إرادته جعْلَ خليفةٍ في الأرض: أنّ هذا الخليفة يكون من شأنه أنه يفسد ويسفك الدماء، وقد دلّ على المحذوف استفهامُ الملائكة وذكرُهم له، وهذا كافٍ في الإجابة، ولا داعي لاستدعاء الإسرائيليات لملء هذه الفجوة في القصة القرآنية، والقرآن لا يذكر إلا ما تحصل الفائدة بذكره.

ومن الإجابات الجيدة على ذلك: ما قيل من أنّ الملائكة لّما رأوا مادة خلق هذه الخليفة في الأرض تفرّسوا فيه أن يقع ذلك منه فقالوا ما قالوه، والله أعلم.

استعلم الملائكة عن الحكمة في ذلك والسرِّ فيه مع كونهم قائمين بالعبادة على وجهها:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فلأيِّ شيء تجعل من هذا الخلق خليفة "سبحانك"؟





والتسبيح: التنزيه عن النقائص، والحمد: الثناء بالجميل الاختياري، والباء في قولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: للملابسة والمصاحبة، والتسبيح بحمده: تنزيهه عن النقائص تنزيهاً مصاحباً أو ملابساً للثناء عليه ووصفه بصفات الكمال.

وقد دلّت الآية على أنّ من أهمِّ أذكار الملائكة قولهم: سبحان الله وبحمده، وقد جاء في فضائل هذه الكلمة ما يدعو الحريصَ الكيّسَ إلى ملازمةِ هذا الذكر وتأمله، وإذا كان ذكرَ الملائكة المقربين فحريٌّ بالمؤمن أن يحرص عليه.

وقولهم- عليهم السلام-: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يعني: نطهِّر أنفسنا- من التقديس وهو التطهير-لأجلك، فاللام لام لأجل، وفي ذلك: الإخلاصُ لله تعالى في تطهير النفس وتزكيتها وابتغاء مرضاته في ذلك، وأن رؤية الله وابتغاء الرضا منه هو ما ينبغي أن يسعى إليه المؤمن.

والمقصود من كلامهم: أنّهم يقومون بالعبادة والذكر كما يحب ربنا ويرضى من غير وقوع شيء من الفساد وسفك الدماء، فأيُّ حكمةٍ وراءَ خلْق الخليفة الذي يقع منه ذلك؟

لمسة تربوية

الحكمة من خلقه واستخلافه؟

لمسة تربوية

وأجابهم سبحانه بالإحالة على علمِه المطلقِ وحكمته المكنونة التي ستظهر لهم بعد خلق هذا الخلق على هذه الهيئة؛ خلقٍ يعبد الله بإرادته، وتتنازعه قوى الخير والشر، ويتصارع فيه داعي الشيطان وداعي الرحمن، ويتصارع في الأرض من بعد ذلك حقٌّ وباطل وإيمان وكفر، وتظهر في هذا الصراع صورٌ من العبادات؛ لا يملك حتى الملائكة المقربون التعبد بها! ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾.



هل سمعتم بمَلَكٍ يُقتلُ في سبيل الله! أو يُخرج من بيته؟! أو يُضيَّقُ عليه رزقه ويُزجّ به في غياهب السجون لأجل الله ودينه ودعوته؟ وهل يُجاهد مَلَكٌ نفسه للانتصار على شهوته وترويضها للانقياد لأمر الله؟! وهل يتعرض أحد منهم لفتنةٍ تَسلب الألباب وتذهب بالعقول فيستعصم وينجو؟!

لمسة تربوية

إنّ الملائكة عبادٌ لم يَخلق الله فيهم إلا نوازع الخير المحض، والطاعة من غير معارض، فأراد سبحانه- لحكمة- أن يخلق خلقاً آخر يعبد الله بإرادته مع إيداع نوازع متعددة تتنازعه، فيتولّد صراع داخل النفس الواحدة بين الحق والباطل، ويتولّد صراع آخر في الأرض بينهما، وتتجلّى أنواع العبادة المذكورة وتظهر، والله أراد ذلك لحِكَم جليلة ندرك بعضها حيناً وتخفى حيناً آخر: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ {القصص ٦٨}.

إراءة الملائكة فضل آدم

ثمّ إنّ الله تعالى أراد إراءة الملائكة فضل آدم عليه السلام؛ ذلك أن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ دالٌّ على أنّهم لم يعرفوا لهذا الخلق فضيلته، فأراد الله تعـالى أن يعرّفهم به، فقال:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٣١﴾.

علم الله آدم أسماء كل شيء، فالألف واللام من ألفاظ العموم؛ إذ تفيد الاستغراق، وتأكيد معنى العموم بـ ﴿كُلَّهَا﴾ وهي لفظ من ألفاظ العموم كذلك، وقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا





آدم، أما ترى الناس؛ خلقك الله بيده، وأسجد ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء؛ اشفع لنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا"[٣٤].

ونقف عند هذه النصوص المجمَلَة لا نتعدّاها، ولا حاجة بنا إلى ذلك، ونحيل علم تفصيلاتها إلى الله تعالى، مع تجويز تخصيصها بالعقل؛ على هيئة: أنه علمه أسماء كل شيء يلزمه تعلمه للقيام بمهمة الخلافة في الأرض.

وقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: أن الله عرض المسمَّيات على الملائكة، ولم يكن للملائكة سابق علم بها، وطلب منهم أن ينبئوه بأسمائها: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾.

وإنّما استعمل ضمير المذكر العاقل في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ للتغليب؛ لأن أشرف المعروضات ذوات العقلاء وصفاتهم؛ والله أعلم.

لمسة تربوية

والشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في ادعاء الملائكة عدم أحقيته للخلافة، والجواب محذوف دل عليه ما قبله ، والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبئوني بأسمائهم، أو إن كنتم صادقين في عدم صلاحيته للاستخلاف؛ إذ من شأن جواب الشرط أن يأتي بعد الشرط لا قبله.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

افتتاح كلامهم عليهم السلام بالتسبيح وقوفٌ في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة، وفيه: اعتذارهم عن مراجعتهم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وإن كانت على وجه الاستفهام لا الاعتراض؛ كما توهم بعض العوام.

---

(٣٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص١٧/ ح٤٤٧٦).

وقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعترافٌ منهم بالعجز والتسليم لله تعالى في كمال حكمته وعلمه.

وفيه دليل على طبيعة علوم الملائكة كما قال ابن عاشور[٣٥] فهي محدودة بما ألهمهم الله علمه غير قابلة للزيادة؛ فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ كالتعليل لمضمون كلامهم السابق.

وأراد الله تعالى إظهار فضل آدم فأمره بإنباء الملائكة بأسماء تلك المسميات المعروضات عليهم:

۞ ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ أي الله تعالى (لهم) للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وهو سبحانه قد أشار بقوله هذا إلى ما قاله لهم من قبل: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فأبدى لهم شيئاً من فضل آدم الذي جهلوه إذ قالوا كلامهم السابق.

فضل العلم

ومن اللطائف أنّ الله لمّا أراد إراءة الملائكة فضل آدم أراهم فضله بالعلم، فدلّ ذلك على شرف العلم ومكانته وتعظيم الله وملائكته له.

و﴿كُنتُمْ﴾ في قوله:﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لتأكيد تحقُّقِ علمه بالمكتوم، فإن الذي يَعلم ما اشتدّ كِتمانُه: يَعلمُ ما لم يُحرص على كتمانه، ويعلم ظواهر الأحوال بالأَولى، أفاده ابن عاشور[٣٦].

---

(٣٥) التحرير والتنوير، ١/ ٤١٤.

(٣٦) التحرير والتنوير، ١/ ٤١٧.





والعلاقة كما يبدو بين هذا الذي حصل من تعليم الله لآدم الأسماء، وما تلاه من حوار مع الملائكة وبين موضوع الاستخلاف في الأرض: أنّ الله تعالى بيّن للملائكة بها قصّةُ علينا أهلية آدم للخلافة في الأرض، وتزويدَه بما يحتاجه من العلوم والإمكانيات لأجل ذلك، والله أعلم.

نعمة الله على آدم وتكريمه، وبداية الصراع مع إبليس

بعد عرض هذا المشهد من الحوار انتقل إلى بيان تكريمه سبحانه لآدم بعدما أرى الملائكة فضله، وهنا: أخبر الله تعالى بتكريم جديد لآدم بعدما عرفت الملائكة فضله وميّزته، ذلك أنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية، وقد كان مثل ذلك جائزاً في غير شريعتنا؛ كالذي قصّه الله من قصة يوسف عليه السلام، فهذا السجود من إخوته له: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ {يوسف ١٠٠}، سجود تحية لا سجود عبادة، ويظهر أن سجود الملائكة من نوع هذا، ويحتمل أن يكون السجود لله، وإنّما كان آدم قِبلةً فحسب، ويضعِّفُ هذا وجوه- فضلاً عن التكلف الظاهر-، منها: أنّه لو كان كذلك لما قال إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ٦١﴾ {الاسراء}، ××ولمّا قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٢﴾ {الاعراف}، فالظاهر أنّ المفهوم لدى المأمورين أنّ السجود سجود تحية وتقدير، والله أعلم.

❖ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٤﴾.

أعاد ظرف الزمان ﴿وَإِذْ﴾ مرةً أخرى بعد ابتداء المقطع به: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ للإشعار بأنّ هذه النعمة المذكورة من أمر الله للملائكة بالسجود لآدم نعمةٌ مستقلة حقيقةٌ بالتنبّه إليها وحمد الله عليها.

لمسة تربوية

إباء إبليس وتكبره

وما إن أمر الله تعالى ملائكته بالسجود حتى سارعت من فورها إلى الامتثال، وحقيق بها ذلك وحريّ! فمن عرف الله تعالى وقدْرَهُ استبق الامتثال وطار إلى الطاعة؛ وهو ما تدل عليه (فاء) الترتيب والتعقيب: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ولم يحصل من أحد منهم أن تلبّث ساعة، بل كانوا على قلب رجل واحد في الامتثال، لكنْ تخلَّفَ عن ذلك الشقيُّ إبليس، والموفقُ من وفقه الله!

هل إبليس من الملائكة؟ لم يكن كذلك، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ {الكهف ٥٠}.

وتساءل المفسرون: إذا كان من الجن فما علاقته بما أُمرَتْ به الملائكة من السجود لآدم؟ وأجابوا بأنه وُجّه إليه الأمر كما وُجِّه للملائكة، وإباؤه دالّ على أنّه كان قد أُمر، والله تعالى ينص على ذلك في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، فقد أُمر الشقيّ أمراً مباشراً، واكتُفِيَ بالدلالة على أمره مع الملائكة بما فهم من السياق بالإجمال.

فما معنى الاستثناء في الآية: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾؟ الاستثناء هنا منقطع، إذ ليس المستثنى من جنس المستثنى منه، وهذا النوع وافر الحضور في استعمال العرب وإن كان الأصل في الاستثناء أنه متصلٌ، بمعنى أن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه.

وجاءت الجملة الفعلية بعدُ تبين ما الذي كان من إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، والإباء: الامتناع، والاستكبار: أنّه عدّ نفسه كبيراً؛ لا ينبغي أن يُؤمر بمثل هذا الأمر، ومن هُنا أُتي الشقي؛ أُتي من قِبَل نفسه، وفيها كانت مَهْلَكَتُه.



والحقُّ أن أمره بالسجود لآدم استثار خبيئة شرٍّ وكفرٍ كانت في نفسه، ولعل الله لم يشأ أن يُظهرها للملائكة قبل عصيانه هذا لحكمة من الحِكم.

لمسة تربوية

وكذا كثير من الناس؛ لعلهم ينغمسون في الصالحين، وتبدو عليهم الطاعة، وقد أسرّوا خبيئة شرّ عن الناس، حتى إذا حصل ما يستثير ذلك ما استطاعوا أن يكتموه، وفضح الله دواخلهم بها، فانقلبت وجهتهم، ونُكست طريقتهم، وركبوا طريقاً واضحاً في الضلالة، والمعصومُ من عصمه الله!

وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كالفذلكة لما مضى من ذكر ما صدر عنه من إباء واستكبار، وتسجيل بأنّ ذلك قد هوى به في أسحق الوديان!

لمسة تربوية

وكذا أمراض النفوس التي تسيطر على صاحبها وتستحوذ على مشاعره؛ فتوجِّه سلوكه، فإذا به قد سيق إلى أبعد الضلال واقترف أعظم الجرائم؛ إذ قد فقد السيطرة على نفسه وسلوكاته! ودواءُ هذه الأدواء القاتلة: مراقبة النفس، وملاحظةُ حركاتها، ثم العمل على تزكيتها، وتعريفها بوضاعتها وجهلها وظلمها، فإذا عرف العبدُ نفسه، وكان قد عرف ربَّه؛ فلا خوف عليه يومئذ من شرورها؛ إذ قد اتّضحت في صدره المعاني وانكشفت عن عيونه الحجب!

وتَركَ النص هنا تفصيل توبيخ إبليس وطردِه حيث قد جاء تفصيله في سور أخرى أسبق نزولاً من سورة البقرة، وتُرك المشهد لتسليط الضوء على آدم؛ لما أنّ السياق في استخلافه في الأرض.

بداية التكليف

❖ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.





توجّه الخطاب له بتكريم إثر تكريم، وهذا التكريم هنا هو أمره- على سبيل الإنعام- بسكنى الجنة مع زوجه حوّاء، والسكنى من السكون، والمقصود: الاستقرار والإقامة والاطمئنان، ومن شأن السَّكَن الذي يأوي إليه الإنسان أن يكون متصفاً بهذا.

وأكّد الضمير المستكنّ في قوله: ﴿اسْكُنْ﴾ ب ﴿أَنتَ﴾، وليعطف عليه زوجه، وقد استكره بعضهم عطف الظاهر على الضمير، وليُكمّل نعمته عليه بالسكنى بمعية زوجه.

وأمرهما إنعاماً عليهما بالأكل من الجنة: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أكلاً هنيئاً لا عناء فيه ولا تقتير، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من هذه الجنة الكثيرة الثمار، المتنوِّعةِ الطُّعوم.

تقعيد فكري

وأَمْرُه بالسكنى مع زوجه، وأَمْرُهما معاً بالأكل من الجنة دالٌّ على أصالةِ المرأة في دورها الرئيس مع الرجل في مباشرة مهامِّ الحياة، واستوائهما في الاستلذاذ بمتعها المباحة من السكنى والأكل، وتعاونهما على ذلك مما فيه مصلحتهما معاً، وكذلك ينبغي أن تُفهم العلاقة بينهما في إعمار هذه الأرض والقيام بأمانة الخلافة فيها، وأنّهما مكلّفان بذلك على التسوية.

ولكن تدريبهما على القيام بمهام الخلافة في الأرض اقتضى نهيهما عن شيء مما تناله أيديهما، وحَجْرَ بعض مرغوباتهما عنهما؛ ليستقيما على الطاعة ويَحذرا المعصية ويكونا مثلاً لذريتهما من بعدهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد جاء نهيهما عن الأكل بعنوان النهي عن قربان الشجرة سداً لذريعة الأكل منها؛ مبالغة في تحذيرهما من الوقوع في المحظور، والنهي عن القرب منها أبلغ من مجرد النهي عن الأكل نفسه.



تقعيد فكري

وقد تكون شجرةً واحدة معينة أو نوعاً من الشجر، لا يهمّ هذا كثيراً في سياق الدرس التربوي والفكري للأمة المستخلفة، كما لا يهمّ نوعها، ولو كان ثمة فائدة في ذكر كل ذلك لذكره، لكن على العكس، الأمة المستخلفة لا ينبغي أن تنشغل بفضول العلم عن العلم نفسه، ولا بالترف الثقافي عن الجِدِّ فيه والتركيز على المفيد في الدنيا وإعمار الأرض ووراثتها، وما ينفعها في آخرتها.

استنباط أصولي

وفي الآية:

دليل من أدلة الأصول الكلية: وهو سدّ الذرائع، وهذا واضح وقد حذّرهما من كون أكلهما من الشجرة سينقلهما من حقول الطاعة والقرب إلى وديان المعصية والوحشة: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

تقعيد فكري

وهذا الخطاب دلّ على أنّ تقبيح الظلم أمرٌ مركوز في فطرة البشر، والاستنكاف من الانخراط في سلك الظالمين هو دأب المؤمنين من أول البشرية.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ منبئ عن أنّهما يعهدان نوع الظالمين، فإنّ الألف واللام للعهد- كما يبدو-، والعهدُ هنا عهد ذهني، فهل قد عرفا ظالمين؛ فحُذّرا من الانخراط في سلكهم؟ وقد يكون هؤلاء الظالمون من الجنّ مثلاً! محتمل، أو هل أُخبرا أنّه سيكون من ذريتهما ومن ذرية عدوِّهما ظالمون؛ فحذّرهما من أن يكونا منهم؟ محتمل كذلك، والله أعلم، إلا أنّ الحاصل أنّ قبح الظلم وعواقب الانخراط في سلك الظالمين كان متقرراً عندهما واضحاً في ذهنيهما.

أول معاصي البشرية

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾.

تسبَّب الشيطان بتزيينه لهما- كما فُصِّل في سور أخرى- بالزلل: وهو انزلاق القدم في الأصل، وعُبّر به عن المعصية؛ إذ هي انزلاق لقَدِم الثبات على الطاعة، وإشرافٌ على السقوط في الهاوية، هاوية سخط الله وعقابه!

والضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ يعود على الجنة، وزلتهما عنها: إخراجهما منها بعد ثبات قدم وقرار فيها، أو على الشجرة، أي أزلهما الشيطان عن الشجرة أي بسببها، ذلك أنّه قال لهما فيما حكت سورة طه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ {طه}.

وما ترتب على هذا الزلل: إخراجُهما مما كانا فيه من النعيم والقرار إلى المكابدة والعناء: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، ويكون الشيطان بهذه الخطوة قد حقق أولى أمنياته في الانتقام من آدم وزوجه؛ إذ كان قد حمل على عاتقه إضلاله وإضلال ذريته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، هذه كانت عاقبة المعصية الأولى: الهبوط من الجنة، والبدء بالكدّ في السعي في الأرض، وهذه أول معصية تقع من الإنسان؛ وقد رأيتَ شؤمها: أنه نزل آدم على إثرها من الجنة، وترتب على ذلك ما ترتب عليه؛ وضاع بسببها ما كان فيه من النعيم والراحة والرخاء التام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ {طه}!

لمسة تربوية

لعل آدم كان معذوراً نوع عُذرٍ؛ إذ لم يسبق وأن تصوّر "المعصية"، ولا عرف عواقبها، ولا خبِر شؤمها؛ إذ كانت أول المعاصي! أما بنو آدم؛



فأي عُذر لهم في الإقدام وقد رأوا شؤم المعاصي التي هوت أولاها بأبيهم من الجنة!

المقصود: أن للمعصية شؤماً وعاقبةَ سوء، ومن استحضرَ ذلك كفه عقلُه عن المعصية، واستمسكت نفسه عن شرب سُمِّها؛ حتى وإن حلا طعمه!

والمخاطبون في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾:

❖ إما أن يكونوا آدم وحواء وإبليس، فيكون قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: بياناً للعداوة الأبدية بين إبليس وآدم وحواء وذريتهما، وصورتها: محاولات إبليس وذريّته إضلال آدم وحواء وذريّتهما وإهلاكهم ما دامت الدنيا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

❖ وإمّا أن يكون الخطاب لآدم وحواء وذريّتهما من بعدهما، فيكون قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ بياناً للعداوة بين أفراد الجنس البشري، وهذا مُؤذِنٌ ببَدءِ الصراع بين الحق والباطل في ذريّتهما.

وظنّ بعض المفسرين أنّ هناك تقديماً وتأخيراً في الآية، فقالوا: الترتيب الأصلي أنّه قال لهم: اهبطوا منها جميعاً ثم تلا ذلك خروجهما من الجنة: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وليس كذلك، بل قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ بيان لدور الشيطان فيما حصل لهما، وقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ يحتمل أن يكون الجنة، ويحتمل أن يكون تلك الحالة المَرْضية الرائقة التي كانا يعيشانها، والطاعة التي لا معصية فيها، والأنس الذي لا جفاء فيه، والقرب الذي لا بُعد معه! وعلى ذلك فلا داعي لتقدير التقديم والتأخير والتكلفِ لتعليله، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف ﴿٢٤﴾]: إنباء لهما بمهمَّتهما القادمة، ومستقرِّهما في الأرض ومتاعِهما فيها إلى حين يأذن الله بقيام القيامة، والعود للحساب.



التوبة من المعصية

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: هي ما جاء تفصيلها في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾، وفي ألفاظهما التي حكاها الله تعالى لنا من علامات الانكسار وسيما الخضوع ما لا يخفى، وكذلك يجب أن تكون التوبة الحقيقية: شعور عارم بالندم، وانكسار بسبب الذنب، وخضوع تبديه النواصي، ودمع يفيض من العيون؛ لا تكفّه الجفون!

لمسة تربوية

والتعبير هنا بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ منبئ بأنّ آدم قد أُلهم هذه الكلمات إلهاماً، وما كان منه إلا أن "قالها" خاشعاً قلبه، منكسرةً نفسه بين يدي ربِّه، الذي قَبِل توبته وأنعم عليه بالعودة إلى المنهج، وهذه عادةُ الله تعالى في رحمته بعباده وتوفيقهم لطاعته: أن يُلهم عبده الطاعة ويشرح صدره للتوبة، حتى إذا تاب- وما كان ليتوب لولا ذلك التوفيق- قَبِلَه وفرح بتوبته، فله الحمد.

لمسة تربوية

والتعبير بعنوان الربوبية ههنا: ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ يشير إلى هذا المعنى ويقويه، ولا غرو ولا عجب: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

لقد كان هناك فرقُ كبير بين المعصيتين: معصيةِ إبليس، التي اتخذها منهجاً، ومعصيةِ آدم التي كَسَرتْ نفسه، وذاب لأجلها قلبه، وتاب منها فتاب الله عليه.. فرقٌ بين المعصية المنهجية التي ترسم مسار الحياة، والمعصية التي تفرط من المرء ضعفاً وشهوة من غير ركوب ولا تكبّر ولا استهتار؛ فاستأهلت الأولى الغضب الذي لا عفو معه، واستأهلت الثانية التوبة التي لا عذاب معها، وشتّان بين المقامين!

لمسة تربوية





منهج الاستخلاف

والذي يبدو أنّ آدم لم يُعلَم بمَهمَّته التي خُلِق لأجلها من الاستخلاف في الأرض قبل هذه اللحظة، وقد جاء تكليفه "رسمياً" في الآيات التالية:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فبيّنَ له المنهج المفروض، الذي تقع الهداية في اتباعه؛ إشارة إلى ما ذكر في بداية السورة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

تقعيد فكري

إن المنهج الحق هو ذلك المنهج الذي أتى من الله سبحانه؛ إنه "الوحي"؛ الذي سماه: "هدى" باعتبار ما احتواه وما يؤدي إليه، إنه لا هدى يُرتجى بعيداً عن هذا الهدى الذي يأتينا من الله! والذين يبحثون عن الهدى في غيره سينالون نصيبهم من الضلالة ولا شك! لم يُنزل الله هذا الخلق إلى الأرض بلا أدوات للاستخلاف أو دليل! كيف وهو أرحم الراحمين؟! إن رحمته وحكمته اقتضتا أن ينزل هذا الخلق حين ينزله إلى الأرض، ومعه الدليل إلى الهدى؛ الذي لا يضل من استمسك به، وتلقى عنه، واتخذه منهجاً لتسيير الحياة!



المقطع السابع
بيان التذكير بالإنعام العام على بني إسرائيل

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة].

التمهيد والمناسبة

بدأ الكلام من هنا عن بني إسرائيل ويستمر طويلاً، والغالب في الكلام هنا معهم: الجدل، والمحاجة وتعرية باطل بني إسرائيل وفضح كفرهم.

وقد ورد معظم القصص هذا في سورة الأعراف المكية، وجاء ثمة أكثرَ تفصيلاً، لكنّه لم يَرِد هناك في مثل هذا السياق، فاختلف الأسلوب، فتنبَّه إلى ذلك أثناء قراءتك، واربط هذا المعنى بما يأتيك من بيان المناسبة، وقد سبقت الإشارة إليها.





أما المناسبة؛ فيقال فيها:

في المقطع السابق ذُكِرت قصة بداية الاستخلاف في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وذُكِر في نهايته المنهج المحدَّد والدُّستور المَفروض المسدّد: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، ولمّا كان بنو إسرائيل هم أصحاب الديانة الأخيرة من قبل الإسلام - والمسيح عيسى بن مريم إنّما هو رسولٌ إليهم - وكانوا المفضَّلين على عالمَي زمانهم: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وكان ذلك بمنزلة العهد إليهم برفع لواء الخلافة في الأرض؛ لمّا كان كل ذلك- وقد أراد الله نزع اللواء منهم- خاطبهم بتذكيرهم بما أنعم به عليهم، وبتفضيله إياهم على عالمَي زمانهم؛ ليكون ذلك كالمقدمة لِمَا سيأتيهم من تجريدٍ من ذلك التشريف؛ بما أخلفوه من التكليف.

التفسير

ابتدأ الكلام مع بني إسرائيل بتوجيه الخطاب لهم، ولمّا كان السياق تجريداً لليهود من الميزات التي يعتقدون أنّها لم تزل فيهم: كان أسلوب "الخطاب" أبلغ في توبيخهم وتجريدهم منها، فقال:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾.

وبنو إسرائيل هم ذرية إسرائيل؛ الذي هو يعقوب عليه السلام، ونداؤهم بهذا العنوان تذكيرٌ لهم بنعمتِه عليهم من حيث انحدارُهم من نسب نبيٍّ كريم من أنبياء الله، وقد جرت العادة عند توبيخ مجرم ما بتذكيره بما كان يدعوه إلى الترفع عمّا وقع فيه من الجُرم، وتذكيرُهم بنعمِه سبحانه فيما يُوحي به السياق مؤذن بأنّهم نَسُوها بالكليّة ولم يقيموا لها وزناً.



أمّا نعمته سبحانه عليهم فالمقصود بها سائر نعمه عليهم؛ التي يأتي تفصيل شيء منها في الآيات القادمة، ولعل أُوْلاها: أنّه فضَّلهم على عالمي زمانهم، كما يأتي بعد قليل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٤٧﴾.

وإنّما أفرد "النعمة" ولم يقل: اذكروا نعمي، بالجمع لأجل الإشعار بحصولها على رتبة واحدة عظيمة؛ خصوصاً وأنّه قد أضاف النعمة إلى نفسه تشريفاً لها وإيذاناً بعلوّ رتبتها، ثمّ أكدّ ذلك بوصفها: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، والتعبير بالموصول: ﴿الَّتِي﴾ وما في حيزّه: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ للإيذان بقبح نسيانها فضلاً عن جحودها ومقابلتها بالعصيان والكفران، كما بيّنتْ الآياتُ القادمة أنّ هذا هو ما وقع منهم في مقابلة نعم الله عليهم.

وأمَرهم بعد هذا الأمر بالوفاء بعهد الله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، وعهدُهُ سبحانه: ما أخذه عليهم من المواثيق، وأول ذلك أن لا يشركوا به شيئاً، وممّا ورد بيانه في القرآن من هذه المواثيق:

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤﴾ {البقرة}، ثمّ بيّن الله تعالى أنّهم لم يلتزموا هذا الميثاق، فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ {البقرة}، والآيات التي بيّنت ميثاق بني إسرائيل وما أخذه الله عليهم من عهود كثيرة؛ والعجيب أنّهم لم يَفُوا بأيّ عهدٍ ولا راعَوا أيَّ ميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ {البقرة}.



وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وغير ذلك من الآيات الكثير، وقد عرضت لهذا المبحث في كتابي: "بيت المقدس وأسس المعركة القادمة مع اليهود" بشيء من التفصيل.

وإضافة العهد إليه سبحانه: ﴿عَهْدِى﴾ تعظيم للعهد وتقبيح لنقضه، والوفاء بالعهد: تأديته على الوجه الأكمل، وجَعَلَ في جواب أمرهم بالوفاء به أن يُوفيَ هو تعالى بعهدهم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وهذا من تمام رحمة الله، وإلّا فإنّه لا يجب عليه شيء؛ صاحبِ الخلْقِ والأمر، إلّا أنّه جعل ذلك على نفسه وعداً تفضلاً وكرماً.

وعهدُهم إن أوفوا بعهد الله: أن يدخلهم الجنة وأن ينتشلهم من الذلة؛ أمّا إدخالهم الجنة فهو عهد العالمين، ففي الحديث الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: "كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به"[37].

أمّا انتشالهم من الذِّلة، فإنهم قد غرقوا في ظلم فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص ٤]!

ثم أتبع ذلك بأمرهم برهبته وحده دون سواه: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ والرهبة: "فخامة مع تَحَرُّزٍ واضطراب"، كما قال الراغب[38]، وهذا لا يحصل إلا بتمام معرفة المرهوب منه، فبمقدار معرفة بطشه وقدرته تزداد الرهبة منه، وهذا الذي لم يحصل - كذلك - لبني إسرائيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر ٦٧]!

---

(٣٧) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص٢٩/ ح٢٨٥٦).

(٣٨) مفردات ألفاظ القرآن، ٣٦٦.



دقة اختيار الألفاظ / أسرار التعبير القرآني

وأَمَرهم من بعدُ بأوامر أخرى، وهي وإن كانت داخلةً في عموم عهد الله الذي أَمرَهم بالوفاء به فإنّ تخصيصها بالذكر لأهميتها فيه ومكانتها:

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

أَمَرهم بالإيمان بالقرآن، وقد عبّر عن القرآن ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾؛ لإلزامهم بالإيمان به من حيث إنه تنزيل من الله، فهو والتوراة التي يؤمنون بها خرجت من مشكاة واحدة.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مِن ما أنزله الله؛ القرآن: فإنّ القرآن جاء مصدقاً لما معهم من التوراة، ذلك أنّ التوراة قد بشَّرت به، فلمّا جاء الرسول ونزل الكتاب كان هذا تصديقاً لها، والتعبيرُ عن التوراة بقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ للتنبيه على أن معيَّتها مؤذنة باطلاعهم على ما فيها من البشرى بذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: نهيٌ بليغ لهم عن الكفر به؛ إذ كان اللائق بهم أن يكونوا أول مؤمن به لموافقته لما معهم، فلمّا كفروا به مع أنّ هذا حالهم معه استحقّوا الأولية الرُّتْبية في الكفر؛ عليهم من الله ما يستحقون!

ونهاهم بعد ذلك عمّا هو عادة لهم في التعاطي مع آيات الله؛ فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فكأنّهم إذ فضّلوا الدنيا ولعاعاتها قد بذلوا في مقابل تحصيلها آيات الله فبئس ما يشترون! والثمن القليل: الدنيا بحذافيرها، فكيف إذا كان المُشترى دون الدنيا ممّا هو عرَضٌ قليلٌ مِن أعراضها؟!



وفي المرويّ عن سعيد بن المسيب لما جاء بعضهم لِيمدَّ له المال بالباطل:

"روي لنا أنّ الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فانظر كم قسمت لي من جناح البعوضة"[٣٩].

لمسة تربوية

وهذا دالٌّ على أن امتلاء قلب العبد بالدنيا وانشغالَه بتطلُّبِها عن الله تعالى ودينه ودعوته والقيام بأمانة الدين: مُفسد للمرء أيَّ إفساد وآيل إلى بذل الدين بكلّيته ثمناً في مقابلها، نسأل الله السلامة.

تقديم المفعول / التقديم والتأخير الاصطلاحي

وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ أمر لهم بتقواه دون سواه؛ وتقديم المفعول دلّ على ذلك، فقوله: "إياي" ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم، وإنما قدّمه لإفادة الحصر والتخصيص، كأنه قال: اتقون ولا تتقوا معي أحداً، ومناسبةُ أمرهم بالتقوى هنا أنّه قد ذكر قبلُ الدنيا التي اشتروها بآيات الله، ولو اتقوه وخافوا عذابه لما فعلوا ذلك.

إشارة دعوية

وأَتْبَعَ ذلك بنهيهم عن خلطِ الحق بالباطل تزويراً للحق على أنفسهم وعلى الناس، والذي يبدو لي من مناسبة ذلك أنّه لّما نهاهم عن أن يكونوا أول كافر به، ونهاهم عن أن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً ناسب أن ينهاهم عن خلط الحق بالباطل والتلبيس بهما على النّفس والنّاس، وذلك أنّ أمثال هؤلاء من الذين أوتوا نصيباً من العلم يجنحون غالباً فيما يفعلونه إرضاءً لشهواتهم أو رؤسائهم إلى الخلط والتلبيس، فيبدؤون بتحريف ما يشتبه من النصوص والآثار ويخلطون مراداتها بشهواتهم، ويقدّمون قبيح فعالهم وتغييرهم للشريعة بقالب من "التأصيل" المزوَّر والتضليلِ الملبّسِ على العامَّة.

(٣٩) الحديث عند الترمذي في السنن (ج٤/ ص٥٦٠/ ح٢٣٠). وقال الألباني: صحيح.



وقد رأينا فيما مضى من السنوات أصنافاً من هؤلاء الأشقياء؛ الذين سوّغوا قتل الدعاة وحرقَهم في مساجدهم، ومحاصرة المسلمين في فلسطين، وتسليم المجاهدين لليهود، فالله ينتقم منهم ويفضحهم على رؤوس الخلائق!

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ معطوف على ﴿تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ داخلٌ في النهيِ عنه، وهما متلازمان: لبس الحق وكتمانه.

وتكرار كلمة ﴿الْحَقَّ﴾ وختم الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للتقبيح على فعلهم وبيان شناعته.

وأتبع بأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

فإقامة الصلاة والمحافظة على أركانها وسننها وخشوعها وأوقاتها: سبب لصلاح القلب وصلته بالله، وإيتاء الزكاة: سبب لتخليص النفس من الشحّ الذي ساق بني إسرائيل - مثلا - إلى ركوب أهوال الكفر والحرب مع الله ودعوته، والركوعُ مع الراكعين: أمرٌ بالخروج من البيئة الفاسدة من أهل الشهوات والتلبيس والتحريف إلى البيئة الطيِّبة الخاشعة، وهو إشارة إلى أثر البيئة والصحبة في التخلص من الذنوب وصلاح القلوب ومعالجة العيوب؛ فليُتَنَبّه.

ولمّا أمرهم بذلك وبّخهم على ترك فعله والغفلة عنه في الحين الذي لم يخجلوا فيه من الاستمرار أن بوعظ الناس وأمرهم به دون أنفسهم الآثمة:

التنزيل الواقعي للآيات

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

لمسة تربوية

....

....

....

....

....

....

لمسة تربوية

....

....



❁ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴿٤٤﴾﴾، والاستفهام للتوبيخ، ذلك أنّ الطبائع السليمة من شأنها أن تأنف من فعل ذلك، والله تعالى يمقته كذلك؛ كما قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف].

إشارة دعوية

والآية لا تفيد وجوب استجماع صفات الصلاح قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ هذا الفهم من شأنه أن يعطِّل القيام بهما، وإنّما يشير إلى الإنكار والتوبيخ على من استمرأ ذلك التناقض بين قوله وفعله، واستسهل إبداء الصلاح اللسانيّ والخشوعَ الكاذب، وفي صدره قلبٌ فاجر؛ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً!

والذي يزيد الطين بلة كون فاعل هذا مداوماً على تلاوة الكتاب مطلعاً على ما فيه، فكان من تلاوته تلك أن تصلح قلبه وتقوِّم سلوكه: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، نعم، إن مُسكة عقل كانت كافية في لَجم جِماحهم وتحويل الدين في قلوبهم- وهم يتعاملون مع علّام الغيوب- إلى لعبة سمجة ومسرحية ساخرة، لو كانوا يعقلون!

وهذه الآيات دلَّت على عراقتهم في الفساد وإيغالهم فيه، لكنّه لم يؤيسهم من العلاج، بل وجههم إليه، ودلَّهم على طريقه، فقال:

❁ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

ومقصود الآية: الإرشاد إلى ما فيه استقامتهم على أمر الله ووجوب مخالفة أهواء النفوس من التعصب المقيت وحب الدنيا والرياسة؛ فإنّ مجمل هذا هو ما دفعهم إلى معارضة رسول الله صلى الله عليه وسلم،



وقد كانوا متيقنين من أنّه الذي بشّرت به كتبهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، وهذا الأمر ليس بالأمر السهل على النفوس المتمردّة والطباع الفاسدة، ولذا قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

واختُلف في عود الضمير المفرد المؤنث الغائب: ﴿وَإِنَّهَا﴾، والذي يبدو لي من السياق هو ما ذكرته وأشرتُ إليه والله أعلم.

وذِكْرُ الخشوع هنا منبئٌ عن كونه يحصل بما أمرهم به من الاستعانة بالصبر والصلاة.

واختُلف في الصبر، فقيل: هو الصوم، سمي صبراً لما أنّ الصبر هو المَلمح الأظهر فيه؛ إذ هو امتناع عن الطعام والشراب والشهوات، والذي يلزم لأجل ذلك: الصبر، فسمّي به، وقيل: الصبر هنا على وجهه المعروف من معناه.

والصلاة: أي الصلاة الشرعية التي كان بنو اسرائيل مأمورين بها، أو أُمروا بالصلاة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وأمْرهم بها أمرٌ بلازم ذلك، وهو الدخولُ في الإسلام.

لمسة تربوية

وعلى كلٍّ، علِمنا من الآية أنَّ مَن استعصت عليه نفسه وتمرّدت عن الانقياد للحق عناداً وتكبراً – كما هو الحال مع بني اسرائيل – فإن سبيل ترويضها: العبادةُ التي تزرع الخشوع في القلب، وأبرز ذلك: الصلاة والصيام ليحصل في القلب ما من شأنه أن يحمِلَ النفس على قبول الحق والتّخلّي عن القبيح الذميم، وسيأتي بيان شيء من ذلك عند آيات الصيام.





ووصَفَ الخاشعين بأنّهم من استقرَّ الإيمان بالبعث في نفوسهم، وشغَلتْ قلوبهم تأملاتهم في لقائهم الله تعالى ووقوفهم بين يديه للسؤال.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

والظن في الآية يحتمل وجهين:

الأول: العلم، سمي به لِما أنّه لّما شابهُ في الرُّجحانِ أُطلِق عليه، كذا قال أبو السعود[٤٠]، وقريب منه تعبير الرازي[٤١]، ولقاء الله على هذا هو البعث والنشور.

الثاني: أن يكون معنى الظن: الظن الحقيقي المعروف، وهو الرجحان، وإذا كان كذلك فيكون معنى الآية: الذين يظنُّون الموت؛ الذي عُبِّر عنه بلقاء الله، ومن ظن الموت في كل لحظة من اللحظات لانَ قلبُه وانقادت نفسه، وكان ذِكرُ الموت نافعاً له في الانخلاع من رَبقة استحواذ الباطل، وتطلب شهوات الدنيا والرياسة فيها، وهي مشكلة بني إسرائيل الأساسية.

التطبيق الأصولي / أصول التفسير

وعند إرادة الترجيح نلجأ إلى أصول التفسير وقواعد الترجيح لننظر فيها ونرجِّح أحد القولين طالما احتجنا إلى ترجيح واحد منهما، ونحن بين قولين؛ أحدُهما يستلزم نوع تأويل؛ وهو هنا تأويل الظن ليكون بمعنى العلم، والثاني لا يستلزم أي تأويل، فإن القول الأولى بالترجيح ذلك الذي لا يحتاج إلى التأويل، والقول الثاني إذاً أولى طالما لم نحتج فيه إلى التأويل، والله أعلم.

(٤٠) تفسير أبي السعود، ١/ ٩٨.

(٤١) تفسير الرازي، ١/ ٣٤٩.



ثم عطف على هذا قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فيحصل المعنى على التمام، والتقدير: الذين يتوقعون الموت في كل لحظة، وأنّهم بعده إلى الله راجعون.

تقديم الجار والمجرور على متعلقهما / التقديم والتأخير الاصطلاحي

وتقديم الجار والمجرور على المتعلق بهما خلافاً للأصل في تركيب الجملة: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص، أي راجعون إليه لا إلى غيره، ومحشورون إليه لا إلى سواه، ومن ظنّ ذلك واعتقده استقامت أعماله وترك العناد؛ فحاز الفوز.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

عادَ إلى خطابهم بالتذكير بالنعم، وذكّرهم هنا بنعمة عظيمة أخرى، وهي: تفضيلُهم على عالَمي زمانِهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعلِهم ورّاث الخلافة في الأرض من قبل، كما حصل لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ {ص ﴿٢٦﴾}.

وحمل الخلافة والتكليف بالقيام بأعبائها تشريف عظيم، وهو يستلزم المزيد من الشكر والاستقامة، ويأتي التذكير بها هنا متناسباً مع السياق كله، الذي فيه ذكر الخلافة في الأرض وتجريد بني إسرائيل من هذه الميزة وتسليمها للأمة الناشئة الصالحة.

تفسير القرآن بالقرآن / أصول التفسير

ويتوهّم بعضهم تفضيل بني إسرائيل مطلقاً- كما يحصل لبعض العوام-، وإنّما لَزِم تقييدُ ذلك التفضيلِ بأنه تفضيلٌ على عالمي زمانِهم لِمَا عرّفنا القرآن الكريم من غضب الله تعالى عليهم بعد جحودهم لكل نعمة من نعمه على ما يأتي في السورة في القادم من الآيات، وهذا لا يجتمع مع التفضيل المطلق بطبيعة الحال.





وهكذا يُفهم القرآن؛ بضمٍّ بعضه إلى بعض، وبجمع آيه في الموضوعات المتشابهة، وهو ما يسمّى بتفسير القرآن بالقرآن، وأرى التفسير الموضوعي جزءاً منه، نسأل الله أن يفتح علينا من أسرار كتابه.

وختم المقطع بأمرهم بالتقوى؛ تقوى يوم رعيب لا ينتفع الإنسان فيه بشيء مما يمكن أن ينفعه في الدنيا:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

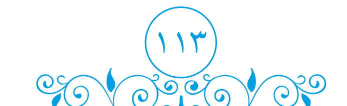
وتلك والله موعظة تتزلزل لها القلوب الحية، وتنكشف معها حُجُب الشهوات، وتنخلع لها أوتاد المعاصي؛ إذ أفادت انقطاع العباد عن كل ما شأنه حصول النفع لتبقي القلب معلقاً بالله وبطاعته دون التعلق بالأسباب المادية، وقد عُلم أنّ بني إسرائيل قومٌ ماديّون لا يَثِقُون إلا بالمادّة، فأعلمهم أنّه في ذلك اليوم:

فائدة التنكير / التعريف والتنكير

﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾: يعني لا تقضي، جزى عنه أي: قضى عنه ما تعلق بذمته، والتنكيرُ في كلِّ ما سبق من الكلمات لإرادة العموم، والنكِرةُ في سياق النفي تفيد العموم، وهو للإقناط من ذلك بالكليّة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾: بحيث لا تملكُ نفسٌ أن تقضيَ عن نفسٍ حقاً- كما في الجملة الأولى -، ولا تملك أن تَسلك في نُصرتها سبيلاً آخر، وهو الشفاعة لها بالإنجاء من العذاب.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي فدية، سميت الفدية عدلاً لأنّها تساوي المَفْديَّ وتفك رقبته، وهذا التنبيه على عدم استطاعة السبيل الثالث من سبل النصرة المعتادة، وهي افتداء المذنب المجرم.





لمسة إيمانية

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي يوالَوْن فتنصرهم الجيوش والقوى في مشاقَّتهم لله، وهذه المذكورات هنا هي ما اعتاد الناس في الدنيا التخلصَ به من العذاب؛ إمّا أن تقضي نفس الحقّ عن المحقوق فتفكّه، أو تشفع له، أو تفتديه بفدية أو تنصره بالقوة، فلمّا بطل كل ذلك كان لزاماً على كل عاقلٍ أن ينجي نفسه بالفرار إلى الله والالتجاء إلى رحمته وعفوه، والاستسلام لرسالته وشرائعه، والانقياد لها دون التكبر والعناد المفضي إلى الهلاك المحقق.

وبعد؛

فهذه نهاية الكلام في تفسير هذا المقطع، ثم يتلوه ذكر قصص بني إسرائيل وتعييرهم بما فرط منهم؛ إذ ما من نعمة مذكورة في القصص إلا وقد قابلوها بالجحود والكفران.

ومن حقِّ كل تلك الآيات القادمة الكثيرة أن تكون مقطعاً واحداً، لكني أوثر تقسيمه إلى دروس قصيرة تسهيلاً على القارئ وتنشيطاً، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المقطع الثامن

إعلان انتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.



التمهيد والمناسبة

وجه اتصال هذا المقطع من السورة بما قبله واضح جليّ؛ ذلك أنّ المقطع السابق ابتدأ بتذكير بني إسرائيل بنعمته سبحانه عليهم، وختم بذلك: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ثم في هذا المقطع جاء تفصيل هذه النعم والتذكير بأهمِّها واحدةً واحدة.

وقد نظم كل ذلك في سلك ذِكْرِ ما أنعم به من جليل النعم على بني إسرائيل وذِكْرِ ما قابلوها به من الجحود والكفران أو ألمح إلى ذلك.

والذي يجمع النعم المذكورة في المقطع أنّها مما حصل لبني إسرائيل إبَّان التسلط الفرعوني عليهم، من إنجاء الله تعالى لهم ببعثة موسى، ثم فرْق البحر لإنجائهم وإهلاك فرعون، ثم مواعدة موسى وإيتائه الكتاب، وما حصل معهم من تفاصيل في خروجهم من مصر؛ معجزات وأحداث متنوعة كثيرة؛ كان حريّاً بهم أن يستدلوا بها على الله وصفاته، ويشكروه على ما أنعم وجاد؛ فبدّلوا نعمة الله كفراً، وأحلّوا قومهم دار البوار!

التفسير

ابتدأ ذكر النعم عليهم بنعمة إنجائهم من فرعون وآله، وابتدأ بذكر هذه النعمة وإن لم تكن الأولى زمانياً! وسرُّ الابتداء بها قبل غيرها من النعم التي سبقتها في الحصول: لما أنّ ظهور النعم أجلى ما تكون إذا ما قورنت بضدها، ولما أن شعورَ الناس بها أكبر وأعظم إذا عاشوا في نقيض معناها، وأعظم ما عاشه بنو إسرائيل من الذل والهوان كان تحت القهر الفرعوني، فليبدأ ذكر النعم إذاً من تذكيرهم بنعمة إنجائهم منه!



النعمة الأولى: إنجاؤهم من آل فرعون:

✧ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

و﴿وَإِذْ﴾ ظرف زمان منصوبٌ بفعل محذوف تقديره: اذكروا، فالمراد تذكيرهم بوقت إنجائهم من آل فرعون، وإنّما اختار التذكير بوقت إنجائهم دون إنجائهم نفسه مع أنّه المقصود؛ لما أنّ التذكير بالوقت تنبيه إلى استحضار ما صاحب الوقت من المشاعر والأحوال والملابسات إضافة إلى الحدث الرئيس نفسه؛ الذي هو الإنجاء؛ فكان أبلغ في تحقيق المقصود من الشعور بالنعمة، كما ذكرنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وإنجاؤهم من آل فرعون يشير إشارتين:

الأولى: أنّ مكوثهم في آل فرعون كان هلكة، فكان إخراجهم إنجاء.

والثانية: أنّه لم يقل: أنجيناكم من عذاب آل فرعون، بل قال: من آل فرعون، فأقام ذوات آل فرعون مقام عذابهم للإشارة إلى أنّ ذواتهم صارت تعذيباً لبني إسرائيل؛ إيغالاً في بيان شقاء بني إسرائيل بهم، وشدة سلطانهم عليهم.

و"آل فرعون": أهله والمقربون من زبانيةٍ وملَأٍ، وهذا يشير إلى أنّ المتسلِّط عليهم لم يكن فرعون وحده؛ وإن كان الرأسَ في التسلُّط والتعذيب، وآله والمقربون منه، كلٌّ منهم كان مصدر تعذيب وشقاء لبني إسرائيل.

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ جملة حالية، والتقدير: نجيناكم منهم حال كونهم يسومونكم سوء العذاب، والسوم- كما قال الراغب-: "الذهاب في ابتغاء الشيء"[٤٢]، وغلب معنى الابتغاء في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، بمعنى: يبتغون سوء عذابكم، ومنه قولهم: سامه خسفاً، و ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشدُّه وأكثره إذلالاً.

(٤٢) تفسير أبي السعود، ١/ ٩٨.



وذكَر بعد إجمال العذاب صوراً من أشدِّه وأبرزِه على طريقة "بدل البعض من الكل"؛ فقال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، والتشديد في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ للتكثير، والاستحياء هنا: إبقاؤهن أحياء، ووجه كونه عذاباً أنّه لم يكن إلا لقصد الإذلال، وذلك أنّ آل فرعون قد اتخذوا من نساء بني إسرائيل محلاً للخدمة والاستمتاع، مع قتل الرجال، وهذا الغاية في الإذلال، وقتلهنّ- والحالُ هذه- أهون من سبيهنّ وإذلالهنّ.

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تذييل للآية، ويحتمل اسم الإشارة في: ﴿ذَٰلِكُم﴾ وجهين:

- أن يعود على ما مرّ ذكره من العذاب، والبلاء هنا ابتلاء بالشر.
- أن يعود على الإنجاء، والبلاء هنا بالخير، وهذا يجوز من حيث اللغة، فقد قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف ١٦٨].

والأول أظهر لمناسبته للسياق المفصّل لما جرى عليهم من العذاب، ولكون ما أصابهم من العذاب أقرب مذكور، والضمير يعود على أقرب مذكور.

ووجه جعل البلاء من ربهم: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ على الوجه الأول لاعتبار تسليطهم عليكم، وفيه إشارة إلى معصيتهم التي استجرّت ذلك.

وعلى الوجه الثاني وهو البلاء بالخير واضح؛ فالإنجاء من ربهم لا يَدَ لَهُمْ فيه.

وتنكير البلاء: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ مع وصفه بالعظيم إيذانٌ بعظم الامتنان عليهم على الوجهين المذكورين.

ولمّا ذكّرهم بذلك العذاب وبإنجائهم منه ذكّرهم بالحالة العجيبة التي حصل فيها الإنجاء، وانضاف إليها إهلاكُ الطاغية المستعبِد لهم، وهذا وحده نعمة مستقلة تستأهل الشكر:

النعمة الثانية: الحالة العجيبة لإنجائهم وإغراق الطاغية أمام عيونهم:

❖ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وفرق البحر: شَقُّه والفصل بين أجزائه، وإنّما كان ذلك بضرب موسى البحر بعصاه، كما قال في سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ {الشعراء}.

ذلك أنّ فرعون قد تبع بني إسرائيل بجنوده؛ فلمّا رأى بنو إسرائيل إدراك فرعون لهم، وقد انتهت بهم الطريق إلى البحر ظنّوا أنّ الأمر قد انتهى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ {الشعراء}.

والعجيب في وجه النعمة نعمةٌ كذلك، فإنّ إنجاء بني إسرائيل لم يَجْرِ على السنن المعتاد، وإنّما جرى على أغرب صورة وأعجبها، فكان أدعى للشكر والاعتراف للمنعم!

والباء في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ تحتمل السببية، فيكون المعنى: فرقناه لأجلكم أو بسببكم، وتحتمل كذلك (المُلابسة): فيكون المعنى: أنّ فرق البحر وانفلاقه كان يصاحب سير بني إسرائيل ويُلابُسه، وهي حالة عجيبة! وهي معجزة فريدة قريبة في دلالتها من الآيات المُلجئة التي تضطر رائيَها إلى الإيمان!

وعطفُ إغراقِ فرعونَ على ما ذُكرَ من النعم الجليلة على بني إسرائيل يشير إلى أنّ إغراقه لعنه الله ولعن أمثاله من الطغاة- للإشارة إلى أنّ إهلاك الطغاة نعمة ينعم الله تعالى بها على النّاس، وهو من النعم الجليلة التي تستأهل الشكر؛ كما قال مشيراً إلى هذا المعنى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ {الأنعام}.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تتميم لنعمة الله عليهم بإهلاك فرعون، ذلك أنّهم رأوه يغرق بأعينهم؛ فكان ذلك أشفى لقلوبهم منه، وأدعى إلى استظهار قوة الله وانتقامه من المتجبّرين.

وذكّرهم من بعد ذلك بمواعدة الله تعالى موسى عليه السلام، فقال:





النعمة الثالثة: مواعدة الله تعالى لموسى، وعفوه عن بني إسرائيل بعد اتخاذهم العجل

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ومواعدته عليه السلام لإيتائه التوراة- كما ظهر في آيات سورة الأعراف- نعمة يمتنّ الله تعالى بها على بني إسرائيل، وما كان منهم إلّا أن قابلوها بأقبح مقابلة إذ عبدوا العجل ظالمين، وأتبع هذا بذكر نعمة العفو عنهم بعد جُرمهم الذي يستحقون معه العذاب!

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ومواعدة موسى أربعين ليلة وإعطاؤه الميعاد بعدها وقد كانت ثلاثين ليلة فزيدت عشراً، ليزداد موسى عليه السلام استعداداً لكلام الله تعالى:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ {الأعراف}.

و"واعدنا" على وزن المفاعلة المفيدة للمشاركة للاعتبار أنّه عليه السلام أُعطي الوعد من الله تعالى فقبله واسْتعدّ له، وقرئ: (وَعَدْنا)، وهو واضح لا يحتاج إلى توجيه.

لمسة تربوية

ودلّت مواعدته أربعين ليلة ليتجهّز لاستقبال كلام الله تعالى وإيتائه التوراة على أنّ مواسم الطاعات الكبرى يحسن الاستعدادُ لها وتهيئةُ القلب لاستقبالها، حتى إذا حان وقتها وافقها العبد على خير حال؛ فانتفع بذلك، وقس حالك عليه.



وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ بيان لأول ما قابلوا به وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ بيان لأول ما قابلوا به نعمة الله، من حيث إنّه عليه السلام ذهب ليأتيهم بالكتاب الذي هو هدىً لهم: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ فما لبثوا حتى اتخذوا العجل إلهاً من دون الله؛ فما أسرع ما ضلوا ولم يستمسكوا؟!

وحَذَف مفعول الاتخاذ، فالتقدير: اتخذتم العجل إلهاً، وإنّما حُذف للعلم به، وللإشارة إلى قبح فعلتهم التي يحسن أن يشار إليها دون التصريح بذكرها، على طريقة العرب في مثل هذا.

حذف المفعول / الحذف

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ الواو واو الحال، والمقصود من تذييل الآية به: بيان أنّهم ليسوا في اتّخاذهم العجل بمعذورين ولا متأوّلين بل هم ظالمون؛ حتى عند أنفسهم وفي اعتقادهم.

وذكَرَ العفو عنهم بعد هذا الذنب العظيم فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد ذلك الحنث العظيم والجرم الكبير، وهذه فائدة قوله: ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، زيادة في الامتنان، إذ العفو بعد تقدم مثل ذلك الذنب نعمة بتمامها جزيلة جليلة.

وإنّما عفا عنهم رجاء أن يحصل منهم شكره على ذلك: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، والرجاء هنا ليس في حق الله تعالى، وإنّما بالنسبة إلى البشر؛ إذ إنّ مثل هذه النعمة عظيمة بحيث يصير من أُنعِم عليهم بها على رجاء حصول الشكر منه والاعتراف لله تعالى بها.

وفي الآية دليل على أنّ فتح باب التوبة على العبد نعمة حقيقة بالحمد والشكر وحريٌّ بالعبد أن يقدُرَها قدْرَها ويقابلها بما يناسبها من شكر الله تعالى عليها، لا غرو؛ فإنّ ما يورث الجنّة من النعم هو أعظمها

لمسة تربوية





وأجلّها وأحقها بالشكر والتقدير!

ثمّ ذكّرهم بما حصل في تلك المواعدة المذكورة من إيتاء موسى عليه السلام الكتاب والفرقان:

النعمة الرابعة: إيتاء موسى عليه السلام الكتاب والفرقان

❁ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

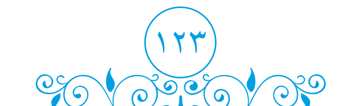
والكتاب والفرقان هما التوراة، لكنّها إنّما سميت بالأول لاعتبار كتابتها، وسميت بالثاني لاعتبار تفريقها بين الحق والباطل وحصولِ الكفاية بها فيما يتعلق بذلك، والألف والنون المزيدتان في "الفرقان" لإفادة الكثرة والامتلاء!

والتعبير عن إنزالها على موسى بالإيتاء؛ لإظهار مزيد امتنان عليهم؛ لِمَا يترتب عليها من حصول الهداية التي يورَث بها المجدُ في الدنيا والسعادةُ والخلد في الآخرة؛ لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، واستعمال حرف الترجي "لعلّ" لما أنّ إيتاءهم هذا الكتاب مظنة حصول الهداية لهم والتوفيق؛ سيّما إذا ما رافق ذلك إقبال عليه واتباع لشريعته وعمل بها.

وذكّرهم قبل الانتقال من المقام بما شرعه لهم طريقاً لحصول العفو عنهم بسبب جرمهم الكبير؛ اتخاذهم العجل من دون الله تعالى، وهي النعمة الخامسة:

النعمة الخامسة: دلالتهم على طريق التوبة، والعفو عنهم قبل شروعهم بالسبيل العسير:

❁ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.



وقد ذكرت الإسرائيليات قصصاً في قتلهم أنفسهم، ولمّا كنّا لا نرى الاعتماد على الإسرائيليات في تفسير آيات الله تعالى فإنه يمكننا أن نقول فيها:

إنّ الآية قد قصّت علينا كلام موسى عليه السلام لقومه في أمرهم بقتل أنفسهم، ولم تذكر حصول ذلك، والذي يبدو أنّ هذا حُكْم قد أوجبه الله تعالى عليهم ثمّ نسخه عنهم قبل أن يفعلوه، وقد ذهب إلى هذا من المفسرين غير واحد؛ منهم: ابن عاشور في التحرير والتنوير[٤٣].

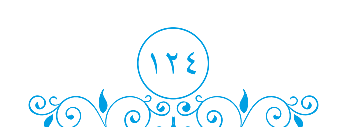
وهو- لعمرو الحق- قولٌ حسن جداً، متَّسِقٌ مع مقاصد الشريعة في حفظ النفوس، وهو محلُّ اتفاقه بين الشرائع ولا شك، وقد امتنّ عليهم في الآية السابقة بحصول العفو: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، وهو يرجِّح ما ذكرنا.

وتقديمُ موسى عليه السلام بين يديْ أمرهم بقتل أنفسهم تقديم بليغ؛ ذلك أنّه ابتدأ بندائهم بوصفهم: قومه؛ منسوبين إليه، وفي هذا من إظهار كمال الحرص عليهم ما فيه، ثمّ أتبعه ببيان عظيم ما اقترفته أيديهم من الذنب: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾، ثمّ بنى عليه أمرهم أولاً بالتوبة: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، ثمّ فصّل طريق التوبة الشاقّ فقال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

سر اختيار الألفاظ القرآنية

ومن بديع أسرار اختيار الكلمة في القرآن أنّه اختار ههنا اسم "البارئ" من أسماء الله الحسنى، وهو موافق للمقام أشد موافقة، من حيث إنّ البارئ كالخالق في معنى مُوجدهم من العدم، والمأمور به: إعدام النفس، فبيّن أنّ الذي أمرهم بإعدام أنفسهم هو موجدها من العدم وخالقها ابتداءً.

(٤٣) التحرير والتنوير، ١/ ٥٠٣.





فرق بين كلمات القرآن

والبارئ هو الخالقُ الخلقِ على تناسب وتعديل؛ فهو أخص من الخالق، أفاده ابن عاشور[٤٤].

ولمّا كان يتبادر إلى الذهن أنّ مثل هذا الأمر شرّ محضٌ، أتبعه ببيان كونه عند الله تعالى خيرا: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، فإنّ الخير فيما أمر الله تعالى به، ولو كان إزهاق النفس، والشر فيما نهى عنه وإن كان الإبقاء عليها، وقد علمت أنّ الله تعالى لا يأمر إلا بما تقع فيه مصلحة البشر، ولعل المقصود:

أنّ عزمهم على فعل ما أمرهم به هو الخير المحض؛ إذ إنّه ينسخ عنهم ذلك ويعفو عنهم لكنْ بعد العزم على فعله، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يكون بقية كلام موسى عليه السلام مع قومه، والفاء هنا هي الفاء الفصيحة (التي تفصح عن الشرط المحذوف)، والتقدير: فإن فعلتم أو عزمتم تاب عليكم، ويحتمل أن يكون قد اكتمل كلام موسى عليه السلام عند قوله: ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ من كلام الله مع المعاصرين لنزول القرآن، وهو محلُّ التذكير بالنعمة من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾، والتقدير: واذكروا إذ قال موسى... فتاب عليكم؛ فلم يُنْفِذ الأمر بالقتل في أسلافكم، وهو قولٌ حَسَنٌ محتمل، والله أعلم.

وجاء قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيباً لهم بالتوبة على القول الأول، وعلّة لتوبته عليهم على القول الثاني.

(٤٤) التحرير والتنوير، ١/ ٥٠٤.



النعمة السادسة: بعثهم بعد الصعقة التي صُعِقوها نتيجة جرأتهم على الله:

✧ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وموطن النعمة ههنا أنّه سبحانه أعادهم إلى الحياة بعد صعقهم رحمة بهم؛ نتيجة جرأتهم على الله تعالى، والموتُ على المعصية مصيبةٌ تحيق بصاحبها وأيُّ مصيبة!

فَبَعْثُهم بعد صَعْقِهم إنجاءٌ لهم من عواقب الموت عليها، وفرصةٌ أُخرى يُعطَوْنها بعد فرصة... لعلهم يشكرون!

ذكّرهم الله بقولهم لنبيهم على سبيل التعنُّت والعناد: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ونادَوه باسمه: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ جرأة عليه واستهتاراً بمقامه النبوي الكريم، وملامح الكفر تظهر بادية في كلامهم غير خافية؛ وابتدؤوا كلامهم بحرف النفي قويِّ الدلالةِ على النفي: ﴿لَن﴾ تيئيساً له من إقناعهم، وقطعاً لرجائه في معاودتهم، واللام في قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ إمّا أن تكون لام لأجل (التعليلية)، فيكون المعنى: لن نؤمن بالله لأجلك، أو لن نؤمن بالتوراة التي جئتَ بها لأجلك حتى نرى الله جهرة، أو تكون للإشارة إلى التضمين ، وهو إشراب فعل معنى آخر، يدل عليه الحرف الذي تعدَّى به الفعل المذكور، ولا يكون ممّا يتعدى به عادة، وهو مبحث معروف؛ فليرجع إلى ضبطه، فإنّه من الأهمية بمكان.

التضمين

والوجه هنا أن يُضمَّن فعل (آمن) معنى فعل (انقاد) أو (استسلم) أو أشباهه، فيصير المعنى: لن نؤمن بك منقادين لك أو مستسلمين لك أو ما يشبه ذلك.

وقولهم: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ غاية التجرؤ والتوقُّح، و"جهرة" من الجهر، وهو الظهور الواضح، فهم- قاتلهم الله- لا يكتفون بمشاهدة العجيب من المعجزات البينات، وإنّما يطلبون- كأنّ الله لم يعطهم معجزة أبداً- أن يَرَوه رؤيةً واضحةً بيّنة ظاهرة!

والعجيبُ من بني إسرائيل وقوع هذا التعنّت والتوقُّح الكفري بعد سلسلة بديعة من الآيات العظام؛ لعلّ أعظمها انفلاق البحر بهم وإغراق فرعون أمامهم! وهذا دالٌّ على جبلّة نكدة عريقة في الكفر، لا تنفع فيها الآيات، ولا تتأثر بالبينات ولا تهتدي بالكتاب الهادي.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: بيان لعاقبة توقحهم على وجه مخيف! فالفاء المفيدة للترتيب والتعقيب مؤذنة بسرعة أخذهم بقولهم، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة].

والتعبيرُ بالأخذ فيه معنى الإحاطة والاستحواذ، والصاعقة تحتمل وجوها، كلّها في معنى كون الذي أخذهم هلاك خاطف سريع، وهو يحتمل أن يكون ناراً من السماء أو صيحةً أو غير ذلك، وقد سمّاها الله رجفة في سورة الأعراف- وسيأتي-، لكنّ الرعب الذي أصابهم إنّما أصابهم وهم ينظرون بكامل قواهم الحسية والعقلية، ويرون هلاكهم بأنفسهم، وهذه حالة مخوفة رعيبة!

وإنّما كانت النعمة عليهم ببعثهم بعد موتهم الشنيع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

فهي فرصة جديدة لهم إذاً؛ لعلهم يشكرون الله على إنقاذهم من الموت ميتة المعذَّبين الكافرين!



وقد قصّت سورة الأعراف علينا القصة: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ {الأعراف ١٥٥}.

ثمّ عطف على هذه النعمة المفهومة ممّا سبق نِعَماً أخرى؛ فقال:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ولم تجئْ هذه النعم مسبوقة بـ (إذ) على النهج السابق واللاحق في تعداد النِّعَم، بسبب كون ما ذُكِر من جناياتهم السابقة مستحقةً لعظيم العذاب؛ فلم يعفُ عنهم فحسب، بل زاد على ذلك نعماً أخرى لا تجري على سنن ما يعرفه الناس ويألفونه من النعم، وهي هنا: تظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى، وقد كانوا يستحقون على معصيتهم المذكورة من اتخاذ العجل ما يضادّ ذلك من الحرق والتجويع!

تظليل الغمام: بأن جعل الغمام يظلهم من الشمس في سيرهم تحت الشمس الملتهبة، تسير بسيرهم وتقوم لقيامهم، والغمام: السحاب الذي يستر عنهم ضوء الشمس، والغمّ: ستر الشيء، قاله الراغب[٤٥].

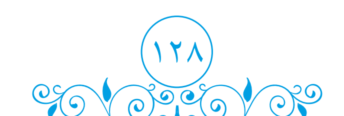
إنزال المنّ والسلوى: وذلك رزق ساقه الله تعالى إليهم من غير حول منهم ولا قوة والمنّ: شيء كالطلّ فيه حلاوة؛ يسقط على الشجر، وقال ابن عاشور:

" المنّ مادة صمغية جوّية ينزل على شجر البادية؛ شبه الدقيق الدلول؛ فيه حلاوة إلى الحموضة، ولونه إلى الصفرة"[٤٦].

---

(٤٥) المفردات، ٦١٣.

(٤٦) التحرير والتنوير لابن عاشور، ١/ ٥٠٩.



والسلوى: طائر بريّ لذيذ اللحم سهل الصيد كالسماني أو هو السماني، قال الراغب: "وأصل السلوى من التسلي"[47]، ولعله سمي به لما في صيده ولذيذ طعمه من التسلية عنهم وتخفيف الطريق.

وهاتان النعمتان نِعَمُ ترفيهٍ لهم، جاءتا في محلِّ سحقهم على ما بدر منهم في حقه سبحانه من اتخاذ العجل!

وقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إشعار بعفو زالت معه المعاتبة فضلاً عن التعذيب، والجملة على إرادة القول، والتقدير: وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم.

والطيبات من الرّزق هنا: لذيذ الرزق وما يستطيبه الآكل، ولا يصلح تفسيره بالحلال، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فإنّه إن كان محتملاً في الآية هذه، فهو ضعيف هنا في خطاب بني إسرائيل، إذ هي نعمة يمتنّ بها عليهم من غير كسبهم أصلاً.

وإسناد الرزق إلى الله: ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ زيادة امتنان، وتذكيرٌ برزق جاءهم لم يبذلوا فيه جهداً، وهم في مقابل كلِّ ذلك ما كان منهم إلّا ازدادوا جرأة على ربهم وتعنتاً مع نبيهم؛ أشعر بذلك قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقد نطقت الآية بأن ظلمهم وكفرهم وتعنّتهم لم يكن فيه إضرار بالعليّ الكبير، والغنيّ الحميد، وإنّما عاد وبال ذلك عليهم؛ طرداً من منزلة الرضى إلى السخط، وتجريداً من فضائل الاستخلاف!

ثم إن تقديم المفعول مفيد للحصر والتخصيص: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لا غيرها ولم يعد وبال ذلك وضرره إلّا عليها، والله غني عن العالمين!

---

(٤٧) مفردات ألفاظ القرآن، ٤٢٤.



النعمة السابعة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذا تذكير لهم بنعمة أخرى ممّا أنعم به عليهم، تلكم هي تمكينهم من دخول القرية التي يأكلون منها حيث شاؤوا رغداً، وهم وإن لم يفعلوا ذلك الدخول لمعصيتهم وجبنهم وتغييرهم ما أمر الله تعالى به فإنّ وجه النعمة هو في تمكينهم من ذلك، قال ابن عاشور: "وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم، لأنّ النعمة نعمة؛ وإن لم يقبلها المنعم عليه"[٤٨].

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية: ومنبع الخلاف فيما أرى: الاتكاء على الإسرائيليات لمعرفة القصة في تفاصيلها، والكشفِ عن "مبهمات القرآن" فيها، وقد علمتَ- سددك الله- أنّنا لا نرى شيئاً من ذلك يجوز تفسير القرآن به، ولو كان فيه نوع فائدة لذكره الله تعالى، لكنه يعلّمنا منهج الوقوف مع ما هو نافع؛ لا نجاوزه إلى ما يقتضيه الفضول.

و"القرية" المذكورة ههنا من مبهمات القرآن، ويمكن أن يُراد بها قرية بيت المقدس أو غيرها من القرى، والله أعلم.

وقول الله لهم: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إنّما هو على لسان نبيهم، لعله موسى عليه السلام كما هو المتبادر أو غيره، ورتّب على دخولهم: تمتعَهم بالأكل منها أكلاً وفيراً هنيئاً: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وهو مؤذنٌ بطبيعة القرية، وبركتِها وطيبِ العيش فيها، وهو الذي جعلنا نميل إلى كونها بيت المقدس، وليس هو بدليل كاف- كما لا يخفى-؛ إنما هو استئناس بإشارة؛ لا أكثر! ولا فائدة كبيرةً في التحديد على أية حال.

---

(٤٨) التحرير والتنوير لابن عاشور، ١/ ٥١٢.



لكن استعمال اسم الإشارة للقريب: ﴿هَٰذِهِ﴾ للإشارة إلى قربها الحقيقي وهي أن تكون بمحاذاتهم، أو المجازي؛ بأن تكون في المتناول لو ائتمروا بأمر نبيهم عليه السلام ودخلوها.

وقد تلا أمرَهم بالدخول وما بناه عليه من الأكل الرغيد- ترغيباً لهم- أمرُهم بكيفية الدخول؛ فقال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وهذا يحتمل السجود الحقيقي والسجود المجازي، أما السجود الحقيقي فالمعنى عليه: أنّه أمرهم أن يدخلوا منحنين مطأطئي رؤوسهم تذلُّلاً لله تعالى، أو أن يسجدوا سجود شكرٍ لله فَوْر الدخول؛ اعترافاً بنعمة الله تعالى عليهم وشكراً له، وأما على المعنى المجازي للسجود فبأن يكون المقصود: الدخول خاشعين من غير زَهوٍ ولا مَخْيَلة، والمعنى الحقيقي أولى وإن كان في السياق ما قد يقويهِ، ووجه ترجيحهِ الحديث الذي يأتي ذكره بعد قليل.

والباب: باب القرية ومدخلها.

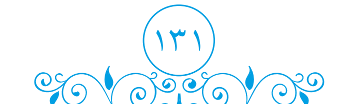
قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، الحِطّة من الحطّ، والمقصود: أن يسألوا الله تعالى أن يَحُطَّ عنهم خطاياهم ويغفرها لهم، والله أعلم، وقد جَعلَ في جواب الأمر ما يترتب عليه: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وهو واقع في جواب الأمرين الأخيرين في الآية: (ادخلوا، وقولوا)، والتقدير: فإن دخلتم وقلتم؛ نغفر لكم خطاياكم، ثم زادهم بعد ذلك من فضله وعطائه؛ فقال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: فوق المغفرة الموعودة.

وفي مقابل هاته النعمة لم يَخْرُج سلوك بني إسرائيل عن المألوف من فعلهم: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴿٥٩﴾﴾.

وتبديلهم القول قد فسره النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعير[٤٩].

---

(٤٩) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص١٥٦/ ح٣٤٠٣).



وهذا هو التفسير النبويّ لِمَا حصل من بني إسرائيل مما سمّاه الله تعالى تبديلاً، وما دام الحديث صحيحاً فإنّي لا أستجيز تفسير الآية بغيره، ولا التوقف بالأخذ به، وإنّما أُنيطَ تفسير القرآن وبيانه برسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فبما أن الحديث صح فالواجب الذهاب إلى مقتضاه في تفسير الآية.

وقد بيّن الحديث أن تبديل أمر دخولهم ساجدين كان بدخولهم على أستاههم وتبديل أمرهم بقول: حطة؛ كان بقولهم حبة في شعير، وإنّما فعلوا ذلك استهزاء بأمر الله وجرأة عليه.

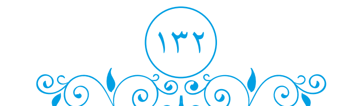
وقد ذكرت الآية تبديلهم للقول، ولم تذكر تبديلهم للفعل، وكان ذكرُ ما ذُكِرَ مغنياً عن ذكر ما لم يُذكَر، لأنّهم لئن بدلوا القول- وهو سهل يسير- فتبديلهم للفعل من باب "أولى"، وهو أشق، قاتلهم الله!

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

بيانٌ لعاقبة استهزائهم، وإشارة إلى أنّ عذاب الله وشيك النزول بمن تجرّأ على دينه.

وأسند الفعل إلى الضمير المتصل المرفوع (نا) في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ المفيد للتعظيم لمناسبة المقام، فهو مقام جلال الله، الذي يُهلِك أعداءه ويبطش بهم.

واختلف في تحديد "الرجز" النازل عليهم من السماء، ويُحتمل أن يكون الطاعون ونسبته إلى السماء لبيان أنه لم يكن بسبب أرضيّ، ويحتمل أي نوع من أنواع العذاب الماحق، وإنّما أظهر في مقام الإضمار؛ بأن قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دون: فأنزلنا عليهم، لبيان كون العذاب قد





اختُصّ بأولئك المبدّلين الظالمين، وقد عبّر بالموصول وصِلَتِه: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في الموضعين[50] للتسجيل عليهم بالظلم، ولتعليل الذي أصابهم، ولبيان كون الظلم مدعاة لمثل ذلك العذاب.

تقعيد فكري

وفي الآية:

الإشارة إلى أن تبديل الشريعة والتلاعب بها والتجرؤ عليها- كما نرى في أيامنا- مدعاة لنزول العذاب الأليم من السماء؛ آخذاً بالذين ظلموا.

ومظاهرُ التلاعب بالشريعة وتبديلها تبدو في صور عديدة؛ منها: الانتساب إلى الشريعة والإقرار بأنها مصدر القوانين ثم التشريع بخلاف ما جاءت به، وتنحيتها إلا من مظاهر الاحتفالات بالمناسبات، والتبرك بافتتاحها بالقرآن الكريم! فضلاً عن غير ذلك من صور المعاداة المباشرة، التي بِتْنا نراها؛ ولا خوف من الله ولا خجل من عباده، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثمّ إنّ أقبح مَن قد يقع منهم ذلك: أولئك الذين ينتسبون إلى العلم، ويتزَيَّون بأزياء العلماء، ويتلقّبون بأرفع الألقاب ثم يتلاعبون بالشريعة على حسب أهواء السلاطين والأمراء، والله يجزيهم بما يستحقون!

النعمة الثامنة:

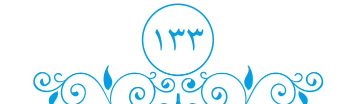
﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(٥٠) المقصود بالموضعين:

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.





هذه النعمة الثامنة في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل وذكرِ ما قابلوا به نعم الله تعالى من كفران وجحود، وفي قلب هذه النعمة ثلاث نعم مستكنّة، وهي:

- الرِّيُّ من العطش في مسيرهم من مصر.
- وفورة الماء من غير مظنته؛ وهو الحجر.
- وكون العيون التي تفجرت من الحجر: اثنتي عشرة عيناً؛ على عدد أسباط بني إسرائيل بحيث يحصلون على الماء من غير تزاحم.

والاستسقاء: طلب السقيا، فالسين والتاء للطلب، وتعديته باللام، لمعنى كون طلب السقيا لأجل قومه، والظاهر أنّ القوم لم يستسقوا معه؛ وإنّما كان هو الداعي المستسقي، فأجابه الله تعالى إجابة عجيبة، وأخرج له الماء من غير مظنته: الحجَر، وإنّما كان ذلك كذلك: إكراماً له وإظهاراً لكرامته على الله، وآيةً لبني إسرائيل تُضاف إلى سائر الآيات التي رأوها! وقد جاءه الجواب سريعاً- كما تدل فاء التعقيب-: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، والظاهر أنّ الحجر ليس حجراً معيناً؛ بل أي حجرٍ من الحجارة، فالألف واللام للجنس، أو أنّها للعهد، ويكون المقصود حجراً معيناً يعرفه موسى، والله أعلم!

الحذف

وقوله: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: بيان للمسبَّب عن ضرب الحجر بالعصا، والفاء في قوله: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ هي الفاء الفصيحة ؛ التي تفصح عن محذوف طوى السياق ذكره، والتقدير: فضرب موسى الحجر فانفجرت، وإنّما حسُن الحذف للإشارة إلى سرعة حصول انفجار الماء، مع معلومية كون موسى عليه السلام بحيث لا يمكن أن يتخلّف عن تنفيذ أمر الله، فيصير التصريح بذلك كالفَضلة في الكلام.



وقد عبّر عن خروج الماء بالانفجار للإشارة إلى كثرة تدفقه منه، آية منه وإنعاماً.

وإنّما كانت اثنتي عشرة عيناً لاعتبار كون بني إسرائيل اثني عشر سبطاً، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب.

ولذا قال بعدها مبيناً ذلك: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، وهو امتنانٌ آخر بتخصيص عين لكل سبط منهم، فلا يتزاحمون لشرب الماء، وهي نعمة بحيالها!

لمسة فكرية

ويمكن أن يُستنبط من ذلك:

أن كفاية الناس التزاحمَ على أرزاقهم ومعايشهم وحاجاتهم مطلبٌ إنسانيٌّ ونعمة تشكر، وحاجة تتطلع لها النفوس الأبية، وأما اضطرارُهم إلى ذلك فهو عبث بإنسانيتهم وإذلال لهم وإقامةٌ للكرام منهم في مقام مهين.

وأتبعها ببيان كون ذلك في مقام التجلي بالنعم والإغداق بالرعاية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللّهِ﴾، والتقدير: قلنا: كلوا واشربوا، والأمر في ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ لإظهار المِنّة في الإنعام.

وقد ذكر الأكل لاعتبار ذكره قبل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، فبيّن هنا أنّه قد جمع لهم بين أطايب المطعومات وأطايب المشروبات، وكل ذلك على وجه غير معتاد ولا تجري عليه قوانين الطبيعة، وهو الذي لأجله عبَّر عنه برزق الله مع أن كلَّ رزقٍ إنّما هو من الله!



ولمّا كان الرخاء أحياناً قد يقود إلى الطغيان والفساد؛ أتبعه بنهيهم عنه فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾، والعثي: أشد الفساد، وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدٌ لما في معنى (العثي)، والله أعلم.

لمسة إيمانية وتربوية

وفي الآية:

التنبيه على أنّ سؤال الله تعالى بصدق وحاجة وتضرع قد يتبعه إجابة غيرُ متوقعة، ومدهشةٌ غير معتادة؛ تدهش الإنسان من عطاء الله سبحانه، وأنّ الفرج يكاد يسبق إلى المكروب بما لا يخطر له على بال! وأنّ من لجأ إلى الله تعالى حصل له من أنواع الخيرات ما يكفيه؛ بل ما يسره ويرضيه!

النعمة التاسعة وما خالطها من قِبلهم:

❖ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۝٦١﴾.

اختلف العلماء في تحديد نوع النعمة في هذه الآية؛ فقيل: إجابتهم إلى ما طلبوه فيها، وليس هذا القول بقويٍّ عند النظر في سياق الآية، وقيل: بل العفو عن إساءتهم في الأدب؛ الذي دلّ عليه قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾؛ كما سيأتي، ويمكن أن يكون الكلام في بيان سوء اختيارهم في شهواتهم، والاختيارُ دليلُ عقل اللبيب، كما ذهب إليه ابن عاشور[٥١].

ولا شكَّ أنَّ تعييرَ المخاطَبين من بني إسرائيل بهذا الصادر من أسلافهم دليلٌ على اتحادهم في العقل والمسلَك، وحذوهم سننهم وطريقتهم حذو القذة بالقذة!

---

(٥١) التحرير والتنوير، ١/ ٥٢٠.





هذا، وسوء الأدب بادٍ في لهجتهم في الكلام مع نبيهم، وفي تعبيراتهم عن نعمة الله عليهم، ذلك أنّ الآيات السابقة بيَّنت عظيم ما رزقهم الله تعالى ومنَّ به عليهم من المنّ والسلوى وتفجير الماء من الحجر، كلُّ ذلك على نمط فريد غير مألوف، ومن غير جهد منهم مبذول ولا تعب في تحصيله، ثم إنهم بعد ذلك كله يقولون: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وقولهم هذا يملؤه الامتعاض والضجر مما سموه: "طعاماً واحداً"، فالصبر يستلزم حبس النفس على المكروه، ففيه الإيماء الواضح لكراهتهم رزق الله، وإنّما يُظهرون ذلك كذلك ازدراءً للنعمة وعدمَ تقديرٍ لها وللمنعم بها سبحانه من حليم!

وتسمية ألوان ما يأتيهم: طعاماً واحداً؛ تقليلٌ من شأنه واحتقار له، وذلك كان منهم في مقابل شكر النعمة والاحتفال بها.

ثم تصدير كلامهم هذا ب ﴿لَن﴾ القوية في الدلالة على النفي أرادوا به تيئيس موسى عليه السلام من مراجعتهم، وقطع ونمطه إياهم بالتأدب وترويض النفوس المارِدة!

لمسات تربوية

وفي الآية:

التثريب على من كان حاله مع نعم الله كحال بني إسرائيل، والتنبيه على قباحة ذلك الحال، وأنّه لا يليق بالعباد الصالحين، وقد كان من دأب الصالحين: الاعتراف بجليل النعم مع حاجتهم وفقرهم، كالذي كان من موسى عليه السلام إذ أوى إلى الظل في مدين بعد أن سقى للمرأتين وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ {القصص}، وهو ملحظ يغفل عنه الكثير؛ فيسيئون الأدب؛ وإن كانوا في مقام الضراعة، فليُتنبّه!



وفرَّعوا على إخبارهم لموسى عليه السلام بذلك الطلب إليه بأن يدعو الله تعالى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من خسيس النباتات: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، ونسبتهم الرب إلى ضمير موسى مع مراعاة تضجرهم في صدر كلامهم مؤذنٌ بالمزيد من قلة التأدُّب مع الله تعالى ومع رسوله موسى عليه السلام.

والفعل ﴿يُخْرِجْ﴾ مجزوم لأنه واقع في جواب الأمر، ودلّ ذلك على أنهم يجعلون الأمر عند موسى عليه السلام وحده، في ثقة منهم لإجابة الله تعالى دعاءه، كأنهم يقولون: إنه بمجرد دعائك يخرج الله تعالى ذلك، فلا تبخل علينا بالدعاء.

وهل تركُهمُ الدعاءَ بأنفسهم؛ مع ما في نسبة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام فيه ما يلامون عليه، وما يدل على ضعف صلتهم به سبحانه؟ يمكن أن يكون ذلك، والله أعلم.

ومطلوب القوم- كما ترى- بعضُ ما تنبته الأرض- ﴿مِن﴾ الأولى تبعيضة- مِن بقلها: وهو بعض الخضار؛ كالنعناع والكُرَّاث وأشباهه، وقثائها: كالخيار وأشباهه، وفومها: اختلف فيه، والأظهرُ أنه الثَّوم المعروف، وعدسها وبصلها: وهما معروفان.

ووجه المؤاخذة:

أنهم ازدروا نعمة الله تعالى فلم يشكروها ولم يقدروها، في حين أنّهم قد عظموا خسيس المزروعاتِ سهلةِ المتناول مما هو مزهود فيه عادة، ولذا قد أجابهم نبيّهم إجابة المتعجب الموبِّخ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾! وكلامُه هذا عليه السلام دالٌّ على أنّ القوم في كلامهم السابق لم يَطلُبوا أن تجمع مطلوباتهم التي طلبوها إلى ما أكرمهم به الله تعالى من قبل، وإنّما زهدوا فيه، وأظهروا كمالَ الرغبة عنه إلى خسيس الزرع، فدلّ على سوء الاختيار الدال على قلة العقل!

ومن فوائد اللغة في الآية:

أنّ الباء في فعل: "استبدل، وتبدل" تدخل على المتروك، كما في الآية، وكما في قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ {النساء ٢}، وغير هذا كثير.





وبعد أن وبّخهم متعجباً من حالهم لم يعقب بكلمة، وإنّما أمرهم بالهبوط إلى أي مصر من الأمصار لتحصيل مطلوباتهم الخسيسة بديلاً عن رزق الله الكريم، فقال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فالأمر في قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ للإباحة المشوبة بالتوبيخ.

ويحتمل أن يكون المقصود ب ﴿مِصْرًا﴾ مصر التي خرجوا منها، وجوّز صرفها بعضهم، وهو ضعيف، فإن كان كذلك فأمْرُهم بذلك للتهديد ولتذكيرهم بأيام الذلّ والاستبعاد!

لفتة تربوية وفائدة

وفي الآية:

أن مَن تربّى تحت سياط الاستبعاد استمرأه، وأفسد الاستبدادُ والاستعبادُ طبعَه؛ بحيث صارت الحرية والكرامة غريبة عليه، موحشة له، وهذا شأن المستعبَدين والمستذَلّين؛ يستعذبون الخسة والدناءة حتى تكون مطلوباتٍ لهم ومرغوباتٍ يرعونها ويحثّون الخطى لأجلها! ولعلك قد رأيت الكثير من ذلك في سلوك الشعوب التي رزحت تحت وطأة الاستبداد حيناً طويلاً من الزمان.

ثم جاء التعليق الرباني في آخر هذا الكلام عن سوء اختياراتهم وجنوحهم نحو الخساسة والدناءة؛ مسطراً قدر الله تعالى الملازمَ لهم إلى يوم القيامة؛ جاء مؤذناً بفساد الجبلة "الإسرائيلية" ودوام فسادها جيلاً فجيلاً: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، والذلة: الصَّغار، وهو ضد العز، والمسكنة: من السكون، ومنه: المسكين؛ سمي به لأنّه قليل الحركة والنهوض لِمَا به من الفقر، ومن عجيب ما قاله القرطبي في هذه الآية: "فلا يوجد يهوديّ- وإن كان غنيّاً خالياً من زيّ الفقر وخضوعه ومهانته"[52].

(٥٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٤٣٠.

والتعبير عن لزوم الذلة والمسكنة لبني إسرائيل بالضرب، لما أنّ الضرب هو اللزوم، يقولون: ضربت الخيمة: إذا ثبتَّ أوتادها في الأرض فلزمَتْها وأحاطت بما في داخلها فكأنّما شُبِّه لزوم الذلة والمسكنة لهم بالخيمة المضروبة؛ أي: التحفتْهم الذلة الْتحاف الخيمة بمن رَبَتْ عليه، كما في مفردات الراغب[٥٣].

ولا بد من التنبّه على أنّ لزوم الذلة لهم أبداً قد استثني منها حالان؛ كما في سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، ولم يُستثنَ من لزوم المسكنة: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾[٥٤].

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾؛ بمعنى: رجعوا بغضب منه سبحانه، وهو نقيض ما كان الأصل أن يحصل، ذلك أنهم خرجوا؛ والمأمولُ أن يصلوا إلى رضى الله أو هكذا كان ينبغي، إلّا أنّ نقيض المأمول هو الحاصل، لسفاهتهم وكفرهم وجرأتهم وسوء طباعهم، والجزاء من جنس العمل!

وقد جاء تعليل ذلك وبيان سببه في قول الله تعالى بعد:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الضرب عليهم بالذلة والمسكنة وهذا البوء بالغضب من الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وهذا والله منتهى الكفر والتوقح والمعاداة لله ولرسله من هذه الجبلة النكدة.

وكذا المعاصي الكبار تستأهل غضب العزيز الجبار، نسأل الله السلامة والرضى.

وتقييد قتل النبيين بغير الحق وهو لا يكون بحق أبداً للإعلام بأنّه عندهم كذلك بغير الحق وباعتقادهم كذلك، فهم إذاً مصرّون عن علم وقصد على حرب الله ورسله!

والعجيب في نظم الآية: تعليل العلة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو يعود على الكفر بآيات الله وقتل النبيين بغير الحق: ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾!

---

(٥٣) المفردات، ٥٠٥.

(٥٤) ارجع إلى كتابي "بيت المقدس وأسس المعركة مع اليهود"؛ لمزيد تفصيل في تفسير هذه الآيات وتجلياتها الواقعية.





والذي يستدعي التأمل أنّ سبحانه بيّن السبب في عقوبتهم- وهو كفرهم وقتلهم النبيين- ثم بيّن سبب السبب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فدلّ على أنّ معاصيهم وفسقهم وفجورهم وكثرة اعتداءاتهم أدّت بهم إلى خطيئات أكبر وموبقات أعظم؛ رأسُها الوقوعُ في الكفر الصريح وقتل النبيين، وقد قيل: "المعاصي بريد الكفر".

لمسة تربوية

والذي ينبغي أن يُتنبه إليه أنّ هذا ليس خاصاً ببني إسرائيل، بل هي سنة سائرة؛ تصيب من انتهج هذا النهج وسار على هذا الخط، وعليه؛ فليتنبه المؤمنون إلى خطورة المعاصي وسوء عاقبتها وظلمة مآلها! إذ كانت سبباً في الكفر وقتل الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس، فكانت العاقبة ذلاً مضروباً ومسكنة أبدية، وفي الآخرة عذاب شديد، فالساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمرّ!

ولّما بيّن بوجه صريح سقوط بني إسرائيل عن مرتبة الاستخلاف، وكان الكلام في نزع عباءة الاستخلاف عنهم، وسقوطهم عن مرتبة التفضيل؛ بيّن أنّ المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن اليهود ومن النصارى ومن الصائبين؛ هم الذين يثبت لهم أجرهم عند ربهم، وهم الذين يبشرون ببشارة النجاة والنجاح:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وكانت الآية هذه استطراداً اقتضاه الكلام الأخير في بني إسرائيل، وفيه إيماءٌ إلى أنّ باب التوبة بالدخول الحق في الإسلام مفتوحٌ لهم ولغيرهم، وإن كان قد سلف منهم ما ذكره من القبائح! وفيه من تذكير اليهود بتسويتهم بغيرهم من الناس؛ فالمقياسُ مقياسُ الإسلام

والإيمان والعمل الصالح، ولا وزنَ لغير ذلك البتة!

وقد ذكرتْ الآيةُ الطوائف الأشهر في ديانتها، وبيّنتْ أنّ كلاً من هؤلاء مَن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر إيماناً شرعياً، وهو الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويعمل صالحاً فإنّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ بخلاف ما حصل للكفرة من بني إسرائيل الذين ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، فالذليل خائف ولا شك، والمسكين حزين، وإنّما أصابهم ذلك بكفرهم، فبيّن المنجاة من ذلك المصير المحتوم.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يحتمل وجوهاً، وقد اختلف المفسرون في الترجيح بينها على أقوال، والذي يظهر لي أنّ المقصود به: هذه الأمة المنتسبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا استعمال القرآن في ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه الأمة فيها الصادق في ادّعاء الإيمان وفيها الكاذب فيه، وهم المنافقون، ويكون قولُه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ شاملاً كلا الصنفين بمعنى يناسبه، فالصادقون في الإيمان مأمورون بالدوام وملازمة العمل الصالح، وأمّا الكاذبون المنافقون فمأمورون بالصدق في الإيمان والعمل الصالح، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي دخلوا في اليهودية وانتسبوا إلى هذه الديانة.

﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ المنتسبون إلى ديانة المسيح ابن مريم عليه السلام.

إمّا (الصابئون) فقد اختُلف في تحديدهم، فقيل: هم أتباع ديانة كانت تسكن مناطق في العراق، وكان أهلُها يعبدون النجوم والكواكب، وقيل: بل هم المتنقلون من ديانتهم إلى ديانات أخرى، وهو ما يظهر لي، فأصل الكلمة: صبأ؛ إذا خرج من دينه، وكانت متداولة بهذا المعنى بين العرب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، يحتمل أن يكون ﴿مَنْ﴾ شرطاً في محل رفع مبتدأ، وجواب الشرط: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، أو أن يكون: ﴿مَنْ﴾ في محل نصب على البدلية من اسم ﴿إِنَّ﴾ في قوله في أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمقصود



بالإيمان واليوم الآخر وعمل الصالح من الأعمال: الدخــول في دين محمد صلى الله عليه وسلم؛ الإسلام، بصدق وإيمان جازم مع العمل بمقتضاه، وتخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر من دون سائر أركان الإيمان لدلالتهما عليها واستلزمهما لها، أو لأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر طرفا أركان الإيمان؛ فمَن جمعهما فقد جمع بقية الأركان، والله أعلم.

والحاصل:

أنّ المتصفين بهذا، الصادقين فيه؛ قد وعدهم الله تعالى بالبشرى: أمنٌ من الخوف، وسلامة من الحزن، وهما- كما رأيت- نقيضا الذلة والمسكنة المضروبتين على بني إسرائيل: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقد نفى عنهم- مبشراً- الخوف مما هو آت، والحزن على ما فات: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ {الأنعام}، فيا فرق ما بين المقامين! وما أعظم البَون بين المسلكين والمآلين!!

وبعد هذا الاستطراد السريع، يعود السياق لتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وبما واجهوا به تلك النعم من كفران:

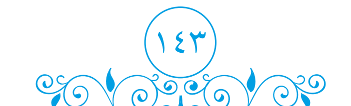
النعمة العاشرة وما قارفوه من جحود في مقابلها

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وجه كون هذا نعمة من حيثيتين:

الأولى: أن تشريع الميثاق وتكليفَهم به فيه شرف لهم، من حيث جعلَهم محلاً لتكليف الله تعالى دون غيرهم.

الثانية: أنّ تشريع الميثاق وتكليفهم به فيه توضيح لمعالم الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، فبذكره سبحانه تطمئن القلوب، وبشريعته تنتظم الحياة وتُورث السعادة فيها والسعادةُ في الآخرة.



لكن الذي كان منهم في مقابل هذا التكليف والتشريف غرائب وعجائب؛ يأتي ذكرها!

والميثاق الذي أُخذ عليهم يحتمل وجوهاً؛ كلها قريب من قريب:

❖ فقيل: اتباع التوراة والعمل بما فيها ويدل عليه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

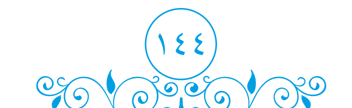
❖ وقيل: ما جاء في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

❖ ويحتمل ما جاء في الآية التالية لهذه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾، وهي الآيات القادمة بعد قليل.

❖ ويحتمل أن يكون الميثاق ما ورد في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ {آل عمران}.

❖ ويحتمل غير ذلك مما ورد ذكره في القرآن من مواثيق بني إسرائيل.

وقد رأيتَ أنّه لا تناقض بين هذه الأقوال، ويجمعُ بينها القول الأول، لأنّ كل ذلك مما أمرهم الله تعالى به في التوراة، والله أعلم، ويجمعه كذلك أنّه ما مِن ميثاقٍ أُخذ عليهم من المواثيق المذكورةِ في القرآن إلا وقد اقترنَ معه ذكرُ نقضِهم وتولِّيهم ونبذِهم له، ولا حول ولا قوة إلا بالله!



أمّا قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، ففيه الدليل على رسوخ خلُق النقض فيهم، ذلك أنّ الله سبحانه بيّن لنا هنا نموذجاً من المواثيق التي أُخذت عليهم في ظروف خاصة غريبة! لا يكاد يتصور أحدٌ حصول النقض فيها، وبيانه:

أنّ هذا الميثاق قد أُخذ عليهم تحت التهديد الرعيب المتمثل برفع جبل الطور فوقهم وتهديهم بالسحق في حال لم يُعطوا موثقهم! ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثمة "قول" محذوف، والتقدير: وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة.

وإسناد الفعل: (آتينا) إلى الله تعالى بضمير التعظيم: ﴿آتَيْنَاكُم﴾ لتقوية دواعي الامتثال لاعتبار كونه من الله العظيم صاحب الأمر والنهي، وذي الجلال سبحانه.

وأخذُه بقوة؛ معناه: الإيمان به حقَّ الإيمان والالتزامُ به بجديّة وتعظيم، وتلقيه بعزيمة ونشاط.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أمْرٌ لهم بالوقوف عند أحكامه والاهتمامِ بها واستحضارِها عند معالجةِ تفاصيل الحياة ومواقفِها، ونبّه على أنّ ذلك سبيل يرتجي معه العبد حصول التقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والعجب العُجاب أنّه بعد هذه الآية القريبة من آيات الإلجاء لم يكن منهم إلا التولي والنقض:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى قبح هذا التولي بعد معاينة الآية العجيبة من رفع الطور فوقهم وأخذ الميثاق في تلك الظروف!

وقد كانوا حقيقين بعد هذا التولي بخسف ومسخ؛ لكنّ الله تفضل ورحم فلم يفعل بهم ما كانوا أهله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين أهلكهم الله بعذاب، ومن يهلكْه الله بعذاب من عنده فإنّه لا شك من الخاسرين الذين لا يُرتجى لهم الفلاح والنجاة!

❖ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا التذكير لهم بما حصل مع بعضهم من معصية استتبعت مَسخهم قردةً تهديداً لهم من جهة، وبياناً لنعمة الله عليهم من حيث إنّه لم يحصل معهم كالذي حصل مع أولئك من المسخ؛ على أنّ معصيتهم لا تقلّ شؤماً وتمرداً عن معصية أولئك الممسوخين!

لكن أراد الله إعطاءهم الفرصة تلو الفرصة حتى أرسل إليهم هذا الرسول؛ فكانوا مخاطبين في ضمن غيرهم من البشر بدعوته، فلعلهم اليوم يغتنمون الفرصة ويستحون من الله؛ فيتبعون رسوله صلى الله عليه وسلم! ولكن هيهات!

أمّا قصة السبت هذه التي أشارت إليها الآية هنا في سورة البقرة كانت قد نزلت من قبل في سورة الأعراف؛ فاكتفيَ هنا بالإشارة إليها؛ خصوصاً مع كونها معروفة عند المخاطبين من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ {الأعراف}، إلى آخر آيات القصة.

فوجه اعتدائهم: تحيُّلهم على الشريعة وخداعهم لأحكامها، إذ أُمروا بترك العمل يوم السبت والتفرغ للعبادة، فابتلاهم الله- بسبب معاصيهم- بحضور صيدهم في يوم السبت وفقدانه في غيره، فتحيلوا وعصوا، فكان ما كان، ومسخهم الله قردة خاسئين: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾! والأمر هنا: ﴿كُونُوا﴾ أمرٌ تكوينيّ، وهو لا يتخلف.



تطبيق أصولي / أصول التفسير

والصحيح أنّهم مُسخوا قردة مسخاً حقيقياً، ولا داعي لادعاء المجاز هنا، فالقاعدة التفسيرية: أننا لا نلجأ إلى التأويل؛ وهو صرف دلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بوجود قرينة لفظية أو عقلية، ولا قرينة لفظية في السياق، ولا مانع عقلاً من أن يفعل الله بهم ذلك؛ فاقتضى أن نقف عند الحقيقة ونترك المجاز، والله أعلم.

والخاسئ: المُبعَد المطرود المُنزجِر؛ يقال: خَسَأْتُ الكلب فخسأ؛ أي: زجرته مستهيناً به فانزجر، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

بيان لفظاعة العقوبة؛ من حيث كانت سبباً في الامتناع عن مقارفة الذنوب والجرأة على الله والتمرد على شريعته!

والنكال: من "نكل" إذا امتنع وضعف، ومنه: النِّكْل: قيدُ الدابة وحديدةُ اللجام؛ لكونهما مانعَيْن، ولمّا كانت العقوبة شديدة منعت من بعدهم من الاجتراء على المعصية سميت نكالاً.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: أي ما قارنها من الأمم ورآها وسمع عنها منهم، وما جاء بعدها كذلك فاتَّعظ وامتنع عن ركوب سنة الإهلاك بالمعاصي: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إذ هم المنتفعون بمثل هذا دون غيرهم، والعاقل من اتعظ بغيره!

وفي الآيات:

فوائد تربوية وفكرية

التنبه على تمكن خُلُق النقض والغدر من اليهود ورسوخه فيهم، وأنّهم إن لم يفوا لله تعـالى بميثاقهم الذي أعطَوه وقد رُفِع فوقهم الطور؛ فأحرى أن ينقضوا مواثيق البشر!

- وجوب أخذ أحكام الله تعالى بقوة وهمة ونشاط وعزيمة على الالتزام، وأنّ هذا من تقدير الله تعالى وتعظيمه؛ كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج ٣٢].
- وفيها: أنّ عذاب الله وشيك بالمجرمين، وأنّه عذاب مهول يخافُه المؤمنون المتقون، وأن تذكُّر ما حلَّ بأمم السوء زاجر عن ارتكاب المعاصي وسلوك سبيل المجرمين!
- وفيها: أن التحيل على أمر الله: معصية تضاف إلى معصية اقتراف الذنب وليس مخففاً لها، ولا ناقلاً إياها إلى الحِل؛ كما كان من بني إسرائيل في القصة.

قصة البقرة، وما فيها من الإنعام عليهم، وكيف واجهوا تلك النعمة بالتعنّت والتشغيب:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .

المذكور في الآيات هنا هو قصة البقرة، ولم تُذكَر القصة في غير هذا الموضع من القرآن، والمقصود الأوّليّ من سياقة القصة التنبيهُ على قسوة قلوب بني إسرائيل وبيان تعنتهم وطريقتهم في التشغيب على أوامر الله تعالى وتكليفاته، خصوصاً أنها وردت بعد الإشارة إلى قصة أصحاب السبت وما فيها من عقوبة ألّمت بهم نتيجة احتيالهم على الشريعة، وقد بيّنت هذه القصة أنّهم وإن نفذوا الأمر وقاموا بالتكليف فإنّه لا يقع ذلك منهم على الوجه الذي ينبغي!

وهذا المعنى الذي ترمز له: "قصة البقرة" معنىً تُنبَّه له الأمة المستخلَفة، خصوصاً في سورة إعلان استخلافها وإعدادها للقيام بالمهمة، مع ملاحظة التكليفات الأساسية التي جاءت بها السورة، فلأجل هذا المعنى في هذا السياق سميت السورة كلها بالبقرة؛ رَمزاً لذلك المعنى.

والقصة لم تبدأ على الطريقة المعروفة من ذكر القصص، بل أولُها زمانياً ذُكر آخر الآيات التي تناولتها، ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾، إذ هو سبب حصول ما حصل من أمرهم بذبح البقرة، وإنّما قُدّم ما قُدِّم وأُخِّر ما أُخِّر منها لأنّ المقصود من ذكرها التنبيه على تعنتهم وشغبهم، وذلك إنّما يحصل بتقديم ما يدل على ذلك، وهو ما حصل.

❁ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

تذكير بقصةِ البقرة وما جاء فيها من إخبارِ موسى عليه السلام قومَه بأنّ الله تعالى قد أمرَهم بذبح بقرة، وذلك بعد التدافع الذي حصل حول مقتل أحدهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ويظهر من البداية أنه إنّما أمرهم بذلك لمعنى متعلق بمقتل الرجل وإن لم يظهر لهم وجه المناسبة بين مقتله وبين الأمر بذبح البقرة!

لكنّ التسليم لأمر الله والانصياع له يوجب سرعة الانقياد والتنفيذ، وهو الذي لم يحصل من بني إسرائيل، كما سيأتي.

ولمّا كان موسى يعلم طبيعة قومه وجدلهم ولَدَدِهم أكّد لهم الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾، وصاغ الجملة اسميةً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

وردّوا عليه بالذي هم أهلُه من الكلام؛ فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ والهمزة الاستفهامية لإفادة الإنكار كما قال أبو حيان[٥٥]، خلافاً للذي ذهب إليه ابن عاشور من كونه استفهاماً حقيقياً[٥٦]، وأحسب الذي حمل ابن عاشور على هذا القول: استبعاده أن تقع مثل هذه الوقاحة والبذاءة من القوم في وجه رسولهم عليه السلام بالإنكار لَمَا

(٥٥) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ١/ ٤٠٤

(٥٦) التحرير والتنوير، ١/ ٥٤٧.



يقول، والحق أنّه قد بدر منهم ما هو أعظم من ذلك، فلا عجب!

وقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ يعني: مهزوءاً بنا أو أتتخذنا الهُزُوَ ذاتَه؛ مبالغة في الإنكار عليه! ويظهر أنّهم إنّما أنكروا عليه مُتَّهمين باتخاذهم هزواً لعدم فهم المناسبة بين ما هم فيه من التدارؤ حول القتيل وبين أمرهم بذبح البقرة!

وردّ عليهم عليه السلام أبلغ ردٍّ حين قال: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، إذ أخرجه مَخرج ما لا مكروه وراءه، وما هو حقيق بالاستعاذة منه لفظاعته، وفيه إشعار لهم بأنّهم قد أتَوا عظيماً برمْيه به، وأيُّ جهلٍ أعظمُ من الهُزءِ في تبليغ رسالات الله ونقل شرائعه!

لمسة تربوية

فالجاهلون هم الذين لا يُنزلون الشريعة منزلتها، ولا يقدرون الله حق قدره؛ بتوقير وحيه، وتعظيم شريعته، والوقوف عند حدوده! وأيّ جهل أعظم من ذلك؛ وهو جهل بعظمة الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ {الزمر ٦٧}، فالحقيق بوصف الجهل على التحقيق هم أولئك الموصوفون بما سبق، السالكون سبل الضلالة والسفاهة، وإن تظاهروا بالثقافة الزائفة وتشدّقوا بالعبارات المتكلَّفة.

لم ينصرف بنو إسرائيل إلى تنفيذ الأمر، بل بدأوا بسؤالاتهم التي تفوح منها رائحة اللجاج:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، هي بقرة كما وصف لهم لكن سؤالهم هذا جرّ عليهم التضييق المذكور في إجابة موسى عليه السلام عليهم، وقد تأوّل بعض المفسرين سؤال بني إسرائيل بأنّه لم يكن عن الماهية المسؤول عنها في العادة بـ ﴿مَا هِيَ﴾ كما ورد في كلامهم، وإنّما كان عن الوصف، وهذا وإن كان محتملاً من حيث اللغة فإنّه لا داعي له، لما

أنّه مخالف للظاهر؛ بل ومخالف للسياق الذي يقصد إلى إراءة لَدَدِ بني إسرائيل وتعنّتُهم! وإنّما لجأ بعض المفسرين إلى مثل ذلك في بعض قصص بني إسرائيل استبعاداً لصدور مثله عن "مؤمنين"! وقد علمتَ أنّ الأمر أعقدُ من تبسيطه مع بني إسرائيل وتصوراتهم الفاسدة.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

يُصدِّر موسى عليه السلام كلّ كلامه بتأكيد كونِ المأمورِ به من الله لا من عند نفسه: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾، وهو دليل على أنّ هذا التشديد لم يكن من لدن موسى عليه السلام؛ إنّما هو من أمر الله تعالى.

ووصفها بأنّها: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ أي ليست كبيرة في السنّ، والفرض: القطع، سميت به الكبيرة لأنّها قطعت سنها وبلغت آخر أَجلها.

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾، يعني: ليست صغيرة كذلك، والبُكرة- بضم الباء- أول النهار، سميت به الصغيرة لأنّها في أول عمرها، وقوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: العوان: المتوسطة في السن، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الفارض والبكر.

ولمّا بيّن لهم ذلك الوصف أمرهم بالمبادرة إلى التنفيذ وترك التلكّؤ: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، وصيغة كلامه موحية بأنّ ما أُمِروا به كان مجرَّد بقرة من غير أوصاف زائدة، وأنّ تعنتهم سبَّب مزيدَ تضييق، ذلك أنّه لو كان لها وصف زائد لبيَّنه قبل أمرهم بالمبادرة؛ إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز- كما تقرَّر عند الأصوليين -، وهو الذي يقتضيه المعقول.

لم يكتفِ القوم بل أتْبَعُوا السؤال بسؤال؛ هو عند التأمل مجرَّدُ لدَد لا داعي له البتة، ومَن الذي يسأل آمره بذبح بقرة أو غيرها عن اللون؟!



❖ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾.

فلمّا سألوا عن اللون حُدّد لهم وضيق عليهم، واختير فيها لون فريد نادر في البقر لا يكاد يوجد: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ۝٦٩﴾ والفقوع: نصوع الصفرة وخلوصها، قيل: الصفراء بمعنى السوداء، ويأباه وصفها بأنها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، وهو وصف مناسب للصفرة لا للسواد، وكذا السواد كثير في البقر؛ بخلاف الصُّفرة، فإنّها نادرة، والقصد إلى التضييق.

❖ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

عاد القوم إلى السؤال ذاته: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وتكلَّف بعضهم في التفريق بين السؤالَين، ولا داعي، فإنّ المقصود يناسب حملَ سؤالهم هنا على أنّه زيادة تكلّف ومزيد جدل فحسب، ثمّ إنّهم علّلوا تكرار السؤال بكون البقرة ما تزال مشتبهة عليهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، ولدفع تهمة الجدل عن أنفسهم قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، أي: للبقرة المأمور بذبحها.

❖ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾.

ليسَت مذلَّلة لإثارة الأرض وتقليبها وغيره مما ينتفع الناس فيه بالبقر: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولا تعمل كذلك في سقاية الزرع: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي سلّمها الله من العيوب أو سلم لونها من الشوائب، وقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ والشِّية: ما يخالط اللون من شوائب ألوان أخرى.

لمسة تربوية

ولا يخفى أنّ هذه الأوصاف قد ضيّقت الأمر عليهم غاية التضييق؛ ذلك جزاؤهم على تَعَنُّتهم، ومَن ضيّق: ضيَّقَ الله عليه! حتى إنّهم بالكاد ذبحوها، وقد كانوا في سعة من أمرهم!

وقوله: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ مؤذنٌ بأنه قد وصفها بحيث لا يشترك معها غيرها، وقولهم هذا لا يخلو من سوء أدبٍ وقلّةِ فَهْم، فإن فيه تعريضاً بأنه لم يكن قد أتى بالحق قبل ذلك.

وقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ مؤذن بمقدار المشقة التي لحقتهم بسبب تعنتهم.

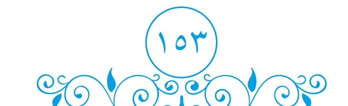
وفيه:

- التحذير لهذه الأمة من استنان سنة بني إسرائيل في ذلك، إذ هو مؤذن بالتضييق وقسوة القلب.
- وأنّ الحقيق بالمسلم أن يبادر إلى الاستسلام لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

هذه أول القصة، وإنّما أُخِّرت لأنّ مقصود القصة ما تقدم من ذكر كفران بني إسرائيل؛ الأمر الذي يمهّد لنزع الخلافة منهم، وتحذيرِ المُستَخلَفين الجدد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من التخلُّق بالخلق ذاته.

وقد بيّنت الآيتان سبب أمرهم بذبح البقرة؛ ذلك أنّه قد قتل منهم قتيل، فادّارأ القوم التهمة بقتله، وقوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ من "درأ" إذا دفع، يعني: دفع كل منكم التهمة إلى غيره وألصق به القتل.



فأراد الله تعالى أن يريهم آية من آياته في الفصل بينهم، فأمرهم بذبح البقرة، حتى إذا ذبحوها قيل لهم: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا الميت ببعض البقرة، فحيَي الميت، بدلالة قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾.

فلما حيي أخبر عن الذي قتله، فكأن في هذا آية لبني إسرائيل ونعمة، من حيث:

- إنّه قد بيّن لهم شخص القاتل، فانحلّ النزاع.
- إنّه قد أراهم آية من آياته في إحياء الموتى، وهي نعمة أعظم من الأولى؛ لما تورثه من زيادة الإيمان ومعاينة صورة عجيبة للبعث وإحياء الموتى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتستخدمون عقولكم في الاهتداء، فتَعْقِلُكُم- تربطكم وتمنعكم- عن الاجتراء على الله تعالى ومعاندة دعوته ورسله.

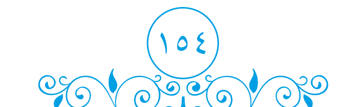
وقد أتاك كيف قابل بنو إسرائيل آية الله هذه ونعمته عليهم!

- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

بيان لكون قلوبهم القاسية لم تستفد من هذه الآيات ولم تنتفع بدلالتها على الله ورسله.

التعبير بالفعل

واستعمال ﴿ثُمَّ﴾ و ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لتقبيح حصول القسوة بعد معاينة مثل هذه الآيات البينات والدلالات الواضحات، والتعبير بالفعل ﴿قَسَتْ﴾ وهو مفيد للحدوث؛ على الرغم من كون قلوبهم ما تزال



موصوفة بالقسوة من قبل هذه الآية ومن بعدها للإشعار بأن دوام القسوة مع وجود هذه الآيات حدَثٌ جديد حريٌّ بالملاحظة، أو لبيانِ كون هذه الآيات لم تزدهم إلا تجدد القسوة وزيادتها، وكذا شأن المجرمين مع آيات الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ {الإسراء}.

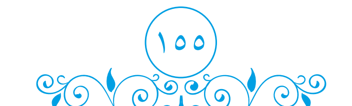
ثمّ بيَّن كون هذه القلوب الآثمة على النهاية من القسوة بحيث تشبَّهُ بالحجارة، بل لعلها تفوق الحجارة قسوة: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في القسوة وعدم الاستجابة والتأثر ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؛ ويحتمل في ﴿أَوْ﴾ هنا أن تكون للإضراب مثل (بل)، والمعنى: أنّها ليست كالحجارة؛ بل هي أشد قسوة من الحجارة، ويمكن أن تكون للتنويع؛ بمعنى أن قلوبهم منها ما هو قاس كالحجارة، ومنها من هو أقسى، وبيّن فضل الحجارة على قلوبهم القاسية، وما يمكن أن يحصل فيها من الفائدة؛ بخلاف تلك القلوب:

- ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ فهي إذاً تتأثر بالمؤثرات من حولها!
- ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ تأثراً بالمؤثرات فيها، فتنفجر الأنهار منها، أو تتشقق على الأقل ليخرج منها شيء من الماء الذي يُنتفع به!

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ وهو مجاز من الامتثال لأمر الله التكويني، بحيث لا تملك هذه الحجارة أن تتخلف عن أمر الله، في حين تقسو قلوبهم فلا تتأثر بما لو أُنزل على جبل لتصدّع من خشية الله؛ فدلّ بالبرهان على كون قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، وإنّما قال: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ولم يقل: أقسى؛ التي يقتضيها القياس: للنص على الشدة وتصوير ظلالها في المشهد، وهو تعيير لهم بما هو سبب لامتناعهم عن الإيمان والانقياد، وبيان لكون ذلك بسبب قلوبهم القاسية.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد رعيب، ووجهه:

أن عدم غفلة الله عن أعمالكم القبيحة مقتضٍ عقابكم عليها ومكافأتكم بها، وأنّ قسوة قلوبكم هذه ستعود عليكم بما يناسبها.



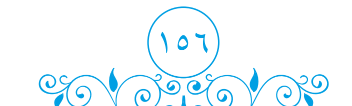


المقطع التاسع
تيئيس المسلمين من إيمان اليهود وبيان بُعدهم عن الهدى وإيغالهم في الضلالة

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

يبدو أن بعض المسلمين كان لا يزال يحتفظ ببقيةِ أمل في إسلام اليهود وانقيادهم إلى الحق، وذلك بما رأَوْا في كتُبِهم من الإخبار عن نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، وبما كان يجري على ألسنتهم منه، فجاءت الآيات لقطعِ رجاء المسلمين من ذلك، وبيانِ المدى الذي وصله بنو إسرائيل في الغواية والضلالة، وجاء هذا الكلام في محله الأنسب وفي موقعه الأبلغ؛ ذلك أنّه بعد أن بيّن كل تلك الصفات القبيحة، وما بدر منهم دالًّا على شدة كفرهم وتعنُّتهم وعنادهم أتبعه بأنّ الطمع في إسلامهم وانقيادهم ممّا لا يكاد يُتصوّر!





والذي يظهر لي أنّه ابتداءً من هذا المقطع ينتقل السياق من تعداد قبائح أسلافهم إلى تعداد قبائح المعاصرين- أي المعاصرين لنزول القرآن-، في إشارة إلى أنّ الخَلَف منهم لم يكونوا بأحسن حالاً من السلف، بل كانوا على درجةٍ أعظم في الكفر والعناد.

التفسير

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

بعد ذِكْر ما سلف من فظائعهم وقبائحهم توجه إلى المسلمين بالخطاب، على طريقة ما يسميه البلاغيون: تلوينَ الخطاب، واستنكر وقوع الطمع بإيمان مَن هذه صفته، وهذا الاستنكارُ على المؤمنين طمعَهم في إيمان اليهود دلَّ على رُسوخِ بني إسرائيل في الكفر وعراقتهم فيه بحيث لا يُضاهون في ذلك، نسأل الله السلامة.

وقد دخلت همزة الاستفهام على فاء العطف، والمعطوفُ عليه محذوف، والتقدير: أتعلَمون أخبارَهم وينتهي إليكم قصصهم الدال على شدة عتوِّهم وكفرهم ونقضهم للمواثيق الغليظة؛ وقد رأَوا الآيات العجيبة؛ وتطمعون مع ذلك في إيمانهم؟

التضمين

وعدّى الإيمانَ باللام لتضمين الإيمان معنى الاستجابة، فكأنّه قال: أفتطمعون أن يؤمنوا بالله مستجيبين لكم، كقول الله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ {العنكبوت}.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ {البقرة}.





الواو حالية، والمعنى: استنكار الطمع في إيمانهم والحال أنّهم قد كان فريق منهم- وهم أحبارهم وعلماؤهم وقادتهم- يتجرؤون على تحريف كلام الله، وتغيير ألفاظه ومعانيه، وتأويل أحكامه الصريحة القطعية!

والتصريحُ بنسبتهم الكلامَ إلى الله تشنيعٌ عليهم وبيانٌ لغاية جرأتهم، وقولُه: ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ كذلك، فإنّهم- لعنهم الله- لم يُقدِموا على جُرْمهم هذا عن غفلة منهم وسوء فهم وتقدير، بل كان ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفهموه، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عالِمين غير جاهلين، وذاكرين غير غافلين!

فإذا كان هذا سلوكَهم مع الله وآياته الواضحات؛ فماذا تتوقّعون أنتم منهم؟ وكيف سيكون منهم استجابة لكم؟ وإيمانٌ بدعوتكم؟

وفي الآية:

التيئيس من إيمان اليهود ودخولهم في الإسلام جملة، وهو من الإخبار بالغيب؛ سبحان علّام الغيوب، وقد حفظ لنا التاريخ والواقع شدة إعراض هذه الجِبِلَّة وتمنّعها من الدخول في الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى؛ اللهم إلا ما كان من أفراد معدودين منهم!

وفي الآية:

لمسة دعوية

التنبيه على أنّ مَن بلغ مبلغاً عظيماً من الجرأة على الله مع العلم؛ فإنّه بعيد عن التوبة والأوبة وظنِّ الخير فيه، لَمَا أنه مرّ بالدلائل البينات، والبراهين الواضحات فلم ينتفع بشيء من ذلك، ومعرفةُ ذلك من الكَياسة وحسنِ التقدير الذي لا يليق بالمؤمن إغفاله.



❁ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قد يكون هذا عطفاً على قوله في الآية السابقة: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، أو يكون استئناف ذكر قبيحة جديدة من قبائحهم، ويؤول هذا إلى المعنى ذاته في العموم.

والمقصود بهؤلاء الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا: اليهود، ذلك أنّ فريقاً منهم نافق المؤمنين وأظهر الإيمان، ولا يَبعُد أن يكون نفاقُ هذه الطائفة بأمر كبرائهم وأمرائهم، ثمّ إنّ هؤلاء المنافقين منهم قد أَفضَوا ببعض بشارات التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين أو شيء كهذا، فأنكر عليهم أصحابهم ذلك ووبخوهم عليه: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ - موبّخين لهم على ما أفشوه -: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، والتعبير عنه بـ"ما فتح الله عليكم"، للإيذان بأنّه سر مكنون وباب مغلق لا يصل إليه أحد!

وقولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ زيادة إنكار وتوبيخ، وتعريضٌ بفقدان العقل وقلة النظر والفهم، ويحتمل أن يكون من توبيخ الله لهم على مثل هذا الاعتقاد السخيف!

وكلامهم هذا دالّ على فساد الاعتقاد وتلوث التصور؛ أن يُظن أنّه لا تقوم عليهم الحجة إلا إذا أفشوا ما يتداولونه بينهم إلى غيرهم، وإذا ما حاججهم المسلمون به مما انتهى إليهم من علومهم!

وليس هذا المعتقد الغريب بغريب على اليهود الذين يتصورون الإله العظيم حاكماً كحكّام البشر، يحتالون عليه ويخفون عنه الأدلة! ومَن

لمسة تربوية



فَسَدَ اعتقاده فسدَ عمله وساءت أخلاقه، ومن هنا كان اليهود أفسد الناس خُلقاً ومسلَكاً، ومن هنا كانت العقيدة الصحيحة والتصور السليم أولَ وأهم منازل الاهتداء والاستقامة، وجاء التعقيب الرباني منبهاً على هذا:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾.

ودخول الهمزة المفيدة للاستنكار على الواو العاطفة يشير إلى المعطوف عليه المحذوف؛ والتقدير: أيفعلون ذلك ولا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون!

وما سيق في هذه الآية من بديهيات الاعتقاد ومسلّمات الإيمان، ليس بمستقر عند اليهود كما رأيت؛ فأيُّ إيمان بقي لهم؟ وأيّ دين يتبعون؟!

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾.

الذي يبدو أنّ الواو هنا لعطف هذه الجملة على قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، والمعنى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم؛ وقد كان فريق منهم يحرفون الكتاب؛ وهم علماء السوء وأحبار الضلالة، وفريق آخر لا يعلمون الكتاب إلّا أمانيّ، وهم الجهلاء والرّعاع، الذين وصفوا بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة ۝٣١]؛ فأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال!

والأميّ - في الأصل - هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ منسوب إلى الأمة؛ يعني إلى عمومها من الرعاع والعامة على ما قيل، وقيل: منسوب إلى أمّه؛ تشبيهاً له بها، لكون أكثر النساء في تلك الأزمنة ما كنّ يعرفن الكتابة و القراءة، أو لاعتبار أنّه على الحال التي ولدته أمه عليها من عدم معرفة ذلك.

والوصف هنا مقصده: التعبير بالجهل وقلة العلم؛ ذلك أنّ اليهود كانت تُعرف عند العرب بأنّهم أهل الكتاب، وهو وصف علميٌّ من وجه، فبيّن هنا أنّهم ليسوا جميعاً هكذا، بل مَن كان منهم عالماً؛ فأكثرهم على ما وُصف من التحريف والجرأة على التضليل، ولكن ثمة جهلاء؛ لا علم لهم بالكتاب ولا يعرفون عنه شيئاً! إنّما هي الأمانيّ فحسب!





وقد اختلف في معنى "الأمانيّ"، فقيل: الأكاذيب، مفردها أمنية، مشتقة من "مَنَى" على وزن: رمى، بمعنى، قدّر الأمر، وتمنى: تكلف تقدير حصول شيء متعذر أو متعسر- بتعبير ابن عاشور[٥٧]، ولأنّ الكاذب ما كذب إلا لأنّه يتمنّى أن يكون ما في نفس الأمر موافقاً لخبره، فمن أجل ذلك استُعملتْ "الأمانيّ" في الأكاذيب، والله أعلم.

فإن كان كذلك كان المعنى: لا يعلمون الكتاب لكنّ ما يعلمونه أكاذيب لا أصل لها، وبدعٌ لا مستند يسندها، ولعل من أظهرها: أنّهم شعب الله المختار، وأنّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّ الله لن يعذبهم إلا أياماً معدودات، قاتلهم الله!

وقيل: الأمانيّ، مِن تمنَّى؛ إذا تلا، وإن صح ذلك- ولا يبدو لي- كان المعنى: لا يعلمون من الكتاب شيئاً؛ لكن تلاوات يتلونها لا تجاوز حناجرهم، لا يفهمون لها معنى، ولا يُعمِلون فيها عقلاً، ولا يهتدون بها سبيلا!

وغاية اعتقادهم في الكتاب أو في أكذوباتهم التي يعتقدون: ظنّ مجرد، لا دليل يعضده ويدلّ عليه، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۝٣٦﴾ {يونس}.

وفي الآية:

التثريب واللوم الشديد على تَرْكِ تعلُّم علوم الكتاب وفهم معانيه؛ والاكتفاء بأكاذيب راجت واعتقادها ديناً وهدىً من غير سلطان ولا برهان.

وفيها:

الذم لمن لم يكن حظه من القرآن إلا قراءة حروفه، دون فهمه وتدبره والعمل به والتحاكم إليه، كما هو حال الكثيرين.

---

(٥٧) التحرير والتنوير، ١/ ٥٧٤.



﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

الفاء التي ابتدأت بها الآية لترتيب ما قبلها على ما بعدها، وما قبلها: ذِكْرُ فريقي بني إسرائيل المُنْحَرِفَين: الفريق الذي سمع كلام الله ثمّ حرّفه من بعد ما عقله، وما لحقه من منافقيهم والمتآمرين على الإسلام منهم، والفريق الجاهل، وما بعدها:

وعيد أولئك المجترئين على كتاب الله، المضلِّين لعباد الله، المتقوِّلين على شريعة الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإنّما اختصّ هؤلاء بهذا الوعيد والسخط لما أنّهم سبب الداء وأساس البلاء:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

والويل: لفظ دالّ على الشر والهلاك والبلية، والصيغةُ صيغة دعاء عليهم، والمراد: إظهار كمال السخط ولحوق الغضب واستحقاق الوعيد.

والنصُّ على كونهم يكتبون الكتاب بأيديهم مع أنّه لا يكون إلا كذلك للتنويه بقبح جريمتهم وتسجيل كمال جرأتهم إصرارهم ومباشرتهم!

وقولُه: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بيان لعدم اكتفائهم بالتدليس على الناس والإلماح إلى ضلالهم؛ بل كتبوا بأيديهم وأكدوا بألسنتهم نسبة ما كتبته أيديهم إلى الله، وهو منتهى الفجور والكفر؛ المنبئ بالخلو عن الإيمان أصلاً! وإنّما فعلوا ما فعلوه من الكتابة والنسبة إلى الله تغييراً لدينه وتلاعباً بشريعته: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فهم بذلوا ما ائتمنوا عليه من حفظ الشريعة والقيام بحقوقها ليشتروا في مقابل ما بذلوه الثمن القليل من استمالة العامة واسترضاء الأمراء والأغنياء والسيادة على الناس وما أشبه مما سماه الله تعالى: ثمناً قليلاً، ووالله لو كان ما يشترونه: الدنيا بحذافيرها لكانت بجانب ما بذلوه من الدين ونصيبهم في الآخرة ثمناً قليلاً!





ثمّ فصّل الله تعالى الويل الذي أوعدهم في مطلع الآية وجعله ويلين:

❖ ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكتاب جرأة على الله وتحريفاً لدينه.

❖ ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من حطام الدنيا التي بذلوا الدين لأجل تحصيلها، فعاد عليهم بضدّ مقصودهم، وخابوا وخسروا!

وفي الآية:

النص على أنّ تحريف أهل الكتاب لكتبهم لم يكن بالتأويلات الفاسدة فحسب، كما ذهب إليه بعضهم، بل كان بالإضافة إلى ذلك تحريفاً للفظ؛ زيادة ونقصاً، والآيةُ واضحة في ذلك، ولعل الذي ذهب إليه إنما استبعد على أحدٍ ينتسب إلى الإيمان أن يفعله، ولقد جاءك نبأ القوم، وما هذا عنهم ببعيد!

وفيها:

أنّ جرم المنتسب إلى العلم أعظمُ من جرم غيره، وأنّ خطره إن كان على هذا الطريقة أعظم من خطر غيره، والآثار في ذلك كثيرة مخيفة، وقد قيل:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذَّب من قبل عباد الوثن

وكل من بغير علم يعمل ... أعماله مردودة لا تقبل

ولله در هذين البيتين من الشعر، فالأول يذكر الفريق الأول من المنتسبين إلى العلم التاركين له في العمل، والثاني يذكر أولئك الجهلاء الذين لا يتبصّرون شيئا من معالم الدين ولا يعرفون شيئاً من الكتاب، ويكتفون بشيء من الخرافات الرائجة!

وفيها:

التزهيد فيما يكتسبه الإنسان عبر معصية عصى الله فيها؛ سيّما إن كانت من جنس هذه المعاصي التي يُبذل فيها الدين لتحصيل الدنيا، وسوءُ حال من فعل ذلك من علماء السوء، والتحذير من عواقبه!

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وهذه الآية فيها حكاية قبيحة أخرى من قبائحهم وافتراءاتهم، ذلك أنّهم قد افتروا على الله تعالى فرية يُمَنُّون بها أنفسهم ويُجرّؤون بها سفهاءهم على تقحُّم أهوال المعاصي، ولعلها متّصلة بما مضى ذكره في الآية السابقة من حيث كونهم قد كتبوا افتراءات بأيديهم ثم نسبوها إلى الله تعالى، فكان من ذلك ما حكاه الله سبحانه عنهم في هذه الآية، وهو: أنّهم زعموا أنّهم مهما أتوا به من القبائح والرذائل والمعاصي فإنّه إن عذبهم الله عليها فلن يعدو ذلك العذاب أياماً معدودة ثم ينقضي! وهي كذلك أمنية من الأمانيّ الباطلة التي راجت بينهم بغير هدىً من الله!

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وفي تصدير حكاية أمنيتهم هذه بالقول، كما قال: ﴿وَقَالُوا﴾ للإشعار بكونه كلاماً مُنْبَتّاً عن الدليل؛ ليس هو إلا قولاً قالوه ولم يجدوا ما يدل عليه، وفيه من التسجيل عليهم بالتصريح بهذا الافتراء ومباشرة التلفظ به، والله أعلم.

ومجيء كلامهم مصدراً بـ ﴿لَن﴾ وهي أقوى أدوات النفي، مع ظلال كلمة: ﴿تَمَسَّنَا﴾؛ موحٍ بكمال إظهارهم الثقة بمقولهم، حتى إنّهم لينفون مجرد "المس" فضلاً عن العذاب الأليم المهين فيها! وقولهم هذا مبنيٌّ على اعتقاد هو الآخر باطل، وهو اعتقادهم بأنّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّهم شعب الله المختار!

ولا يخفى أنّ هذا المعتقد مما يسوق صاحبه إلى التجرؤ على محارم الله، ومقصودهم من قولهم هو ذلك؛ أن يزدادوا إقبالاً على المعاصي مع إراحة البال من تأنيب الضمير والتخفُّف من أعباء الشعور بالذنب، وهو من الأمانيّ الكاذبة التي افتروها على الله وعلى دينه!

ولّما حكى قولتهم الشّنيعة تلك لقّن نبيّه صلى الله عليه وسلم الرد عليهم وتبكيتهم:





﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وفي هذا الرد من بلاغة التبكيت على إيجاز العبارة ما فيه، فالاستفهام استنكاري توبيخيّ، ويحتمل أن يكون تقريرياً لإلجائهم إلى الاعتراف بأصدق الخيارين: اتخاذهم عند الله عهداً وتقوُّلهم على الله، ولمّا كان الأول معلوم البطلان تعيَّن الثاني، فاعترفوا بكذبهم بأشنع توصيف: القول على الله بلا علم، وهو إقرار على أنفسهم بالكذب على الله، وإقرار كذلك بالجهل وكلاهما معيب شنيع!

وقوله: ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥ﴾: استطراد يقتضيه اتخاذهم عند الله عهداً، فالله لا يخلف الميعاد بمقتضى ألوهيته سبحانه، فهو- إذاً- من الإيغال في تبكيتهم بأنّهم قد افتروا ما لا يدلّ عليه دليل إلا أن يكون وحياً من الله، فأين هو؟

وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أن تكون: أم متصلة، وهي التي بين معادلَين، والتقدير: أتخذتم عند الله عهداً أم لم تتخذوا وتقولون على الله ما لا تعلمون؟!

ويحتمل أن تكون منقطعة، وهي المؤولة بـ (بل) وهمزة الاستفهام، والتقدير: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون.

لمسة دعوية

وفي الآية:

تعليم الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم جدل المبطلين وإلْقامَهم الحجارة وتبكيتهم بما لا يحيرون فيه جواباً، وهو على طريقة بارعة من البساطة الوضوح؛ بعيداً عن طرائق المتكلمين وعباراتهم العويصة!

لمسة تربوية

وفيها:

أنّ فساد الاعتقاد مؤدٍّ إلى فساد السلوك، ففساد اعتقاد اليهود في شأن الآخرة - كما في الآية - أدّاهم إلى أن يكونوا أسوأ الناس طباعاً وأكثرهم جرأة على المعاصي مع انعدام تأنيب الضمير ولوم للنفس، ومن هنا ظهر أنّ إصلاح المعتقد هو أول وأهم لَبِنات التربية القويمة وإصلاح الخلق وانتظام أمر الخلق فيما بينهم.

وفيها:

أنّ ما لا دليل عليه فحكمه البطلان، إذ لو أُخذت الدعاوي من غير دليل لفسدت أمور الدنيا وتصورات الدين، فيكفي في إبطال قول ما: انعدامُ دليله.

وفيها:

قبح التقوّل على الله تعالى بغير علم، وأنّه دليل جهل القائل وبُعدِه عن العلم ومقتضى العقل، ودليل على سوء الاعتقاد والتجرؤ على الشريعة.

ولمّا أبطل قولهم من أصله بأوجز عبارة بيّن الحق فقال:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ حرف إيجاب مختصٌّ بجواب النفي خبراً واستفهاماً، والظاهر أنّه جواب على قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، والتقدير كما هو مفهوم من سياق الآية: بلى؛ تمسكم وتخلدون فيها!

وكسب السيئة: فِعْلُها، والتعبيرُ عنه بالكسب الذي هو استجلاب النفع - في الأصل - تهكُّمٌ بمن يفعل ذلك، وإخراج بصورة ما لا يرضاه عاقل!



وإحاطة الخطيئة عبارة عن حالة الكفر، من حيث إنّ الإحاطة حصار لا يبقى معه منفذ.

وقد ذكر الراغب فرقاً بين السيئة والخطيئة؛ فيلطف ذكره ثم نحاول فهم التفريق في الآية بينهما:

"والخطيئة والسيئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه؛ كمن يرمي صيداً فيصيب إنساناً أو شرب مسكراً فجنى جناية في سكره"[58].

وهو- كما رأيتَ- متَّجه جداً مع استعمال الآية للّفظين، فالعبد الشقي "كسب" السيئة واجتباها وقصدها، فأحاطت به الخطيئة من كل جهة؛ فهوى في النار خالداً فيها.

وقد اتفق السلف على أنّ هذا خاص بالكفر، فليس فيه دليل على خلود صاحب الكبيرة في النار، لكن فيه التحذير من مقارفة السيئات لما قد يتولّد عنها من إحاطة الخطيئة به؛ وهي الكفر، وقد نبهنا على هذا المعنى من قبل.

والتعبير عنهم بـ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ مشعر بالملازمة والاستحقاق، نسأل الله العافية!

وتقديم الجار والمجرور على المتعلق في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ للحصر والتخصيص، فهم فيها لا في غيرها خالدون.

ولّما بيّن سوء حال هؤلاء ومصيرهم أردفه بأنّ الذين لم يسلكوا هذا المسلك، وانقادوا لمقتضيات الشرع والعقل من الإيمان والعمل الصالح؛ يثبت لهم نقيض الثابت للهالكين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وإنّما عبر بالموصول: "الذين" وما في صلته: آمَنوا؛ للإشارة إلى إحداثهم الإيمان والعمل الصالح، وعطف العمل الصالح على الإيمان- وإن كان العمل الصالح داخلاً في مسمّى الإيمان الشرعي؛ من باب "عطف الخاص على العام"؛ للتّنويه بمنزلته وللإعلام بمكانته

---

(٥٨) التحرير والتنوير، ١/ ٥٧٤.



وأهميته؛ لاعتبار العمل الصالح دليلاً على ما في القلب، وثمرةً لشجرته، ومؤشراً على قوته وضعفه!

وقد روعيت المقابلة التامة بين ما ورد في هذه الآية وما ورد في سابقتها:

﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ﴿فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وما قيل هناك في لطائف التركيب وفوائده يقال هنا؛ لكن بما يوافق حال أصحاب الجنة، جعلنا الله منهم برحمته وجودهِ، آمين.

المقطع العاشر
نقض المواثيق سمة رئيسة في الشخصية "الإسرائيلية"

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ {البقرة}.



التمهيد والمناسبة

ما زال الكلام في تعداد قبائح بني إسرائيل التي تمهد لنزع الخلافة عنهم، ونقلها إلى الأمة الخاتمة، وتعليم الأمة الخاتمة المستخلفة مِن سيرة بني إسرائيل سقطاتهم؛ التي استأهلوا بها غضب الله تعالى، فضربت عليهم بذلك الذلة والمسكنة، حتى يضيفوا هذه التجربة إلى تجاربهم، ويحذروا من أن يحذوا حذوهم، والله المستعان.

وهنا عدَّ الله عليهم المواثيق التي أخذها عليهم، وبيّن نقضهم لها في كل مرة، وقلة اكتراثهم بها.

التفسير

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

عاد السياق للأسلوب ذاته الذي بدأ الحديث فيه مع بني إسرائيل باستعمال: ﴿إِذْ﴾، يعدّد عليهم نعمه وما قابلوا تلك النعم به من الجحود والكفران.

ويميل الكلام هنا إلى تجريد الحديث من ذكر النعم إلى ذكر المواثيق التي نقضوها كما هو هنا وفي العديد من الآيات القادمة.

وقد ذكرنا الكلام في أخذ الميثاق في تفسير الآية: (٦٣) من السورة، والمذكور ههنا في هذه الآية يحتمل أن يكون الميثاقَ نفسَه؛ الذي أُخذ عليهم في الظرف الاستثنائي العجيب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ويكون ما في هذه الآية تفصيل بنوده، ويحتمل أن يكون غيره، والله أعلم.

وبنود الميثاق المذكورة في الآية هي من أصول الشرائع وما تتفق عليه الديانات، وما يتواطأ العقل فيه مع الشرع، لا كُلفة فيه ولا مشقة، وهو عائد على الملتزِم به بالخير والنفع



لمسة تربوية

والاستقرار، ومع ذلك كله كان التولّي هو السلوكَ المقابل من بني إسرائيل، ولنستعرض البنود من خلال ألفاظ الآية:

✣ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وهو أصل الأصول، وساق شجرة الإيمان: التوحيد، الذي هو حق الله على عباده بمقتضى ربوبيته لهم وعبوديتهم له سبحانه، والصيغة صيغة خبر ، والمعنى: النهي، وهو كثير في القرآن، وفائدته: المبالغة؛ من حيث إن المأمور به أو المنهي عنه يصوّر وكأنه حصل وانتهى؛ فصار يُخبَر عنه إخباراً.

✣ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، التقدير: أحسنوا بالوالدين إحسانا، والمصدر مؤكِّد على معنى الفعل المحذوف، وهذان الأمران يقترنان في القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ {الإسراء ٢٣}.

ولعل العدول عن صيغة النهي المتبادرة؛ بأن يُقال: ولا تعقوا الوالدين؛ قصداً إلى العدول عن اللفظ الصريح الثقيل المفيد للمعنى القبيح؛ تشديداً ومبالغة؛ حتى لكأن ذِكر ذلك محذور؛ فضلاً عن فعله وممارسته!

والجامع بين البندين الأولين: الاعتراف للمنعم بالنعمة والوفاء لصاحب الفضل، ولمّا كان المنعم سبحانه هو من يتقلّب العبد في بحر نِعمه أُمر بإفراده بالعبادة، ولما كان الوالدان هما السببَ في الوجود، والمتعاهَدين بالرعاية في زمن الضعف والافتقار أَمر بالإحسان إليهما أداءً لحقهما ووفاءً لهما.

✣ ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لما له من حقٍّ مناطُه القربى، والعطف هنا على الوالدين، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين إحساناً، إلا أنّه فَصَل بين المعطوفات بالمصدر على ما رأيت





للإشارة إلى فرق ما بين الإحسان الواجب بالوالدين والإحسان الواجب بمن سواهما.

❖ ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ لضعفهم، واليتيم فقيد الأب والمعيل إلى أن يبلغ؛ لِمَا دلَّت عليه السنة، وحقُّ هؤلاء على المجتمع أن يكفلهم ويرعاهم ليكونوا أفراداً صالحين يشاركون في البناء الحضاري للأمة؛ فعدم عناية المجتمع بهم قد يَنتج عنه ثمار مُرَّة يتجرَّعُها المجتمع نفسه، فلذلك شدّد على أمر كفالتهم والإحسان إليهم، وهذا واجب التكافل والتعاون والتضامن الذي يقتضيه إيمان المؤمنين وكينونتهم جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

❖ ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾، الضعفاء والفقراء الذين لا يملكون ما يكفيهم؛ قد أسكنهم القصور والعوَزُ عن الحركة، واللفظ ههنا يتناول الفقراء، ولا نفرِّق بين اللفظين؛ الفقراء والمساكين؛ إلا عند اجتماعهما في السياق ذاته، فهما من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترَقت وإذا افترقت اجتمعت، مثل الإيمان والإسلام.

والمجتمع المتكافل هو المجتمع الآمن المستقر، وإلّا فالصراع بين طبقات المجتمع ومكنوناته؛ يعصف بأمنه واستقراره!

❖ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي أسمعوهم الكلام الحسن، واتقوا مساءتهم، وإنّما لم يعطفه على ما مضى ليكون في حيّز الأمر بالإحسان؛ لما في الأمر بالإحسان من دلالة مادية واضحة؛ تدركها عند النظر في المذكورات: ذي القربى واليتامى، والمساكين.

والناس- بهذا الإطلاق- ليس ثمة أمرٌ بالإنفاق عليهم؛ إذ لا فسحةَ ماليةً عند المأمور الواحد للإنفاق على الناس جميعاً؛ فيُكتفَى معهم بالقول الحسن، والقولُ الحسن يكفيهم!

وما أجود ما قاله المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال



والقول الحسن يُسهِم في ائتلاف المجتمع وتماسك الأمة؛ على نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ"[٥٩]، والقولُ القبيح يزرع النزاع بين الناس ويبذر بذور العداوة بينهم على حد قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء ٥٣].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فأتموا أداءها على أحسن وجه، فالإقامة: إزالة الاعوجاج؛ وهي تحصل في الصلاة بإحسان أركانها وسننها وصدق التوجه فيها إلى الله، مع إخلاص القلب وخشوعه، وغير ذلك ممّا هو معروف.

وهذه الإقامة للصلاة على هذا المعنى المبيّن كفيلة بإصلاح النفوس ونهيها عن الفحشاء والمنكر، وانكسار القلوب بين يدي خالقها، واتصالها به، واستقامتها على أمره: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥].

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهي العبادة المالية المقترنة بالعبادة البدنية دائما، وفيها صلاح القلب، وتخليص النفس من الشحِّ المجبولة عليه، وفيها صلاح المجتمع وتكافله وتحاببه، وقوة الأمة وترميم فجوات المجتمع فيها ما لا يخفى على ناظر يعرف حركة المجتمعات وأسس بنائها وهدمها!

هذه بنود الميثاق، وقد علمتَ أنها جميعهاً مما لابد منه لصلاح الأمة واستقرار المجتمع ورغد العيش وهناءة الحياة، فالمستفيد الأول هو المجتمع الممتثل، والمستفيد الثاني: البشرية التي تنعم بوجود أمة قوية طائعة تقوم بواجب الخلافة في الأرض؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر! أما الله فهو الغنيّ الحميد!

لكن الذي كان من بني إسرائيل التولي والإعراض، إلا قليلاً:

---

(٥٩) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٧٤/ ح٥٤).



﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، الذي كان بعد أخذ الميثاق: أن توليتم، والفعل "تولّى" يمكن أن ينزَّل منزلة الفعل اللازم فلا يحتاج إلى تقدير محذوف، إلّا أن الأصل أنه فعلٌ متعدٍّ بحرف جر، فيقال: تولّى بنو إسرائيل عن الميثاق، وقد حذَف القيد هنا، والعلّةُ- والله أعلم- الإشارةُ إلى عموم توليهم لكل ما واثقوا عليه، فإنهم قد عبدوا مع الله تعالى أصناماً أتوا بها إلى بيت المقدس- كما يذكرون هم-، وعبدوا الأحبار من دون الله، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ {التوبة ٣١}، وأساؤوا أيّما إساءة فيما بينهم: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ {المائدة ٦٤}، ولا هم أقاموا الصلاة ولا آتوا الزكاة!

واستثنى الله تعالى "قليلاً" منهم؛ لم يحصل منهم ما حصل من العامة، وهذا من إنصاف الله تعالى لهم، وهو تعليمٌ لعباده الإنصافَ وتركَ التعميم.

وقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، جملة حاليّة، وإنما كانت اسمية للإشارة إلى أن توليهم هذا عن الميثاق كان في سياق حالة عامة ثابتة لهم، وهي الإعراض عمّا أنزله الله تعالى وأمرَ به ونهى عنه، والمخذولُ من خلّى الله بينه وبين نفسه، نسأل الله السلامة!

ولما ذكر نقضهم لهذا الميثاق أردفه بذكر مواثيق أخرى نقضوها؛ ولم يحفظ لهم ميثاقاً واحداً أوفوا بحقه وعملوا بمقتضاه:

۞ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.



وهذا نموذج آخر من نقضهم لمواثيقهم التي أقروا بها والتزموها مع الله تعالى؛ فليت شعري هل أوفَوا بميثاق أو قاموا بحق؟!

يذكِّرهم الله تعالى- على طريقة الخطاب المباشر- وهو أبلغ في التوبيخ- بمثلبة من المثالب التي اشترك فيها السلف فيهم والخلف:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾، وهو خبر بمعنى النهي، وهو أبلغ من النهي المباشر؛ كما في الآية السابقة، ومعنى الآية الإجمالي:

النهي عن أن يسفك بعضهم دماء بعض، وعن أن يُخرج بعضُهم بعضاً من ديارهم، لكنّه أراد أن يبيّن قبيح فَعلتهم؛ فجعل سفكهم دماء بعضهم، وإخراج بعضهم بعضاً: سفكاً لدمائهم هم، وإخراجاً لأنفسهم من الديار؛ بأنْ أقام أنفسهم مقام إخوانهم، فلمّا فعلوا ذلك بهم فكأنّهم فعلوهُ بأنفسهم!

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بيان كون الميثاق في محل الإقرار منهم لا الإنكار، شاهدين على أنفسهم بذلك غير منكرين له، فكان ذلك أوكَد عليهم في وجوب مراعاة الميثاق لكن ديدنهم غلب وشقاوتهم سبقت:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه شهادة عليهم بنقض الميثاق من واقع المخاطَبين المعاصِرين للنبي صلى الله عليه وسلم: "وذلك أنّ الأوس والخزرج- وهم الأنصار- كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير:



حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهوديَّ الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونصِّ كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال"[٦٠]، والأعجب الأغرب بعد ذلك أنّهم: "إذا وضعت الحرب أوزارها استفكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة"[٦١]: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾!

وما ذكره ابن كثير رحمه الله في المنقول السابق في تحالفهم مع الأوس والخزرج وما ترتب عليه صورة من صور نقضهم للميثاق، وإلا فإنّ صور نقضه كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ويظهر أنّ الخطاب في الآية لليهود الحاضرين؛ بقرينة قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ فإنّ الإشارة لا تكون لغائب، والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ للدلالة على التجدد والحدوث المرةَ بعد المرة، وكأنّ ذلك النقض صار شنشنة معروفة منهم!

و﴿أُسَارَىٰ﴾ جمع أسير، وقيل: هو جمع "أسرى"، فيكون جمعَ الجمع.

و﴿تُفَادُوهُمْ﴾ أي تؤدُّون فديتهم لاستنقاذهم من الأسر، وصيغة المفاعلة "تفادوهم" للمبالغة في ذلك والحرص عليه.

والعجيب- كما اتضح لك- أنّهم يفادونهم عملاً بالتوراة، مع أنّ التوراة التي عملوا بها في هذا هي التوراة نفسها التي حرمت عليهم ما أدى إليه من قتل بعضهم بعضاً، وإخراج بعضهم بعضاً من بيوتهم! وليس ذلك بالتناقض الأول ولا الأخير في تديُّن اليهود، وقد جاءك وسيجيئك من نبأ ذلك، والموفق من وفقه الله!

---

(٦٠) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/ ١٦١

(٦١) المرجع السابق.



وقد جاء الإنكار عليهم والتوبيخ لهم على هذا التناقض في التديُّن والاضطراب في إعمال الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، والاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ.

وإنّما خوطبوا بذلك- على أنّه مما تستبعده العقول السليمة السوية- لأنّه لا تعليل لقبيح فعالهم إلا به، ولا تحليل لمسلكهم إلا ويؤدي إليه!

والملحظ المهم: أنّه سمى العمل بالكتاب وتطبيقه: إيماناً، وسمى تركه والإعراض عنه كفراً؛ وهو مما يوجب الحذر والخشية في أخذ الكتاب، ويُطرق الخطورة الدينية في تركه.

وقد أوجب الله تعالى على عباده أن يدخلوا في الدين بكلّيتهم، وأن لا ينتقوا منه ما يوافق أهواءهم- كفعل بني إسرائيل هذا-، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ {البقرة ٢٠٨}، أي: ادخلوا في الإسلام بكليتكم، واصطبغوا بصبغته، واجعلوه نهجاً لحياتكم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ {الأنعام}.

ولمّا سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم أوجزته بقولها: "كان خلقه القرآن"[٦٢]، وهكذا كان أصحابه رضي الله عنهم فدانت لهم الدنيا، لأنّها أحسنوا الديانة لله رب العالمين، وتحقّقوا في منازل العبودية، وارتقوا إلى محالِّ المحبة، فصار سبحانه وتعالى سمعَهم الذي يسمعون به، وبصرَهم الذي يُبصرون به وأيديَهم التي يبطشون بها، وأرجلهم التي يمشون بها، فلا غرو إذاً أن تُفتح لهم الأرض في سنوات معدودات من شرقها إلى غربها!

أمّا سلوك مسلك بني إسرائيل في الانتقاء فما جرَّ إلا ذلّ الدنيا وعذاب الآخرة: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(٦٢) أخرجه أحمد في مسنده (ج٤١/ ص١٤٩/ ح٢٤٦٠١)، وقال الشيخ شعيب: صحيح.





ثم جاء التحليل النفسي والإيماني لمن هذه حالُه:

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

فالسرّ في اختيار ذلك المسلك أنّهم آثروا الدنيا على الآخرة وفضَّلوها عليها، وقد جاء التعبير بأبلغ ثوب، ذلك أنّه جعلَ تفضيلهم للدنيا على الآخرة كباذل الآخرة ثمناً ليحصل على الدنيا سلعة، ومن المعلوم المركوز في طباع البشر أنّ المبذول عند الباذل مرغوب عنه في جنب المبذول لأجله المرغوب فيه، فقد ضلّ تقديرهم وساء حكمهم لما غرّتهم الحياة الدنيا فاشتروها، وجعلوا دينهم وآخرتهم ثمناً مبذولاً في سبيل تحصيلها، فساء ما يحكمون! وخسرت تجارتهم وضلّ ما كانوا يعملون!

لمسة دعوية

والإشارة إليهم باسم الإشارة للبعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي افتتحت به الآية إلماحٌ إلى بُعد منزلتهم في الضلال! فالبعد مجازي؛ ودل السياق على معناه الذي ذكرتُ لك.

والمترتب على ما اشتروه وباعوه: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بل يزداد على حد قوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ]، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، بل يخذلون، ومن ذا الذي ينصرهم من الله!



المقطع الحادي عشر
مزيد من جنايات بني إسرائيل في حق الدين

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

التمهيد والمناسبة

شروعٌ في بيان أنواع أخرى من جناياتهم وقبائحهم، كما ذهب إليه أبو السعود[٦٣]، وفيه إنحاء باللائمة عليهم لما اقترفوه في حق موسى عليه السلام، ولما اقترفوه في حق بقية الأنبياء ممن جاؤوا بعده!

(٦٣) تفسير أبي السعود، ١/ ١٢٦.



ذلك أنه لما ذكَر نقضهم للمواثيق وبيّنه أردفه ببيان أن الحجة قائمة عليهم، وأنّه لا عذر لهم البتة وقد أرسلَ الله تعالى إليهم الرسل تترا، وأنزل عليهم الكتاب بياناً وهدىً؛ فما كان منهم إلا المزيد من الكفر والمعاندة!

وهذا- كما ترى- تمهيد لبيان أنّ ما قابلوه به دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إنّما هو متسق مع ما هو معروف معتاد من أخلاقهم وسلوكهم التاريخي!

التفسير

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

افتتاح الآية باللام و"قد" المفيدتين للتأكيد والتحقيق من شأنه تأكيد المعنى الذي أسلفناه في بيان كون كفرهم المحكيّ خليًّاً عن الأعذار؛ قد قامت عليهم الحجة.

وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة العائد على الله مما يزداد معه قبح مكابرتهم له: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، والكتاب هو التوراة- كما هو واضح-، وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني جعلنا الرسل من بعد موسى متتابعين؛ عليه وعليهم السلام.

والتعبير عن تتابعهم بالتقفية يُلقي ظلال الكثرة والتتابع، تقول: قفوت فلاناً إذا جئت في إثره، لأنّك حينئذ كأنّك تقصد جهة قفاه، والمعنى: جعلنا كل رسول في إثر الآخر.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، ثمّ لمّا ذكر كثرة الرسل المرسلين إلى بني إسرائيل وتتابعهم خصّ عيسى ابن مريم عليه السلام بالذكر وبوصف ما أوتيه من المعجزات؛ لخصوصية عيسى عليه السلام ولعظيم ما أُيِّد به من المعجزات الباهرات، ولِمَا واجه به بنو إسرائيل عيسى عليه السلام من التآمر والتكذيب والقصد إلى قتله؛ لولا أن رفعه الله إليه، ولعله كذلك لِمَا أنّ عيسى عليه السلام كان آخر الأنبياء، قبل



محمد صلى الله عليه وسلم، ويكون المقصود الإلماح إلى طريقتهم مع آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فلا عجب إذاً أن يواجهوا محمداً صلى الله عليه وسلم بالطريقة ذاتها!

و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: المعجزات البينات: الواضحات، و "روح القدس"، جبريل عليه وسلم على الأظهر، وفي الحديث: "إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعِي، أنَّ نفسًا لَن تموتَ حتَّى تستكمِلَ أجلَها، وتستوعِبَ رزقَها"[٦٤].

وقد ناسب بعد هذا البيان أن يوجِّه إليهم الإنكار في أشدِّ صورة وأحسم لفظ؛ فإنّه المقصود من سياقة الكلام السابق:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ينكر الله تبارك وتعالى هذا المسلك على بني إسرائيل؛ فالهمزة للاستنكار والتوبيخ: قد صوّر فيها الأبعاد النفسية التي وصلت بهم إلى هذا الدرك من الكفر:

- مجيء الرسل بما لا تهوى أنفسهم؛ فهي تصور أنّ الأصل الذي يقبل به اليهود الدعوات أو يرفضونها هو: الهوى، وهم بذلك قد اتخذوا الهوى ربّاً من دون الله، على حدِّ قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ {الفرقان}، وهذه الآية من سورة الفرقان واضحة في عدم انتفاع مَن فعل ذلك بإرسال الرسل أو بإنزال الكتب.

- الاستكبار؛ إذ هو ردة الفعل الأولية في النفسية الإسرائيلية، وهي المانع من قبول الحق والانقياد إلى مقتضيات الحجج والبراهين.

ثم إنّ الأمر لا يتوقف على مشاعرَ نفسيةٍ تُعشِّشُ في السلوك الإسرائيلي بل يتعدّى الأمر إلى اتخاذ خطوات إجرائية في مقابلة الرسل: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فهم بين

---

(٦٤) أخرجه أحمد في مسنده (ج٤١/ ص١٤٩/ ح٢٤٦٠١)، وقال الشيخ شعيب: صحيح.



دلالة استعمال الفعل المضارع

رجلين: أحدهما يكذب: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ بالتشديد المفيد للتكثير، والآخر يقتل: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بالمضارع المفيد للتجدّد والحدوث، ولما في الفعل المضارع من استحضار صورة الفعل الشنيع: وهو قتل الأنبياء.

وقد حكت الآيات فظيع ما وصلوا إليه من الإجرام، ووبختهم بضمير الخطاب- وهو أبلغ في التوبيخ-، فلما كان هذا دالًّا على شدة ما بَلَغه القومُ من الانحطاط؛ ناسب أن يلتفت عنهم ويترك خطابهم للإشارة إلى انحطاطهم عن مستوى الخطاب، وذكَر شيئاً آخر متصلاً باستكبارهم المذكور:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقولهم هذا يبدو أنّه على سبيل التهكم، كما قيل عن أشباههم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ {فصلت ٥}، إذ "الغُلْف" جمع أَغْلَف، وأرادوا: أنّ قلوبهم مغشاة بأغشية تمنع من وصول كلام النبي صلى الله عليه وسلم إليها!

ولعلهم أرادوا أنّ هذه الأغلفة والأغشية تمنع الباطل من الوصول إلى قلوبهم فتحميها، ولو كان في كلامه صلى الله عليه وسلم حق لوصل- قبحهم الله-!

ثمّ بيَّن حقيقة الأمر على طريقة الإضراب بـ ﴿بَل﴾ المبطلة لما قبلها أو المنتقلة عنه إلى ما هو الصدق في المسألة: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، فبيّن أنّ إصرارهم على الكفر وردّ البينات هو الذي منع قلوبهم من الإنصات ونفوسهم من الانقياد.

ولكن سيق الكلام في قالب لَعْنِهم بسبب ذلك الكفر المذكور: تعجيلاً ببيان عاقبة كفرهم وصدودهم.

وقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ مفرَّع عن كفرهم وإصرارهم عليه، والقلة هنا بمعنى العدم، وقد عُرف عن العرب هذا الاستعمال، أو يكون إشارة إلى أن الإيمان بينهم قليل، كقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وكان استقبال اليهود أخبار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مثالاً واقعياً على هذا الوصف العام الذي وُصِمُوا به في الآية، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وقصة الآية على روى الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء ابن معرور أخو بني سلمة: يا معشر يهود؛ اتقوا الله وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله

جل ثناؤه في ذلك من قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[٦٥].

والآية تذكر الموقف اليهودي من الدعوة الإسلامية، وتبّين أنّه كفرُ عناد عن علم وإصرار- كما تبين من سبب النزول وقصة الآية-.

---

(٦٥) تفسير الطبري، ١/ ٤٧٢.



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ نكَّر "كتاب" ثم وصفه بأنه "من عند الله "، تعظيماً لشأنه، وبياناً لوجوب تلقيه بالاستسلام والانقياد، ثم ذكر حالهم قبل ذكر جواب: ﴿وَلَمَّا﴾، فقال: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ جاء تماماً كما أخبرت توراتهم، فكان تصديقاً لها، والتعبير عن التوراة بـ ﴿ما مَعَهُمْ﴾ لبيان كمال اطلاعهم عليها ومعرفتهم بها، إذ المعية مقتضية ذلك.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قد جاء في خبر ابن عباس قصتهم في ذلك، و "الاستفتاح"؛ من الفتح؛ وهو النصر، والسين والتاء للطلب- كما يظهر؛ خلافاً لأبي السعود ولابن عاشور الذين ذهبا إلى أنها للتأكيد فحسب-[٦٦]، وإنما رجّحت ذلك لأن الغالب في عملها- السين التاء- هو الطلب، وقد جاء في غير ما رواية في أسباب النزول ذكرها الطبري رحمة الله ما يدل عليه، ومنها:

ما رواه بسنده إلى علي الأزديّ قال: اليهود كانوا يقولون: اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون به على الناس[٦٧].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ إعادة للشرط لطول الفصل: ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ أي ذلك الكتاب- وهو القرآن- والتعبير عنه بـ ﴿مَّا عَرَفُوا﴾ للتنبيه على أنه جاءهم كما عرفوا تماما؛ لم يخْفَ عليهم ولم يشتبهوا فيه! والجواب: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾، وهو المفاجأة في عالم الإيمان، إذ كيف يعرف مؤمن كون الكتاب نازلاً من عند الله لا يشكّ في ذلك ثم يكفر به كفر عناد؟! كما جاء في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ {الانعام}!

(٦٦) تفسير أبي السعود، ١/ ١٢٨، والتحرير والتنوير، ١/ ٥٧٠.

(٦٧) تفسير الطبري، ١/ ٤٧٣.



الإظهار في مقام الإضمار

ولما ذكر ذلك فرّع عليهم لعنته لهم: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، وإنّما أظهر في مقام الإضمار ؛ إذ المتجه في الأصل أن يقول: فلعنة الله عليهم، ثمّ عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ للتنبيه إلى علّة لعنهم، وللتسجيل عليهم بالكفر الصريح.

تنبيه

نبتت نابتة في مجتمعات المسلمين اليوم تدعو إلى عدم تكفير الكتابيين باعتبارهم أهل دين سماويّ، وقد غفل هؤلاء- أو تغافلوا- عن القواطع الشرعية في هذه المسألة، وعما أحدثه أهل الكتاب على أصول أديانهم، وتغافلوا كذلك عن معلوم من ديننا بالضرورة من كون الإسلام ناسخاً لكل دين قبله، وأنّه لا يُقبل ممن سمع بالإسلام ووصلته صورته إلا أن يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ {آل عمران}.

وإنّما أحببت التنبيه على هذا وإن كان بديهة شرعية لا إشكال فيها، لا يتناطح فيها عنزان -كما يقال- لِمَا رأينا بين شبابنا من تأثر ببعض موجات الحداثة والتمييع، والدعوات إلى تحطيم المسلَّمات الشرعية وأركان الاعتقاد.

وهي حرب ضروس اليوم تستهدف من المسلمين عقيدتهم وثوابت شريعتهم، وتقصد إلى إعادة تصدير الإسلام بصورة أخرى شائهة؛ لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، ولا تحمل رسالة إلى البشرية؛ فليستْ هي خير أمة!



﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

هذا تشنيع عليهم بقبيح ما صدر عنهم وذمٌّ لهم وتسجيل عليهم بالدوافع والنتائج؛ ودافع كونهم كفروا به مع أنّهم كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، ونتائج ذلك مما أصابهم من الغضب والعذاب المهين في الدنيا والآخرة!

وقد اختلف المفسرون في تفاصيل إعرابية وتفسيرية عديدة في الآية، وحتى لا أرهق القارئ بها اختار من بينها ما أراه أقرب وأرجح إن شاء الله، فأقول:

إنّ المعنى الإجمالي للآية- كما يبدو لي- والله أعلم بمراده:

الذم لهم على ما اسْتَبْقَوْا به شهواتِ أنفسهم وحظوظَها ومناصبها في مقابل بذل الكفر والعناد ورد الآيات البينات ومعاندة رسول الله عليهم الصلوات! وهم إنّما كفروا به ظلماً وحسداً من عند أنفسهم على أنّ الله قد منّ بالوحي والنبوة على محمد صلى الله عليه وسلم من العرب بخلاف ما كانوا يأملونه من كون النبوة فيهم، فما كان إلا أن رجعوا بغضب ينضاف إلى الغضب الذي استحقوه من قبل، وأُوعدوا بمهين العذاب.

و "بئس" فعل جامد، واختلف في "ما" التي لحقته، ولعلها: نكرة بمعنى: شيء، و"اشتروا" على ما هو معروف من معنى "الاشتراء"، وقيل: باعوا، والأول أصحّ، وقد جاءك المعنى الإجمالي للآية!

والذي "اشتروا به أنفسهم" فبذلوه لاستبقاء سلطانها وحظوتها: كفرُهم بما أنزل الله: (أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّه)، وإنّما كان منهم هذا الكفر: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ
مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، يعني: حسداً على أنّ الله قد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم محَلّاً لرسالته ووحيه؛ الذي هو فضْلُه.





﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، يعني: حسداً على أنّ الله قد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم مَحَلّاً لرسالته ووحيه؛ الذي هو فضْلُه.

وما كان بَغْيهم هذا ولا حسدُهم ولا مكرُهم برادٍّ ما أراده الله، ولا بِمُمْسكٍ رحمته، فما كان إلا أنّهم رجعوا بغضب آخر: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، و"باؤوا" بمعنى: رجعوا، ولعل هذا استكمال للاستعارة وإيغال فيها، وتقرير ذلك:

أنّه شبه استبقاءهم أنفسهم وحظوظها ومناصبها الدينية والدنيوية ببذل الكفر ثمناً لذلك؛ شبهه بالاشتراء، وهنا لما قال: فباؤوا بغضب على غضب؛ كأنّه أتم الاستعارة بتشبيههم بالراجع من صفقته خاسراً خسراناً مبيناً!

والغضب على غضب؛ إنّما هو لبيان كثرة الغضب الذي استحقوه بكفرهم؛ حتى لكأنّه غضب متراكب متراكم، ويجوز أن يراد: إنّ ما هو عليهم من الغضب الذي استأهلوه بكفرهم بعيسى ابن مريم وتآمرهم عليه ازداد بجرمهم الجديد بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وما قابلوا به دعوته!

وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفيه مسألتان:

الإظهار في مقام الإضمار

الأولى: أنّه أظهر في مقام الإضمار؛ فلم يقل: ولهم عذاب مهين؛ على ما هو المتبادر؛ ليصرح بكفرهم وليسجل عليهم بذلك؛ ليكون من تمام التوبيخ لهم والتشريب عليهم.

الثانية: وصف العذاب بالمهين، وإنّما حسن هنا لأنّهم إنّما استنكفوا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم حسداً واستكباراً، والجزاء من جنس العمل، فَجُوزُوا بمهين العذاب؛ نسأل الله السلامة والعافية!



لمسة تربوية

وفي الآية:

التحذير الشديد من معاداة الحق بعد اتّضاحه، ومعاندته بعد قيام حجته، وهي صفة قبيحة من صفات اليهود؛ فلا تصلح لمؤمن أبداً، وإن كانت لا تصلح لعموم المؤمنين وهي فيهم قبيحة فإنّها في طلبة العلم أقبح!

وعليه؛ فإنّ الواجب على العالم وطالب العلم الوقوف عند حقِّ الحق، والقيام مع مقتضى الأدلة، والانصياع لمدلولاتها إذا بدا الحق، ولا يكونُنّ كبني إسرائيل الذي اشتروا أنفسهم في مقابل ما بذلوه من الكفر والعناد على الباطل.

لمسة تربوية

وفيها:

أنّ الجزاء من جنس العمل، وأنّ التارك للحق يعامل بعكس مقصوده الذي ترك الحق لأجله، وأنّ عاقبة إيثار حظوظ النفس وتفضيل تعظيمها يُقابَل بالغضب والعذاب المهين!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وقد عدّ هنا قبيحة أخرى من قبائحهم بيّن فيها غاية استكبارهم الذي ساقهم إلى التناقض الظاهر في ادعاء الإيمان وهذا التناقض من خصائص ومميزات "التديُّن اليهودي"؛ إذ يزعم الأشقياء إيماناً بالله ثم يجمعون إلى هذا الزعم ما ينقضه من أساسهِ، فكذّب الله تعالى ما ادّعوه من الإيمان مراراً! وفي هذه الآية يبيّن لنا الله تعالى موقفهم مِنْ أمرهم بالإيمان بما علموا أنّه مُنزَلُ من عند الله وجوابهم عليه.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، القائلُ هم المؤمنون، وأحسب أنّ بناء الفعل لِمَا لم يُسمّ فاعله للتنبيه على أنّ جوابهم المتعنت لم يكن لاعتبار القائل؛ بل لاعتبار القول نفسه، وهو موقفهم من الإيمان بغضِّ النظر على القائل لهم: آمنوا!

﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: انقادوا وسلِّموا وصدِّقوا بالقرآن، وإنّما سمّاه: "ما أنزل الله" لإقامة الحجة عليهم وبيان وجه إيجاب إيمانهم به؛ وهو كونه منزلاً من الله!

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ هذا ردّهم القاصر، وهو أنّهم يقتصرون على الإيمان بما أنزل الله عليهم دون ما أُنزلَ على غيرهم!

وهذا الكلام يصوّر غاية الوقاحة مع الله تعالى، ذلك أنّهم لكأنّهم يقرّون بأنّ القرآن منزل من عند الله؛ إلا أنّ الذي أوجب كفرهم به: أنّه لم يُنزَّل عليهم، وإنّما أُنزل على غيرهم، كما جاء في الآية السابقة معناه!

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني: بما سواه أو بما بعده، فهم يزعمون أنّهم يؤمنون بالتوراة أو بما أُنزل على أنبياء بني إسرائيل ويكفرون بما سواها أو بما نزل بعدها!

واستعمال الفعل المضارع: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ لمقابلة قولهم: نؤمن، ولإفادة التجدد والحدوث ولاستحضار الصورة الشنيعة!

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ للإشارة إلى أنهم يعتقدون حقِّيّته كذلك، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ لتأكيد اعتقادهم ذلك، وهذا الفساد في التصور الإيماني تسرَّب إليهم من منافذ شتَّى، ومن أهم تلك المنافذ: التكبر والظلم، وقد نُصَّ عليهما في الآيات السابقة.

حذف الفاعل / سر بناء الفعل لما لم يُسم فاعله.

استعمال الفعل المضارع



وقد ردّ الله تعالى عليهم ردّاً مفحماً عجيباً فقال: ﴿قُلْ﴾ ملقناً نبيه صلى الله عليه وسلم وكلَّ قائم على أمر الله في مواجهتهم إلى قيام الساعة: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ووجه الردّ وبيان حُسنه:

أنّه سلَّم لهم ما يدّعون في قوله: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وإن كان يَنقُض منطق الإيمان! لكن سلَّمنا لكم بذلك، فإن كنتم تقتصرون على الإيمان بما أُنزل عليكم فبأي سبب قتلتم الأنبياء الذي جاؤوكم - وهم منكم - بما أُنزل عليكم؛ يذكِّرونكم التوراة ويأمرونكم بها؟!

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقاً بما أنزل عليكم فلمَ فعلتم ذلك؟!

ومع هذا الرد المُعرِّي لحجة بني إسرائيل، المُلْقِم لهم الحجارة: يلقَى القارئ بني إسرائيل في صورة الكاذب المتناقض؛ المتلبّس بثوبَي زور!

لمسة تربوية

وفي الآية:

خطورة الكبر، وأنّه مصدر لكُبْريات الشرور، وسببٌ لردِّ الحقِّ ومعاداته!

لمسة فكرية

وفيها:

أنّ القومية التي كانت منطق بني إسرائيل في الرد على الآمر بالإيمان: بابُ شرٍّ عظيم، ذلك أنّهم - وبكل وقاحة - استعلنوا بأنّهم لا يؤمنون إلا بما أنزله الله عليهم، فإن أُنزل على غيرهم فما هم بمؤمنين!

والإيمانُ لا يعرف هذا المنطق القومي، إنّما يعرف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ {الحجرات}.



وفيها:

جودة الرد على المبطلين، والرمي بأقوى الحجج الناقضة في دعاواهم الداحضة؛ دون الانشغال بخفيات الأدلة ودقيقاتها! وهذا من فنون المناظرة وآداب الجدل.

ثم ساق دليلاً تاريخياً يقرون به ويعترفون بمقتضاه:

❖ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وكأنّ الكلام سهام تقضُّ المنطق الأعوج لبني إسرائيل!

إن كنتم تزعمون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فاذكروا ما عاناه نبيُّكم الأكبر موسى، مع ما حمله من بينات تذهب بشبهات الأباطيل! اذكروه وقد جاءكم بالبينات فما كان منكم إلا أن ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ معتقدين كونكم في ذلك ظالمين مبطلين: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

❖ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

هذا تذكير لهم بالميثاق المأخوذ منهم في أعجب الظروف، وهو رفع الجبل فوقهم وتهديدُهم بسحقهم تحته إن لم يأخذوا الميثاق!

والطور: اسم جبل مخصوص، قد يكون طور سيناء، وثمة جبال أخرى تسمَّى بالطور، كطور بيت المقدس[٦٨]، وقيل: اسم لكل جبل، فإن كان الأول فالمتبادر أنّه رفع فوقهم طور سيناء، ولئن كان الثاني؛ فالمرفوع فوقهم جبل من الجبال!

ومضمون الميثاق: أن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى في التوراة بجدٍّ وعزيمة على الامتثال: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، وطاعة وانقياد: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، والمقصود من السماع: سماع الامتثال: لا مجرد إدراك المسموع ووصول الصوت إلى آلة السمع.

---

(٦٨) المفردات، ٥٢٨..





ونقدِّر قولاً محذوفاً هنا: قلنا: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا.

والعجب أنّهم قابلوا ذلك الاستياق من الله تعالى بأقبح ردّ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فكان ذلك منهم عكساً للمقصود المطلوب تماماً!

والظاهر أنّهم لم يتكلموا بهذا فور أخذ الميثاق؛ إذ لو كان كذلك لسحقهم بالطور، بل لعلّهم سلّموا تحت التهديد الرعيب؛ ثم عصوا بفعالهم وتمادوا في المعصية حتى عاندوا بالتلفظ بألفاظ العناد والتوقُّح: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وقولهم هذا نهاية العناد؛ ذلك أنّهم أقروا بحصول سماعهم المستلزم وعيهم، ثم صرَّحوا بتعمّد المعصية والإصرار عليها!

وأما قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فهو إشارة إلى سوء حالهم وتردّي طباعهم؛ وبيانه:

أنّهم لم يكتفوا بالوقوف عند حدّ المعصية؛ بل تجاوزوا ذلك إلى "حب المعصية" والانغماس في وحلها والاصطباغ بصبغتها وتبنّي منهجها.

ذلك؛ أنّ الآية قد احتوت استعارة مكنية؛ تقريرها: تشبيه قلوبهم بشيء كالإسفنج ونحوه مما يمتصّ السائل الذي يوضع فيه بحيث يمتلئ منه ويتداخل فيه!

وبناء الفعل لما لم يسم فاعله أو للمجهول للإيحاء بأنّ فاعلاً ما قد فعل الفعل كأنّه فتح القلوب وصبّ فيها حب العجل وأَشربها إياه؛ مبالغةً في بيان شدة حصول المعصية في قلوبهم! واستعمال "في" المفيدة للظرفية في قوله: في ﴿قُلُوبِهِمُ﴾ للمعنى نفسه.

و "حبُّ المعصية" على الحال الموصوفة أسوأ من مجرد المعصية، ودركة أدنى منها.

وسبب ما حلّ بقلوبهم من حب العجل المعبود من دون الله ظلماً وزوراً: كفرُهم: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فالباء سببية.

ثمّ لما سجل عليهم ذلك موصّفاً ثنايا حركات قلوبهم تركهم إشارة إلى سقوطهم- وقد بلغوا ما بلغوا- عن درجة الخطاب، ثم توجه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم يلقنه ما تتساقط معه لحوم وجوههم- لو كانوا يعقلون-:



﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، كأنّه يقول: سلّمنا أنّكم مؤمنون بما أنزل عليكم، فأيّ إيمان ذاك الذي يأمركم بما يأنف أعتى الكفار كفراً وجرأة على الله تعالى من فعله وإتيانه؟!

المقطع الثاني عشر
تناقضات بني إسرائيل واعتيادهم النقض مع الله ومع عباده

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة].





التمهيد والمناسبة

هذا المقطع تكذيب لهم فيما ادّعوه من الإيمان بما أُنزل إليهم؛ كما قالوا- فيما عرضته الآيات السابقة-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، فلا زالت الآيات تكذِّبهم حتى في ادّعائهم الإيمان بما أنزل عليهم! وتوبيخهم أيَّما توبيخ على فساد خصال الإيمان المدّعى!

التفسير

❖ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

العجب من اليهود أنّهم لم يقفوا عند حدّ ادعاء الإيمان؛ بل ولا عند حدِّ ادعاء كون الجنة مآلَهم ومستقرَّهم؛ بل تجاوزوا ذلك- وقد بدر من ألوان كفرهم ما قد علمتَ - إلى ادعاء كون الجنة خالصة لهم من دون الناس!

وسياقة هذا الادّعاء في وسط بحار الكفر المحكيَّة عنهم يثير في نفس القارئ العجب من حالهم الغريبة المتناقضة! ولم تُذكر هذه الخصلة من خصالهم قبل هذا في السورة، لكنّها حكيت في سياق ردّها، فلقَّن الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم الردّ عليهم بأقصر طريق وأوجز عبارة؛ مع كمال سدادها في نقض الادعاء وكشف الغطاء: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾، أي في ادعائكم ذلك، وتقرير الردّ:

أنّ من أيقن بدخول الجنة- فضلاً عن كونها خالصة له- لم يتردّد في تمني الموت شوقاً إلى دخولها، وتخلصاً من دار البوار إلى دار القرار، وفراراً من دار الأكدار إلى دار النعيم المدرار!





﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

القرآن لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لينتظروا ما يحصل من اليهود، بل دفع بالجواب الفصل- سبحانه علّام الغيوب- ليُعلم بأنّهم "لن" يتمنوه "أبداً"! مع ملاحظة قوة النفي وتأكيده؛ الظاهر في استعمال أقوى أدوات النفي: "لن" وتأكيد النفي بتأبيده: ﴿أَبَدًا﴾، ومثل هذا الكلام بمثل هذا الجزم لا يصدر إلا عن علّام الغيوب!

والآية من دلائل ربانية القرآن؛ إذ فيها إخبار بالغيب على صورة واضحة جلية!

وفي الحديث: "لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً"[٦٩].

وفي ترك اليهود ما أُمروا به من تمني الموت دليلٌ انكشف به زيفُهم أمام أنفسهم قبل انكشافه أمام غيرهم، وحجة قامت على أعناقهم، وهي كذلك إلى يوم الدين!

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تعليل لامتناعهم عن تمنّي الموت.

لمسة تربوية

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

(٦٩) أخرجه أحمد في مسنده (ج٤/ ص٩٩/ ح٢٢٢٥)، وقال الشيخ شعيب: صحيح.

وفيه دليل على أنّ من عَمَر دنياه وخرّب أُخراه فقد صار إلى حالة من الرعب من الموت والخوف من ذكره، ولا عجب! ولْيلْمس المؤمن قلبه، وليفتش فيه، وليتعاهد مؤشر الشوق إلى الجنة في نفسه، ثم ليقس ذلك إلى كراهته للموت وحبه للدنيا واستمساكه بها: يأته الخبر المبين عن حاله في سلوك الطريق إلى رب العالمين.

ولمّا كان أمر اليهود على أسوأ الأحوال مع الله لم يكن عجباً أن يكونوا أكثر الناس تشبثاً بالدنيا وكراهيةً للموت:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

لمّا ذَكَر ادّعاءهم بأنّ الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وردّ عليهم أبلغ رد وأوجزه؛ بأنْ لقَّن نبيه صلى الله عليه وسلم تحدّيهم بتمنّي الموت، وأَعلَمَ بأنّهم لن يتمنوه؛ زاد هنا على هذا المعنى بأنّهم على النقيض من كل ذلك؛ ذلك أنهم حريصون على الحياة حرصاً لا ينافسهم فيه أحد! فكيف يستقيم هذا مع ادعائهم المذكور؛ المستلزم الرغبة بالتخلص من الفانية وصولا إلى الباقية؟!

والمخاطب في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولا بأس بحمله على كل من يصلح له الخطاب، والتوكيد باللام ونون التوكيد الثقيلة لما أنّ المخبَر به من حرصهم على الحياة يتناقض تناقضاً تاماً مع ادعائهم المذكور؛ حتى ليكاد السامع ينكر ذلك؛ فيخاطبه خطاب المنكر وإن لم يكن منكراً.

فائدة التنكير / التعريف والتنكير

والتنكير في "حياة" للتقليل والتحقير- كما يظهر-، والمعنى: أنّهم أحرص النّاس على أيّ حياة كانت؛ مهما حقُرتْ! وهذا فيه الإشارة إلى كمال خوفهم من الآخرة والانتقال إليها؛ على عكس مقتضى ما ادّعوه فيما عرضته الآية السابقة، وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ﴾ عطف على الناس، والمعنى: أنّهم أحرص على الحياة من الناس وأحرص من الذين أشركوا أنفسِهم؛ "والذين أشركوا" هم من الناس وعطفهم من باب عطف الخاص على العام لأهمية ذكره في السياق؛ ذلك أن المتوقع من المشركين شدةُ التشبث بالدنيا والحرص عليها لِمَا أنّهم ينكرون الآخرة والمصير إليها أصلاً، ولِمَا أنّهم يرون أنّ الحياة الدنيا هي الحياة التي يتلوها الفناء! فمن الطبيعي أن يتشبث هؤلاء بالحياة ويحرصوا عليها على وجه لا مزيد عليه، لكن العجيب أن يفوقهم في ذلك من يدَّعون أنّ الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس!

ثم زاد وصف حالهم بياناً بقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، فهم يعلمون أن مآلهم بعد الموت إلى العذاب، فيودّ أحدهم- إذ ذاك- أن يعمَّر ما لا يعمَّره أحد- المعبَّر عنه بألف سنة-! وهو على أية حال وإن حصل فليس منجياً له من العذاب، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من العناد والكفر والتلبيس، وإذا كان بصيراً بذلك فأنّى ينجون من عذابه المحيط بالكافرين!

ولما ذكرت الآيات السابقة تناقضاتهم في ادّعاء الإيمان، وتجلّى ذلك في ادّعـاء الإيـمان بما أُنزل عليهم والكفر بما أنـزله الله تعالى من بعـده، ثم

ولما ذكرت الآيات السابقة تناقضاتهم في ادّعـاء الإيـمان، وتجلّى ذلك في



ادّعاء الإيمان بما أُنزل عليهم والإتيان بما يناقضه من قول وفعل، ثم ادّعاء خلوص الدار الآخرة لهم من دون الناس مع بديهيّاتِ مقتضياته؛ أتبعه هنا بذكر نوع آخر من أنواع تناقضاتهم في التصور والعقيدة، فقال:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أنّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنّ ميكائيل وليٌّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: المناظرة كانت بينهم وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذه عبارة الإمام الطبري[٧٠]، ثم إني أنقل رواية تعضد الأول وأخرى تعضد الثاني، والمعنى العام لا يختلف على الوجهين.

الرواية الأولى:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا القاسم عن خِلال نسألك عنهنّ لا يعلمهنّ إلا نبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: "سلوا عما شئتم، لكن اجعلوا لي ذمة الله وما أَخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام"، فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلوني عما شئتم، فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهنّ؛ أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمّي في النوم ومَن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: "نشدتكم بالذي أنزل التوراة



(٧٠) تفسير الطبري، ١/ ٤٩٦.





على موسى هل تعلمون أنّ إسرائيل مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه منه، فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنّ أحب الطعام إليه لحم الإبل؟ قال أبو جعفر - الطبري -: فيما أرى: "وأحب الشراب إليه ألبانها"، فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تعلمون أنّ ماء الرجل أبيض غليظ، وأنّ ماء المرأة أصفر رقيق، فأيّهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماءَ المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟" قالوا: اللهم نعم، قال: "اللهم اشهد"، قال: "وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أنّ هذا النبيّ الأميّ تنام عينه ولا ينام قلبه؟"، قالوا: اللهم نعم، قال: "اللهم اشهد، قالوا: أنت الآن تحدثنا مَن وليك من الملائكة فعندها نتابعك أو نفارقك، قال: "فإنّ وليّي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك، قال: "فما يمنعكم أن تصدقوه؟" قالوا: إنّه عدونا، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله:﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعندها باؤوا بغضب على غضب[٧١].

وفي الحديث من الفوائد الكثير، ومنها:

شدة وقاحة اليهود وجرأتهم على الحق وعدم استنكافهم أن يقعوا في صريح التكذيب وأن يُرموا بالعناد والخيانة، وأنّهم قاتلهم الله كانوا يعرفون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا يشكون فيها، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ {الأنعام}.

(٧١) تفسير الطبري، ١/ ٤٩٦.



❖ **الرواية الثانية:**

عن الشعبي قال: انطلق عمر إلى يهود، فقال إنّي أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تجدون محمداً في كتابكم؟ قالوا: نعم، قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إنّ الله لم يبعث رسولاً إلا كان له كِفْلٌ من الملائكة، وإنّ جبريل هو الذي يتكفل لمحمد، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سِلْمُنا، فلو كان هو الذي يأتيه اتبعناه، قال: فإنّي أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى؛ ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن جانبه الآخر! فقال: إنّي أشهد ما يقولان إلا بإذن الله، وما كان لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل، فبينما هو عندهم إذ مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب، فقام إليه فأتاه وقد أنزل عليه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾"[٧٢].

والروايتان متقاربتان ولا يختلف تفسير الآية على ما بينهما من الاختلاف، وهما دالّتان على شكاسة اليهود وتناقضهم في التصور الإيماني وفساد اعتقادهم.

ولما كان من أمرهم ما كان، تولى الله تعالى تلقين نبيه صلى الله عليه وسلم الرد عليهم، فقال:

❖ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾، المقصود الأوليّ من الاسم الموصول:﴿مَن﴾ اليهود، بالنظر إلى سبب النزول، وقد بيّن اليهود- كما في الروايات- سبب عداوتهم لجبريل عليه السلام، ويُحتمل أن يكون سبب عداوتهم له أنّه نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا وارد محتمل جداً، فيكون كلامهم الذي ذكروه في سبب العداوة محض كذب لا يعتقدونه، وإنّما وقع في قلوبهم ساعتئذ!

---

(٧٢) تفسير الطبري، ١/ ٥٠٠.



ذلك أنّه لو كان صحيحاً في اعتقادهم لما اتسق مع إيمانهم بموسى عليه السلام، في ضوء كون جبريل وليَّه كذلك من الملائكة، ولا آمنوا بأيّ نبي من أنبياء بني إسرائيل لكون جبريل وليَّ كلٍّ منهم! فالذي يقع في قلبي أنّهم مُدّعون كذابون، وقصدت الآية إلى بيان تناقضهم وكذبهم وفساد اعتقادهم.

وإن كانوا صادقين في كونهم يعتقدون ذلك؛ فالمصيبة أعظم وأكبر! ذلك أنّهم يقرون بكون جبريل مَلَكاً مرسلاً من عند الله ثم يعادونه ويكفرون برسوليته! وهذا من أعجب ما قد يُحكى عن قوم يدّعون الإيمان! وليس بمستغرب على بني إسرائيل!

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قائم مقام جواب الشرط المحذوف، والتقدير: من كان عدواً لجبريل فلا يعاده؛ فإنّه نزّل القرآن على قلبك بإذن الله، وهذا سبب للموالاة لا للمعادة! ويحتمل أن يكون التقدير هكذا: من كان عدواً لجبريل فليجاهر في عدائه لله فإنّ جبريل إنّما نزّل القرآن على قلبك بإذن الله وأمره! وهذان وجهان محتملان جداً، والله أعلم.

والضمير الأول: ﴿فَإِنَّهُ﴾ عائد على جبريل كما هو واضح، والثاني: ﴿نَزَّلَهُ﴾ على القرآن، فإنّه وإن لم يجْرِ له ذكْر لا يقع فيه لبس لمعلوميّته في اتصافه بالمذكور: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره سبحانه، فإذا كان كذلك فعلام يعادي هؤلاء الفجرة جبريل؟!

وهذا القرآن المنزل على قلبك متصف بما من شأنه أن يكون محل الإيمان لا الكفران، وأن يكون مُنزِلُه في محلِّ الموالاة لا المعاداة!

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب التي سبقته، ﴿وَهُدًى﴾ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور، والتعبير عنه بالمصدر بدلاً من اسم الفاعل للمبالغة، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يبشرهم برضوان الله وسعادة الدنيا والآخرة، وليس هذا للكافرين المعادين لله ولرسله ورسالاته:





﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ۝٩٨﴾.

هذه الآية كالمؤكِّدة لمعنى الآية السابقة ومبيِّنة للازم كلامهم السابق؛ من حيث إنّ عداوة جبريلَ رسولِ الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم معاداةٌ لمرسِلِه سبحانه وتعالى، ومعاداته عليه السلام معاداة لسائر الملائكة فإنّهم عن أمر الله يَصْدُرون: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ {التحريم}، ومعاداتهم لجبريل عليه السلام معاداة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولسائر الرسل؛ باعتبار وحدة أصل الدين وصدوره عن مشكاة واحدة!

وذِكر جبريل وميكال عليهما السلام مع أنّهما داخلان في عموم الملائكة من باب عطف الخاص على العامِّ بالنظر إلى أهمية الخاص النابعة من سبب نزول المذكور، وذكر ميكائيل مع جبريل مع أنّ اليهود زعموا موالاتهم لميكائيل لا معادتهم له؛ للإشارة إلى أنَّ عداء جبريل عليه السلام مستلزم عداء ميكائيل بالضرورة؛ وإن زعموا موالاته!

الإظهار في مقام الإضمار

وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، ولعل المتبادر أن يقال: فإنّ الله عدوه، إلا أنّه آثر الإظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر ووسمهم به، وللإشارة إلى مآل كلامهم القبيح وعلّة عداوة الله تعالى لهم!

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ۝٩٩﴾.

لّما ذكر ما ذكره من إعراض اليهود وتناقضهم وكفرهم بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وما رافق ذلك من قصص، أكدّ لنبيه صلى الله عليه





وسلم باللام الموطِّئة للقسم و"قد" المفيدة للتحقيق أنّه سبحانه قد أنزل إليه من الآيات ما يبين الحق على وجه لا لبس فيه ولا غموض ولا شبهة، ومَن كفر مِن أولئك اليهود الأشقياء فإنّما كفر من قِبَل كونه فاسقاً مستمرءاً الفسق أصيلاً فيه:

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، ووصف اليهود بالفسق وصف شائع في القرآن، ودخول الألف واللام على وصفهم بالفسق للدلالة على كمال اتصافهم به وتحققهم فيه تحققاً تاماً!

لمسة تربوية

وفي الآية:

أنّ استمراء المعصية واعتياد الفسق بابٌ للكفر، وسبيل إلى السقوط في وديانه والتردي بين شعابه!

وقد قيل: "المعاصي بريد الكفر"، فكأنّ ذلك العاصي المعتاد للعصيان ينمّي اجتراءه على الله وعلى حدوده؛ حتى لا يستنكف مِن فتح باب الكفر والولوجِ فيه ولا يستعظم ذلك، ومن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه!

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إذا نظرنا إلى مناسبة الآية في ضوء سبب النزول الأخير وقصة وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم- كما في الرواية الأولى- أن يتبعوه إذا ما أجابهم على سؤالاتهم وقد أخذ منهم أغلظ المواثيق على ذلك فإن الآية تكون تأكيداً على أن إخلافهم الوعد ونقضهم الميثاق عادةٌ سيئة وخلقٌ مذموم!



وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ فيه خلاف بين النحويين، والصواب إن شاء الله أن الواو واو عطف، والهمزة للاستفهام، والأصل تقديم الواو على همزة الاستفهام؛ وإنما قدمت لأن لها صدر الكلام، وهذا مذهب الأكثرين[٧٣].

والاستفهام للإنكار عليهم استمراءَ نقض العهود وظهورَ ذلك فيهم سمتاً عاماً؛ يدل عليه استعمال «كلما»، التي تدل على اطراد ذلك الخلق فيهم.

والنبذ: إلقاء الشيء من اليد، وهو هنا استعارة لنقض العهد، كما سُمِّي الوفاء به تمسكاً، والعهد المذكور هنا شامل لمختلف أنواع العهود التي يعاهدونها، فلا داعي لتقييده في صورة معينة، وإسناد النبذ إلى فريق منهم لا إلى الجميع من إنصاف القرآن للمؤمنين منهم، على طريقة قول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ {آل عمران}، إلا أنه نبه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى أنّ الفريق النابذ هو أكثرهم، وأنّ هذه العادة ليست عادة أقلهم بل أكثرهم!

لمسة تربوية

وفي الآية:

مذمة فشوّ هذه الظاهرة السيئة والخُلق القبيح؛ وأنّه دالٌّ على رقة الدين وضعف الإيمان؛ يدل عليه قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأن الشباب الملتزم ينبغي أن يكون أحرص الناس على الوفاء بالوعد والاستمساك بالعهد، قياماً بحق الله تعالى في ذلك ومخالفة لليهود أعداء الحق!

(٧٣) انظر: البحر المحيط، ١/ ٤٩٢.



وفيها:

لمسة حركية وتنزيل واقعي

....

أبرز صفات اليهود: نقض العهود، واستعمال: "كلّما" دالٌّ على اطراد هذا الخُلق فيهم، ومن ثم فإنّ الثقة بالمعاهدات معهم ليست من دأب المؤمنين؛ بل ولا من دأب العقلاء، الذين يتخذون هذا القرآن منهاجاً ودستوراً!

وقد أقبل قومنا على ما سمي بـ "معاهدات السلام" مع المحتلّ، فسقطوا بذلك في وديان من الضلالات؛ أعظمها: أنّ هذه المعاهدات قد اعترفت لليهود بما يزيد على ثمانية وسبعين بالمائة من أرض فلسطين، وظنّوا بعد هذا الاعتراف أن يوفيَ اليهودُ لهم بالوعود بالإذن لهم في إقامة دولة فلسطينية على جزء صغير من فلسطين!

وقد مضى على بدء عمليات السلام وإعطاء الاعتراف بشرعية المحتل عقود؛ لم يحقق فيها المفاوِض الفلسطيني لقضيته سوى الخسارات المتتاليات، وما رأيناه من هذا تَجَلٍّ واقعيٌّ للآية بحيث يرى المسلم تفسيرها بعينه في ممارسات الاحتلال الصهيوني المجرم؛ ونقض كل حكومة من حكوماتهم ما أبرمتها سابقتها!

ثم إنّه تعالى ذكر لنا مثالاً واقعياً من نبذ اليهود لأعظم مواثيقهم، وهو نبذهم لكتاب ربهم:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

تعيير لليهود بنبذ أعظم العهود؛ وهو عهد الله لهم بالإيمان بالرسول الذي أخبرت به كتبهم، وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ مع التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة، ثم وصفه بأنّه: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا



﴿مَعَهُم﴾ فيه من تعظيم جناية مشاقّته وتكذيبه ما فيه!

وجواب الشرط قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، والتعبير عنهم بـ ﴿أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ للتثريب عليهم بأن مِن حقِّ الكتاب الذي أوتوه أن يقوموا بحقه! ثم تأكّد هذا المعنى بذكر ما نبذوه بصيغة قريبة مما أوتوه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ﴾، وإنما كان كذلك- والله أعلم- للإيذان بكمال التنافي بين ما أثبته لهم؛ وهو إيتاؤهم الكتاب، وبين ما نبذوه؛ وهو كتاب الله!

والمقصود بكتاب الله الذي نبذوه: التوراة أو القرآن، فإن كان التوراة- وهو أقرب- كان نبذهم إياها تركهم لما جاء فيها من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم والأمر باتباعه!

وإن كان القرآن؛ فنبذهم إياه: تركهم الإيمان به على علمهم بأنّه كتاب الله تعالى!

وإضافة الكتاب إلى الله تعالى: ﴿كِتَابَ ٱللَّهِ﴾ لتقبيح نبذه، والإيذان بعظم جريمة من فعل ذلك!

وقوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: إيغال في بيان تركهم له وإعراضهم عنه، بتصويره بصورة المهمل المتروك غير الملتفت إليه؛ ومِن حق مَن فعل ذلك بكتاب الله أن يذلّه الله ويقسمه!

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للإشارة إلى تنافي حالهم هذا مع العلم، وتناسبه مع الجهل وحال الجهال!

لمسة تربوية

وفي هذه الآية مما يتعلق بهذا:

قُبح المخالفة من العالِم، وأنَّ من حقِّ العلم أن ينقاد صاحبه لمقتضاه، وأن

مخالفة العالم لمعلومه يسلكه في سلك الجهال الذين لا يعلمون! وأن من فعل ذلك؛ فقد أشبه بني إسرائيل في أخلاقهم وطباعهم.

وفيها: تحذير شديد للعلماء من سلوك ذلك السبيل!

وهؤلاء الأشقياء لمّا نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ما كان منهم إلا أن اتبعوا كلام الشياطين وطلاسم السحرة؛ فساء بديلاً!

❁ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فالواو هنا واو عطف، والمعطوف عليه: جواب لما في الآية السابقة، فصار التقدير: ولما جاءهم رسول... نبذوا كتاب... واتبعوا ما تلوا الشياطين.

وقد كفاك مجردُ تصور ذلك التنبيه على شدة كفرهم وسوء صنيعهم!

هذا موقع الآية من السياق فلا تغفل عنه!

وفي الآية اختلاف وقصص لا يصح، وزمرة من الأحكام المستنبطة منها، ولعل دراسة كل ذلك على وجه التفصيل يخرج بنا عن شرط الكتاب، فأُجمِلُ إن شاء الله وأختار أقربها إلى الصواب- فيما أرى- والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل!

وظاهر للقارئ أنّ الآية فيها إجمال وإشارة إلى بعض القصص التي لم يصح فيها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم قول، وإنّا لا نلجأ إلى الإسرائيليات لتفصيل هذه المجملات في كتاب ربنا، ولا نرى اللجوء إليها صواباً، ولو كان في معرفة هذه التفاصيل نوع فائدة لذكرها الله تعالى أو لفصّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلمّا لم يحصل ذلك كان تتبُّعها فضولاً قد يلام عليه صاحبه من وجوه.



والحاصل في معنى الآية:

أنَّ اليهود قد نبذوا كتاب ربهم وأعرضوا عنه؛ ثم إنهم أقبلوا على ما تلتْه الشياطين على ملك سليمان.

وتعدية ﴿تَتْلُو﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمينه معنى: الكذب والافتراء، فههنا متلوٌّ مكذوب على نبوة سليمان وعلى ما أوتيه من الملك؛ اخترعته الشياطين، وهذا ما اتبعته يهود ونسبته إلى سليمان، وسليمان عليه السلام بريء منه:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، وفيه: تبرئة سليمان من تلك المخترعات السحرية الفاجرة، ونسبتها إلى الشياطين، وفيه: أن هذا السحر كفر، والأنبياء معصومون عنه.

وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ الفاعل في ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ يعود على اليهود، فيكون الكلام متناسقاً في سياق وصف قبائح اليهود: اتبعوا ما تتلوا الشياطين، يعلِّمون- أي اليهود- الناس السحر وما أنزل على الملكين، ويحتمل أن يعود الفاعل على الشياطين، والأول أولى فيما أرى.

وقوله:﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ قد اختُلف فيه أكثر مما اختُلف في غيره، والأقرب- إن شاء الله- أن يكون معطوفاً على السحر، و"ما " موصولة بمعنى: الذي، والتقدير: يعلِّمون الناس السحر ويعلِّمونهم الذي أنزل على الملكين ببابل، وهذان الملكان اسمهما: هاروت وماروت، فقوله: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ عطف بيان للملكين، وفتح اللام من ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾ القراءةُ المتواترة، وقُرِئ شاذاً: "الملِكين" بكسرها، وقد أراد بعض المفسرين الهرب إلى القراءة الشاذّة؛ مستشكلين أن يَنزل على ملَكَيْن ما من شأنه أن يكون سحراً يُضَلُّ به الناس!

والراجح الذي عليه الجمهور- وقولُهم الصواب إن شاء الله- أنّ هذين الملَكَيْن قد أُنزل عليهما السحر، وكانا يعلِّمانه للناس، وإنّما كان ذلك ابتلاءً من الله تعالى، فالله سبحانه يبتلي



بما يشاء، وقد خلق إبليس وأمرنا بتجنب وسوسته، وخلق الخمر ونهانا عن شربها، وخلق الخنزير ونهانا عن أكله، وله الحكمة البالغة، فلِمَ يُستبعَد أن يُنزل الله على الملَكين سحراً يعلمانه للناس، ويبتلي الناس بذلك! خصوصاً وأنّهما ينبِّهان إلى ذلك ويحذران منه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ بيان لشدة تأثير ذلك الذي يعلِّمانه، وذِكْرُ التفريق بين المرء وزوجه مثالٌ على شدته، من حيث إنّ العلاقة بين المرء وزوجه علاقة قوية لصيقة، فإذا ما كان السحر يصل حدَّ التفريق بين المرء وزوجه؛ عرفنا أنّه سحر عظيم!

وفيه إلماحةٌ إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقةُ بين الزوجين، وإن لم يكن ذلك مقصوداً من السياق.

والفاعل في: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ يعود على الناس، أو على اليهود، وقد يكون مآل القولين هنا واحدا!

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ دليل على أن تعلم ذلك السحر كان بمنأىً عن المصلحة، لا نفع فيه ولا رشد!

وكأني أجد في هذ الآية ردّاً على من أباح تعلُّم السحر وتعليمه بشرط عدم العمل به، ذلك أن الآية ذكرت أن تعلُّم هذا السحر مضرَّة محضة لا نفع فيها!

وهذا أعظم في معنى التحريم مما ورد في الخمر؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴿٢١٩﴾﴾ {البقرة}، وقليل من التأمل في الفرق بين النصين يطلعك على ما أردتُ ذكره!

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾- أي اليهود- ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ فباع نفسه ودينه مقابله، وترك كتاب ربه لأجله: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ {البقرة} أي: من نصيب!

وذيَّل الآية بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وفيها مناداة عليهم بخسارة تجارتهم ومذمة فعلتهم، و" شرى" هنا بمعنى باع، فهم قد باعوا أنفسهم ليكون





مآلها النار، واشتروا ذلك السحر، ليتحقق لهم به بعض مكاسب الدنيا الفانية!

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن الدنيا على قدر من الدون بحيث يخسر من يبذل آخرته في تحصيلها!

مسألة

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لعلمهم، وقوله من قبل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إثبات لعلمهم، فكيف وجه الجمع؟

ذكَر هذه المسألةَ الإمامُ الفخر الرازي رحمه الله، وأجاب بأجوبة؛ أفضلها اثنان:

الأول: أنّهم علموا شيئاً وجهلوا آخر؛ علموا أنّه ليس لهم في الآخرة خلاق، لكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة.

والثاني: أنهم لم ينتفعوا بما علموا فصاروا بمنزلة من لم يعلموا.

وفي الآية مسائل متعددة وفقه غزير، أحيل القارئ على مظانها، كتفسير القرطبي، وكتب أحكام القرآن.

وفيها من فوائد الدعوة والتربية:

لمسة تربوية

قبحُ حالِ من نبذ كتاب ربه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأقبل على ما وضعتْهُ شياطين الجنّ والإنس من مناهج وأفكار ورؤى، وما أكثر هذا بين المسلمين اليوم!

فقد أنزل الله تعالى إليهم كتابه هدى ورحمة، ليخرجهم من الظلمات إلى النـور، فنبذ فريـق منهم الكتـاب وراءهم ظهرياً، وأقبلوا على مناهج





الفلاسفة و"روّاد الحداثة"، واستنُّوا بسنة فلاسفة أوروبا مع إنجيلهم!

وفيها:

خسارة حال من تكسَّب بعلوم الدين لتحصل له الدنيا دون الآخرة، مشترياً الدنيا بائعاً الآخرة!

وفيها دليل على أنه ليس كل علم يُحمد تعلُّمه على الإطلاق، وأنَّ العلم ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو مقصود لما يترتب عليه من سعادة الدنيا وعمارتها، وسعادة الآخرة ووراثة جنة النعيم! فما كان منها مؤدّياً إلى عكس المقصود فليس بعلم محمود، ولا يحمد طالبه! وقد رأينا كيف أدتْ بعض علوم الغرب اليوم إلى هلاك الناس وقتلهم وإبادة مدنٍ بكاملها!

لمسات تربوية ودعوية

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

تأكيد لما ذكره في الآية السابقة، وتحريكُ القلوب لتتطلع إلى ما أعده الله تعالى لمن ترك معصيته؛ وإن حِيزت له الدنيا، وإبراقٌ لمن حبسته ظلمات الشهوات للانفكاك منها طلباً لما عند الله من المثوبة.

وتذكير بعدم التكافؤ بين لذائذ الدنيا ولذائذ الآخرة، وإعلام بأن مقتضى العلم تفضيل الآخرة على الدنيا وإيثار ما عند الله على ما عند سواه!

وليقف العلماء أمام هذا طويلاً ليستعينوا بالله على ما يَهُبُّ عليهم من رياح فتن الدنيا؛ مستحضرين أنَّ ما أعده الله لمن آمن واتقى خير من لُعاعات زائلة ولذائذ منغصة يدركونها ببيع دينهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.





المقطع الثالث عشر
خبث بني إسرائيل ومكايدهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع فيه المزيد من قبائح بني إسرائيل وبيانٌ لشدة عداوتهم للمسلمين، مع كون هذا العداء وضيع الشكل خبيث الهيئة، تتأبّاه طبائع الرجال، وهو دالّ على استفحال الحقد في قلوب اليهود على الدين وأهله؛ بحيث لو لم يجد اليهود لضرّ المسلمين إلا كلمة خبيثة يسبّون بها النبي صلى الله عليه وسلم من غير مصارحة وانتباه منه لفعلوا! ولو لم يجدوا إلا سخافات يطعنون بها في الإسلام والقرآن لفعلوا!



التفسير

❖ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

اختُلف في تفسير الآية على وجوه؛ أقواها اثنان- فيما أرى-:

الأول: أنّ ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء والمسبة، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم.

ووجه السبّ فيها أحد أمرين:

❖ أن تكون اسم فاعل من الرعونة، وهي الحمق، فيقولون: راعنا قاصدين مسبّته صلى الله عليه وسلم من حيث لم يشعر بذلك.

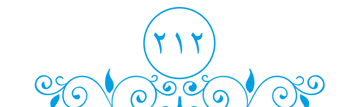
❖ أن تشبه كلمة "راعنا" كلمة في العبرانية؛ هي مسبة ومذمة، فيقصدها اليهود مستهزئين ساخرين.

وأيا ما كان؛ فقد نهى الله تعالى المؤمنين عن مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بها إغلاقاً للباب على اليهود، ومنعاً لهم من مسبة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومثلها- فيما حكاه في موضع آخر-: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ {النساء ٤٦}.

الثاني: وتحتمل الآية وجهاً آخر- وهو الذي رجَّحه الإمام الطبري رحمه الله- أنّها ليست كما قيل متعلقةً بقصة اليهود؛ بل هي كلمة كان بعضهم يقولها في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن لائقة بخطاب الحضرة النبوية، وأنا أنقل موطن الشاهد من كلامه:

"وكأنّ الله جلّ ثناؤه قد أمر المؤمنين بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، حتى نهاهم جلّ ذكره فيما نهاهم عنه: عن رفع أصواتهم فوق صوته، وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وخوَّفهم على ذلك حبوطَ أعمالهم، فتقدم إليهم بالزجر لهم عن أن يقولوا له من القول ما فيه جفاء، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها،



ومن المعاني أرقَّها فكان من ذلك قولهم: ﴿رَاعِنَا﴾؛ لما فيه من احتمال معنى ارعنا نرعاك؛ إذ كانت المفاعلة لا تكون إلا من اثنين، كما يقول القائل: عاطنا وحادثنا وجالسنا، بمعنى: افعل بنا ونفعل بك، ومعنى أرعنا سمعك حتى نفهمك وتفهم عنّا، فنهى الله تعالى ذكره أصحاب محمد أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم ليتعلموا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم، وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك على وجه الجفاء والتجهم منهم له، ولا بالفظاظة والغلظة.."[٧٤].

وقد ناقش الطبري بعد ذلك الأقوال الأخرى، وعرض للرأي الأول الذي ذكرناه أولاً، ولم يستبعد أن تكون هذه الكلمة قد استعملها اليهود مسبةً، وكان الصحابة يستعملونها في معنى آخر مقبول، "فنهى الله عز وجل المؤمنين عن قيلها للنبي صلى الله عليه وسلم لئلا يجترئ من كان معناه في ذلك غير معنى المؤمنين منه أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم به"، لكنّه علق على هذا الاحتمال بقوله:

"وهذا تأويل لم يأت به الخبر بأنّه كذلك من الوجه الذي تقوم به الحجة؛ وإذ كان ذلك كذلك؛ فالذي هو أولى بتأويل الآية ما وصفنا، إذ كان ذلك هو الظاهر المفهوم بالآية دُون غيره "[٧٥].

هذا ما انتهى إليه الطبري رحمه الله، وترجيحه وإن كان قوياً واستدلاله وإن كان متماسكاً متوجهاً- كالعادة-، إلا أنّ السياق يُرجِّح كون الآية في اليهود على وجه التحديد، وإذا انضاف إلى ذلك آية سورة النساء التي ذكرناها تأكّد ذلك وتعيَّن الذهاب إليه، وهو الذي ذهب إليه عامةُ المفسرين، وهو ما أرجحه، والله أعلم بالصواب من ذلك.

وقد بدأتْ الآية بنداء المؤمنين بعنوان الإيمان استدعاءً لإجابتهم وامتثالهم لما في حيز النداء؛ إذ الإيمان يقتضي الامتثال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، وقد جاءك معنى ذلك وتوجيهُه، فقد أبدلهم الله تعالى كلمة أخرى يقولونها مكان تلك

(٧٤) تفسير الطبري، ١/ ٥٤٣.

(٧٥) تفسير الطبري، ١/ ٥٤٣.



الكلمة المُشْكِلَة، وهما بمعنى واحد، بل: ﴿انظُرْنَا﴾ أوفق لما يريدون، ذلك أنهم إنما كانوا يعنون بقولهم: راعنا، أي: التفت إلينا، وارفق بنا، من الرعاية، و﴿انظُرْنَا﴾ من النظر، وهو التعاهد بالاهتمام ورعاية المصالح، فأمرهم باستعمال هذه مكان تلك.

وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي: امتثلوا لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم توعد اليهود بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وعبَّر عنهم بالكافرين؛ تشنيعاً عليهم وتقبيحاً، وتسجيلاً عليهم بالكفر، وتحذيراً من امتطاء طريقتهم!

وهذا يرجِّح ما ذكرناه في تفسير الآية، إذ الوصف بالكفر والتوعد بالعذاب الأليم أليق على ما اخترنا، والله أعلم.

وفي الآية فوائد متعددة؛ منها:

لمسة دعوية

- الحذر من كل قول أو فعل يصدر من اليهود؛ لما أنّه مظنة السوء قصداً وتعمداً، وأنّهم ليسوا أهلاً لحسن الظن، بل المؤمن الكيّس يتفطن إلى ليّ ألسنتهم وخفايا تصرُّفاتهم، ثم إنّه يغلق دونهم كل باب!

لمسة تربوية

- أنّ استعمال هذه الطرق الوضيعة لا يليق بالمؤمن، إنّما هو من شأن اليهود وأخلاقهم، والمسلم لا يرتضي ذلك لنفسه، وهم لاعتبار انعدام رجولتهم وشدة جبنهم يتوسلون إلى مساءة أعدائهم بمثل هذا، والمسلم أرفع خلقاً وأشجع قلباً من سلوك مثله.

استنباط أصولي

- فيه دليل لأصل من أصول الشريعة والفقه، وهو سدُّ الذرائع، وهذا واضح من كون النهي قد انصبَّ على مالا بأس به أصلاً؛ منعاً من الوصول إلى ما به بأس، وهو واضح من قصة الآية؛ إذ كلمة "راعنا" لا بأس بها في الأصل، لكنّها مُنعت بالنظر إلى ما به بأس؛ وهو مساءة النبي





صلى الله عليه وسلم وتوسل اليهود بها إلى الاستهزاء والشتيمة.

ولمّا دلّت الآية على وضاعة اليهود وشدة عداوتهم بيَّن عمق تلك العداوة بقوله:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

وهذه الآية انتقال من تعيير اليهود بجرائمهم وقبائحهم؛ التي استأهلوا بها نزع أمانة الاستخلاف منهم؛ إلى تحذير المؤمنين منهم ودعوتهم إلى أخذ الحذر منهم ببيان تجذُّر تلك العداوة وعمق ذلك الحقد الدفين!

والآية بيان لسبب كفر اليهود ومعاندتهم لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك ليس هو التكذيب؛ وإنّما الحسد!

والودُّ: "محبة الشيء وتمنّي كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين؛ على أن التمني يتضمن معنى الود، لأنّ التمني هو تشهّي حصول ما توده"[٧٦]، هذا كلام الراغب، ولم يرتضه ابن عاشور، قال: "والود بضم الواو: المحبة، ومن أحب شيئاً تمناه، فليس الودّ هو خصوص التمني ولا المحبة المفرطة؛ كما حققه الراغب"[٧٧].

محاكمة بين الراغب الأصفهاني وابن عاشور

قلت: قد لا يكون كلام الراغب دقيقاً لكثرة ما يمكن إيراده عليه من الأمثلة التي تناقض ما ذهب إليه، وقد سمّى الله تعالى نفسه: الودود، ولا يخفى عدم مواءمة المعنى الذي ذكره الراغب لذلك، وثمة أمثلة أخرى كذلك، لكن الذي يَرِدُ على ابن عاشور أنّه قد سوّى بين كلمتين تسوية تامة من غير فرق بينهما؛ وهما: الودّ والمحبة، والترادف ممنوع عند المحققين في كتاب الله تعالى، وهو الذي نراه، فإن كان ذلك كذلك؛ فإنّه لا بدَّ من فرق بين الكلمتين.

---

(٧٦) مفردات ألفاظ القرآن، ٨٦٠.

(٧٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١/ ٦٥٢.



والذي يبدو لي أنّ الفرق بينهما أنّ الحب شعور في القلب فحسب، أمّا الودّ فأن يمازج شعورَ القلب هذا عملٌ نابع من الحب، ولعل هذا يتجه مع مواضع ذكرها القرآن، فأمِرَّه على قلبك- غير مأمور- تجد ما ذكرته لك قريباً، والله أعلم.

ونفي الودّ بمعنى كراهتهم أن ينزَّل على المؤمنين خيرٌ من ربهم، والتعبير عنهم بالموصول "الذين كفروا من أهل الكتاب"؛ للإشارة إلى علة تلك الكراهة لأن يصيب المؤمنين خير من ربهم، و"من" هنا ليست للتبعيض، وإنّما لبيان الجنس، وقد سوَّى الله تعالى بين أهل الكتاب والمشركين في كراهتهم ذلك، وفيه: ذمٌّ لأهل الكتاب من حيث تسويتهم بالجهلة من المشركين؛ الذين لم يؤتَوا كتاباً يدلهم ويعلمهم كما حصل لأهل الكتاب!

و"الخير" الذي كره أهل الكتاب تنزله على المؤمنين يحتمل أن يكون عاماً في كل خير مهما كان نوعه، ويحتمل أن يكون المقصود به: الوحي والنبوة على وجه التحديد، والأليق الأول؛ مع التنبه إلى أنّ أولَ ما يشمله اللفظ مما يقع عليه الحسد: الوحي والنبوة؛ فلا تنافي عند التحقيق!

والآية على هذا تصوِّر شدة حنق أهل الكتاب والمشركين على المسلمين، وتبيّنُ كونهم يُساؤون عند خير المؤمنين؛ ويفرحون بمساءتهم، وأنّ أول ما حسدوا عليه المؤمنين هو النبوة والوحي، إذ هي أصل النعم عليهم ولله الحمد على جزيل نعمائه وجليل آلائه، وأعظمها: الإيمان والطاعة وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم فينا!

وقد ردّ الله تعالى عليهم بجملة واحدة كافية للجم تمرّدهم وطغيانهم: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيبسط لمن يشاء ويقدر، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فإن تفضل على أحد فإنّه لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون!

وكراهة أهل الكتاب تنزيلَ الله تعالى الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأجل كونها نزعاً لأمانة الاستخلاف منهم وإسنادها إلى غيرهم، وهذا- بحدّ ذاته- نسخ- أيْ إلغاء- لِمَا أنهم كانوا مفضلين من قبلُ بالوحي والنبوة.



وهذا يتضمن بالإضافة إلى المذكور: نسخ شريعتهم بشريعة جديدة، ودينهم بدين جديد، ولمّا كان ذلك كذلك؛ قال الله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وهذه الآية قد استُدلّ بها على موضوع النسخ الأصولي؛ وهو رفع حكم شرعي أو خطاب شرعي متقدم بآخر متأخر، وهو موضوع ذو ذيول، وأوثر إحالة القارئ على المظانّ، وأكتفي بتفسير الآية وفقاً لما قدمته من مناسبتها على الذي أراه، على إشارة إلى أنّني أثبت النسخ؛ مع ملاحظة ضرورة عدم اللجوء إليه إلا بمقتضى دليل قويّ يُلجِئ إليه.

والنسخ يأتي بمعنين في القرآن، **الأول**: الإلغاء، وهو معناه في هذه الآية.

والثاني: النقل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ {الجاثية}.

ومعنى الآية على ما بينا من المناسبة:

أنّ نسخ الرسالة التي أنزلت على موسى أمرٌ ليس مستغرباً، بل هو من عادة الله تعالى أنّه إن نسخ آية أتى بآية ورسالة خير منها أو مثلها في الخيرية، والله قدير على ذلك، لا يمنعه مانع ولا يحول دون إمضاء إرادته شيء: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويحسن أن تستحضر عند نظرك في هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ {البقرة ﴿٩١﴾}.

فاليهود- إذاً- منكرون للنسخ أصلاً، وإنّما ينكرونه ليتوسلوا بذلك إلى إنكار نسخ شريعة موسى عليه السلام، إنكارِ نسخها بشريعة عيسى بن مريم عليه وسلم، وإنكار نسخها بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد!





فنزلت الآية في سياق الحديث عن كراهتهم لتنزيل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، ولبيان كون ذلك النسخ من سنن الله تعالى، وأنّ الله قدير عليه، لأنّ الله على كل شيء قدير، وجاء إثبات قدرته تعالى على النسخ على طريقة ما يسمّى: "الدليل البرهاني"، وبيانه:

❖ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أنّ النسخ شيء

فالنتيجة أنّ الله قدير على النسخ، لكن الصياغة القرآنية المباشرة السهلة لا تكلف فيها ولا تصنُّع، بل هي متماشية مع بديهة العمل العقلي.

والمخاطب في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو كل من يصلح له الخطاب؛ لبيان كون مضمون الخطاب معلوماً لكل أحد على السواء، وليس من خصائص العلم النبوي، وبذلك تقوم الحجة على أبلغ وجه!

ثم زاد الاحتجاج تأكيداً بقوله:

❖ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

ومناسبة الآية لما قبلها من حيث إن الله الذي له ملك السماوات والأرض يفعل ما يشاء ويقضي بما يريد، ومن ذلك: النسخ المذكور في الآية السابقة، وقد بيّنا أن الكلام إنما هو في نسخ شريعة موسى بحسب ما يقتضي السياق، واليهود ينكرون ذلك، فجاءت الآية هذه كالبرهان على أنّ النسخ جائز باعتبار مُلكية الله تعالى للسماوات والأرض، وله التصرف فيهما بما شاء سبحانه، وما دام ذلك كذلك فإنّ أحداً لا ينفع ولا يضر، ولا يشفع ولا ينصر إلا هو: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.



والاستفهام في أول الآية للتقرير، بغضّ النظر عن المخاطب في ﴿تَعْلَمْ﴾، إذ قد يقال: إنّ المخاطب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يقال: إنه كل من يصلح له الخطاب، فمضمون ما دخل عليه الاستفهام من الشهرة بمكان بحيث لا يجهله أحد ولا يماري فيه صاحب عقل!

ثم انتقل الخطاب بعد ذلك للمؤمنين محذِّراً لهم عن سلوك سبيل بني إسرائيل في التعنُّت وردّ أمر الله تعالى؛ فقال:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة بمعنى: بل، والإضراب هنا للانتقال إلى كلام آخر، لا بمعنى إبطال الكلام السابق، والتقدير: بل أتريدون؟

والآية وعظ شديد للمؤمنين عن سلوك سبيل بني إسرائيل في التعنُّت، وذلك أنّ بني إسرائيل كانوا يتعنَّتون مع نبيهم ويسألونه أسئلة تفضي بهم إلى الكفر، كقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ {النساء ﴿١٥٣﴾}، وقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ {الأعراف ﴿١٣٨﴾}، وقد جاء هذا التحذير بعد بيان شقاوة بني إسرائيل وكفرهم وتعريتهم من الإيمان في الآيات السابقة.

هذا وقد أورد بعض المفسرين احتمالاً آخر في معنى الآية، وهو أن يكون نهياً عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم الأشياء قبل كونها لئلا يُضيَّقَ بالسؤال على المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ {المائدة ﴿١٠١﴾}.

وقد عرفت أن الأول أوفق للسياق.

وروي في سبب نزول الآية أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا نبغيها- ثلاثاً-، ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم الخطيئةَ وجدها مكتوبة





على بابه وكفارتها، فإن كَفّرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يُكّفرها كانت له خزياً في الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ {النساء}، وقال: الصلوات الخمس، ومن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن، وقال: من همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كُتبت سيئة واحدة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك"، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾[78].

ووردت أسباب نزول أخرى منبئةٌ أن الخطاب ليس للمؤمنين، وإنما يشمل الكافرين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وهذا بعيد، فإنه مقتض كون الآية مكية، والاتفاق على أنها مدنية، والسياق كذلك يأباه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فيه الإشارة الواضحة على أنّ ذلك التبدل هو مسلك اليهود الذي نُهي المسلمون عن سلوكه، والباء تدخل ههنا على المتروك، والآية مشتملة على استعارة، شبه فيها سلوك سبيل الظالمين في التعنُّت ومخالفة الحق، وترك سبيل الانقياد للشريعة والاستسلام لأمر الله بتبديل الكفر بالإيمان.

و ﴿وَمَن﴾ شرطية مفيدة للعموم؛ المشير إلى أنّ هذا الوعيد عام في بني إسرائيل وفي غيرهم، ففيه تحذير للمؤمنين، والجواب "قد ضل سواء السبيل"، وأضاع استقامته المؤدية إلى النجاة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ {الأنعام﴿١٥٣﴾}.

---

(٧٨) تفسير ابن كثير/ ابن كثير، ١/ ٢٦٤



﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

ما قصّهُ الله تعالى علينا في هذه الآية قبيحة أخرى من قبائح اليهود؛ خاصةٍ بكيدهم للمسلمين وكراهيتهم لما امتنّ الله تعالى به عليهم من الإيمان والإسلام، واختيارِهم محلاً للنبوة ونزولِ الوحي.

فبيَّن فيها ما حصل في قلوب اليهود من الحسد للمسلمين والرغبة في ارتدادهم إلى الكفر بعدما حصل لهم من الإيمان! وهذا حال كثير من أهل الكتاب؛ أنهم يودُّون حصول ذلك الارتداد للمسلمين، والود: محبة الشيء وتمني كونه، على ما عبر الراغب الأصفهاني في مفرداته[٧٩]، فهو زائد على الحب المجرد، واستعمال هذا الفعل هنا منبئ عن شدة الحسد الآتي ذكره.

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ و﴿لَوْ﴾ هذه إما أن تقدِّر لها جواباً مناسباً، مثل: لسُرُّوا بذلك، أو تقول: هي مصدرية، مثل: أن يردوكم، على خلاف بين المدارس النحوية في ذلك.

وودُّ هؤلاء اليهود حصولَ ردةِ المسلمين كفاراً دالٌّ على أنّ ذلك للحسد لا لقصد الحق؛ لو كانوا صادقين! ذلك أنهم لم يحرصوا على نقل المسلمين إلى دينهم وإدخالهم فيه؛ وإنما يودّون عودة المسلمين كفاراً، وهو ما صرّحت به الآية في القادم، والنصُّ على أنّ تلك الردة التي يتمناها اليهود للمسلمين إنما هي ﴿مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ لإثارة دواعي الاستمساك بالإيمان والاعتصام به بتذكيرهم بما وقع لهم فيه من الخير الكثير.

وقوله: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ تصريحٌ بالذي حملهم على ذلك الود، فـ ﴿حَسَدًا﴾ مفعول لأجله، والتنكير للتعظيم وبيان خطورة ذلك الحسد الذي ملأ قلوبهم، ثم وصف هذا الحسد بأنه منبعث من أنفسهم الخبيثة المستمرئة للحسد المعتادة عليه!


(٧٩) مفردات ألفاظ القرآن، ٨٦٠.





ملمح تربوي، وفوائد فكرية وسياسية

والعجيب من هؤلاء أنهم إنما يفعلون ذلك ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ وقامت براهينه وأدلته ساطعة؛ لكنه الخذلان!

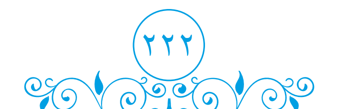
وفي ذلك من الملاحظ التربوية:

- خطورة الحسد وبيان ما يؤدي إليه من معاداة الحق وتمني زوال النعم عن العباد، وإن كانت النعمة: الإيمانَ بالله تعالى وطاعته!
- أن القلوب المريضة والنفوس الخبيثة مُنبَعَثٌ للشرور ومحلٌّ لها، وهكذا هي قلوب اليهود ونفوسهم موئل للحسد وغيره من قبيح الصفات والأخلاق.
- وجوب الحذر من مكايد اليهود، والتنبه إلى أنهم يتمنون زوال الإيمان عن قلوب المؤمنين، ويكيدون لعقيدتهم ودينهم، ويعملون على إفساد طبائعهم وأخلاقهم، وهذا ما يتجلى واقعياً اليوم عبر المؤسسات الصهيونية والماسونية العالمية!

ثم أمر الله تعالى رسوله وأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، والعفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك التثريب والتأنيب، وهو أبلغ من العفو؛ إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح، ولعله مأخوذ من تولية صفحة الوجه إعراضاً دلالة على ترك التأنيب، أو من تصفحت الورقة إذ تجاوزت عما فيها[٨٠].

واختُلف في معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، وهو الغاية التي جُعلت للعفو والصفح، والذي يبدو أنه الأمر بعد ذلك بقتال اليهود واستئصال شأفتهم، وحصول ما حصل لهم بسبب مكرهم وتمردهم

(٨٠) روح المعاني، ٢/ ٤٨٦.





على الحق.

وهذا المعنى دالٌّ على أنّ نزول الآية مبكر في المدينة، قبل البدء بقتال اليهود كما يظهر.

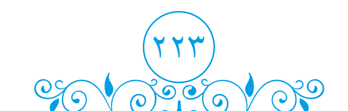
وقد زُعم أنّ هذه الآية وشبيهاتها منسوخة بآية السيف وما يشبهها من آيات الأمر بالقتال، كقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ {التوبة ٢٩}، والحق إن شاء الله أنّ مثل هذا ليس منسوخاً، بل هو خاضع لما يراه المسلمون بالنظر إلى قوتهم وقوة عدوهم، وما يقدرونه من مصلحة في ذلك من حيث اختيار العفو أو السيف، كما قرر ذلك المحققون.

ولما حمل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تهديداً واضحاً بقرب مجيء أمر الله فيما يحمل التبشير بقوة المسلمين وانهزام أعدائهم أعقبه ببيان ما يؤكد ذلك في النفوس ويطمئنها إلى قرب التمكين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم أمرهم بالانصراف إلى ما من شأنه أن يمهّد نفوسهم للنصر القادم ويعينها على المضي في سبيل الدعوة والجهاد، فقال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

فمن شأن الصلاة التي تقيمونها أن تقوي نفوسكم بصلتكم بالله، ومن شأن الزكاة التي تؤتونها أن تخلص نفوسكم من الشح والبخل، وتهيِّئها للتضحية والبذل، ثم الباب مفتوح بعد ذلك لكل خير تنفعون به أنفسكم إذ تقدمونه أمامكم بين يدي الله فتجدونه على أحوج ما تكونون يوم لقاء الله؛ فتُسَرُّون به: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ {آل عمران٣٠}، ثم الله البصير بما تعملون يجزيكم على أقل خير تعملونه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ {الزلزلة}.



وفي الآية:

الإشارة إلى الزاد الذي ينبغي أن يتزود به السالك في طريق الجهاد والدعوة ومقارعة أعداء الله ومراغمتهم، وذلك خير زاد: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والاستكثار من وجوه الخير والمعروف؛ فالطريق مليء بالمُعيقات والمُرهِقات والمؤذيات، وهو طريق طويل يحتاج سالكه إلى الزاد حتى لا ينقطع!

لمسات تربوية ودعوية

....

....

....

....

....

المقطع الرابع عشر
فساد تصور اليهود وتناقضهم والنصارى

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ





هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

جاء هذا المقطع كحلقة أخيرة من حلقات الجدل مع بني إسرائيل فيما يخصُّ بيان حقيقة دعواهم الإيمان، وقد جاء في الحين الذي بلغ بيان سقوط مكانتهم أوجَهُ؛ بعد كل تلك التعرية لباطلهم وانكشاف عوار إيمانهم المزعوم!

وقد ذكرت الآيات السابقات طَرَفاً من قبائحهم حتى ظهر مقدار ما بلغوه من الكفر بآيات الله ومعاداة أنبيائه، وأتبعه في هذا المقطع من السورة- تعجيباً من حالهم- ببيان غرورهم و"نرجسيتهم" على الرغم مما هم عليه من الكُفر والضلال!

التفسير

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

هذا زعم كلٍّ من الطائفتين، قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى، اغتراراً بما عندهم من العلم، وتمنياً من غير برهان: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.



أسلوب اللف والنشر

وسلك القرآن في إثبات المقولة لكل من الطائفتين على الوجه المذكور في الآية أسلوب الإيجاز، فقال: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وقد جاءك أن كلًّا من الطائفتين زعمت ذلك لنفسها دون الأخرى؛ لا أنّ اليهود زعمت اقتصار دخول الجنة على اليهود والنصارى، ولا أنّ النصارى زعمت ذلك لليهود والنصارى!

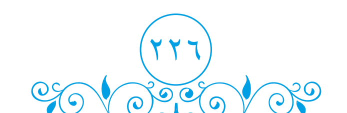
ويسمى هذا عند البلاغيين: "اللف والنشر"، وهو أسلوب لطيف يقصد البليغ باستعماله إلى الإيجاز طالما لا يُحدِث ذلك لبساً عند السامع.

وقوله: "هوداً" جمع هائد، أي متبع اليهودية، والنصارى جمع نصران، وهو متبع النصرانية.

أخبر الله تعالى عن هذه الدعوى لكلٍّ من هاتين الطائفتين بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، واسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ يعود على ما تضمنته أقوالهم من اختصاصهم بالجنة، و﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أمنية، وهي ما تتطلَّبه نفس المرء ولا يدركه، ومضمون كلامهم وإن كان أمنية واحدة، إلا أنها لما تضمَّنت أمانيَ متعدِّدة هي لوازم لها ساغ الجمع، مثل: نجاتهم من العذاب مهما فعلوا، وأن العذاب من نصيب أعدائهم والحرمانَ من النعيم، وزعمُ كونهم على الهدى دون غيرهم، واعتقادُ أنهم شعب الله المختار![81].

ومثل هذه الدعاوى لا ينبغي أن تُتكلَّف لها الرُّدود التفصيلية؛ إذ يكفي في نقضها المطالبة بالدليل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن عدمتم البرهان على هذا الادّعاء بَطَلَ، ولم يَعُدْ الاعتماد عليه إلا ضرباً من الكذب على الله وعلى رسالاته، وضلالاً يضيفونه إلى رصيدهم الحافل بالضلال!

(٨١) انظر: تفسير المنار، ١/ ٣٤٥.



وأقول: أعظم الضلال إذا ما جمع القوم الخبائث وتتالت منهم القبائح والعظائم ثم ادّعوا- غروراً- بعد كل تلك المصائب والبلايا العقدية والخُلقية أنهم أصحاب الجنة دون غيرهم، وهو الذي كان من أهل الكتاب عموماً- من اليهود ومن النصارى-!

❁ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أجيب القوم بالحق وبُيِّن لهم الصواب: ﴿بَلَىٰ﴾ سيدخل الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، فإنّ الله تعالى لا يحابي أحداً، ولا ينتفع أحد بين يديه إلا بعمله.

و ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة إيجاب يُجاب بها المنفيُّ لإثبات نقيض النفي؛ كما في الكلام السابق.

و (إسلام الوجه لله): هو الاستسلام لأوامر الله تعالى، والانقياد لشريعته، واتباع رسوله، مضافاً إلى ذلك العمل الصالح الحسن: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

ومن استكمل الشرطين ناله الأجر الموعود والخير المشهود: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وهو من بعد في ذمة الله وولايته ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من قادم منتظر ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فات وغَبَرَ!

ثم زاد الأمر بياناً فقال:

❁ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

وهذا دالٌّ على أنّ المجازفة دأبهم، وأنّ رمي المخالف لهم بأنه ضالٌّ شنشنة فيهم قديمة؛ فلا تعجبوا من حكم كلِّ فريق منهم بأنّ المسلمين لا يدخلون الجنة، أو أنهم ليسوا على شيء.

وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب باللائمة، وتطمين لخواطر المسلمين، وإشارة إلى أنّ طعونهم مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه أصلاً!!



وقد روى ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزولها قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حُرَيمِلة: ما أنتم على شيء، وكفَر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله من قولهما: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[٨٢].

وبالتأمل في سبب النزول يزداد فهمنا لتركيب الآية اللفظي، ذلك أنّ التعصب قاد الفريقين إلى ادعاء خلو الآخر عن أي حق البتة، مع أنهم- كما تصرِّح الجملة الحالية- يتلون الكتاب: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي المنزَّل على كل منهما: التوراة والإنجيل، وقد قرأ اليهود في التوراة البشارة بعيسى عليه السلام، وقرأ النصارى في الإنجيل أنّ رسالته متمِّمة لرسالة موسى عليه السلام!

والمقصود من الآية والله أعلم:

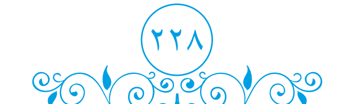
الإشارة إلى أنّ اليهود والنصارى "قد صاروا إلى حالة من التهافت واتباع الأهواء لا يعتدُّ معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره؛ فطعنُهم في النبي صلى الله عليه وسلم وإعراضُهم عن الإيمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء.."[٨٣].

وإذا كان هؤلاء الذين "يتلون الكتاب" قد صدر منهم ما يخالف الكتاب من الهوى والتعصب للباطل؛ فإنهم قد شابهوا في ذلك الذين لا يعلمون من المشركين: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ في الاضطراب والتعصب وعدم الالتفات إلى الحق وإقامة البرهان!

---

(٨٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٢٠٥.

(٨٣) تفسير المنار، ١/ ٣٤٨.



ولما كان الوصول إلى هذه الحالة من التعصب مما لا سبيل إلى علاجه في الدنيا بإقامة البراهين وبيان الأدلة على الحق أحال الحكم بينهم والفصل في اختلافهم إلى يوم القيامة: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

❖ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

اختُلِف في تفسير هذه الآية اختلافاً كثيراً، والأقوالُ في كل جملة منها متعددة، وحتى لا يطول المقام في العرض والمناقشة- لأنه خارج عن غرض الكتاب- أكتفي من ذلك بالراجح، وأشير إلى ما يلزم من سواه، وبالله التوفيق.

❖ قيل: نزلت الآية في المشركين الذين مَنعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام وعبادة الله تعالى فيه، والسياق يُبعدُ ذلك؛ فإن الكلام في أهل الكتاب!

❖ وقيل: الآية تتكلم عن حادثة تاريخية متعلقة بتخريب الرومان لبيت المقدس، وهدمهم ما كان فيها من مساجد؛ حتى لم يُبقوا حجراً على حجر، ووجه المناسبة مع ما سبق بناء على هذا:

أنه لما ذكر ما كان بينهم من التراشق والتعصب: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بيّن أنّ ذلك آل إلى تخريب المعابد بينهما والمنع من ذكر الله فيها، وهذا الوجه قويٌّ محتمل.

وجه لطيف مقدسي في تفسير الآية

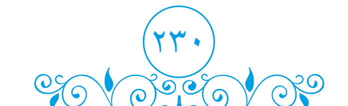
أما الثالث- وهو وجه لطيف المأخذ- أن يكون إخباراً عما يكون منهم، وتبشيراً للمؤمنين بأنهم يرثون تلك المساجد ويطهرونها من تخريبهم وتدنيسهم، وقد حصل هذا فعلاً؛ ذلك أنّ المسلمين قد خلَّصوا بيت المقدس من أيدي الروم في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعاد الصَّليبيون إلى بيت المقدس في زمن الحروب الصليبية، ووقعت القدس تحت سيطرتهم (٩١) سنة، من سنة ٤٩٢هـ، وعاثوا فيها فساداً وسفكوا الدماء، ومنعوا الجُمَعَ والجماعات، حتى حرّرها الناصر صلاح الدين رحمه الله سنة ٥٨٣ هـ.

تنزيل واقعي

وهاهم اليوم عادوا من جديد للإفساد وسفك الدماء، وتدنيس المسجد الأقصى المبارك، والتآمر لتهويده، والسعي في تخريبه، وبشرى المسلمين بأنّ ذلك إلى زوال، وأنه لا بقاء للفساد ولا للاحتلال: ﴿لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ بالجلاء والإخزاء، ﴿وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ويَلتقي معنى الآية على هذا الوجه مع ما جاء في صدر سورة الإسراء من الحديث عن الإفساد الثاني لبني إسرائيل، والوعد بانتهائه وتحرير المسجد وتطهيره من تدنيسهم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾ {الإسراء}، وقد بيّنت تفاصيل ذلك في كتابي: (بيت المقدس وأسس المعركة القادمة مع اليهود).

والاستفهام في الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للنفي؛ بمعنى: أنه لا أظلم ممن يفعل ذلك الفعل الشنيع المنبئ عن الجرأة على الله تعالى بتعطيل ذكره في مساجده والسعي في تخريبها!



وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ يحتملُ وجوهاً:

❖ **الأول**: لبيان الحال اللائقة بهم، كأنه قال: إن الحقيق بهم بدل التخريب ومنع ذكر الله أن يدخلوا تلك المساجد خائفين من الله منكسرين لقوته معترفين بألوهيته!

❖ **والثاني**: أن يكون وعيداً لهم بأنهم لن يأمنوا في تلك المساجد بل سيكونون خائفين فيها من جند الله وعشاق مساجده؛ المتعلقة قلوبهم بتحريرها وتطهيرها!

❖ أو يكون أمراً للمؤمنين بإخافة أولئك المفسدين ومقاومتهم ونزع هناءتهم بمقامهم فيها، والقولان هذان مؤدّاهما واحد، كما أشار إلى ذلك الإمام المحقق الألوسي[٨٤].

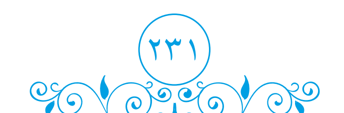
﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وقد جاءك ذكر التجلي الواقعي لهذه الآية بطرد الرومان، وتحريرها منهم على يد صلاح الدين رضي الله عنه وعن أستاذه نور الدين محمود، وهو ما سنعيشه إن شاء الله في قضية فلسطين اليوم، وزوال احتلال اليهود وتتبير علوهم وإفسادهم!

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقُّونه على ما عاندوا الله وتجرؤوا على مساجده ومنعوا ذكره فيها!

❖ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

الذي يقتضيه السياق أن يقال: إنه لمَّا ذكر ما يُحدثه أولئك المُبطلون من تخريب للمساجد ومنْعٍ لذكر الله فيها ناسب أن يقال: إنّ ذلك لا يعطِّل العبادة ولا يلغيها، بل أينما تولوا فثمَّ وجه الله؛ تطميناً لقلوب المؤمنين، وإيذاناً بأنّ عبادة الله تعالى لا يوقفها في الأرض شيء؛ فإنّ له المشرق والمغرب، مالك للأرض والسماوات، وسع ملكه كل شيء، كما وسع علمه كل شيء؛ سبحانه! و (ثَمّ) اسم إشارة للمكان البعيد خاصة، ولا يقصد -بطبيعة الحال- أن الله متحيزٌ في مكان معين- تعالى عن ذلك-، فإننا نثبت لله ما أثبته

(٨٤) روح المعاني، ١/ ٤٩٦.



لنفسه في ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ {الشورى}، وإنما مَن قَصَدَ الله تعالى وتوجه إليه بالعبادة صحَّ مِنْهُ ذلك وتقبَّله ربه.

وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنّ الآية نزلت في صلاة المسافر والتطوع على الراحلة[85]، والذي أراه أنّ صيغة الرواية غيرُ صريحة في الدلالة على سبب النزول، وبالتالي فالمقصود بها والله أعلم أنّ صلاة التطوع على الراحلة في السفر مما يدخل في حكم الآية وتدل عليه ألفاظها، فإنّ المسافر لو صلى على راحلته التطوعَ غيرَ مستقبِلٍ القبلةَ جاز أن يُستدل على جواز فعله بهذه الآية، وهو الذي فعله الفقهاء، أما المعنى الأوليُّ للآية فلا بدَّ أن يُناسب السياق ولا ينبغي أن يكون نافراً عنه؛ وهذا مُقْتضى أصول التفسير.

تطبيق أصولي / أصول التفسير

(والله واسع) وسَّع عليكم فإنّ له المشرق والمغرب، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد وأعمالهم أينما ولّوا وجوههم.

ثم لكأن سائلاً يسأل – على طريقة الاستئناف البياني – بعدما سمع ما عدَّدته الآيات من قبائحهم: هل انقطع افتراؤهم على الله عند هذا أم امتدّ؟ فقيل: بل امتدّ، فإنهم قالوا ما هو أشنع وأفظع:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝١١٦﴾.

والضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ يصلح عوده على الطوائف المذكورة السابقة؛ أما اليهود فإنهم قالوا: عزير ابن الله، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وأما مشركو العرب ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقالوا: الملائكة بنات الله،

(٨٥) روح المعاني، ١/ ٣٦٤

تعالى الله عن أقوالهم علوّاً كبيراً، وتنزَّه عن نسبة الولد له: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، إنما يتوالد الفانون الذين يحتاجون إلى بقاء أنسالهم، والضعفاء الذين يحتاجون عون أولادهم، أما هو سبحانه فهو مالك السماوات والأرض وما فيهن: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و ﴿بَل﴾ للإضراب المُبطِل لمضمون كلامهم السابق!

ثمَّ إنَّ كل ما في السماوات والأرض ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون منقادون لمشيئته وقدرته وإرادته الكونية!

ووجه إبطال ما زعموه من اتخاذ الولد بمالكيته لما في السماوات والأرض: أن الولد إنما يكون من جنس والده، وما في السماوات والأرض لله تعالى بحكم خلقه وإيجاده، منقادون انقياد العباد الذين لا يخرجون عن الإرادة الكونية لربهم وخالقهم!

ومن لطائف التعبير القرآني ههنا:

أنه عبَّر بـ ﴿مَا﴾ عن موجودات السماوات والأرض، و ﴿مَا﴾ عند الأكثر إنما تستعمل للجمادات، ولما قال: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أتى بجمع المذكر السالم: ﴿قَانِتُونَ﴾ الذي يستعمل للعقلاء، فما السر في ذلك!

"قيل: أتى بـ ﴿مَا﴾ في الأول لأن المقام مقام الألوهية، والعقلاء فيه بمنزلة الجمادات، وبجمع العقلاء في الثاني لأن المقام مقام العبودية، والجمادات فيه بمنزلة العقلاء"[٨٦]، فتأمل - سددك الله - أسرار هذا الكتاب توقنْ أنه تنزيل من حكيم حميد!

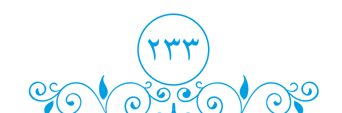
۞ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

وهذا الدليل الآخر على بطلان نسبتهم الولد لله تعالى، وسيأتي بيان وجه إبطاله لمقولتهم.

و ﴿بَدِيعُ﴾ فعيل بمعنى فاعل، والعدول عن فاعل إلى فعيل لإرادة المبالغة، والإبداع - كما قال الراغب -: "إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء... وإذا استعمل في الله تعالى فهو

---

(٨٦) روح المعاني للألوسي، ١/ ٤٩٩.



إيجاد الشيء بغير آلةٍ ولا مادةٍ ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله"[87].

وإذا كان هذا هو المعنى فوجه دلالته على إبطال مقولاتهم الشنيعة: أن إيجاد الله لكل تلك المخلوقات مناقض لكون شيء منها ولداً له تعالى!

والتناقض بين كون المزعوم ولداً له، وكونه مخلوقاً له يقضي بأنه متعال عن التوالد؛ جلَّ الله!

ولما كان الولد إنما يكون لحاجة والده إليه من وجه من الوجوه؛ بيَّن كمال قدرته تعالى وعدم احتياجه لشيء أصلاً، بل إليه حاجةُ خلقِه، وبأمره خلْقُهم وإيجادهم: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقد استطرد الرازي رحمه الله في مباحث عويصة في تفسير الآية وإيراد الاعتراضات على ظاهر قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ولا حاجة لنا بمثل هذه المسالك، مكتفين بالإيمان بما أنزله الله على مراد الله؛ مُحتذين بالراسخين في العلم القائلين: ﴿آمَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ {آل عمران ٧}.

۞ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨﴾.

عطف على الآية السابقة: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ١١٦﴾{البقرة}، وهذه حكاية جريمة متعلقة بالجرائم المذكورة أخيراً، وجاء في بيان المناسبة وجوه، ذكر منها الآلوسي رحمه الله أنّ الآية السابقة حكاية لقدحهم في التوحيد، وهذا قدح في النبوة[88].

(٨٧) مفردات ألفاظ القرآن، ١١٠.

(٨٨) انظر: روح المعاني، ١/ ٥٠٣.





واختلف في المقصود بالموصول في الموضعين من الآية، فقيل:

❖ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النصارى، و ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ اليهود وإليه ذهب الطبري رحمه الله[٨٩]، بدليل: ما رجحه من كون الآية السابقة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خاصة بالنصارى.

❖ وقيل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اليهود، ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الأمم من قبل، واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الطبري وغيره عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنتَ رسولاً من عند الله كما تقول، فقل لله عز وجل فلْيكلّمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله:﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، الآية كلها[٩٠].

❖ وقيل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشركو العرب، و ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾: الأمم من قبل أو اليهود والنصارى كما في روايات عن السلف أوردهَا الطبري، والقول بأن المشركين هم المقصودون هنا قول أكثر المفسرين، كما بيَّن صاحب روح المعاني[٩١]، ويُستدلُّ لهذا القول بأنّ لفظ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقابل: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في الآية التي فسَّرناها قبل قليل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وواضح أنه المقصود به مشركو العرب، وهو قولٌ وجيه.

(٨٩) سيأتي التوثيق في الموضع التالي.

(٩٠) تفسير الطبري، ١/ ٥٩٠، وقد صححه الشيخ أحمد شاكر، كما في عمدة التفسير.

(٩١) روح المعاني، ١/ ٥٠٣.





وأستبعدُ القول الأول الذي رجحه الإمام الطبري، وقد فسرنا ضمير القائل في: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بأنه يعود على الطوائف الثلاثة التي زعم كلٌّ منها نسبة ولد ما لله تعالى عن ذلك، فلا وجه لتخصيصه بالنصارى!

ونحن – فيما أرى – بين قولين؛ الثاني والثالث، والثالث دليله استعمال الموصول بمعنى مخصوصٍ قبل آيات، وقد اتفقنا على رجوعه على المشركين، فكذلك هنا – وهو دليل أصحاب القول كما بينا –!

لكنه محجوج بدليلين:

الأول: أن السياق في بيان عوار أهل الكتاب، وإنما جاء ذكرُ مُشركِي العرب في سياق تشبيه مسلك اليهود والنصارى بهم تثريباً على اليهود والنصارى، ويتابع النُّص بعد هذه الآية الحديث عنهم كذلك، فيقوِّي هذا أن يكونوا هم المقصودين بالآية.

تطبيق أصولي / أصول التفسير

والثاني: أن المروي عن ابن عباس في قصة رافع بن حريملة سبب نزول، وصيغته ههنا صريحة في كونها سبب نزول[٩٢]، وهي رواية صحيحة، وقد عرفت أن أكثر الأصوليين على اعتبار مثل هذه الروايات مسندة؛ حكمُها حكمُ الحديثِ المرفوع، وإذا كان ذلك كذلك فلا وجه لترك مثل هذه الأدلة الثقيلة في ميزان الاستدلال إلى غيرها؛ خصوصاً وأن السياق يدل عليه ويعضده، وقد رأيتَ – سددك الله – أن ذكر اليهود كثير في السورة في سياق حجاجهم وبيان عوار تدينهم وكونهم بمعزلٍ عن الإيمان النافع!

(٩٢) راجع كتب علوم القرآن لمعرفة المزيد عن صيغ أسباب النزول وأثرها في حسم مثل هذه المسائل، انظر مثلا: مناهل الفرقان،١/ ٨٧، ودراسات في علوم القرآن، فهد الرومي،١٣٩.





هذا، وقول اليهود: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ ينبئُ عن قلة فهم وخلوٍّ عن العلم، وهو وجه التعبير عنهم بالذين لا يعلمون، لأن هذا القول لا يقوله مؤمن بكتاب سماوي أو رسالة سابقة البتة، بل هو مسلكُ مَن لم يؤت شيئاً من ذلك ولم يؤمن به، ولذلك حَسُن بعده تشبيههم بالأمم الخَلِيَّة عن الكتب الدافعة لدعوات أنبيائها المُهلَكَة نتيجة ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء اليهود وقلوب الأمم الرادَّة لدعوات الأنبياء، ثم قال كأنه يختصر الحديث مع مَنْ هذا دأبهم وتلك طبيعة قلوبهم: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ بياناً شافياً يقود إلى الحق ويدل عليه إذا كان الناظر طالباً للإيمان واليقين: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

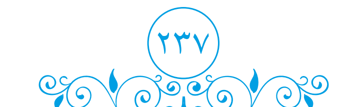
لمسة تربوية

وفي الآية من اللمسات التربوية:

أنّ تشابه الأقوال والأفعال منبئٌ عن تشابه القلوب، وهذا مقياسٌ يمكنُ أن يتّخذه المؤمنُ كاختبار لحال قلبه، وليسأل نفسه: أقوالي وأفعالي تشبه أقوال المؤمنين وأفعالهم أم تشبه أقوال وأفعال الفسّاق والفجرة؟ هل برنامجي اليومي شبيه ببرامج الصالحين أم ببرامج غيرهم؟ وليتنبه إلى أن الجواب مؤذنٌ بأن قلبه يشبه قلوب من أشبههم في جواب ذلك السؤال!

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

سبق بيان كون طعنهم في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بل في كل دعوة عديمَ الوزن! ولما تقرر ذلك وجَّه الخطاب إلى رسول الله صلى الله



عليه وسلم للتثبيت ولتقليل اكتراثه بطعونهم ومعاندتهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ بإسناد الفعل إلى نون العظمة المناسبة للمقام: إن الذي أرسلك بالحق- متلبساً به- فالباء للملابسة- هو العظيم سبحانه: لم يُرسلْك حفيظاً عليهم ولا مسيطراً على قلوبهم، وإنما أرسلك بالحق الكامل الثابت ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين المستسلمين لله، الخاضعين لعظمته؛ تبشرهم بما أعده الله لهم من نعيم في الآخرة، ومن نعيم يعيشونه في محراب الإيمان وفي ظلال دعوة الإسلام، و ﴿نَذِيرًا﴾ ينذرهم ويحذرهم من مَخوفٍ عظيمٍ ينتظرُ المكذِّبين المعاندين، ولا عليك أكثر من ذلك!

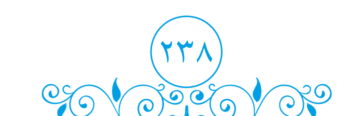
أسرار التقديم/ التقديم غير الاصطلاحي

وقد صيغ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ على صيغة الصفة المشبّهة؛ التي تنبئُ عن دوام الفعل فيهما؛ فالتبشير والإنذار مهمّتا الرسول صلى الله عليه وسلم الدائمتان، وتقديم ذكر البشارة على النذارة تحفيز على تحصيل فوائد الإيمان والانقياد، وتنبيهٌ على أن الخير المنتظر المبشَّر به قريب المتناول سهل الإدراك، وتنبيه على أن الدعوة تحمل أول ما تحمله: البشارةَ بالخير الكثير المنتظر!

ولما كانت وظيفتك البشارة والنذارة؛ فإنك لستَ مسؤولاً سؤال محاسبة ومعاتبة عن الهالكين الذين يؤثرون المعاندة والتكبر على الإيمان والانقياد: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، وعلى رأس هؤلاء: مَن سلفت مناظرتهم، وانقضت قصص فجورهم من اليهود، ولذلك أتبعها بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

توجيه القراءات

وقرأ نافع ويعقوب: ﴿وَلَا تُسْأَلْ﴾ على صيغة النهي؛ وتوجيه المعنى: أنه إنما نهى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن السؤال عنهم إيذاناً بكمال شدة



عقوبة هؤلاء اليهود وتهويلاً لها، كما تقول: كيف حال فلان؟ وقد وقع في مكروه، فيقال لك: لا تسأل عنه، أي أنه لغاية فظاعة ما حلَّ به لا يَقْدِرِ المخبرُ على إجرائه على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمعه[٩٣]!

والتعبير عنهم بـ ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ مؤذنٌ بكل معاني التفظيع لما ينتظرهم، وهو كافٍ في كسر عناد المعاندين؛ لو كان قد بقي في قلوبهم شيء من الحياة!

❁ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

إذا كانت مهمتك هي البلاغ عن الله تبشيراً وإنذاراً؛ فلا عليك أن ترضيهم؛ فإن رضاهم لا يحصل أبداً حتى تتبع ضلالهم وتترك ما أنت عليه من الحق.

وصُدِّرت الآية المؤيسة للنبي صلى الله عليه وسلم من إيمانهم وتحصيل موافقتهم ومتابعتهم بـ ﴿وَلَن﴾، وهي أقوى أدوات النفي على الإطلاق، حتى زعم الزمخشري رحمه الله أنها تفيد النفي على التأبيد، وقد نوزع الزمخشريُّ في ادعاء إفادتها معنى التأبيد؛ وأياً ما كان الأمر فيها؛ فإن السياق دالٌّ على إرادة النفي على التأبيد: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ومثل هذا لا يحصل أبداً!

والآية بيانٌ لشدة استحكام التعصب لدى الطائفتين إلى الحد الذي لا يؤمل فيه استرضاؤهما، وإن كانت آيات أخرى قد عرضت على أهل الكتاب الاتفاق على كلمة سواء لا يملك منصف معها إلا أن يستجيب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]!

---

(٩٣) انظر: روح المعاني، ١/ ٥٠٥.





والملـة في الأصـل اسم من أمللت الكتـاب بمعنـى: أمليتـه، كـما قال الرَّاغب[٩٤]، ثم نقلت إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يُمليها النبي، ولا يختلف الأنبياء عليهم السلام فيها، وقد تطلق على الباطل، كما في الآية التي معنا، ووحد لفظ الملة: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وإن كان لكل طائفة منهم ملة؛ فهما ملتان؛ تنبيهاً على أنهما ملة واحدة باعتبار الباطل والحياد عن الحق[٩٥].

والمخاطب في الآية: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ﴾: النبي صلى الله عليه وسلم، وفي تركيب الآية مبالغة في تصوير انحرافهم؛ من حيث إنهم لا يرضون عمَّن أُنزل عليه القرآن وهو مذكور عندهم في التوراة وفي الإنجيل، ثم إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ {البقرة}، وهم مع ذلك ﴿لَن﴾ يرضوا عنهم حتى يتبع- حاشاه- ملَّتهم! فكيف بغيره من الدعاة والعلماء والمجاهدين!

تقعيد فكري

إنه حريٌّ بهؤلاء أن لا يحرصوا على استرضاء اليهود والنصارى، ولا على تقديم شيء من التنازلات لهم طمعاً في التقارب معهم أو خطبة ودِّهم، فإنه ليس إلى ذلك سبيل إلا بالانسلاخ عن هذا الدين واتباع ملة المغضوب عليهم والضالين!

وما يظنه بعض أصحاب الحق أحياناً من كون بعض التنازلات العقدية والمنهجية قد تكسر حدة عداء اليهود والنصارى فإنه بمعزل عن الحقيقة ومحض وهم لا أساس له!

---

(٩٤) مفردات ألفاظ القرآن، ٧٧٣.

(٩٥) انظر: التحرير والتنوير، ١/ ٦٩٣، وروح المعاني، ١/ ٥٠٥.



ما هو إلا أن يتنازل المؤمن عن شيء من دينه فيخسر استقامة المنهج ويفقد وضوح الرؤية: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾، الذي هو الإسلام هو الهدى دون غيره، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس]! إن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي من ربه ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾، وما أقمتم عليه يا أهل الكتاب إنما هو محض هوىً: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾!

وقد أكدت الجملة بالمؤكدات:

فقد صدرت بـ ﴿إِنَّ﴾ وهي أداة التوكيد الأصيلة، وجيء بضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾، وأدخلت (ال) الاستغراق على الجواب: ﴿الْهُدَىٰ﴾ ليدلَّا على القصر والاختصاص، وهو تأكيد على تأكيد، وإنما جيء بهذه المؤكدات مع ما تحمله الجملة القادمة لزيادة تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق في مواجهة معاندة اليهود والنصارى؛ ولبيان ما جاء به الإسلام هو الهدى دون غيره، وأن ما عليه اليهود والنصارى هو الضلال دون غيره!

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾، وأيُّ مؤمن بعد سماع الآية يشتري رضاء اليهود بخذلان الله له، وتخليته من ولايته ونصرته؟

وانتبه إلى التعبير عن دينهم أولاً بالملة: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ثم التعبير عنها بالأهواء: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾، للإشارة إلى أن ما يدينون به محض أهواء مضلة!

وازداد اتباع أهوائهم قُبْحاً بعد قيام الحجة وحصول العلم وسلوك السبيل: ﴿بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾!

والإتيان بـ (إنْ) التي دخلت عليها اللام الموطِّئة للقسم: ﴿وَلَئِنِ﴾ للإشارة إلى أن مثل ذلك لا يحصل، وإنما جيء به لاستفزاز المخاطب للثبات وتهييجه للإجابة والاستمساك.

بلاغة الخطاب / التعريف بالضمير

والمخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومخاطبته بهذا الخطاب وإن كان من المستحيل أن يتبع أهواءهم ليكون على طريقة: (الكلام لك واسمعي يا جارة)، تثبيتاً لكل مسلم من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبياناً لكون الوعيد متناوِلاً خير الخلق لو أتى بالمقتضِي فغيره أولى إذاً!

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝١٢١﴾.

لَمَّا بيَّن في الآية السابقة الوعيد على اتّباع أهواء أهل الكتاب، وكان قد أشار إلى أن ما يتَّبعونه ليس ديناً عند التحقيق، وإنما هو محض هوىً؛ بيَّن هنا الإيمان الحق والدين المستقيم فقال:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق العمل، ومن ذلك أن كتابهم الذي أوتوه؛ فيه الأمر باتباع النبي الأمي: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ {الأعراف}،



هؤلاء هم الذين يدينون حقاً بالكتاب الذي أوتوه، وإسناد فعل الإيتاء إلى الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ فيه امتنان عليهم بالنعمة المقتضية شكرَها باتباع ما أمر به الكتاب!

ويحتمل أن تكون التلاوة بمعنى القراءة، ويكون حق التلاوة بالقراءة الصحيحة المتفهمة المتخشِّعة المتضمِّنة: إقامة الحروف وإقامة الحدود، ومن ذلك بل على رأسه: اتباع النبيّ الأميّ الذي يقرؤون وصفه في التوراة وفي الإنجيل.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إيذانٌ بأن معاندتهم محمداً صلى الله عليه وسلم كفرٌ بكتبِهم من الأساس، ويترتب عليه ما هو معلوم لدى كل صاحب كتاب من الخسران المبين، وجاء التأكيد بالجملة الاسمية وضميرِ الفصل المفيد للقصر الإضافي (للمبالغة)، و(ال) الاستغراق ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ المفيدة كمال اتصافهم بالخسران؛ نسأل الله السلامة.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

افتُتِح الكلام مع بني إسرائيل في بداية الحديث عنهم بمثل هذا الخطاب، واختُتِم ههنا به، وجاء هنا كخلاصة لما سبق من جدالهم وإقامةِ الحجة عليهم وبيانِ عتوِّهم وعنادهم، وتكرارُ معنى الكلام مبالغة في النصح[٩٦].

(٩٦) فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، زكريا الأنصاري، ٣٣.





التقديم غير الاصطلاحي / التقديم والتأخير

ومن المسائل التي تعنُّ للقارئ عند قراءة هذه الآية : تقديمُ ما أُخِّر في شبيهتها المذكورة من قبل وتأخير ما قُدِّم فيها، فقد قُدِّم ذكر الشفاعة هناك وأُخِّر هنا، وأُخِّر (العدل)- وهو الافتداء- هناك وقدِّم هنا، واستعمل "القبول" مع الشفاعة هناك: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، في حين استعمل "الانتفاع" هنا معها، أما مع العدل فاستعمل (الأخذ) هناك: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، واستعمل (القبول) هنا: "ولا يقبل منها عدل"، فما السر في ذلك؟

قيل: إنما فعل ذلك تفنناً، والتفنن في الكلام تنوّع تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير[97].

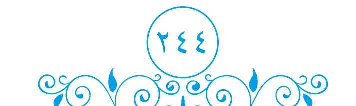
ولا يخفى عليك أن الاكتفاء بمثل هذه التعليلات أمر عليل، بل لا بد من البحث عن وجه أكثر عمقاً يتناسب مع مستوى البلاغة القرآنية، وقد اختلفت آراء العلماء في تعليل هذه الظاهرة السياقية، وإن كانت أقوالهم متقاربة، ومنها:

- تعليل الكرماني: "إنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله[98]، وأخّرها في الآية الأخرى لأن التقدير في الآيتين معاً: لا تقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة، لأن النفع بعد القبول[99]، وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ

(٩٧) انظر التحرير والتنوير، ١/ ٦٩٨، وتفسير المنار، ١/ ٣٦٥، وغيرهما.

(٩٨) لا يخفى أن الكلام في الآية عن بني إسرائيل، ومثل هذا الكلام الذي ذكره الكرماني يناسب المشركين من العرب أكثر، وشق الكلام الأول مناسب!

(٩٩) قال في الموضع الأول: (لا يقبل منها شفاعة) وقال في الثاني: (ولا تنفعها شفاعة).





القبول مقدماً فيها"[100].

❖ تعليل ابن الزبير: أما ابن الزبير الغرناطي فكانت التفاته إلى السياق أعمق، إذ قال؛ وأنقله بتصرف واختصار:

ووجه ذلك- والله أعلم- أنه لما تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ {البقرة ٤٤}، والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسَّك بموجبه.. وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، فهو مظنة عندهم لرجائهم الانتفاع بشفاعة أولئك المهتدين الذين اهتدوا بأمرهم، وإن لم ينتفعوا هم بما أَمروا به، وهذا جار على عادة اليهود في الطمع والاتكال على الأوهام والأماني، فلما كان السياق كذلك قدم نفي الشفاعة، ولما لم يكن السياق كذلك قدم ذكر الفدية التي هي أولى وأحرى في كمال التخلص على ما عُهد في الدنيا لو أمكنت"[101].

---

(١٠٠) البرهان في متشابه القرآن، الكرماني،١٢١، وقد وافقه الزركشي على ما ذهب إليه في البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١٢٦، وأفضل منه المنقول عن الحرالي في نظم الدر للبقاعي، ١/ ٢٣٧.

(١٠١) ملاك التأويل، ٣١، وانظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، صالح الشثري، ٤٣١.



المقطع الخامس عشر
تعظيم ملة إبراهيم وبيته المبارك

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ {البقرة}.



﴿ التمهيد والمناسبة ﴾

تفنن المفسرون في إيراد وجوه مناسبة هذا المقطع من السورة لما سبقه وأحسنوا أيما إحسان؛ ولكثرة الوجوه المذكورة أكتفي بذكر ما أستخلصه بالنظر إلى السياق الذي أَخَذَنا في دروب موضوعات متناسقة مبنيٍّ بعضها على بعض، فأقول:

هذا المقطع متعلّق بما قبله ومتعلق بما بعده.

- أما تعلقه بما قبله؛ فمن جهة أن كل طائفة من الطوائف التي جادَلَتْهم السورة معظِّمةٌ لإبراهيم عليه السلام تدَّعي النسبة إليه، ولما بيَّن الله تعالى خلال الآيات السابقة كونهم بمعزل عن الحق في الاعتقاد والسلوك بيَّن ههنا ما يتعلق بإبراهيم عليه السلام وما كان عليه من الحنيفية والانقياد لمراد الله تعالى والتدين بدين الحق.
- وأما تعلقه بما بعده؛ فمن جهة أن تعظيم إبراهيم وذكر بنائه للبيت الحرام مُمهِّد لتحويل القبلة الآتي ذكره، وسيأتي مزيد بيان في محله إن شاء الله.

﴿ التفسيـــر ﴾

- ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أشار ابن عاشور رحمه الله إلى وجه حسنٍ في جعل هذه الواو عاطفة هنا على قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠]، كما دل عليه افتتاحه بـ ﴿إِذْ﴾ على نحو افتتاح ذكر خَلْق آدم، والأول: تذكير بنعمة الخلق الأول، ثم خَصّ من بين ذرية آدم- للإيذان بنزع لواء الاستخلاف- بني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة ٤٠]، وكـان في طيّـات الكـلام



تقديم المفعول وجوباً، مع ما في ذلك من الفوائد

السابق ذكرٌ للعرب المشركين وللنصارى، ويجمع هؤلاء جميعاً: تعظيم إبراهيم، والانتقال منه إلى ذكر يعقوب عليه السلام الذي هو إسرائيل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى﴾، كل ذلك في بيان كون الإسلام الدينَ الحقيق بالاتباع، وهو منهج آبائهم المعظَّمين[١٠٢].

و﴿إِذْ﴾ ظرفية منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكروا، يخاطِبُ بها الطوائفَ الثلاث من اليهود والنصارى ومشركي العرب، ويجوز أن تكون معطوفة على ﴿نِعْمَتِيَ﴾ في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ فيكون الخطاب في الفعل المقدَّر لبني إسرائيل دون غيرهم، وهو وجه كذلك قوي، وقد علمتَ أن السياق يعضده، فتأمل.

والابتلاء: افتعال من البلاء، والمقصود منه هنا: التكليف، سمي ابتلاء أي اختباراً باعتبار المكلَّف مُختَبَراً في أدائه للتكليف وقيامه حق القيام، وهو الذي حصل من إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

والتعبير بعنوان الربوبية: ﴿رَبُّهُ﴾ إيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير[١٠٣]، وإضافة الضمير العائد على إبراهيم إلى الرب تشريف لإبراهيم وإيذان باختصاصه بتربيته سبحانه وتوفيقه له في إتمام الكلمات التي ابتلي بهن.

وتقديم المفعول به : ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ لمراعاة ما سبق من المعاني، مع كون تقديم المفعول هنا واجباً؛ لاعتبار أن إضافة ضمير إلى الفاعل يعود

---

(١٠٢) انظر لقريب من هذا: التحرير والتنوير، ١/ ٧٠٠.

(١٠٣) تفسير إرشاد العقل السليم، لأبي السعود،١/ ١٩٢.





على المفعول يوجب تقديم المفعول، كما قررنا ذلك في كتاب "إرشاد المتدبر": فالضمير في قوله: ﴿رَبُّهُ﴾ يعود على المفعول: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقد اختُلف في الكلمات التي ابتُلِي إبراهيم عليه السلام بهنّ، وقد ذكر الآلوسي أن الخلاف فيها يصل إلى ثلاثة عشر قولاً[١٠٤]، والإجمال هنا لما أن السياق يقصد إلى بيان منزلته عليه السلام لا إلى بيان شريعته أو ما افتُرض عليه منها؛ على عادة القرآن في إجمال ما ليس مناسباً للسياق، فنُبقيها على إجمالها المقصود، والله أعلم بتفصيل ذلك، ولعل منها الأمر بذبح ولده والهجرَة وما أشبه.

والفاء في: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ للإشارة إلى سرعة التنفيذ إضافة إلى كماله المفهوم من الإتمام.

ولما نجح إبراهيم عليه السلام في إتمام الكلمات التي ابتلي بهن كوفئَ بإنعام الله عليه بالإمامة:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والإمامة بمعنى النبوة هنا، لأنها أكمل أنواع الإمامة، وهي من (الأَمّ) بفتح الهمزة، وهو القصد، فالإمام هو المقصود بالاتباع والاقتداء.

التعبير بالاسم

والتعبير عن الجعل باسم الفاعل: ﴿جَاعِلُكَ﴾ لإفادة الثبوت والاستقرار على ما يفيده التعبير بالاسم، ولعل ما تشبَّثتْ به كلُّ طائفة من الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام وتعظيمه هو عهد الله تعالى إليه؛ فإنك تجد أن كلاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب يزعم الانتساب إلى إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، وأولى الناس

(١٠٤) روح المعاني، للألوسي، ٩١/ ٥٠.



به عليه السلام هذه الأمة المسلمة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ {آل عمران}.

وقولُه على لسان إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ سؤال منه عليه السلام أن يجعل الإمامة كذلك في ذريته، وقيل: قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف في قوله: ﴿جَاعِلُكَ﴾، وسمَّوه في البلاغة: "عطف التلقين"، كما قيل: إني أكرمك، فتقول: وزيداً، تقصد: وتكرم كذلك زيداً[١٠٥]؟

ورد ذلك أبو حيان بدعوى أن العطفَ لا يصحُّ على الكاف؛ إلا بإعادة الجار[١٠٦]، وانتصر الألوسي وغيره لقول الزمخشري، وهو الحق إن شاء الله بأدلة ليس هذا محل بسطها.

والحاصل أن إبراهيم عليه السلام لما فهم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ اختصاصَه بذلك سأل الله أن يجعل من ذريته أئمة للناس كذلك، وأن يجعل فيهم النبوة، فأجيب جواب المُختصِر المفصِّل، فإن ذريته إما محسن وإما ظالم، ولما قيل له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ دلَّ على ثبوت ذلك للمحسنين، وحمل الجواب تعليلَه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فالظلم مانع من حصول مرتبة الإمامة، والظالم محروم من نيل عهد الله وشموله له بالإمامة.

فائدة لغوية

....

وهذا من اللمسات التربوية والدعوية التي تدل عليها الآية:

فإن الظلمَ حائلٌ دون بلوغ مرتبةِ الإمامة والاقتداء، والمعصيةَ يعقبها شؤم يُسقِطُ صاحبها من أعين الناس، وكذا الأمم، فإن الأمة الظالمة لا تمكَّن في الأرض ولا تكون لها الريادة والإمامة والأستاذية؛ بل تتـأخر

لمسات تربوية وإشارات فكرية

(١٠٥) تفسير الزمخشري، ١/ ١٨٤.

(١٠٦) انظر: تفسير أبي حيان، ١/ ٥٤٨.



وتتخلف وتبور؛ وهذا متعلِّقٌ بما جاءك عن موضوع السورة الرئيس؛ وهو صناعة الأمة المستخلَفة.

❖ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

عطف للقصة على القصة، وتذكير إثر تذكير، وهذه القصة وإن كان فيها تعظيم لإبراهيم فإن فيها تعظيماً للبيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام، ويمهِّد هذا بشكل مباشر لتحويل القبلة الآتي ذكره بعد آيات.

و ﴿الْبَيْتَ﴾ عَلَمٌ غلبَ على الكعبة المشرّفة، وجَعْلُه مثابة أي: مكاناً يثوبُ إليه الناس؛ يرجعون إليه وتهوي قلوبُهم إليه وتشتاق إليه أرواحهم، و ﴿وَأَمْنًا﴾ يَأمن فيه الناس وغيرهم، حتى الطير والنبات كما هو معلوم من معنى الحَرَمَيَّة فيه، ولأجل هذه النكتة ذكَر (الناس) مع المثابة ولم يذكرها مع الأمن- والله أعلم-.

وهذا الخبر: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، يحتمل أن يكون:

❖ خبراً على وجهه، فالجعْل على هذا "تكوينيّ"، بمعنى أن الله تعالى يخبر أنه قد هيَّأ الأسباب وقدر المقادير التي يكون فيها هذا البيت مثابة للناس وأمناً؛ يثوبون إليه المرة تلوَ المرة، وأمناً يأمنون فيه؛ لِمَا ألقى في القلوب من تعظيمه فلا يجرؤ أحد على خرق أمنه!

❖ ويحتمل أن يكون الخبر بمعنى الأمر، والجعْل تشريعيٌّ على هذا الوجه، والمعنى: أن الله تعالى أمر الناس بأن يثوبوا إليه وأن يجعلوه حرماً آمناً، والتذكير به: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ تذكير بذلك الجعل التشريعي في شريعة إبراهيم عليه السلام كما يظهر، والله أعلم.

ولعل الذي يقوِّي هذا الوجه عطفُ الأمر عليه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، والواو إما أن تكون عاطفةً فيتجه هذا، أو استئنافية والجملة معترضة.



و ﴿مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام حين ارتفع بناؤه وضعُف عن رفع الحجارة، وقد اختلف المفسرون في ذلك، إذ ذهب بعضهم إلى تفسير مقام إبراهيم بالمسجد الحرام كله، والراجح هو ما قدَّمناه من المعنى المعروف، وهو ترجيح الإمام الطبري لآثار واضحة في ذلك ولِمَا أن "الكلام محمولٌ معناه على ظاهره المعروف دون باطنه المجهول حتى يأتيَ ما يدلُّ على خلاف ذلك مما يجبُ التسليم له، ولا شكَّ أنَّ المعروف في الناس بمقام إبراهيم هو المصلى الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾"[١٠٧].

وقد روى في ذلك بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: "استلَمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الركن فرمَل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدَّم إلى مَقامِ إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين"[١٠٨].

وفي الحديث تفسيرُ المقامِ بذلك الحجَر المعروف، وبيانُ كيفية اتخاذِه مصلّى، كما الفعل النبوي في حديث جابر المذكور، والأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى رفع من شأن إبراهيم عليه السلام وربط للأمة به ونسبتها إليه باقتفاء أثره وتعظيم محل قيامه.

❖ ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

العهد: الوعد المؤكد حصوله، وتعديته بـ ﴿إِلَىٰ﴾ ليحمل معنى الوصية المؤكَّدة، فعَهِدَ هنا بمعنى أرسل عهداً إليه، و ﴿أَن﴾ تفسيرية لمضمون العهد، وهو تطهير البيت لأنواع المتعبدين: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

ونلحظ أن جمع (الطائفين والعاكفين) جمع سلامة، بخلاف ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فإنه جمع تكسير، فما السر في ذلك؟

---

(١٠٧) تفسير الطبري، ١/ ٦٢٠.

(١٠٨) أخرجه النسائي في سننه (ج٥/ ص٢٢٨/ ح٢٩٣٩)، وقال الألباني: صحيح.





قبل أن نُجيب نلحظ أن الطواف والاعتكاف خَصِيصَانِ بالمسجد الحرام، والاعتكافُ وإن كان مشروعاً في كل مسجد على الراجح؛ فإنه أخصُّ بالمسجد الحرام وأصيلٌ فيه وبالمسجد النبوي وبالمسجد الأقصى، أما الركوع والسجود "الصلاة"، فهما مشروعان في كل الأرض: "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"[١٠٩].

يقول ابن عرفة: "جَمَع الطائفين والعاكفين جمْع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ الفعل، بمنزلة يطوفون، أي يجددون الطواف؛ للإشعار بعلة تطهير البيت، وهو قربُ هذين من البيت، بخلاف الركوع والسجود، فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت ولا عنده، فلذلك لم يجمع جمع سلامة"[١١٠]، يعلق ابن عاشــور على هذا الكلام فيقول: "وهذا الكلامُ يُؤذِنُ بالفَرق بين جمع السلامة وجمع التكسير من حيث الإشعار بالحدوث والتجدد"، وكان ابن عاشور قد علل هذا المخالفة في أوزان الجموع بالتفنن والبعد عن تكرير الصيغة أكثر من مرة[١١١].

وتطهير البيت لأنواع المتعبدين يتضمن معنيين: تطهيره من الأنجاس والأوساخ وما إلى ذلك، وتطهيره من الشرك وعبادة غير الله تعالى.

لمسات حركية

وفيه تعريضٌ بالمشركين الذين لم يستحقوا خدمة البيت ولا سدانته لِمَا أنهم ملؤوه بالأصنام التي هي أعظم الأرجاس والأنجاس، وبالشرك الذي هو أعظم المعاصي.

وفي الآية:

التنبيه على أن تطهير المساجد وتحريرها وتخليصَها من الأدناس

(١٠٩) أخرجه البخاري في صحيحه (ج١/ ص٧٤/ ح٣٣٥).

(١١٠) تفسير ابن عرفة، ١/ ٤١٦.

(١١١) انظر: التحرير والتنوير، ١/ ٧١٢.





والأنجاس هو من وظائف أئمة الخلق وأعلام الهدى، وعلى رأس ذلك الآن:

العمل على تطهير المسجد الأقصى والأرض المقدّسة من دنس الاحتلال الصهيوني، وتطهيره للعابدين والمجاورين والركع السجود، ولمّا كان الله قد عهد بتطهير بيته إلى إبراهيم وإسماعيل؛ فعهده في تطهير المسجد الأقصى إلى أئمة عباده وأفاضل أوليائه! ومن وفقه الله تعالى للعمل على ذلك فليحمد الله أنْ كان في محل الاصطفاء والاجتباء.

وفيها:

أن عدم تطهير البيت من الأرجاس بمعنييها؛ الحقيقي والمجازي يتنافى مع الإنعام بسدانته وخدمته، وحريٌّ بمن أقحم المعاصي على بيت الله أن يخذله الله ويحرمه من القيام بها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

عطف القصة على القصة السابقة، وفيها إظهار فضل إبراهيم عليه السلام ومكانته إذ يستجيب الله دعاءه ويزيده من فضله، وفيها تعظيم لمكانة البلد الحرام وخصوصيته من بين بلدان الأرض؛ مما يمهد كذلك لتحويل القبلة القادم.

والآية حكاية لقصة إبراهيم عليه السلام يوم مقدِمه على مكة المكرمة يسأل الله تعالى أن يجعلها بلداً آمناً تُجبى إليه الثمرات وتتَّسع فيه الأرزاق، "ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر، لأنه رجا أن يكونوا دُعاةً لِمَا بُنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية، وهي خصال الكمال، وهي أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة التي دعا أفلاطون لإيجادها بعد عدة عشر قرناً"[١١٢].

---

(١١٢) التحرير والتنوير، ١/ ٧١٦.



وفي سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ {إبراهيم}، وأثار المفسرون مسألة: سرّ التعريف في آية إبراهيم: ﴿الْبَلَدَ﴾ والتنكير في البقرة: ﴿بَلَدًا﴾، وأجابوا بإجابات متعددة في تعليل ذلك المتشابه اللفظي، وأفضله أن يقال:

المتشابه اللفظي

- نحمل ذلك على تعدد السؤال، بأن سأل إبراهيم أولاً أن يجعل الله تعالى هذا المكان بلداً آمنا، وهو الوارد هنا في سورة البقرة، فهو قبل "بلدية" مكة، ثم سأله ثانية بعد أن صارت بلداً أن يجعلها آمنة؛ وهو الوارد في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فالبلدية حاصلة هنا؛ لكنه أراد حصول الأمن لها.

نحمله على أن السؤال واحد لكن تكررت حكايته، "فالظاهر أن المسؤول: كلا الأمرين أن يجعله بلداً وأن يجعله آمناً، وقد حُكِي ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاءً عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوي إليه.."[113].

لمسات اجتماعية وإشارات فكرية وسياسية

وعلى كل حال، فإن سؤال إبراهيم عليه السلام يدور حول جعل مكة بلداً آمناً يستقر فيه العيش وتنتظم فيه الضرورات، ويُرزق أهله من أنواع الثمرات رزقاً واسعاً تتوافر فيه بالإضافة إلى الضروريات: الحاجياتُ والتحسينيات، واجتماع هذين الجانبين: الأمن والاقتصاد الرخيّ؛ هو سبب الازدهار وطِيْبِ العيش واستقرارِ المجتمع، والبدءُ بالأمن مشيرٌ إلى أنه الركن الأول من أركان ذلك، وأن سعة الرزق ورخاء الاقتصاد مبنيٌّ عليه ولا عكس!

(١١٣) تفسير أبي السعود، ١/ ١٩٦.



وقد اقتصر إبراهيم في سؤال الرزق لأهل مكة على المؤمنين دون غيرهم: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، و ﴿مَنْ﴾ موصولة: بدلُ بعضٍ من كلّ، وقد يكون اقتصار إبراهيم عليه السلام على الدعاء بالرزق للمؤمنين من أهله دون غيرهم لِمَا أراد من ترغيب أهله في الإيمان وحثهم عليه وترهيبهم من النكوص عنه، وقد يكون لِمَا عُرِف عنه عليه السلام من مفاصلة للكفرة وموالاة لأهل الإيمان: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ {الممتحنة ٤}.

فأجيب إبراهيم عليه السلام بأن الله رازقٌ مَن آمن- كما طلب- ورازقٌ مَن كفر كذلك: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾، والعطف على مفعول فعل محذوف تقديره: أرزقُ مَنْ آمن ومَن كفر، فإن الدنيا أهون عند الله من جناح بعوضة، و"لو كانتِ الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماءٍ"[١١٤]، وقد اقتضت حكمته أن يرزق المؤمن فيها والكافر، لكن التفاضل والتمايز إنما يكون في الآخرة: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ أي فأنا أمتعه قليلاً في الدنيا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي أُلجئه بعد المتاع القليل إلى عذاب النار، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هي.

والمتاع القليل: الدنيا، وإن طالت وعظم حظ العبد منها، فإنها زائلة عما قريب، وكل آت قريب، والموفق من لم يغترَّ بزخرفها ولم يُعْمِهِ بَريقُها!

❁ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾.

وهذا مشهدٌ آخر من مشاهد قصة إبراهيم عليه السلام؛ دالٌّ على رفعة منزلته وسموّ مكانته الدينية.

---

(١١٤) أخرجه الترمذي في سننه (ج٤/ ص٥٦٠/ ح٢٣٠). وقال الألباني: صحيح.





وذكرُ بنائه للبيت وما اقترن به البناء من تعظيم وإخلاص ممهِّدٌ لتحويل القبلة القادم، وفيه ردٌّ على اليهود إنكارَهم تحويلَ القبلة، كما سيأتي، وتعريضٌ كذلك بكل أولئك المتنكبين سبيل إبراهيم عليه السلام في التوحيد والإخلاص!

ورفعُه عليه السلام للبيت: إعلاءُ جدرانه وإظهارُ بنائه على الأرجح، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام لم يبتدئ بناءه، إنما رفع القواعد وجدّد البناء، وقد كانت القواعد من قبله، والأرجح أن أول بانٍ للبيت هو آدم عليه السلام؛ فإنه أول بيت وضع في الأرض، وقد بَسطتُ هذه المسألة في كتابي: "ولنعم المصلى"، فليعُدْ مَن أراد الاستزادة إليه.

التعبير بالفعل المضارع

والعدول عن التعبير بالفعل الماضي على ما هو المتبادر إلى الفعل المضارع: ﴿يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ لاستحضار تلك الصورة العجيبة في بناء البيت المعظم!

والفصل بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام المعطوفَين على بعضهما بذكر المفعول ومتعلقاته للإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل، ولبيان كون إبراهيم عليه السلام المقصودَ الأوليَّ من السياق، فإن السياق في بيان فضائله، وللتعريض بالمتسبين إليه من المشركين واليهود من جهة أنهم حائدون عن طريقته، وبمعزل عن التحلي بصفاته من الإخلاص لله تعالى والتوجه إليه دون سواه!

حذف الفعل/ حذف فعل القول

وقولُه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من كلامهما على إرادة القول، والتقدير: يقولان: ربنا تقبل منا، والعدول عن ذكر القول إلى مضمونه مع حذف فعل القول؛ يُسهِمُ في استحضار الحالة وإحداث تفاعلٍ بين القارئ والنص؛ حتى لكأنه يعيش فيه.



لمسات تربوية وإيمانية

ومناسبة الدعاء هنا أثناء رفع القواعد من البيت لِمَا أن الدعاء في مواطن الطاعات عموماً مظنة الإجابة، وأيُّ طاعة أعظم من الائتمار بأمر الله ببناء المسجد الحرام الذي جعله الله للناس قياماً؟!

وفيه:

حثٌّ على الاستغراق في الدعاء وقت القيام بفاضل الطاعات وعظيم العبادات، فإن الدعاء المحكيَّ عنهما عليهما السلام دعاء طويـل مليء بالمعـاني العظـام والانكسـارِ بين يدي الملك العلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وفيه:

أن مِن حقِّ هذه المواطن عند الدعاء فيها: اختيارُ أعظم الدعاء الذي يخصُّ القبول والإمامة في الدين والتوفيق إلى التوبة، وسؤالَ الهداية والرشاد للأمة، دون الدعاء بطلب الدنيا، والحقيرِ من المرغوبات والمطلوبات!

وفيه:

إظهارُ المزيد من الضراعة والانكسار بين يدي الله، وعدمُ الاغترار بالأعمال وإن عظمت، فإنها صغيرة في جنب حق الله تعالى.

حذف المفعول به

وحذفُ المفعول به من قولهما: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ لِيَعُمَّ هذا العملَ وغيْرَه من





الأعمال الصالحة، فإن إرادة التعميم من أهم أغراض حذف المفعول.

ويأتي تعليل طلبهما ذلك في فاصلة الآية: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فسمْع الله دعاءهما وعلْم الله بما في قلبيهما من الإخلاص والحب والرغبة في الرضا مما يستجلبان به الإجابة.

والتأكيد: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لإظهار كمال اليقين ومزيد الإيمان بما في الجملة.

إذاً، فقد بدءا بسؤال الله تعالى القبول، وهو ما يستتبع بقية السؤالات؛ وهو مأمول المؤمن ومقصوده، ولما سألا ذلك انتقلا إلى التالي.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

أعادا نداء الله بعنوان الربوبية: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهاراً للمزيد من الضراعة والجؤار والإلحاح في السؤال، وعَطَف ما في حيز هذا النداء على ما سبق: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، أي منقادين لشريعتك، سائرَين على هديك، وسؤالُهما هذا مع أنهما مسلمان من قبل، كما في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾؛ لطلب الزيادة من الإسلام لله ولسؤال الثبات عليه.

لمسات تربوية

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ كما سألا ذلك الخير لنفسيهما فإنهما سألاه لذريتهما من بعدهما؛ فإن هذا هو خلُق المؤمن الذي يحرص على أن يورِث ذريتَه دعوتَه، وعلى أن يسير أولادُه على نهجه من بعده؛ فيُحسن تربيتهم ويجيد تعليمهم، ويردفُ ذلك بالدعاء لهم، فلا يتركهم نهباً لتيارات الضلال ودعوات الانحلال؛ بذريعة: تركهم أحراراً وما يختارون!



﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ التي نتعبّدك بها فترضى عنا، والمناسك جمع مَنْسَك، وهو اسم مكان من "نَسَك" بمعنى: ذبح تقرباً، ويحتمل أن يكون المقصود: الحج، باعتبار أن "النُّسك" من أعماله، و"المناسك" تطلق على أعمال الحج كما هو مشهور.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ إن حصل منا تقصير في أداء حقِّك؛ فالرحمة صفتك: ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾!

❖ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

صدّر كل دعاء منها بنداء مستقل، إراءة لمزيد من الضراعة، وللإشارة إلى استقلالية كل دعاء منها بالقصد والطلب.

ودعاء إبراهيم عليه السلام هنا من تمام حرصه على ذريته وعلى دين الله فيهم، "وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين؛ إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن"[115]، وفي حديث خالد بن معدان عن نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً: "أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام"[116].

وما أجمل تعليق ابن كثير على الجزء الأخير من الحديث! إذ قال: "قيل: كان مناماً رأته حين حلمت به وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتُهر بينهم، وكان ذلك توطئة، وتخصيصُ الشام بظهور نوره إشارةٌ إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقِلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق

(١١٥) تفسير ابن كثير، ١/ ٢٤٣.

(١١٦) أخرجه الحاكم في مستدركه (ج٢/ ص٦٥٦/ ح٤١٧٤). وهو صحيح.





بالمنارة البيضاء منها..."[117]، فطوبى للشام وأهلها!

وإنما قال: (رسولاً فيهم) ولم يقل: (إليهم)، لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول إليهم فقط[118].

وعدَّد إبراهيم عليه السلام وظائف الرسول المسؤول بقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

فهي ثلاث وظائف رئيسة؛ للنبي صلى الله عليه وسلم ولقادة الإصلاح من بعده:

- تلاوة آيات الله من القرآن عليهم.
- يعلمهم الكتاب والحكمة.
- يزكيهم.

ولنقف وقفة تفسيرية تربوية مع جُمَل الآية الثلاث:

- ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ تلك الوظيفة الأولى من وظائفه صلى الله عليه وسلم ووظائف خلفائه ووُرَّاثه من العلماء والدعاة: تلاوة القرآن وإبلاغه للناس، فإن القرآن مصدر الهداية ومنبع النور المبين الذي يبدد ظلمات القلوب وظلمات المجتمع.

ويدخل فيه اليوم: إشاعةُ تعلم التجويد، وتحفيظُ القرآن، وبرامج القرآن الإعلامية وقنواته المتخصصة، ومشاريع الإجازة القرآنية المنتشرة عبر جمعيات تحفيظ القرآن، وتلك لها أثر بات ملموساً بفضل الله في نشر علوم القرآن.

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهذا أمر زائد على التلاوة، وهو تعليم القرآن؛ معانيه وآدابه وحدوده وفوائده، ويدخل فيه: التدريب على طرق التدبر والتفكر، والنظر في طرائق التفسير، وسبل الاستنباط، وإنشاء منظومات القرآن الموضوعية في السورة وتتبع الموضوعات واستخراج فوائد ذلك ولطائفه، وما يلحق بذلك من هذه المرتبة من مراتب التفاعل مع القرآن.

---

(١١٧) تفسير ابن كثير، ١/ ٢٤٣.

(١١٨) انظر: التحرير والتنوير، ١/ ٧٢٢.



و﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن على قول الكل، واختلف في معنى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾، وأغلب الاختلاف اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضاد، وأختار منه عبارة ابن عاشور: "الحكمة: العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده"[119]، ولم يبعد من قال: "الحكمة: السنة"، وهو منقول عن الشافعي.

❖ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهِّرهم، وإنما يكون ذلك بتخليتهم عن ذميم الأخلاق، ورديء الطبائع والعادات، ودعوتهم إلى الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، وإعلامهم بفتح باب التوبة وحثهم عليها وترغيبهم فيها! وهذا ما يمكن أن نسميه: "العمل التربوي"، وما أروعه من عمل، وما أزكى ثمراته وأنضجها!

وكذلك ينبغي على العلماء والدعاة أن يفعلوا، فهم بعد إشاعة التلاوة وتعليم التجويد والحث على الحفظ يأخذون الناس إلى ساحات التدبر وبحار التأدُّب بالقرآن، ويفتحون لهم خزائن معانيه، ويعرِّفونهم بالله، ويعلمونهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويربونهم بسيرته، ويقيمون منها منارة يستهدي بها شباب الأمة في تلاطم الظلمات وتماوج الفتن.

ثم على العلماء أن يعملوا على تزكية الأمة بما تحمله الكلمة من معان مذكورة، فيحببون إلى الشباب الإيمانَ والطاعة، ويبغّضون إليهم الكفر والمعصية، فتتحصَّل الهداية ويعمُّ النور ويتحقق مقصود الشريعة.

"وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها؛ لأن أول تبليغ الرسالة: تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [المدثر]، ثم العلم تحصل به التزكية، وهي في العمل بإرشاد القرآن"[120].

---

(١١٩) التحرير والتنوير، ١/ ٧٢٣.

(١٢٠) التحرير والتنوير، ١/ ٧٢٣.





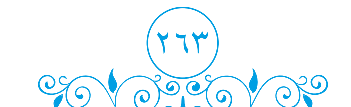
وناسب تذييل الآية بـ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لما أن ما ذُكِر من المطلوبات إنما يناسب عزة الله؛ فالعزيز: القويُّ الذي لا يُغلب، والحكيم الذي تقتضي حكمتُه إجابةَ الدعاءِ بما تحصُل به مصلحة الخلق.

ومن آداب الدعاء التي نتعلمها من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

- فضيلة الدعاء الجماعي وامتياز مرتبته على الدعاء الفردي، بمعنى: أن يدعو أحد الداعين ويؤمّن الآخر على دعائه، والله أعلم.
- استحباب إظهار الضراعة والجؤار وكمال الحاجة وشدة الانكسار أثناء الدعاء، ويظهر هذا بتكرار النداء بعنوان الربوبية المضاف إلى ضميرهم مع كل دعوة.
- دعاء الله تعالى بالعظيم من المقاصد؛ الدالة على علو الهمة ورفعة المطامح، وامتلاء القلب بهمّ الدين، وانكشاف حقيقة الدنيا، ويُستدل على هذا بقوله في السورة: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ {البقرة}.
- أن يذكر في الدعاء من أسماء الله تعالى ما يناسب مضمون الدعاء، وهو أدعى للإجابة، وهذا ظاهر من كل تذييل في الآيات الثلاث الأخيرة، فليُتأمل!

- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

لما كان من أمر الآيات السابقة الدلالة بذكر الأقوال والأفعال على إمامة إبراهيم عليه السلام وعلى تعظيمه في الدين كان من نتيجته التنبيهُ على أن ترك سبيلِ مَن تلك حالُه أمر لا يفعله العقلاء؛ وإنما هو سبيل السفهاء: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، والاستفهام للإنكار!





و ﴿سَفِهَ﴾ بمعنى: استخف؛ لأن السفاهة خفة العقل واضطرابه، و ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ استخفَّها واستذلّها واستمهنها، "ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ في إذلال نفسه وإهانتها؛ حيث خالَف بها كل نفس عاقلة"[١٢١].

وهذا حال من ترك ما عليه إبراهيم عليه السلام من الإيمان والتوحيد والإخلاص لله تعالى، وفيه تعريض بأولئك الذين تركوا طريق إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى مع إقرارهم بإمامته وانتسابهم إليه!

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كالتلخيص لكل ما مضى وكالتحصيل له، وهو إيذان بأنه عليه السلام جمع الخير وبلغ الغاية في الدارين:

- في الدنيا؛ هو المصطفى المختار، وهو خليل الله، وكفى بذلك مرتبةً لا تبلغها آمال الطامحين.
- في الآخرة: من الصالحين: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقد أُكّدت الجملة بـ (إن) واللام لِمَا أن أمر الآخرة فيه خفاء؛ فيُحتاج في الإخبار عنه إلى تأكيد لا يُحتاج إليه في الإخبار عن أمر الدنيا المشاهد الذي لم ينازع فيه.

وأوثرت الجملة الاسمية للإشعار بأن انتظامه في زمرة الصالحين في الآخرة أمر مستمر في الدارين لا أنه يحدث في الآخرة.

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

المتعلِّق بالظرف قوله: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ وما بعدها، ففي الآية تفصيل زائد لأسباب نيله مرتبة الاصطفاء في الدنيا والصلاح في الآخرة: أنه بادر إلى الإسلام لرب العالمين.

والتعبير بعنوان الربوبية: ﴿رَبُّهُ﴾ مضاف إلى ضمير إبراهيم عليه السلام فيه مع تشريفه: الإشارة إلى علة مبادرته إلى الإسلام، وهي أن الذي أمره بذلك: ﴿رَبُّهُ﴾ الذي خلقه

---

(١٢١) تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٠.





ورزقه وهو المتصرف فيه إحياءً وإماتةً ونفعاً وضراً، والإشارة كذلك إلى تربيته له، وأنه إنما نال ما نال من التوفيق لِمَا حظي به من تربية ربه له وتوفيقه إياه.

وهل جرت المحاورة بين الله تعالى وبين إبراهيم عليه السلام حقيقة على ما جاء في ظاهر الآية؛ من أمره له بالإسلام، وإجابته عليه السلام له تعالى بالإقرار والاستجابة؟

أم أن ذلك تمثيلٌ لسرعة امتثاله لِمَا قامت عليه البراهين من التوحيد ووجوب الاستسلام لرب العالمين؟ كما ذهب إليه أبو السعود[١٢٢] !

تطبيق أصولي/ أصول التفسير

وجهان، ومقتضى الأصول : الحمل على الحقيقة، إذ لا مانع يمنع من ذلك، والأصل أن يُحمل الكلام على الحقيقة إلا إذا اقتضت الانصراف إلى المجاز قرينة ما، ويكون موضوع المدح فيها موافقةُ قولِه فعلَه، وسرعةُ المبادرة إلى الإجابة مع كمال اليقين.

وعدولُه عليه السلام عن قوله: "أسلمت لك"، كما هو المتبادر إلى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليحمل الجوابُ دليلَه، ذلك أن من كان رباً للعالمين، خالقاً لهم، متصرفاً فيهم، سيداً مُطاعاً؛ أمرُه نافذ في السماوات والأرض؛ يستحقُّ أن يُسلِمَ له العقلاء الموفَّقون، وينقادون لشريعته مع كمال التسليم!

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

لمسة تربوية دعوية

لمّا تم إِسْلام إبراهيم عليه السلام لرب العالمين لم يتوقف الكمال

(١٢٢) تفسير أبي السعود، ١/ ١٦٣.





لمّا تم إِسْلام إبراهيم عليه السلام لرب العالمين لم يتوقف الكمال ولم تنته الوظيفة؛ فإنه لما كمَّل نفسه عليه السلام سعى إلى تكميل غيره، ولما اطمئن قلبه بالإيمان توجه نحو بنيه يوصيهم بما وقف عليه حقاً يقيناً.

وكذلك هو حال الإيمان إذا ما خالط القلب وسرى في الروح؛ لا يلبث حتى يحمل صاحبه على متابعة الطريق في دعوة الناس إليه، ونقْل حرارته إليهم، والانتصار له في مواجهة الكفر، وتبديد ظلمات الجاهلية بنوره.

ذلك أن الآية هنا تذكر أنّ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وصَّيا بالإسلام بنيهما، وجعلا التوحيد الكلمة الباقية في عقبهما إلى يوم يرجعون؛ منهجاً عدلاً، وكلمةً فصلاً، مَن تركها تنكَّب طريق إبراهيم وطريق يعقوب عليهما السلام.

وفي ذِكْرِ ذلك تعريضٌ بملل الكفر، وعلى رأسها: اليهودية المحرَّفة المتنكِّرة لمنهج الأنبياء، وعلى رأس أولئك الأنبياء: إبراهيم عليه السلام؛ الذي يتبجحون بالانتساب إليه، وهو من طريقتهم براء!

وعلى رأسهم كذلك النبي الأخص بهم، الذي ينتسبون إليه عِرقاً: يعقوب عليه السلام، الذي يسمى بـ (إسرائيل)، وهم بنو إسرائيل، فإنه كذلك أوصى أبناءه بالإسلام، وهو على دين إبراهيم عليه السلام، بَراء من طريقتهم الدينية، ومنهج حياتهم المنحرف!

﴿وَوَصَّىٰ﴾ الوصية: التقدم إلى الغير بما يَعمَل به مقترناً بوعظ، وهذا تعبير الراغب[١٢٣]، والتشديد للمبالغة؛ فقد كانت وصيتهما وصية حريص.

والضمير المفرد الغائب المؤنث: ﴿بِهَا﴾ وهي الموصى بها: الملة؛ ملة الإسلام، أو الكلمة: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد اشترك إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بوصية بنيهما بها، وقد توسَّط المفعول بين الفاعلَيْن: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، لفرق ما بين الجد والحفيد، فيعقوب إنما

(١٢٣) المفردات، ٨٧٣.





هو حفيد إبراهيم عليهما السلام، ولعل جريان الترتيب على ما هو المتبادر سيَثْقُل على اللسان: "ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما "، والمثنّى أثقل من المفرد على الأُذن وعلى اللسان: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، فتأمل!

وذِكْرُ إبراهيم هنا متبادر؛ إذ السياق في ذكر فضائله، أما ذكر يعقوب فلزيادة التعريض باليهود المنتسبين إليه، كما مرّ.

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، افتتحا وصيتهما بنداء أبنائهما نداء تحبب لِمَا أن ذلك أدعى إلى القبول والاستجابة، وفيه من إظهار الحرص على ما ينفعهم ما فيه؛ خصوصاً وأنه بعنوان: "الأبوّة"، المشير إلى كمال الإشفاق!

واصطفاء الله تعالى لهم الدين؛ بمعنى: الاختيار، وهو افتعال من "الصفاء"، وأصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، والاصطفاء: تناول صفوِ الشيء، كما أن الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته، قاله الراغب، وأضاف: "واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً عن الشَوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه، وإن لم يتعرَّ من ذلك"[١٢٤].

واصطفاء الدين- بناء على هذا- يمكن أن يكون بأحد هذين المعنيين:

- بإيجاد الدين- الذي هو الإسلام- صافياً عن الشوائب التي نالت من الأديان الأخرى.
- باختياره من بين الأديان، ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ {آل عمران ١٩}، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ {آل عمران ٨٥}.

---

(١٢٤) مفردات ألفاظ القرآن، ٤٨٨.





لمسة تربوية

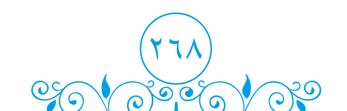
ولما بيَّن ذلك بالمؤكدات وقرره على هذا الوجه الحاسم من التقرير، فرع عليه بالفاء ما ينبني عليه، وهو أمرهم بالثبات على الدين حتى المات: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهذا التفريع مُفيد في التربية، من حيث إن العمل مبنيٌّ على العلم، وصحةُ التصوُّر هي ما يُبْتَدَأُ بتعليمه وتقريره، وينتقل منه إلى ما ينبني عليه من العمل، وهو ما قرره العلماء إذ بيَّنوا أن العلمَ سابقٌ للعمل، وأن العلمَ شجرة ثمرتها العمل، وهو يشير إلى أن الأولوية التربوية ينبغي أن تكون لتصحيح التصور، ثم لربط العمل به وتفريعه عنه!

وقوله على لسان كل من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ "ظاهره النهيُ عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود: الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي: فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبداً، كقولنا: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن حقه أن لا يحل بهم، وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر"[١٢٥].

لمسة تربوية

وفي التعبير حرارة إيمانية عالية، فالكلام نابع من قلبٍ حريص موقنٍ بما يقول: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهذا حال الداعية الموفق، يناصح الناس ويكلمهم ويتلطف في خطابهم مشفقاً عليهم حريصاً أشد الحرص، ترى في لحن قوله يقيناً يختزنه قلبه، فيتكلم وكأنه يعاين الجنة والنار، يدعو الناس إلى هذه، ويحذرهم من تلك، ويأمرهم بمعاقد الأمر.

(١٢٥) تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٢.





﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لما كان بنو إسرائيل منتسبين إلى يعقوب عليه السلام نسباً؛ أردف ببيان أن طريقة إبراهيم عليه السلام المحكيَّةَ آنفاً هي طريقةُ يعقوب عليه السلام ذاتها، وهذا أدْعى إلى قيام الحجة عليهم والبرهانِ على الدعوى التي أقامها القرآن حين أبطل دعاويهم؛ فإنهم زعموا من قبل أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وبيَّن بطلان ذلك بانعدام الحجة عليه، وإثبات الفوز لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ثم جَعَل بُرهان ذلك من وجوه: أحدها: أن الإسلام هو دين إبراهيم ودين يعقوب عليهما السلام؛ كما ذكر في الآية: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وصُدِّرت الآية بـ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة المقدَّرة بـ (بل) وهمزة الإنكار، و "بل" تفيد الإضراب والانتقال إلى كلام جديد، ذلك أنه وبخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام ثم انتقل الى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حُكِي عنه[١٢٦].

والمخاطَبون في الآية: اليهود، خلافاً لمن قال: المسلمون[١٢٧]، فالإنكار يصلح أن يتوجه إلى من كان يزعم خلاف مضمون الآية من إسلام يعقوب عليه السلام ووصيته لأبنائه، وهم اليهود ولا ريب.

والإنكار منصبٌّ على شهودِهم حضورَ يعقوب الموت وما وصَّى به أبناءه من الاستمساك بالإسلام لله تعالى والتزام الحنيفية الإبراهيمية، وإنكار حضورهم لهذا الحدث لإرادة تشكيكهم بما ينسبونه إليه عليه السلام.

---

(١٢٦) انظر تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٢.

(١٢٧) ذهب إلى ذلك الزمخشري، وهو خطأ كما نرى والله أعلم.



التقديم والتأخير / التقديم الاصطلاحي

و ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمعٌ مفردُه: شهيد، والمقصود بالشهادة هنا: الحضور، و ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان متعلّق بـ ﴿شُهَدَاءَ﴾، كأن التقدير: أم كنتم حاضرين وقت مجيء الموت ليعقوب عليه السلام.

وتقديم المفعول به على الفاعل: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ للاهتمام باعتباره المقصود من السياق، ومن اللطائف أن هذا التركيب في القرآن يُلْحظ فيه كون الموت فاعلاً دائماً، والميّت مفعولاً به، ولا يكون الموت مفعولاً به أبداً، انظر:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ {المؤمنون}، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ {البقرة ﴿١٨٠﴾}، ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ {النساء ﴿١٨﴾}.

"الموت هو الذي يأتي للإنسان الذي انتهى أجله، ولذلك ناسب أن يكون هو الفاعل في موضوع الحضور والإتيان والمجيء، وإلا فمن هو الذي يموت بإرادته ورغبته واختياره ليكون هو الفاعل في عملية الموت؟ إن الموت هو الذي يأتي لصاحبه، وليس صاحبه هو الذي يسير إليه، وقد لاحظ السياق هذا المعنى؛ فأسند الحضور والإتيان إليه، وجاء فاعلاً في الجملة القرآنية"[١٢٨].

أما تأخير الفاعل الذي هو الموت؛ فقد لاحظ فيه أستاذنا الدكتور صلاح الخالدي حفظه الله حكمة نفسية: "إن الإنسان يرغب في أن يتأخر الموت، ويتمنى أن لا يأتيه أبداً ليستمتع بحياته. وإذا كان لا بد من قدومه فليتأخر! إن الموت مؤخَّر عن شعور الإنسان وتفكيره، وقد

(١٢٨) لطائف قرآنية، صلاح الخالدي، ١١٤_١١٥.





راعى السياق هذه الرغبة النفسية البشرية، فأخره في الجملة القرآنية"[129] .

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى﴾ {البقرة ١٣٣} الجملة بدل من قوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ لإفادة أن كلام يعقوب عليه السلام لأبنائه إنما كان وقت حضور الموت، ولهذا ولا شك أهمية خاصة؛ من حيث إن ما يتكلم به الإنسان قبيل وفاته إنما هو ملخصٌ مركَّز لما يريده منهم حرصاً على ما ينفعهم، ومن حيث كونه أرسخ في نفوس السامعين مما يتكلم به في سائر الأوقات.

وقول يعقوب لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى﴾ جاء على أسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطَّلع على خالص طويتهم ليُلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير[130] .

وجيء في السؤال بـ (مَا) الاستفهامية دون (مَن)، لأن (ما) يُسأل به عن كل شيء ما لم يُعرف، فإذا عُرِف خُصَّ العقلاء بـ (مَن) إذا سئل عن شيء بعينه، وإن سئل عن وصفه قيل: ما زيد؟ أفقيه أم طبيب[131] ؟

فأجابوه بتأكيد ثباتهم على ما ربّاهم عليه من توحيد الله تعالى وعبادته وحده دون سواه: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، وهم بهذا الجواب المفصل يطمئنونه على ثباتهم على عقيدة التوحيد الإبراهيمية، وعلى سيرهم على منهاج الأنبياء والتزامهم به.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لا لغَيره، مستسلمين له منقادين لأمره.



وفي الآية:

(١٢٩) لطائف قرآنية، ١١٥.

(١٣٠) انظر: التحرير والتنوير، ١/ ٧٣٢.

(١٣١) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٣ والتحرير والتنوير، ١/ ٧٣٢.



لمسة تربوية

أثر التربية الدينية على المرء، وأثرُ انتسابه إلى الأكابر والقدوات والأئمة في الدين على التزامه بالتوحيد والعبادة، وكذلك أثر علاقة الأب بأبنائه على عملية التأثير التربوي.

وفيها:

حرص الإنسان المؤمن على دين الأبناء وآخرتهم! وأنت ترى أكثر الناس إن تكلَّم بشيء وقت حضور الوفاة فإنما يتكلم بما هو من شأن الدنيا! وليس هذا دأب الصالحين- كما تقصُّ الآية-!

وفيها:

حرصُ الأبناء على إقرارِ عيون آبائهم بتأكيد صلاحهم والسير على منهاجهم، وإجابتِهم إجابة وافية مطولة ليحصل بها قَرار القلب وهدوء النفس لهؤلاء الآباء الصالحين!

وفي الآية من الفوائد كذلك:

جواز إطلاق "الأب" على الجد؛ إبراهيم عليه السلام، وعلى العم؛ إسماعيل عليه السلام، بالإضافة إلى الوالد: (إسحاق عليه السلام).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

لما ذكر الحال السامية لتلك الأمة: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وأبنائهم نبه إلى أن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعزل عن الانتفاع بما لهم من المرتبة المتقدمة في الدين: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾؛ سُمُّوا أمةً باعتبار أن الأمة هي الجماعة التي تؤمّها فرق



الناس، أي يقصدونها ويقتدون بها[١٣٢]، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ {النحل ١٢٠}، باعتبار أنه محلٌّ للائتمام أي للاقتداء، أو بالنظر إلى مجامع صفات الخير فيه؛ التي لا تجتمع في العادة إلا في أمة من الناس أي جماعة كبيرة منهم.

ومعنى قوله: (قد خلت) أي: انقضت وماتت، أصل الكلمة من الخلاء، (خلت) أي صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس فيها[١٣٣].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ تلك الأمة مختصّةٌ بجزاء ما كسبت، كما أنكم كذلك مختصون بجزاء ما كسبتم من خير أو شر، فلا ينفع أحداً كسْبُ غيره، والمخاطبُ هنا: اليهود والنصارى! والمقصود: التنبيه على أنهم بمعزل عن الاستفادة من عظيم مرتبة تلك الأمة الخالية؛ فإن بينهم من تناقض المنهج واختلاف الدين ما يقطع كل آصرة فضلاً عن الزعم بأنهم ورثة منهجهم!

ولأجل هذا المعنى الحساس جاء التأكيد: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقريراً لمضمون الجملة السابقة من تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة بالانتفاع بحسنات الأمة الخالية.

ونفيُ سؤالهم هنا عن أعمالِ تلك الأمة عبارةٌ عن عدم انتفاعهم بحسناتهم وعدم مؤاخذتهم كذلك بسيئاتهم - إن كان لهم سيئات -!

وإنما أوثرت هذه الطريقة من نفي سؤالهم عن أعمالهم خيرها وشرها - إن كان فيها شر - ليكون ذلك كالبرهان على عدم انتفاعهم بخيرها، بدليل برهاني: أنهم لا ينتفعون بخيرها ولا يؤاخذون بسيئها على افتراض وجوده، والله أعلم.

وفي الآية:

❖ التأكيد على أن الانتساب إلى الصالحين مع تنكُّب طريقتهم والابتعاد عن منهجهم لا

---

(١٣٢) انظر: تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٣.

(١٣٣) انظر: البحر المحيط، ١/ ٥٧٦.





ينفع المنتسب بشيء، سواء كان ذلك الانتساب عِرْقياً؛ كما هي طريقة اليهود، أو كان بأي رابط آخر، كالحزبية أو الانتماء الفكري ما لم يكن ذلك الانتساب معضوداً بواقع السلوك اليومي!

وهنا ينبغي على أبناء الحركات الإسلامية الحذر من الانتساب الفارغ والانتماء الكاذب إلى الاتجاه الإسلامي والفكر الديني والدعوة الربانية؛ ما لم يكن كل ذلك مشفوعاً بصدق الاعتقاد والسلوك والانتماء!

المقطع السادس عشر
محاجة اليهود والنصارى في إبراهيم وفي ملته

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ {البقرة}.





التمهيد والمناسبة

الدرس السابق كان تعظيماً لإبراهيم عليه السلام وتسفيهاً لمن رغب عن ملته، وبياناً لكون اليهود والنصارى بمعزل عن الانتفاع بانتسابهم الفارغ إلى تلك الأمة، وهذا الدرس له تعلق بموضوع الدرس السابق؛ من حيث كون المشكاة التي تلقى منها الأنبياء واحدة، وفيه زيادة محاجتهم على ما زعموا من الانتساب إلى كبار الأنبياء، وبراءة هؤلاء منهم ومن طريقتهم وكفرهم وتعنتهم في قبول الحق والانقياد إلى مراد الله تعالى.

التفسير

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

لم يكفهم ارتكابهم للباطل وسلوكهم طريق الضلال؛ حتى دعوا إلى ما هم عليه، ووعدوا بالهداية الصائرة إليه! فأَمَر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأنه: مستنٌّ بسنة أبيهم؛ لا يحول عنها كما حالوا!

﴿وَقَالُوا﴾ أي اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ أي قالت: اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، تماماً كما مرَّ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ {البقرة ١١١}:

وقد جاء كلامهم هذا بعد ما امتلأت قلوبنا تغيظاً من قبيح فعالهم ومعتقداتهم التي مر ذكرها والتنبيه عليها، فوقع كلامهم هنا بأن اتِّباعَهم سرُّ أسرار الهدى؛ من أعجب ما يعجِّب المؤمن من حالهم!

وقد أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجابتهم عبر ﴿قُلْ﴾ التلقينيّة: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، و﴿بَلْ﴾ لإبطال أقوالهم المحكية من أن اتّباع اليهودية





والنصرانية هو طريق الهداية، ﴿مِلَّةَ﴾ منصوب بفعل محذوف، والتقدير: بل نتبع أو اتبعوا لأجل بلوغ الاهتداء: ملة إبراهيم عليه السلام، التي جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإحيائها.

و ﴿حَنِيفًا﴾ حال من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام، والحنيف: فعيل من الحَنَف، وهو الميل، والمراد: الميل عن مذاهب الباطل إلى مذهب الحق، قال ابن عاشور: "وإنما كان هذا مدحاً للملة لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دين إبراهيم مائلاً عنهم، فَلُقِّب بالحنيف، ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة"[١٣٤].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد إبطال قول اليهود والنصارى أنحى كذلك على المشركين العرب، فنفى كون إبراهيم على طريقتهم، وفي ذلك احتجاج عليهم ببطلان طريقتهم كذلك إذ إنهم منتسبون- زوراً- إليه عليه السلام.

ويحتمل أن يكون نفي الشرك هنا عن إبراهيم عليه السلام تعريضاً باليهود والنصارى من حيث إنّ تبرئة إبراهيم من مذاهبهم تبرئة له من الشرك الذي وقعوا فيه، وفيه من التشديد عليهم ما لا يخفى.

وفي الآية:

التنبيه على إجرام من حوَّل ضلاله إلى هدى ودعا الناس إليه باعتباره الحق الأوحد، والطريق الأعز لبلوغ الاهتداء! فإن ذلك ضلال مركَّب!

وكثير من الناس اليوم يقع في شيء من الضلال، ثم لا يكفيه ذلك حتى يبدأ بتسويغ ذلك الضلال والدعوة إليه، وقد يزعم أنه الهدى من دون الهدى!

كان يكفيه أن ينكفئ على نفسه متحسراً لما أصابه، فيملأ وقته بالاستغفار على ما كان منه، وبتجديد التوبة إلى الله والعزم على مغادرة قيعان الضلال إلى قمم الهداية! لكن الله يهدي من يشاء، لا مبدّل لحكمه!

(١٣٤) التحرير والتنوير، ١/ ٧٣٧.





﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

لما حكى عنهم تلك المقالة الشنيعة من ادّعاء الهدى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، وهم في الحقيقة في أسفل دركات الضلالة دلَّ على هدى الله الحقيقِ بأن يسمّى هدى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ فإن ذلك هو الهدى دون الذي ادَّعوه!

تقعيد فكري

والآية- كما ترى- فيها إعلان الإيمان بالله وبما أنزله الله تعالى على أنبيائه، وفيها: ميزة من ميزات إيمان هذه الأمة، ذلك الإيمان بكل الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم الله ليؤدوا رسالته من غير تفريق بينهم في الإيمان؛ خلافاً لليهود وللنصارى الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض!

والخطاب في ﴿قُولُوا﴾ لأهل هذا الدين المتبعين لمحمد صلى الله عليه وسلم المسلمين لله على طريقة إبراهيم عليه السلام الذي عظمته الآيات السابقة وسفهت مُخالِفَه الحائدَ عن طريقته.

ولعل أمره تعالى لنا بـ (القول) في: ﴿قُولُوا﴾، ليكون ذلك إعلاناً لمنهج هذا الدين في وجه خصومه وأعدائه، وبياناً من أول الطريق بأن هذه الأمة مؤمنة بالله وبما أنزله الله على رسله من غير تفريق بينهم، توضيحاً لمعالم المنهج الرئيسة والكبرى، وإزالة لكل ما قد يعتري الصورة الكلية من غباش وعدم وضوح!



وبدأ بعد إعلان الإيمان بالله بإعلان الإيمان بالقرآن، المعبَّر عنه بـ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وإنما بدأ به مع أنه المتأخر زماناً عن كل ما يُذكر مما أُنزل على النبيين من قبل لأجل أنه المختص بنا- نحن أمةَ الإسلام-، ولِمَا أنه الأصل الذي انبنى إيماننا بسائرها عليه.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ تخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأن الجدل هنا إنما هو مع أهل الكتاب، وهؤلاء الرسل هم الذين يُعنى إيمان أهل الكتاب بهم مع موسى وعيسى عليهما السلام الآتي ذكرهما:

عطف العام على الخاص

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، ثم عمَّم بعد التخصيص: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص لمكانة الخاص من السياق وأهميته.

ومعلومٌ أن إسماعيل وإسحاق ابنا إبراهيم، وأن يعقوب ابن إسحاق، وأن الأسباطَ ذرّيته من أبنائه، "والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل"[١٣٥] ، والمقصود: أنبياء الأسباط، و ليسوا إخوة يوسف على التحقيق، والله أعلم.

وعدَل عند ذكر موسى وعيسى عليهما السلام عن التعبير بالإنزال إلى التعبير بالإيتاء ليعم ذلك كتابيهما: التوراة والإنجيل مضافاً إلى ذلك: سائر المعجزات التي أوتوها، وقد نص القرآن عليها بخلاف معجزات من سبق، فحُسن النص على إعلان الإيمان بذلك كله.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ إعلان ميزة إيمان هذه الأمة من أنها لا تفرق بين أحد من هؤلاء الأنبياء وآخر، إنما نؤمن بهم جميعاً رسلاً

(١٣٥) الفتوحات الإلهية، حاشية الجمل على الجلالين، ١/ ١٦٦.





مكرمين، وهذا كقوله في آخر السورة في النص كذلك على ميزة هذا الإيمان وأنه سبيل هذا الرسول والذين آمنوا معه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ {البقرة}.

آمنا بالله وبما أنزله الله على رسله، لا نفرق بين هؤلاء الرسل في الإيمان بأنهم رسل الله وأنبياؤه وخيرة خلقه، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون منقادون له دون غيره، لا نحكّم في الإيمان به وبرسله هوىً أو غرضاً من الأغراض، وإنما نسير في ذلك الإيمان مع ما أمرنا به.

هذا الذي أمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوه ويستعلنوا به، ثم قال لهم:

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

بعد أن جاء القول الفصل في تحديد معالم الهدى والإيمان المأمور به صار أهل الكتاب بين طريقين لا ثالث لهما:

الأول: أن يتبعوا المؤمنين على ما آمنوا به، وأن يلتحقوا بسيرهم في ترك الهوى والأغراض، وفي الإيمان بما أنزله الله تعالى على رسله وبما أنزله على خاتم رسله: محمد صلى الله عليه وسلم، فإن فعلوا ذلك فقد اهتدوا؛ دع عنك دعاوى الاهتداء المزعوم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

الثاني: أن يُعرضوا عن ذلك ويتركوه غير ملتفتين إلى مقتضى ما جاءهم من البينات من كتبهم وما قام عليهم من الحجج الظاهرة، فإن فعلوا ذلك فإنما هم في "شقاق"، يأخذون الشق الذي هو في مقابل شق الاهتداء والإيمان والانقياد لله تعالى والإسلام له.

وقد أوثر التعبير بالجملة الاسمية ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ بخلاف مقابلتها ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ للإشارة إلى ثباتهم ورسوخهم في المشاقة والمخالفة!





والتنكير في ﴿شِقَاقٍ﴾ للتفخيم، أي: شقاق عظيم، لا يهوِّنه أنَّ عندهم بعض ما يؤمنون به مما سوى ذلك كبعض الأنبياء وبعض الكتب.

وإذا كان ذلك فلا يهولنَّك أيُّها الرسول شقاقهم ولا تقلقنك عداوتهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وسيردُّ الله كيدهم في نحورهم، وهذا ما حصل بعْدُ في غزوة بني النضير وقينقاع وقريظة وخيبر؛ كفاه الله شرورهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وما يزال الوعد قائماً للمؤمنين من بعد، وسيخزي الله أعداءهُ، ويحبط مكائدهم وسينصر أولياءه؛ أَلا فليستعلنوا بالإيمان وليرفعوا لواءه، وليُنادوا على العالم بمنهجهم!

(والله سميع عليم) وعد للمؤمنين، إذ يسمع دعاءهم، ويعلم أحوال قلوبهم، ووعيد لليهود المجرمين: سميع بأقوال وما يحيكونه من مؤامرات، عليم بها، فلا تفوته معاقبتهم ولا الإحاطة بهم.

✧ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

لمّا أمَرهم في الآية السابقة بإعلانِ الإيمانِ المتكامِل بالله وبرسالاته من غير تفريق؛ بيَّن هنا أن هذا المنهجَ المُعلنَ في الإيمان بالله وبرسالاته من غير تفريقٍ بَيْن رسلِه هو صبغةُ الله ودينُه وشريعتُه التي تصبغ حياة المؤمن وتميزه تمييزاً تاماً وتشكِّل محور حياته.

و ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ دينه وشريعته وما سلف ذكرُه من الإيمان به وبرسله عليهم صلوات الله؛ سمَّى ذلك صبغة لأحد أمرين والله أعلم:

الأول: لكونه تطهيراً للمؤمنين من أوضار الكفر، وحلية تزيُّنُهم بآثاره الجميلة، ومتداخلاً في قلوبهم، سابغاً لسلوكياتهم الظاهرة والباطنة؛

الاستعارة/ علم البيان





كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك، وعليه ؛ فههنا استعارة تتضمن تشبيه الإيمان المذكور في الآية السابقة بالصبغ الذي يلوِّن الثوب ويعمُّه، والجامع أن كلاً منهما يزين المصبوغ ويتداخل فيه حتى يَعُمَّه لون الصباغة.

الثاني: أن يكون فيه مشاكلة لما يفعله اليهود والنصارى؛ من الاغتسال بماء معيَّن عنواناً على التوبة لمغفرة الذنوب، فقوله- إذا كان هذا هو الوجه-: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ﴾ تعريضٌ باليهود والنصارى معاً في أنّ اصطباغهم على ما هو معلوم من سنتهم ليس بشيء، وإنما النافع الاصطباغ بهذا الإيمان الصحيح بالله وبرسله؛ دون ما يدَّعونه من مناسك لا تنبع من الاعتقاد الصحيح، ولا تدل عل الإيمان النافع!

ونصب: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ﴾ على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديرهُ: الزموا صبغة الله، فكأنه أمرهم في الآية السابقة، أن يقولوا: آمنا بالله...، وأمرهم هنا بلزوم هذه الطريقة من الإيمان ظاهراً وباطناً، والله أعلم.

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾ للإنكار، والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة.

وإضافة الصبغة إلى الله تعالى في الآية: لتشريفها والإيذان بكمالها؛ إذ هي صبغة الله العظيم ذي الجلال والكمال، وللإشارة إلى لزومها لاعتبارها كذلك.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على: ﴿آمَنَّا﴾ في الآية السابقة داخلة في مضمون القول المأمور به، كأنه قال: قولوا: آمنا، وقولوا: ونحن له عابدون.

تقديم الجار والمجرور / التقديم الاصطلاحي

وتقديم الجار والمجرور على متعلقهما : ﴿لَهُ عَابِدُونَ﴾ على أن الأصل في ترتيب الجملة العربية تقديم المتعلَّق على الجار والمجرور لإفادة





الاختصاص، والتقدير: ونحن له عابدون لا لغيره سبحانه.

وما أعظمها من عبودية، تلك التي تحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله، لتتكامل عبوديته له جلَّ في علاه، وليستعليَ بهذا على سائر قوى الأرض، التي تنازع المؤمن في عبوديته لله لتضعه خلف قضبان حساباتها! وما إن يستشعر المسلم أنه ليس عبداً لأي قوة من تلك القوى أو طاغوت من الطواغيت حتى يستعليَ عليها بإيمانه وعقيدته، وباستمداده القوة من عند الله العظيم!

لمسة تربوية

ولِزرعِ هذا الاعتقادِ في قلوب المسلمين أثرٌ في صِناعةِ الأبطال، والاستعلاء بالإيمان على قوى الجاهلية!

ألا فليكن هذا من أولويات الدعاة والمربين في "غرس القيم" في القلوب، وتربية النفوس عليها.

التعبير بالجملة الاسمية

والتعبير بالاسمية: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ للإشارة إلى الثبات على العبودية لله تعالى دون غيره، وللإشعار بالاستمساك بالمنهج والاستقرار على الحق، وهو الذي يفيده استعمال الجملة الاسمية في أصل الوضع.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

تلقين من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الحجة على اليهود؛ إذ ما يزال السياق يُبطل شُبَهَهم؛ الشُّبهةَ تِلْوَ الشُّبهة، وَيقضُّ بنيان وهْمهم فيما يزعمون من اختصاص الله إياهم وتفضله عليهم دون خلقه!



والاستفهام للإنكار والتعجيب، وهو مُنْصَبٌّ على ذات المحاجّة؛ إذ كانت غيرَ مَبْنِيّة على شبهة حقّ فضلاً عن أن يَكون أصحابها محقُّون فيما يزعمون فيها.

والمحاجَّةُ في الله تعني: المحاجة في شؤون الله وفي دينه، وقد اختلفت عبارات المفسرين في بيان ذلك وما يتبعه من الآية.

وعبارة الطبري رحمه الله هذا نصها: "وهذا من الله تعالى ذكره توبيخ لليهود واحتجاج لأهل الإيمان بقوله تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: قولوا أيها المؤمنون لليهود والنصارى الذين قالوا لكم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ يعني في دين الله الذي أمرنا أن ندينه به، وربنا وربكم واحد عدلٌ لا يجور، وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا، وتزعمون أنكم أولى بالله منا لقدم دينكم وكتابكم ونبيكم، ونحن مخلصون له العبادة لم نشرك به شيئاً، وقد أشركتم في عبادتكم إياه؛ فعبد بعضكم العجل وبعضكم المسيح، فأنَّى تكونوا خيراً منا وأولى بالله منا"[١٣٦]؟!

والواو في قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ حالية، وقد علمنا أن محاجتهم في الله بمعنى في الذي ادّعوه في دين الله مما قصه الله علينا مما قالوه، كقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، فالمعنى: كيف يحصل لكم أن تحاجُّونا هذه المحاجة وتزعموا هذا الزعم الباطل والله تعالى كما أنه ربكم فإنه ربنا، فلم تدَّعون الاختصاص به دوننا من غير دليل قائم، ولا حجة ظاهرة، وأردفه بقوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، وهذا يحتمل وجهين:

الأول: ما ذهب إليه البيضاوي ومن تابعه، من أنها إفحام لهم على مذهبهم، فالنبوة التي يدَّعونها محصورةً فيهم مقصورةً عليهم إنّما تحصل بمحض تفضُّل من الله على من يشاء، والكل فيه سواء، لا غرو؛ فإنه: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وإما بإفاضة حقٍّ على المستعدِّين

(١٣٦) تفسير الطبري، ١/ ٦٦٣.



للنبوة بالمواظبة على الطاعة والتحلّي بالإخلاص، وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها؛ فلنا أيضاً أعمالٌ، ونحن مخلصون له بالإيمان والطاعة دونكم، فنحن أحق بها منكم على هذا الذي تعتقدونه سبباً للنبوة[١٣٧] !

ولم يرتضِ أبو السعود هذا القول وردّه بعد عرضه، وحاصل رأيه: أن الآية إنكار عليهم محاجتنا أصلاً في الذي ادَّعوه في دين الله من قصر الاهتداء عليهم وحصر الجنة لهم، فالله هو ربنا وربكم، ولا وجه لادعاء الاختصاص مع اشتراكنا في المربوبية له، ثم إن لنا أعمالنا الحسنة الموافقة لأمره، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ السيئة المخالفة لحكمه، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ في تلك الأعمال لا نبتغي بها إلا وجهه، فأنى لكم المحاجة وادعاء حقية ما أنتم عليه والطمع في دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه[١٣٨] .

وأنت ترى - حفظك الله- الفرق الدقيق بين القولين، فالأول إثبات لحقية النبوة فينا على طريقة إفحامهم وفق ما يعتقدونه، والثاني نسف لمدَّعياتهم الباطلة من أساسها فيما يخصُّ زعم قصر الاهتداء عليهم، وانحصار الجنة فيهم.

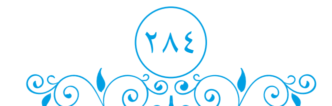
وعبارة الطبري أقرب إلى ما صرّح به أبو السعود، وهو الذي أراه لما أن منطق الوجه الأول يوهِم إقرارَ حصول النبوة بالاستحقاق، وهو خلافُ قولِ أهل السنة قاطبة!

التقديم والتأخير التعبير بالجملة الاسمية

وتقديم الجار والمجرور على المتعلق بهما في قوله : ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ تعريض بانعدام الإخلاص في أهل الكتاب وقلته! وإيثار الجملة

(١٣٧) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ٩١، بتصرف وإيضاح.

(١٣٨) انظر: تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٧، بتصرف.





الاسمية كذلك للإشارة إلى ثبوته فينا واستقراره في دينونتنا لله تعالى!

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ في صدر الآية منقطعة على الأظهر، بمعنى: بل وهمزة الاستفهام، والتقدير: بل أتقولون إن..، و (بل) للإضراب الانتقالي من الإنكار عليهم المحاجّةَ الباطلة على ما ذكرناه إلى الإنكار عليهم الافتراء على الأنبياء والادعاء عليهم!

فالهمزة- إذاً- للإنكار والتوبيخ، والتوبيخُ على قولهم: إنَّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى! وإنما قالوا ما قالوه وادّعوا ما ادّعوه على هؤلاء الأنبياء لأحد سببين أو لكليهما:

- الجهل بالأنبياء وبعقيدتهم وبأديانهم وبتاريخهم، إذ من البدهيات أن هؤلاء ليسوا يهوداً أو نصارى، فإن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعدهم، وهذا عقليٌّ بدهيّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ {آل عمران}!

- التزوير والتلبيس على العوام، وإذا كان كذلك فإن هذا عار على العلماء منهم، علماء السوء، وليست هذه أول مخازيهم!

ولا مانع أن يكون السببان هما المانعان؛ على أن الأول سببُ عوامِّهم، والثاني سببُ علمائهم في ذلك الادعاء!

ولما أعلمهم الله بالحق الذي لا مرية فيه في هذه المسألة أتبعه بقوله: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟ فإنه لا جرأة لأحد أن يدّعي أنه أعلم من الله، فإذا كان كذلك فليسلِّم لله تعالى بما هو مقتضى البرهان العلمي والدليل القائم! أو أنه أراد بذلك التقرير هزَّ قلوبهم وتحريك عاطفتهم إلى التسليم والانقياد.





ولمّا كان علماؤهم قد كتموا الحق ويكتمونه عن العوام أشار إلى أنهم بذلك في حالٍ لا أحد أظلم منهم فيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

والحق المكتوم هنا: هو أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا هوداً أو نصارى، وهو مقتضى السياق، وإنما كانوا مسلمين له على الحنيفية التي جاء محمد صلى الله عليه وسلم بإحيائها!

"وتعليق الأظلمية بمطلق الكتمان للإيماء إلى أن مرتبة من يردّها ويشهد بخلافها في الظلم خارجة عن دائرة البيان"[١٣٩].

وجاءت فاصلة الآية للتهديد الرعيب: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التزوير والتلبيس، وعلمُه بصنائعكم مؤذنٌ بقرب عذابكم ونزول غضبه بكم!

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

سبق الكلام على تفسير شبيهتها قبل آيات، وإنما أُعيدت لترسيخ مضمونها في نفوسهم: أن لا تتّكلوا على انتسابكم لأولئك؛ فإنكم لستم بمنتفعين بأعمالهم، بل لن تنتفعوا إلا بما كسبتموه!

---

(١٣٩) تفسير أبي السعود، ١/ ٢٠٩، هذه عبارته آثرت وضعها كما هي لشرفها وبلاغتها ووجازتها، والمقصود منها: أن الآية علّقت «أظلميتهم» -بمعنى أنهم بحال هم فيها أظلم من غيرهم من الظلمة- على كتمهم للشهادة: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ)، للإشارة إلى مغبة كتمها وشدة الإثم في ذلك.





المقطع السابع عشر
تحويل القبلة؛ ومواجهة أباطيل اليهود في ذلك

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ {البقرة}.





التمهيد والمناسبة

هذا المقطع على طوله يعرض لقضية نسخ القبلة، وقد اختلف المفسرون في تفسير بعضه وسيأتي التفصيل والترجيح إن شاء الله، ومناسبتُه لما قبله من حيث كون ما قبلَه كالتمهيد له، فقد سبق قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ {البقرة ١٠٦}، وتم التعريج على مغالطات اليهود وبيان كونهم ليسوا على شيء، وهذا مهم لكون اليهود قد استغلُّوا فرصة نسخ القبلة لإثارة القلاقل في الصف المسلم، وسبق كذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ {البقرة}، وقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ {البقرة ١٢٠}، وذكر من شأن إبراهيم عليه السلام وتعظيم البيت الذي رفع قواعده، ومشاركة إسماعيل عليه السلام له في ذلك، ودعائهما عليهما السلام، الأمرُ الذي لفت النظر إلى مكانة بيت الله الحرام في سياق التمهيد لتحويل القبلة من بيت المقدس إليه.

فكأنه استباق نحو الإجابة على السؤال الوارد على الأذهان بشأن الحكمة من تحويل القبلة!

وكل ذلك التمهيد دالٌّ على خطورة تلك المسألة ومقدار ما فعله اليهود من أفاعيل استهدفوا بها النيل من العقيدة والقيادة.

ولقصدي في هذا الكتاب إلى الإيجاز: أُحيل القارئ للأهمية على ما كتبه الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيره هذا الموضع من سورة البقرة في "ظلال القرآن"، فإنه قد أفاض وأفاد في توصيف الخطر المحدق بالجماعة المؤمنة؛ المرافق لتحويل القبلة من قِبلِ اليهود، وملابسات المكايد اليهودية في طعن الجماعة المسلمة بهذه المناسبة، وبث الأراجيف والتشكيكات، التي استدعت بيانها بكل هذا المقطع المفصَّل في القضية، وسنأتي على شيء من ذلك أثناء التفسير لمناسبته لموضوع كتابنا والمقصود منه.





التفسير

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

ظاهر الآية مشعرٌ بأن الآية نازلةٌ قبل وقوع هذا القول منهم، فالسين للاستقبال، فيكون هذا من الإخبار بالغيب، وقد كان كما أخبر.

واختلف في المقصود بالسفهاء على قولين:

الأول: أنهم اليهود، وإليه ذهب أكثر المفسرين، كما في الطبري[١٤٠].

والثاني: أنهم المنافقون والمشركون، وإليه ذهب ابن عاشور رحمه الله، وذهب إلى أن القبلة المنسوخة في الآيات هي الكعبة، وأن الآية نازلة في الانتقال عنها إلى بيت المقدس! والراجح هو قول عامة المفسرين، إذ لم أقف على قول مشابه لقول ابن عاشور بين المفسرين، ولا داعي حقيقياً للذهاب إليه، لكن لا ضير من اعتبار العموم وأن المقصود بالسفهاء كلُّ هؤلاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة من اليهود والمشركين والمنافقين، وإليه ذهب ابن كثير رحمه الله[١٤١].

والسفهاء جمع سفيه، وهو صفة مشبهة، وهو الذي خفَّ عقله، وقد مرّ بيانه عند قوله: ﴿مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع كونه معلوماً "للتنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء، فإذا قُسِّم الناس أصنافاً كان هؤلاء صنفَ السفهاء، فيُفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة"[١٤٢].

وقوله تعالى عن لسان أولئك السفهاء: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، يعني: أيُّ شيء صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وهي بيت المقدس؟! والاستفهام

(١٤٠) انظر: ٢/ ٥.

(١٤١) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٢٤٩.

(١٤٢) التحرير والتنوير، ٢/ ٧.



مستعمل هنا للإنكار والتعجيب! ولا أحسبه استفهاماً مستعملاً في التعريض بالتخطئة واضطراب العقل، كما ذهب إليه ابن عاشور![143]، ذلك أن أهل الكتاب كانوا يعلمون أنَّ ما حصل من تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى بيت الله الحرام هو الحق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة ١٤٤]، وأنت تعلم أن هذا مُنافٍ للتعريض بالتخطئة واضطراب الحق؛ اللهم إلا أن يكون ذلك مكِيدةً منهم لزعزعة إيمان المؤمنين!

﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

تلقينٌ من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، والجوابُ موجَزٌ لا زيادة عليه، قاطعٌ لكل شبهة أو محاورة في المسألة؛ ذلك أن الله تعالى لمّا كان مالكاً لكل الجهات؛ وهو ما عبر عنه بملكِه للمشرق والمغرب؛ لم يَجُزْ الاعتراض عليه، ولا التقديم بين يديه؛ وإنما تَعظُم الجهة بتعظيمِه سبحانه لها لا باستحقاق ذاتيٍّ يُميِّزها!

وإذا كان كذلك فإنه يهدي ما يشاء من عباده إلى الحق والصواب ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ويوفِّقهم بمنِّه وكرمه للمُختار لهم قبلة من دون سائر البقاع.

لمسة تربوية ودعوية

وفيه:

تعريضٌ بضلال أهل الكتاب، وبُعدهم عن محلِّ الهداية الربانية والدلالة الرحمانية.

(١٤٣) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ٨.



وفيه:

أن التوفيق إلى الحق والهدى محضُ تفضُّلٍ من الله تعالى على من يشاء من عباده، فإذا عرَف العبد ذلك انصرفتْ همته لطلب الهداية من الله، وعدَل عن تطلُّبها مِن سواه!

وفي الآية من الفوائد بالإضافة إلى ما مرَّ:

- أن السفهاء يتربصون بفرصةٍ يؤذون فيها هذا الدين وأهله، ويحاولون النيل في كل سانحة من مكانته في النفوس ببثِّ الأراجيف والتشكيك في المنهج، والواجب على المؤمنين أن يجابهوا ذلك بمزيد من الاستعصام واليقين بأن ما جاء عن الله تعالى هو الذي تحصل به الهداية، وأن سواه هو الضلال! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ {يونس ٣٢} ؟!
- أن الرد على هؤلاء السفهاء ينبغي أن يكون بأقطع الحجج لباطلهم وأوضحها؛ بعيداً عن عويص الاستدلال والحِجَاج الذي قد يخفى على السامع وجهُ دلالته؛ مما يوهم ضعف حجة المحقّ أو قيام شبهةٍ للباطل عليه!

ولإكمال الصورة في ذهن القارئ الكريم يحسن أن نضيف ما جاء في السنة عن موضوع تحويل القبلة، وأترك المقام للمفسر المحدِّث المؤرخ الإمام ابن كثير رحمه الله ليلخِّص لنا حاصل أحاديث الباب، يقول:

"وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ أحاديثُ كَثِيرَةٌ، وحاصلُ الْأَمْرِ: أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، فَتكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَعْبَةُ وَهُوَ مُسْتَقْبِلٌ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّر الجمعُ بَيْنَهُمَا، فَأَمَرَهُ اللهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ...، والْمَقْصُودُ أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ مَقْدِمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، فاستمرَّ الأمرُ عَلَى ذَلِكَ بِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُكْثِرُ الدعاءَ والابتهالَ أَنْ يُوَجَّه إِلَى الْكَعْبَةِ التِي هِيَ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيم عليه السَّلامُ، فأُجيبَ إلى ذلك، وأُمِرَ بالتوجّه إلى البيْتِ العَتِيقِ، فخَطَب



رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم النَّاسَ، وَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِك، وكان أَوَّلُ صَلَاةٍ صَلَاهَا إِلَيْهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الْبَرَاءِ"[١٤٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ جملةٌ معترضة بين قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴿١٤٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾، وهو خطاب لعموم الأمة بين خطابَين خاصَّين برسول الله صلى الله عليه وسلم، والجملةُ تأييدٌ وتأكيدٌ لمضمون آخِر الآية السابقة، فإن آخرها جاءت فيه الإشارة إلى مدح هذه الأمة: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ {يونس}، وأُكِّد ذلك وأُيِّد بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فموقع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إذاً: الربط بين الكلامين وذلك بتشبيه كونهم مهديين إلى القبلة المباركة والصراط المستقيم بجعلهم أمة وسطاً في كل أمورهم وما اختاره الله تعالى لهم وما التزموه من طاعته تعالى، فالكاف كاف التشبيه، واسم الإشارة (ذلك) ليعود على ما تضمنه قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ {يونس} من معنى الهداية، وما فيه من "البُعد" للإشارة إلى سموٍّ ورفعة ما ذُكر من نعمة الله بهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

و"الوسط" في الأصل: ما له طرفان متساويا القدر[١٤٥]، ولما كان وسط الشيء في المحسوسات مما لا تصل إليه إلا بعد اختراق ما يحيط به أُخذ فيه معنى الصيانة والعزة والخيرية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ {آل عمران ١١٠}، ويدل له: الحديث

---

(١٤٤) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٥٣.

(١٤٥) انظر: المفردات للراغب، ٨٦٩.





الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُدعَى نوحٌ يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل"[١٤٦].

قال الحافظ في الفتح: "قوله: "والوسط: العدل" هو مرفوع من نفس الخبر وليس بمُدرج من قول بعض الرواة كما وهم في بعضهم"[١٤٧].

واللفظان في تفسير "الوسط" في الآية متقاربان: الخيار والعدول، وإن كان الوقف عند اللفظ النبوي في التفسير هو القول.

تقعيد فكري

وهذه الآية تزكية من الله تعالى لهذه الأمة وشهادة منه على عدالتها في العموم، وهي مع عدالتها- على ما صرحت به الآية- لا تخرج عن كونها أمة بشرية يعتورها النقص والجهل والمعصية والانحراف في بعض أزمنتها، ويصدر عن أفرادها- وإن كانوا أفاضلها- بعض الأخطاء والهفوات، لكنها لا تجتمع على ضلال.

وهذا المعنى مهم في تقييم تاريخ الأمة ومسيرتها؛ ذلك أن كثيراً من المتحمسين- يتكئ على الحكم بعدالة الأمة بعموم- لتسويغ الأخطاء التاريخية المرتكَبة فيها، ويسعى إلى تبرئتها من كل تجاوز وغلط!

(١٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص٢١/ ح٤٤٨٧).

(١٤٧) فتح الباري لابن حجر، ٨/ ٢٢.



وليس هذا بصحيح؛ فإن كون الأمة محلَّ تعديل عام لا يقتضي عصمة أمرائها وأصحاب السلطة فيها في كل زمان ومكان وعلى كل صعيد؛ فكثير من الأخطاء السياسية والاجتماعية ارتُكبت فيها؛ بل وخرجت عن جادَّة الصواب فيها إلى جادّة أخرى متغلّبة وساد فيها هذا حيناً طويلاً من الزمان!

لا نتكلم هنا عن قضايا "الإجماع" بطبيعة الحال، وإنما عن السائد فيها وفي طريقتها حيناً لم يكن العلماء الربانيون فيه راضين عن المسلك أو لم يكونوا يستطيعون التغيير!

وآخرون من الشباب- من جهة أخرى- ينظرون إلى تلك الأخطاء المذكورة؛ فيقولون: أي عدالة بقيت بعدُ في الأمة؟ وأي تاريخٍ تاريخُها؟ وأيُّ مسلكٍ سياسيٍّ تميزت به عن سنة فارس والروم؟!

والحق أن الأخطاء التي نقرُّ بها وإن وقعت لا ينبغي أن تُلغي النظرة الكلية للمشهد العام، ذلك أن تسليط الضوء على الأخطاء ثم تقييم دور الأمة الحضاري من خلالها ظلم لها وحكم ناقص؛ ذلك أنه لم يستوف معطيات الصورة كاملة، فما أضافته الأمة إلى البشرية كان مشهوداً، وعند مقارنة أخطائها مع أخطاء غيرها من الأمم الأخرى يتبدَّى لك أثر منهجها الأصيل فيها؛ وإن انحرفت عنه وخرجت عن الالتزام بآدابه!

وقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بيانٌ لعلَّة الصناعة الربانية لهذه الأمة، والغاية الكبرى من وجودها الحضاري بين الأمم: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

عود إلى الوحدة الموضوعية في السورة: الأمة المستخلفة.

وهذا النص من الآية يعود بنا إلى ما قررناه في موضوع سورة البقرة؛ من كونها السورة التي صنعت الأمة الشاهدة على الأمم بالمعنى الذي جاءت به الأحاديث- وهو المعنى المسلَّم به- وبمعنى آخر، هو الشهود الحضاري والقيادة "الأممية" للبشر على الأرض، وهو الذي يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فالمعروف والمنكر هنا- وإن كانا



يَعُمّانِ كلَّ معروف ومنكر - فإنه يعني أولاً: المعروف الدوليَّ والمنكرَ الدولي الذي جاءت هذه الأمة الرائدة القائدة لتقرَّه منهجاً تنضبط به العلاقات بين الأمم؛ فلا ظلم ولا تنمُّر ولا غصب ولا إكراه، ولا سلبَ ثرواتٍ ولا سطواً على العقول والإرادات!

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ في الدنيا وفي الآخرة، ويمكن فهمها بأن شهادته على الأمة في الدنيا بشهادته على معاصريه، وشهادةِ شرعه على الذين أتوا من بعده؛ إما بوفائهم لِمَا أوجبه عليهم شرعه، وإما بعكس ذلك[١٤٨].

وفي الآخرة بشهادته على ما شهدت الأمة فيه على الأمم، وبما روي من قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا لَيُذادَنَّ رِجالٌ عن حَوْضِي كما يُذادُ البَعِيرُ الضَّالُّ أُنادِيهِمْ ألا هَلُمَّ فيُقالُ: إنَّهُمْ قدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فأقُولُ سُحْقًا سُحْقًا. وفي رواية: فَلَيُذادَنَّ رِجالٌ عن حَوْضِي .."[١٤٩].

والربط بين الجملتين: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ مُوحٍ بارتباط الشهادتين، وأن قيامهم في محل الشهادة على الأمم متعلق المشروط بشرطه بشهادة الرسول عليهم وقيامهم بحقوق تلك الشهادة.

من لطائف تعدية فعل الشهادة بـ ﴿عَلَى﴾ مع أن الشهادةِ قد تكون (لـ) أو على الناس، و"لنا" أو "علينا" ليُضمّن فعل الشهادة معنى "الرقابة"، فالأمة قد أنيطَ بها دورُ الرَّقابة على الأمم في الأرض، ودور الرسول زائد كذلك على الشهادة، وإنما هو الرقابة بما تتضمنه من معان، وهو أعلى من الشهادة المجردة إذا تأملت.

ثم عود إلى قضية السياق الأساسية وهي: تحويل القبلة:

۞ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١٤٨) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ٢١.

(١٤٩) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٢١٨/ ح٢٤٩).





والمعنى - على ما نرى -: أن أصل أمرك: أن تستقبل الكعبة - كما هو الآن -، وما جعلنا قبلتك بيتَ المقدس فيما كان قبل النسخ لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي في ذلك الزمان ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ ويغادر ما اعتاد عليه مما ألفه من تعظيم بيت إبراهيم فحسب، ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي يرتد عن دين الإسلام فلا يتبعك في قبلته إلْفاً لقبلة آبائه، هذا وجه، أو نقول:

ما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم الآن بعد التحويل إلى الكعبة من يتبعك حينئذ ممن لا يتبعك؛ كبعض أهل الكتاب الذين ارتدوا لما تحولت القبلة[١٥٠]!

ذلك أن أهل الكتاب استشعروا قرب الإسلام ودعوتِه منهم لما كان المسلمون يستقبلون بيت المقدس، فلما حُوِّلت القبلة إلى الكعبة نَكَصوا وظهر نفاقهم وبَطَلَ إيمانُهم المتخلخل.

فبهذين الوجهين ظهر كيف كان تحويل القبلة علة ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، والعلم هنا ليس بمعنى طروء شيء من العلم لم يكن معلوماً - حاشا -، وإنما بمعنى: العلم بحصوله واقعاً، بعد العلم بأنه سيقع منذ الأزل، وهكذا كل المواضع المشابهة.

الالتفات

والتعبير بعنوان الرسولية عن النبي صلى الله عليه وسلم على نهج الالتفات ؛ إذ إن الآية بدأت بخطابه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ ثم عبَّرت عنه على طريقة الغائب بعنوان: الرسولية: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ للإشارة إلى علة الاتباع، وهو كونه رسولاً من عند الله، وطاعةُ الرسول طاعةٌ للمرسِل.

(١٥٠) انظر للوجهين: روح المعاني، ٢/ ٥٥٣.





والأعقاب في قوله: ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: مفردهُ: عقب، وهو مؤخر الرجل: والتركيب كنايةٌ عن الرجوع عن الحق والارتداد عن الدين، وهي كناية ترسم صورة الراجع عن الحق إلى الباطل في شخص ينقلب إلى الخلف حيث عقبيه، على طريقة "التصوير الفني" التي عالجها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه المشهور: "التصوير الفني في القرآن الكريم".

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

التصوير الفني في القرآن

"إن" هذه المخففة من الثقيلة، فهي هنا للتوكيد، والكلام عن مذكور في السياق السابق؛ يقدر بـ: الجعلة أو التولية أو الرَّدَّة أو التحويلة أو القبلة.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ بيان لكون مثل هذه الحادثة كبيرة وشاقة على كل أحد إلا على مَن اعتمر قلبُه بهداية الله وامتلأ رضىً بالتسليم له في أحكامه.

والفعل ﴿هَدَى﴾ يجوز أن نعدَّه متعدياً- كما هو الأصل- فنقدِّر: إلا الذين هداهم الله إلى سرّ الأحكام الشرعية وإلى حكمة الله فيها"[١٥١]، ويجوز أن ننزله منزلة اللازم، فيكون التقدير: إلا على المهديِّين، الذين قرَّ الإيمان في قلوبهم، فهم ثابتون على الطاعة والاتباع.

ولسائل أن يسأل: ما وجه كون تحويل القبلة قد وُصف بأنه كبير وشاقٌّ إلا على الذين هدى الله؟!

مرَّ بنا أن المقصود بـ "القبلة التي كنت عليها" بيتُ المقدس، وإنما جعلها الله قبلة ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، ذلك أن العرب كانت تعظِّم بيت الله الحرام، "ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام

(١٥١) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ٩٢.





قد تلبست به نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة... إذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس، واللهُ يريد أن يكون "بيت الله المقدس"؛ لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره، ولا يلتبس بِسِمَةٍ أخرى غير سمته"، لما كان ذلك أراد الله تعالى بجعل قبلتهم بيت المقدس: "ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول صلى الله عليه وسلم ثانياً، ويفرز الذين اتبعوه لأنه رسول الله، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة؛ فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة"[١٥٢].

النهج التربوي

عودة أخرى إلى الوحدة الموضوعية للسورة

"من هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة ، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلَفة في الأرض تحت راية العقيدة، إنه يريد لها أن تخلص له، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة، ومن كل رغائبها الدفينة، وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده؛ لا يلتبس به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه؛ لا يشاركه مصدر آخر"[١٥٣].

"فإذا كان الهدى؛ فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب، وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع، حيثما وجهها الله تتجه، وحيثما قادها رسول الله تنقاد"[١٥٤].

(١٥٢) في ظلال القرآن، ١/ ١٣٢.

(١٥٣) في ظلال القرآن، ١/ ١٣٢.

(١٥٤) في ظلال القرآن، ١/ ١٣٣.





وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، فقد روى البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب ما يبين معناه من سبب النزول: "مات على القبلة قبل أن تحوَّل رجال، وقُتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾"[155].

المجاز المرسل وعلاقته الكلية

وقد رُويَ لنا عن السلف رضوان الله عليهم الكثير من الروايات التي يفسرون فيها الإيمان في الآية بالصلاة[156]، كما هو ظاهر الرواية الصحيحة المذكورة، وإذا كان كذلك فتكون تسمية الصلاة إيماناً على سبيل "المجاز المرسل "، وعلاقته الكلية؛ ذكر الكلّ؛ وهو الإيمان، وأراد الجزء؛ وهو الصلاة، وهذا دالٌّ على مذهب أهل السنة في كون "العمل" من الإيمان.

وفيه من الفوائد:

أن الإنسان مكلَّف بما أوجبه الله عليه في حاله، فإنْ نُسِخ الحكمُ ثبت أجر عمله به قبل نسخه، ويقاس عليه: تغير الأحكام بتغير الظروف والأعراف، فالإنسان مكلف في لحظته بحكم الشارع المناسب له، وثابت هذا في حقه- أجراً ووزراً-، فإن تغير الحكم لم يؤثر تغيره على ما علِقَ بالمكلف من أجر ووزر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل جرى مُجرى التعليل لنفيِ إضاعته إيمانَهم، وقد اختلفوا في التفريق بين الرأفة والرحمة، والمشهور: أن الرأفة أرقُّ الرحمة، والله أعلم.

---

(١٥٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ج١/ ص١٧/ ح٤٠).

(١٥٦) انظر: تفسير الطبري، ٢/ ٢٣ وما بعدها.





﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

في هذه الآية وما بعدها إلى نهاية المقطع: إعلانُ تحويل القبلة بشكل حاسم بعدما تقدم من التمهيد لذلك، وإعلان استجابة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم معالجة الشبهات التي يوشك أهل الكتاب أن يبثُّوها اغتياظاً من تحويل القبلة، واستغلالاً لفرصة تحويلها لبثِّ الأراجيف حول العقيدة أو حول القيادة النبوية أو حول كليهما!

و﴿قَدْ﴾ التي صُدِّرت بها الآية تدلُّ على التحقيق- كما هي في كل مواطن ورودها في القرآن، لا على التشكيك، ودخولُها على الفعل المضارع يقلب معناه ماضياً.

وتقلُّب وجهِ النبي صلى الله عليه وسلم في السماء معناه: ترقُّب الأمر بتحويل القبلة، وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحوِّل وجهَه في السماء من جهة إلى أخرى- على الحقيقة- انتظاراً للوحي أم أن التقلب كناية عن الترقب والرغبة والانتظار؟

تطبيق أصولي / أصول التفسير

كلاهما محتمل، وإن كان الحمل على الحقيقة أولى؛ لِمَا قد علمتَ من أن الأصل في الكلام الحقيقة حتى تدل قرينة على إرادة المجاز.

وهل رافق هذا سؤالٌ ودعاءٌ بتحويل القبلة أم هو مجرد رغبة وترقب؟

كلاهما محتمل كذلك، وإن كان الظاهر يدل على أنه مجرد رغبة وترقب من دون سؤال، فإن كان كذلك؛ فإنه يدل "على كمال أدبه صلى الله عليه وسلم"[١٥٧]، كما كان سؤال أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ

(١٥٧) روح المعاني، ٢/ ٥٥٦.





﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣﴾ {الأنبياء ٨٣} بل هو من فعل نبينا صلى الله عليه وسلم أبلغُ في الاستحياء وأكملُ في الأدب؛ فإنه خلا عن اللفظ أصلاً.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ الفاء لسببية ما قبلها لما بعدها، فجاءت الإجابة الربانية للرغبة النبوية، والرغبةُ النبوية لا شكَّ أنها كانت مبنيةً على مصلحة دينية وسياسية متعلقة بمعطيات الظرف الجديد في المدينة المنورة، وتقرير ذلك:

لمسة حركية

أن اليهود كانوا يتعالون على المسلمين ويتعالمون عليهم لما كان المسلمون يتبعون القبلة التي يعظمها اليهود، وكانوا يقولون: "يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا"[١٥٨]، فكان في التحول عنها إلى المسجد الحرام نزعٌ لرداء الأستاذية الذي كان اليهود يرتدونه في المدينة، وإيذانٌ باستقلالية هذا الدين وتميز شخصيته وإلغاء ما يوهم تبعيَّته لأي أمة سابقة ادَّعتْ تبعية الإسلام لها أو تفرعه عنها!

الذي أحسبه أن هذا هو السبب الذي لأجله رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وهو سبب- كما رأيتَ- سياسي؛ يتعلق بتحقيق ما مضت الإشارة إليه من الأهداف، وكذلك؛ إنه لا شك في كون بيت إبراهيم مكاناً ذا تعظيم خاص؛ لمكانة إبراهيم نفسه، ولعلاقة هذه الأمة به وبدعوته.

مخالفة اليهود مقصد قرآني ونبوي

تقعيد عقدي ولمسة حركية

استقلالية هذه الأمة ونضوج شخصيتها كأمة متفردة وكيان مستقلٍّ يَحمِلُ عبءَ الرسالة وتكاليفَ تأديتها اقتضى مخالفة أهل الكتاب؛

(١٥٨) انظر: تفسير الطبري، ٢/ ٢٧.





وخصوصاً اليهود منهم، وتكاثرت النصوص الشرعية في تأكيد هذا المعنى الذي بات من مقاصد الشريعة، وخصه بالتأليف الشيخ الإمام أحمد بن تيمية في كتاب ماتع مفيد: "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم"، حيث يتأكد لمُطالع لتلك النصوص الكثيرة أن مخالفة أهل الكتاب أصل من أصول الإسلام؛ لتحصيل استقلاليةٍ فردانيةٍ لهذه الأمة، غيرِ تابعة لمنهاج أهل الكتاب؛ كما كان اليهود يحاولون الترويج وما يزالون، وكثير من المستشرقين يحاولون ذلك ويبثونه!

وتحويل القبلة عن بيت المقدس إنما جاء في هذا السياق الخطير لتجريد اليهود من ثوب التباهي بالأستاذية، ولزرع قيمة "الاستقلالية" في قلوب أبناء الأمة.

استطراد قصير في قضية الأمة وهمها الكبير وجرحها النازف، وعلاقته بسورة البقرة

بيت المقدس بقي حاضراً في قلوب المسلمين

استقبل المسلمون بيت المقدس طويلاً مع انبلاج فجر هذه الدعوة المباركة، وصلُّوا باتجاهه أول ما عرفوا الصلاة- على الراجح -، وترَك هذا في قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيماً لبيت المقدس قبلتِهم الأولى، وتتالتْ مقتضِيات التعظيم من حوادث السيرة ونصوص الشرع، ووُصفَ بيت المقدس بالبركة في آيات، وأُقسِمَ به في أخرى، وذُكِرَ في القرآن قصص رواد الدعوة من الأنبياء الذين كان بيت المقدس منزلهم وساحة أحداث قصصهم الجغرافية، وجاء في الأحاديث كذلك من دواعي التعظيم ما عزز مكانة بيت المقدس في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم.

وصار تعظيم بيت المقدس جزءاً من عقيدة المسلمين، ومقتضى الإيمان: تعظيم ما عظَّمه الله؛ فتعظيم ما عظم طاعةٌ وإيمان.



ويشاء الله أن يكون هذا البيت موطناً للنزاع بين الحق والباطل، ومحلاً لتصارعِ الأممِ للسيطرة عليه؛ يورِّثه الله الصالحين من عبادهِ؛ أولئك أتباع محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء ١٠٥].

ويشاء الله أن يتسلط اليهود في هذا العصر على قبلة المسلمين الأولى، ومسرى نبيهم صلى الله عليه وسلم، وتحتدم المعركة فيه بين الحق والباطل، الحق في الأرض كلها والباطل في الأرض كلها، ويصطفي الله من عباده الصالحين مَن يُواجه مشروع الباطل في الأرض؛ الذي يمثله اليهود المحتلون لبيت المقدس!

علاقة سورة البقرة بتربية الفاتحين القادمين

وسورةُ البقرة لها موضع كبير في صدور الفاتحين القادمين؛ ذلك أنها السورة الخافضة لبني إسرائيل، النازعة لراية الاستخلاف من أيديهم، والسورةُ الصانعة لهذه الأمة، المؤهلة لها للقيام إلى قيام الساعة بمهمة الاستخلاف في الأرض، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم، وأنا أوصي إخواني ممن يقومون على ثغر الدفاع عن الأقصى ومواجهة اليهود أن يخصوا هذه السورة بالنظر والدرس والعلم والعمل، والله الموفق.

قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، لمّا وعده بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أوفى له بها وعده، فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وهذا هو الأمر المباشر باستقبال المسجد الحرام، الناسخ لما كان قد ثبت في السنة من استقبال بيت المقدس، وكل ما سبق كان تهيئة وتمهيداً له.



ملمح أصولي

....
....
....

وهذا مثال على مسألة من مسائل الأصول، وهي نسخ السنة بالقرآن، فقد استقبل المسلمون بيت المقدس بالسنة، ولم ينزل بأمرهم بذلك قرآن، أما نسخ استقبالهم بيت المقدس فقد جاء بالقرآن كما ترى، فكان مثالاً على ما سماه الأصوليون: "نسخ السنة بالقرآن".

و﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: جهته أو تلقاءه، والمقصود بالمسجد الحرام: الكعبة المشرفة، والواجب على من حضرها: استقبال عينها، وعلى من غاب عنها: استقبال جهتها، كما يؤذن به ظاهر الآية، وليس الحكم مختصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا هو مختصٌّ كذلك بالمدينة المنورة، بل هو عامٌّ في المسلمين، عامٌّ في الأمكنة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

ولما أمره بذلك أَعلمَ بأن هذا التحويل هو المعلوم لدى أهل الكتاب أنه الحق برغم تشغيبهم الكثير: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ولعل التعبير عنهم بـ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في هذا السياق مؤذن بأن علمَهم بأنه الحق متعلّق بالكتاب الذي أوتوه، وفيه إشارة إلى أن ما جرى للمسلمين من تحويل القبلة أو استقبال القبلتين كان معلوماً لدى أهل الكتاب من صفة الدين الجديد والنبي الجديد.

وفي هذا نعيٌ شديد على الذين أوتوا الكتاب وتأنيب وتثريب، ووجهه: أنهم مع علمهم أنه الحق من ربهم- ولاحِظْ وصف الحق بأنه ربهم لا من سواه؛ لا من محمد صلى الله عليه وسلم ولا من غيره-، مع علمهم بذلك آثروا التشغيب والمعاندة، ولأجل هذا قال في تذييل الآية: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وفيه من التهديد لهم وإيعادهم ما لا يخفى.



وتوبع النعيُ عليهم في الآيات الآتية:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وهذه الآية تأكيد لما أشير إليه في الآية السالفة من عناد أهل الكتاب، وقصدهم إلى مقاومة الحق الذي يعرفونه- كما سيأتي-، والمقصودُ من استحضار هذا المعنى هنا؛ دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين إلى عدم الاكتراث بهم لما أنهم على هذه الحال من مجانبة الاتباع للهدى والانقياد إلى الحق، كما قال في سلفهم من قبل: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ {الأعراف ﴿١٤٦﴾}.

واتباعُ القبلة في الآية يتضمَّن معناه: اتباعَ الدين؛ بما فيه من قبلة، والآية فيها بيان شدة تصلُّبهم في الهوى وتمسُّكهم بما عندهم من الضلالة؛ التي اضطرتهم إلى التشبُّث بما عندهم مهما كان موقعه من الحق والباطل: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فالأمر ليس إذاً أمر تصديق وتكذيب، ولا قناعة وعدمها، وإنما هو مجرد هوىً وتعصب أعمى، ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ بيان لثباته صلى الله عليه وسلم على الحق وتمسكه به، ومواجهة ضلالهم بحقه، وثباتهم على الباطل برسوخه في الحق.

لمسة تربوية وتقعيد فكري وعقدي

وكذا يجب أن يكون المسلم في مواجهة الكفر؛ ثَابتاً وراسخاً كرسوخ الجبال الراسيات مستمسكاً بدعوته، مستعصماً بثوابت دينه.. وكم عانت الدعوات من ضعف أهل الحق في مواجهة جلدِ أهل الباطل!





وذلك من جراء "مياعة" بعضهم في مواجهة صلابة الخصوم! ومِن تنازل الكثيرين عن الثوابت في مواجهة تعصب الذين كفروا لمذاهبهم وأفكارهم!

﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ لستَ أقل ثباتاً على دينك ومنهجك منهم على أهواءهم واختياراتهم! ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: إيغالٌ في لفت اهتمامه صلى الله عليه وسلم عنهم بإعلامه أنهم شديدو التعصب في مقابل غيرهم بغضِّ النظر عن الذي يحمله أو يدعو إليه، فإذا كان هذا خُلُقَهم فحريٌّ إذاً أن لا تكترث بمخالفتهم، وأن لا تقيم لها وزناً البتة!

ثم تابع خطابَ رسوله صلى الله عليه وسلم بما من شأنه تثبيت قلبه وشد أزره على ما جاءه من العلم: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ هكذا: أهواءهم، وليست أديانهم مثلاً، فإن ما نطقوا به وإن ألبسوه رداء الدين: لا يعدو أن يكون مجرد هوىً، وفي استعمال صيغة الجمع إيذان بأن اتباعهم على تعدد تلك الأهواء: ما هو إلا ضربٌ من الخيال المتوهمَّ والسراب الكذوب! فإنك إن اتبعت هوىً منها غضب عليك الآخرون؛ حتى تكون من الخاسرين- حاشا رسول الله-!

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الشافي الكافي الذي تقنع به العقول وتطمئن به النفوس: ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ إذا فعلت ذلك: ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الأمور في غير موضعها، ويظلمون أنفسهم بإيرادها المخاسر والمهالك!

وأيّ مسلمٍ يليق به وقد جاءه العلم من مصدره الرباني أن يترك ما جاءه من العلم والوحي؛ ويتنازل للباطل ويداهنه؟! ومثل هذا الخطاب الحاسم: إن وُجِّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فغيره أولى به؛ لما أنه عُرضة له، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك عرضة له، إلا أنه الخطاب الحاسم الذي لا يداهن في أمر العقيدة والمنهج!





﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

يرجُحُ لدي أن يكون: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بدلاً: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في الآية السابقة، وهو الذي يحسن معه النظم، وهو زيادة تثريب وتشنيع وتشديد! ذلك أنه وصفهم بأنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم؛ ومع ذلك كان منهم ما كان، وما يكون اليوم وغداً! يعرفون نعتَه وخبرَه وصدقه؛ ومنه أنه يستقبل القبلتين؛ كما يعرفون أبناءهم فلا يشتبهون بهم! وكيف يشتبه الأب بابنه ولا يعرفه من بين آخرين؟!

أهل الكتاب: لم يشتبه عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم البتة، ولا داخَلَهم شك في ذلك! والتعبير عنهم بـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ منبئٌ بمصدر المعرفة الموثوق عندهم، المصدر الذي انبنت عليه عقيدتهم وتميزت به طائفتهم: الكتاب الذي أوتوه! وهم مع كل هذا اليقين "البارد" ما كان من أكثرهم إلا أنهم كفروا وأعرضوا واختاروا الانحياز إلى الشيطان في مواجهة الله ورسله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وما ألذَّ موضع التأكيد في صدارة الجملة الأخيرة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ذلك أنه بعد أن أعلم بعُمقِ معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدرجة التي لا يداخِلُهم فيها أدنى الشكوك ولا أدقُّ الشُّبَهِ صار من المستبعد أن يقف أحدهم في مواجهة من أيقن أنه رسول من عند الله مبشَّرٌ به؛ فأراد أن يؤكِّد للسامع- بتنزيله منزلة المنكر والمستبعد- أن ﴿فَرِيقًا﴾ عظيماً كبيراً منهم- والتنوين للتعظيم- ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فما أقبحه حالاً، وما أدناها منزلة، وما أشقاه موقفاً!





❖ ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يترجّح لدَيَّ أن ﴿الْحَقُّ﴾ مبتدأ، وخبره المتعلق بـ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فالتقدير: الحق كائن من ربك أو ما أشبه، ووجه تقوية هذا الوجه من الإعراب: بلاغةُ المعنى المترتب عليه المتسق مع السياق؛ وبيانه:

أن ما ذُكر من تشغيبات أهل الكتاب إنما هو محض هوى، وقد أمره بعدم الالتفات إليها: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وفي هذه الآية بيّن له الحق، وأنّه ليس إلا الكائنَ من ربك، النازلَ عليك في الوحي الذي أوحي إليك.

فـ ﴿مِنَ﴾ للابتداء، والتعبير بالربوبية يوحي بمعاني التربية والتعاهد والإرشاد والهداية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، بعد أن بين له "المصدر الوحيد" للحق؛ رتب عليه- فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها- نهيَه صلّى الله عليه وسلم أن يكون من الممترين.

و"المرية": التردد في الأمر، وهو أخصُّ من الشك، وأصله من: مَرَيت الناقة: إذا مسحت ضرعها للحلب[١٥٩].

وفي الآية:

"تحذير الأمة عن طريق تحذير النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم؛ ليكون خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب؛ وهو أقـرب الخلق إلى الله تعالى وأولاهم بكرامته؛ دليلاً على أن من وقع في مثل ذلك من الأمة فقد حقت عليه كلمة العذاب، وليس له من النجاة باب"[١٦٠].

---

(١٥٩) مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، ٧٦٦.

(١٦٠) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ٤١.





﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

هذا تذييل لما سبقه، كأنه طيٌّ للجدل معهم باعتبار أنه لا نتيجة له كما صرحت الآية السابقة، فكأنه قال: إن كان الأمر على ما ذكرنا من ثبات كلٍّ على قبلته ومذهبه؛ فاطوِ الجدال معهم فإن لكل أمةٍ وجهة تستقبلها وتذهب فيها!

والتنوين في ﴿وَلِكُلٍّ﴾ تنوين عِوَض، والمعوَّض عنه هنا: "فريق": "ولكلِّ فريق وجهة"، والمقصود بالفريق: الأمة إذ الكلام عن الأمم والخلاف بينها على القبلة.

و"الوِجهة" المكان الذي يُتوجَّه إليه، ويُستقبل بالوجوه، ومعناه هنا يحتمل:

- الوجهة الحقيقية، وهي القبلة، فيصير المعنى: لكل أمة قبلة خاصة.
- الوجهة المجازية، وهي المنهج والمقصد فيصير المعنى: لكل أمة منهج ومقصد مختلف عن غيرها.

التعبير بالاسم

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ «هو» تعود على الفريق من تلك الأمم المتخالفة، و"موليها" يعني: مستقبلها، والتعبير بالاسم دون الفعل للدلالة على الثبات والاستقرار؛ كما هو معروف من دلالة التعبير بالاسم، ففيه إشارة إلى ما يَعضُد المعنى السابق من تمسُّك كلٍّ بوجهته ومنهجه ومعتقده أو هواه!

فإذا كان الأمر كذلك؛ فلا داعي للاستغراق فيما لا ينفع من الجدل، فإنه في مثل هذه الأحوال: مراء لا طائل فيه ولا فائدة مرجوةً منه، والعاقل لا يبذل وقته في مثله بل يُسارع إلى المغنم من العمل المفيد: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.





لمسة تربوية

والاستباق: افتعال من السبق، والصيغة البنائية فيها معنى: التكلُّف والحرص.

والمؤمن العاقل مَن إذا رأى طريقاً ما مسدوداً من طرق الدعوة انصرف عنه إلى ما يؤمِّل خيره ويرجو نفعه، وإذا لَحَظ الأهواءَ تُلوِّن المشهد وتحكم العلاقة فليترك ما يعتقده بات صراعَ أهواء ومنافسة باطلة، وليُسابق إلى ما يعلمه من الخيرات، وما أوسع أبوابها وما أوفرها لباحث عن الحق!

وقد سجَّلتُ خاطرة- قبل أيام من كتابتي هذه الكلمات- على وسائل التواصل الاجتماعي تحاكي هذا المعنى، وليأذن لي القاريء بنقلها لموافقتها لمعنى الآية:

"إذا رأيت هوىً متبعاً، وشُحاً مطاعاً، وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيه: فعضَّ على شجرة صفائك وتشبث بأصلها.. وابحث عن مساحة؛ لم تصل إليها الأهواء، ولم يملأها الشح، ولم يفسدها التنازع!

اشتغل فيها برفق؛ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

واحرص على أن تلقى الله قائماً على ثغرك مؤدياً أمانتك..".

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ موحٍ كذلك بجدِّية المسلم وتوازنه بين العمل الفكري والجدل التنظيري وبين العمل الحركي والإنجاز الميداني؛ لا يتغوَّل أحدهما على الآخر!

لمسة تربوية

فبعد أن أخذ الموضوع حقَّه من الجدل التنظيري مع أهل الكتاب أمر المسلمين بترك فضول ذلك والتوجه للمفيد من الأعمال والتسابق إلى الخيرات، وتحقيق الإنجازات؛ التي قد تضيع نتيجة الاستغراق النظري الزائد عن اللازم!





أُتْبع هذا الأمرُ ببيان علته: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾، لا وقت يبذلُه المؤمنُ من غير فائدة تعود عليه في الدنيا وفي الآخرة، فاستباق الخيرات وراءه حقيقة راسخة في ذهن المؤمن لا ينساها: أنه قادم على الله تعالى، هذه الحقيقة التي تحفزه لاستباق الخيرات، وهي الحقيقة التي تطمئن قلبه وتسكِّن ثائرته وهو يرى الضالين مصرّين على ضلالهم وهم يعلمون الحق، ويرى أمامه الانقضاض على أمانة العلم بتزويره ومعاندته: أين سيذهب أولئك المجرمون المزوِّرون؟ لا سبيل للإكراه على الإيمان، ولا إلى الإلزام بالعقيدة بعد أن استُفرغ الجدل وأُقيم البرهان وأُحكمت الحجة، وليست هذه الدار إلا دار ابتلاء وامتحان، والحسم والفصل إنما هو بين يدي الله الذي لا يعجزه الإتيان بكلّ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيفصل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون! لا غرو ولا عجب: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾!

❖ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

تأمر الآية باستقبال القبلة ولو في السفر؛ تخصيصه بالذكر لكونه الحالَ التي يُظن فيها التخفيف والتهاون، فجاء الأمر باستقبال الكعبة في السفر بعد الأمر به عموماً.

أُتبع ذلك بتأكد كون هذا الأمر: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، و"من" ابتدائية، والتعبير بالربوبية موحٍ بمعاني السيادة والتربية، فالأمر إنما هو من مالك الأمر والنهي سبحانه، وما دام كذلك فإن كلَّ قلبٍ حقيقٌ بأن يستقبل أمر الله تعالى بالانقياد والقبول والرضى!

ولا يتساهلنَّ أحد فيه بعد ذلك؛ لا فيما ظهر من الأعمال ولا فيما خفي منها: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

❖ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.





أعاد الألفاظ المستعملة في الآيات السابقة من الأمر بتولية الوجوه تلقاء المسجد الحرام لتعلقها بالتعليل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، مع زيادة تحقيق الأمر في قلوب المسلمين؛ فإن الأمر إذا كان مثاراً للحديث والطعن حسُن فيه التأكيد والتثبيت، مع العناية بأن كل موضع من مواضع الأمر باستقبال المسجد الحرام جاء معه ما يفيد فائدة جديدة تخرجه عن حدِّ التكرار، فالتكرار: الإعادة من غير فائدة جديدة، وليس كذلك هنا، فتنبه.

فالأمر الأول: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ابتداءُ أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين باستقبال المسجد الحرام، **والأمر الثاني:** ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لبيان كونه مأموراً به في السفر كما أنه مأمور به في الحضر، والأمر الثالث الوارد في الآية: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أُعيد لبيان علَّته، وعلتُه- كما صرحت الآية-: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ تكمن في ثلاثة فوائد عريضة:

• **الفائدة الأولى:** ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وبيانها:

إسقاط حجة الناس عليكم وشبههِم حول قبلتكم؛ من حيث: سقوط احتجاج اليهود عليهم بأن قبلة الرسول المنتظر: بيت الله الحرام لا بيت المقدس، أو ادّعاءُ اليهود تبعية الإسلام لدينهم وتسربلهم بزيِّ الأستاذية على المسلمين أو غير ذلك، ومن حيث إسقاط احتجاج المشركين من العرب على المسلمين في قولهم: إن محمداً يدّعي أنه على دين إبراهيم عليهما السلام ويعدل عن قبلته! أو غير ذلك.

فالحاصل:

أن جزءاً من هذه "الحجج" قد سقط باستقبال المسلمين بيت الله الحرام.



و"الحجة" هنا بمعنى: ما يشبه الحجة من الشبهات، وإن لم تكن حججاً في الحقيقة، ولذلك لا داعي للحيرة في الاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فهؤلاء يتشبثون بحججهم الساقطة ولا يخجلهم تداولها برغم ظهور إسفافهم فيها وتحاملهم في ادعائها! والتعبير عنهم بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقوّي هذا الذي ذكرته.

لمسة تربوية

ورتَّبَ من بعدُ نهيَ المسلمين عن خشية أولئك الظالمين وأَمْرَهم بخشية من يستحق الخشية سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ {الأحزاب ٣٧}!

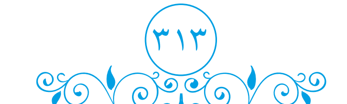
تقعيد فكري

وكذا هو حال المؤمنين عند الاحتدام على حرب الشريعة: لا يرهبون سطوة الناس ولا ألسنتهم ولا يقيمون وزناً لباطلهم: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ {الأعراف ٢}! فالمؤمنون يواجهون العالم بهذه الشريعة ويقيمون وزناً لهذا الدين ويقدرون الله حق قدره سبحانه وتعالى! فلا تزجُرُهم خشية الباطل ولا يسحرهم بريقُه عند البوح بالحق والصدع بمقتضى الإيمان والشريعة.

وكم هم "المنتسبون" للشريعة ممن أرهبهم سلطان موجة الباطل في ارتفاعها وسرعتها وهيجانها؛ حتى وقعوا أمامها صرعى غارقين دون التمسك بثوابت الدين وأركان الشريعة!

• **أما الفائدة الثانية لتحويل القبلة**: فهي أن الله يريد أن يتم نعمته على هذه الأمة، باستكمال شرائعها وإتمام التنزيل عليها، وبصناعة شخصيَّتها المستقلة بين الأمم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وبغير ذلك من المعاني التي تتدفّقُ فور التأمل؛ فلا تبخل على نفسك بمزيد منه!

• **والفائدة الثالثة**: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ للقبلة الفُضلى وللشريعة الحسنى وللوسطية بين الأمم.





فلله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الجواد الكريم.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

هذا أوان انقطاع الحديث حول استقبال القبلة، وما أروعها من خاتمة!

انتهى زخم الحِجاج، وهدأت سيوفُ الفكر، واطمأنَّت الأذهان وسكنت القلوب للحق الأبلج الذي جاءت به الآيات السابقة؛ فلْيمتنَّ اللهُ المجيد على المؤمنين به وبرسوله وبشريعته، ولْيذكِّرهم بأن الهداية في هذا الموطن ليست أول فضائله عليهم ولا أكبر مننه ولا أكرم أُعْطِياتِه!

فما الهداية إلى هذه القبلة الفضلى والشريعة العظيمة إلا كمثل ما هداهم به من قبل من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، وما تلا إرساله من نِعَم؛ كلٌّ منها حقيق بالاستقلال في الذكر والتمنُّن، وحقيق بالحمد والشكر:

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، نعمٌ تقدِّرها القلوب الحية المستيقظة وتعرف أقدارها، وقد عرضنا لها من قبل في سياق آخر من السورة؛ إلا أنني أعيد التعليق عليها بالجديد المناسب للسياق:

١. ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾:

هي النعمة الأولى المنضوية تحت النعمة الكبرى: "إرسال الرسول" صلى الله عليه وسلم، وهي من جانب آخر الوظيفة النبوية الأولى: تلاوة القرآن على المؤمنين، بمعنى: قراءته عليهم، وإنارة بصائرهم بحكمه الجليلة، واللفظ متضمن لتبليغ القرآن لهم، إذ لو لم يبلِّغه ما تلاه!

والتعبير بالمضارع لإفادة التجدُّد والحدوث المُشْعِر بأن التلاوة كانت من مهام رسول الله صلى الله عليه وسلم الدائمة، وفي إضافة الآيات إلى الضمير العائد على الله تعالى تشريف لها، وزيادة امتنان بتلاوتها عليهم.



٢. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾:

من الزكاة وهي في الأصل: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، وتزكية النفس تنميتها بالخيرات والبركات، وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة[١٦١].

ومن الملاحظات السياقية في القرآن أن:

الزكاة قد تُنسب إلى العبد لكونه مكتسباً لها، نحو: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ {الشمس}، وقد تنسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة؛ نحو: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ {النساء ۝٤٩}.

وتارة تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم[١٦٢]، ولكونه المباشر لتربيتهم والتأثير فيهم، وإنما يكون تأثيره فيهم صلى الله عليه وسلم بهديه وسمته، وبأقواله وأفعاله، وحسن سيرته وكمال خُلُقه.

٣. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

هذه النعمة التفصيلية الثالثة والوظيفة النبوية الثالثة: التعليم، وانصبَّ التعليم في الآية على "الكتاب والحكمة"، أما الكتاب فهو القرآن، وتعليمهم القرآن:

تفهيمهم معاني آياته، ودلالتهم على التفكر فيه لاستنباط فوائده وكشف أسراره، والامتلاء من حكمه وأخلاقه، ومعرفة تشريعاته وأحكامه.

وقد فسّرت "الحكمة" بالسّنة، كما قال الطبري رحمه الله: "ويعني بالحكمة: السُّنة والفقه في الدين"[١٦٣]، وأصل "الحكمة": من حكَم، بمعنى: منع، ومنه: الحَكَمَة: وهي اللجام الذي تُمنعُ الدابة به من الجُموح. والحِكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل[١٦٤].

---

(١٦١) مفردات ألفاظ القرآن، ٣٨٠.

(١٦٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ٣٨١.

(١٦٣) تفسير الطبري، ٢/ ٤٦.

(١٦٤) مفردات ألفاظ القران، ٢٤٨.





ويبدو لي أن تفسير الحكمة بالسنة باعتبار أن السنة تطبيق للقرآن ومعرفة بكيفية العمل به، وهي بالتالي إصابة للحق الذي جاء به، وتطبيق القرآن على وجه صحيح يلزم منه: العلم والعقل، وقد جاءت السنة لتعلمنا كل ذلك، وجاء الرسول ليدلنا على الطريق إليه.

أما قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فهو تعميم بعد الخصوص المذكور، فـ ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ شامل لتعليمهم الكتاب والحكمة، وشامل ما هو زائد على ذلك من أنواع العلوم التي يدل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم مما تنتفع بها الأمة في دنياها ومكانتها بين الأمم، وفي أداء رسالتها والقيام بواجب أستاذيتها في الأرض، وفي الآخرة كذلك ووراثة جنة النعيم.

لمسة تربوية

نحن أمام "التاءات الثلاثة" إذن :

- التلاوة.
- التزكية.
- التعليم.

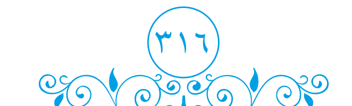
وبهذه المحاور الثلاثة في "التربية" تتكامل الشخصية الإسلامية وتتوازن؛ فلا يطغى منها جانب على آخر، ولا تتشوَّه بفقدان عنصر من عناصر تكاملها التربوي.

وأيُّما دعوةٍ أهملتْ "تاءً" من هذه "التاءات" فقد آذن ذلك بتشوُّه نتاجها!!

تلاوة: تضبط اللسان، وتصح بها الأركان.

تزكية: تهذب القلب، وتُقَرِّب العبد إلى الرب.

تعليم: يوسع الأُفُق وينقِّي الفكر، يَسْمو به الإيمان ويضمحلُّ به الإلحاد والكفران.





﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾.

هذه نهاية المقطع، وهي خاتمة بليغة، ذلك: أنه بعد أن عدَّد عليهم نعمه التي لا يوازيها شيء: رتّب عليه أمرهم بذكره وشكره:

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ وحريٌّ بهم وقد تُليت عليهم آياته سبحانه وزكاهم رسوله صلى الله عليه وسلم وعلمهم الكتاب والحكمة وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون أن يذكروه فلا ينسوه، ويقوموا بأداء حق تعظيمه والوقوف عند حدود شريعته.

لمسة تربوية ودفقة إيمانية

ومن عجيب التعبير: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أنه بعد أن عدد عليهم النعم أمرهم بذكره، وذكرُه من واجبات القيام بحق تلك النعم، لكن الرب الرحيم رتب على الأمر الذي يقابل ما تقدم من النعم: قيامه جل وعز بذكرهم في مقابل ذكره!

مَن هو هذا الإنسان الضعيف العاجز لِيَعِدَهُ الله بذِكْرِه إذا هو ذكره؟ من هو أمام الرب القوي القدير؟ كان يكفي في منطق البشر أن يأمرهم في مقابل نعمه عليهم بذكره، وينتهي الأمر بذلك، إذ أي شيء يطمح إليه الإنسان بعد تلك النعم الجليلة؟! أَلَا إنه الرب الرحيم المتفضّل!

﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، فليتلقَّ العبد هذه النعم، وقد غضَّ طرفَهُ حياءً! أَفَيُقابَلُ ذلك كلُّه بالكفر! إنه لمشهد رقيق، وهو مع رقته: مهيب؛ مهيبٌ بعظمة الربوبية، المتجلية بالرحمة الوقور على العباد؛ تأمرهم بالشكر وتنهاهم عن الكفر!

والشكر يقابله الكفر، فالكفر: الجحود، والناس أمام نعمة الله: شاكر وجاحد كافر، فسحقاً للعبد الخاسر!



والذكرُ المأمور به: يشمل ذكره باللسان وذكره بالقلب، والذكر بهما معاً هو الأكملُ، وذكر القلب أفضل من ذكر اللسان، وفي الذكر مباحث عجيبة تحسن مطالعتها في مظانها.

والشكر ينصرف إلى العمل ويختصُّ به أكثر من انصرافه إلى اللسان، وشكر النعمة ينبغي أن يكون من جنسها، والنعم المذكورة في السياق: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: يحسن بالمسلم أن يتأملها ويتدبرها ويختار من الأعمال ما يشكر بها نعم الله عليه.

المقطع الثامن عشر
ضريبة الثبات على أمر الله؛ وتصبير على نتائج المعركة المحتمة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ {البقرة}.





التمهيد والمناسبة

هذا المقطع فيه تهيئة لنفوس المؤمنين للدخول في المعركة مع الباطل، ومن المعلوم أن استعداد النفوس للمواجهة والامتحان يرفع كفاءتها فيما هي مقبلة عليه؛ إذ إنها تستعدّ لاستقباله وخوضه قبل مجيئه، فإذا جاء لم تُفجَأ به ولم تُفجَعْ باقتحامه عليها، وقد بدأ المقطع بأمر المسلمين بالاستعانة على مرحلة الامتحان هذه بالصبر والصلاة.

أما مناسبة الآيات لما سبقها فيمكن أن يقال فيها:

إنه لما ذكرَ تعنُّت أهل الكتاب في معاندة الحق، وذَكَر في مقابله استمساك الرسول صلى الله عليه وسلم بقِبلته ومنهجه؛ آذنَ ذلك بأن هذا سيترتب عليه اصطدام بين الحق والباطل، واحتدامٌ لمعركة قادمة بينهما لا محالة! فإذا كان كذلك فليتهيأ المسلمون لخوض معركة الحق، ولْيستعينوا لذلك بالصبر والصلاة، وإنه سيكون منهم شهداء، وهم أحياء وإن ظننتموهم أمواتاً في حدود حواسِّكم، وإنه سيصيبُكم بلاءٌ في تلك المعركة؛ فاصبروا ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، المحتسبين ما أصابهم فيها، الذاكرين الله فيما يَتقلب بهم من ظروف، فهم المهتدون الفائزون.

وقد تفنَّن بعض المفسرين في إيراد وجوه المناسبات؛ وفيما ذكرناه كفاية لمتدبر؛ ندلُّه على الطريق فيسلكها ليقطف من ثمارها على تؤدة ومهل وحده[١٦٥] !

التفسير

❖ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين بالاستعانة على مواجهة الباطل ومقارعة جنده بالصبر والصلاة.

(١٦٥) انظر للمزيد من الوجوه: نظم الدرر للبقاعي تجد ما يسرك، ١/ ٢٧٧.





وافتُتح الكلام بنداء المؤمنين بعنوان الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو أول موضع من مواضعه في القرآن الكريم، وقد تكرر كثيراً في سورة البقرة وفي القرآن عموماً، وهو نداء لم يرد في المكي من الآيات وإنما نلحظ استعماله في القرآن المدنيِّ إبّان تشكل المجتمع المسلم بعد الهجرة؛ فالأحكام النازلة في السورة وفي القرآن وإن كان فيها العديد من التكاليف الفردية فإن التكاليف الاجتماعية هي الأغلب، وتطبيقها يستدعي تشكُّل المجتمع "الحاضن" للشريعة، فإقامة هذا المجتمع الحاضن من أخطر الواجبات المنوطة بالأمة؛ لترتُّب تطبيق الشريعة على وجوده!

ويحسن بنا- باعتبار مرورنا بالنداء "الحبيب"-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن نقف معه وقفة تحليلية تفسر لنا تنبه الصحابة رضوان الله عليهم لِمَا سيُلقَى بعده، فعن ابن مسعود رضي الله عنه- وهو من هو- أنه قال: "إذا سمِعتَ اللهَ يقولُ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعِها سمعَكَ ، فإنَّهُ خيرٌ يأمرُ بِهِ أو شرٌّ ينهَى عنهُ"[١٦٦] ، فما الذي أحلَّ هذا النداء في هذا المقام من الأهمية؟

فلنحلِّل النداء ولنتدبَّر تركيبه:

يا: حرف نداء؛ والأكثر على أنه للبعيد.

وأيْ: منادى نكرة مبنيّ على الضمّ في محل نصب، وتجب "أيْ" فيما فيه الألف واللام، لأن في حرف النداء تعريفاً ما، فلو لم تجب "أيْ" لاجتمع تعريفان"[١٦٧] .

والهاء: حرف للتنبيه، و"الذين": اسم موصول في محل رفع نعت أو بدل، "آمنوا": فعل ماض، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

(١٦٦) اخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ج١/ ص١٢/ ح٣٦)، وهو ضعيف.

(١٦٧) المحرر الوجيز، ١/ ٦٠٣.





فالنداء- إذاً- يتكوَّنُ من العناصر المُعرَبةِ على الشكل المذكور، ونُلاحِظُ فيها:

استعمال أداة النداء للبعيد، والبُعدُ بطبيعة الحال ليس مكانياً في مثل هذه المواطن، وإنما هو مجازيّ، وكأنه ينادي الأذهان لتحضُر للاستماع إن كانت غائبة.

ثم جعل المنادى: أيْ، وهو اسم مبهم، وتفسيره يأتي بعدُ في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ مما يزيد شوق السامع لمعرفة المقصود بالمنادى المبهم، فإذا نودي على منادىً مبهم بعيد تشوفت النفوس لمعرفته، ثم جاء مفسَّراً بالموصول وما في صلته: وقع التفسير موقعه في القلب وتمكّن.

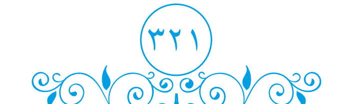
اربط- حفظك الله- هذا بكون "الذين آمنوا" تفسيراً للمنادَى، فعُنوانُ الإيمان- وما يحمله عنوان الإيمان- هو الذي يستدعي الامتثال للأمر أو النهي القادم في الكلام!

إن مناداة المؤمنين بهذا العنوان محفّزٌ فعَّالٌ على الامتثال والاستجابة؛ فالإيمانُ الذي نودوا بإحداثهم إياه واستجلابهم له ﴿آمَنُوا﴾ رأس مالهم الأعظم، ومكسبهم الأكبر، وتذكيرهم بأن "امتثالكم إنما هو مقتضى إيمانكم"، وهذا كافٍ في شدّ أزرهم نحو استكمال طريقه وتحصيل شعبه ومقتضياته.

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أمر الله تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ "عالماً بأنهم سيمتثلون حيث عصى بنو إسرائيل حين أمرهم بمثل ذلك في أول قصصهم بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾، إلى أن قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾، فكان في ذلك إشارة إلى أنهم هم الخاشعون"[١٦٨].

---

(١٦٨) نظم الدرر للبقاعي، ١/ ٢٧٧.





والسين والتاء في ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ للطلب، والمطلوب: العون، وقد مر تفسير "الصبر والصلاة" فيما مضى من السورة في الآية التي خاطبت بني إسرائيل، فلا داعي للإعادة. إلا أنه يحسن أن يقال:

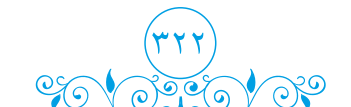
إن في الآية الإرشادَ إلى أن الزاد في مواجهة أعداء الملة: هو الدين، وأن هذا الزاد لا يستغني المسلم عنه بوجه من الوجوه، وأن ركونه إلى الصبر وإلى الصلاة يقوّي ظهره في المواجهة، وإذا كانت هاتان الخصلتان: الصبر والصلاة عبادتان محضتان لله تعالى؛ تزيدان العلاقة به سبحانه، وتوثقان ما بين العبد وربه؛ فإنهما ولا شك حاسمتان في استجلاب النصر واستحضار المعية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ومن حاز المعية واستحضر الرعاية لم يقف له عدوّ، ولم تهزه قوة!

ولما كانت هذه المواجهات الفكرية مع الباطل قد يترتب عليها الاصطدام العسكري والقتال البدني: أعلمَ سبحانه بأن المقتولين في سبيله ليسوا أمواتاً، فلا ينبغي أن يُطلق الوصف عليهم:

❊ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

فإنكم وإن رأيتموهم في هيئة الأموات وحسبتموهم كذلك فإن هذا ليس صحيحاً في ميزان الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ {آل عمران}، وإن كان هذا غير صحيح في ميزان الله فالمؤمن لا يختار ميزاناً غيره، فيعتقد حياةً خاصةً لهؤلاء الشُّهداء مخالِفَةً لما عليه الأموات، بل لا يصحُّ إطلاق الوصف عليهم كما لا ينبغي اعتقاد موتهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾.

وعدم شعورنا بحياتهم لا يعني أنهم ليسوا أحياء؛ والإيمان بالغيب عنصر رئيس بنيت عليه السورة منذ فاتحتها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ {البقرة}!





التقعيد الفكري

إن من عناصر بناء الأمة المستخلفة: الإيمان بالغيب ؛ الذي يشكّل الإيمانُ بحياة الشهداء جزءاً رئيساً منه، فهذا المعتقد من معتقدات الغيب ذو أثر أثير في بناء جاهزية الأمة واستعدادها للمواجهة!

ثم إن قتل هذه الروح في الأمة هو في الحقيقة قتل لجهوزية الأمة وقدرتها على الاحتفاظ بهويتها والدفاع عنها؛ فكرياً وميدانياً: فضلاً عن تجريدها من قدرتها التي تتعلق بأدائها لرسالتها في الأرض: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ {آل عمران ١١٠}.

وقد أصيب بنو إسرائيل في مقتل عندما فقدوا عنصر الإيمان بالغيب، وفقدوا معه: الاستعداد للتضحية بالدنيا طالما كانت هذه التضحية "في سبيل الله"، وانْطَمس الإبصار عندهم إلى الحد الذي تنتهي عنده المادية المجرّدة: ماديةُ ما تقعُ عليه الحواس وهذا خلُق بني إسرائيل وطبعهم، والإيمان بالغيب والتسليم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم بما جاء عنهما من الغيوب خُلُق المؤمنين وطبعُهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

وبالأُولى -"المادية"- خسر بنو إسرائيل الاستخلاف، وبالثاني- الإيمان بالغيب- استُخلِفت هذه الأمة أو تأهّلت للاستخلاف بانتظار تحقيق بقية الشروط واستكمال المتطلبات!

وقد أشارت الآية إلى ملحظ آخر من ملاحظ البناء الحضاري في الاقتتال الحاصل بين الحق والباطل؛ الذي قد ينشأ عنه الشـهداء؛ ذلك أن يكون القتل والقتال "في سبيل الله"، لا في أي سبيل آخر!

ملحظ منهجي في التفسير الموضوعي

وفهمُنا لهذه الآيات في سياق وحدة الموضوع في سورة البقرة يمكّننا من فهم الجزئيات في سياق الكليات، ويُفهمنا أين تَكْمن لبنات البناء الحضاري في طيّات سورة البقرة للأمة المستخلفة.





﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

عطف المضمون على المضمون، والجامع أن مضمون الآية الأولى: طلب الصبر، ومضمون الثانية: بيان مواطنه[169].

والابتلاء من سنن الله تعالى في الدنيا؛ يبتلي من يشاء بما يشاء، وقامت الدنيا على ذلك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ {الملك ﴿٢﴾}، وأصل "البلاء" من "بَلِيَ"، يقولون: بلي الثوب إذا خَلَق، وبلوتُه: اختبرته؛ كأني أخْلَقْتُه من كثرة اختباري له، وسمي الغم بلاء من حيث إنه يُبلي الجسم، وإذا قيل: ابتلى الله فلاناً أو بلاه؛ فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته وظهور إيمانه وكفره، دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره؛ إذ كان الله علّام الغيوب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ {البقرة ﴿١٢٤﴾}[170] وعليه كذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

وقد دخلت على الفعل: لام التوكيد أو القسم أو الابتداء، ودخلت عليه نون التوكيد الثقيلة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، وإنما حسن التوكيد:

١. لتبديد توهّم خلوِّ الطريق إلى الجنة عن المكاره، وتحصيلها من غير جهد؛ على حد قول الله عز وجل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ {العنكبوت}، وقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ {البقرة}، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ {آل عمران}، وأمثال هذه المعاني في القرآن.

---

(١٦٩) روح المعاني، ١/ ٥٧٤.

(١٧٠) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ١٤٥-١٤٦.





٢. أكد لهم قدوم الابتلاء لا محالة لما أشرنا إليه من ضرورة توطين نفوسهم على ذلك وتهيئتهم له، ليسهل عليهم استقباله من غير مفاجأة، وليعلموا أن وعد الله حق، وليوقنوا زواله وأيلولته إلى خير[١٧١].

ثم بين لهم مادة الابتلاء وفيما يكون فقال: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، وأشار إلى قلة ذلك بتنكير: "شيء"، و"من" التبْعيضية، وتنكير "نقص" كذلك.

وإنما حسُن التقليل لئلا يرتدَّ على نفوسهم عكسُ المقصود؛ فإن المرء إذا أُخبر أن بلاء عظيماً مهولاً بانتظاره لعله تخرُّ قوَّتُه وتنهار عزيمته، وهو ما لا يمكن أن يكون مراداً من الآية.

لمسة تربوية

وفي ذلك:

الإشارة إلى ضرورة التوازن في خطاب النفس، وخطورة طغيانِ معنىً ما فيها؛ لأنه قد يورث عكس المراد؛ من استسهالِ خطيرٍ، أو الاستيئاسِ من مخوف، والداعيةُ الحكيمُ طبيب يَزِنُ كلامه ويقدر التوازن في رسالته إلى المدعو أو المربّى.

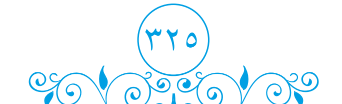
أما مادة الابتلاء كما ذكرتها الآية فهي:

- الخوف: أي من العدوّ، وهو مؤذن بأن الحق له أعداء وأنهم سيكونون حاضرين له، متأهِّبين للانقضاض عليه؛ وذلك أن الحق الذي يحمله المسلم: حرب على الباطل الذي يحملونه، وأن دعوته للتوحيد: دعوة لنزع ألوهيتهم، فالصدام محتم، والحرب بين الحق والباطل دائمة: قد تختلف أشكالها بين الحين والآخر[١٧٢]!

---

(١٧١) انظر لقريب من المعنى: روح المعاني، ١/ ٥٧٥.

(١٧٢) تفسير الطبري: ٢/ ٥١، وتفسير البغوي، ١/ ١٨٥.





- الجوع: فُسِّر بالقحط، والتعبير عن القحط بالجوع على طريقة: المجاز المرسل الذي علاقته: السببيَّة؛ فإنه عبر بالمسبَّب؛ وهو الجوع عن السبب؛ وهو القحط.

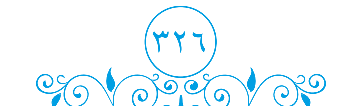
ويحتمل تفسيره بما هو أعم من ذلك، ويدخل فيه:

الحصار والتضييق، ومنع دخول الطعام وغيره مما يحتاجه الناس، ولنا في حصار غزة من قِبَل المحتلين المجرمين وأوليائهم مثال واضح على هذا النوع من الابتلاء، وقد مضى على حصارها إلى تاريخ كتابة هذه الكلمات ما يزيد على أربعة عشرة سنة، عانى فيها أهلها ألوان التضييق والخوف والجوع.

تنزيل واقعي

- ونقص من الأموال: بسبب فقر أو حصار أو فصل من الوظائف واستثناء منها ومصادرة للأموال؛ وكلُّ هذا نشهده متجلياً على الواقع المؤسف الذي نعيشه اليوم؛ نسأل الله فرجاً قريباً من عنده.
- نقص من الأنفس: بالقتل في الحروب وبالاغتيال والاختطاف وأنواع التصفية الجسدية؛ ولله المشتكى.
- نقص من الثمرات: بسبب من الأسباب المذكورة وغيرها، والتفصيلُ في الآية لكل ذلك لأجل مزيدِ تهيئةٍ للنفوس لاستقباله برضىً واستعداد: رضىً عن دفع ضريبة العمل مع الله والاستمساك بالإيمان والمنهج، واستعدادٍ لمواجهة الباطل في الصراع المستمر إلى يوم الدين.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من يصلح للخطاب: احمل البشارة وبلغها للصابرين:





✧ البشارة بالفرج المحتم: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح] وبانبلاج الفجر وزوال الليل واجتياز المهالك، والانتصار في المعركة الكبيرة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة].

✧ البشارة بسقوط الطغيان، وانقطاع دابر المجرمين: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام].

✧ البشارة بما ينتظرهم عند الله من الأجر العظيم، والفوز بالنعيم المقيم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر].

وهذا التذييل المدهش للآية وعد من الرب الرحيم بالبشرى للصابرين من المجاهدين في معركة الحق والباطل؛ المجاهدين في ساحات القتال، والمجاهدين على ثغور الفكر والدعوة.

وإني أكتب هذه الكلمات في أيام عصيبة تمرُّ بها الأمة عامة، وتمر بها الدعوة الإسلامية على وجه التحديد؛ أكتبها وقد امتلأ قلبي ألماً بمشاهدات ومتابعات تدمي القلب وتُدمِع العين على ما يجتاح الأمة من أعدائها في الداخل والخارج:

استطالة أعداء الخارج وحصارهم وازدراؤهم: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران ۝١٨٦].

وتمدد الطغيان في بلاد المسلمين، وتسلطه عن الدعاة والعلماء، وتجييشه لجنوده في حرب الإسلام: جلّادون وقتلة يمارسون القتل والتعذيب والسجن، وإعلاميون فجرة؛ يشوِّهون صورة الدعوة ورموزها، ويرمون علماءها بأقذع الأوصاف والتهم، ورَعاعٌ سفلة؛ يوظفونهم على وسائل التواصل الاجتماعي؛ لينالوا من أعراض المسلمين، ويخوِّفونهم من كلمة حق تكتب أو تقال هنا أو هناك.

والوقوف أمام هذه الآيات للتأمل يربط الجأش ويقوي النفس على مواصلة الطريق ومتابعة المراغمة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾؛ فالله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!





﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦﴾، وهذه وصف حال الصابرين المبشَّرين؛ وكيف يستقبلون المصائب التي هي من طبيعة الطريق، وحتمية من حتمياته[173] !

والتعبير بالشرطية: ﴿إِذَا﴾ التي تدخل على ما هو محقق الوقوع يشير إلى ذلك.

وما أجمل ما كَتَبَهُ ابن القيم رحمه الله في كتابه "الفوائد"؛ يخاطب قليل الهمة رديء العزم:

لمسة تربوية ودعوية

"يا مخنث العزم أين أنت؛ والطريق طريقٌ تعِب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم: تزها أنت باللهو واللعب"[174].

و "المصيبة": اسم فاعل مؤنث، من "أصاب"، تعمُّ ما يصيب الإنسان من مكروه في نفس أو مال أو أهل - قليلاً كان أو كثيراً - حتى لدغُ الشوكة ولسع البعوضة وانقطاع الشسع وانطفاء المصباح[175].

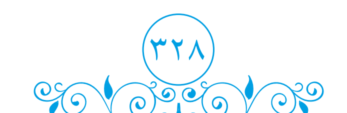
وجواب الشرط: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وبناءُ الكلام على طريقة الشرط والجواب منبئ بأمرين:

---

(١٧٣) انظر: تفسير الرازي، ٢/ ١٣٢.

(١٧٤) الفوائد، ١/ ٤٢.

(١٧٥) روح المعاني، ٢/ ٥٧٥.





الأول: أن هذا القول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ معتادٌ لهم عند مقابلة كلِّ مصيبةٍ، لا يتركونها ولا يذهلون عن حقائقها.

والثاني: أنهم يستحضرونه فور إصابتهم بالمصيبة؛ فيلوذون منها باستجلاب دوافع الصبر عليها؛ تلك الدوافع المختزنة فيما علَّمهم الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! وفي الحديث: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[١٧٦] .

ما أشد حاجتهم إلى استحضار هذه المعاني عند حلول المصائب؛ تلك المصائب الناتجة عن الاصطلام بنار الصراع مع الباطل، ومكافحة عوارض طريق الدعوة وأشواكها!

لمسات تربوية وإيمانية

وقولهم هذا الذي علمهم الله تعالى إياه يقع في جملتين؛ حريٌّ بالمؤمن أن يتأمل فيهما لإدراك أسرار تعليمهم إياه في مثل هذه المواطن :

الجملة الأولى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: مفتتحة بالتوكيد؛ تذكيراً للنفس بمحتواها، وإيقاعاً لها على وجه أبلغ في القلب، وإن لم يكن المتكلم بها المتلفظ بها منكراً، لكن وقْعَ المصائب يحتّم علينا مواجهة مشاعرنا بتذكير نفوسنا بأننا "لله"! واللام في ﴿لِلَّهِ﴾ لام الملك والاختصاص، فنحن ملك لله، ومن حق المالك التصرف بمِلكه كما يشاء، ومن واجب المملوك الاستسلام لمشيئة مالكه، والتسليم له بما أراد، وإنما أصيب المملوك بما أصابه في سبيل ما أوجبه عليه مالكُه؛ فلا خسارة إذاً ولا حسرة! إنما هو الفناء في سبيل الملك الحق المبين!

والجملة الثانية: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، توكيد كذلك في مفتتح الجملة للغاية نفسها، ومحتواها التذكير بأن الرجوع إنما هو إليه لا إلى غيره، كما

---

(١٧٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص٧٩/ ح١٢٨٣).



ينبئ عنه تقديم الجار والمجرور: ﴿إِلَيْهِ﴾ على المتعلق: ﴿رَاجِعُونَ﴾.

وإذا ما كان الرجوع من هذه الدنيا العابرة إليه، فلتتحملْ النفس أثر المصيبة، ولتتجاوزها في سبيل مَنْ كانت الإصابةُ في سبيله، فإن الرجوع إنما هو إليه، وهو الذي يتولى التعويض والحساب؛ كما قال آنفاً: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

❖ ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الفعل الحسن الدالِّ على كمال اليقين ورسوخ الإيمان، والتعبير باسم الإشارة للبعيد للإشارة إلى سموّ منزلتهم ورفعة مكانتهم، ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ صلوات تظلّلُهم ورحمة تغشاهم؛ كما يشير إليه استعمال حرف الاستعلاء "على"، والصلاة من الله - كما في عبارة الرازي-: الثناء والمدح والتعظيم، وأما رحمته فهي النعم أنزلها بالعبد عاجلاً ثم آجلاً"[١٧٧].

وفي مفردات الراغب: "وصلاة الله للمسلمين؛ هو في التحقيق: تزكيته إياهم"[١٧٨]، وجمعها في الآية للتنبيه على كثرتها وتنوعها، وأنها حاصلة في الدنيا وفي الآخرة؛ في الدنيا توفيقاً وإرشاداً وفي الآخرة ثواباً ومغفرة"[١٧٩].

وقيَّدها بأنها "من الله"، و"من" هنا ابتدائية، للتعريف بعظيم مصدرها وشريف مبتدئها: (من الله)!

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في مقابل ما أصابهم من مُصاب فصبروا واحتسبوا على لأْواء الطريق، والتنكير للتعظيم وعداً حسناً من الله لهم، وتصبيراً وتحفيزاً على السلوك واحتمال ضريبة العمل مع الله.

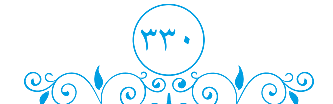
﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ حقاً؛ المستكملون صفات المهتدين، الكاملون في وصف الاهتداء، كما يَدل عليه استعمال "ال" الاستغراقية: ﴿الْمُهْتَدُونَ﴾، وإقحامُ ضمير الفصل

---

(١٧٧) تفسير الرازي، ٢/ ١٣٣.

(١٧٨) مفردات ألفاظ القرآن، ٤٩١.

(١٧٩) تفسير القاسمي، ١/ ٤٨٨.





لمسة تربوية ودعوية

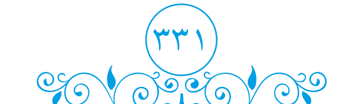
﴿هُمُ﴾ للقصر الإضافي أو المجازي؛ كأنه لا مهتدون إلا هم!

فطوبى لمن احتمل مُصابات الطريق في سبيل تحصيل صلوات الله ورحمته! وأيُّ فضل أعظم وأي أجرٍ أسمى من هذا الأجر الرباني الكريم، والتَّعبير بعنوان الربوبية المضافة إليهم مشير إلى تربيتهم الربانية واستمدادهم العلويّ، ومن يتَّخذ القرآن منبعاً لتربيته يتلقى عنه فقد بلغ الغاية من الاصطفاء؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

إن التقرير الربانيَّ هنا ذو أثر خاصٍّ في صناعة الأمة المستخلَفَةِ صاحبةِ الرسالة العالمية، إنه التهيؤ لخوض غمار الطريق والاستعداد لحمل تكاليف الأمانة:

- التهيؤ النفسي لمصارعة العقبات والاحتساب عند المُصاب؛ والتهيؤ للتعامل مع الخوف ومع الجوع ومع الفقر والتضييق، ومع احتمالات القتل والتصفية؛ لكن ذلك كله سيكون في محل التَّرحاب عند المؤمن السالك للطريق الحامل للأمانة، وأخطر ذلك وأشده هولاً: القتل، وقد صار مطلوباً مرغوباً في سبيل الله كما رأيتَ، "فما يفعل أعدائي بي"؟! كما سطرها ابن تيمية في مواجهة أعدائه: "إن قتلي شهادة، وسجني خلوة، ونفيي سياحة".
- الاستعداد بالإيمان التام بالغيب واليقين العميق، واستحضار ما أعده الله للمجاهدين في سبيله؛ الذين يجعلون من ظهورهم أتراساً يقون بها هذا الدين وتلك الدعوة والعقيدة!

ولا استكمال للطريق ولا صبر على لأوائها من غير الاتكاء على هذا العنصر البارز في بناء الأمة المستخلفة: (الذين يؤمنون بالغيب)، وسيأتي مزيد بيان وتعزيز في القادم من السورة.





المقطع التاسع عشر
تصحيح للمفاهيم وبيان لأهمية البيان وخطورة كتم الحق

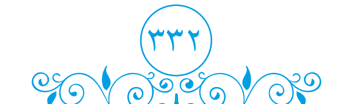
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

الكلام في مناسبة آيات هذا المقطع لبعضها سيأتي في مكانه من التفسير؛ فالمقطع فيه العديد من المواضع التي تستدعي بيان المناسبة، لكن بالمجمل يمكن أن يقال:

"يستهدف هذا الدرس- والذي يليه - تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح، مع الاستمرار في مواجهة يهود المدينة؛ الذين لا يكفّون عن تلبيس الحق بالباطل في هذه القواعد، وكتمان الحق الذي يعلمونه في شأنها، وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها، ولكن السياق يتخذ في هذا الدرس أسلوب التعميم وعرض القواعد العامة؛ التي تشمل اليهود وغيرهم ممن يترصدون للدعوة، وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التي تترصدهم في طريقهم بصفة عامة.

ومن ثم نجد بياناً في موضوع الطواف بالصفا والمروة بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية، وهو بيان يتصل كذلك بمسألة الاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة، وإقرار شعائر الحج إلى هذا البيت.





لذلك يليه في السياق بيانٌ في شأن أهل الكتاب الذي يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وحملةٌ عنيفة عليهم، مع فتح باب التوبة لمن يريد أن يتوب، فأما الذين يصرُّون على الكفر فيَعِدُهُم اللعنة الجائحة والعذاب الشديد الدائم.

ثم بيان لوحدانية الله، وتوجيه إلى الآيات الكونية الشاهدة بهذه الحقيقة، وتنديد بمن يتخذون من دون الله أنداداً، وعرض مشهد من مشاهد القيامة للتابعين منهم والمتبوعين؛ يتبرأ بعضهم من بعض وهم يرون العذاب...."[180] .

وسيأتي بيان تفصيلي لما يُحتاج إليه من مناسبات الآيات، والله المستعان.

التفسير

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

تكلمنا عن المناسبة العامة لهذا المقطع مع الذي سبق، واحتوى الحديث العام على إشارات لتعلق الآية هذه على الخصوص، ويمكن أن نضيف هنا:

أن المقطع السابق عرض لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام؛ وصيرورة المسجد الحرام قبلة المسلمين، والطواف بالصفا والمروة من شعائر الله في المسجد الحرام كذلك.

وكذلك؛ لما كان تحويل القبلة إلى المسجد الحرام مقتضياً تمييز هذه الأمة بقبلتها بين الأمم، وتفرَّدها بمناسكها ومخالفتها لأديان الجاهلية في ذلك؛ لعله تداعى إلى أذهان المسلمين تركُ كل منسك له تعلق بأمر من أمور الجاهلية، وقد كانت تطوف العرب في الجاهلية بالصفا والمروة، فلما جاء الإسلام تحرج المسلمون مما كانوا يقومون به في الجاهلية، فنزلت الآية منبهة على أن الطواف بالصفا والمروة من شعائر الله، وليس من شعائر الجاهلية؛ فلا حرج!

---

(١٨٠) في ظلال القرآن، ١/ ١٤٨.



وعند الألوسي: "لما أشار سبحانه فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيهما شقُّ الأنفس، وتلف الأموال، وقيل: لما ذكر الصبر عقبه ببحث الحج لما فيه من الأمور المحتاجة إليه"[١٨١].

أما ابن عاشور فجعلها آية معترضة بين جدل الكتابيين والمشركين في شأن القبلة، ومناسبتها عنده: "أن العدول عن السعي بين الصفا والمروة يشبه فعل من عبر عنهم بالسفهاء من القبلة، وإنكارَ العدولِ عن استقبال بيت المقدس"[١٨٢].

ووجوه المناسبات لا تتعارض، وضم بعضها إلى بعض صورة من تجلي آيات هذا الكتاب العزيز.

سبب النزول:

في الصحيحين عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قال: قلت: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عنها فقلتُ لها: أرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهَّ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فوالله ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لا يَطُوفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، قالَتْ: بئْسَ ما قُلْتَ يا ابْنَ أُخْتِي، إنَّ هذِه لو كَانَتْ كما أَوَّلْتَهَا عليه، كَانَتْ: لا جُنَاحَ عليه أنْ لا يَتَطَوَّفَ بهِمَا، ولَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ في الأنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ، فَكانَ مَن أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلكَ، قالوا: يا رَسولَ اللَّه، إنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وقدْ سَنَّ رَسولُ اللَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الطَّوَافَ بيْنَهُمَا، فليسَ لأحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بيْنَهُمَا "[١٨٣].

(١٨١) روح المعاني، ٢/ ٥٧٨.

(١٨٢) التحرير والتنوير، ٢/ ٥٨.

(١٨٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص١٥٧/ ح١٦٤٣).



هذه قصة، وفي روايات أخرى تظهر قصة أخرى:

روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سَأَلْتُ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنْه عَنِ الصَّفَا والمروة[184] فقالَ: كُنَّا نَرَى أنَّهُمَا مِن أمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كانَ الإسْلَامُ أمْسَكْنَا عنْهما فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[185] .

وقال الشعبي: كان صنمٌ بالصَّفا يُدعى إساف، ووثَنٌ بالمروة يدعى نائِلة، فكان أهل الجاهلية يسعَونَ بينهما، فلما جاء الإسلامُ رمى بهما وقالوا: إنَّما كان ذلك يصنَعُه أهل الجاهليةِ من أجلِ أوثانِهم فأمسَكوا عن السَّعي بينهما، قال: فأنزل اللهُ تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[186] .

وقد ذكر ابن كثير وجهاً للجمع بين الروايات الصحيحة في سبب النزول، فقال: "وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدَّثت بهذا الحديث - يقصد حديث عروة عن عائشة - أبا بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار: إنما أُمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، قال أبو بكر بن عبدالرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء"[187] .

والأشهر المتداول - ولا أقصد الترجيح إذ لا داعي له - ما في رواية أنس.

---

(١٨٤) وكأنه استشكل الذي استشكله عروة في الحديث السابق.

(١٨٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص٢٣/ ح٤٤٩٦).

(١٨٦) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، إسناده صحيح، ٣/ ٥٨٤

(١٨٧) تفسير ابن كثير، ١/ ٢٦١.



وافتتحت الآية بالتأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ لدفع الحرج الذي كان يساورهم من الطواف بين الصفا والمروة؛ على ما جاء في الروايات.

والصفا والمروة: الجبلان المشهوران بجانب الكعبة، وأصل كلمة الصفا من صفا يصفو إذا خلص، ومعناه في الأصل: الحجر الأملس، والمروة: الحجر الأبيض اللين، ثم صارا في العرف علَمينِ لموضعين معروفين بمكة للغلبة[188] .

و "الشعائر" جمع شعيرة؛ بمعنى: العلامة، مشتق من شعر إذا علم وفطن، وهي "فعيلة" بمعنى: مفعولة، أي: معلَّم بها.

"والشعائر" هنا: ما جُعل علامة على أداء عمل من أعمال الحج والعمرة، وهي المواضع المعظمة، مثل: المواقيت التي يقع عندها الإحرام، والكعبة والمسجد الحرام والمقام والصفا والمروة وعرفة والمشعر الحرام بمزدلفة ومنى والجمار.

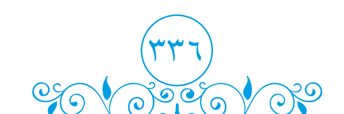
ومعنى وصف الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله: أن الله جعلهما علامتين على مكان عبادة كتسمية مواقيت الحج: مواقيت، فوصْفُها بذلك: تصريحٌ بأن السعي بينهما عبادة؛ إذ لا تتعلق بهما عبادة جُعلا علامة عليها غيرُ السعي بينهما، وإضافتهما إلى الله لأنهما علامتان على عبادته أو لأنه جعلهما كذلك"[189] .

ولما كانا من شعائر الله فَرَّع عنه نفي الجناح عن المتطوف بهما: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، والطواف بينهما ركن عند الجمهور وواجب عند الحنفية.

والجناح: الإثم، أصله الميل، سمي به الإثم لأنه ميل عن الحق إلى الباطل.

(١٨٨) روح المعاني، ٢/ ٥٧٨.

(١٨٩) التحرير والتنوير، ٢/ ٦١.



و﴿يَطَّوَّفَ﴾ أصلُها: يتطوَّف، فأدغمت التاء بالطاء، على وزن"يتفعل"، "وفي إيراد صيغة التفعّل: إيذان بأن من حق الطائف أن يتكلف في الطواف ويبذل فيه جهده"[190].

والحاصل: أن الطواف بين الصفا والمروة من أركان الحج والعمرة أو من واجباتهما -على الخلاف -، وأن نفي الجناح هنا لا يفيد مجرد الإباحة- كما هو المتبادر-، وقد قرأتَ في روايات سبب النزول ما يعلل لك ظاهر التركيب.

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ إعلام بأن من فعل الطاعة فإن الله سيجزيه عليها خيراً ويثيبه عليها أجراً، ولا غرو ولا عجب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ شاكر يشكر العبد على طاعته له وبذله لأجله، عليم بالمبذول لأجله، وبحال قلب الباذل وحرصِه على نيل رضاه.

وقد يُشكل هذا الجزء من الآية على بعضهم من حيث إن السعي بين الصفا والمروة لا يؤدى تطوعاً أي نفلاً وحده من دون سائر أعمال الحج والعمرة، بخلاف الطواف حول الكعبة مثلاً؛ الذي قد يوقعه العبد نفلاً خارجاً عن أعمال الحج والعمرة، فكيف يمكن أن نفهم الآية في ضوء ذلك؟

التطوع هنا ليس بمعنى: التنفل، وإنما هو بمعنى: الإتيان بالطاعة، فيكون المعنى: ومن فعل الطاعة فإن الله يشكره عليها لأنه شاكر عليم سبحانه.

❁ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

كان الله قد نهاهم من قبل في السورة عن أن يلبسوا الحق بالباطل وأن يكتموا الحق: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ {البقرة}، وكان الخطاب من قبل موجهاً إلى بني إسرائيل، ويظهر هنا أنه موجه إليهم كذلك وإن عمّ غيرهم بدلالة ألفاظ العموم في الآية، ومناسبةُ الآية القريبة:

---

(١٩٠) روح المعاني، ٢/ ٥٧٨.



أنه ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن تحويل القبلة هو الحق من ربهم: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ {البقرة}، وقد كتموا الحق- وسيأتي بيان مدلولات الكتمان- ولبَّسوا الحق بالباطل، واستغلوا حادثة تحويل القبلة لزلزلة صف المؤمنين والطعن في النبوة، وفي هذا الآية أوعدهم بصيغة العموم لهم ولغيرهم ممن سار على طريقتهم باللعن!

والتعبير عنهم بالموصول وما في صلته: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ لتعييرهم بفعلهم القبيح، ولبيان مضادتهم لمراد الله مما ينزله لهداية عباده، فيجب أن يُشهَر ويُعلَن؛ لا أن يُخفى ويُكتم، ليحصل المقصود من إنزاله!

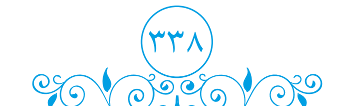
وكذا قوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾، فأيُّ جرم أعظم من كتم ما بينه الله للناس في الكتاب المنزل!

إن كل لفظة في الآية لتُقبِّح هذا الجرم العظيم! كتموه ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾، ولاحظ إسناد فعل البيان إلى نون العظمة العائدة على الله تعالى! وأين حصل تبيينه؟ إنما حصل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾! أي جرأة تلك على الله وعلى كتابه دعتهم إلى تقحُّم هذه المَهلكة! ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اسم الإشارة للبعيد، إذ هم قد بلغوا مكاناً سحيقاً في الضلال وفي الإجرام استحقوا معه أن يصيروا "بعيدين"؛ يشار إليهم باسم الإشارة للبعيد! فالبُعد هنا مجازي. ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه على جرأتهم عليه، ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ وهم كل مَن مِن شأنه أن يلْعن بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فيعمّ الخلق جميعاً، والله أعلم.

وإنما كان كذلك لحرمانِهمُ الناسَ مما تُناط به هدايتهم، ويَحصل به صلاحهم، وتنتظم به أمور دنياهم آخرتهم.

❖ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

هذا الاستثناء استدعاء لأولئك الشاردين في وديان الضلالة وصحراء الجرأة على الله والتحريف لدينه أنْ أقبِلوا ما دام باب التوبة مفتوحاً؛ فما أرحم الداعي! وقد افتروا على دينهم وتجرؤوا على كتابه وحرّفوا مراده!



لكن الإقبال هذا مشروط بثلاث:

- التوبة؛ بما تحمله من معان، وما تختزنه من دلالات، وأهمها: الندم على ما فرط، والعزم على عدم العود.
- الإصلاح: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ إذ ترتب على كتمانهم الحقَّ الكثيرُ من الفساد؛ فلينطلقوا إذاً لإصلاح ما أفسدوه!
- والبيان: ﴿وَبَيَّنُوا﴾ كما كتموا، فالبيان هو مراد الشرع وحقُّ الخَلْق، وتوبتهم مستلزمة البيان؛ إذ الكتم هو المعصية، والنصُّ عليه لزيادة التوكيد على تحصيلِ المقصود.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ كما تابوا وأقبلوا، فمن وقف بباب الكريم فُتح له، ومن أقبل منكسراً رحمه الله وقبل توبته وأوبته: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ على من تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ للمنكسرة قلوبهم بالأبواب!

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

تحذيرٌ بعد تحذيرٍ من الإقامة على معصية التحريف والكتم، ولمّا كان التحريف والكتم- الذي هو موضوع السياق- متعلّقاً بكتم الشريعة والتشويش على دلائل النبوة المؤدي إلى عدم اتضاح الدعوة الربانية برمتها سماه: كُفْراً، وأَوْعد على الإقامة عليه والإصرار بعد أن فتح الباب للتوبة في الآية السابقة، فما ينتظر أولئك الذين لم يستجيبوا لدعوتنا إلى التوبة ولم يقبلوا على الباب بعد فتحه وترقب مجيئهم إليه عظيم رعيب؛ إنه اللعنة القاصمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ تاركين دعوتنا إلى التوبة وراء ظهورهم ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، ولفظ الجلالة هنا لزيادة الترهيب في نفوسهم ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ المستَجابة الدعوة المقربة من الله النازلة بالرحمة والعذاب ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ممن سيكونون خصومهم إنْ في الدنيا وإلا ففي الآخرة لا محالة، فقد كانوا مؤتمنين على الكتاب وعلى تبليغه، فخانوا الأمانة، فاستحقوا اللعنات!



﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

و"خالدين" حال، وما أخزاه من حال! ارقُب تعلّق الحال بصاحب الحال في الآية السابقة، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فهم خالدون في هذه اللعنات ليسوا بخارجين منها.

التعبير بالاسم

وهذا الحال مؤكِّد لدلالة استعمال الجملة الاسمية السابقة: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والاسم يدل على الثبوت والاستقرار، فاللعنة ثابتة عليهم، وحرف الاستعلاء: "على"، دالٌّ على استحكامها منهم وتسلُّطها عليهم!

لكنَّهم مع ذلك: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بل يزيد، كما قال في أخرى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ {النبأ}، وهو إن أحاط بهم فَجَأَهُم ولم يُنظِرهم: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فيغيِّرون أو يتداركون، وقد دُعوا من قبل فلم يجيبوا، ونُودُوا فأَعْرضوا، فلعنة الله على الظالمين.

ويبدو واضحاً أن هذه الآيات إنما هي في علماء الضلالة ممن آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فكتموا الحق الذي أنزله الله في كتابه، أو أخبر عنه رسوله صلى الله عليه وسلم؛ علموه حقاً من دين الله، فكتموه وحرفوه وأضلوا الناس عنه!

فانظر– عصمك الله– إلى ما ينتظرهم من قِبَل الله.. أَلَا ترهبهم هذه اللعنات المتتاليات: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾!؟





ألا إنه لمقام رهيب رعيب، تضيق الدنيا كلها بصاحبه، وهو يرى لعنات الله ولعنات خلقه تطارده في حياته وفي مماته وعند بعثه وحسابه! يراها في مَحْقِ رِزقِه وإن كثر، وفي ضياع سعادته وإن تتبَّع سبل السعادة الدنيوية، وفي مذلته وإن تطلَّب مقام الجاه والعزة!

وكم أظهرت الأيام مِن كاتِمٍ محرِّفٍ يرتدي أزياء العلماء، ولا نصيب له من صفاتهم إلّاه! فأخزاه الله بين خلقه خزياً لا يربو عليه خزي، ولعذاب الآخرة أخزى، وهم لا ينصرون!

لمسة حركية ودعوية

إن التركيز القرآني على هذا النوع من المعاصي، والفضح القرآني لهذا النوع من "المتنسبين إلى العلم" يتناسب مع موضوع السورة ومحورها: وهو "الاستخلاف"، إن الأُمَّة التي يتصدر فيها هؤلاء المحرِّفون مقامات البيان والتوجيه أمة لا تستحق الخلافة في الأرض! وكيف تستحقها وقد حرَّفت مراد الله، واجترأت على كتابه، وكتمت هديه؟!

وهذا الذي وقع فيه بنو إسرائيل؛ وقع فيه أحبارهم أحبار السوء، وولغ فيه علماؤهم علماء الضلالة! وبناءُ الأمة المستخلفة يستدعي التحذير من الانخداع بهذا الصنف وتوقيره واحترامه وتقديمه، بل القرآن يستدعي من المؤمنين لعنه وطرده ونبذه! ليس هؤلاء من العلماء ذوي اللحوم المسمومة؛ فلا تنخدع؛ وإن عظَّمت العمائم وطالت اللحى وعذُبَت الترانيم!



المقطع العشرون
تعظيم الله، والتخويف من ترك موالاته بموالاة غيره

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع فيه تعظيم الله تعالى ووصفه بالوحدانية، والدليلِ الواضحِ على ذلك من مشاهد الكون المرئية المألوفة للمخاطبين، ثم عرض مشهد من مشاهد حسرة أولئك الذين اتبعوا أسيادهم على حساب الحق وندمهم وتخاصمهم؛ ولات حين مناص!

أما مناسبة المقطع لما سبقه؛ فاعلم أنّ ما سلف الإنكار عليه من صنيع أهل الكتاب؛ ابتداءً من كَتْمهم ما عرفوه من شأن تحويل القبلة واتفاقه مع ما عندهم من العلم بالنبي صلى الله عليه وسلم وقبلته، وانتهاءً بالوعيد الرعيب المذكور في الآيات السابقة على الكتم لما أنزله الله من البينات والهدى؛ أقول: اعلم أن ما سلف من كل ذلك الصنيع



القبيح من بني إسرائيل دالٌّ على فساد الاعتقاد وانحراف التصوُّر، ولو عظم الله في قلوبهم وقَدَرُوه حق قدره لما وقعوا في الذي وقعوا فيه، ولا اجترؤوا على دين الله وكتابه؛ إذ لا يقع ذلك ممن عرف الله وعظَّمه!

فلمَّا كان ذلك كذلك أُتْبع بتعظيم الله واستحقاقه الألوهية دون غيره، وأن اتباع غيره واتخاذ غير منهجه والتلقي عن غير رسالاته آيل إلى الندامة في أشد صورها، والحسرة في أبكى حالاتها!

ويمكن التأمل لإدراك المزيد من وجوه المناسبة، ونترك ذلك للقارئ الفطن.

التفسير

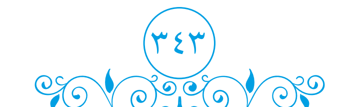
﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

إن غيره سبحانه ليس مستحقاً لاسم الإله أصلاً، إذ لا إله إلا هو، قد تجلَّت آثار رحمته على خلقه، وشهدها كل عقل سليم وبصيرة مستقيمة فيما ظهر من آيات الكون عدا عما بطن من تلك الدلائل والشواهد على وحدانيته وكمال قدرته.

والإله: المألوه، أي المعبود، و﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وصف له يتفرد به سبحانه دون سواه من الآلهة المدّعاة!

واختيار هذين الاسمين في هذا المقام تنبيه على قبح صنيع من اتخذ من دونه آلهة توجَّه إليها بالعبادة: وهي خليَّةٌ عن نفعه مجرّدة عن الإحسان إليه، وترك الرحمن الرحيم!

أما الله سبحانه الرحمن الرحيم؛ فقد ظهرت آثار رحمته في كل ما يحيط بك أيها الإنسان، هي آثار رحمته إذ سخرها لخدمتك، وآثار وحدانيته؛ إذ نَسَقُها الواحد المنتظم المتكامل دالٌ على صانعٍ واحدٍ حكيم؛ يستحق العبادة، وهو المتفرِّدُ بالألوهية كما أنه المتفرد بالربوبية! فقال:



﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

فانظر كيف عدَّد مظاهر رحمته في تسخير الكون لعباده، وانظر الى اتِّساقها وتكاملها وانسجامها انسجاماً دالاً على حكمة خالقها ووحدانيته وقدرته، ويسمى هذا الدليل "دليل النظام"، وهو دليل دامغ لشبهات الملاحدة محطم لفكرتهم مُغِيْر على معاقلهم؛ لا يبقي لهم ولا يذر:

﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهما الوعاءان اللذان يتشكل منهما الإطار المكاني والإطار الزماني للإنسان.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ تعاقبهما وتداخلهما، وما يحمله ذلك من آياتٍ شاهدةٍ على القدرة والحكمة والرحمة، وما ينتج عنه من انتظام معاش الخلق.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ ذلك القانون الذي حَكَم الله به الأرض؛ ليسهّل على البشر قضاء حوائجهم والانتفاع بسنن الكون الثابتة، ومنها: ما يتعلق بالبحر، وتسخيره لحمل الفلك، أي السُّفن؛ التي تقلُّ الناس وبضائعهم من مكان إلى آخر.

﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ وهذه آيات دالة على قدرته سبحانه؛ ودالة كذلك على رحمته؛ إذ يخيِّم الموت على الأرض وتبدو مظاهره في زواياها، وبينما هي كذلك إذ ينزِّل الله تعالى عليها الغيث فإذا هي تنبض بالحياة، وإذا بالدواب وقد أهلكها العطش منتشرة نشيطة، فيأكل الإنسان حينئذ ويستدفئ ويتمتع بهذا المشهد الحيّ المؤثر!



❁ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ تقليبها من جهة إلى أخرى، وسحب السحاب بها من موضع إلى آخر حسبما تقتضيه المشيئة وتقسيم الأرزاق! وهو مسخَّر يمطر حيث شاء الله، لا يصعَّد في السماء خارج الغلاف الجوي، ولا يغور في الأرض ولا يلتصق بها! إنه على هذه الهيئة رحمة بالإنسان ليحصل به انتفاعه، فسبحان الله الرحيم الحكيم!

إن في كل ذلك من المشاهد المألوفة لدى البشر: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾!

إن ألفة هذه المشاهد تذهب ببريق الانبهار بها والاستدلال بها على وحدانيته سبحانه! ولو تخيلنا أننا نقف أمام هذه المشاهد لنطالعها للمرة الأولى لأخذت بالألباب، ولعقلت العقول لتسلِّم بالخالق المدبِّر، وتشهد على وحدانيته وكمال قدرته وكمال رحمته! وإعمالُ العقول بمجرده كاف في حصول الاستدلال بها على خالقها وعلى صفاته!

❁ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

موقع هذه الآية على الغاية من البراعة؛ إذ قد وقفت القلوب خاشعة بين يدي دلالة الآيات المذكورة في الكون على وحدانية الله وحكمته، وعلى قدرته ورحمته، وسلَّمتْ أيما تسليم بالمقتضيات الحتمية للعقول؛ سلّمتْ لا تنبس ببنت شفة؛ اللهم إلا التسبيح والتحميد.

وفي غمرة هذا الموقف الحاسم يخرج علينا من يتخذ الضعفاء: أنداداً من دون الله! إنه حقاً لباطل ساذج لا يملك أدنى مقوِّمات النظر أو المعقولية في أيِّ وجه من الوجوه!

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المنتسبين إلى الإنسانية مع منافاتها لما يفعلون: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً؛ هم رؤساؤهم المتبوعون في المناهج والأوامر والنواهي؛ بدليل الآية القادمة.



وهؤلاء الأتْباع مع أندادهم الضعفاء؛ كما هم المؤمنون مع الله: في التقديم والطاعة والاتباع، أو أنهم مع أسيادهم ورؤسائهم كما المؤمنون في حب الله تعالى وطاعته والانقياد لشريعته، وهذا المعنى الثاني وإن كان ثانياً عند كثير من المفسرين إلا أنه أولُ بالنظر في معناه، وفي مقارنة ذلك بالواقع، فإن هؤلاء العبيدَ الأتباعَ لأسيادهم لا يسوُّون بين أسيادهم ورؤسائهم وبين الله تعالى، بل هم- في الأغلب الأعم- يقدِّمونهم على الله، ويرون طاعتهم أثيرة على طاعة الله مقدَّمة عليها، وكم رأينا! فما حالهم في الحقيقة مع أسيادهم إلا كحال المؤمنين مع الله؛ لا كحالهم هم مع الله! وانظر في مقالات أتباع الطغاة، وطالعْ حساباتِهم على وسائل التواصل الاجتماعي يأتِكَ الخبر اليقين!

هذا حالهم، أما المؤمنون فلا مقارنة بينهم وبين هؤلاء المتسبين إلى الإنسانية!

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ مِن هؤلاء لأسيادهم وأتباعهم، فهم لله أطوع وله أحب؛ فإن الأعين العُمْيَ وإن كلَّت فلم تبصر نعم الله ولم تر إحسانه فعيون المؤمنين مبصرة، وعقولهم حية، وقلوبهم سليمة، والحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان، وفي يوم قادم لا محالة سيتهاوى الحبُّ الباطلُ ويتساقط الولاء الموهوم:

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: انتقال بهم من مشهد اتخاذهم من دون الله أنداداً محبوبين غاية المحبة إلى مشهد حسرتهم وندامتهم بين يدي العذاب وبين يدي القوة الربانية المكشوفة!

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ سيأتي بيانه، وجملة: ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ معترضة، وقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ سادّة مسدَّ مفعولَي "يرى"، وتقدير الآية: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعاً- إذ يرون

لمسة حركية

....

حذف جواب الشرط / الحذف





العذاب - فسيرون مشهداً مهولاً خارجاً عن الوصف لا تحتمله التعابير!

فأنت ترى أن حذف الجواب إنما هو لتهويله والإيذان بأنه أعظم من أن تصفه الألفاظ، وهذا من بلاغة الحذف في القرآن الكريم، إذ حذف جواب الشرط فيه كثير.

الإظهار في مقام الإضمار

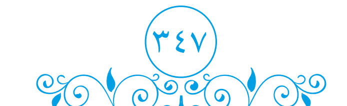
والتعبير بالظاهر في مقام الإضمار ؛ إذ الأصل بعد ذكرهم في أول الآية بالظاهر أن يذكرهم هنا بالمضمر؛ فيقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ولو يرون أن القوة لله جميعاً إذ يرون العذاب فسيرون مشهداً مهولاً، لكنه عدَلَ عن التعبير عنهم بالضمير إلى التعبير عنهم بالاسم الظاهر؛ الذي هو هنا: الموصول وما في صلته ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشارة إلى اشتهارهم به، ولتعليل ما أُوعِدوه من العذاب.

فلْنكمل المشهد فإن حبْكته هنا:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرفُ زمانٍ متعلِّقٌ بـ ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، فهو شديدُ العذابِ إذ تبرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، أو بدل من ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ والمقصود أن محبتهم الشركية المذكورة آنفاً قد تساقطت أركانها بين يدي العذاب الذي يرونه ولما يدخلوه! فكيف بهم إذا اصطلوا بتلك النار واحترقوا في وديانها!؟ نسأل الله السلامة والعافية.

هاهم بين يدي العذاب يتقاطعون، ويبدأ المتبوعون بالتبرُّؤ من الأتباع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، والتعبير عن كلٍّ منهم بعنوان



المتبوعية والاتِّباعية لإثارة الحسرة النفسية للأتباع؛ من جهة أنهم آثروا هؤلاء الرؤساء على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم واتَّبعوهم في معصية الله ومضادة منهجه؛ ثم المفاجأة أن المتبوعين هم الذين يبدأون بالتخلي عن الأتباع، وهم الذين يبادرون بإعلان البراءة منهم!

وجملة: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حالية، يعني أن التبرؤ المذكور حصل حال رؤية العذاب، وهذا الحال مؤكِّد لما ذُكِر من أن التبرؤ المذكور قد حصل حال رؤيتهم للعذاب ولما يذوقوه، فكيف لو فعلوا؟ وفيه من تهويل المشهد وبيان درجة خوفهم ما لا يخفى.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ عطف على الجملة الحالية، وبيان لكون تقطُّع الأسباب مرافقاً لرؤية العذاب في إنتاج ما صاروا إليه من التبرؤ المذكور، والأسباب: هي الوُصَل التي تجمع بينهم، والتي لأجلها آثروهم على الله وعلى دعوة الله وعلى الانتصار للحق؛ من المنافع المالية، والوظائف الدنيوية، والكراسي الزائلة، والمصالح المنقطعة، والقرابة والمحبة والاتفاق على الباطل!

واختلفوا في الباء في ﴿بِهِمُ﴾، ويظهر لي أنها للملابسة، كما في: خرج زيد بثيابه[١٩١].

ولما تقطعت "كل" تلك الأسباب ورأوا العذاب فحصل التبرؤ بمبادرة من المتبوعين الكبراء: صار الأتباع المغبونون يبحثون عن وجه ينتقمون فيه منهم؛ والحسرة تملأ عباراتهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

بمثل هذه العبارات النادمة والأنفاس الممتلئة غيظاً يقول الأتباع: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودةً إلى الدنيا بوجهٍ من الوجوه ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ فنعلن البراءة منهم في مقابل البراءة التي بادرونا بها؛ ونحن الذين اتخذناهم أنداداً، وقدّمناهم واتبعناهم!

---

(١٩١) روح المعاني، ٢/ ٥٩٢.



كلمات تقطر غيظاً وتفيض حنقاً! هذا المشهد الممتلئ كراهية ورغبة في الانتقام كان في مقابل المحبة لهم في الدنيا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾! وما أشبه هذا بقول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ {الزخرف}.

إلّا أن الحسرة هنا في المشهد تنصبُّ على الأتباع الذين كانوا يتخذون الرؤساء أنداداً من دون الله وتفيض من قلوبهم، فما أعظمها من حسرة!

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من التوادّ والاتباع والاصطفاف في مقابل صف الله ورسوله والمؤمنين ﴿حَسَرَاتٍ﴾ يتحسرون عليها ويندمون لأجلها؛ لكن ولات حين مندم! فما الندامة بمغنية عنهم في ذلك المقام شيئاً: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾!

العلاقة بموضوع السورة ولمسة حركية:

إن لهذا المشهد علاقةً وُثقى بموضوع السورة؛ فبناء الأمة المستخلفة الرائدة يرتكز على أنه لا أتباع فيها ولا متبوعين؛ إنما هو الله ومنهج الله، ورسول الله ومنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لا اتباع لباطل، ولا تحالف على مصلحة تُخالف الحق وتطمسه، ولا رؤساء يُقامون في مقامات الألوهية ويُرفعون إلى مصافّ الاتباع الأعمى!

إن الأمة المستخلَفة أمة حُرَّة؛ دينونتها لله تعالى؛ لا ندّ له، ولا شريك له في الأمر والنهي والسيادة والاتباع؛ إذ هذه الأمة المتصفة بذلك هي الحقيقة بحمل لواء الحق وقيادة البشرية إلى العدل، والحكم في الأرض بمنهج الله؛ لا بمنهج البشر!

المقطع الواحد والعشرون

الله وحده هو الحقيق بالاتباع والطاعة لذاته، ومنهجه هو الذي يجب أن يتلقاه العباد بالقبول

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع متعلق بما سبق من حيث إنه سبحانه قد بين لهم أنه الإله الواحد: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ {البقرة ١٦٣}، والإله هو صاحب الحقِّ في التشريع والتحليل والتحريم دون سواه، وفي المقطع حذف ونعيٌ على اتباع الشيطان واقتفاء ما أَلْفَوا عليهم عليه الآباء، فالإله هو الذي يُطاع سبحانه دون غيره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، ولهذا تعلق واضح بما سبق من التثريب على اتباع الرؤساء من غير حق على الخير والشر سواء.

وأمرهم من بعد كما أمرهم من قبل بالأكل مما رزقهم هو سبحانه؛ إذ الرازق الخالق هو صاحب الأمر كذلك: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وبين لهم ما حرّمه عليهم مما





خلقه في الأرض: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

التفسير

❖ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾.

إنه بيّن لهم في المقطع السابق أنه الإله الواحد: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ومن مقتضيات ألوهيتهِ ما ذُكر من كونه الآمر الناهي: "الحاكمية"، وبيّن لهم أنه: ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، وذكر لهم بعدها ألوان النعم الكونية المسخرة لهم برحمته: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ﴾، لما ذكر لهم كل ذلك وكان معنى التسخير واضحاً فيها أمرهم من مقام الألوهية العظمى بالأكل مما سخَّره لهم في الأرض وجعله لهم فيها، وحذرهم من اقتفاء خطوات الشيطان العدوِّ لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جميعاً؛ مؤمنون وكافرون: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ المسخرة لكم المجعولة بما فيها لعيشكم وراحتكم، ﴿حَلَالًا﴾ يحلُّه بموجب ألوهيته ﴿طَيِّبًا﴾ بأنِ استطابته شريعته وأحلَّه دينه، وقيل: ما استطابته الطبائع السليمة فوجدته لذيذاً، والأول أنسب؛ إذ هو مقام تشريع، وعبارة الآية فيها إجمال سيتلوه تفصيل بعد قليل.

واستُدلَّ بالآية على أن الأصل في الأشياء الإباحة، لأن الشرع أمَر ههنا بالأكل ممَّا هو في الأرض، فدلَّ على إباحة كلِّ ما فيها إلا ما دل الدليل على تحريمه.

والأمر: ﴿كُلُوا﴾ في الآية قد يتناول غير الإباحة إذا ما كان هناك داعٍ شرعي إليه؛ من خشية الهلكة أو إجابة الداعي أو ما أشبه فيصير إلى الوجوب أو الندب حسبما يقتضي المقام، وإلا فإنه للإباحة؛ إذ السياق هنا للامتنان، ولا يحمل الامتنان أكثر من الإباحة.



ولما أمرهم بالأكل مما جعله لهم برحمته؛ وهو: ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، حذَّرهم من ركوب الحمق والسفه بترك أمر الرحيم بهم وطاعة العدو المبين: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وخطوات الشيطان: أعماله وآثاره وخطاياه، كما في عبارات السلف[192]، والتعبير عن ذلك بـ ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ تقبيح لطاعته وتحذير وتنفير منها؛ على طريق تصوير من يترك شريعة الله ويحيد عنها إلى غيرها بمن يرقب مشية الشيطان ويرى أين يضع الشقيُّ قدمه؛ فيضع قدمه حيث وضعها، ويجدُّ السير إلى حيث يأخذه الشيطان العدوّ المبين! ولا شك أنه لن يأخذه إلا إلى مهلكة، ولن يقوده إلا إلى حتفه! فما أبدعه من تصوير رشيق!

❖ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

هذه سبيله لا يهدي إلّا إليها؛ ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ {النساء}!

وحتميةُ العداوة مؤداها أنه لن يأمر إلا بـ:

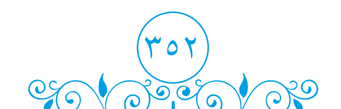
❖ ﴿بِالسُّوءِ﴾: في أمر المعاش والمعاد، وبما من شأنه أن يُعنتكم ويشق عليكم ويفسد محيَاكم وآخرتكم؛ في علاقاتكم واجتماعكم واقتصادكم واعتقادكم.

❖ ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾: ما فحش واستُعظِم من الآفات والمعاصي والجرائم؛ ومنها: الزنا؛ إذ غلب عليه اسم الفحشاء.

❖ ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فتفتروا على دينه وتفتئتوا على شريعته، فَتُحلُّوا الحرام، وتحرِّموا الحلال من غير دليل شرعيٍّ تعلمونه!

---

(١٩٢) المحرر الوجيز ١/ ٦٢٨.



تقعيد فكري

والقول على الله بما لا يُعلم يشمل المعنيين:

١. القول على الله بجهل.

٢. القول على الله بما لا يُعلم أنه من دينه أو بما يعلم أنه ليس من دينه، وصورته: تغيير أحكامه وتحريف شريعته عن عمد، واستبدال الشرائع الوضعية بها، وتنحيتها عن حكم الحياة وتقريرِ القيم ورسم المناهج.

وهذه المعاني من ركائز البِنْية الفكرية للأمة الرائدة المستخلفة، وإنما نُزعت الخلافة من بني إسرائيل واستُلِب منهم اللواء بعوامل متعددة تعرِضُها السورة عاملاً بعد عامل، وهذا العامل المشار إليه في الآية من أهمها، وقد قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ {التوبة ٣١}.

ويستمر السياق محذِّراً من الانحدار في هاوية تقديم منهج - أي منهج - على منهج الله ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

نعيٌ آخر على الذين يَلْتزمون مناهج سوى منهج الله تعالى ويعدلون عن منهجه إلى منهج غيره، والكلام هنا عن التزام مناهج الآباء وتقاليد الأعراف الفاسدة وتقديمها على الكتاب والسنة.

والعدول عن خطابهم إلى ضمائر الغائب إشارة إلى سفاهتهم وسقوطهم عن درجة الخطاب؛ فالحريُّ بالخطاب أن يوجَّه إلى مَنْ يَعقلُه!

وبناء الفعل: ﴿قِيلَ﴾ لما لم يسمَّ فاعله أو للمجهول للإعلام بأن القائل هنا غير مقصود بالذات، فالمشكلة عندهم ليست في داعيهم إلى اتباع ما أنزل الله، إنما تكمن مشكلتهم في المنهج ذاته: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، وجوابهم هذا في الرد





على داعيهم إلى اتباع ما أنزل الله جواب يفيض وقاحة وجرأة على الله، ووضوحاً في تفضيل طريقة البشر ونتاجاتهم على الوحي المنزل من لدن الحكيم الخبير!

و﴿بَلْ﴾ للإضراب وإبطال ما في كلام الداعي من الدعوة إلى اتباع ما أنزل الله، والانتقال إلى ما يصوِّبونه من اتباع ما أَلْفو عليه آباءهم! أي: وجدوا عليه آباءهم من الاعتقاد وطريقة المحيا والمات!

وهمزة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للاستنكار والتعجيب من حالهم، والواو حالية أو عاطفة على تفصيل يُنظر في المطوَّلات التفسيرية، والتقدير - على ما أراه-: أَيتَّبعونهم على كل حال حتى في الحال التي يُعلم فيها أن آباءهم هؤلاء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون إلى صواب ؟!

وفي الآية:

تقعيد فكري

إنكار شديد على من قدّم على منهج الله منهجاً من صنع البشر، والبشرُ الضعاف في حاجة إلى ضبط النتاج العقلي الذي قد يُجانِبُ الهدى في كثير من الحالات إن لم يوجَّه بنور الوحي.

والتقديم على منهج الله أهم أسباب انتزاع الخلافة من المستخلَف، والاستمساك بمنهج الوحي أهم عناصر البنية "الفكرية والمنهجية" للأمة المستخلفة.

وفي الآية كذلك:

الإنكار على التقليد الأعمى المجانبِ للدليل.



﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

تنوّعت أساليب الآيات السابقة في الاستدلال وبيان الحق وإقامة البراهين، ثم في التثريب على الذين لم ينتفعوا بها، وسجَّلت عليهم أنهم ضلوا في الاهتداء إلى "منهج النظر والتفكير"، وآثروا التقليد؛ الذي عاد عليهم بألوان الوبال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾، وكان الاتِّباعُ هذا في الحقيقة للشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وأنكر عليهم تقليد الآباء ونعى عليهم وعلى آباءهم قلة العقل والضلال عن الهدى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، وهنا في هذه الآية بيَّن أنهم لا يستفيدون من الهدى ولا ينتفعون بالأدلة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، فالسياق إنما هو في "منهج النظر والتفكير"، وبيان أن عدم الاهتداء إلى منهج النظر مؤدٍّ إلى ضلال محض في النتائج وإغراب في الوصول إليها!

والآية تتضمن تشبيهاً تمثيلياً، وهو محتملٌ وجهين:

الوجه الأول: أن يكون تشبيهاً لحال الذين كفروا بالأنعام التي لا تفهم من داعيها شيئاً من الكلام ولا تنتفع بشيء منه؛ إنما هو صوت نداء ودعاء لا تفاصيل فيه ولا معنى مفهوم لألفاظه!

وفيها أنه يشبِّهُ حال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الكفار بحال من يدعو أنعاماً ويجتهد في دعائها؛ إلا أنها لا تفهم ولا تنتفع.

أما الوجه الثاني؛ فأن يكون تشبيهاً للكفار وهم يَدْعُون أصنامهم؛ بحال من يدعو من لا يسمع إلا دعاء ونداء من الأنعام؛ فأولئك يجتهدون في عباداتها وسؤالها وهي عن الإجابة بمعزل!





والوجه الأول أقوى من وجوه؛ أهمها:

أن سؤال الكفار أصنامَهم يُفارق صورة المشبه به المذكورة في الآية؛ من جهة أن النص أثبت سماعاً للمدعوين: ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾، والأصنام لا تسمع شيئاً البتة، أما الأنعام فهي تسمع دعاء ونداء ولا تفهم شيئاً من كلام الناعق بها، ومن الأكمل في بلاغة التشبيه أن يتطابق المشبه والمشبه به من كل وجه!

ثم إنه قد جاءك أن السياق يعضد الأول؛ فهو في منهج النظر والانتفاع بالأدلة، ويناسبه الوجه الأول، بينما لا يناسبه الوجه الثاني إلا بتكلف!

إذاً، مثَّل الله حال الذين كفروا بحال الأنعام غير المنتفعة بكلام داعيها لا تفهم منه زيادة على الدعاء والنداء.

و﴿يَنْعِقُ﴾ بمعنى: يُصوّت منادياً غنمه، جاء في معجم ابن فارس: "نعق: النون والعين والقاف: كلمة تدلُّ على صوت، ونعق الراعي بالغنم ينْعَق وينعِقُ به زجراً"[١٩٣]، فالنعيقِ صوت بلا معانٍ معينة، وتسمية دعاء الداعي هنا نعيقاً باعتبار وقوعه في آذان وأذهان الذين كفروا كذلك: صوتاً لا يفهمون وجهه ولا يُدركون دلالته، إنما هو صوت يدعوهم وكفى!

والذي ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ هنا: هي الأنعام التي يدعوها الداعي، والتعبير بالموصول: (ما) وما في صلته: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ لبيان وجه الشبه بين حال الذين كفروا وحال هذه الأنعام في صورة المشبه به.

❖ وفرق ولا شك بين الدعاء والنداء، قيل: الدعاء للقريب والنداء للبعيد، وقيل: الدعاء ما يُسمع، والنداء ما قد يسمع أو لا يُسمع، والأول أوجه، والله أعلم.

(١٩٣) معجم مقاييس اللغة، ١٠٣٤.



هم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ إذ تعطلت حواسُّهم عن العمل المقصود من خلقتها، وهو الاستدلال بها على الله، والوقوف على دلائل ألوهيته، والتعبير بالجملة الاسمية هنا لإفادة الثبوت والاستقرار، وذمهم بالإشارة إلى استقرار هذه الحالة "البهيمية"، وقد حسن لأجل هذا المعنى ترتيب عدم عقلهم عليها: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾!

التعبير بالجملة الاسمية ودلالته

وإنما يحصل العقل بما يَسْتفيدُه منَ السَّماع والكلام والإبصار، وهي مداخل العلوم الأساسية، فإذا تعطَّلَتْ تعطَّل؛ وجمح بعيداً عن الحق، لا يعقله شيء، ولا يلوي على شيء!

✥ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

كانت الآيات السابقة في النعي على أولئك الذين اختاروا منهجاً آخر غير منهج الله في حكم حياتهم؛ سماه الله تعالى: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ونهى عنها أشد النهي، وعاب عليهم كذلك صورة من صور اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ وهي تفضيل التلقي عن الآباء على التلقي عن الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ واتَّخِذُوه منهجاً تتلقَّون عنه ما يحكُم حياتكم ويسيِّرها: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فنقدمه على ما أنزل الله! ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وأتبع ذلك بتشبيه حالهم بحال الأنعام التي لا تفهم شيئاً من الكلام وإن فَصُح، ولا تنتفع به وإن كان مليئاً بالعبر والفوائد: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، ثم إنه بعد هذا التثريب والتمثيل المصِّور لحالهم على أنه في الغاية من دناءة الفهم، انتقل إلى خطاب المؤمنين مباشرة، مشعِراً بسقوط أولئك عن درجة الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا



﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وهذه الآية وإن تضمنت معنى ما تضمنته آية سابقة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾؛ أقول: إنها وإن تضمنت معنى الأولى فإنها استقلت بخطاب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أما الأولى فكانت لعموم الناس.

وإنما حسن ذلك باعتبار أن المؤمنين هم الذين اختاروا التلقي عن الله، واتخذوا دين الله منهجاً يضبط حياتهم في كل تفاصيلها، وقضيةُ الأكل عنوان ذلك؛ باعتبار أن التحليل والتحريم فيها كان قضية مركزية من قضايا "المنهج": ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

وقد مضى تحليل النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأغنى عن إعادته، وقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قد سبق الحديث عن الأمر بالأكل، وعن "الطيب" منه كذلك، فلا داعي للإعادة.

وإسناد الفعل "رزق" إلى الله تعالى بضمير الفاعل المعظَّم فيه امتنان ظاهر، يَحسُن معه عطف الأمر بالشكر عليه: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾، وتسمَّى اللام هذه: "لام التبليغ" و"لام التبيين"، ويَعدُّون تعدية المفعول بها هو الأفصح[١٩٤].

الالتفات

ومقتضى استمرار النسق أن يقال: "كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لنا! لكنه التفات؛ إذ عدل عن التعبير بضمير المتكلم المعظم إلى

(١٩٤) التحرير والتنوير،٢/ ٥١.





الغائب لما يضفيه التصريح بلفظ الجلالة من المهابة: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾؛ فمقام الألُوهية هو الذي يستحق الشكر دون الأصنام الخليَّة عن الاتصاف بأقل ذلك! وأراد حثَّهم على ما أَمرهم به، وهو: الأكل مما رزقهم الله وشكره على ذلك، وهذا عنوان التلقي عن الله ودينه؛ فعلّقه على شرط فقال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وجواب الشرط مفهوم من الكلام السابق: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فاجعلوا دينَه المنهَج فيما تحللون وما تحرمون.

وللتعبير بـ (كان) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فائدة جليلة، قال ابن عاشور:

"ومن شأن (كان) إذا جاءت وخبرها جملة مضارعة أن تدل على الاتصاف بالعنوان على الوقوع بالفعل، مثل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي كان هذا العلم من صفاتكم، والمعنى: إن كنتم لا تشركون معه في العبادة غيره فاشكروه وحده"[١٩٥].

تقديم المفعول به / التقديم الاصطلاحي

وتقديم المفعول به ﴿إِيَّاهُ﴾ على الفعل والفاعل لإفادة التخصيص: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لا غيره من الآلهة المدّعاة!

وأراك أيها المتدبر تدرك أن المقصود بالعبادة هنا: الخضوع والاعتراف بالإلهية والتلقي المنهجي عن دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ لا العبادات المحضة فحسب[١٩٦].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١٩٥) التحرير والتنوير، ٢/ ١١٤.

(١٩٦) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١١٤.



لما امتنَّ عليهم بما رزقهم وأمرهم بالأكل منه وبشكره عليه أتبعه ببيان القليل المحرم مما في الأرض؛ فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر وتخصيص، كأن الكلام: إنه ليس ثمة محرم إلا ما أذكره لكم في الآية دون غيره، فالأسلوب يشير إلى كثرة المباح وقلة المحرَّم.

والمحرمات المذكورة في الآية هي أصول المحرمات:

- الميتة: ما مات من الأنعام من غير تذكية شرعية.
- الدم: المقصود به: الدم المسفوح من هذه الأنعام، كما قال الله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ {الأنعام ١٤٥}، فالمطلق هنا محمول على المقيد هناك، وقد دلَّت الأدلة الأخرى على ذلك، فأبيح الكبد والطحال، وأبيح ما بقي في العروق من دم المذكَّاة.
- لحم الخنزير: يلحق به شحمه وغير الشحم مما هو من أعضاء الخنزير، وإنما نصّ على اللحم هنا لأنه المقصود للأكل، فلا دلالة في ذكره على إباحة شيء آخر منه[١٩٧].
- ما أهل لغير الله به: الإهلال: رفع الصوت، والمقصود هنا: ما ذكر غير اسم الله عليه؛ كما كان المشركون يفعلون في التقرب لأصنامهم، وكما يفعل كثير من الجهلة حتى يومنا!

والسؤال الوارد هنا:

إنه من المعلوم أن الشريعة قد حرّمت أكثر من هذه المحرمات المذكورة في الآية، فكيف يكون التوفيق؟

يمكن أن نجيب إجابات شتى، منها:

- أنّ يقال: إن المذكور هنا هو أصول المحرمات.
- أنّ ما ذُكر هنا من المحرمات كان هو المحرَّمَ إلى وقت نزول الآية، وقد تبعَها تحريم أشياء أخرى.

---

(١٩٧) التحرير والتنوير، ٢/ ١١٨.



✣ أنّ المذكور في الآية من المحرمات إنما هو ما كان يعتقد المشركون حِلَّه، وما يُفهم نفيُ تحريمه من الآية هو ما كان يعتقدون تحريمه مما أباحه الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ {المائدة}.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بعد أن أخبر بالحكم العام، فرَّع على ذلك الإخبار بالاستثناء ورفع الحرج عن المضطر إلى أكل شيء من المحرمات المذكورة.

والاضطرار: افتعال من الضرورة؛ أي: حلت به الضرورة، وقُيِّد الاضطرار بحالين:

الحال الأولى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾.

والحال الثانية: ﴿وَلَا عَادٍ﴾.

واختلفت عبارات المفسرين في تفسير هاتين الكلمتين، وما رجحه الإمام الطبري حسن جداً، إذ قال: "وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بأكله ما حُرِّم عليه من أكله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ في أكله وله عن ترك أكله بوجود غيره مما أحله الله له مندوحة وغنى"[198].

ثم علل نفي الإثم عنه والحالةُ هذه بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فما دام متصفاً بهاتين الصفتين الرفيقتين فلا غرو إذاً أن يرفع الحرج عن عباده، وأن يبيح لهم المحظور عند الضرورة، وأن يرحم ضعفهم إذا ما آل حالهم إلى المشارفة على الهلاك أو عطب عضو من الأعضاء.

وهذه الجملة من قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، هي ومثيلاتها متكأ القاعدة الشرعية العامة: "المشقة تجلب التيسير"، و "إذا ضاق الأمر اتسع" و"الضرورات تبيح المحظورات"؛ وما أهمها من قواعد! وما أدخلها في أبواب شتى من الفقه والشريعة للأمة المستخلفة في الأرض!


(١٩٨) تفسير الطبري، ٢/١٠٦.





إنَّ مناسبة هذا الموضوع في سياق هذه الآيات شديد التعلق بموضوع السورة الرئيس: صناعة الأمة المستخلفة، ونزع اللواء من بني إسرائيل.

إنَّ قضية التحريم والإباحة هنا ليست مقتصرة على أنواع من المطعومات يباح أو يَحرُم تناولها، وإنما هو المنهج في كل ذاك؛ منهج التلقي عن الله، أو التلقي عن البشر! فالأمة المستخلَفة هي الأمة التي ترفع لواء الحكم بشريعة مُستخلِفها، وتدل الناس على دينه، وتضع ميزان العدل الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {ص ٢٦}.

تقعيد فكري

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....



المقطع الثاني والعشرون
الصدق مع الله وإيثار ما عنده في مقابل متع الدنيا الزائلة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

يتناول المقطع نوعاً خطيراً من المظاهر الدينية، وهي ظاهرة "التدين الكاذب" أو "التدين المصلحي"؛ الذي يتوسل فيه المتدين-تديناً كاذباً- إلى تحصيل الدنيا بالدين؛ عبر كتمه وتحريفه ليوافق مصلحته وهواه!

ويبين بعد ذلك أن التدين ليس هو بالمظاهر التي يمكن أن تختطَف بالتمثيل على الناس، وإنما هو حقيقة ذاتُ عمق لا يمكن أن يُختطف، ولا يستطيعه المحتالون.

ومناسبة المقطع للسياق:

أن الآيات السابقة تناولت محور "المنهج"، وأن من لوازم الإيمان والاستقامة؛ "التلقي عن الله" والاستسلام لشريعته والإقرار بمرجعيتها في الحياة.





أما هذا المقطع فهو حرب على الذين يقصدون إلى تحريف المنهج وضرب الشريعة باسم المنهج والشريعة!

فلنترك المقام للآيات ترشدنا.

التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

إن من أبرز ما أدّى إلى نزع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل استفحالُ أمراض خطيرة، ونموٌّ ظواهر من شأنها تعطيل دور الأمة المستخلَفة عن ممارسة دورها في الأرض، من أبرزها- وقد مرت الإشارة إلى مثله-: ترؤُّس علماء الضلالة، الذين يعبثون بالشريعة لصالح أهوائهم وأهواء سادتهم، ويتوسَّلون بذلك إلى تحصيل الدنيا، ويجعلون منه ألعوبة لأهوائهم ومصالحهم!

تأتي هذه الآية في سورة "انتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل"، وفي سورة "صناعة الأمة المستخلَفة"، التي تحذِّر من هذا الصنف من علماء السوء وأئمة الضلال؛ العابثين بالشريعة، المتجرئين على الله تعالى!

وأندب قارئ هذا الكلام إلى مراجعة "باب العلم" من إحياء علوم الدين؛ ليطالع خفايا حركات القلوب في هذا الباب، ولينتبه إلى ما يجب التأدب به والتزامه لسالك هذه الطريق، وقد قيل:

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها!

وبعد؛

فقد افتُتحت الآية بحرف التوكيد: ﴿إِنَّ﴾ المؤكد لمحتواها، والمشير إلى أهمية مضمونها:



﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: هذه الجريمة الأولى من جرائم علماء الضلالة؛ يعيِّرهم الله تعالى بها، والكلام وإن كان يشير بدلالة السياق وبما روي عن ابن عباس وغيره إلى علماء اليهود [١٩٩]؛ فإنه يعمّ غيرهم بدلالة ألفاظ العموم في الآية.

والتعبير عنهم بالموصول: ﴿الَّذِينَ﴾ وما في صلته: ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ لتعييرهم بقبح ما يقترفون، والتسجيل عليهم بغاية الجرأة على الله وعلى كتابه، خصوصاً وأن التعبير عما حرفوه من الكتاب جاء بعنوان: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، واختيار لفظ الجلالة الذي يبث معاني التعظيم والمهابة للإشارة إلى منتهى الجرأة والتوقح فيما أقدموا عليه؛ إذ ﴿يَكْتُمُونَ﴾- بالفعل المضارع المفيد للتجدد والحدوث- ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي هو التوراة، ويعم غيرها!

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذه الجريمة الثانية لهذا الصنف من الناس: يبذلون الدين مقابل تحصيل الدنيا!

وهذه استعارة سائرة في القرآن، وفيها إشارات عميقة حقيق بالمتدبر أن يلحظها: إن الذي يبذل شيئاً ليأخذ غيره؛ لا شكَّ أنه يرى أن ما بذله أهون عنده مما يحصل عليه!

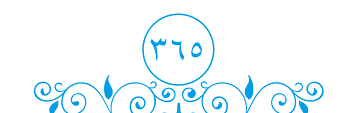
أرأيت إلى المشتري وهو يبذل ماله للحصول على سلعة ما؟ إن لم تكن حاجته إلى السلعة أعظم من حاجته إلى المال الذي يبذله في مقابلها لم يشترِ بماله السلعة حتى ينخفض سعرها إلى الدرجة التي يصير ما يبذله في مقابلها أهون عنده منها!

وكذلك هؤلاء الأشقياء: بذلوا الكتاب الذي أنزله الله والشريعة التي ائتُمنوا عليها في مقابل تحصيل "شيء" من الدنيا؛ المعبر عنها بـ "ثمناً قليلاً".

إنها والله بقَضِّها وقضيضها ثمن قليل؛ فكيف بفتات موائدها؛ الذي يبذل كثيرٌ من أصحاب العمائم اليوم الدينَ لأجله؟!

---

(١٩٩) انظر تفسير الطبري، ٢/ ١٧٣.



﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين يقترفون تلك الجرائم، التي يأكلون بها شيئاً من ذلك الفتات من على موائد الطغاة؛ ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ النهمة الجشعة في الحقيقة: ﴿إِلَّا النَّارَ﴾!

والمقصود من "الأكل" سائر أنواع الانتفاع، لكن التعبير عنها بالأكل تقبيح زائد؛ خصوصاً مع قوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ التي تصوِّر بطونهم الجشعة الكبيرة، وهم يضعون فيها ما يحصلون عليه مقابل خيانة الأمانة التي حُمِّلوها، والتحريفِ الذي افترَوْهُ في دين الله!

والتعبير عن المأكول هذا بـ ﴿النَّارَ﴾ على طريقة المجاز المرسل الذي علاقته "اعتبار ما سيكون" عند قدومهم على الله تعالى، أو علاقته المسبَّبية، عبر بالمسبَّب عن السبب.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كلامَ تكريمٍ لهم، وإن كان توبيخهم وتقبيحهم حاصلاً على أعظم ما يسوؤهم من الوجوه.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يُطهّرهم من ذنوبهم كما يُطَهر المؤمنين منها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: ملازم لهم ألمهُ في مقابل ما أرادوا تحصيله من اللذائذ الفانية!

وكأن كل عقوبة تُوُعِّدوا عليها كانت من جنس عملهم!

- أرادوا أكل الدنيا فأكلوا النار.
- وتكلَّموا بما يعلمون أن شرع الله تعالى مخالف له، فلم يكلمهم الله.
- وأذنبوا فلم يُزَكِّهم الله!
- وآثروا اللذائذ فأعقبهم بالعذاب الأليم.
- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

أرادوا اشتراء الدنيا وزينتها فوجدوا أنفسهم يشترون عين الضلالة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون الموعَدون في الآية السابقة ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾؛ هم في الحقيقة يشترون الضلالة راغبين فيه، ويبذلون الهدى الذي قد كان بين أيديهم؛ إذ قد جاءهم كتاب الله ودرسوا ما فيه!



ويشترون العذاب- في الحقيقة- وكأنهم يطلبونه ويرغبون فيه؛ ويبذلون في مقابله المغفرة المعدَّة للعلماء الربانيين؛ الذين يحفظون الأمانة التي ائتمنهم الله سبحانه عليها، فما أحمقها من صفقة! وما أخسرها من تجارة!

ثم إنه لما وصف حقيقة ما فعلوه، وبيَّن الخسارة الفادحة الواضحة في استبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ أوعدهم بأن مآل فعلهم سيكون إلى النار، لكن التعبير عن ذلك جاء على وجه من اللطف لا مزيد عليه؛ إذ قال: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾!

وهذا الأسلوب هو ما يسميه أهل اللغة بأسلوب "التعجب"، والتحقيق أنه عبَّر عن مكوثهم في النار يصطلون فيها، وعدم قدرتهم على الخروج منها بـ (الصبر)، لوجه مشابهةٍ أن الصابر يَمكُثُ فيما يصبر عليه ولا يغيره، وكذلك هؤلاء: لا قدرة لهم على الخروج منها، بل يؤول أمرهم إلى يأسٍ عميق من الخروج منها!

واستعمال أسلوب التعجب في الأصل للإشارة إلى أن ما يُتَعَجَّبُ منه خارج عن الحدِّ المألوف.

وإنما يُتعجَّب مما هو حاصل حقاً لا مما سيحصل في المستقبل، فكأنه بقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أراد تأكيد وقوعه حتى لكأنه وقع حقاً، ويتعجَّب من حاله المنظور المشاهَد!

❖ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة للبعيد، ويُحتمل عودُه على:

❖ العذاب الذي ينتظرهم على الكتم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.



فقال هنا: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوعدوه من العذاب المذكور بسبب أن الله نزَّل الكتاب بالحق، فأرادوا هم بشقاوتهم مضادة أمر الله بتلبيس الحق وكتم الكتاب.

❖ الكتم الذي فعلوه، إنما فعلوه لعلمهم أن الله نزل الكتاب بالحق؛ الذي هو التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكتموه لأجل ذلك.

والأول أولى في ظني، وهو المتبادر، وهو أقرب مذكور يعود عليه اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وتنزيلُ الكتاب: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء فيه للملابسة، أي مُلْتبساً بالحق!

والمقصود بالكتاب هنا ما هو مقصود به في قوله في الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وهو التوراة على هذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ تأكيد لضلال الذين اختلفوا في الكتاب بسبب ما مارسوه من تحريف لفظه، وتأويل معناه التآويلَ الفاسدة.

و "الشقاق" أن تأخذ شقاً مخالفاً لشق الحق، ووصفُه بالبعيد بيان لبعد ضلالهم وشدة انحرافهم، وإيغالهم فيه أيَّما إيغال!

❖ ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ذكر المفسرون وجوهاً في تعلُّق الآية بما قبلها؛ منها ما ذكره الآلوسي من كونها كالخاتمة لما تم ذكره من النزاع مع أهل الكتاب حول القبلة؛ التي هي استقبال جهة في الصلاة[٢٠٠].

---

(٢٠٠) انظر: روح المعاني، ٢/ ٦٠٥.



وذكر أبو السعود أن الآية نازلة في أهل الكتابَيْن "فإنهم كانوا أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُوِّلت إلى الكعبة، وكان كل فريق يدّعي خيرية التوجُّهِ إلى قبلته من القُطْرَين- يقصد الجهتين- المذكورين[٢٠١].

وهذا وجه جيد متناسب مع السياق العام.

لكني أضيف وجهاً آخر متناسباً مع الآيات الأخيرة التي فيها النعي على علماء أهل الكتاب، الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً؛ فكانوا في الحقيقة قد اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فأخبرهم هنا أن التديّن ليس هو المظاهر الخدَّاعة التي تُمتطى لأجل الدنيا والتكسُّب والاتّجار، إنما هو الإيمان الحقيقي والإقبال الصادق والبذل السخي والوفاء النقي والصبر الجميل مع إقامة الصلاة والتحلِّي بخِلال الإيمان.

قوله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾: "البر: اسم جامع لمراضي الخلال"[٢٠٢]، وقد ذهب ابن عاشور إلى أنه أعلى الطاعات، وعبارته في ذلك: "والبر: سعة الإحسان وشدة المرضاة، والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعالُ القويةُ الإحسان؛ فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢٠٣] {آل عمران ٩٢}.

وكلام ابن عاشور أدقّ في جعله البرَّ أعلى الطاعة لا عمومها، وقد استدلّ في كلامه المنقول بدليلين:

١. وصف الأفعال القويةِ الإحسانِ به، فيقال: بر الوالدين، والحج المبرور، وهذا دال من وجه على أنه نوع خاص من الإحسان.

---

(٢٠١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٣٤.

(٢٠٢) تفسير أبي السعود، ١/ ٢٣٤.

(٢٠٣) التحرير والتنوير، ٢/ ١٢٨.





٢. قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، والدلالة هنا واضحة وقوية، ولو كان البر كل طاعة لَنِيْلَ بكل نفقة، لكن نفيَهُ حتى إنفاقَ المحبوب دالٌّ على أنه في الرتبة العلية من الطاعات.

ونضيف دليلاً ثالثاً، وهو أصل الكلمة ودلالة جذرها، ولنقرأ قول الراغب الأصفهاني: "البَرّ- بفتح الباء-: خلاف البحر، وتُصوِّر منه التوسع، فاشتق منه البر، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة، نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ {الطور}، وإلى العبد تارة، فيقال: برَّ العبد ربّه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى: الثواب، ومن العبد: الطاعة..، وبر الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما"[٢٠٤].

والحاصل:

أن الآية فيها نفي نَيْلِ مرتبة البر بمَظاهرَ غيرِ حقيقية، وهي المعبَّر عنها بقوله: ﴿أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾؛ ذلك أن كثيرين قد يظنون التدين: الصلاة المجردة عن الرُّوح، ومن ثم فقد حصَرَ نَيْلَ تلك المرتبة العلية فيمن صَدَقَ إيمانُه وقدّم بين يديه البراهين على ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ هذه الباقة الاعتقادية من أعمال البر: الإيمان الصادق بكل ذلك.

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

---

(٢٠٤) مفردات ألفاظ القرآن، ١١٤، وانظر: بصائر ذوي التمييز، ٢/ ٢١٣.



لمسة تربوية

وهذه باقة الإحسان إلى العباد: إيتاء المال -على حب المال- لهذه الأصناف من الخلق، وإنما نصّ على أنهم يؤتون المال على حبه؛ أي على الرغم من الحاجة إليه والرغبة فيه ليدل بذلك على قوة إيمانه وتفضيله ما عند الله على اللذائذ العاجلة، فإنه لا بد من التنبُّه إلى أن اختبار صدق الإيمان وقوة اليقين إنما يكون عند صعوبة الطاعة على النفس، ومشقة ترك المعصية؛ لا عند السعة والاختيار من الفسيح.

وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [البلد] فالعقبة: صَعُوب؛ عبر عن تجاوزها بالاقتحام، وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي مجاعة، يشير إلى الذي ذكرنا؛ فإن المجاعة تشحُّ فيها النفوس، ويزداد حرص الناس فيها على الطعام، وفي مثل هذه المواقف يسطع نجم الإيمان وتظهر بطولاته.

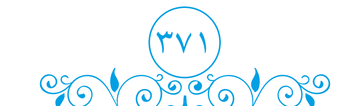
وقد عدَّد الأصناف التي هي أحق بنفقة البارّ:

- ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾، ولم يشترط كونهم فقراء، بل إيتاء ذوي القربى طاعة وقربة؛ وإن زهد به الناس في هذه الأيام.

ولا بد من التنبُّه إلى أن الإيتاء هنا ليس هو للزكاة المفروضة، فإنه قد ذكر إيتاء الزكاة المفروضة بعد قليل: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

فإن كان القريب فقيراً جازت عليه الزكاة كذلك، وأُجر المزكّي أجرين: أجر الزكاة وأجر الصلة الممدوحة هنا.

- ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: جمع يتيم، وهو فاقد الأب قبل البلوغ، فإذا بلغ زال عنه وصف اليتيم شرعاً، وإنما نُصَّ عليه لضعفه وقلّة حيلته وقد فقَد مُعيله.





✥ ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: جمع مسكين، وهو ذو الحاجة، اشتُق له اسم من السكون؛ لضعفه وقله اقتداره، فكأنه ساكن لا يتحرك.

✥ ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي المسافر المنقطع، سمي ابنَ سبيل، كأن الطريق هو الذي ولده فأتى به، حيث لم يعُرف إلا به.

✥ ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين يتعرضون للسؤال لأجل الحاجة.

✥ ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ الرقاب جمع رقبة والمراد: العبد، عبر عنه بالرقبة على طريقة المجاز المرسل؛ عبر بالجزء وأراد الكل، وإنما عبر عنه بالرقبة لا بالرأس مثلاً؛ للإشارة إلى معنى الرِّق والعبودية، من حيث إن الرقبة موضع قيدها.

ولم يقل: "للرقاب" إذ مال العبد مال لسيده، وإنما قيل: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ليدلَّ على "تحرير الرقاب"، ومعونةِ المُكاتَب في أداء ما عليه لسيِّدِه مقابلَ حريَّته.

تقعيد فكري

هذه الأصناف التي ذكرها النَّص في سياق بيان كون الإنفاق عليها من البر.

ويحسن قبل الانتقال إلى الصفة التالية أو بتعبير أدق: الباقة التالية من الصفات أن ننبِّه إلى أثر صلة هذه الأصناف وعونها على صناعة الأمة المستخلَفة ؛ وقد بيَّنَّا مراراً أن الموضوع الذي ينتظم سورة البقرة هو صناعة الأمة المستخلفة مع بيان نزع لواء الاستخلاف من بني اسرائيل، فنقول بعبارة موجزة:

إن من شأن إيتاء المال عموماً: إزالة الشح، وإشاعة التحابّ، وكفاية المحتاج، وتقوية تماسك المجتمع.





إن لبِنات المجتمع الأولى تتشكل في القرابات، ومنها يبدأ تمزقه إذا تمزق، وأقوى ما تتمتَّن به العلاقات وتتآلف لأجله القلوب: إيتاء المال لذوي القربى، حتى يحرص القريب على قريبه، ويكفي الغنيُّ ذوي قرابته الفقراء، ويحمل القوي منهم الضعيف، وهكذا في كل قرابة، فتقوى لبِنات المجتمع وتتماسك.

أما اليتامى؛ وهم مظنة الإهمال في مجتمعات الظلم، فهم محل الاهتمام من الشريعة، والتنافس بين أهل الخير، فينشؤون نشأة صالحة في مجتمع قد اعتنى بهم وكفاهم شرور الضياع، فيكونون يَدَ بِناءٍ وقد كان يمكن أن يكونوا بسبب الظروف الصعبة يد هدم.

والمساكين كذلك، وقاهم إيتاءُ المالِ الحاجةَ والاستذلال والتوجه نحو الكسب غير المشروع، وبالتالي: الحقد على المجتمع وتربص الدوائر بالأغنياء.

وابن السبيل، منقطع انقطعت به السبل وأحوجته النفقة، فلم يتركه المجتمع للجوع، وأعانه ليبلغ أهله.

والسائلون؛ في مجتمع متكافل متحابّ لم يلجؤوا للسؤال إلا وقد أعيتهم الحيلة، فكفلهم إخوانهم وسدوا خلتهم.

والرق: مُدَّت لهم يَد العون ليكونوا أحراراً، وليساهموا في بناء الأمة وحمل رسالتها.

وهكذا شاع التوادّ وتماسكت الصفوف وتآلفت القلوب، واستدرك الضعف، وأُعِيْنَ المحتاج، فأنتج كل ذلك مجتمعاً قوياً وأمة قادرة على تأدية رسالة الاستخلاف وقيادة البشرية.





وانظر يا رعاك الله إلى الفرق بين التديُّن الكاذب المذموم في الآيات: تَديّن أحبار السوء ومَنْ على شاكلتهم مِنْ هذه الأمة ومِنْ كلّ أمة: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وبين التدين الحق: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ وشتان بين الحالين! وما أبعد ما بين الصورتين! ألا إن بُعد ما بينهما لا يخفى على العقلاء، ولا يروج إلا على الأغبياء!

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ فأدّاها على أحسن ما تؤدَّى عليه في صورة الظاهر والباطن.

﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة في المصارف التي نصت عليها سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ۗ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ {التوبة}.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: وفاؤُهم بعهدهم من مشكاة التخلُّق بالشريعة الكاملة، ومن مشكاة كونهم يشكلون "الأمة الرائدة المستخلفة"؛ التي تقوم بدور "الأستاذية" في الأرض، فكيف تنكث عهودها؟ وكيف لا تفي للمعاهدين بعهودهم؟!

التعبير بالجملة الاسمية

وقد غُيِّر نظم هذا الوصف- كما ترى-، ولو جاء على نسق واحد لقال: ولكن البر من آمن وأوفى بعهده إذا عاهد! لكننا نرى النظم غُيِّر من وجهين:

الأول: أنه عُدل عن التعبير بالفعل- كما هي الأوصاف السابقة- إلى التعبير بالاسم، والتعبير بالاسم يفيد الثبوت والاستقرار، وفيه إشارة إلى رسوخ هذا الوصف فيهم وجدارته بالتنبيه!

وهذا ما يتناسب مع دورهم الريادي في الاستخلاف، ولهذا تعلَّق بالملاحظة الثانية.



الثاني: أن ما سبق صِيغ على الإفراد: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾، لكنه هنا وصف المتَّصفين به بصيغة الجمع: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، فهل لهذا مِن إشارة؟

لعله- والله أعلم بمراده- لبيان أن ما سبق من الأعمال واجبات فردية؛ المبادرةُ فيها من جهة الفرد باعتباره فرداً، لكنها هنا من أوصاف الأمة: الوفاء بالعهد مع المعاهَدين، والمبادرةُ فيها من جهة الجماعة نفسها، أو من جهة الفرد؛ لكن باعتباره فرداً في أمة تنهض باستحقاقات الاستخلاف.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: الصبر على عوائق الطريق؛ طريق إقامة الدين؛ التي يواجه فيها السالكُ ألوان الصعوبات ويواجه صنوف العَداء وأنواع المكائد، ويحتاج في كل ذلك إلى الصبر العميق، بل الصبر-وقد صيغ بصيغة الجمع (والصابرين)- صفة المجموع، وظاهرة خلقية عامة تتناسب وطبيعةَ الدور المناط بالأمة!

ونصّ هنا على ثلاث حالات تشتد الحاجة فيها إلى الصبر:

- البأساء: مشتقة من البؤس، وهو سوء الحالة من فقر ونحوه من المكروه، في الفقر وفي الحرب، ومنه: البئيس: الفقير، فالبأساء: الشدة في المال[٢٠٥].

قال الراغب: "البؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكاية[٢٠٦]، وسيأتي.

- الضراء: شدة الحال على الإنسان، مشتقة من الضر، ويغلب على أنه الشدة في المرض ونحوه، ومنه قوله تعالى على لسان أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء]، وإنما مسَّه المرض.

- وحين البأس: أي وقت البأس، أي النكاية والشدة في الحرب ونحوها.

---

(٢٠٥) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١٣١.

(٢٠٦) مفردات ألفاظ القرآن، ١٥٣.





وأنت ترى – حفظك الله – أنّ الأمة القائمة بأمر الله، والطائفة الثابتة عليه: تحتاج الصبر أيما حاجة، إذ مرورها بأحوال تستدعي الصبر أمر طبيعي؛ هو من طبيعة الطريق: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ {آل عمران}، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ {البقرة}.

وعدل عن الفعل إلى الاسم: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ للفائدة ذاتها التي ذكرناها في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، إلا أن ثمة ملاحظة مهمة تتعلق هنا بالنظم! أظنك تدركها ويجول ذهنك لإدراك سرها!

أسلوب القطع ودلالته

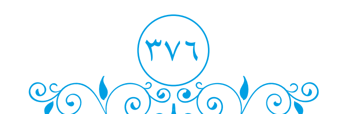
إن الأصل في المعطوفات أن يتبع بعضها بعضاً في الإعراب، وقد عطفت كلمة: الصابرين، على ﴿الْمُوفُونَ﴾، هكذا يتبادر إلى الذهن، وإذا كان كذلك فالأصل أن يكون النظم: "والصابرون"، لكن القراءة على نصب "الصابرون": ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾، فما سر ذلك؟

يسمى هذا الأسلوب في لغة العرب: "القطع"، والقطع يكون بنصب ما حقه أن يكون مرفوعاً أو مجروراً، وبرفع ما هو بعكسه؛ ليظهر قصد المتكلم حين يختلف الإعراب؛ إذ لا يُعرف أن المتكلم قصد القطع إلا بمخالفة الإعراب، فأما النصب فبتقدير فعل مدح أو ذم بحسب المقام، والأظهر: تقدير فعل: "أخصُّ"، لأنه يفيد المدح بين الممدوحين، والذم بين المذمومين[٢٠٧].

هي صفة – إذاً – تستحق الالتفات إليها والوقوف معها ودراسة مكانتها

---

(٢٠٧) التحرير والتنوير، ٢/ ١٣٢.





وأهميتها في منظومة "أخلاق النهضة والاستخلاف"!

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات السامية، **المتخلّقون بباقة "أخلاق النهضة والاستخلاف"** ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في انتسابهم للإيمان وفي نيلهم مرتبة "البر"، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ﴾ دون غيرهم من المدَّعين: ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ حقاً؛ الذين صدقوا في تدينهم وتحققت فيهم التقوى؛ لا أولئك المذكورون في الآية السابقة من أصحاب الادعاءات العريضة والتديُّن الكاذب!

وبعد؛

فلا ينبغي أن تُقرأ الآية ويُمرَّ عليها بلا تنبه إلى هذه اللمسة التربوية الأصيلة في تشكيل **الملامح الأساسية لأخلاقيات جيل الاستخلاف والنهضة والفتح والتحرير**.

إن ذلك الجيل ليس جيلاً مُنبَتّاً طفا على سطح الحياة بالصدفة أو وصل إلى القيادة فيه قائد أراد المجد ودخول التاريخ! إنه جيل صنعته أيدي العلماء الربانيين، وانغرست فيه قيم النصر وسادت فيه أخلاق الريادة والأستاذية!

يذكر التربويون اليوم أن الأخلاق- في الغالب- تتشكل على شكل باقات ينتظم بعضها إلى بعض؛ لترسم الملامح العامة للأفراد وللجماعات!

إن هناك باقة من الأخلاق والقيم تتسلح بها أمة الاستخلاف، هذه الباقة تقدَّم جاهزة عبر القرآن لتكون محل عناية المربين في الأمة وعلمائها ومثقفيها، لتدلهم بوضوح على الطريق، هي ذاتها الأخلاق التي خسرها بنو إسرائيل خلُقاً خلُقاً؛ حتى انتزعت منهم الخلافة، وخسروا شرف الريادة والتقدم ورفع اللواء!







المقطع الثالث والعشرون

تشريعان في حفظ مقصدين مهمين من مقاصد الشريعة؛ حفظ النفس وحفظ المال

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

{البقرة}.

التمهيد والمناسبة

يحتوي المقطع على تشريعين عظيمين يتعلقان بحفظ مقصدين مهمين من مقاصد الشريعة؛ الأول: حفظ النفس، وقد شُرِّع لحفظها: القصاص، والثاني: حفظ المال، وقد شُرِّع لحفظه الوصية وبُيِّنت بعض أحكامها.

ومجيء هذه الأحكام العامة في سياق هذه السورة له وجوه، منها:

١. أنّ الأمة المستخلَفة متكاملةُ البنيان؛ البنيانِ الفكري والعقدي، والبنيانِ العبادي والسلوكي، وقد مرت وستمُّر دروس في السورة تعالج هذا الجانب وذاك، والبنيان التشريعي؛ الذي يحكم العلاقات الاجتماعية والمالية والأسرية، وتفرض حدوداً لكل ذلك، وفي هذا المعنى جاءت هذه الآيات في قسم من السورة التي قصدت إلى صناعة الأمة المستخلفة.





٢. أعجبتني فيه عبارة أبي السعود التي نقلها عنه الألوسي وغيره في بيان وجه المناسبة؛ إذ قال:

"شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافي لما فَرَط من المخلّين بما ذُكر من أصول الدين وقواعده التي عليها بُنَي أساس المعاش والمعاد" .

وهذا النص العميق يحتمل من وجه قويٍّ ما بيَّناه من موضوع السورة؛ إذ قلنا:

إنّ السورة هي سورة صناعة الأمة المستخلَفة، وسورة انتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل، والنقطة الأولى تناسب "صناعة الأمة المستخلفة"، وهذه تناسب "انتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل".

فيكون المُخلُّون بأصول الدين وقواعده التي عليها بني أساس المعاش والمعاد هم بنو إسرائيل، وقد دلت الأدلة الكثيرة على أنهم أخلُّوا بها، ومن أول وجوه الإخلال بها: إخلالهم بما يلزم لحفظ الدماء المحرمة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ كما مرّ في السورة!

من شأن الالتزام بهذه الأحكام حفظ أمة الاستخلاف والتوقي من سفك الدماء المحرمة؛ أَلا وإنَّ من أوائل وظائف الاستخلاف إقامة الأحكام التي تحفظ دماء الناس وأعراضهم وأموالهم، وهو ما تجيء به طائفة عريضة من الآيات القادمة في السورة، ثمَّ إن من أعظم ما يفتِّت الأمم وينشر بين أبنائها الفتن: إهدار الدم وضياعه والتجرُّؤ عليه، فجاءت هذه الآيات لحفظ الأمة ذات الرسالة من التشرذم والتفتت نتيجة تفشيه.

وكذلك ما يتعلق بالمال؛ وتفريط الأشقياء من اليهود بما يتعلّق بكل ذلك معلوم.





وبعد؛

فإن الآيات القادمة تدخل فيما يسميه العلماء: آيات الأحكام، وقد أُفردَتْ بالتصنيف واعتُنيَ بها في الدرس والاستنباط، وفُرِّعتْ في تفسيرها المسائل، وذُكرت الخلافات، وإنا في مؤلَّفنا هذا لا نقصد إلى ذلك كله، فالمنهج الذي نعتمده فيها:

أن نتعامل معها تعامل المفسرين لا الفقهاء، وأن نقف معها بقدر ما نحتاجه في موضوع كتابنا، وعليه فإن الاختصار ههنا هو السبيل، وأما تفاريع المسائل فيمكن العودة فيها إلى المظانّ.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

إن حفظ النفوس من أهم وظائف "الدولة" التي تشكِّل الإطار التنظيمي للأمة المستخلفة، و"حفظ النفس" من ضروريات الشريعة ومن أهم مقاصدها، ولأجل هذا بدئ به فيما عُرض من أحكام في هذه السورة ذات الموضوع الخاص ببناء الأمة المستخلفة!

وافتتح النداء بعنوان الإيمان لاستدعاء الامتثال لما في حيِّز النداء: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ هذا الإجمال الذي يقرر القاعدة المنبثقةَ عن قانون العدل الذي جاءت به الشريعة، وهو مقتضى التفكير الصحيح الذي ينبع من العقل السليم المُتَجَرّد من هوى العصبيات ومنطق التكبر.





سبب النزول

قال ابن كثير: "وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام ابن أبي حاتم- وذكر السند- عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾- يعني إذا كان عمداً - الحر بالحر... وذلك أن حيَّيْن من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيّين يتطاول على الآخر في العِدَة والأموال؛ فحلفوا ألّا يرضوا حتى يُقتل بالعبد منا الحرّ منهم، والمرأة منا بالرجل منهم، فنزل فيهم: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾"[٢٠٨].

وقد نَقل رحمه الله عن بعضهم أنها منسوخة بقوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ من سورة المائدة وليس كذلك، وما أبعد دعوى النسخ هنا!

أما "القصاص": فمن "القص"، وهو تتبع الأثر- كما هو عند الراغب- قال: والقصص: الأثر، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ {الكهف}.. والقصص: الأخبار المتَّبعة، قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ {آل عمران ﴿٦٢﴾}، والقصاص: تتبع الدم بالقَوَد، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ {البقرة ﴿١٧٩﴾}[٢٠٩].

فالقصاص- إذاً-: "اسم لتعويض حق جناية أو حق غرم على أحد بمثل ذلك من عند المحقوق إنصافاً وعدلاً، فالقصاص يطلق على عقوبة الجاني بمثل ما جنى"[٢١٠]، "فماهية القصاص تتضمن ماهية التعويض والتماثل"[٢١١].

---

(٢٠٨) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٨٩.

(٢٠٩) مفردات ألفاظ القرآن، ٦٧١.

(٢١٠) التحرير والتنوير، ٢/ ١٣٥.

(٢١١) التحرير والتنوير، ٢/ ١٣٥.



وموضوع الآية: ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، وبينت أخرى القصاص في غيرها: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

ولما كان المقصود إيجاب التماثل في القود من القاتل بدون اعتداء قال: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾، بدون اعتداء على غير القاتل أو عدم اعتبار للتماثل في العموم.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ يعني: إذا حصل العفو من ولي الدم عن القاتل بإسقاط القتل قصاصاً (فـ) الأمر ﴿اتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: اتباع ومطالبة من الولي بالدية بالمعروف بلا مغالاة، وأداء الدية من القاتل وعصبته إلى أهل المقتول بإحسان؛ بلا مماطلة ولا نقص.

والتعبير عن ولي القاتل بـ ﴿أَخِيهِ﴾ للتذكير بجامع الأخوة بينهما؛ ولاستعطافه للتجاوز عن حقه في إهدار دم القاتل.

وقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ في: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ للتقليل، فأيُّ عفو يسقط القتل عن القاتل يجب أن يقابَل بحسن الأداء منه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التشريع الذي فيه تجويز الدية عند إسقاط القتل: ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ للقاتل الذي نجا من القتل، ولأهل المقتول الذين استفادوا المال.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نزول هذه الآية وما حملته من تشريع حكيم منصف، أو بعد أخذ الدية بأن عادوا وقتلوا القاتل: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ينتظره في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

هذه الآية بيان للحكمة الجليلة في تشريع القصاص وكتابته عليهم، تلك: انتظام حياة المجتمع والحفاظ فيه على النفوس، وإنما يحصل ذلك بإقامة هذه الشريعة الربانية





العادلة؛ إذ من شأنها قتل القاتل وكفى، فيندفع تسلسل القتل والقتل المقابل، وتُشفى النفوس بإقامة العدل والاقتصاص من الظلمة، ثم إن الناس إذا رأوا القاتل تحت سيف العدل انزجرت نفوسهم عن إتيان موجبه.

وتركيب الآية في غاية البلاغة، وقد اتَّخذها المفسرون المعتنون ببيان الإعجاز البلاغي محلاً لبيان فضل بلاغة القرآن على عبارة مشابهة من جيِّد ما جادت به قرائح بلغاء العرب: "القتل أنفى للقتل".

وطفقوا يبينون وجوه امتياز قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ عليها، وعدّدوا الوجوه الكثيرة في ذلك، وما هو إلا تقريب لا أكثر، وإلا فإنه لا مقارنة بين كلام الخالق والمخلوق!

التقديم والتأخير

وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ وحقها التأخير لبيان الاهتمام بمصلحتهم ورعاية جانبهم فيما كتبه الله عليهم من إيجاب القصاص.

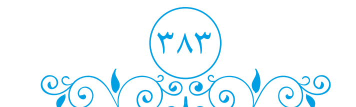
غرض التنكير

وتنكير "حياة" للتعظيم، والمعنى: ولكم في القصاص حياة كريمة آمنة؛ تحفظ فيها الدماء وتأمن فيها النفوس إلى تحقيق العدل وانتظام المعاش.

وخُصَّ أولوا الألباب بالنداء هنا: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لما أن التفكر في المصالح المترتبة على إقامة الشريعة والنظر في مآلاتها من شيمة أصحاب العقول؛ الذين يفهمون: "فلسفة التشريع"، فتطمئن نفوسهم وتقر قلوبهم للذي أوجبه الله عليهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الوقوع في القتل بالنظر إلى جزائه المعجل وجزائه المؤجل، أو لعلكم تتقون ويزداد إيمانكم إذا فهمتم حكمة التشريع.

❖ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.



هذه شريعة أخرى حسن ذكرها بعد الشريعة السابقة التي أوجبت القصاص على القاتل، ولما كان ذكر الموت مشاراً إليه فيها ضمنياً حسن ذكر ما يجب على من أشرف على الموت، وهو الإيصاء.

وقد فُهم إيجاب الوصية من ظاهر الآية - إذ لفظ الكَتْب مفيد لذلك - إذا ما كان للمسلم مال.

وأحسب أن (إذا) هنا ظرفية زمانية وليست شرطية؛ فلا جواب لها! والمعنى: إذا أشرف على الموت وظهرت أماراته وأسبابه؛ ككبر أو مرض أو شروع في سفر طويل وما أشبه.

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً، بلا خلاف، والظاهر أن الوجوب منوط بهذا الشرط، بحيث إنه لا يجب عليه الإيصاء إن لم يترك مالاً.

و﴿الْوَصِيَّةُ﴾: المكتوبة عليكم، إذ التقدير: كتب عليكم الوصية، والإعراب: نائب فاعل مرفوع.

وتذكير الفعل: ﴿كُتِبَ﴾ بحيث لم يقل: كتبت الوصية، كما هو المتبادر لأحد سببين:

الأول: تأويل الوصية بـ (الإيصاء)، وهو مذكر.

الثاني: أن "الوصية" مؤنثة تأنيثاً غير حقيقي، وقد فُصِل بينها وبين الفعل: ﴿كُتِبَ﴾ بفاصل طويل؛ الأمر الذي سوَّغ تذكير الفعل.

وقوله: ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بالوصية؛ والآية توجِبُ الوصية للوالدَين والأقربين، وقد اختُلِف في تفسير الآية في ضوء آيات المواريث من سورة النساء، التي حدَّدت الأنصبة، وفي ضوء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا وصية لوارث"[٢١٢]، على رأيين:

الأول: أن الآية منسوخة بآيات سورة النساء، ودلَّ الحديث على نسخها بها، وهو رأي جمهور عريض من أهل العلم.

---

(٢١٢) أخرجه أحمد في مسنده (ج٢٩/ ص٢١٠/ ح١٧٦٦٣)، وقال الشيخ شعيب: صحيح لغيره.



الثاني: أن الوجوب في الآية يتوجَّه إلى الوالدين الكافرَين الذَيْن لا يرثان، وإلى الأقربين الذين لم تَجعل لهم آيات سورة النساء نصيباً مفروضاً.

تطبيق أصولي / أصول التفسير

ومنهجنا: الهروب من ادَّعاء النسخ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ فما ثبت بالدليل قيامُ حجته لا يُنزع الاحتجاج به إلا بدليل قوي ينهض لذلك الادّعاء العريض.

فالقول فيها:

أنها وإن دلت على وجوب الوصية لمن كان له مال للوالدين والأقربين؛ إلا أن الأدلة قد خصَّصت مَن لهم فرض من الإرث وفق آيات سورة النساء في تقسيم الفروض، وبقي الوجوب فيمن عداهم، وهؤلاء هم: الوالدان اللذان لا يرثان لكفر، أو الأقربون من غير أصحاب الفروض.

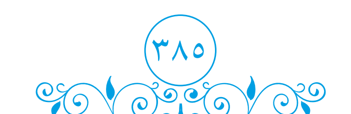
أما قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ فالمقصود بما عرَّفَتْكم به الشريعة وتعارفتم عليه من غير نكير.

وقد جاء في الحديث تحديد مقدار الوصية عن ابن عبَّاسٍ، قال: "لو أنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إلى الرُّبُعِ، فإنَّ رَسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَقال: الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثِيرٌ"[٢١٣] .

وفي حَديثِ وَكِيعٍ: كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ"[٢١٤] ، فاستحب الربع والخمس، لقوله صلى الله عليه وسلم: "والثلث كثير"، وذهب الجمهور إلى بطلان ما زاد على الثلث من الوصية.

(٢١٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص٣/ ح٢٧٤٢).

(٢١٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص٨١/ ح١٢٩٥).



وقد جعل الله تعالى الوصية ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيداً لها، وزيادة حث على الائتمار بما أمرت به الآية فيها.

✧ ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

يظهر أن الضمائر تعود على الإيصاء المفهوم من قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾، والإيصاء المقصود هو المقول، بدليل: ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ والوعيد على تغيير المكتوب من الوصية مثله أو أشدّ!

"المقصود من هذا: إبطال تعلُّل بعض الناس بترك الوصية بعلة خيفة ألا ينفذها الموكول إليهم تنفيذها، أي، فعليكم بالإيصاء، ووجوب التنفيذ متعين على ناظر الوصية، فإن بدله فعليه إثمه"[٢١٥]، أو المقصود من القصر: دفع توهّم إثم الموصِي إذا ما حدث تخليط وظلم في وصيته من غير علمه، وبيان أن الإثم كله إنما هو على المبدِّل لظلم!

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تهديد لمن فعل ذلك بإحاطة علم الله وسمعه لما حصل منه، ولازم ذلك: عقوبته على ما بدَّل وظلم.

لكن ذكرت الآية التالية ما يشبه الاستثناء من التبديل:

✧ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

والفاء لتفريع هذا الحكم على ما مضى من الأحكام، وحاصلها:

"الإذن في تبديلٍ هو من المعروف، وهو تبديل الوصية التي فيها جور وحَيف بطريقة الإصلاح بين الموصى لهم وبين من ناله الحيف من تلك الوصية بأن كان جديراً بالإيصاء إليه؛ فتركه الموصِي، أو كان جديراً بمقدار فأجحف به الموصِي"[٢١٦].

والجنف: الحيف والميل والجور.

---

(٢١٥) التحرير والتنوير، ٢/ ١٥٢.

(٢١٦) التحرير والتنوير، ٢/ ١٥٣.





وتعقيب الإذن بالتغيير للمصلحة وتحري الحق بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مشعِر بتضييق الإذن بالتبديل والتغيير إلى الغاية؛ إذ إن المغير لخير المبدل لحقٍّ يحتاج إلى مغفرة الله ورحمته، فكيف بغيره؟!

وهذه الشريعة الثانية في مجموعة الشرائع التي عرضت لها السورة، والربط بينها وبين موضوع السورة العام- وهو صناعة الأمة المستخلَفة وانتزاع لواء الاستخلاف من بني إسرائيل - بيِّنٌ، وتقريره:

تقعيد فكري

أن حفظ الأموال و"الأمن المالي" أو "الأمن الاقتصادي" من ضرورات التكوين الحضاري لأمة الاستخلاف، ولهذا انعكاساته الاجتماعية الخطيرة، من حيث تلاحم المجتمع، وتوزيع الثروة فيه بالحق والعدل، ودفع أسباب الظلم والافتراق والتشاحّ.

وكل هذا كان من ظلم بني إسرائيل بعضهم لبعض، ومن ظلمهم للناس، ومن أكلهم أموال الناس بالباطل، ومن تحريفاتهم المعهودة.

وهذا باب من أبواب "الأمن الاقتصادي" أو في مقصد عظيم من مقاصد الشريعة ومن ضروراتها: "حفظ المال"، وقد تناولت الآيات السابقة: "حفظ النفس"، فالْحَظِ التكامل في التشريع والتسلسل في الموضوعات!

المقطع الرابع والعشرون

تشريع الصيام وتعظيم القرآن والترغيب في الدعاء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ {البقرة}.



التمهيد والمناسبة

هذا المقطع في فرضية الصيام وتعيين شهر رمضان محلاً له، والامتنان على المؤمنين بأن شرف شهر الصيام المفروضِ عليهم ابتُدئ بإنزال القرآن فيه؛ وكفى بذلك شرفاً له!

وفيه ذِكْر لبعض ما يتعلَّق بالصيام من أحكام، وعرْضٌ للدعاء في الطيَّات، وتنبيهٌ على قرب الإجابة، وختمٌ للمقطع بالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وسنعرض لمناسبة ما يحتاج إلى بيان المناسبة من ذلك.

لكن يحسن أن نتأمل قبل الشروع في تفسير الآيات مناسبة المقطع كله للسياق والسورة.

ولنقتبس نوراً من الظلال في إشارة نسيجية فيه لتناسب المقطع مع السياق من حوله؛ إذ يقول:

"يتضمن هذا الدرس- يقصد ما نحن بصدد تفسيره وما قبله كذلك من مشروعية القصاص والوصية- جانباً من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم الذي كان ينشأ في المدينة نشأته الأولى[٢١٧]، كما يتضمن جانباً من العبادات المفروضة؛ هذه وتلك مجموعة متجاورة في قطاع واحد من قطاعات السورة.

وهذه وتلك مشدودة برباط واحد إلى تقوى الله وخشيته، حيث يتكرَّر ذكر التقوى في التعقيب على التنظيمات الاجتماعية والتكاليف التعبدية سواء بسواء.

وحيث تجيء كلها عقب آية البر التي استوعبت قواعد التصور الإيماني وقواعد السلوك العملي في نهاية الدرس السابق... وهو اطراد يوجه النظر إلى حقيقة هذا الدين؛ إنه وحدة لا تتجزأ؛ تنظيماته الاجتماعية وقواعدهُ التشريعية وشعائره التعبدية؛ كلها منبثقة من العقيدة فيه، وكلها نابعة من التصور الكلي الذي تنشئه هذه العقيدة، وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله، وكلها تنتهي إلى غاية واحدة هي العبادة: عبادة الله الواحد.

---

(٢١٧) هذا قريب مما سميناه: صناعة الأمة المستخلفة.



وهذا الدرس بمجموعة الموضوعات التي يحتويها والتعقيبات التي يتضمنها نموذج واضح لهذا الترابط المطلق في هذا الدين"[218].

ويمكن أن نضيف كذلك في بيان مناسبة ذكر الصيام للسياق المتضمِّن أحكاماً متعددة؛ فيمكن أن يقال فيه: إنه تشريعٌ لفريضةٍ عظيمة أخرى ضِمْن ما اشتمل عليه السياق من تشريعٍ للفرائض، فقد جاء قبلها تشريع القصاص: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، وكذلك تشريع الوصية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾، وكلاهما- التشريعان- باللفظ نفسه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، وهذا التشريع للصيام جاء كذلك بلفظ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، وجاء من بعدُ: الكلام عن فريضة عظيمة من فرائض الإسلام؛ وهي الحج؛ مهّد لها قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، واستقصي الكلام فيها في المقطع المفتتح بقوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

وهذه الأحكام التي هي حدود الله: تستلزم للوقوف عندها والالتزام بها قدراً شريفاً من التقوى؛ التي بدت ظاهرة في السياق كله، تأمل:

- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.
- وهنا في آية الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.
- وفي آخر آيات الصيام- وتنبّه إلى ذكر كلمة "حدود الله"-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

---

(٢١٨) في ظلال القرآن، ١/ ١٦٤.





وإذا كان الالتزام بتلك الأحكام كلها يستلزم ذلك القدر من التقوى فإن الصيام هو مدرسة التقوى؛ التي يتعلَّم العبد فيها "الوقوف عند حدود الله"، وينمِّي مَلَكَته على ذلك، وكلُّ هذا يلتقي بشكل مباشر مع غرض السورة الأساسي وموضوعها الرئيس: صناعة الأمة المستخلفة؛ الملتزمة بدين الله، القائمة على حدوده، الناظرة إلى كل ما جاءها من هذا الدين على أنه قطعة واحدة واجبة الالتزام، سواء ما كان منه عبادة محضة أم تنظيماً اجتماعياً أم قضية اقتصادية أم غير ذلك!

لمسة فكرية

إن الاستخلاف أمانة، وعمارة الأرض بحق وظيفةٌ مليئة بالبريق الذي قد يَذهب بالعقول، وينحرف بالضمائر؛ إن لم تكن قد امتلأت بالإيمان وتسلحت بالتقوى وعَقَلَها رباط المراقبة والخشية.

جاءت سورة البقرة لتنشئ في تلك القلوب التقوى ولتزرعها في الضمائر، وكان الكلام عن أمهات العبادات في الإسلام وارداً في هذه السورة مركزياً فيما ذكر فيها من موضوعات: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج والعمرة، واستقصت الآيات الكلام عن الصيام ههنا.

التفسير

❖ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

وقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تشبيه للكَتْب بالكَتْب، وليس تشبيهاً للمكتوب بالمكتوب؛ كما توهم بعضهم؛ فظنَّ أن في الآية تشبيه صيام هذه الأمة بصيام الأمم من قبلها، والآيةُ لم تعرض لهذا، وإنما أرادتْ أنه فرضٌ عليكم كما أنه فرضٌ على مَن قبلكم؛ فلستم أوَّل أُمَّة يُكتب عليها الصيام، على أنه لا يمنع أن يكون صيامنا كصيامهم؛ في الأصل، كما تشير إليه بعض الأحاديث.



افتتحت الآية بنداء المؤمنين بعنوان الإيمان المستفزّ للامتثال بها في حيز النداء من الأمر بالصيام، وأَعلَمَ الله تعالى عباده بفرضية الصيام عليهم بلفظ الكتابة؛ المنبئ عن التثبيت، ثم سلّاهم وخفف عنهم القيام بما أمرهم به بإعلامهم بأنهم ليسوا أول من سلك الطريق وأدى العبادة واجتهد في التقرُّب بها، وليسوا أول مَن فرضها الله عليهم: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

لمسة تربوية

وهذا ملحظٌ تربوي ونفسي في الإعانة على الامتثال وتخفيف عبء التنفيذ؛ ذلك أن النفس إذا علمتْ أنها ليست أول من يشق الطريق وينهض بالمهمة، وأنه قد سبقها في ذلك السالكون؛ سهُل عليها الأمر وخف العبء وتحفزت للعبور، وهذا منحىً يحسن بالمربي أن يتنبه إليه.

ويؤكد هذا المنحى النفسي والتربوي كذلك خَتْمُ الآية ببيان عِلّيَّة هذا الكتْب: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، ذلك أن بيان العلة أمر يعين السالك على الامتثال من حيث إنه قد علم السبب الذي لأجله أُمر بهذا الأمر، ومن المعروف من طبائع النفوس أنها تنقاد أكثر عند معرفة العلل والأسباب.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ صريحة في الوجوب، والتعبير بالكتابة أوكد في التثبيت، إذ المعهود أن المكتوب أثبت من الملفوظ.

حذف الفاعل / الحذف

وبناء الفعْل : ﴿كُتِبَ﴾ لما لم يسمَّ فاعله- وفاعله هو الله حتماً- فيه إشارة إلى أن كاتب ذلك وفارضه على المؤمنين واحد سبحانه، لا يشاركه فيه أحد؛ وإذاً لا داعي للنص على الفاعل إذ هو من الشهرة بمكان، بحيث لا يلتبس في أذهان السامعين، ومَن يملك حق التشريع إلا هو سبحانه!

و"الصيام": الإمساك عن الفعل؛ مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً، ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف: صائم، والصيام في الشرع:



إمساك المكلف بالنية من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود عن تناول الأطيبين والاستمناء والاستقاء[219]، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع في المحرمات[220]، وهو المأمور به في الآية؛ إذ هذا استعمال الشرع.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان لعلة كتب الصيام، وبيان للحكمة التي لأجلها شرعه الله تعالى، وهو حصول التقوى، والآية تتلاقى مع قوله في بدايات السورة: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ {البقرة}، والسياقُ يدلُّ على أن العبادات بالعموم تصنعُ التقوى في القلوب وتبلِّغ مراتبَها، والصيام له ميزة في ذلك من بين العبادات، وله فيه أثر بيِّن!

فالصيام هو امتناع عن الطعام والشراب وبقية المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية؛ كما قال الفقهاء، وهذا بمجموعه أمرٌ لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ من الخلق، فهو بين العبد وربه، والصيام بهذا المعنى الشرعي ينمِّي ملكة التقوى ويمكِّنُ مراقبةَ الله سبحانه في القلب، ويحصل ذلك مع تكرار الصيام؛ وكأنه دورة لرفع الكفاءة الإيمانية في توقي الذنوب والحرص على الطاعات، وهذا يتعلق بتناسب هذا المقطع مع جو السورة العام وموضوعها الرئيس كما رأيت.

۞ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٤﴾.

هذه الآية متعلقة بالآية السابقة تعلقاً نحوياً؛ فـ﴿أَيَّامًا﴾ منصوبة على أنها ظرف زمان للصيام المكتوب في الآية، والتقدير: كتب عليكم الصيام أياماً معدودات وما بينهما فاصل: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾.

---

(٢١٩) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ٥٠٠.

(٢٢٠) انظر: تفسير القرطبي، ٣/ ١٢٣.



والمقصود بالأيام المعدودات: شهر رمضان، وإنما عبَّر عنه بذلك؛ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ للإشارة إلى تقليله وإلى كونه حُكْماً خفيفاً غير شاقّ!

ويقوّي هذا المعنى أنه جمع "معدودة" على ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهو جمع قلة!

وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ بناءٌ على ما مضى وترتيبٌ عليه؛ فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى الدقيق العميق في هذا الترتيب هو تأكيد روح الشريعة في التخفيف ومراعاة الأبعاد النفسية والتربوية في حمل النفوس على الانقياد للأوامر، فكأنه قال: إنْ كان الأمر على ما أُشيرَ إليه فيما سبق من التخفيف والتسهيل: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وما يزال التخفيف في إثر التخفيف: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وهذه رخصة لحامل العذر في الفطر في تلك الأيام المفروض صيامها، ونعود لنقف مع هذا الجزء في موضع ذكره الثاني في الآية التالية.

ثم قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وقد اختلفوا في المعنى، والمشهور أحد وجهين:

الأول: وهو الأشهَر الذي تدلُّ عليه الآثار: أن الفطر لمن استثقل الصوم وإن كان في ضمن طاقته: مباح، وكان هذا في أول الإسلام رخصة للصائمين الجدد، ثم نسخته الآية التالية من إيجاب الصيام إلا لعذر مبيح.

جاء فيما رواه الإمام الطبري رحمه الله بأسانيده: عن معاذ بن جبل قال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصامَ يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر، ثم إنّ الله جل وعز فرض شهر رَمضان، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ حتى بلغ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، فكان من شاء صامَ، ومن شاء أفطر وأطعمَ مسكينًا، ثم إن الله عز وجل أوجب الصيام على الصحيح المقيم، وثَبَتَ الإطعامُ للكبير الذي لا يستطيع الصوم، فأنزل الله عز وجل:



❖ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٢٢١].

هذا الوجه الأول، **أما الوجه الثاني**: فهو أن المعنى: وعلى الذين لا يطيقونه، و"لا" المحذوفة دل عليها السياق، وهذا كثير في لغتهم.

تطبيق أصولي

والذي أراه الأول، فقد دلت عليه أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وهم في ذلك كما يظهر من الروايات يحدِّثون عما رأوه، وواضح أن الروايات في ذلك فيما نسميه: أسباب النـزول، وأسباب النزول الصريحة كهذه لها حكم الرفـع كما تقرر في الأصول[٢٢٢]، فلا أرى سعة في العدول عن أقوال الصحابة هذه إلى غيرها، وهم الذين شهدوا التنزيل وحدثوا عما عاشوه والآيات تتنزل بين ظهرانيهم.

وكذلك بقية الآية تدل عليه؛ من قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والوجه: أنه لا يستقيم أن يكون المقصود بالكلام أولئك الذين لا يطيقون الصيام، ثم يقول لهم: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾! وإن كان يمكن حمل الآية على معنى آخر، لكن هذا هو المتبادر، والله أعلم.

❖ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

(٢٢١) أخرجه أبو داود في سننه (ج١/ ص٣٨٣/ ح٥٠٧)، وقال الشيخ شعيب والألباني: صحيح.

(٢٢٢) العجاب في بيان الاسباب، ابن حجر العسقلاني، ١/ ١٠٠



هذه الآية فيها تعظيم لشهر الصيام الذي عُبّر عنه في الآية السابقة بـ "أياما معدودات"، وفيه تعظيم للقرآن الكريم من جهة ما جاء فيها من ثناء عليه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، ومن جهة أن تعظيم الشهر والإشادة به إنما كانت بأنه الظرف الزماني لنزول القرآن، وكفى بذلك شرفاً: أن يكون الزمان قد شرُفَ بكونه محلاً لنزول القرآن، وأن يكون المكان محلاً لنزول القرآن، وأن يكون الصدر قد وعى القرآن، وأن يكون اللسان قد شرف بتلاوة القرآن، وأن يكون العقل قد شرف بالنظر في القرآن وتدبُّرِه!

ومن استوقفته هذه اللطيفة القرآنية لم يفرّط في شرف العكوف على باب القرآن؛ تلاوة واستظهاراً وتفسيراً وتدبراً وعملاً.

حذف المبتدأ

و"شهر" المفتتحة به الآية يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو شهر رمضان، ويكون هذا الأسلوب في حذف المبتدأ في مثل هذه المواضع للمدح، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ {الأعراف ٢}، وكقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، وقد بينا ما يتعلق بهذا الأسلوب في كتابنا: "إرشاد المتدبر"؛ فعدْ إليه إن طلبتْ نفسُك مزيداً من التفصيل.

ويحتمل غير ذلك في الإعراب لكن هذا الوجه هو المتبادر، والله أعلم.

ثم وصف الشهر بما يقتضي التعظيم؛ وهو أنه المحلُّ الزماني لنزول القرآن الكريم: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، وقد سلف التعليق على هذا الجزء قبل قليل، ونزيد: ذُكرَ الهدى مرّتان ههنا: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، فما الفرق بين الهدى المذكور في الموضعين؟

وهذه مسألة قد تنبه إليها المفسرون وبينوا الوجه فيها، فمما جاء عنهم:

❖ ما أراد الزمخشري أن يشير إليه بعبارة مختصرة موحية:

"فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ﴾ بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ قلت: ذكر أوّلا أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرّق به بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال"[٢٢٣].

❖ وفي المحرر الوجيز لابن عطية وجه آخر؛ قائمٌ على التفريق بين المقصود بالهدى في الموضعين:

"وهُدىً في موضع نصب على الحال من الْقُرْآنُ، فالمراد أن القرآن بجملته من محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ هدى، ثم شرَّف بالذكر والتخصيص البيناتِ منه يعني: الحلال والحرام والمواعظ والمحكَم كلَّه، فالألف واللام في الْهُدى للعهد والمراد الأول"[٢٢٤].

❖ وقد أوعب الإمام الفخر الرازي رحمه الله في حلّ ما سماه إشكالاً في شبهة تكرار الهدى، فقال:

"أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ ففيهِ إشكال؛ وهو أنْ يُقال: ما مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ﴾ بعْدَ قوله: ﴿هُدًى﴾؟

وجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ؛ **الْأَوَّلُ:** أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ أَوَّلًا أَنَّهُ هُدًى، ثُمَّ الْهُدَى عَلَى قِسْمَيْنِ: تَارَةً يَكُونُ كَوْنُهُ هُدًى لِلنَّاسِ بَيِّنًا جَلِيًّا، وَتَارَةً لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، وَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ لَا شَكَّ أَنَّهُ أَفْضَلُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: هُوَ هُدًى لِأَنَّهُ هُوَ الْبَيِّنُ مِنَ الْهُدَى، وَالْفَارِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَهَذَا مِنْ بَابِ مَا يُذْكَرُ الْجِنْسُ وَيُعْطَفُ نَوْعُهُ عَلَيْهِ، لِكَوْنِهِ أَشْرَفَ أَنْوَاعِهِ، وَالتَّقْدِيرُ كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا هُدًى، وَهَذَا بَيِّنٌ مِنَ الْهُدَى، وَهَذَا بَيِّنَاتٌ مِنَ الْهُدَى، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا غَايَةُ الْمُبَالَغَاتِ.

---

(٢٢٣) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٢٨.

(٢٢٤) المحرر الوجيز، ١/ ٢٥٤.



الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: الْقُرْآنُ هَدًى فِي نَفْسِهِ، وَمَعَ كَوْنِهِ كَذَلِكَ فَهُوَ أَيْضًا بَيِّنَاتٌ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، وَالْمُرَادُ بِالْهُدَى وَالْفُرْقَانِ: التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ {آل عمران}، وقَالَ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ {البقرة}، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ {الأنبياء}، فَبَيَّنَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَعَ كَوْنِهِ هُدًى فِي نَفْسِهِ فَفِيهِ أَيْضًا هُدًى مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي هِيَ هُدًى وَفُرْقَانٌ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُحْمَلَ الْأَوَّلُ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ، وَالْهُدَى الثَّانِي عَلَى فُرُوعِ الدِّينِ، فَحِينَئِذٍ يَزُولُ التَّكْرَار، واللَّهُ أَعْلَمُ"[225].

والأمر يتسعُ لمزيد من الرأي في التوجيه.

أما قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فهو الناسخ لما جاء في الآية السابقة على ما بينا، إذ قد رجحنا أن الصيام لم يكن على الإلزام في بداية تشريعه، وكان يسعُ المطيقَ تركه إلى الفدية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ناسخ لذلك التخيير، وإيجاب للصيام على كل قادر، ثم قال بعدها: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وهذه الجملة قد ذُكرت قبل، وأثار ذكرها هنا تساؤل المفسرين، وأجابوا بأنه: لمّا حصل نسخ على التخيير المذكورةِ الجملةُ بعدَه في الآية السابقة، ثم نسخ ذلك هنا؛ فلعله يُتوهَّم أن الرُّخصة كذلك نُسخت، فأعاد ذكرها دَفْعاً لذلك الوهم، وتأكيداً كذلك على التيسير والتخفيف الظاهرة معالمه في الآيات.

---

(٢٢٥) تفسير الرازي، ٥/ ٢٥٤.



فائدة أصولية

والمقصود بطبيعة الحال:

أن من كان مريضاً أو على سفر فأفطر فالواجب عليه القضاء في أيام أخر، ولكن حذَفَ من النّصّ ما يدلُّ السياق عليه ويفرضه تصحيحُ المعنى، ويسمُّون ذلك من أنواع الدلالات في الأصول: دلالة الاقتضاء.

وقد تأملت؛ فما رأيت أنه قد احتفّت فريضةٌ فرضها الله في كتابه بهذا القدر من إشارات التخفيف والتيسير في القرآن، فتأمل!

ولذلك حسُن بعدها أن تُرفعَ قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعد الإسلام في التشريع، وهي قاعدة رفع الحرج: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وهي قاعدة لا تكاد تترك باباً من أبواب الفقه إلا دخلته!

أما قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ففيها بيان لعلل ما سلف من تشريع هذه الأحكام؛ من فرضية الصيام، ومن الترخيص فيه للمريض والمسافر.

وقد حصرت الآية تلك العلل الحُكْمية بثلاث:

١. إكمال العدة، أي إتمام صيام عدد الأيام المفروضة من الشهر في حال أفطركم العذر عن صيام بعضها: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

٢. تكبير الله في مقابل ما منَّ به علينا من الهداية إلى تشريع الصيام، والترخيص على المعذور في الفطر: وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾.

٣. شكر الله على نعمائه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وفيه إشعار بكون الصيام نعمة تستلزم شكر الله، ومن وَقَفَه التأمُّل واستشعارُ تجليات النفس فيما احتوته هذه العبادة العظيمة من معان ترتقي بالقلوب، وما صاحبها من عبادات؛ كالقيام والاعتكاف والتلاوة والصدقة تقرِّب

العبد من ربه وتُذيقُه حلاوةَ قربِهِ؛ عرف مقدار نعمة الله عليه وما منَّ به عليه من عظيم الآلاء وجزيل الإعطاء.

وتثير الواو الداخلة على العلة الأولى في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ مكامن التدبُّر لدى المفسر؛ فيقول: أهذه الواو عاطفة؟ فإن كانت عاطفة فأين المعطوف عليه، ولا علةً مذكورة قبل هذا حتى نفترض العطف عليها؟

تنوَّعت إجابات أهل هذا العلم عن السؤال، وأنا أختار منها ما يناسب بلاغة القرآن إن شاء الله؛ بعيداً عن الأقوال التي تجعل هذه الواو ومثيلاتها زائدة!

فأقول: إن الواو عاطفة؛ نعم، وهي تعطف المذكور من العلل على محذوف منها، وإنما يُستعمل هذا الأسلوب للإشارة إلى أن المذكور منها إنما هو نموذج لعلل أخرى وحِكَم تحْتَفُّ بهذا التشريع العظيم، ومثل هذا كذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ {الحشر}، أي: لحكم كثيرة منها: إخزاء الفاسقين، وهو أسلوب بليغ من أساليب القرآن الكريم، فيه: الإيجاز، والتنبيه على محذوفات يُترك تأملها للمتدبر، وهو بهذا يُثير الذهن ويستدعي إعمال العقل في إدراك المزيد من حكم الله تعالى فيما يقدره أو يُشرِّعه.

۞ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾.

المناسبة هنا من المناسبات المشهورة، ذلك أن ذِكر الدعاء هنا في سياق آيات الصيام تنبيه على أن الصيام موسم من أهم مواسم الدعاء، وأن العبد إذا دعا الله تعالى فيه كان على مظنة أن يُستجاب له، وهذا معلَّل بتصوُّر حال قلب الصائم!

الصيام امتناع لأجل الله عن الطعام والشراب وبقية المفطرات، وهذا الامتناع لأجل الله يورث شعوراً بالقرب منه سبحانه، وتطلُّباً لما عنده، وقد يرافقه كذلك ضعفٌ ناتج عن الامتناع عن الطعام والشراب، يورث شعوراً بالحاجة والفقر، وانكساراً على باب





الرب، فإذا دعا اللهَ تعالى وهذا حال قلبه كان إلى الصدق أقرب، فكانت الإجابة أدعى.

وقد تلطف شيخنا الدكتور صلاح الخالدي حفظه الله في تفريقه بين العباد والعبيد، بأن العباد تستعمل عادة في القرآن في الصالحين، بعكس عبيد؛ التي تشمل الكفرة من الخلق، وسمَّى "ألف" العباد: ألف العزة، و "ياء" العبيد: ياء الذلة!

وإضافتهم العباد إلى الله عبر ضمير المتكلم: ﴿عِبَادِى﴾ للتشريف والاختصاص والإلماح إلى تربية الله لهم وتوفيقه إياهم.

وقد أجاب ابن عاشور رحمه الله على إيرادٍ يمكن أن يورَد على هذه القاعدة القرآنية من استعمال العباد في القرآن مضافين غالباً إلى الله في وصف الصالحين، فقال: "وكذلك اصطلاح القرآن غالباً في ذكر العباد مضافاً لضمير الجلالة- أي إطلاقه على المؤمنين-، وأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ﴾ {الفرقان} بمعنى المشركين؛ فاقتضاء أنه في مقام تنديمهم على استعبادهم للأصنام"[٢٢٦].

وأما قربه سبحانه هنا: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ فهو قربُ علم ورحمة وإجابة، وإقامةُ الذات مقام الصفة أو الفعل أبلغ في التعبير عن القرب، انظر إلى أنه لم يقل: فإن رحمتي قريبة أو إجابتي أو عفوي؛ إنما قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

وبيَّن وجه القرب بأنه يجيب دعوة الداعي بمجرد الدعاء: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، و"إذا" هذه ظرفية، كأنه يشير إلى أن الظرف الزمني الذي تحصل فيه الإجابة هو ذات الظرف الزمني الذي يحصل فيه الدعاء!

وإذا كان كذلك؛ فالكيِّس هو الذي يلزم عتبات ذلك الباب ولا يُفارقه، إذ المدعوُّ كريم رحيم لا يرد السائلين، وهو الفاعل المتصرف الغني الحميد، ولهذا المعنى حسن ختم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

---

(٢٢٦) التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٩.





ومن لطائف تركيب الآية أنه سبحانه تولّى إجابتهم بنفسه إذ حذف ما يدل على وساطة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ على الطريقة المعهودة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وإنما كان كذلك تنبيهاً على شدة قرب العبد من ربِّه في مقام الدعاء[٢٢٧]، وعلى عدم احتياج العبد لواسطة بينه وبين ربه في صلته به وفي إقباله عليه وفي رغبته إليه.

وتأكيد قربه سبحانه بـ (إن) في قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لزيادة ترسيخ هذا الاعتقاد في صدر المؤمن، وتبديد أوهام اليأس من رحمته وفضله وإجابته.

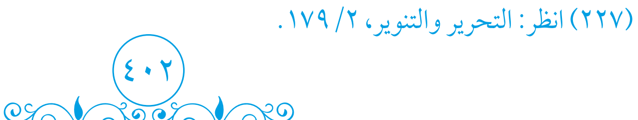
حذف الحرف

وقد حُذفتِ الياء في الآية من موضعين: ﴿الدَّاعِ﴾ وأصلها: الداعي، و﴿دَعَانِ﴾ وأصلها: دعاني، وحذفها معهود معروف في لغة العرب، ويمكن أن نذكر لطيفة في ترجيح حذفهما مع جواز الحذف والإثبات فنقول: إنه لما أراد الإشارة إلى سرعة الإجابة بمجرد الدعاء حذف ما يسوغ حذفه، خصوصاً أنهما ياءان مدّيتان؛ من شأن إثباتهما تطويل القراءة بالجملة، والله أعلم.

ثم إنه لما أعلمهم بعظيم تفضله على عباده وقرب إجابته للداعين له المنكسرين بين يديه المقبلين عليه: أمرهم بتأدية حقه عليهم واغتنام ما أفسحه لهم من فرصة الفوز ورجاء الرشاد فقال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، واستجابتهم له بطاعة أوامره والتزام شريعته والإقبال على دعائه، وإيمانهم به: ثباتهم على هم عليه من الإيمان. وهذان - الاستجابة بالطاعة والثبات على الإيمان - يُرشّحانهم لبلوغ مرتبة الرشاد، والرَّشاد: الاستقامة والهداية، وعكسُه: الغيّ.

---

(٢٢٧) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٩.



مسألة:

قد يقول قائل: كيف نوفق بين الآية في قطعها بأن الله يجيب دعوة الداع إذا دعاه، وبين ما نراه من أن الله لا يَستجيب دعوة كل داع؟!

تعددت إجابات العلماء على هذا السؤال، وقد استفاض القرطبي عند تفسيره لهذه الآية في الجواب على هذا السؤال، ومن أراد التفصيل فليرجع إليه، لكننا نكتفي هنا بجواب مجمل، فنقول:

إن العموم الوارد في الآية في إجابة كل داعٍ، مخصوص بما جاء في النصوص الأخرى من بيان بعض موانع الاستجابة، كأكل الحرام والاعتداء في الدعاء بأنواعه وما يلحق هذا، وهذا أولاً، ويحسن أن نجمع إلى هذا الجواب أن نقول:

"إن الله يجيب كلَّ دعاء، فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عنه، وإما أن يدّخر له في الآخرة"[٢٢٨]، وقد روَوا في هذا المعنى حديثاً أعرضت عن ذكره لضعفه، الا أن المعنى حسن، وهو المنقول من كلام القرطبي.

وتأمَّل هذا الحديثَ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي"[٢٢٩].

وحديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أيُّها النَّاسُ إنَّ اللهَّ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَّ أمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به الْمُرْسَلِينَ، فقالَ:﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ {المؤمنون} وقالَ: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ {البقرة ۝١٧٢}، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ،

---

(٢٢٨) تفسير القرطبي، ٣/ ١٨٠.

(٢٢٩) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٨/ ص٧٤/ ح٦٣٤٠).



ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟"[٢٣٠] ، وفيما ذكر كفاية لهذه العجالة، ومن أراد الاستزادة فعليه بالمظانّ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

هذا استطراد في بيان بعض أحكام الصيام التي تدعو إليها الحاجة، وعرضت الآية لأحكام عدة؛ أهمها:

- إباحة الرفث إلى النساء ليالي الصيام، ونسخ ما كان محرماً من قربان النساء لياليه في صورة معينة.
- إباحة الأكل والشرب طول الليل، ونسخ ما كان محرماً منه في ليالي الصيام في صورة معينة، ويأتي بيان ذلك إن شاء الله.
- تحريم المباشرة في حالة الاعتكاف.

ولنبدأ بالتفسير، ولا سبيل إلى التبسط في تناول مسائل الآية إلا بالقدر الذي يدل عليه اللفظ؛ من غير بيان للخلاف، وذلك تماشياً مع المقصود من الكتاب.

---

(٢٣٠) صحيح مسلم، ١٠١٥.





سبب النزول

ذُكر لنا سببان في نزول الآية الكريمة، والظاهر أنهما معاً سببا نزولها، ولا مانع من هذا أصولياً، وقد بُيِّن الكلام في أمثال هذه الحالة في كتب علوم القرآن[٢٣١]، وقد جمعهما لنا التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلي في رواية واحدة، قال: "كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر، فلما دخل رَمضان كانوا يصومون، فإذا لم يأكل الرجل عند فطره حتى ينام، لم يأكلْ إلى مثلها، وإن نام أو نامَتْ امرأته لم يكن له أن يأتيها إلى مثلها، فجاء شيخٌ من الأنصار يقال له صرمة بن مالك، فقال لأهله: أطعموني. فقالت: حتى أجعل لك شيئًا سخنًا! قال: فغلبته عينه فنام، ثم جاء عمر فقالت له امرأته: إني قد نمت! فلم يعذرها، وظن أنها تعتلّ، فواقعها، فبات هذا وهذا يتقلبان ليلتهما ظهرًا وبطنًا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، وقال: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، فعفا الله عن ذلك، وكانت سُنَّةً"[٢٣٢].

والرواية فيها التصريح بأن هذه الآية ناسخةٌ لحُكْمٍ سابقٍ تضمَّن تحريمَ الجماع أو الأكل والشرب إذا نام الرجل من ليلته ثم استيقظ، وقد تأول قوم الآية على غير ذلك، وما أثبتناه هو ما نراه في تفسيرها، فيتحصل لدينا أن في آيات الصيام هذه نَسخَيْن: الأول: نسخ التخيير في الصيام للقادر المطيق، والثاني: نسخ تحريم قربان النساء أو الأكل والشرب من ليلة الصيام في الصورة المذكورة.

وجاء تعليل هذا التخفيف من إباحة ذلك بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، وهذا تشبيه بليغ فيما أرى، حذَف أداةَ الشبه ووجهَهُ في الموضعين، وأبقى المشبه والمشبه به، ووجهُ الشبه بين الرجال والنساء وبين اللباس لكل منهما يحتمل وجوها:

- إما القرب والمخالطة، فكأن قربهما من بعضهما وما يستدعيه هذا من الدعوة إلى الجماع كقرب اللباس من الجسد؛ قرب ملاصقة.

---

(٢٣١) الاتقان في علوم القران، ١/ ١٢٢

(٢٣٢) لم أجد رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى سوى في مشكل الآثار للطحاوي (ج١/ ص٤١٩/ ح٤٧٩)



وإما الستر والإعفاف، فاللباس ساتر لصاحبه، وكذا المرأة ساترة لزوجها بسدِّ حاجته الجنسية، وكذا هو بالنسبة لزوجته.

وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، يفسره ما ذكر في سبب النزول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

و"تختانون" بمعنى: تخونون، لكنه على وزن الافتعال، وفيه تكسب وتقصد، وجعل مفعول الاختيان: النفس.

وفيه :

لمسة تربوية

أن الإنسان إنْ ما اقترف معصية من المعاصي فإنما يخون بهذه المعصية نفسه، وذلك بأنه يعرضها لسخط الله وعذابه، وأي خيانة تداني ذلك؟!

ولْنستحضر لبيان دقة التعبير قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ {الأحزاب ٧٢}، حيث سَمَّى الله تعالى التكليف بالطاعة والقيام بأحكام الدين أمانة، فيحسن تسمية العصيان وترك القيام بها خيانة، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ أمر للإباحة اتفاقاً، والأمر بعد النهي يفيد الإباحة عند كثير من أهل الأصول.

والمقصود بالمباشرة هنا الجماع، ولكن القرآن كنَّى عنه بلفظ يدلُّ عليه.

لمسة تربوية

وفيه :

أن التكنية عند الحديث عن الجماع وما يشبهه من الألفاظ الثقيلة على





الأذن من آداب الإسلام، وقد جاء في الحديث: "ليس المؤمن بالطعان وباللعان ولا الفاحش ولا البذيء"[٢٣٣].

لمسة تربوية

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فسره أكثرهم بطلب الولد، وإذا كان كذلك أفاد الإرشاد إلى أن كلَّ عملٍ يقومُ به المؤمنُ يليق به أن يلحظ فيه مرامي سامية وأبعاداً هي فوق مجرد قضاء الوطر وإنفاذ الشهوة.

وفي الآية كذلك:

رحمة الله بعباده وإرادته الخير لهم وإزالته المشقة عنهم، وأن التكليف بما لا طاقة للمرء به مما يضادّ خلقته وجِبلّته موضوع في الشريعة.

وكذلك ينبغي على المربّين أن لا يكلفوا من تحت أيديهم من الأبناء والبنات والتلامذة ما هو فوق طاقتهم من الأعمال، وما ليس في مستواهم من المراتب؛ ذلك أن الذنب- والحال هذه- يُطرِق إلى نفس المذنب المرة بعد المرة اليأس والشعور بالبعد عن الله والجفاء عن الإيمان؛ فتكليفه بما في طاقته أدعى إلى إصلاح دينه.

ثم أعلن لهم الإذن فيما كانوا ممنوعين عنه: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فالأمر هنا بعد الحظر أفاد الإباحة الأصلية؛ و ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني الولد، كما هو تفسير ابن عباس، ويعضده السياق.

ولمّا بيّن ما يتعلّق بالجزء الأول من سبب النزول وهو قربان النساء ليالي الصيام؛ بيَّن ما يتعلقُ بالجزء الثاني منه وهو ما يتعلَّق بالإمساك عن الطعام والشراب إذا ما نام الصائم بعد المغرب ثم استيقظ من ليلته، فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، فأباح كل ذلك إلى أن يتبيّن الفجر، ويتميَّز

(٢٣٣) أخرجه الترمذي في سننه (ج٤/ ص٣٥٠/ ح١٩٧٧). وقال الألباني: صحيح.





النهار من الليل، وهو المقصود بالخيط الأبيض والخيط الأسود، وقد جاء في هذا الجزء من الآية ما رواه الإمام الطبري بسنده إلى عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلَّمني الإسلام، ونَعت لِيَ الصلوات، كيفَ أصَلي كلَّ صلاة لوقتها، ثم قال: إذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيامَ إلى الليل، ولم أدر ما هو، ففعلتُ خَيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواءً، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله كل شيء أوصيتني قد حفظتُ، غير **الخط الأبيض من الخيط الأسود!** قال: وما منعك يا ابن حاتم؟ وتبسَّم كأنه قد علم ما فعلت، قلتُ: فتلتُ خيطين من أبيض وأسود فنظرتُ فيهما من الليل فوجدتهما سواء! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رُئي نَواجذُه، ثم قال: ألم أقلْ لك: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾؟ إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل"[٢٣٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، بيان لغاية الصيام، وهي: أول الليل الذي يبدأ بغروب الشمس.

فائدة لغوية

ومعلوم أن "إلى" تفيد انتهاء الغاية، وقد تفيد دخول ما بعدها فيها؛ لتكون بمعنى "مع"، وقد لا تفيد ذلك، وهو الأصل فيما يبدو، وهو هنا في الآية كذلك، وفرّق بعضهم تفريقاً دقيقاً بين كون ما قبل "إلى" وما بعدها من جنس واحد فيفيد دخول ما بعدها فيما قبلها؛ كما في قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة ٦]، وبين كون ما بعدها من غير جنس ما قبلها فلا يفيد دخوله؛ كما في هذه الآية، فالليل ليس من جنس النهار، وهكذا، وهو تفريق جيد.

(٢٣٤) تفسير الطبري، ٣/ ٥١٢.





وقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ بيان لحكم من أحكام الاعتكاف لاعتبار الصلة بين الاعتكاف والصيام، والمسنون الاعتكاف في العشر الأخيرة من رمضان؛ كما هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك فضيلةٌ في غيرها، وقد يستعجم على بعضهم فهْمُ وجه النهي عن مباشرة النساء أثناء الاعتكاف في المساجد، والتوجيه:

أن المعتكِف قد يخرج من معتكَفه لقضاء حاجة ما في بيته؛ فلا يجوز له والحالة هذه أن يباشر زوجته، وفعلُه ذلك مفسد لاعتكافه كما تقرر عند الفقهاء[٢٣٥] .

ولما كانت الآية على هذا النحو من تشريع هذه الأحكام الدقيقة ناسب أن يعقّب على هذا بقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة فيما سبق ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدّها وشرعها ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فتكونوا على وشك تجاوزها وعلى قرب انتهاكها.

فائدة تتعلق بالمتشابه اللفظي

والتعبير هنا بـ ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وفي مواضع أخرى بـ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، كما في قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ {البقرة ٢٢٩}، من حيث إن المنهيَّ عنه هنا أمور لبعضها تعلّق بالاقتراب من النساء في محل النهي عن قربانهن، ومن المعلوم أن القرب مظنة الوقوع في المحظور، كما أنه في موضع النهي عن الزنا من سورة الإسراء قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ {الإسراء ٣٢}، بخلاف المنهي عنه في آيات الطلاق والحقوق الزوجية؛ فإن المطلوب من كلٍّ من الزوجين الوقوف عند حقه بلا اعتداء، والله أعلم.

---

(٢٣٥) سنن الترمذي، ٣/ ١٥٩

وجاء الخَتْم بقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على هذا النحو البديع من التشريع والتفصيل ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ في كل شأن من الشؤون ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ويعظُم الله وتعظُم تشريعاته في قلوبهم.

فوائد واستنباطات تربوية وعلمية

وفي الآية:

الإشارة إلى أن فقه أحكام الله تعالى من أسباب التقوى في القلوب، وأن تعلّمها والنظر فيما جاء فيها من آيات وتفهمها وفيما جاء فيها من سنن وفقهها هو مظنة الوقوف عندها والالتزام بها، فالعمل فرع للعلم، ونتاج من نتاجه المبارك.

وفيها كذلك:

الحث على التفقه في أحكام الصيام وأحكام الشريعة عموماً، وأن ذلك مظنة اتقاء المحارم واجتناب المنهيات.

كلمة في السياق:

احتوت هذه الآيات على العديد من العبادات المفيدة للقلب؛ من شأن المتعبد بها حصول التقوى في قلبه، والارتقاء بإيمانه؛ إذ عرضت:

أولاً: لعبادة الصيام، وهي العبادة الرئيسة في السياق.

وعرضت **ثانياً**: لقراءة القرآن على طريق الإشارة، إذ رمضان موسم القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وكل شيء في موسمه يزداد حلاوة!

وثالثاً: للذكر؛ بالتكبير والشكر لله سبحانه على نعمة الهداية إلى عبادة الصيام في رمضان، وما تعلق بها من الرخص للتيسير: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.



ورابعاً: الدعاء: المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وأما **خامساً**: فالاعتكاف؛ المذكور في قوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ﴾، وعرضت بعدُ للعلم ولتفقه البيان لآيات الله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

هذه ستُّ عبادات عرضت لها الآيات التي شرعت الصيام، وافتتحت بقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، واختتمت بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فهو موسم من مواسم الطاعات إذاً؛ أشبه دورة مكثفةً تصنع التقوى في قلب المؤمن المجتهد فيها بمعالجة هذه العبادات: الصيام، والقرآن، والذكر، والدعاء، والاعتكاف وتعلم آيات الله والتفقه فيها، وما أكفاها من عبادات لإحياء موات القلوب!

❖ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

ولما كان الأمر في الآيات السابقة بالصيام الذي هو امتناع عما هو في الأصل في إطار المباح؛ ناسب أن ينهى عما هو أصلا محرم من أموال الناس.

وكذلك:

في نظرة عامة لمناسبة الآية لموضوع السورة؛ فإنه يمكن أن يقال:

إن السورة جاءت لصناعة الأمة المستخلَفة، القادرة على قيادة البشرية، وهذا يستلزم استقرار "الأمن الاقتصادي"، وبعبارة أصولية مقاصدية: حفظ المال من الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة لحفظها، فلا عجب أن تتطرق السورة في محطات متعددة منها إلى الحديث عن هذه الضرورة، والجانب التي تتناوله السورة في هذا الموضع: الأمن الاقتصادي، من حيث إن أي اقتصاد لا يأمن صاحبه فيه على ماله فهو اقتصاد هشّ ضعيف، لا ينهض ليقيم أمة تملك سوقها وقرارها الاقتصادي والسياسي من ثم.



وقد جاء النهي عن الاستحواذ على أموال الناس بلفظ النهي عن أكلها؛ لعله لأن الأكل أظهر وجوه الاستعمال؛ كما قيل في غير ما موضع، ولعله للمناسبة والمقابلة بينه بين الأمر بالصيام؛ فالأكل فعل مقابل للصيام الذي يبرز فيه الامتناع عن الأكل.

و"أموالكم"، يعني أموال بعضكم، كما يدل عليه قوله: ﴿بَيْنَكُم﴾، وقد جاء في تفسير الطبري: "يعني تعالى ذكره بذلك: ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض بالباطل، فجعل تعالى ذكره بذلك آكلَ مال أخيه بالباطل، كالآكل مالَ نَفسه بالباطل.

ونَظيرُ ذلك قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ {الحجرات ١١}، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ {النساء ٢٩}، بمعنى: لا يلمزْ بعضكم بعضا، ولا يقتُلْ بعضكم بعضا؛ لأن الله تعالى ذكره جعل المؤمنين إخوة، فقاتِلُ أخيه كقاتل نفسه، ولامِزُه كلامزِ نفسه، وكذلك تفعل العرب تُكنِّي عن نفسها بأخواتها، وعن أخواتها بأنفسها، فتقول: "أخي وأخوك أيُّنا أبطش"، يعني: أنا وأنت نصْطرع، فننظر أيُّنا أشدّ، فيكنِّي المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه"[٢٣٦].

والنهي عن أكل الأموال حال كونه ﴿بِالْبَاطِلِ﴾، وهو كلُّ طريق نهت الشريعة عنه، فيدخل فيه: الربا، والميسر، والسرقة، والغبن والغرر، وسائر البيوع المنهي عنها.

ومعطوف على هذا النهي حالةٌ قد تقترن بالأكل بالباطل؛ وهي حالة ما إذا أدلى الآكل بهذا المال إلى الحكام؛ فقوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ معطوف على ﴿تَأْكُلُوا﴾ في حيز النهي؛ فكأنه قال: "لا تأكلوا ولا تدلوا".

وأصل "الإدلاء": إرسال الرجل الدلو في سبب "حبل" متعلقاً به في البئر، فقيل للمحتج لدعواه: "أدلَى بحجة كيت وكيت"؛ إذا كان حجته التي يحتج بها سببا له، هو به متعلقٌ في خصومته، كتعلق المستقي من بئر بدَلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلو به متعلقة، يقال فيهما جميعاً- أعني من الاحتجاج، ومن إرسال الدلو في البئر بسبب: "أدلى فلان

(٢٣٦) تفسير الطبري، ٣/ ٥٤٨.



بحجته، فهو يُدلي بها إدلاء، وأدلى دلوه في البئر، فهو يدليها إدلاء"[237].

والحكام: القضاة الذين يحكمون بين الناس في الأموال وغيرها، وصورة ذلك ما بيّنه ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عنه الإمام الطبري عن علي بن أبي طلحة قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾، فهذا في الرجل يكون عليه مالٌ، وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام وهو يعرف أنّ الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم: آكلٌ حراما"[238].

ويدخل فيها كذلك- وهو أشدّ- رشوة الحكام ليحكموا له ظلماً وزوراً!

ثم قال في بيان علة الإدلاء بالأموال المأكولة بالباطل إلى الحكام: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تقبيح لفعلهم، وبيان لشناعة هذه الصورة غير المرتضاة.

وفيه من الفوائد الفقهية:

- الدلالة على أن الحصول على مال الآخرين حرام إلا بطريق شرعي، وأن أي استحواذ من غير الطرق الشرعية على الأموال يعدُّ حراماً.
- الدلالة على أن حكم القضاة والحكام لا يحلّ حراماً ولا يحرِّم حلالاً، ويدل عليه من الحديث: ما ورد في الصَّحِيحَيْنِ عن أُمِّ سلمةَ: أنَّ رسولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَر، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخِصْم، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا، أَوْ لِيذَرْها"[239] قال الإمام ابن كثير بعد إيراد الحديث ههنا: "فدَلَّتْ هذه الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَا يُحِلّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا هُوَ حَرَامٌ، وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا هُوَ حَلَالٌ، وَإِنَّمَا هُوَ يَلْزَمُ في الظَّاهِرِ، فَإِنْ طَابَقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ

---

(237) تفسير الطبري، ٣/ ٥٥٢، وانظر: تفسير الرازي، ٥/ ٢٨٠.

(238) تفسير الطبري، ٣/ ٥٥٠.

(239) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٣/ ص١٣١/ ح٢٤٥٩).





فَذَاكَ، وإِلَّا فَلِلْحَاكِمِ أجرُه وَعَلَى الْمُحْتَالِ وِزْره؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾[240] .

تعقيب سياقي:

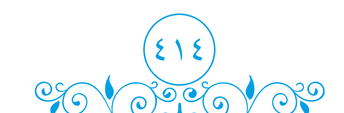
إن هذا الدين كلٌّ متكامل، لا تنفصل فيه العبادات عن الحياة، ولا الحياة بمعزل عن العبادات!

إن العبد الذي يتوجه إلى الله بعبادة الصيام لا يُتصوَّر منه أن يفعل ذلك في الحين الذي ينطلق فيه في الحياة يأكل أموال الناس بالباطل، يغصب الحقوق ويتلاعب بالعدالة، ويملأ بطنه من أموال إخوانه، ثم يأوي بعد ذلك متخماً إلى محراب الصلاة ليناجي الله ويدعوه بالتوفيق والرزق!

إن الأمة الصائمة القائمة في محراب العبادة أمة حريصة على أداء الحقوق والمحافظة على أمن الناس في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم؛ أمة ترى الله في حقوق الخلق كما تراه في محراب العبادة سواء بسواء!

---

(٢٤٠) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٢٨.





المقطع الخامس والعشرون
حول منهج النظر، وتشريعات جهادية تحفظ نظام الأمة

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

عُرض في هذا المقطع من السورة قضية تتعلق بالحج؛ لكن استُثمرت في التوجيه إلى منهج النظر، وكذلك: أُمر فيه بالجهاد، وبُيّنت بعض أحكامه، وثمة قضية لها علاقة بمنهج النظر فيه، وسيأتي أثناء الاستعراض التفسيري نَسْجُ هذه الموضوعات معاً، وبيانُ تماسكها.

وفي مثل هذه المواضع يحسن بالمتدبر أن يسلك مسلكين؛ أحدهما: ينظر فيه إلى السياق القريب، ويتأمل المفضي إلى هذه الآية من المعاني القريبة.

والثاني: أن ينظر إلى السياق الكلّيّ للسورة، وعلاقة الآية به ومحلّها منه، كأنه يرى إلى



موضع الجزء من الكل، وعلاقة الجزئي بكلِّيِّه.

ومثال ما يقال في هذا المقام من الأول؛ ما ذكره البقاعي برهان الدين في كتابه "نظم الدرر" في بيان مناسبة الآية لسياقها القريب:

"ولمّا أتمَّ سبحانه وتعالى البيان لما أراده مما شرعه في شهر الصوم ليلاً ونهاراً وبعض ما تبع ذلك، وكان كثير من الأحكام يدور على الهلال؛ لا سيما أحد قواعد الإسلام: الحج الذي هو أخو الصوم، وكانت الأهلة كالحكام توجب أشياء وتنفي غيرها؛ كالصيام والديون والزكوات، وتؤكل بها الأموال حقاً أو باطلاً، وكان ذكر الشهر وإكمال العدة قد حرَّك العزم للسؤال عنه؛ بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، وجعل ذلك على طريق الاستئناف جواباً لمن كأنه قال: هل سألوا عن الأهلة؟ فقيل: نعم، وذلك لتقدُّم ما يثير العزم إلى السؤال عنها صريحاً، فكان سبباً للسؤال عن السؤال عنها، وكذا ما يأتي من قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ {البقرة ٢١٥}، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ {البقرة ٢١٧}، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ {البقرة ٢١٩}، بخلاف ما عطف على ما قبله بالواو"[٢٤١].

ومثل ما ذكره صاحب المنار؛ قال:

«ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حُكْمَ الْأَمْوَالِ عَقِبَ ذِكْرِ أَحْكَامِ الصِّيَامِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، وَالصِّيَامُ عِبَادَةٌ مَوْقُوتَةٌ لَا يَتَعَدَّى فَرْضُهَا شَهْرَ رَمَضَانَ، وَالْأَمْوَالُ وَسِيلَةٌ لِعِبَادَةِ الْحَجِّ وَهُوَ يَكُونُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَلِعِبَادَةِ الْقِتَالِ مُدَافَعَةً عَنِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ وَهِيَ قَدْ كَانَتْ مَمْنُوعَةً فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعَقِّبَ بَعْدَ أَحْكَامِ الصِّيَامِ وَالْأَمْوَالِ بِذِكْرِ مَا يُشْرَعُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنَ الْحَجِّ وَمِنَ الْقِتَالِ عِنْدَ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَبْدَأُ ذَلِكَ بِذِكْرِ حِكْمَةِ اخْتِلَافِ الْأَهِلَّةِ»[٢٤٢].

---

(٢٤١) نظم الدرر، ٣/ ٩٨.

(٢٤٢) تفسير المنار، ٢/ ١٦٢.





هذا نموذجٌ جيِّد في هذا الموضع الذي هو مدعاة للنظر في إدراك المناسبة القريبة المحتاجة إلى شيء من التأمل.

أما الكلام في المناسبة العامة المتعلقة بعموم السياق الكليّ؛ فقد ذكرنا مراراً موضوع السورة الرئيس، وهو إعداد الأمة المستخلفة، واستكمال تربيتها وتأهيلها للقيام بهذا الدور الريادي في البشرية، وإذا كان كذلك فإن ثمة آداباً منهجية وحِكَماً كليَّة ينبغي أن ترعاها العقلية الجمعية لهذه الأمة الرائدة، وأسلوباً في التعاطي مع الظواهر والأعراض، وتوظيفاً للطاقات في النافع من المشغلات، وعدم إهدار الطاقات إلا في الأولويات، ثم الكلام عن الجهاد وشيء من أحكامه، وسيأتي تمام التوضيح لهذا أثناء التفسير.

التفسير

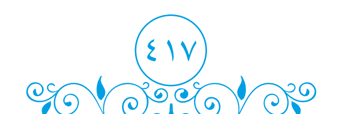
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

في التحرير والتنوير:

"فمناسبةُ وضعِها في هذا الموضِعِ هي توقيتُ الصِّيَامِ بِحُلُولِ شهرِ رمضانَ، فكان من المناسبةِ ذكْرُ المواقيتِ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَمِنْ كَمَالِ النِّظَامِ ضَبْطُ الْأَوْقَاتِ، وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَيْضًا نَزَلَتْ بَعْدَ أَنْ شُرِعَ الْحَجُّ أَيْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾"[٢٤٣].

وقد اختلفوا في فهم الآية؛ إذ السؤال في الآية يحتمل أن يكون عن الحكمة في تطور شكل الهلال، وأن يكون عن السبب والعلة، والآية ليست نصًا في المراد، وقد أمر الله

(٢٤٣) التحرير والتنوير، ٢/ ١٩٣.



الرسول أن يجيب السائلين بقوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا.

والأهلة: جَمْعُ هِلَالٍ، وهو مبتدأ القمر في أول الشهر وآخره في آخره، "سُمِّيَ هِلَالًا لِأَنَّ النَّاسَ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، مِنْ قَوْلِهِمُ اسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ إِذَا صَرَخَ حِينَ يُولَدُ، وَأَهَلَّ الْقَوْمُ بِالْحَجِّ إِذَا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ"[٢٤٤].

وفي تفسير البغوي:

نَزَلَتْ فِي مُعَاذِ بن جبل وثعلبة بن غنمة الْأَنْصَارِيَّيْنِ قَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ما بال الهلال يبدو دَقِيقًا ثُمَّ يَزِيدُ حَتَّى يَمْتَلِئَ نُورًا، ثُمَّ يَعُودُ دَقِيقًا كَمَا بَدَأَ وَلَا يَكُونُ عَلَى حَالَةٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾"[٢٤٥]، ولنترك الترجيح إلى موضعه اللائق به.

هذا سؤالهم، أما ما أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوابهم عليه فقوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، أي هي كذلك لأجل أن تكون مواقيت يوقِّت الناس بها أعمالهم ومعايشهم وعباداتهم؛ التي من أهمها: الحج.

وهذا الجواب مطابق للسؤال، إن كانوا يسألون عن الحكمة، وهو من الأسلوب الحكيم، إن كانوا يسألون عن العلة، والأسلوب الحكيم: أن يجاب السائل بغير ما يطلب؛ توجيهًا له إلى ما يفيده، وما هو جدير بالسؤال عنه[٢٤٦].

وأما قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، وهو جزء الآية الثاني؛ فله تعلّقٌ حسبما تقتضي الأصول[٢٤٧] بما سبقه منها، ثم اختلفوا في ذلك على حسبه، ويمكن أن نقول إن الأقوال ترجع فيه إلى

---

(٢٤٤) تفسير البغوي، ٢/ ٢٣٥.

(٢٤٥) التحرير والتنوير، ٢/ ١٩٣.

(٢٤٦) التحرير والتنوير، ٢/ ١٩٣.

(٢٤٧) تقتضي أصول التفسير أن المناسبة مطردة في مثل هذه المواضع في القرآن الكريم، وأن زعم عدم وجودها يُطرق الخلل والتفكك للنص القرآني المنزَّه عن ذلك.





قولين:

الأول: أنه لّما ذكر الحجَّ في قوله: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾؛ استطرد في بيان حكم عملٍ كانوا يعملونه إذا رجعوا من الحج؛ وهو الدخول من ظهور البيوت لا من أبوابها، وتدل عليه زمرة من الآثار، يجمع قصتها الإمام البغوي في قوله:

"قالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إِذَا أَحْرَمَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ، لَمْ يَدْخُلْ حَائِطًا وَلَا بَيْتًا وَلَا دَارًا مِنْ بَابِهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ نَقَبَ نَقْبًا فِي ظَهْرِ بَيْتِهِ لِيَدْخُلَ مِنْهُ وَيَخْرُجَ، أَوْ يتخذ سلّما فيصعد منه ويهبط، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْوَبَرِ خَرَجَ مِنْ خَلْفِ الْخَيْمَةِ وَالْفُسْطَاطِ وَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ حَتَّى يَحِلَّ مِنْ إِحْرَامِهِ، وَيَرَوْنَ ذَلِكَ بِرًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحُمْسِ، وَهُمْ قُرَيْشٌ وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وَبَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنُو نضر بن معاوية، سمّوا أحمسا لِتَشَدُّدِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَالْحَمَاسَةُ الشِّدَّةُ والصلابة، قالوا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْتًا لِبَعْضِ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: رِفَاعَةُ بْنُ التَّابُوتِ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ الْبَابِ، وَهُوَ مُحْرِمٌ فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِمَ دَخَلْتَ مِنَ الباب وأنت محرم»؟ فقال: رأيتك دخلت منه فَدَخَلْتُ عَلَى أَثَرِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني أحمسي»، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنْ كُنْتَ أَحْمَسِيًّا فإني أحمسي رضيت بهداك وَسَمْتِكَ وَدِينِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هذه الآية"[٢٤٨].

هذا تقرير الوجه الأول.

والثاني: أنه تمثيل لسؤالهم عن الأهلة في أنه سؤال على غير بابه؛ تمثيل له بالدخول من ظهور البيوت، وأنَّ مثل هذا السؤال غير ذي الفائدة ليس من التقوى، ولا يُثمر عملاً تنتفع منه الأمة، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله.

(٢٤٨) تفسير البغوي، ٢/ ٢٣٦.

وقبل استكمال الكلام في هذا الوجه أحبُّ أن أنقل توجيه الزمخشريّ للمناسبة بين هذه الجزء من الآية وبين ما قبلها من قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، فتأمل:

"فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها- وتمامُها معلوم-: أنّ كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برّاً.

ويجوز أن يجريَ ذلك على طريق الاستطراد؛ لمّا ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج".

وهذان الوجهان يجريان- كما ترى- على مقتضى القول الأول في تفسيرها على حسب الآثار، ثم قال:

"ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البرّ برّ من اتقى ذلك وتجنَّبه ولم يجسُر على مثله، ثم قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أي: وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا. والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه لما في السؤال من الإيهام بمقارفة الشك ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾" [الأنبياء ٢٣][٢٤٩].

وهذه المناسبة المبيَّنة ههنا على حسب القول الثاني المبنيِّ على أن ثمة تمثيلاً.

وقد نبّه الأستاذ محمد عبده- فيما ذكره عنه تلميذه صاحب المنار- على نكتة مهمة تتعلق بهذه المسألة من إنكار السؤال عليهم، وبيّن وجه الإنكار؛ فقال:

---

(٢٤٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٣٥.





"قالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: كَأَنَّهُ قال: كان عليكُم أنْ تَسأَلُوا عن الحكْمَةِ والفائِدَةِ في اخْتِلَافِ الأَهِلَّةِ إن لم تَكُونُوا تَعْرِفُونَهَا، وَإِلَّا فَعَلَيْكُمُ الِاكْتِفَاءُ بِهَا وَعَدَمُ مُطَالَبَةِ الشَّارِعِ بِمَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْعِ.

فَفِي الْكَلَامِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ سُؤَالَهُمْ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَلَوْ تَوَجَّهَ هَذَا السُّؤَالُ مِمَّنْ يَتَعَلَّمُ عِلْمَ الْفَلَكِ إِلَى أُسْتَاذِهِ فِيهِ لَمَا عُدَّ قَبِيحًا وَلَا قِيلَ: إِنَّهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَلَكِنَّهُ مُوَجَّهٌ مِنْ أُمِّيٍّ إِلَى نَبِيٍّ لَا إِلَى فَلَكِيٍّ، فَهُوَ قَبِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَا لِذَاتِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ النَّظَرُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِأَجْلِ الْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْبَابِ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ مَذْمُومًا، وَكَيْفَ يُذَمُّ وَقَدْ أَرْشَدَنَا اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَحَثَّنَا فِي كِتَابِهِ عَلَيْهِ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [الحجرات]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ"[٢٥٠]، وهذه- كما ترى- ملاحظة دقيقة.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وهو جارٍ على عادة القرآن في ربط الامتثال بالعقيدة والتذكير بعوائد الامتثال في الدنيا والآخرة على المؤمن المطيع، وفلاحهم الموعود هنا يشمل: الفلاح في الدنيا وفي الآخرة، أما في الآخرة فمفهوم، وأما في الدنيا؛ فتقريره:

لمسة فكرية

أن سلوك المنهج القرآني- المُشارِ إليه- في الاعتناء بما يترتب عليه العملُ النافع هو الأجدر بالمؤمن، وأن ترْك الانشغالِ بما لا تحصل فيه الفوائد في الدين والدنيا هو مظنة الإنجاز والتقدم، وهو من اللوازم الفكرية والإجرائية للأمة الرائدة في الأرض، الحاملة للواء الاستخلاف.

لمسات تربوية

وفي الآية من الفوائد التربوية:

(٢٥٠) تفسير المنار، ٢/ ١٦٣.



⁜ الإرشاد إلى صرف الهمم إلى تحصيل ما يترتب عليه النفع في الدنيا والآخرة؛ دون ما هو ترفٌ نظري، وفلسفةٌ تجريديَّةٌ لا يترتَّبُ عليها شيءٌ من ذلك.

⁜ ضرورةُ تصحيحِ المفاهيم، وأن الاستقامة الفكرية وتصحيحَ النظر والعلم خطوةٌ أساسية من خطوات البناء للأمة المستخلَفة، ووجه الاستدلال على هذا من الآية: قوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾، فقد رأينا الآية تصحح مفهوم البر عند هؤلاء المؤمنين وتبين حقيقته؛ دون ما قد يعلق بأذهانهم من سلوكيات وأسئلة هي بمعزل عنه.

⁜ بيان ما يترتب على تقوى الله والالتزامِ بالمنهجِ القرآنيِّ من فوائدَ في الدنيا والآخرة، وبيانُ عاقبة ذلك الالتزام، وأن هذا البيان مهمٌّ في سياقِ التربية، وضرورةُ تعليق القلوب بآثار الالتزام، ورفعُ الأنظار لترى أفُقها الوضيء في آخر الطريق: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

⁜ قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

على طريقة ما فعلنا في بيان مناسبة الآية السابقة نقول هنا:

وجدت فيما سجَّله المفسرون وجوهاً تتعلق ببيان المناسبة مع السياق القريب، فلقد قال الإمام الفخر الرازي في مسألته الأولى في تفسير الآية:

"الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِالتَّقْوَى فِي طَرِيقِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، وأَمَرَ بِالتَّقْوَى فِي طَرِيقِ طَاعَةِ اللهِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ وَفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ فَالِاسْتِقَامَةُ عِلْمٌ، وَالتَّقْوَى عَمَلٌ، وَلَيْسَ التَّكْلِيفُ إِلَّا فِي هَذَيْنِ، ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَشَدِّ أَقْسَامِ التَّقْوَى وَأَشَقِّهَا عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ قَتْلُ أَعْدَاءِ اللهِ فَقَالَ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾"[٢٥١].

---

(٢٥١) تفسير الرازي، ٥/ ٢٨٧.







وفي التفسير الوسيط؛ بدأ ببيان وجه مناسبة الآية فقال:

"الربط: هذه الآية وما تلاها من الآيات، تشتمل على أحكام القتال في الحج في البلد والشهر الحرام، فكانت مناسبة للآية السابقة التي تحدثت عن مواقيت الحج.

ولقد اعتزم المسلمون أن يحجوا في العام التالي لصلح الحديبية، وفقًا لما حدث الاتفاق عليه فيه، فأَنزل الله تعالى هذه الآية، يعلمهم فيها ما يصنعون، إذا قاتلهم المشركون في البلد الحرام والشهر الحرام"[٢٥٢].

وإذا أردنا الربط بالموضوع العام للسورة نقول:

تقعيد فكري

إن هذا التشريع الذي سبق بيان كثير من أحكامه ، وسيأتي الكثير كذلك من أحكامه فيما سيأتي من آيات؛ يستلزم قوة تحميه، وسياجاً يحفظ حقّ الأمة في إقامة أحكامه، وقد سبق ذكر الحج قريباً، ولا شك أن إقامة مثل هذه العبادة- مثلا- تتطلب إقامة نظام يؤمِّن طرق الوصول إليه، وحماية

(٢٥٢) التفسير الوسيط، ١/ ٣٠٠، وانظر: تفسير المنار، ٢/ ١٦٨، ويقويه ما ورد في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ لَمَّا صَدَّ الْمُشْرِكُونَ رسول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ قَابِلٍ فَيُحِلُّوا لَهُ مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَرَجَعَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ لَا تَفِيَ لَهُمْ قُرَيْشٌ، وَيَصُدُّوهُمْ، وَيُقَاتِلُوهُمْ فِي الْحَرَمِ وَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَكَرِهُوا ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ.

وَأَطْلَقَ لَهُمْ قِتَالَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ مِنْهُمْ فِي الْحَرَمِ وَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَرَفَعَ عَنْهُمُ الْجُنَاحَ فِي ذَلِكَ، وَبِذِكْرِ هَذَا السَّبَبِ ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قبلها، لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا مُتَضَمِّنٌ شَيْئًا مِنْ مُتَعَلَّقَاتِ الْحَجِّ، وَيَظْهَرُ أَيْضًا أَنَّ الْمُنَاسِبَ هُوَ: أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى بِالتَّقْوَى، وَكَانَ أَشَدُّ أَقْسَامِ التَّقْوَى وَأَشَقُّهَا عَلَى النفس قتال أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى: وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّ المقاتلة في سبيل الله هِيَ الْجِهَادُ فِي الْكُفَّارِ لِإِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَأَكْثَرُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهَا أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، أَمَرَ فِيهَا بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَ، وَالْكَفِّ عَنْ مَنْ كَفَّ، فَهِيَ نَاسِخَةٌ لِآيَاتِ الْمُوَادَعَةِ. البحر المحيط، ٢/ ٢٤١.





الحجاج أثناء القيام به، بل إن وظيفة الأمة في الاستخلاف تتحقق من خلال دور تنفيذيٍّ تؤديه في الواقع، وهذا الواقع قد تصادف فيه الأمة قوىً متعددة تناصبها العداء، وتقف في وجه مشروعها النبيل، وتشوِّه صورة دعوتها المباركة، وتنصب العوائق أمام قيامها بأداء وظيفتها وتبليغ رسالتها وتطبيق أحكامها، وإذا كان كذلك فلا بدّ من الأمر بالقتال الذي يؤمّن المضيَّ الميدانيّ والقوة التنفيذية لهذه المشروع العالميّ.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾؛ أمرُ الله تعالى المؤمنين بالقتال في سبيله، وقيدُ: "في سبيله" قيدٌ يخرج به كلُّ قتال يخرج عن هذا السبيل؛ كالقتال حمية، وطلباً للمال والسمعة، وتحت رايات الجاهلية المختلفة؛ وكم هي كثيرة في واقعنا المعاصر!

والأمر موجهٌ بقتال: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ دون غيرهم، ومتبوع بالنهي عن الاعتداء: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، وقد اختُلف في تفسير هؤلاء المقاتِلين، وعلى هذا الاختلاف في تحديد المقصود اختلفوا في كون الآية منسوخة أو ليست كذلك، على قولين أوجزهما الإمام الطبري عليه الرحمة؛ فقال:

قال أبو جعفر: اختلف أهلُ التأويل في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك، وقالوا: أُمرَ فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكفِّ عمن كفّ عنهم، ثم نُسخت بـ "براءة""[253].

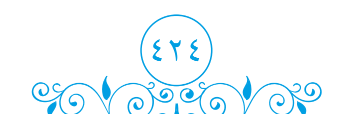
يقصد بآية السيف: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ {التوبة ٣٦}.

وهذا التوجيه مبنيٌّ على أن المقصود بـ "الذين يقاتلونكم": أولئك الذين رفضوا دخول دينكم أو معاهدتكم، وأَبَوْا إلا السيف بينكم وبينهم من الأقوام.

ولنا عودة مع هذا القول.

---

(٢٥٣) تفسير الطبري، ٣/ ٥٦١.





ثم بيّن لنا القول الثاني فقال:

"وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ، وإنما الاعتداءُ الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذَّراريّ، قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حُكمه اليوم، قالوا: فلا شيء نُسخ من حكم هذه الآية"[٢٥٤].

وهذا القول مبنيٌّ- كما ترى- على أن المقصود بـ "الذين يقاتلونكم": الذين يُباشرون قتالكم من المقاتلين، دون النساء والأطفال والشيوخ، وعليه؛ فالآية ليست منسوخة بطبيعة الحال، وقد رجّح الإمام الطبري هذا القول؛ فقال:

"قال أبو جعفر: وأولى هذين القولين بالصواب، القولُ الذي قاله عمر بن عبد العزيز- وهو الثاني-، لأن دعوى المدَّعي نَسْخَ آية يحتمل أن تكون غيرَ منسوخة، بغير دلالة على صحة دعواه، تحكُّم، والتحكُّم لا يعجِز عنه أحد"[٢٥٥].

تطبيق أصولي / أصول التفسير

وهذا الذي نصَّ عليه الإمام الطبري أصل من أصول التفسير، وبيانها: أن دعوى نسخ نصّ قائم بدلالته على معناه لا تجوز من غير دليل قوي، وأننا نتجنب القول بالنسخ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، و"إعمال النصوص أولى من إهمالها"، ولا شك أن دعوى النسخ إهمال للنص وتعطيل له؛ فلا نذهب إليه إلا وقد اضطرنا الدليل.

وما رجَّحه الإمام الطبري هو الصحيح إن شاء الله، وكيف يُدَّعى النسخ والله يقول: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾! فهل يُعقل أن

---

(٢٥٤) تفسير الطبري، ٣/ ٥٦٢.

(٢٥٥) تفسير الطبري، ٣/ ٥٦٣.



تُجيز الآيات مِنْ بَعْدُ ما عَدّتْهُ هذه الآيةُ اعتداء، وعقَّبتْ بأن الله لا يحب المعتدين!

ويبقى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ محكماً من المحكمات التي لا تقاربها دعاوى النسخ والإهمال، ويبقى شاهدَ صدق وميزانَ عدل، وضابطاً من أعظم ضوابط الجهاد، وشعاراً يحمله المجاهدون في سبيل الله فوق كل أرض وتحت كل سماء!

وقفة أصولية ووقفة فكرية سياسية منهجية

وقفة أخرى مع ادّعاء النسخ هنا وتنبيه على قضية منهجية:

إن الذين ادّعَوُا النسخ في هذه الآية قد ادَّعوه حقيقة في عدد كبير من الآيات، فقد ذهبوا إلى أن آية السيف ناسخة لكل آيات الموادعة والأمر بالصبر والتربص، ولكل آية من بعدُ لم يكن الأمر بالقتال فيها عاماً باتاً، كما هي هذه الآية، وقد بلغ مجموع ما ادُّعيَ نسخه بآية السيف مقداراً كبيراً من آيات القرآن.

وقد اعترض كثيرٌ من المحققين على هذا القول، وبيَّنوا بطلانه، وأنا أخلص إلى نتيجة ما انتهوا إليه بطريقتي، وبما يناسب طريقة الكتاب وموضوعه، فأقول:

إن ما نزل من آياتٍ في تشريع الجهاد؛ ابتداءً من الأمر بكفِّ الأيدي، وانتهاءً بآية سورة التوبة التي سُمِّيَتْ بآية السيف راعى الشارع الحكيم فيها حال المسلمين؛ من الاستضعاف إلى التمكين، ومن الانخراط بالمجتمع الجاهلي إلى الامتياز عنه.

وقد اختُصَّت كل مرحلة من مراحله بمجموعة من الظروف والمعطيات جعلت من التشريع الجهادي فيها هو المناسبَ لمواجهة الواقع، والدواءَ الفعالَ لمعالجة الأدواء.





وفرقٌ ما بين "المرحلي" و"النهائي" في الأحكام؛ إذ لا يوضع النهائي في محلّ المرحلي، ولا المرحلي في محل النهائي، ولكل ظرف باقةٌ من التشريعات السياسية والدعوية والجهادية تليق به.

والخلط ما بين المرحلي والنهائي يخلط أوراق الواقع الفكري والسياسي والجهادي، ويولِّد حالة من الاضطراب المؤدي إلى الفشل.

هب أن تشريع القتال العام نزل قبل الهجرة في مكة؛ ماذا يمكن أن يتولّد من هذا الحكم من اضطراب دعوي، وحكم بالهلاك على الحالة الإسلامية!

وهب أن الحكم النهائي انتهى إلى كف الأيدي؟! ماذا يمكن أن تقدم الدعوة الإسلامية للعالم؛ بل هل كان لها أن تحافظ على وجودها- أصلا- أمام قوى العالم المستذئبة في الدفاع عن مصالحها؟!

إن دراسة الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في مكان ما وفي زمان ما، ثم إجراء مقاربة ما مع واقع السيرة الذي عالجته الأوامر الربانية في تشريع الجهاد وفي إدارة العلاقات السياسية قد يُنير لمنظري العالم الإسلامي الآن السبيل، وينصِب لهم معالم الطريق في الوصول الآمن إلى بَرِّ التمكين[256].

❊ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

هذا الأمر بالقتال هنا يجري مجرى التفصيل بعد الإجمال والتتميم بعد البدء، ذلك أن الآية السابقة أمرت بقتال المقاتلين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾، وبيّنت هذه ما يتعلق بالقتال من حيث الزمان والمكان، ومخصصات لذلك.

---

(٢٥٦) فليُراجَع لأجل هذه الفكرة بتوسع دراسة الأخ د. محمد النوباني: "النظرية الحركية في السياسة الشرعية"، الذي حاول تقديم مقاربة للإفادة من التوجيهات القرآنية وتطبيقها في السيرة النبوية.



والأمر هنا للمؤمنين، والأمر هو بقتل هـؤلاء المقاتلين للمؤمنين المعادين لهم العاملين على أذيّتهم، ولعل التعبير بالمضارع: "يقاتلونكم": يفيد- بالإضافة إلى الحال الذي يدلُّ عليه المضارع في أصل استعماله- التجددَ والتكرار، وضميرُ الجمعِ الغائبِ عائدٌ على المقاتلين المذكورين في الآية السابقة، أي: واقتلوا أولئك الذين يقاتلونكم حيث ثقفتموهم.

والثَّقْفُ: الوجودُ على وجهِ الأخذِ والغلبة[٢٥٧]، وفي الطبريِّ: "ومعنى الثِّقْفَة بالأمر: الحِذقُ به والبصر، يقال: "إنه لثَقِفٌ لَقِفٌ"، إذا كان جيِّد الحَذر في القتال، بصيراً بمواقع القتل"[٢٥٨].

ومعنى الآية: اقتلوا هؤلاء الموصوفين بما ذكر أنّى ظفرتم بهم في مكان أو زمان.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ليلقي ظلين:

الأول: الإغراء بهم، والتهييج عليهم، وتذكير المؤمنين بسوء فعالهم.

والثاني: أمر بإخراجهم من مكة التي أخرجوهم منها، وهو يحمل البشرى للمؤمنين بفتح مكة وإخضاع الظلمة فيها وإخراجهم منها، وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يُسلِم منهم يوم الفتح[٢٥٩].

وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، اختُلف فيها على وجوه كثيرة[٢٦٠]، ونحن نختار منها ما يوافق السياق دون غيره، والمقصود بالجملة في هذا السياق: تعليل الأمر العام بقتال هؤلاء المقاتلين، وأصلُ "الفِتْنَةِ" عَرْضُ الذَّهَبِ على النَّارِ لِاسْتِخْلَاصِهِ مِنَ الْغِشِّ، ثُمَّ صَارَ يُسْتَعْمَلُ فِي الِامْتِحَانِ، والمقصود بها هنا: المحنةُ التي يفتتن بها الإنسان عن دينه

---

(٢٥٧) تفسير النسفي، ١/ ٦٥.

(٢٥٨) تفسير الطبري، ٥/ ٣٦٤.

(٢٥٩) انظر: تفسير النسفي، ١/ ١٦٥، وانظر: البحر المحيط، ٢/ ٢٤٣.

(٢٦٠) انظر: البحر المحيط، ١/ ٢٤٤، فقد عدَّ أبو حيان منها سبعة وجوه.





التنزيل الواقعي

ويحارب لأجله؛ ومثّل لها النسفي بعبارة تكاد تلامس ما نحن فيه اليوم من آلام الفتنة التي يُفتنُ بها المسلمون في أرجاء الأرض؛ فقال: "كالإخراج من الوطن (وهو) أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها"[٢٦١].

ونحن اليوم في واقعنا الُمعاش ؛ يُفتن المسلمون عن دينهم، وتعلن عليهم الحروب، ويُخرجون من بلادهم، وما هو إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد!

وها هي قضية فلسطين شاهدة على فتنة دهماء؛ يُخرجُ المسلمون من وطنهم، وتَنبُت لهم نابتة من أبنائهم في بلاد الغربة، ويكبر هؤلاء ويولد لهم، وما زالت مشاعر الغربة تحاصرهم وتحاصر أبناءهم وأحفادهم؛ فهم غرباء خارج أوطانهم، يرونها وقد استباح فيها المحتل الظالم كلَّ شِبْر، وتطاول على كلِّ مقدَّس، أفلا يجب الجهاد العام لإخراج هذا المحتلّ، والانتصار للمسلمين الذين لازمتهم آلام الإخراج من الوطن، والثأر للمقدسات المنتهكة حرماتها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم بينت الآية استثناءً من عموم الأمر بقتالهم: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ﴾، المسجد الحرام آمن كما ورد في الأحاديث المشهورة، والمقصود بالمسجد الحرام هنا: الحرم كله، تدل الآية على حرمة القتال في الحرم حتى يكون العدو هو البادئ به، فيكون قتاله من باب دفع الصائل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الطبيعي الذي يواجَه به المعتدون: ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ المستبيحين لحرمات الله.

(٢٦١) تفسير البيضاوي، ١/ ١٢٨.



❁ ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر بالله والصد عن سبيله وانتهاك حرماته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يشملهم بعفوه ورحمته، وما بعد الفاء تابع لجواب القسم المحذوف ودليل عليه، والتقدير: فلا تقتلوهم؛ لأن الله غفور رحيم.

وتقديرُ معمولِ الإنتهاء ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾: بالكفِّ عن الكفر والصد عن سبيل الله، لا بالكفِّ عن القتال فقط: لأجل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا يليق بالمؤمنين، فعلمنا أن المقصود: فإن انتهوا عن الكفر ودانُوا بالإسلام فلا يُؤاخَذُون بما فَرَطَ منهم من العداوة السابقة والجرائر السالفة.

❁ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

اقترن بتكرار الأمر بقتالهم بيانُ الغاية من القتال أو بيانُ أهدافه الكلية وأغراضه العامة، وحددتها الآية باثنين:

الأول: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، والمعنى: حتى يتوقف فتن الناس عن دينهم، ويتوقف تعذيبهم لردِّهم عن دينهم، وليُتاح لكلٍّ أن يختار الدين الذي يدين لله تعالى به من غير تشويه للدين ولا صد عن سبيل الله.

والثاني: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، بمعنى: أن يكون السلطان الغالب لله وحده- والدينُ بمعنى السلطان والقهر-؛ لا يشاركه في ذلك أحد، ولا يشارك منهجَه في حكم الأرض منهجٌ سواه.

ولا تعارض بين هذا وبين حرية التدين أبداً!

فالحكم العدل الذي ينبغي أن يُظلّ الأرض: حكم الله، الذي لا يجد الإنسان حكماً سواه ليحقّ العدل وليقرّ المساواة بين البشر، وليعتق الشعوب من رِقّ العبودية لغير الله، وهو ذاته المنهج الذي يترك للناس حرية الاختيار، ولا يلزِمهم باعتناق عقيدة ما ولا يعذبهم على اعتناق غيرها! ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ {البقرة ٢٥٦}.

ففي ظل دينونة الأرض لمنهج الله: لا فتنة ولا إكراه ولا استطالة على عباد الله!



لمسة فكرية

والآية دالّة كذلك على:

أن الجهاد لا يستهدف قتال الشعوب، وإنما يهدف إلى التخلية بينها وبين اختياراتها، ويوجَّه إلى الأنظمة المستبدة "الفاتنة"، التي تقيم سلطانها على رقاب تلك الشعوب وتستعبدها: وهذا مدلول قوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن القتال والاعتداء فاتركوا قتالهم وكفوا عنهم أيديكم ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الذين يناجزونكم الحرب، ويحرصون على أذيتكم والنَّيل منكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ١٩٤﴾.

واضحٌ أن الكلام عن القتال في الآية السابقة استدعى ذكرَ ما يتعلَّق بالقتال في الشهر الحرام، وما يتعلق برد اعتداء المعتدين.

والشهر معروف معناه، وقد سُميَ شهراً لأنهم كانوا إذا أهلَّ هلالُه شَهَروا دخوله ونادوا بذلك مراعاةً لانتظام مصالح الناس.

الأشهر الحرم أربعة في الإسلام هي: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ {التوبة ٣٦}، وكانت كذلك منذ الجاهلية، وقد كانوا يتلاعبون بها تقديماً وتأخيراً وفقا لمصالحهم، وهو المقصود بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ {التوبة ٣٧}.





وكان مما تقرر من أحكامها: حرمة القتال فيها، وجاءت الآية بسبب معين، ذلك أن المسلمين لمّا رُدُّوا عن ورود بيت الله الحرام عام الحديبية، وعادوا من قابل- وكان ذلك في شهرَي ذي القعدة من العام السادس ومن العام السابع من الهجرة- كان القتال سانحاً في كل ذلك، وكأنهم كرهوه في الشهر الحرام، فأخبرهم الله أنّ مراعاة حرمة الشهر واجبة لمن راعى حرمته، وأنّ من هتكها اقتُصَّ منه، فكما أنه أباح لهم من قبل القتال في المسجد الحرام إذا قوتلوا فيه؛ أباح لهم هنا القتال في الزمان الحرام إذا قوتلوا فيه[٢٦٢].

وكان المحرم هو ابتداء القتال، والآية تبيح رد الاعتداء كما هو في منطوقها، ودلت الفعال النبوية أن القتال إن كان قد بدأ قبل الشهر الحرام لم ينزع فيه عنه[٢٦٣].

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فالحُرُماتُ جَمْعُ حُرْمَة، والْحُرْمَة: ما مُنِعَ مِنِ انْتِهَاكِه، و"الْقِصَاصُ": المسَاوَاة[٢٦٤]، والمعنى: إذا استباح المشركون الشهر الحرام الذي لا يحِلُّ فيه القتال وقاتلوكم فيه، فقابِلوا عدوانهم بمثله، واستبيحوا الحرب فيه كما استباحوا، فلا تبالوا بقتالهم لكم فيه، صدًا لعدوانهم، فإن الحرمات فيها القصاص.

وفي الحديث عند الإمام أحمد بإسناد صحيح، عن جابر رضيَ الله عنهما قال: "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَغْزُو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى"[٢٦٥].

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، تفريع على مضى، وتشريع لردِّ الاعتداء بالمثل، وسمّى رد الاعتداء اعتداء للمشاكلة.

---

(٢٦٢) انظر: تفسير الطبري، ٣/ ٥٧٥، وتفسير الزمخشري،١/ ٢٣٧. ومحاسن التأويل، ٢/ ٦١.

(٢٦٣) قد صح عنه ذلك في أكثر من موضع، والقاسمي في محاسن التأويل يذكر طرفاً من ذلك، والاستزادة بغد ذلك من المظان.

(٢٦٤) تفسير الرازي، ٥/ ٢٩٢.

(٢٦٥) أخرجه أحمد في مسنده (ج٢٢/ ص٤٣٨/ ح١٤٥٨٢)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.



تقعيد فكري

وفي الآية:

واقعية هذا الدين، من حيث إن هذا الواقع الأرضي المكوّن من عناصر متعددة منها القوة؛ يستلزم مواجهة بمكوَّنٍ من عناصر مماثلة؛ منها القوة، والمواجهةُ بالمثلِ ضمانُ التحرُّزِ من اعتداء العدوّ، وإرهابٌ له دون الإقدام على حُرُمات الأمة.

أما التحليق في عالم المُثُل ورفع غصن الزيتون في مواجهة البندقية، ومجابهة قصف صواريخ الحقد برميِ الورود، والركوع أمام جبروت الظلم فهو ضربٌ من الاستسلام والجُبْن والتضييع!

والميزانُ في ذلك: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الإفراط أو التفريط في ذلك، والْزموا طاعته في كل ما أمركم به، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين بمقياس العدل، المعظمين لله تعالى فيما يأتون وفيما يذرون من الإقدام والإحجام.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذا استكمال لما أمر الله تعالى به في الآية السابقة من ردّ العدوان بالمثل، وبتقواه، وعطف عليها أمرين ونهياً:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ذلك أنه لمّا أمر برد الاعتداء، وكان هذا قتالاً، والقتال يستلزم النفقة؛ وقد اقترنا في القرآن الكريم لتلازمهما في الواقع وحاجة الحركة الجهادية للمال؛ أمر هنا بالنفقة في سبيل الله، فيكون قد أمر بالقتال في سبيل لله وبالنفقة في سبيل الله ليتكامل جناحا الجهاد: القتال والنفقة على القتال.



❖ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ وذلك بترك الجهاد- كما صح تفسيرها عن الصحابة به-، قال أبو أيوب الأنصاري: "إنها نزلت فينا معشر الأنصار، لما أعز الله دينَهُ ونَصَر رَسُوله، قلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية"[٢٦٦]، وهو قول أكثر أهل التفسير[٢٦٧]، وقال الواحدي في البسيط:

"إما أن ينفق على نفسه ويخرج، وإما أن ينفق على من يغزو من المسلمين"[٢٦٨]، وقد عَدَّت الآية ترك الجهاد هلكة على عكس ما يظنه مرضى القلوب، وعن ابن عباس: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكنِ الإمساك عن النفقة في سبيل الله"[٢٦٩].

وفي الطبري بسنده عن عامر: أن الأنصارَ كان احتبس عليهم بعضُ الرزق، وكانوا قد أنفقوا نَفقاتٍ، قال: فَساءَ ظنُّهم وأمسكوا، قال: فأنزل الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: وكانت التهلكة سوء ظنهم وإمساكهم[٢٧٠].

ذلك أن ترك النفقة على الجهاد هَلَكَةٌ لِمَا أنه يؤدي إلى تعطيل الجهاد أو إضعاف جذوته، وهذا يعرِّض الأمة لاجتراء الظَّلَمة، ومطامعِ المحتلين في أرضها وثرواتها؛ فيكون ذلك سبباً من أسباب الهلكة بالضرورة.

---

(٢٦٦) سنن الترمذي، ٥/ ٢١٢

(٢٦٧) التفسير البسيط للواحدي، ٣/ ٦٣٣.

(٢٦٨) التفسير البسيط للواحدي، ٣/ ٦٣٣.

(٢٦٩) أخرجه الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، ٣/ ٥٨٤.

(٢٧٠) تفسير الطبري، ٣/ ٥٨٥.





تنزيل واقعي

وقد رأينا مصداق الآية فيما يقع منذ عقود، وكيف أن ترك الجهاد جرّ أ الذئاب على الأمة؛ فكثرت جراحها وتكاثرت مصائبها وسُفكت دماؤها حتى استباح حماها أرذل الكلاب!

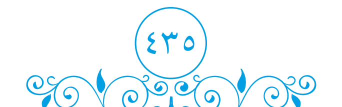
وها هم- مثلا- أولئك الذين رأوا في "السلام" مع المحتلِّ الصهيونيِّ لفلسطين خياراً وحيداً لا ثاني له، وعملوا معه على ضرب المقاومة الجهادية الفلسطينية؛ ماذا جنَوْا بعد كل هذه السنوات!

وقد جاء عن السلف في تفسير الآية أقوال تستدعي والله القلوب والعقول، وتحفِّز على المشاركة في هذا النوع العظيم من الجهاد بالمال[٢٧١]:

- قال ابن عباس: أنفِقْ في سبيل الله، وإنْ لم يكنْ لك إلا سهم أو مِشقَص، ولا يقولن أحدكم: لا أجد شيئًا.
- وقال السديُّ، في هذه الآية: أنفِق في سبيل الله ولو عِقالًا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: لا تقل: ليس عندي شيء.
- عن مجاهد في قول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: تَمنَعُكُم نَفقةً في حقٍّ خيفةُ العَيْلة.
- عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: لما أمر الله بالنفقة، فكانوا أو بَعضُهم يقولون: ننفق فيذهبُ مالنا ولا يبقى لنا شيء! قال: فقال: أنفقوا ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: أنفقوا وأنا أرزقكم.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾، أمر بالإحسان، وهو يحتمل: الزيادة على الواجب المأمور به، أو بمعنى الإتقان في كل مأمور، والمعنى العام على الأول: لا تقتصروا على المقدار الواجب من النفقة بل تجاوزوا ذلك إلى الإحسان

(٢٧١) انظر تفسير الطبري، ٣، ٣٨٣-٣٨٦.



بإخراج ما تحبون من خيار أموالكم في الجهاد في سبيل الله؛ فأنتم أصحاب رسالة عالمية تؤدونها في الأرض.

وعلى الثاني: احرصوا في جميع ما تأتونه وتذرونه مما سلف الأمر به أو النهي عنه أن تفعلوه على وجه الإتقان ورعاية جانب التمام، فإن تسيُّد الأمم لا يكون بتقديم الحدِّ الأدنى من الأعمال؛ بل يستلزم مراعاة "الجودة" فيها، وتقديم الأفضل للتميز الذي يقود إلى الريادة.

وليكن مقصودكم من ذلك على الوجهين السابقين تحصيلُ رضى الله تعالى والوصول إلى محبوبيَّته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومَن أحبه الله فقد أمسك بمعصميه بأَزِمَّة الانتصار.

وقفة لغوية مع ما ادّعي فيه الزيادة:

اختلفوا في الباء من قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فقيل: الباء زائدة، والمعنى: ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة!

وذهب المحققون إلى أن الباء ليست زائدة، وإنما هي أصيلة، وتستقيم الجملة مع تقدير محذوف؛ بحيث يكون المعنى: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، وهذا هو المراد إذا تأملت، قال الزمخشري يبيِّن الوجهين بإجمال:

"الباء في بِأَيْدِيكُمْ مزيدة مثلها في أعطى بيده للمنقاد، والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة أيديكم، أي لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم، وقيل ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾: بأنفسكم، وقيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها"[٢٧٢].

وزاد الرازي الموضع بياناً فقال:

(٢٧٢) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٣٧.



"اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ: بِأَيْدِيكُمْ تَقْتَضِي إِمَّا زِيَادَةً أَوْ نُقْصَانًا فَقَالَ قَوْمٌ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا تُلْقُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: جَذَبْتُ الثَّوْبَ (وجذبتُ) بِالثَّوْبِ، وَأَخَذْتُ الْقَلَمَ (وأخذت) بالقَلَمِ فهُما لُغتانِ مُسْتعملتانِ مَشْهورَتانِ، أو المُرادُ بِالْأَيْدِي الْأَنْفُسُ كَقَوْلِهِ: ﴿بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ {الحج ١٠} أَوْ ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ {الشورى ٣٠}، فَالتَّقْدِيرُ: ولَا تُلقوا بِأَنْفُسِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بل هاهنا حَذْفٌ، وَالتَّقْدِيرُ:وَلَا تُلْقُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"[٢٧٣].

وعرض المفسر النحوي العريق أبو حيان للوجهين ثم قال:

"والذي نختاره فِي هَذَا أَنَّ الْمَفْعُولَ فِي الْمَعْنَى هُوَ: بِأَيْدِيكُمْ، لَكِنَّهُ ضَمَّنَ: أَلْقَى، مَعْنَى مَا يَتَعَدَّى بِالْبَاءِ، فَعَدَّاهُ بِهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا تُفْضُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ. كَقَوْلِهِ:

أَفْضَيْتُ بِجَنْبِي إِلَى الْأَرْضِ أَيْ: طَرَحْتُ جَنْبِي عَلَى الْأَرْضِ، وَيَكُونُ إِذْ ذَاكَ قَدْ عَبَّرَ عَنِ الْأَنْفُسِ بِالْأَيْدِي، لِأَنَّ بِهَا الْحَرَكَةَ وَالْبَطْشَ وَالِامْتِنَاعَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُمْتَنَعَ بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَلَا يُهْمَلَ مَا وُضِعَ لَهُ، وَيُفْضَى بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ"[٢٧٤].

وهذا الوجه الذي أتى به أبو حيان جيد، وهو أجود من القول بالزيادة.

وأود أن ألخص لوازم الأقوال في المسألة، فأقول: نحن أمام ثلاثة أنواع من الأقوال ولوازمها:

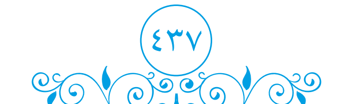
- **الأول**: قول يلزم منه القول بالزيادة، وهو القول الأول، الذي يقول أصحابه: إن معنى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: ولا تلقوا أيديكم إلى التهلكة، والباء بناء على هذا زائدة.

- **والثاني**: قول من قال بالحذف؛ حذف المفعول، والتقدير: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة.

---

(٢٧٣) تفسير الرازي، ٥/ ٢٩٤.

(٢٧٤) البحر المحيط، ٢/ ٢٥٣.





والثالث: قول من قال: بالتضمين، والتضمين: إشراب فعل معنى فعل آخر، ويبقى ما يدل على الفعل المضمَّن، وهو هنا الباء، والفعل المستكنّ هنا يصلح في تقديره أن يقال: إنه ضمَّن ألقى معنى أفضى، والتقدير: ولا تلقوا مفضين بأيدكم إلى التهلكة.

وأقول في الترجيح الأصولي بين الأقوال الثلاثة:

إن قواعد الترجيح تقتضي تقديم القول بالحذف وبالتضمين على القول بالزيادة، فالقول بالزيادة مرجوح طالما وجدنا في غيره سعة.

تطبيق أصولي / أصول التفسير

فالترجيح الآن بين القول بالحذف والقول بالتضمين، والقول بالحذف أرجح من القول بالتضمين، وذلك لكثرة الحذف في القرآن الكريم وفي كلام العرب، وما هو كثير معتاد أولى بالترجيح مما ورد قليلاً.

ولذلك أخلص إلى أن المفعول محذوف، والباء ليست زائدة، والتقدير: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، والله أعلم بالصواب.

وأختم بإيراد كلام شيخنا الدكتور فضل عباس في كتابه: لطائف المنان وروائع البيان في ردِّ دعوى الزيادة في القرآن؛ الذي خصصه لدراسة دعاوى الزيادة في القرآن، وانتهى إلى رفض القول رفضا عامّاً، ثم أتبعه ببيان القول بالزيادة محجوجاً في كل موضع ادُّعيت فيه:

"قالوا: إن الباء زائدة، ونعجب مما قالوا، لأنه ليس المقصود هنا بالنهي إلقاء الأيدي، فيكون المعنى: لا تلقوا أيديكم.

وإذا وقفنا مع النص الكريم، وجمعنا النصوص بعضها إلى بعض ندرك أن ما ذكروا غير مستقيم، فالآية: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، واليد يعبّر عنها كثيراً في نصوص الكتاب

والسنة بأنها المعطية أو المانعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ {الإسراء ٢٩}، وفي الحديث: "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه"، وما قاله عليه الصلاة والسلام: أسرعكن بي لحوقا أطولكن يدا"، فالآية الكريمة تريد أن تبين أن اليد هي سبب التهلكة، والمعنى إذاً: أنفقوا وجاهدوا ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، فالباء هنا للتعدية، وقد تفيد السببية"[٢٧٥].

وهذا إدلاء ثمين، رحم الله شيخنا.

المقطع السادس والعشرون
ركن الحج وأحكام تتعلق به

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

(٢٧٥) لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، فضل عباس، ١٠٤.





ﵟثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٩٩ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢٠٢ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣ﵞ

التمهيد والمناسبة

بعد الكلام عن الصيام والأمر بالقتال والأمر بالنفقة انتقل إلى الحديث عن الحج، وهو ركن عظيم من أركان الإسلام، وقد عَرَضَتْ السورة كما ذكرنا لأركان الإسلام وأساسياته البنائية العظمى.

والحج مظهر من مظاهر عظمة هذا التشريع، وله إسهامه الكبير في جمع الأمة كلها في صورة مؤتمر سنوي يربط بين المسلمين في المشارق والمغارب ويقرب بينهم، ويفسح المجال للقاء الرواد فيها لتداول أمرها ومعالجة مشكلاتها.

إضافة إلى ما يتعلَّمونه فيه من الانضباط في الحركة والوقت، واستشعار معنى العبودية لله تعالى في صورة القيام بالتعبد غير معقول المعنى؛ إذ يقوم الحجاج بأعمال لا معانيَ معقولةً لها؛ اللهم إلا أن الله أمرهم بها، وهذه صورة عالية من صور التعبُّد المحض؛ الذي ينمي مشاعر العبودية الخالصة.



التفسيــر

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

الآية فيها تفصيل لبعض أحكام الحج، ونمر بها على عجل.

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ اختلفوا في الاستدلال بالآية على وجوب الحج والعمرة، على أن إيجاب الحج من المعلوم من الدين بالضرورة، وقد دلَّتْ عليه الآيات والأحاديث الكثيرة؛ فينتهي الكلام إلى جواز الاستدلال بالآية على وجوب العمرة أو لا؟

ففي حين ذهب الشافعية إلى أن الآية دالة على وجوبهما ذهب الحنفية إلى أنه لا دلالة فيها على ذلك؛ بل المقصود أن ائتوا بهما إذا ابتدأتم بهما كاملَين، والفخر الرازي رحمه الله يعرض المسألة؛ فيقول:

قولُه تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا﴾ أَمْرٌ بالإِتمامِ، وهَل هذا الْأَمْرُ مُطْلَقٌ أَوْ مَشْرُوطٌ بِالدُّخُولِ فِيهِ، ذَهَبَ أَصْحَابُنَا- يقصد الشافعية- إِلَى أَنَّهُ مُطْلَقٌ، والمعنى: افعلُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ عَلَى نَعْتِ الْكَمالِ وَالتَّمامِ.

والقَوْلُ الثَّانِي: وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَشْرُوطٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ شَرَعَ فِيهِ فَلْيُتِمَّه، قَالُوا: وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ لَا يَكُونَ الدُّخُولُ فِي الشَّيْءِ وَاجِبًا إِلَّا أَنَّ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ يَكُونُ إِتْمَامُهُ وَاجِبًا، وَفَائِدَةُ هَذَا الْخِلَافِ أَنَّ الْعُمْرَةَ وَاجِبَةٌ عِنْدَ أَصْحَابِنَا، وغير واجبة عن أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ الله"[٢٧٦].

---

(٢٧٦) أخرجه الترمذي في سننه (ج٥/ ص٢١٢/ ح٢٩٧٢): وقال الألباني: صحيح.





وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ قيد يدلُّ على وجوب قصد الله تعالى في هاتين العبادتين العظيمتين؛ كما هو في كل عبادة أخرى، ولعل النص على ذلك بشأنها هنا لما أنه قد يشوب نية الحاج أو المعتمر أمور أخرى غير التعبد؛ فيحسن التنبيه.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، الحصر: المنع، والمعنى: إن مُنعتم بعدو أو بمرض أو بسواهما: فالواجب عليكم ما تيسر للمحصَر من الهدي: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، والهدي: ما يُهدى لفقراء الحرم من النَّعَم: الإبل والبقر والغنم. ثم تابع بخطاب المحصَر فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ إذا أُحصرتم ومُنعتم من الإتمام ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي المكان والزمان الذي يُذبح فيه الهدي، ثم قال في بيان رخصة من لم يستطع إلا الحلق: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

وللآية سبب نزول:

فقد نزلت في كعب بن عجرة حين رآه النبي صلّى الله عليه وسلّم والهوامّ تتساقط من رأسه؛ فقال له: "لعلك يؤذيك هوامّ رأسك: احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام وأطعم ستة مساكين أو أنسك بشاة"[٢٧٧].

وقاس الفقهاء على حلق الرأس سائر الأشياء التي يُمنع الحاج منها إلّا الصيد والوط[٢٧٨]، ولا بدّ في الآية من مضمر ليصحّ المعنى، فالتقدير: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ فحلق رأسه فعليه فدية، وتسمى: دلالة الاقتضاء، وقد مرَّ مثيل لها في تفسير آيات الصيام.

---

(٢٧٧) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٥/ ص١٢٩/ ح٤١٩٠).

(٢٧٨) فإنه قد ورد بشأنها نصوص خاصة، أما الصيد فقد جاء الكلام عنه في سورة المائدة، من قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره..). المائدة ٩٥.

أما الوطء؛ فهو مفسد للحج والعمرة بلا خلاف.



﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي من المرض أو العدوّ، ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ والتمتع: هو أن يعتمر الإنسان في أشهر الحج، ثم يحجّ من عامه، فهو قد تمتع بإسقاط أحد السفرين للحج أو العمرة وبالحلّ بينهما، فالواجب كذلك ما تيسر من الهدي للمتمتع: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة أو ما فوقها من البقر والإبل، وللمتمتع إن لم يجد الهدي أن يصوم بدلا منه على ما ذكرت الآية: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾، وقتها من إحرامه إلى يوم عرفة، فإن فاته صام أيام التشريق، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: إذا رَجَعْتُمْ إلى بلادكم أو في الطريق ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وتساءل بعضهم عن سر ذكر المجموع مع أنه مفهوم أن الثلاثة والسبعة عشرة؟

فأُجيبوا بأن فائدته دفعُ توهّمِ التخيير بين الثلاثة التي في الحج، والسبعة عند الرجوع، والتأكيدُ على أن المأمور به مجموعُهما، وقيل: هو مثلُ الفذلكة، وهو قول الناس بعد الأعداد: فذلك كذا، وقيل: كاملة في الثواب[٢٧٩].

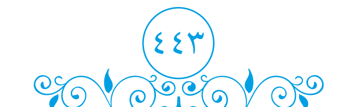
﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المبيَّن من جواز التمتع وما تعلق به[٢٨٠] ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، يعني غير أهل مكة أو أهل الحرم. ولما كانت الآية ممتلئة بالأحكام من الأوامر التكليفية الدقيقة ختمها بالتذكير بتقوى الله، والترهيب من مخالفة ما جاء فيها أو الاستهانة بها: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لمسة تربوية

وهذا الختْمُ يمثلُ منهجاً قرآنياً في التربية، وهو ذلك: الربط بين

(٢٧٩) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ١١٣.

(٢٨٠) وقيل: إلى الهدي أو إلى الصيام.



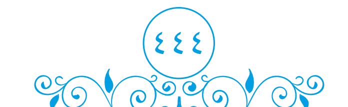
التكليف الفقهيِّ العملي وبين العقيدة، والربطُ بين الإجراء العملي الذي يجب على الجوارح أن تقوم به وبين الوازع الداخلي الذي يدفع إلى الالتزام.

وكذلك ينبغي أن يحرص المربي على تنمية الوازع الداخلي، وعلى تنمية القوى الإيمانية المحرِّكة، ولا يتعلّق بما يرى من "المريد" أو "الطالب" من أعمال ظاهرة؛ ومن مشكلات المربّين ملاحظةُ أعمالِ الجوارح دون أعمال القلوب، والحرص على المظاهر والأشكال دون الحقائق والمحرِّكات؛ وحريٌّ مثلاً بالمربي إذا رأى عارضاً سلبياً من سلوك عند الطالب أقلقه؛ أن لا ينصرف إلى معالجة المشكلة الظاهرة، بل يبحث عن الأسباب الحقيقية التي ولَّدت السلوك السلبي من التكاسل مثلاً عن الصلاة، أو التشبه بالفسقة في مظهر أو لباس، ليصل إلى جواب على سؤال: ما الخلل الذي أصاب قلبه حتى أفرز مثل هذا السلوك؟ هكذا ينبغي أن يفكر المربي، وهكذا ينبغي أن يربط بين السلوك وأعمال القلوب.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾.

بعد أن أمر في الآية السابقة بإتمام الحج والعمرة لله، وبيّن شيئاً من الأحكام المتعلقة بهما، انتقل إلى بيان وقت الحج، وشيء من أحكامه، فقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾، والتقدير: وقت الحج أشهر معلومات، وقد اتفقوا على أنها: شوال وذو القعدة، واختلفوا في ذي الحجة؛ هل العشر الأولى منه دون غيرها من أشهر الحج؟ أم أن الشهر كله منها؟ على قولين.

وفرّع على ذكر وقت الحج المنعَ من إيقاع المخالفات فيه، فقال: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، وأصل الفرض: الحزُّ الذي يكون في السهام والقسيِّ وغيرها، ومنه فرضة النهر والجبل، فكأنَّ من الْتزم شيئا وأثبته على نفسه قد فرضه.





وفرض الحج إنما يكون بالابتداء به؛ النية والإحرام[٢٨١]، ومن بدأ به فقد فرَضَه على نفسه وأوجب عليها إتمامَه عملاً بالآية السابقة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ وإن لم يكن الحج أو العمرة عليه في محل الوجوب قبل البدء؛ كأن يكون حجَّه الثاني مثلاً.

ومن لطائف الاستعمال القرآني التعبير بقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولم يجئ الكلام: فمن فرض "فيها"، وإنما ذلك مراعاة لجمع القلة: ﴿مَعْلُومَاتٌ﴾، والجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأجذاع انكسرن، والجمع هنا جمع قلة، والجذوع انكسرت، والجمع هنا جمع كثرة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾، ثم قال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ {التوبة ٣٦}[٢٨٢].

وههنا ثلاثة أمور وقع النهي عنها في الحج:

تطبيق أصولي

❖ الرفث، واختلفوا؛ هل هو الكلام المتعلق بالنساء، أو هو نفس الجماع؛ على قولين، والظاهر: أنه الجماع ومقدماته، بدليل قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ {البقرة ١٨٧}، والمقصود بالرفث في آية ليلة الصيام: الجماع حتماً، لا الكلام الذي له تعلق بالجماع، وإن كان يُباح ذلك الكلام في ليلة الصيام من باب "أولى"، وهذا الاستدلال هو الذي يسمّونه في الأصول: فحوى الخطاب ، فإن كان كذلك فتفسير القرآن بالقرآن أولى.

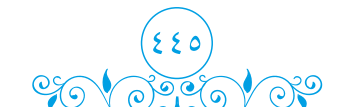
تطبيق أصولي

❖ الفسوق: المعصية مطلقاً وكل ما نُهي المُحْرِم عن تعاطيه، وقد ورد

---

(٢٨١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ١/ ٢٧١.

(٢٨٢) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٢٧٢.



في كلام السلف تفسيرات لها[٢٨٣]؛ ننزِّلها منزلة التمثيل على أفرادها؛ فمِن قائل: الفسوق: السباب، ومن قائل: التنابز بالألقاب، ومن قائل: إنه الصيد، وآخر: الذبح لغير الله، وهذا يجري منهم مجرى التمثيل على ما وقع النهي عنه، وهي عادتهم في التفسير رضي الله عنهم؛ إذ استقر في أصول التفسير لمّا استقرأنا تفسير السلف أن من منهجهم: تفسيرَ الكلمة من القرآن بمآل معناها أو بفرد من أفرادها أو بالتمثيل عليها، وهذا منه.

❖ الجدال: وهو أن يحاول كل من المُتجادلَين جَدْلَ الآخر عن رأيه؛ أي فتْلَه عنه، ويصاحبه في العادة: صخب وغضب، وبه فسروا الجدال في بعض الروايات عن السلف، وقد تتنوّع أسباب الجدال كذلك؛ فمن جدال حول المناسك أو أوقاتها أو حول غير ذلك من قضايا الدين أو الدنيا، وكل ذلك داخل في النهي عن المجادلة فيه.

ومن لطائف التعبير في قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[٢٨٤]، أن كلًّا من الرفث والفسوق والجدال منصوب بـ "لا" النافية للجنس، وهو أبلغ في نفي دقائق هذه المعاني المنهي عنها؛ فكأنه قال: لا يقع منكم شيء البتة من هذه المعاني الثلاث.

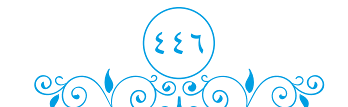
وبعد أن نهاهم عن الفعل المحرم في الحج؛ وهذا أَمْرٌ بالترك؛ بيّن لهم أن أي فعلٍ فيه خير فإن الله يجزي عليه ويشكره لصاحبه؛ فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به ويعظِمُ أجركم عليه.

أتبع ذلك بأمرهم بالتزوِّد فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ومفعول "تزودوا" محذوف، وقد اختلفوا في تقديره؛ فذهب بعضهم إلى مقتضى رواية أسباب النزول الآتي ذكرها، وذهب آخرون إلى مقتضى السياق والمناسبة القرآنية بين جمل الآية؛ فقدروها بما يأتي بيانه في التفصيل الآتي:

---

(٢٨٣) انظر: تفسير الطبري، ٤/ ١٣٧، وما بعدها.

(٢٨٤) على حسب قراءة حفص عن عاصم، وقرئ بغيرها في السبع.



القول الأول: ذهبوا إلى أن المعنى: تزودوا من الطعام إذا خرجتم في رحلة الحج، واتكأوا في ذلك على ما ورد من سبب النزول؛ قال الإمام البغوي:

"نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ كَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَى الْحَجِّ بِغَيْرِ زَادٍ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ نَحُجُّ بَيْتَ اللَّهِ فَلَا يُطْعِمُنَا؟ فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، وَرُبَّمَا يُفْضِي بِهِمُ الْحَالُ إِلَى النَّهْبِ والغصب، فقال الله جلّ ذكره: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، أَيْ: مَا تَتَبَلَّغُونَ بِهِ وَتَكْفُونَ بِهِ وُجُوهَكُمْ"[٢٨٥].

ويعكّر صفو الاستدلال بهذا الدليل بقية الآية: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، إذ سيعود تفسيرها بمقتضى الرواية إلى تقطيع نظم الآية، تأمل: وتزودوا من الطعام والشراب؛ فإن خير الزاد التقوى!

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى تقدير المفعول بما يناسب الجملة التالية: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ من التقوى في حلّكم وترحالكم؛ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، تأمل هذا الكلام الفخيم من المفسر اللغوي النحرير أبي حيان الأندلسي:

"وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ ما قبل هذا الْأَمْرِ وما بعده، أن يكون الأمر بالتَّزَوُّدِ هُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَحْصِيلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكُونُ لَهُ كَالزَّادِ إِلَى سَفَرِهِ لِلْآخِرَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَبْلَهُ: وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَمَعْنَاهُ الْحَثُّ وَالتَّحْرِيضُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ؟ وَبَعْدَهُ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وَالتَّقْوَى فِي عُرْفِ الشَّرْعِ وَالْقُرْآنِ عِبَارَةٌ عَنْ مَا يُتَّقى بِهِ النَّارُ، وَيَكُونُ مَفْعُولُ: تَزَوَّدُوا، مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهُ، وَتَزَوَّدُوا التَّقْوَى، أَوْ: مِنَ التَّقْوَى، وَلَمَّا حَذَفَ الْمَفْعُولَ أتى بخبر (إن) ظاهر لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمَحْذُوفَ هُوَ هَذَا الظَّاهِرُ، وَلَوْ لَمْ يُحْذَفِ الْمَفْعُولُ لَأَتَى بِهِ مُضْمَرًا عَائِدًا عَلَى الْمَفْعُولِ، أَوْ كَانَ يَأْتِي ظَاهِرًا تَفْخِيمًا لِذِكْرِ التَّقْوَى، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا"[٢٨٦].

---

(٢٨٥) تفسير البغوي، ١/ ٢٥٣.

(٢٨٦) البحر المحيط، ٢/ ٢٩٠.



على أنني أقول:

إن الرواية في سبب النزول قوية، ويحسن أن نُعمِلها وأن نجد لها مكاناً في تفسير الآية، ولا نفتحَ باب ردّ الحديث الصحيح مهما استطعنا إلى ذلك سبيلا؛ فإعمال النصوص أولى من إهمالها، ولا نردّ دليلاً إلا إذا اقتضى دليلٌ أقوى ذلك، والجمع أولى من الترجيح، والحل أن نقول:

إننا نحمل الرواية في أهل اليمن الذين كانوا لا يتزودون على أنها صورة يتناولها لفظ الآية، ويُستدلّ بها على عدم جواز ما كانوا يفعلونه، أما التفسير الأولي المباشر للآية فهو ما اقتضاه سياقها ولا ريب، والله أعلم[٢٨٧].

وبعيداً عن الترجيح الأصولي السالف، وبناء على المعنى الذي اخترناه هنا من أن الأمر إنما هو بالتزود من التقوى نقول:

كأن هناك تشبيها مسْتكِنّاً في التركيب القرآني[٢٨٨]؛ مفادها:

إنك أيها السائر إلى الله[٢٨٩] في هذه الدنيا في سفر طويل، وهذا السفر زادُه التقوى، وإنك بلا تقوى مسافر بلا زاد؛ ولا حظَّ لمن سافر بلا زاد إلا الهلاك!

فقم؛ وتزوّد من التقوى بالإكثار من الخيرات، والعكوف على الطاعات، ومراقبة غراس التقوى في قلبك، واجعلها في جُعبتك التي

تطبيق أصولي

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

لمسة إيمانية

....
....
....
....

(٢٨٧) توسعت في دراسة هذا الموضع وما يشبهه من مواضع أخرى في دراستي التي نلت بها "العالمية" في جامعة الأزهر عام ٢٠١٠م، وقد طبعت عن طريق دار النور المبين في عمان؛ فارجع إلى مزيد من البسط في حل مثل هذه الإشكالات التفسيرية، والله الموفق.

(٢٨٨) هناك استعارة مكنية، ولا أودّ إثقال كاهل القارئ بالتفصيل، وقد أثبتُّ هنا ثمرة الكلام اللغوي المشار إليه دون التفاصيل.

(٢٨٩) في رحلة الحج وفي غيرها.





تحمِلُها لتضع فيها ما تكون به نجاتك، وما تحفظ به حياتك!

﴿واتّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَاب﴾، يا أصحاب الألباب؛ وهي العقول، وذِكر الألباب هنا لما أن كل صاحب لبٍّ إذا نظر؛ علم أن الفرار ليس إلا إلى الله، وعلم أن التقوى طريقه إلى ذلك.

وبدا لي بالأمر بالتقوى بعد الأمر بالتزود منها أنه أمر بتقوى الله في ذلك التزوُّد، وحثٌّ على الإتقان في تطلُّب زاد التقوى والاهتمام بأحوال القلب الذي هو محل التقوى، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ عليه يتوكل المتوكلون في تطلب تقواه وفي كل شأن من الشؤون.

❖ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها في بيان أحكام الحج كذلك، وهنا أباح طلب الرزق في الحج، وبيَّن أن الاتِّجار في ذلك الموسم لا يناقض التعبُّد فيه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ نفي للإثم عن المبتغي الرزق في مواسم الحج، فالفضل هنا: الرزق، ونفي الجناح يفيد الإباحة، ولم تَذكر الآية بلفظها أن نفي الجناح عن طلب الرزق هنا إنما هو في مواسم الحج، لكن الإجماع على ذلك، والذي دل عليه أمران؛ سوى انعقاد الإجماع على تفسيرها بما ذُكر:

الأول: السياق، إذ الكلام فيما قبله وما بعده في الحج، وهو متصل به أشد اتصال، فحمل ما ورد فيها على أحكام الحج هو الوجه.

والثاني: قراءة ابْنُ مَسْعُودٍ وابن عَبَّاسٍ وابنِ الزُّبَيْر رضي الله عنهم: "فضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ"، ومثل هذه القراءات من الصحابة نحملها على أنها قراءات تفسيرية، ونحتجُّ بها احتجاجنا بـ "قول

تطبيق أصولي / أصول التفسير



الصحابي"، وقد قال أبو حيان الأندلسي هنا:

"والْأَوْلَى جَعْلُ هَذَا تَفْسِيرًا، لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِسَوَادِ الْمُصْحَفِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّة"[٢٩٠] .

وفي سبب نزول الآية رَووا أن عكاظاً ومجنة وذا المجاز كانت أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت[٢٩١] .

....

وفي الآية:

تقعيد فكري

توازن الإسلام وواقعيته، ومراعاته لحاجات الناس وأسباب معايشهم، انظر كيف أن الله أباح لهم الاتّجار في هذا الموسم الذي تتجلّى فيه العبودية في أسمى معانيها وأعظم مظاهرها، ومع ذلك لم يُغفل الإسلام حاجتهم، وأن هذه الأسواق كانت معايشهم منها؛ كما ورد في الرواية.

إن الإسلام جاء ليزرع هذا التوازن في وجدان المؤمن، وليعطي كلًّا من الدنيا والآخرة الاهتمام المناسب لها، وفي ضوء هذا يمكنك فهم ما جاء في الآيات القادمة: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

ثم تتابع الآية البيان: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ دفعتم منها بكثرة، من "أفضت الماء" إذا صببته بكثرة[٢٩٢] ، والكلام عن الخروج من عرفة يوم التاسع بعد الغروب، وهو ركن الحج الأعظم إلى مزدلفة، وفيها المشعر

....

(٢٩٠) البحر المحيط، ٢/ ٢٩٢.

(٢٩١) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ١٣١.

(٢٩٢) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ١٣١.



الحرام: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، وإنّما سمي مشعراً لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته، ومعنى ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلُّها موقفٌ إلا وادي محسر[٢٩٣].

روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر- يعني بالمزدلفة- بغلس[٢٩٤]؛ ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبَّر وهلَّل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر[٢٩٥].

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ كما علَّمَكُم كيف تذكرونه سبحانه، أو: اذكروه شكراً له على نعمة هدايتكم إلى هذه المناسك التي تتعبدون بها الله تعالى.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ إنْ: هذه المخففةُ من الثقيلة، كأنه قال: وإنه كنتم من قبل هذا الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة.

❖ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بيانٌ لما يفعلونه بعد الانتهاء من أعمال "مُزدلفة"، وذلك بعد أن ينتهي الحاجّ من ذِكْر الله بعد الفجر عند المشعر الحرام يفيض إفاضة ثانية؛ غيرِ الإفاضة الأولى، فالإفاضة الأولى من عرفات إلى المزدلفة والمشعر الحرام، والإفاضة الثانية المذكورة هنا: الإفاضة من المُزدلِفة إلى مِنى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، واختلفوا في الخطاب؛ موجه إلى من؟ محتمل:

❖ أن يكون المخاطبُ قريشاً، ويدلّ على ذلك ويبيّن قصته ما في الصحيح عنْ عائشة رضي الله عنها قالتْ: "كانت قريْشٌ ومن دان دِينها يَقِفُون بالمُزْدَلِفة، وكانوا يُسَمَّون الحُمْس، وكان سائرُ العرب يَقِفُونَ بعرفاتٍ، فلمَّا جاء الإسلام أمر الله نبيَّه صلَّى الله عليه

---

(٢٩٣) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ١٣١.

(٢٩٤) بظلمة، صلاها في أول وقتها، ولم ينتظر تشقق النور.

(٢٩٥) يعني: وقف عند المشعر الحرام في المزدلفة بدع أن صلى الفجر بغلس، ولم يزل واقفا يذكر الله ثمة حتى أسفر الصبح، وتشقق النور.



وسلَّم أن يأتي عرفاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾"[٢٩٦].

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكره لهذه الرواية: "وكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُمْ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جرير، وحَكَى عَلَيْهِ الْإِجْمَاعَ، رَحِمَهُمُ الله"[٢٩٧].

❖ أو أن يكون المقصود عموم الحجاج من المسلمين لا من قريش فحسب، ويكون المقصود من الناس في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: ما كان عليه الناس أصلاً قبل الإسلام من أعمال الحج التي أثرها الناس عن إبراهيم عليه السلام.

تطبيق أصولي

والأول أظهر لما أن مثل هذا من كلام الصحابة في سبب النزول مما لا مجال للرأي فيه، وإنما هو إخبار عن واقع الوحي؛ فينزَّل منزلة الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك للإجماع المحكي عن الطبري رحمه الله.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ إذ قد انتهيتم أو قاربتم من الانتهاء من هذه العبادة العظيمة، وحقٌّ عليكم إذا فعلتم ذلك أن تلجأوا إلى جانب الاستغفار؛ جَبْراً لِمَا كان منكم من نقصٍ في أداء حق العبادة، وهضماً لأنفسكم فيما تقدمونه في جانب العزيز الرحيم الذي تتقلبون في نعمه.

لمسة إيمانية وتربوية

وهكذا هو حال قلب المؤمن؛ الذي يُتبع طاعته بالاستغفار؛ فضلا عن معصيته إن بدرت منه معصية! إنه يرى أنه وإن قدّم تلك الطاعة العظيمة فقد قصّر في جناب الله تعالى، ورأى أن ربه يستحق منه أكثر، وأن ما قدّمه لا يكاد يصلح أن يُقدَّم بين يدي ربه؛ لما اعتوره من نقص

(٢٩٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص٢٧/ ح٤٥٢٠).

(٢٩٧) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٥٦.



وذهول في أحايين، وأن ربه صاحب صفات الكمال وصاحب النعم التي يتقلَّب فيها العبد من حقّه أن لا يُقدَّم بين يديه إلا ما يناسب كماله من العبادات الكبيرة.

وهي العادة التي علمناها من القرآن الكريم في غير ما موضع، انظر مثلا قوله تعالى: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ {الذاريات}، فهم في الليل كثير قيامهم، قليل نومهم، ملؤوا وقتهم بالركوع والسجود والتزام أعتاب الرب، حتى إذا جاء السحر وقارب الليل على الانتهاء أخذهم الشعور بالخجل مما قدَّموه بين يديه؛ فلجأوا إلى الاستغفار؛ تنكسر نفوسهم دون أن يصيبها العجب، وتخشع دون أن يصيبها الزهو!

لا غرو ولا عجب؛ فقد عرفوا أن ربهم غفور رحيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾.

﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ﴾ فإذا قضيتم هذه العبادات التي شرعناها لكم ومننّا عليكم بهدايتكم لها وفرَغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فأكثروا من ذكره سبحانه وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة، بل أشدّ، وهو الأحق سبحانه بالذكر لجليل نعمه عليكم، وعِظَم حقه عليكم، وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنىً بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم، فعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كان أهلُ الجاهليَّةِ يَقِفُون في الموسم؛ فَيَقُولُ الرَّجلُ منهم: كان أبي يُطْعِمُ ويَحْمِلُ الحَمالات ويَحْمِلُ الدِّيَاتِ، ليس لَهُم ذِكْرٌ غيرُ فِعَالِ آبَائِهِم، فأنزَل الله على مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[٢٩٨].

(٢٩٨) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٥٧.



وانتقل بعد بيان هذا القدر من أحكام هذه العبادة إلى بيان أصناف الناس في إقبالهم عليها، وبأي قلب يتوجه منهم الحاج إليها، فقال:

﴿فمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا، وينصبُّ همه عليها، ويتوجه قلبه إليها، ولا ترى عينه سواها؛ مع أنه متلبِّسٌ بعبادة عظيمة، ومنغمسٌ كذلك في الدعاء؛ لكنه لغفلته وقلة علمه قد عظمتْ الدنيا في قلبه فما عاد يرى سواها، ﴿وما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: نصيب! فيا لَخسار هذا المسكين؛ الذي ما عطّله عمله بقدر ما عطلته نيته وهمته، فقد أتى بالأعمال كاملة، وتعب وكدّ، لكنه اكتفى من ذلك كله بالدنيا، فيا للخسارة؛ ولو حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها!

لكن ثمة صنفاً آخر من الناس؛ أَبْصَرُوا الحقائق، وانكشَفَتْ عن أبصارهم الحُجُبُ؛ فأنزلوا الدنيا منزلتها، وسألوا الله تعالى أن يديم نعمه عليهم فيها، أعينُهم شاخصة نحو الآخرة، وقلوبهم متجهة إليها، وهممهم تتقافز لنيل ما عند الله فيها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾، وزادوا فسألوا الله الوقاية من عذاب النار: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ومن عرف مقدار ما أعده الله من العذاب لأعدائه لازم الدعاء بالوقاية، واستمسك بحبل النجاة!

صنفان؛ كلاهما قام بالأعمال، وكدَّ الأبدان في الخدمة؛ وشتان بين مصيريهما، وشتان بين قلبيهما، لا جرم أن الصنف الثاني هم الفائزون: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المشارُ إليهم باسم الإشارة للبعيد إشارة إلى سموِّ مكانتهم وارتفاع منزلتهم ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ عظيم - والتنكير يدل على التعظيم - ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ من النوايا الطيبة والأعمال المتقبَّلَة، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ فلن يبطئ عليهم بإيتائهم ما وعدهم من الأجور والعطايا، وما أسرع انقضاء الدنيا، ثم تأتي الآخرة من بعد: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران ٣٠].

❁ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

هذه الآية فيها بيان ما بقي من أعمال الحج؛ وهي ما يسميه الفقهاء: "المبيت بمنى"، في أيام التشريق الثلاثة؛ الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة؛ وهي المقصودة بالأيام المعدودات؛ وفي الحديث: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى"[٢٩٩]، والمقصود بالذكر في الآية الكريمة: هو التكبير والتهليل والتحميد والتسبيح، في أدبار الصلوات، وعند رمي الجمرات، وعلى القرابين والهدايا[٣٠٠].

وقد ثبتَ أنَّ عمر بن الخطَّابِ رضي الله عنه كان يُكَبِّرُ في قُبَّتِهِ، فيُكبِّرُ أهلُ السوق بِتَكْبِيرِه حتى تَرْتجَّ منًى تكبيراً"[٣٠١].

وفي قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ بيان للتخيير بين التعجيل والتأخير في منى: أن يجلس اليومين الحادي والثاني عشر أو يجلس إلى الثالث عشر، والمعنى:

فمن تعجل الرحيل عن منى قبل غروب اليوم الثاني من أيام التشريق بعد رمي الجمار، عند الشافعية، وقبل طلوع الفجر من اليوم الثالث إذا فرغ من رمي الجمار عند الحنفية ولم يمكث إلى ما بعد رمي الجمار في اليوم الثالث فلا يأثم بهذا العجيل، ولا حرج عليه في ذلك، ومن تأخر بمنى حتى رمي الجمار في اليوم الثالث، فلا إثم عليه في تأخره، بل هو أفضل، لأنه التزم السنة.

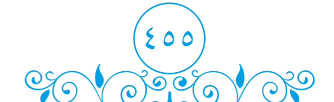
والنصُّ على نفيِ الإثم في التأخير مع أنه السنة، مع ذكر نفي الإثم في التعجيل للمجانسة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ {آل عمران ﴿٥٤﴾}، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ {الشورى ﴿٤٠﴾}، ويمكن أن يُجاب كذلك بأن التعبير جاء على هذه الهيئة

---

(٢٩٩) أخرجه أحمد في مسنده (ج١٦/ ص٣٨٩/ ح١٠٦٦٤)، وقال الشيخ شعيب: صحيح.

(٣٠٠) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٥٦٠، التفسير الوسيط، ١/ ٣١٩.

(٣٠١) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٦٢.



رداً عليهم فيما كانوا يتراشقونه من التخطئة والتأثيم، ففي الكشاف: "أن أهل الجاهلية كانوا فريقين: فريقًا جعل المتعجل آثمًا، وفريقًا جعل المتأخِّر آثمًا، فجاء القرآن ينفي المأثم عنهما جميعًا"[٣٠٢]، فلعله لأجل هذا المعنى جاء التعبير القرآني بنفي الإثم عن الفريقين: رداً على كلٍّ منهما في تأثيم الآخر.

وقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ معناه أن ذلك التخيير لمن اتقى الله في حجه، وتخصيص التخيير به: إما لأنّ المتقيَ هو الحاجُّ على الحقيقة والمنتفع بحجه دون سواه، على حد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وإما لأن المتقي دائمًا حذِرٌ متحرزٌ عن كل ما يريبه، فإذا كان التخيير بين التعجيل والتأخير لا إثم فيه لمن اتقى فغيره أولى[٣٠٣].

ثم خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا الله﴾ كما ختمت آيات الأحكام السابقة بالتذكير بتقوى الله تعالى، والمعنى: واتقوا الله في جميع أعمال الحج، بأَدائها كما أمر الله، واجتناب ما حرم الله.

وفي البخاري: "من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجع كيوم ولدته أُمُّه"[٣٠٤].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: ربطٌ لهم بالعقيدة على طريقة القرآن في ربط الشريعة بالعقيدة، وتعميق المحفِّز الإيماني في قلوب المكلفين، وتذكيرٌ لهم بأن الحشر لن يكون إلا إلى الله تعالى وحده، ومَن عَرَف ذلك بادر إلى الالتزام بشريعته، وصرف همته إلى الاستعداد لذلك الحشر.

التقديم والتأخير

والتقديم والتأخير الاصطلاحي هنا في قوله: ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ إذ

---

(٣٠٢) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٥٠.

(٣٠٣) التفسير الوسيط، ١/ ٣١٩.

(٣٠٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص١٣٣/ ح١٥٢١).





الأصل أن يقال: تحشرون إليه؛ يفيد التخصيص والحصر، وكأنه يقول: تحشرون إليه لا إلى غيره.

المقطع السابع والعشرون
صنفان؛ شتان بينهما في المنهج والمآل

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

{البقرة}.

التمهيد والمناسبة

كان من ضمن ما ذُكر أخيراً من آيات الحج ذِكْرُ صنفين من الناس: الصنف الذي يريد حسنة الدنيا، وهو غافل تماماً عن الآخرة؛ لا يراها، ولا تدخل ضمن حساباته! والآخر الذي يتطلب حسنة الآخرة والوقاية من النار إضافة إلى حسنة الدنيا، وهذا المقطعُ الجديد جاء فيه بيان الصنفين على وجه أكثر وضوحاً في معالم شخصية كلٍّ منهما، وجاء فيه رسم مسار السلوك العام وخلجات القلوب؛ خصوصاً ما يتعلّق بالشخصية الفاسدة الدنيوية.

قال في البحر المحيط مبيِّناً المناسبة وفائدة إضافية أخرى تتعلَّق بأوصاف صاحب الدنيا ذاك في الموضعين:

"ومناسبةُ هذه الآية لِمَا قَبْلَهَا هو أَنَّهُ: لَمَّا قَسَّمَ السَّائِلِينَ الله قَبْلُ إلى: مُقْتَصِرٍ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا،



وسائلِ حَسَنَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْوِقَايَةَ مِنَ النَّارِ، أَتَى بِذِكْرِ النَّوْعَيْنِ هُنَا، فَذَكَرَ مِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ مَنْ هُوَ حُلْوُ الْمَنْطِقِ، مُظْهِرُ الْوُدِّ، وَلَيْسَ ظَاهِرُهُ كَبَاطِنِهِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ مَنْ يَقْصِدُ رِضَى اللهِ تَعَالَى، وَيَبِيعُ نَفْسَهُ فِي طَلَبِهِ، وَقَدَّمَ هُنَا الْأَوَّلَ لِأَنَّهُ هُنَاكَ الْمُقَدَّمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾، وَأَحَالَ هُنَا عَلَى إِعْجَابِ قَوْلِهِ دون غيره من الأوصافِ، لأنَّ القول هو الظَّاهِرُ مِنْهُ أَوَّلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا﴾، فكان مِنْ حَيْثُ تَوَجُّهُهُ إِلَى الله تعالى في الدُّعَاءِ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لا يَقْتَصِرُ على الدُّنْيَا، وأَنْ يسأل منه ما يُنَجِّيَهُ مِنْ عَذَابِهِ، وَكَذَلِكَ هَذَا الثَّانِي يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقْتَصِرَ عَلَى حَلَاوَةِ مَنْطِقِهِ، بَلْ كَانَ يُطَابِقُ فِي سَرِيرَتِهِ لِعَلَانِيَتِهِ"[٣٠٥].

ونقل الإمام الطبري عن ابن زيد أن الأصناف ههنا ثلاثة: "قال ابن زيد في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، قال كانوا أصنافًا ثلاثة في تلك المواطن يومئذ: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهلُ الكفر، وأهلُ النفاق: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ إنما حجُّوا للدنيا والمسألة، لا يريدون الآخرة، ولا يؤمنون بها، ومنهم من يقول: "ربنا آتنا في الدنيا حَسنة" الآية، قال: والصنف الثالث: "ومنَ الناس مَن يُعجبك قوله في الحياة الدنيا" الآية"[٣٠٦].

ثم أقول:

ليست هذه الآيات استكمالاً لمن وصفهم في المقطع السابق بأنهم يسألون ما يتعلق بدنياهم دون آخرتهم فحسب، بل لها تعلّق بأول السورة، وبألفاظ مشابهة كذلك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾، وهنا يتابع

(٣٠٥) البحر المحيط، ٢/ ٣٢٥.

(٣٠٦) تفسير الطبري، ٤/ ٢٠٢.



وصفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾.

وتنبه إلى قوله هناك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾، وهنا: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

وهناك إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، وهنا إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

فهؤلاء الذين تتحدث عنهم السورة هنا هم أولئك الذين تحدثت عنهم في أولها، هم هم؛ الذين يشكلون خطراً بنفاقهم على المجتمع المسلم وعلى تماسكه وعلى أدائه لرسالته العالمية في الاستخلاف؛ ترسم السورة صورة لهم واضحة المعالم بيّنة الزوايا ناطقة بخلجات القلوب؛ تحذيراً للرُّواد من الاغترارِ بادعاءاتهم الكاذبةِ وكلماتِهم مزيفةِ البريق!

التفسير

❖ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾.

هذا الفريق الأول هنا، وقد بيّن الله أنه تعمَّق في النفاق، وأتقن صناعة التمويه والغش، وبراعة التعبير، واتخذ من هذا وسيلة له في الحياة الدنيا، فهو يعجب الناس بحديثه، ويبهرهم بقوله[٣٠٧].

وقوله: ﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يروقك ويعظم في قلبك قوله، ومنه: الشيء العجيب الذي يعظم في النفس، وهؤلاء قد كانت تحلو ألسنتهم، وقلوبهم أَمَرُّ من الصَّبِرِ!

---

(٣٠٧) التفسير الوسيط، ١/ ٣٢١.



وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ شبه جملة لا بد لها من متعلّق، ويجوز ههنا أن يكون المتعلّق أحد اثنين- كما بيّن الزمخشري-:

- إما بالقول، أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأنّ ادّعاءه المحبة بالباطل إنما يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة، كما تُراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول، فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة.

- ويجوز أن يتعلق بـ "يعجبك"، وهذا يحتمل معاني:

- قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة؛ لما يَرْهَقُه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه[٣٠٨].

- أنه إذا تكلم بأمر من أمور الدنيا أعجبك حديثه، ولا يفقه من أمور الآخرة شيئاً، وهذا كقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ {الروم}.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي يحلف ويقول: الله شاهدٌ على ما في قلبي من محبتك ومن محبة الإسلام، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين[٣٠٩].

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وتحلية المنطق ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ بالصّدِّ عن سبيل الله، وبمحاولة خَلْخَلَة النظام العام ليعود على الأمة بهلاك الاقتصاد؛ وقد كان اقتصادهم قائماً في المدينة على الزراعة؛ وهو المقصود بـ ﴿الْحَرْثَ﴾، وبإذاعة ما لا يرضاه بين أبناء المسلمين ﴿وَالنَّسْلَ﴾، وبإثارة النفاق في إخوانه من المنافقين ومرضى القلوب.

---

(٣٠٨) انظر: تفسير الزمخشري، ١/ ٢٥١.

(٣٠٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٥١.



وفي المحرر الوجيز: "قال مجاهد: "المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل"، وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار الزرع والْمُنْسِلُون"... ثم قال ابن عطية في تحصيل ما يرى فيها:

"والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد، إذ كل فساد في أمور الدنيا، فعلى هذين الفصلين يدور"[310].

من لطائف التعبير القرآني:

- لفظ "سعى" يوحي بنشاطه في الفساد واشتداد همته فيه؛ فالسعي: أشد المشي وأسرعه، وهكذا هم المفسدون؛ ساعون في الإفساد مشتدّون فيه.
- ومن لطائف الاستعمال القرآني: أن "سعى في"؛ لم تذكر في خير أبداً في القرآن؛ بل تُذكر في مثل هذه المواضع التي يُذَمُّ الساعون فيها؛ مثلها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ {البقرة ١١٤}، بخلاف "سعى" إذا عُدِّيَتْ بغير "في"، انظر قول الله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ {الجمعة ٩}، وكذلك تجد إذا استقرأت[311].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ {البقرة ٢٠٥} الذي يسعى فيه أمثال هؤلاء، ويحبطه ولا يصلح عمل المفسدين.

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ٢٠٦﴾.

---

(٣١٠) المحرر الوجيز، ١/ ٢٧٨.

(٣١١) هذه نكتة لا أنساها؛ إذ تعلَّقت بها طرفة أثناء مناقشتي لرسالة الماجستير في الجامعة الأردنية في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٣ بإشراف أستاذي الدكتور أحمد نوفل، وكان أستاذي الدكتور مصطفى المشني أحد المناقشين ومعه أستاذي الدكتور أحمد شكري شابسوغ والدكتور زياد الدغامين، وكنت قد قلت في الشكر الذي تُصَدَّر به الرسائل: "كما أشكر أعضاء لجنة المناقشة الذين سعَوا في تصويب ما جاء في الرسالة ..."، فإذا بالدكتور المشني يسائلني بلطفه المعهود: "لم اخترت هذا التعبير"؟ ثم بيَّن دلالات ذلك الاستعمال، كما أثبتُّه في متن الكتاب، ووجه السؤال إلي: لعلك تقصد أننا عِثنا فسادا في الرسالة؟! يقول ذلك تظرفاً وتعليما لي على وجه لا أنساه، فجزاه الله عني خيرا وجزى أساتذتنا وعلماءنا خير الجزاء.



وهذه صورة لسلوكيات هذا النمط المفسِد؛ أنه إذا ذكِّر بالله لم يتذكَّر، وإذا وُعظ به لم يوعظ، بل على العكس من ذلك اشتدّ نكيره على المذكِّر، ورأى أنه أكبر وأعظم من أن يقال له: اتق الله!

وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، استحوذتْ عليه كبرياؤه وحميتُه لما يقوم به من الإثم والفساد، وهي حالة تصوِّر الحالة النفسية لذلك الشقيِّ تصويراً دقيقاً؛ وتقدِّم دراسة تفصيلية لَرَدَّة فعله الأكيدةِ في ضوء شخصيته المريضة على طريقة الشرط والجواب الذي لا يتخلف عن شرطه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ شرط وجوابه: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

لا تتعالى أكثر ولا تتكبر؛ تكفيك جهنم التي من شأنها أن تَحطُم كبرياءك بما فيها من عذاب مهين: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، والتعبير بـ "المهاد" هنا يوشك أن يكون تهكّماً به، فالمِهادُ ما يُمْهَدُ ويُهيّأ للضيْف المُكَرَّم؛ والمهاد الذي ينتظر هذا النموذج من الناس: جهنم: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

وفي الآية:

لمسة تربوية

أن المؤمن لا يستنكف أن يُقال له: اتق الله! ولا أن يُذَكَّر أو يوعظ به، وأن دأب المؤمن إذا ذُكِّر أن يتذكَّر، وإذا قيل له: اتق الله؛ سارع إلى الانكسار والتسليم: "سمعنا وأطعنا"! هذا مقتضى الإيمان والتعظيم.

ولْيحذر المؤمن من مسالكِ المجرمين؛ والمؤمنُ قد يغفل ويخطئ، لكن العار والخسار في استحواذ العزة بالإثم عليه، وإصراره على ما هو عليه من الخطأ والغفلة، وليراقب نفسه إذا وُعظ؛ هل هي إلى اللين والتواضع للحق أقرب أم إلى الاستكبار والأنفة أقرب؟



❁ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ .

وعلى العكس التام من ذلك النموذج المفسِد: ثمة صنفٌ من البشر؛ فلْتفخَر البشريةُ بانتسابه إليها، ولْتشْرُف الأرض بسيره عليها: صنفٌ شرى: "باع" نفسه في تحصيل مرضات الله، فلم يعدْ له من "نفسه" شيءٌ؛ إذ باعها فصارتْ في يد المشتري؛ لا تصرُّفَ لها إلا في طاعته، ولا تقلّب لها إلا في مرضاته.

أما كيف باع نفسه لله؛ فقد قيل: باعها بأن سلك طريق الجهاد، فلم يرجع من ذلك لا بنفسه ولا بماله، وأفناهما في مرضات الله، ويشهد له قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ {التوبة ﴿١١١﴾}، فهي صفقة إذاً، وبائع ومشتري، وثمن وسلعة، وما أشرفها من سلعة! وما أربحها من صفقة!

يجري هذا على طريقة الاستعارة، وهي استعارة سائرة في القرآن؛ إذ يعبَّر عن بذل النفس لله بالبيع، وعن قبول الله تعالى لذلك بالاشتراء، والنفس والمال هما الثمن المبذول، والسلعة المرغوبة: الجنة، انظر إلى جماع ذلك في الآية التي ذكرتُها من سورة التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾، وإلى قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فهي أشرف أنواع التجارة، والله خير من اتجر معه العبد ورجا الأرباح الوفيرة!

وقيل: يبيعها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يُقتل في ذلك، وقيل غير ذلك.

والظاهر أنه يشمل كل ذلك وغيره من صور **فناء العبد عن مرادات نفسه في مرادات الله ونُصرةً لشريعته ودعوة إليها وانغماساً في صف الإيمان المواجِهِ للباطل**، والله أعلم.

وختَم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ ترجية لهؤلاء أن تحتضنهم الرأفة؛ التي هي أرقُّ الرحمة؛ والتي يتجلى الله بها على "العباد".



ومن لطائف التعبير القرآني العالي:

- تعريفهم بالألف واللام: "العباد" المفيدة للاستغراق: لإفادة كمالِهم في العبودية، وعراقتِهم فيها، إنهم حَقًّا كذلك وقد باعوا النفس لله سبحانه!
- ووصفهم بالعباد في مثل هذا الموضع تشريف لهم، وإشارة إلى أن الشرف كلُّ الشرف في التحقق بالعبودية لله، وأنها وصف في التمدح للبشر لا زيادة عليه، وقد وصف سبحانه خيرة خلقه في أشرف مواضع التكريم بالعبودية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ۝١﴾ {الإسراء}، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾ {الصافات}، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ {ص}.
- وعدم النص على معبود هؤلاء العباد؛ إذ لم يقل: بـ"عباد الله"- مثلا، أو بـ"العباد لله"؛ لأن من شرى نفسه لله وجعلها في سبيله هو حتماً ليس عبداً إلا لله، وعبوديتُه له جلَّ وعلا من الشهرة بحيث لا داعي للنص عليها وتحديدها؛ إذ لا لبس ثمة.

المقطع الثامن والعشرون
لا فسحة للتراخي؛ فللإيمان تكاليف لا بد أن تؤدَّى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢١٠ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢١٢





﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

ذكر الله تعالى أصناف الناس من المنتسبين إلى الإسلام في المقطع السابق، وبيّن العديد من أنماط صفاتهم وسلوكياتهم؛ أَمَا وقد عرَض هذه الأصناف فوَعَدَ وأَوْعَدَ، وأطنَبَ وأوجَزَ؛ فقد انتقل هنا إلى خطابهم جميعاً بالأمر بالدخول في الإسلام بكل تفاصيله، والاصطباغ بصبغة الله التي تلوِّن بلونها الزاهي كلَّ زوايا الظاهر وطوايا الباطن من العبد، وحذَّرهم من النكوص وهدَّدهم، وذكَّرَهم بما كان من بني إسرائيل من تفريط، وبيَّن لهم سنته في الذين خلَوْا، وأن للإيمان تكاليف لا بد من تقديمها بين يدي الدعاوى.

أما الكلام في الوحدة العضوية للمقطع مع السورة والرسالة التي يقدمها في ضوء الموضوع الرئيس فيمكن أن نقول:

إن تلك الأمة المعدَّةَ لأداء أمانة الاستخلاف، وتبليغ رسالة التوحيد الخاتمة؛ لا بد أن تستعد لمهمتها الكبرى، وأن تتهيأ لها بالتزود بالجدية الكاملة، وتمكين معاني الإيمان العملية والفكرية والتاريخية، وهو ما جاء هذا المقطع ليعالجه.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾.

نداء من الله تعالى للمؤمنين بعنوان الإيمان المحفِّز للامتثال، وبيان على طريق الإشارة إلى أن ما في حيِّز النداء هو من مقتضيات الإيمان الأساسية، وأمرٌ لهم بالدخول في الإسلام، فـ "السلم" على رأي الأكثر: الإسلام[٣١٢].

والكلمة تحمل ظلال الاستسلام الكامل لله تعالى في السلوك وفي الاعتقاد وفي الشعور؛ بحيث لا يبقى للعبد من نفسه شيء؛ فقد "سلّم" لله تعالى وانقاد.

وقوله: "كافة" حال، واختُلِفَ في متعَلَّقه؛ وهو يحتمل:

- أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في "ادخلوا"، فيكون المعنى ادخلوا كافة، أي: جميعاً بحيث لا يتخلف منكم أحد، وذلك مناسب لما تم تفصيله من أصناف المنتسبين إلى هذا الدين في المقطع السابق.
- أو يكون حالاً من "السلم"، فيكون التقدير: ادخلوا في أحكام الإسلام كافة، أي: خذوه كلَّه ولا تتركوا منه شيئاً.

ولا مانع من تعلق الحال بكليهما؛ كما قال ابن عطية: "ويستغرق "كَافَّةً" حينئذ: المؤمنين، وجميع أجزاء الشرع، فتكون الحال من شيئين، وذلك جائز، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ {مريم ٢٧}، إلى غير ذلك من الأمثلة"[٣١٣].

وما أجمل كلام أ. سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية، يقول:

---

(٣١٢) وهو الذي رجحه الطبري وغيره، انظر: تفسير الطبري، ٤/ ٢٥٣.

(٣١٣) المحرر الوجيز، ١/ ٢٧٨.



"وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله في ذوات أنفسهم، وفي الصغير والكبير من أمرهم؛ أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور، ومن نية أو عمل، ومن رغبة أو رهبة لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضائه.

استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية، الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير في الدنيا والآخرة سواء"[٣١٤].

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان؛ فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان: إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان، إما هدى وإما ضلال، إما إسلام وإما جاهلية، إما طريق الله وإما طريق الشيطان... وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات"[٣١٥].

والمتأمل في التعبير القرآني البليغ يلحظ المعنى مجسَّداً يراه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ كأنه يرى الشيطان يسيرُ؛ وثمة من ينظرُ أينَ خَطوُ الشيطانِ؟ لِيَضَعَ خَطْوَهُ، وأين سيره؟ ليسير وفقاً لسيره، تُرى إلى أيِّ هاويةٍ سيقودُه هذا الاتباع؟! وإلى أين يذهب العدو بعدوه؟! ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

إن أي حَيْدٍ عن منهج الإسلام هو اتباع في الحقيقة لخطوات الشيطان الذي يستهوي الإنسان ويذهب به بعيداً عن استقامة المنهج، ويخرجه من قبة الإسلام الفسيحة إلى مهالك الوديان القاحلة ومهاوي الردى المحتَّم: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

---

(٣١٤) في ظلال القرآن، ١/ ٢١١.

(٣١٥) انظر: في ظلال الإيمان، ١/ ٢١١.



ها قد جاءكم البيان، وتم لكم التحذير على الغاية من التوضيح:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

فانتظروا جزاء ذلك الحَيْد، وتحمَّلوا عبء إيثار اتباع الشيطان على اتباع الرحمن: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

"وأصل الزلل: في القدم، ثم يُستعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك، والمعنى ضللتم عن الحق"[٣١٦].

ولما انتهى هذا الموضع إلى غاية البيان والإيضاح أبلغهم أنه لا زيادة على ما جاءهم، والعقلاءُ تحصل لهم به الكفاية والرشاد، وغيرُهم لن ينفعهم بعده شيء:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

متى يحصل لهؤلاء الإيمان الجازم واليقين الحق؟ وماذا ينتظرون ليحصل لهم ذلك وقد جاءتهم البينات؟ إنهم لا ينتظرون لإيقاع الإيمان الواجب عليهم إلا أن ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، وعندئذ لا ينفعهم إيمانهم ولا هم يُستعتَبون!

و"هل": هُنَا لِلنَّفْيِ، الْمَعْنَى: مَا يَنْظُرُونَ، ولِذَلِكَ دَخَلَتْ "إلا"، وكونها بمعنى النَّفْيِ إذا جاء بعدها: "إلَّا" كثيرُ الاستعمالِ في القرآنِ وفي كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾.

و: "يَنْظُرُون"، هُنَا مَعْنَاهُ: يَنْتَظِرُونَ، تَقُولُ الْعَرَبُ: نَظَرْتُ فُلَانًا أَنْتَظِرُهُ، ومَفْعُولُ: "ينْظُرُون" هو ما بعدَ "إلَّا"، أي: ما يَنْتَظِرُون إلَّا إتْيَانَ الله[٣١٧].

وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ متعلق ب "يأتيهم"، والظلل جمع ظلة، وهي ما أظلك.

---

(٣١٦) المحرر الوجيز، ١، ٢٨٣، بتصرف يسير.

(٣١٧) انظر: البحر المحيط، ٢/ ٣٤٣.





والْغَمامِ أرقُّ السحاب وأصفاه وأحسنه[318]، "والملائكة" معطوف على لفظ الجلالة، وهو فاعل الإتيان، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أُتِمَّ أمرُ إهلاكهم وفُرِغَ منه، وقد وَضَعَ الفعلَ الماضيَ موضع المستقبل لدنوِّه وتيقن وقوعه[319].

التقديم والتأخير

﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره – إذ قدَّم الجار والمجرور على المتعلق بهما لإفادة معنى التخصيص والحصر- ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، فيوفيهم حسابهم، ويُريهم جزاء ترددهم وشكهم!

وقد اختلف المفسرون على حسب اختلاف المدارس العقدية في تفسير هذه الآية، ومنهجنا: إمرار هذه الآيات على منهج السلف الأول من الصحابة والتابعين كما هي؛ بلا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف، ونقول:

إن مقصود الآية في سياقها: أزُّ هؤلاء المترددين إلى اعتناق الإيمان الحقيقي، وقطع ذيول التشكك والتلبث بسيف المسارعة إلى اقتناص الفرصة طالما كانت قائمة، وما أروعه من معنى! ثم إن إفساد هذا المعنى بالتآويل الكثيرة، وإغراقَ القارئ بأمواج الأقوال الكلامية عدول عن مقاصد علم التفسير، فننزه كتابنا عنه.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

عمودُ هذه السورة بيِّنٌ في أنه تجريدُ بني إسرائيل من لواء الاستخلاف؛ ووهْبُه للأمة المستَخْلَفة، ولهذا حسُن بعد أن أمرهم بالدخول في الإسلام بكليته أن يوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوجهَ كل من

---

(٣١٨) المحرر الوجيز، ١/ ٢٨٣.

(٣١٩) تفسير البيضاوي، ١/ ١٣٤.





يَحسن أن يُخاطب بهذا الخطاب إلى بني إسرائيل؛ ليرى ما أصابهم بسبب نكوصهم عن حمل أمانة الدين بقوة وجدية، وقد كان عيَّرهم عليهم لعائن الله بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وهنا أمر المسلمين بالدخول في الإسلام كله، واجتناب الوقوع فيما وقع به بنو إسرائيل؛ ولهذا المعنى أمر بسؤال بني إسرائيل عما حل بهم إذ حُمِّلوا التوراة ثم لم يَحْمِلوها، وجوابُ ذلك قد مرَّ بنا من قبل في هذه السورة، وهذا السؤال تذكيرٌ به: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾[البقرة ٨٥].

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني سَلْ مَن لَقِيتَه منهم؛ مِن علمائهم الذين عرفوا كيف جعلهم الله تعالى نكالاً في إنزاله غضبه على طائفة من عباده! والسؤال المأمور به لبني إسرائيل سؤال تقرير لهم؛ يتضمن التأكيد على المصير الذي آل إليه تكذيبهم وتلاعبهم بدين الله ورسالاته.

والمقصودُ مِن التّقريرِ إظهارُ إقرارهم لِمُخالفتهم لِمُقتضى الآياتِ فيَجيءُ من هذا التَّقْرِيرِ: التَّقْرِيعُ؛ فليس الْمَقْصودُ تصريحهم بالإقرارِ بل مُجَرَّدُ كونهم لا يَسَعُهم الإنكار.

فائدة لغوية

و "سَلْ" أَمْرٌ مِنْ سَأَلَ يَسْأَلُ، أَصْلُهُ: اسْأَلْ؛ فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا بَعْدَ نَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى السَّاكِنِ قَبْلَهَا إِلْحَاقًا لَهَا بِنَقْلِ حَرَكَةِ حَرْفِ الْعِلَّةِ لِشِبْهِ الْهَمْزَةِ بِحَرْفِ الْعِلَّة، فَلَمَّا تَحَرَّكَ أَوَّلُ الْمُضَارِعِ اسْتُغْنِيَ عن اجْتلاب همزة الوصل[٣٢٠].

(٣٢٠) التحرير والتنوير، ٢/ ٢٨٨.





نبه بلفظ "كَمْ" على كثرة ما آتاهم من الآيات البينات: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾، ودل بقوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ على إضمار: بدلوا[٣٢١]، والتقدير: آتيناهم الآيات البينات فبدَّلوها، ودلّ بقوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أن هذه الآيات في الهداية وفي بيان الشرائع من جملة نعمته، بل هي من أعظم النعم؛ التي تستحق وصفها بأنها نعمة إذا قيست إلى غيرها[٣٢٢].

﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ فوقف عليها وعرف حقيقتها؛ ثم بدّلها من ذلك! ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ دليل على جواب الشرط؛ وبيانه: أن الشرط قوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، والجواب محذوف دل عليه التعقيب عليه: ومن يبدل نعمةَ الله يعاقبْه؛ فإن الله شديد العقاب.

من لطائف التعبير القرآني

ومن لطيف التعبير القرآني:

أنه جعل هذه النعمة هي الفاعل: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾؛ فهي التي جاءت، ولا كلفة عليه البتة، بل كانت محض تفضل من الله! وكذلك في أول الآية: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾، هم لم يفعلوا شيئاً حيال السعي وراء تحصيلها؛ بل نحن آتيناهم إياها، فما كان منهم إلا أن فرَّطوا!

❖ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾.

إن من أهم أسباب النكوص الذي يخوض فيه الذين لا يعلمون مبتعدين فيه عن استحقاقات الالتزام بمنهج الله وتأدية ما عليهم تجاهه:

(٣٢١) وهذا كذلك من دلالة الاقتضاء عند الأصوليين؛ ولكن لا مدخل لها في استنباط الأحكام هنا.

(٣٢٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٤٣٦.





الافتتان بالحياة الدنيا وزينتها، وقد أخبرنا الله تعالى أنه إنما جعلها مزخرفة كما هي فتنة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ {الكهف}، وها هم المفتونون بها يصيبهم سُمّها؛ السم الذي يُفسد الرأي والعقل، ويقلب الموازين؛ حتى ترتكس الفطرة كلها؛ ويصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً!

تقعيد فكري

إن انكشاف "فلسفة الدنيا والآخرة" ومعرفة وزن كلٍّ منهما هو أهم عناصر الأمان التي يواجه بها المؤمن معركة الريادة في الأرض والأستاذية فيها، وعليها يتكئ في تأديته لرسالته العالمية، وإلا فإنها الفتنة بزخرف الحياة الدنيا والانخداع ببريقها الساحر، وانحراف البوصلة باتجاه الاستكثار منها.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فرأوها كلَّ شيء ووقفَ عندَها علمُهم واقتصرت عليها رؤيتُهم؛ فلا يرون أبعدَ منها البتة، وصارتْ تلك الزينةُ غايةَ همِّهم ومبلغَ علمِهم حتى جعلوها مقياس التفاضل؛ فمن حاز منها عظم في أعينهم وإلا فهو محل السخرية، ولذلك سَخِروا من الذين آمنوا، فالإيمان ليس مقدَّراً عندهم باعتبار أنه لا يخضع لمقاييس المادة التي لا يؤمنون إلا بها ولا تتجاوزها أنظارهم، ولا أهل الإيمان كذلك!

ولا بد من التنبُّه إلى أن المعنى المذموم في زينة الدنيا هو هذا لا غيره، فإن الله سبحانه قد زيّن الدنيا لعباده المتقين ليحصل لهم فيها من الراحة والانبساط ما تتحقق لهم معه الفوائد الكثيرة في العاجلة والآجلة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ {الأعراف ۝٣٢}.



وفاعل التزيين محذوف، والفعل مبني لما لم يسمّ فاعله، والفاعل:

- يحتمل أن يكون هو الله سبحانه؛ باعتبار أنه خلق هذه الزينة وابتلى عباده بها.
- ويحتمل أن يكون المزيِّن الشيطان؛ كما قال سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ {محمد}؛ وتزيينه باعتبار أنه المقرِّبُ للزينةِ الموسوسُ بالافتتان بها.
- وثمة وجهٌ ثالث ذكره ابن عاشور وتفرد به فيما أعلم، قال:

"ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَذْفُ الْفَاعِلِ لِدِقَّتِهِ، إذ المُزَيِّنُ لهم الدُّنْيَا: أمْرٌ خَفِيٌّ؛ فيحتاجُ في تفصيله إلى شرحٍ في أخلاقهم، وهو ما اكتسبته نفوسهم من التَّعلُّقِ باللَّذَّاتِ وبغيْرِها من كُلِّ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى التَّعَلُّقِ بِهِ التَّنَافُسُ أَوِ التَّقْلِيدُ حَتَّى عَمُوا عَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَضْرَارِ الْمُخَالِطَةِ لِلَّذَّاتِ أَوْ مِنَ الْأَضْرَارِ الْمُخْتَصَّةِ الْمُغَشَّاةِ بِتَحْسِينِ الْعَادَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ عَلَيْهِ ضَعْفُ الْعَزَائِمِ النَّاشِئُ عَنِ اعْتِيَادِ الِاسْتِرْسَالِ فِي جَلْبِ الْمُلَائِمَاتِ دُونَ كَبْحٍ لِأَزِمَّةِ الشَّهَوَاتِ، ولأجلِ اختصاصهم بهذه الحالة دون الْمُؤْمِنِينَ ودونَ بعض أهل الْكِتَابِ الَّذِينَ رَبَّتِ الْأَدْيَانُ فِيهِمْ عَزِيمَةَ مُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ النُّفُوسِ الذَّمِيمَةِ بِتَعْرِيفِهِمْ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تِلْكَ اللَّذَّاتُ مِنَ الْمَذَمَّاتِ وَبِأَمْرِهِمْ بِالْإِقْلَاعِ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ ضُرٌّ عَاجِلٌ أَوْ آجِلٌ حَتَّى يُجَرِّدُوهَا عَنْهَا إِنْ أَرَادُوا تَنَاوُلَهَا وَيَنْبِذُوا مَا هُوَ ذَمِيمَةٌ مَحْضَةٌ، وراضتهم على ذلك بالبشائر والزَّوَاجِرِ؛ حتى صارت لهم مَلَكَةٌ فَلِذَلِكَ لَمْ تُزَيَّنِ الدُّنْيَا لَهُمْ"[٣٢٣].

التعريف بالموصول

والتعبير بالموصول في: "الذين كفروا" و"الذين آمنوا" لتسليط الضوء على إحداث الفعل: الكفر بالنسبة إلى الذين كفروا، والإيمان بالنسبة إلى

(٣٢٣) التحرير والتنوير، ٢/ ٢٩٥.



الذين آمنوا، وللتسجيل عليهم كلٌّ بفعله.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ نعم إنها الحقيقة، إن المقاييس المعتمدة هناك لا تقدِّر المادَّةَ ولا تراعي أصحابها، إن المعوَّل عليه ثمةَ شيءٌ واحدٌ لا ثانيَ له: التقوى، ولذلك ارتقى أصحابها ونزلوا المحالَّ الفوقية: الفوقية الحقيقية في الجنة، التي دونها النار، والفوقية المجازية باعتبار التكريم الخاص بهم في مقابل الإهانة التي "حظي" بها أولئك! وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وفي الآية:

الإشارة إلى أن الرزق ليس مقصوراً على إيتاء المال، بل ما هو أهم منه في هذا المعنى: التوفيق إلى التقوى التي تورث الفوقية المطلقة والتكريم الجزيل والعاقبة الحسنة.

❖ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

في الرازي: "اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّ سَبَبَ إِصْرَارِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَلَى كُفْرِهِمْ هُوَ حُبُّ الدُّنْيَا، بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِهَذَا الزَّمَانِ، بَلْ كَانَ حَاصِلًا فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُتَقَادِمَةِ، لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً قَائِمَةً عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا، ومَا كَانَ اخْتِلَافُهُمْ إِلَّا بسبب البغيِ والتَّحَاسُدِ والتَّنَازُعِ في طَلَب الدّنيا فهذا هو الكلام في ترتيبِ النَّظْمِ"[٣٢٤].

وأطال ابن عاشور في البيان وفصَّل؛ وقد ذكر ما أورده الفخر أولاً ثم زاد وأفاد:

"الثَّانِي: يُؤخَذُ مِن كلام الطِّيبيِّ عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، أَخذَ مِنْ كَلَامِ «الْكَشَّافِ» أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تَشْجِيعُ الرَّسُولِ

(٣٢٤) تفسير الرازي، ٦/ ٣٧٢.



عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ بِذِكْرِ مَا قَابَلَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ أَنْبِيَاءَهَا، وما لَقُوا فيها مِن الشَّدَائِدِ اهـ. كلام الطيبي.

فالْمُناسبةُ على هذا فِي مَدْلُولِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ﴾ إلخ، وتكونُ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةً اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا لِلْمُنَاسَبَةِ.

والظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ مَوْقِعَ هَذِهِ الْآيَةِ هُنَا جَامِعٌ لِمَوْقِعِ تَذْيِيلٍ لِمَا قَبْلَهَا وَمُقَدِّمَة لِمَا بعدها:

- فَأَمَّا الْأَوَّلُ فلأَنَّهَا أفادتْ بيانَ حالةِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ كَيْفَ نَشَأَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي الحْق مِمَّا لأَجله تَدَارَكَهُمُ اللهُ بِبِعْثَاتِ الرُّسُلِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ الله وَلُطْفُهُ؛ مِمَّا يُمَاثِلُ الْحَالَةَ الَّتِي نَشَأَتْ فِيهَا الْبَعْثَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ وَمَا لَقِيَهُ الرَّسُولُ وَالْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

- وأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ لِمَا يَرِدُ بَعْدَهَا مِنْ ذِكْرِ اخْتِصَاصِ الْإِسْلَامِ بِالْهِدَايَةِ إِلَى الحْق الَّذِي اخْتلفت فِيهِ الْأُمَمُ، وهُوَ مَضْمُونُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وَذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ كَوْنِ الْإِسْلَامِ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا سبقه مِن الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وأنَّ هذه الْمَزِيَّةَ الْعُظْمَى يَجِبُ الِاعْتِرَافُ بِهَا، وأَلَّا تَكُونَ مَثَارَ حَسَدٍ لِلنَّبِيءِ وأُمَّتِهِ، رَدًّا عَلَى حَسَدِ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَلَى حَسَدِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي سَبَقَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ {البقرة ١٤٢} إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾"[٣٢٥].

يخبر الله تعالى أن الناس كانوا أمة واحدة على طريقة واحدة من الاعتقاد، حتى بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وقد اختُلف في تفسير ذلك على وجهين:

- **الأول**: كان الناس على العقيدة الحقة: التي فطر الله الناس عليها، فأغواهم الشيطان فكفروا، فبعث الله النبيين، مبشرين من آمن بحسن الثواب، ومنـذرين من كفر بشديد

---

(٣٢٥) التحرير والتنوير، ٢/ ٣٠٠.





العقاب.

❖ **الثاني**: أن الناس كانوا قبل إرسال الرسل على الكفر بسبب إغواء الشيطان لهم وصدهم عن سواء السبيل، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، رحمةً بهم وإرشادًا لهم لعلهم يهتدون إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وأُخراهم.

تطبيق أصولي / أصول التفسير

والراجح إن شاء الله في تفسير الآية الوجه الأول، ووجه ترجيحه: أن تفسير القرآن بالقرآن هو أقوى طرق التفسير كما جاء في مقدمة ابن تيمية وغيرها[٣٢٦]، وإذا ما جمعنا الآيات المشابهة وتتبعناها في القرآن الكريم وجدنا في سورة يونس قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس ١٩]، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ واضحة الدلالة على أنهم كانوا على الإيمان الذي فطرهم الله عليه، وخلق عليه أباهم آدم عليه السلام، وحمل الآيات بعضها على بعض وتفسيرُ الآية بالآيات المشابهة لها، وتفصيلُ ما أُجمل في موضع بما فُصِّل في آخر، وتوضيحُ ما أُبهم في موضع بما صُرِّح به في آخر أَوْلى من غيره وأصح في التفسير، وعلى ذلك رجحنا ما رجحناه.

وقوله في وصف الرسل المبعوثين: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بيان لمهمتي الرسل بين الناس: التبشير والإنذار، وقد قدَّم البشارة على النذارة في مهمَّتَيهم؛ وهذا التقديم يسمى: "التقديم والتأخير غير الاصطلاحي[٣٢٧]"؛ كما بينا في إرشاد المتدبر، ويجيبنا الرازي عن سرِّ التقديم والتأخير

(٣٢٦) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ٣٩

(٣٢٧) خصائص التعبير القراني، ٢/ ١٤٦



هنا فيقول:

"وإِنَّمَا قَدَّمَ الْبِشَارَةَ عَلَى الْإِنْذَارِ، لِأَنَّ الْبِشَارَةَ تَجْرِي مَجْرَى حِفْظِ الصِّحَّةِ، والإِنذارَ يجري مَجْرَى إزالة المَرضِ، ولا شكَّ أنَّ المَقصُود بالذَّاتِ هو الأوَّلُ دون الثَّاني فلا جَرَمَ وجَب تَقْديمُه في الذِّكْرِ"[328].

﴿وأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي يهديهم به ويبيّن لهم آياته الدالَّة على وحدانيته؛ فيستقيم اعتقادهم ويصحّ تصورهم، والدالةَ على فاضل الأعمال والتشريعات والأخلاق؛ فيستقيم معاشهم؛ أنزله متلبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي قرّره مَنْ خَلَقَهم ﴿لِيَحْكُم﴾ الكتابُ المنزلُ ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التصورات والمشكلات في أمر الدنيا والدين، ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الحق الذي نزل به الكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به وعدم الاختلاف فيه، وكان اختلافهم هذا: ﴿بغيًا بينهم﴾، أي ظلمًا أو حسدًا حاصلًا بينهم، فغشَّى هذا البغيُ أبصارهم وختم على قلوبهم فما قاموا بالذي يجب عليهم أن يقوموا به، بل كذبوا بما عرفوا أنه الحق، وعادوا ما تيقنوا أنه من عند الله، فأصبحوا مصدرًا لإضلال الناس وهم يعلمون؛ بدلًا من أن يكونوا لهم هداة مرشدين.

وهكذا عكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزله الله سبباً لإزالة الاختلاف: سببًا لحصول الاختلاف[329]!

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾: فرفعوا لواء الاستخلاف وقادوا مركب الدين، واعتقدوا التوحيد الحقّ الذي أنزله الله في كتابه، والْتزموا المنهج الذي أمرهم به في الأستاذية في الأرض: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وهـذا

(٣٢٨) تفسير الرازي، ٦/ ٣٧٥.

(٣٢٩) انظر: التفسير الوسيط، ١/ ٣٣٥.





فضل الله عليهم؛ أنْ وفقهم ليكونوا حملة الرسالة وحراس المنهج، وهداهم ليكونوا أوسط الأمم اعتقاداً ومنهجاً، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

واقعية التفسير / مقاربة في التوفيق بين تفسير الآية على الوجه الذي أسلفنا وبين الواقع المعاش

وقد تنظر أيها القارئ إلى واقع الأمة؛ فتتساءل عن أولئك الذين وصفتُ لك في تفسير الآية الكريمة وتقول: إنني لا أجد تلك الأوصاف الباذخة في الخير والريادة فيما أراه اليوم في واقع المسلمين؛ بل أجد أمة متناحرة مختلفة، لا فرق بينها وبين الأمم المنحرفة من قبل: اختلف هؤلاء كما اختلف أولئك، وبغى هؤلاء كما بغى أولئك، وأما مظاهر الحسد والظلم فأكثر من أن أحدثك عنها أنا، وحدِّث أنت ولا حرج!

تقعيد فكري

والجواب:

أن أيَّ ناظرٍ لا تُخطئُه هذه الأحوال المؤلمةُ للأمة، ولا تُغطَّى الشمس بغربال، أما ما حدَّثَتْ عنه الآية فهو حال الأمة الأصيل؛ حالُ الأمة يوم كانت تقوم بدورها الفاعل في الأرض، وتمارس شهودها الحضاريَّ بين أممها.

وما تمرُّ به الأمة اليوم ليس هو حالَها الطبيعي، وإنما هو حال استثنائيٌّ، وهكذا هي حياة الأمم، فاليوم الذي تبدأ فيه بالتخلي عن المنهج أو عن أجزاء منه تبدأ أحوالها بالتردي في طريق السفول!

وحسبنا أمام هذه الحقيقة أن نشير إلى نقاط ثلاث:

الأولى: هذا الحال الذي تشبَّهت الأمة فيه بمسلك بني إسرائيل أَطرَق إليها ما حاق بهم من الخزي، والله لا يحابي أحداً، وليس ثمة "شعب الله المختار"! ومَنْ رَكِبَ السُّنّة ركبتْه نتيجتُها، والسلام!



والثانية: التأكيد على أن هذه المرحلة التي تعيشها الأمة هي مرحلة استثنائية، وليست هي المرحلة الطبيعية التي يُثبت الواقع التاريخي طوال قرون مصداقها، وفيه برهان ما قلناه.

والثالثة: أن الأمة وإن كان حالها على ما اتفقنا على توصيفه؛ فإن فيها طائفة ثابتة على أمر الله، مستمسكة بالحق، منصورة بإذن مولاها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله، تقوم فيه هذه الطائفة نيابة عن الأمة النائمة بالدور الكبير؛ لكن بشكل مختصر ومحدود، وتبقى على ذلك قائمة على الثغر حتى تستعيد الأمة عافيتها وتسترد رشدها، وفي الحديث: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله"[٣٣٠].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

قد ذكر الله تعالى في الآية السابقة اختلافَ الناس بعد مجيء الرُّسُل، والبغْيَ الذي جُعل منطلَقاً لكثيرٍ منهم في حرْبهم على دعوة الحق، ولمّا ذَكَر ذلك ناسبَ أن يَذكر في هذه الآية ما سينتج عن ذلك الاختلاف من امتحانٍ للمؤمنين وابتلاءٍ لهم في سبيل دعوتهم لله ومقارعتهم للطغيان.

"أم" منقطعة، بمعنى "بل" وهمزة الاستفهام، ويفيد الاستفهام هنا: إنكار الحسبان واستبعاده؛ أقصد: حسبان أن ﴿أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ من الدعاة وأصحاب الحق الذين ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ في سبيل ثباتهم على الحق المبين، و﴿وَزُلْزِلُوا﴾: اضطربت بهم الأمور اضطراباً كثيراً؛ حتى لكأن الأرض قد زلزلت من تحتهم، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ استبطاءً للنصر وتشوّفاً

(٣٣٠) الحديث عند مسلم في صحيحه (ج١/ ص١٣٧/ ح١٥٦) بلفظ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)





إلى حصوله: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ فيُقال لهم والحال قد بلغت بهم ما بلغت: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾! والقائل ذلك: يمكن أن يكون:

- الله سبحانه وتعالى؛ الذي يُرجِّيهم بأن الشدة على وشك الزوال، والكربة على وشك الانفراج، ويكون ذلك تعقيباً من الله على كلامهم السابق في استبطاء النصر.
- ويمكن أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض، أو من كلام الرسول لأتباعه وقد اشتكوا له تأخر النصر، يشبه هذا المعنى الحديثَ الذي فيه مقدِمُ خباب بن الأرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد رداء له في ظل الكعبة؛ فقال: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ وكان متكأ فجلس، وقال: "إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون"[٣٣١].

وفي ألفاظ هذه الآية ما يدلُّ على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العِظَم؛ لأنّ الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغايةَ في الشدة التي لا مطمح وراءها[٣٣٢].

وفي تفسير الراغب الأصفهاني:

"فخاطب الله هذه الأمة بأنه مُحال أن ترجوَ تحصيل الجنة إلا بما جرى به حكم الله في الذين سلفوا، وهو أن تنالكم البأساء أي الفقر، والضراء أي المصائب، والزلزلة أي المخاوف، وبذلك أثنى على المؤمنين فقال: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ {البقرة ١٧٧} وليس ذلك في الأمور الإلهية فقط، بل في

(٣٣١) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٩/ ص٢٠/ ح٦٩٤٣).

(٣٣٢) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٥٦.





عامة الملاذّ؛ **لا سبيل إلى منحة إلا بمحنة، ولا إلى لذة إلا بشدة،** ولهذا قيل: ولا بدّ دُون الشهْدِ من إبَرِ النحلِ"[٣٣٣].

وأقول:

تقعيد فكري

هذه الآية مركزية في البِنْية الفلسفية لفهم خط الدعوة وتقدير ما تتعرَّض له من ابتلاءات ومحن: إن الابتلاء سنة ماضية في حياة الدعوة لا يُتصوَّر سيرها دونها؛ لأن طبيعة هذا الدين وما يحمله من رسالة لهذا العالم تتصادم حتماً مع مصالح الطغاة ومناهجهم المبينة على استعباد البشر.

ولا يعني هذا بحال أن الابتلاء مطلوب، ولا يُتَصوَّر أنّ أَلَمَ المِحَن مَرغوب! ولا يتعلّق بهذا حتماً أن يسعى الدعاة نحو صناعة هذه الحال! بل على العكس من ذلك: الواجب تجنب حصوله ما استُطيع إلى ذلك السبيل، وقد قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ {الممتحنة}، وعلى لسان قوم موسى عليه السلام فيما قصَّه علينا من قصَّتهم: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥﴾ {يونس}، فلا مطلب للمؤمن في الابتلاء؛ بل الواجب التّجنُّبُ ما استطاع، إنما الذي يجب عليه: أن يثبت على دعوته، وأن يسير في جهاده للباطل ومقاومته للطغيان وفي إصلاحه للإفساد؛ فإن حصل وابتُلِيَ فليكن جَمَل الصبرِ في ذلك السبيل، وليكن جبل الثبات أمام أعاصير الفتن.

---

(٣٣٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٤٤٣.





المقطع التاسع والعشرون
النفقة والقتال؛ واجبان مكملان لبعضهما

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع والذي يليه يتضمَّن حُزمةً من التشريعات التي تشكِّل المجتمع إيذاناً بتشكّله واقعاً على الأرض، له نظامٌ عامٌّ يحكُم تصرُّفاتِه ويُنظِّم العلاقات بين أفراده.

وما احتواه هذا المقطع من آيات: الكلامُ عن النفقة وعن القتال، وعلاقةُ النفقة والقتال معروفة؛ بل هما قرينان في العرض القرآنيّ.

أما علاقة المقطع بسابقه؛ فواضحة كذلك، إذ يمكن أن نقول فيها:

إنه لمّا ذكر اختلاف الناس على الرسل، وهداية الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وبيَّن أن سنَّة الابتلاء ماضيةٌ في عُرف الدعوات لا تتخلَّف؛ انتقل إلى الكلام عن القتال وعن نفقته، والقتالُ نتيجةٌ طبيعيةٌ لذلك الاختلاف وتلك المواجهة بين الخطَّين.





والآيات القادمة في المقطعين؛ هذا والذي يليه تعدُّ من آيات الأحكام، وسنمرُّ بها سريعاً من غير استطراد فقهي؛ اللهم إلا ما كان منها في محل النطق، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

التفسير

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

يتوجّه المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن أي الأموال ينفقون؟ ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، ويأتيه الجواب؛ مع زيادة بدتْ كأنها المقصودة من السؤال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ وهذا هو جواب سؤالهم إذا تمعنت، يعني: تنفقون من الخير، لكنه زاد على ذلك ما يتضمن فائدة كأنها الأحرى بالسؤال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وذكرُ هؤلاء جواب على سؤال آخر؛ هو: لمن ننفق؟ إذ هو بيان لمصارف النفقة!

قال بعض العلماء: هذا من الأُسلوب الحكيم، الذي يقصد به توجيه السائل إلى ما كان ينبغي أن يسأل عنه.

ويمكن أن يقال: إنه تعالى أجاب عن سؤَالهم بما يناسبه، وزاد عليه فائدة أخرى، هي بيان المصرف، فإن الإجابة عن سؤالهم: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ واردة إجمالًا في الآية الكريمة وهي: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾.

فالخير: يتضمن ما كان حلالًا؛ كثيرًا كان أو قليلًا، إذ لا يسمى ما عداه خيرًا.

ومثل هذا مثل رجل يسأل طبيبه: هل يأكل العسل؟ فيجيبه الطبيب قائلًا: كُلْهُ مع الخل.



فالزيادة في الجواب على ما يقتضيه السؤَال مستحسنة[٣٣٤]، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سئل: أنتوضأ من ماء البحر؟ فقال: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته"[٣٣٥]، ولو قال: نعم، لأجاب، لكنه صلى الله عليه وسلم أفاد السائل إضافة مهمة زائدة على محل السؤال.

والمصارف المنصوص عليها هنا: الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل من المسافرين المنقطعين، والإنفاق على هذه الأصناف كفيل بتشكيل مجتمع قويٍّ متماسك:

انظر إلى أنه بدأ بمن النفقة عليه أولى؛ وهم الوالدان والأقربون، ولا تشتَرطُ الآيةُ أن يكون هؤلاء من الفقراء، وإشاعةُ الإنفاق في هذه الدوائر: يقويها ويزيد اللُّحمة العائلية؛ التي هي اللبنات الأساسية في بناء المجتمع، وتغطيتها كفيلة بتغطية معظم المصارف الأخرى، فالمتصوَّر أن يكون من ضمن الأقارب: يتامى ومساكين، فيكونون في الأغلب مشمولين في هذه الدائرة، لكن؛ حتى يضمَن التشريعُ التغطيةَ الحقيقيةَ لكل المجتمع بخير أهله الموسرين: نصَّ على بقية الأصناف: اليتامى؛ الذين يمثلون الطرف الأضعف في المجتمع، ويحتاجون بالتالي إلى رعاية خاصة واهتمام، وإلى المساكين؛ الذين لم يستطيعوا لسبب أو لآخر أن يجدوا ما يكفيهم ليكونوا أفراداً مُنْتجِين في المجتمع، فإذا حَمَلَهم هذا المجتمع بما فيه من الخير حوَّلهم حقاً إلى أفرادٍ منتجين؛ لعلهم يكونون في يوم ما من ضمن المنفقين على غيرهم، حتى يأتي هذا الخير العميم المنفَق على أوكار الفقر والعوَز في المجتمع المسلم، وانظر وقتئذ إلى قوته وقدرته على أداء مهمته العالمية.

حتى المنقَطعون عن أهلهم وقد عرَّفتْنا بهم الطريق: "ابن السبيل" يجدون من يحملُهم ويأوون إلى خيره في مجتمع عمَّه التكافل والرغبة بالإنفاق من الخير.

---

(٣٣٤) التفسير الوسيط، ١/ ٣٤١.

(٣٣٥) أخرجه أبو داود في سننه (ج١/ ص٢١/ ح٨٣)، وقال الألباني: صحيح.



دقة اختيار الألفاظ القرآنية

والخير هو النفقة على هؤلاء في الأصل، وهي التي يأجر الله تعالى عليها ويحبها، والآية سمَّت المال الذي ينفِقُ منه المنفِقُ خيراً، لِمَا أنه سببٌ له ومحلّ؛ على طريقة "المجاز المرسل وعلاقته السببية أو المحلية"، ولم أَجِدْ مَن نبَّه عليه.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، الخيرُ هنا عُمومُ أعمال البرّ، وهذا الاستعمال لكلمة الخير هو على أصل الوضع اللغوي، ويدلُّ على صحة ما ذكرتُه آنفاً من لطيفة تسمية المال الذي ينفق منه المسلم خيراً، فتأمل!

فائدة لغوية

وإقحام "مِن" في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ لتأكيد شمول الجزاء الموعود به لكل خير مبذول مهما قلّ، ويتجوز النحويون بتسمية "من" في مثل هذه المواضع: زائدة، ولا يقصدون بطبيعة الحال أنه لا حاجة إليها؛ وإنما يقولون: الأصل في التركيب أن يكون هكذا: وما تفعلوا خيراً، كقوله كذلك: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ {ق ١٨}، والأصل: ما يلفظ قولا، و"من" تفيد ما ذكرنا من حيث المعنى، وإن كانت من حيث النحو زائدة كما يزعمون، والأفضل تجنب مثل هذه الألفاظ، فلو قيل: صلة؛ لكان تأدباً مع القرآن، وإن كنا نفضِّل تجنب كل ذلك، والتوجيه بما جاءك مثاله.

وهذا التذييل مؤكد لمضمون الآية، مرغِّبٌ بالإنفاق عن طريق الإلماح إلى حسن المجازاة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط، وجوابه: يجازكم به أو يُثبكم عليه، ودليل ذلك علمُه به، وعلمه به يقتضي إثابتكم عليه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

۞ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

مناسبة الآية واضحة، والكلام عن الابتلاء قد سلف، والنفقة كذلك مرتبط ذكرها وتشريعها بالجهاد، وكذلك: ما أنتجته الصدقات من مجتمع متكافل هو القادر على مواجهة أعدائه، وعلى القيام بأداء مهمته التي أنيطت به، وهنا بيّن أن الله قد كتب القتال على المسلمين، وبيّن أن نفرة الطبع عنه لا تنافي ما فيه من المصالح؛ كما سيأتي.

تطبيق أصولي / الاستفادة من أصول الفقه في استكناه دلالة ألفاظ القرآن.

وقوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ دليلٌ على فرضيَّته، فالكَتْبُ من ألفاظ الإيجاب، وهو قويٌّ في إفادة الإيجاب، والكَتْبُ فيه إشارة إلى زيادة التثبيت؛ فإن الأمر يوَثَّق ويُؤكَّد بالكتابة، والفقهاءُ على أن القتال من حيث الأصل: فرض كفاية، وهذا دليل على ما ذهبوا إليه، ويتعين هذا الفرض في أحوال معروفة نصّ عليها الفقهاء كذلك.

الحذف والفكر

وحذفُ الفاعل هنا على طريقة بناء الفعل لما لم يسمّ فاعله لأن الفاعل معروف لا يشاركه في الفعل أحد، ومن الذي يشرِّع للمؤمنين ويكتُبُ عليهم إلا هو سبحانه! ولمّا كان الفاعل بهذا الاعتبار معروفاً لدى السامع ولا يحصل له لَبْسٌ في معرفته حذفه وبنى الفعل لما لم يسمَّ فاعله.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: بمعنى مكروه، كخبز بمعنى مخبوز، أي مكروه طبعًا لمشقته[٣٣٦]، والتعبير بالمصدر للمبالغة، فكأنه الكره ذاته، وهذا تصوير لكراهة الإنسان للقتال في البعد النفسي، والقرآن راعى هذا الكره الطبيعي؛ فالقتال بُعد عن الأوطان ومفارقة للأحباب، ومغامرة بالنفس وتعريض لها للقتل والجرح، وكلُّ ذلك ولا شكَّ مكروهٌ في ذاته، وقد أقرَّ القرآن به، وفي سورة الأنفال مما يؤيد ذلك المعنى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال ٧]، والخطاب للصحابة رضوان الله عليهم في آية الأنفال؛ فكيف بمن سواهم!

---

(٣٣٦) التفسير الوسيط، ١/ ٣٤٢.

تقعيد فكري

والقرآن بيّن أن القتال مكتوبٌ عليهم برغم ذلك، فإنه ما كل ما ترغب عنه النفوس بطبائعها شر، ولا كل ما تقبل عليه بطبيعتها خير: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾، وفي هذا دليل واضح - بما أن الله قد كتب القتال - على أنه خير، وأن ترْكَه وإن كان محبوباً للنفوس: شر، والوجوه التي يمكن معرفة كون القتال خيراً فيها كثيرة، لكننا نكتفي بالأهم: وهو أن الاستعدادَ للقتال والتهيؤَ له والتوثبَ لأدنى أسبابه: أكبرُ خندق تتخندق فيه الأمة دون اجتراء الأمم عليها، وإلا باتت نهباً تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، فأدى ذلك إلى نقيض ما أراده مَن آثر السِّلم وهجر الجهاد؛ وهو الحفاظ على حياته وأمواله وأمْنه، فيحصل له في الجهاد ما أراده بتركه، ويحصل له بتركه ما فرَّ من الجهاد خوفاً منه!

ولهذا المعنى الدقيق قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

تنزيل واقعي

وبرهان ذلك لا يحتاج إلى كبير استدلال، ولا تَعَنٍّ في الإقناع، فالدليل موفور عند النظر في الواقع والتاريخ، وكفى بواقع الأمة اليوم برهاناً عليه!

تَرَكَتِ الجهاد وانسلَّتْ من سُوحِه حرصاً على الدنيا، فإذا بالدنيا تضيع من يديها إلى أعدائها الذين داسوا على كرامتها واتّكؤوا على ضعفها فسلبوا ثرواتها، وعلى قلة استعدادها للجهاد فتهادوا على دماء أبنائها في كل زاوية من زوايا العالم.

حذف المفاعيل/ الحذف والذكر

وقبل أن نغادر المقام أقف وقفة بلاغية مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، تلك مع الفعل: يعلم، تعلمون، ذلك أن فعل "علم" فعل متعدٍّ، يأخذ مفعولين في العادة، فتقول: علمت الأمة فلسطين محتلة، لكننا نلحظ أن المفاعيل في الآية حُذفت ولم تُذكر؛ فلماذا؟

هذا مبحث من مباحث الحذف، وقد بيَّنا أمثلة منه في كتابنا: "إرشاد المتدبر"، ولنعالج هذا الموضع هنا، ونقول:

الأصل أن يتعدَّى هذا الفعل إلى مفعولين؛ باعتبار أنه من أفعال القلوب، وحذْفُ المفاعيل في هذا الموضع وأشباهه يمكن أن نوجهه أكثر من توجيه؛ فنقول:

- حذف المفاعيل للتعميم؛ وهذا الغرض من أغراض الحذف سائر، ويكون المعنى: والله يعلم كل شيء، وأنتم لا تعلمون شيئاً، ويكون نفي علمهم شيئاً إنما هو بالنسبة إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وعلمُ البشر بالنسبة إليه كَـ "لا" عِلْم.

- أو نقول- وهو يتسق مع طريقة النحاة في الإجابات-:

إنه نزل الفعل المتعديَ منزلةَ الفعل اللازم؛ فكأنه قال: الله عالِم، وأنتم غيرُ عالِمين.

- ويمكن كذلك أن نقول:

إن المفعول مفهوم من السياق، وما كان مفهوماً فلا داعي لتطويل الكلام بذكره، والتقدير: والله يعلم المصالح المترتبة على فرضية الجهاد، وأنتم لا تعلمونها، والله أعلم.

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

التعبير بـ "يسألونك" مُشعر بأن هذه الأسئلة قد نبتت في ساحة الممارسة العملية لإنشاء المجتمع المسلم، وقد بدأ المسلمون حقاً بعد إيجاب الجهاد بالتنفيذ الميداني، وعند التنفيذ تظهر بعض الأخطاء البشرية هنا وهناك، ولم يُرِدِ الله تعالى أن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً في هذه الأخطاء ليعيروهم بها متناسين ما يقعون فيه من الجرائم في كل لحظة، وقد علّم المؤمنين سبيل الجدل في مثل هذه الظروف، ولنبقَ مع التفسير يأخذنا إلى حيث مواضع الاستدلال.





﴾ سبب النزول ﴿

روت لنا كتب التفسير بالمأثور سبب نزول لهذه الآية، وهو سبب مشهور أنقله من تفسير ابن أبي حاتم، فقد روى بسنده عن جُنْدُبِ بنِ عبد الله أن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعَثَ رَهْطًا وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أبا عبيدة ابن الْجَرَّاحِ أَوْ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ، فَلَمَّا ذَهَبَ يَنْطَلِقُ بَكَى صُبَابَةً إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَلَس، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ مَكَانَهُ عَبْدَ الله بْنَ جَحْشٍ وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَأَمَرَهُ أَلا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: لَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ، اسْتَرْجَعَ، وَقَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً لله وَلِرَسُولِهِ، فَخَبَّرَهُمُ الْخَبَرَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَرَجَعَ رَجُلان ومضى بَقِيَّتُهُمْ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبَ أَوْ مِنْ جُمَادَى؟ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: قتلتم في الشَّهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾"[٣٣٧].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ بينّا من خلال سبب النزول قصة السؤال، وقصة الحدث الذي أثاره، والسائلون هنا إما أن يكونوا من المسلمين؛ الذين عيّرهم المشركون بانتهاك حرمة الشهر الحرام، أو يكونوا من المشركين الذين اطلعوا على الحادثة أو كانوا هدفاً لأعمال السرية العسكرية التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن كان السؤال سؤال المسلمين فيكون استفتاء وطلباً لبيان الحكم الشرعي في الحادثة وتحرّجاً مما وقع منهم من القتل في الوقت الذي هو مظنة الشهر الحرام.

وإن كان السائلون هم المشركين؛ فيكون سؤالهم تعييراً للمسلمين بما وقع منهم في ذلك الوقت، وليس هناك ما يمنع من كون كلِّ هؤلاء سأل عن القتال في الشهر الحرام؛ كلٌّ بقصده، وأسلوبُ الجواب يصلح للجواب على كليهما.

---

(٣٣٧) تفسير ابن أبي حاتم، ٢/ ٣٨٤.



وقوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر، فالسؤال ليس عن الشهر نفسه، وإنما عن القتال فيه، وقد لقَّن الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم الجواب؛ فقال: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، أي: القتال في الشهر الحرام وانتهاك حرمته كبير مستفحَش، وإنما قال ذلك "لأن العرب كانت لا تقرعُ فيه الأسِنَّة[٣٣٨]، فيَلقى الرجلُ قاتلَ أبيه أو أخيه فيه فلا يَهيجُه تعظيماً له، وتسميه[٣٣٩] مُضَر: "الأصمَّ" لسكون أصوات السلاح وقعقعته فيه"[٣٤٠].

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: هذه الواو استئنافية، و"صدٌّ" مبتدأ، وقد عطف عليه: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ وكذلك: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾، فهذه مذكورات ثلاثة: المبتدأ وما عطف عليه: والخبر قوله: ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾.

فلنعد إلى جمل الآية، فإن المتعاطفات تحتاج إلى تأمل فيها:

﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾، الضمير يعود على لفظ الجلالة، والمعنى: صدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ بالله، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ معطوفٌ على لفظ الجلالة على الأظهر[٣٤١]، بحيث يكون المعنى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وذلك بالتسبُّب بخروجهم من مكة بسبب التضييق والأذى، وتسميتهم "أهل" مع إضافتهم إلى المسجد الحرام: "أهله" إلماحٌ إلى أحقيّتهم به دون المشركين، ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ من انتهاك الشهر الحرام؛ لو سلّمنا بحصول ذلك من سرية عبد الله بن جحش!

وهذه الآية فيها ردٌّ على المشركين بأسلوب عجيب!

ذلك أن حاصل المعنى:

يسألونك عن قتال أصحابك في الشهر الحرام وانتهاكهم لحرمته، فقل لهم: نعم القتال

---

(٣٣٨) قرع الأسنة الذي تضارب السيوف، كناية عن الحرب.

(٣٣٩) تسمي الشهر الحرام، أو تسمي رجباً: الأصم لتوقف القتال فيه، وعدم سماع أصوات الحراب.

(٣٤٠) تفسير الطبري، ٤/ ٢٩٩.

(٣٤١) لا أستكثر بذكر الوجوه الضعيفة.





في الشهر الحرام أمر لا يصح، وهو كبير حقاً، لكن ما اقترفتموه أنتم أيها المشركون من أعمال لم تلتفتوا إلى قباحتها، ولم تقيموا لها وزناً: أكبر بكثير مما فعله هؤلاء الصحابة في الشهر الحرام! فأين ما فعلوه هم مما فعلتموه؟! وأين تقع عمليةُ قتالٍ محدودة؛ مظنونةٌ كونها في الشهر الحرام من جرائم كبيرة؛ كالصد عن سبيل الله ومن الكفر به ومن إخراج المسلمين من المسجد الحرام؟

ولأجل هذا المعنى قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ بالكفر والصد عن سبيل الله وإخراج المؤمنين من المسجد الحرام: ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ المُدّعى على المسلمين في الأشهر الحُرُم، أو يقال: إنه من المعلوم أن القتل من أشنع الأفعال وأقبحها، ومع ذلك بيَّن أن الفتنة بالكفر والصد عن سبيل الله وإخراج المسلمين من بلادهم ومسجدهم أكبر من القتل الذي استقرّ قبحه في الطبائع.

فائدة فقهية

الأكثر على أن حرمة القتال أو الابتداء بالقتال قد نُسخت؛ بل نقل الواحدي رحمه الله أن الإجماع منعقد على النسخ، وعلى جواز القتال في كل وقت من غير استثناء[٣٤٢]، لكن للقاسمي جمال الدين بحثٌ في المسألة، ناقش الأدلة فيه ببسط؛ فارجع إليه إن شئت الاستزادة.

تقعيد فكري، وإشارات حركية

ومن الفوائد الفكرية في هذا الجزء من الآية:

- أن وضع الدفاع هو أضعف الأوضاع، ولذلك لا يحسُن اتخاذ موضع الدفاع المجرد عن الإسلام، بل يحسن في عرف الجدل: تعديلُ الموقف

(٣٤٢) والإِجماعُ اليوم منعقدٌ على أنَّ قتال المشركين يجوز في جميع الأشهر حلالها وحرامها، التفسير الوجيز للواحدي، ١٦٤.





إلى الهجوم، والانتقالُ إلى بيانِ قبائحِ العدوِّ وتَعْدادِ جرائمه، والمقارنةِ بين ما ادُّعي علينا وما تلبَّس به أعداؤنا.

- الانحصار داخل زاوية ضيقة من الجدل والبدء بالمناورة المحدودة فيها: اقتطاع للمشهد الكليّ، وانتزاع للجزئي من سياقه العام، كان يمكن في النظر: أن نُجادل هؤلاء الذين عيَّروا المسلمين بالقتال في الشهر الحرام أن نلج معهم في جدال حول كون الصحابة في سرية عبد الله بن جحش لم يعلموا أنهم في الشهر الحرام، أو أن معهم حقاً فيما فعلوه لاعتبار كونه انتقاماً طبيعياً واجهوا به الظلْم الفادحَ الذي وقع عليهم من قريش، لكن لم يحصل ذلك؛ لأن حصوله سيضيِّق مساحة المدافعة الفكرية، بل ينبغي في مثل هذه الحال- كما في الآية-: إعادةُ صياغةِ المسألةِ موضعِ الحوار لإعطاء صورة أكبر ورؤية أوسع للمشهد؛ فكأنه قال: سلمنا أنه وقع منا هذا الخطأ "الكبير"، لكن فلننظر إلى ما وقع منكم أنتم من قبل ومن بعد! سنجد أن فعلنا إلى أفعالكم لا يُذكر ولا يقارن بها، والسلام!

ومثل هذا يعود بإبطال الدور الأخلاقي المزيف الذي يمارسه العدو المُبطِل.

ومثال هذا التعيير للإسلام كثير في واقعنا، بل نكاد نراه ونسمعه كل يوم من خلال منصات الهجوم على الإسلام والمسلمين، وعقيدتهم وشريعتهم وتاريخهم وواقع دعوتهم!

وبعد هذا النمط العالي من الحوار بيّن للمسلمين أن الأذى الذي سيلاقونه من الكفار لا ينقطع أبداً، وأن الكيد الذي يكيدونه لا مطمح في انتهائه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، و﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرت بي فلا تُبْقِ عليّ، وهو واثق بأنه لا يظفر به[٣٤٣]، وكذلك هو تهييج للمسلمين على الثبات وعلى مقاومة عدوهم، واستفزازٌ لدواعي الرجولة فيهم في مواجهة كيد الأعداء.

---

(٣٤٣) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٥٩.





ثم صرّح لهم بأن المُنقاد إلى إرادة الأعداء في رده عن الدين، المطاوعَ لهم في الانصراف عنه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وهذه خسارة ما بعدها خسارة، وتضييع ما بعده تضيع!

وهذا الخَتْمُ إشعارٌ للمسلم بأن رأس ماله وضمان نجاته هو استمساكُه بهذا الدين واستعصامه به حتى الموت؛ فيلاقي اللهَ تعالى على ذلك، وملاقاتُه سبحانه على غير ذلك هلَكَةٌ من شأن العقلاء اتقاؤها.

ومن التجلي الواقعيِّ للآية:

تنزيل واقعي

ما نراه في واقعنا وفي تاريخنا مصداقاً لهذه الآية الكريمة: أن كيد أعداء الله تجاه هذا الدين وأهله، وتآمرَهم لإضلال المسلمين؛ من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وحتى يومنا لم ينقطع يوما واحداً، وما تزال هذه الأمة تواجه مؤامراتهم، وتحبط بفضل الله مكائدهم.

ويأخذ هذا الكيد أشكالاً ظاهرة؛ كالقتل في فلسطين على أيدي اليهود ومِن ورائهم صليبية الغرب، وفي كوسوفا قبل ما يزيد على العقدين على يد الصرب، وفي الروهينغا في مواجهة البوذيين، وفي غير ذلك من المحال والبلاد والأزمان، وكلُّه على مشهد ومرآى من العالم كله، وليس ثمة نائحة على المسلمين ثكلى ولا حتى مستأجرة!

ويأخذ أحياناً صوراً غير مباشرة؛ كدعم الطغاة في بلاد المسلمين، وتسليطهم على الدعاة وعلى الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ فيزجُّونهم في غياهب السجون، ويقضي نفر كثير منهم نحبه فيها، أو يتترسون بقتلهم في مواضع تجمعاتهم بدعاوى واهية؛ ولا خجل ولا مروءة ولا دين!

وليس ببعيد ما حصل في مصر وفي غيرها مما نراه ونسمعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هي سنة دائمة، أخبرنا الله تعالى عن ديمومتها، ولا مهرب إلا بالثبات، ثم إن الاستهداء بالقرآن والاستعصام به سبيل النجاة، والموافاة على الإيمان غاية المؤمنين.

❁ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

لما كتب علينا القتال في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ رغب هنا بعد الاستطرا د المذكور في شأن القتال في الأشهر الحرم: بالجهاد وما ينتج عنه الجهاد وما يستلزمه؛ من الإيمان والهجرة.

ويمكن أن نقول كذلك:

ذكر في الآية الأخيرة الذين يرتدّون عن دينهم ويموتون وهم كفار، وصرّح بحبوط عملهم في الدنيا والآخرة، وبيّن هنا أن الذين يرجون رحمة الله ومغفرته- على مقابل ذلك- أولئك الذين قدموا الأعمال الكبيرة الدالَّةَ على دخولهم في السلم دخولاً كاملاً، وعلى بيعهم نفوسهم لأجل الله ولأجل دينه.

إن تمكين الدين في القلوب وفي الأرض تدور رحاه على هذه الأعمال الثلاثة، التي هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران:

❁ فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟! وهو الذي إذا كان مع العبد، قُبِلَت أعمال الخير منه، وإذا عُدِمَ منه لم يُقبل منه صرفٌ ولا عدْلٌ ولا فرْضٌ ولا نَفل.

❁ وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله، وخلانه، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه، وانحيازاً إلى صف الإيمان واستعلاناً بالانضمام إلى موكب الجند المؤدين لرسالة الإسلام في الاستخلاف في الأرض.





وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عُبَّاد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وضمان بلاغ هذه الدعوة إلى الآفاق؛ حماية لدولة الدعوة ودعوة الدولة.

ومن قام بهذه الأعمال الثلاثة على ما فيها من لأواء ومشقّة وبرهان على صدق الإيمان والانغماس فيه؛ كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً[٣٤٤].

ومن لطائف الظواهر السياقية القرآنية:

الحذف والذكر / تكرار الاسم الموصول

تكرير لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع الهجرة والجهاد، بعد ذكرها مع الإيمان؛ مع أن الذين هاجروا وجاهدوا هم الذين آمنوا، وكان يمكن أن يقال: "الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا"، لكنه "ذَكَر" ما كان يمكن أن يُحذف، وأطنب حيث كان يمكن أن يوجز؛ وما دام كذلك فإنه ولا شك عدل عن الحذف والإيجاز إلى الذكر والإطناب لمعنى بلاغيٍّ يتعلق به، والفائدة: تفخيم شأن الهجرة والجهاد، كأنهما - وإن كانا مشروطين بالإيمان - فهما مستقلان في تحقق الرجاء[٣٤٥].

التقديم والتأخير / التقديم غير الاصطلاحي.

ومن التقديم غير الاصطلاحيّ: تقديم الإيمان على الهجرة وعلى الجهاد؛ وذلك لأنه أصل لهما، ولأنه أشرف من حيث الذات، ولأنه متقدم عليهما من حيث الوجود، فالإنسان يؤمن قبل أن يُباشر بقية الأعمال الصالحة.

---

(٣٤٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٩٨.

(٣٤٥) التفسير الوسيط، ١/ ٣٥١.



وأما تقديم الهجرة على الجهاد فلتقدمها عليه وجودًا، كتَقَدُّمِ الإيمان عليهما.

﴿أُولَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ فإنهم محسنون، و ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾{الأعراف}، وأي إحسان أعظم من أن يُسلِم العبد ظاهره وباطنه لله، ويبيع نفسه في سبيل نصرة دينه ودعوته!

والتعبير بالرجاء هنا يصوِّر بُعداً نفسياً لدى هؤلاء الخيرة:

إنهم بذلوا أنفسهم وأسلموها بكليتها لله تعالى؛ فآمنوا وهاجروا من أوطانهم وتركوا أحبابهم، ثم انخرطوا في سلك العمل التنفيذي الجهاديّ بذلاً للنفس في تطلب الرحمة والرضوان؛ فمن أعظم منهم حالاً؟! مع ذلك؛ إنهم لا يدِلّون على الله بأعمالهم، بل هم مع كلّ ما بذلوه يلْحظون تقصيرَهم في جنب الله، وتواضعَ بذْلهم في جناب استحقاقات عبوديته، ولذلك هم "يرجون" رحمة الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ {المؤمنون}، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾.

تطبيق أصولي / الاستفادة من أصول الفقه في استكناه دلالة ألفاظ القرآن.

الحذف والفكر

وفي الآية:

- دليلٌ على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، فإن القوم قد بذلوا الأسباب، وتفانَوا في تحصيلها؛ فصاروا من بعدُ على رجاء حصول الرحمة الموعودة، أما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همة صاحبه ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ويرجو الغلة بلا بذر وسقي[346].

---

(٣٤٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ٩٨.

المقطع الثلاثون

أحكام عامة وخاصة من شأنها الحفاظ على هوية المجتمع واستقرار لبناته

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ



بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع- وهو لاحق بالمقطع السابق- يحتوي على إجابات زمرة من الأسئلة الموجّهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أفرز هذه الأسئلةَ تشكُّلُ "الأمة"؛ ولم يكن ثمة "أمة" من قبل لتفرز مشكلات وقضايا تستلزم المعالجة، وهذه الأمةُ الناشئةُ التي رافقتْ سورةُ البقرةِ نشوءَها وتكوُّنَها؛ بدأتْ تواجِهُها سؤالاتٌ واقعيةٌ متعددة، يتعلّقُ بعضُها بالمنهج، ويتعلق بعضٌ آخر بالمال، وبعض ثالث بالتكوين، ورابع بالمأكول والمشروب والمنكوح.

وكذلك نجد إطناباً وتفصيلا يتعلق بأحكام الأسرة، وينظم العلاقة بين الزوجين؛ في إشارة دقيقة لأهمية البُعد الأسريِّ والاستقرار العائلي في أولويات صناعة الأمة الرائدة المستخلفَة؛ فإن الأسرة هي المصنع الصغير الذي ينتج الأفراد الصالحين الفاعلين المؤمنين برسالة الأمة، المسهمين في رسم صورة مجدها.

وهكذا نجدُ العلامات الحيوية لولادة الأمة وانبعاث الحياة فيها يتدفَّق على شكل هذه الأسئلة وتلك التنظيمات الاجتماعية التي يعالجها الوحي، وترعاها يد النبوة.

التفسير

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام عن الخمر والميسر، وسألوه عن النفقة، وسألوه عن اليتامى، وسنستعرض كلاً منها بما سمح به المقام.

❖ سألوه صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر؛ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، والسؤالُ عنهما يُلمِح إلى أنهم وَجدوا في أنفسهم حرجاً ما منهما[٣٤٧]، ولعل هذا الحرج كان بمقتضى صحيح العقل وسليم الطبع، فإنهما يَستقبحان مثل هذه الأعمال، فجاءت الإجابة مؤكِّدةً لما وجدوهُ في أنفسهم من النفرة عنهما، لكن الجمهور على أن هذه الآية نزلت ضمن سياق التدرج في تحريم الخمر؛ التي بُتَّ في تحريمها بقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ {المائدة ٩٠}، مع أن ألفاظ الآية تكاد تكون صريحة في التحريم!

و"الخمر" كل شراب خَمَّر العقل فستره وغطى عليه، وهو من قول القائل:"خَمَرت الإناء" إذا غطّيْته، وما خامر العقل من داء وسكر فخالطه وغَمَره فهو "خمر"[٣٤٨].

وأما الميسر فهو القمار، مصدر من "يَسَر"، كالموعد والمرجع من فعليهما، يقال: يسرته إذا قمرته، واشتقاقه من (اليسر) لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدّ ولا تعب، أو من (اليسار) لأنه سلب يساره[٣٤٩]، أي غناه وماله، وهو شامل لكل أنواع سلب

---

(٣٤٧) سنن أبي داود، ٣/ ٣٢٥

حَدَّثَنَا عَبَّادُ بْنُ مُوسَى الْخُتَّلِيُّ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي ابْنَ جَعْفَرٍ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [البقرة: ٢١٩] الْآيَةَ، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} [النساء: ٤٣] فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: «أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ»، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩١] قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا

(٣٤٨) انظر: تفسير الطبري، ٤/ ٣٢٠.

(٣٤٩) تفسير القاسمي، ٢/ ١٠٩.





المال بلعب ولهو بلا مقابل من سلعة أو منفعة أو هبة أو صدقة أو ما إلى ذلك.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

ويلاحظ أن التعبير بالإثم جاء في مقابله لفظ النفع، والنفع لا يقابل الإثم، وإنما يقابل الضرّ، وهذا يعنى أن الإثم ليس مجرد ذنب ومعصية، يضاف حسابها إلى الحياة الآخرة، بحيث لا يجد من يقترفها ممن لا يؤمن بهذه الحياة ما يضيمه أو يضيره، بل إن هذا الإثم هو ذنب ومعصية يترصد صاحبه في الآخرة، ثم هو ضرر وشر يصيب مقترفه في الدنيا.

ومعنى هذا أن صاحب الخمر والميسر إن كان لا يؤمن بالحياة الآخرة ولا يخاف مأثما منهما، فإنّ ما فيهما من ضرر يصيبه في حياته الدنيا في جسده وماله؛ جدير به أن يخيفه ويزعجه ويقيمه منهما على حذر وتخوّف، فكيف بصاحب الدّين الذي ينظر إلى هذين المنكرَيْن وقد أصاباه في دينه وفى دنياه جميعا[٣٥٠]؟

أجابت الآية بما هو مقتضى النظر العقلي المجرَّد: نعم؛ فيهما إثم، مع وصفه بالكبير، ومنافع؛ بلا وصف، ومجيئهما كليهما نكرة له دلالة تتعلق بالمفهوم من السياق:

التعريف والتنكير / تطبيق وتأصيل

فقوله : ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، نكرة، وهي نكرة موصوفة بالكبر، وواضح أن التنكير هنا للتعظيم، فكأنه قال: إثم كبير لا يقادر قدره.

وقوله: "ومنافع" نكرة كذلك، لكن مفيدة للتحقير والتقليل.

وقد يسائلني القارئ الحصيف فيقول: الكلمتان وردتا نكرتين؛ فما بالك قد جعلت إحداهما لإفادة التعظيم، والأخرى لإفادة التحقير والتقليل؟

(٣٥٠) التفسير القرآني للقرآني، عبد الكريم الخطيب، ١/ ٢٤٦.



وهلّا جعلت لهما الدلالة ذاتها لتطّرد إفادة النكرة؛ إما للتعظيم أو للتحقير؟!

والجواب:

أن الاستقراء قد دلنا- كما قرأتَ في إرشاد المتدبر- أن التنكير قد يفيد التعظيم وقد يفيد التحقير، وقد يفيد معاني أخرى، والواجب عليك أن تنظر في السياق، وتتركَ لبديهتك اللغوية استشعار المقصود من الكلام؛ هل المقصود في السياق: تحقير الإثم في الخمر والميسر أم تعظيمه؟ وهل المقصود فيه تحقير المنافع أو تعظيمها؟ ستجد أن المقصود ولا شك تعظيم الإثم وتحقير المنافع؛ فإن السياق يتجه إلى تحريم الخمر والميسر والتنفير عنهما، لا إلى إباحتهما والترغيب بهما، فعُلِمَ ما ذكرناه من غرض التنكير في الموضعين.

وقد ذكرنا في إرشاد المتدبر؛ ونعيد هنا للتذكير: أن التعظيم قد فُهِم من التنكير- بعيداً عن السياق المعين- من أن الأمر إذا عظُم فاق المعتادات والمتصَوَّرات، فمن أين يدرك السامع حقيقته؟ وكأنه من العظم بحيث جاوز المعارف والإدراكات!

أما التحقير؛ فقد فُهِمَ من حيث إن الأمر الحقير لا تُتَطلب حقائقه ولا يُكترث لها!

وقوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ بيان لكون الإثم فيهما أكبر من النفع، وهذا واضح في ترجيح جانب التحريم، وتحمل هذه الجملة القرآنية جملة من القواعد العامة:

استنباطات لمجموعة من القواعد والأصول

- لا يخلو شيء ما في الدنيا من امتزاج المنافع والمضار، والمفاسد والمصالح، وليس ثمة خير محض ولا شر محض.

❖ وهو من قواعد الشريعة الكلية: أيُّما عمل غلبت المفسدة فيه المنفعة فالوجه فيه التحريم، وأيما عمل غلبت المنفعة فيه المفسدة فالوجه فيه الإباحة أو الندب أو الإيجاب.

❖ أن تحريم الشيء يتأكد ويعظُم بمقدار ما فيه من مفاسد، وكلَّما عظُمت المفسدةُ عظُم التحريم، وأن مقدار تأكُّد العمل هو بمقدار ما فيه من منافع، وكلما عظُمت منافعه ازداد تأكد طلب الشرع له.

❖ وأما سؤالهم الثاني؛ فعن النفقة، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، وقد سلف مثل هذا السؤال قبل آيات، في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ {البقرة}، فأجيبوا هناك ببيانٍ عامٍّ عن مادّةِ الإنفاق: "خير"، وفسرناها ثمة بالحلال الطيب من المال، وببيان مصارف النفقة: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وها هنا سؤال آخر؛ وهو ماذا ينفقون وماذا يتركون من المال[٣٥١]؟ وعبارة صاحب الظلال:

"لقد سألوا مرة: ماذا ينفقون؟ فكان الجواب عن النوع والجهة، فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة"[٣٥٢].

والجواب القرآني عن سؤالهم: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، والعفو: الزيادة والفضل، فكأنه قال: أنفقوا ما فضُل عن حاجتكم وحاجة عيالكم، وهذا ترجيح الطبري في تفسيره[٣٥٣].

وفي معنى الآية من الحديث ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول"[٣٥٤].

---

(٣٥١) انظر: تفسير الرازي، ٦/ ٣٩٥، واللباب في علوم الكتاب، ٤/ ٤٠، وكذلك: تفسير المنار، ٢/ ٢٦٨.

(٣٥٢) في ظلال القرآن، ١/ ٢٣١.

(٣٥٣) تفسير الطبري، ٤/ ٣٥٤.

(٣٥٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص١١٢/ ح١٤٢٦).



﴿كَذَٰلِكَ﴾ على ذلك النهج من البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وفي أثر الالتزام بشريعته العظيمة التي جمعت لكم الخير ودلّتْكم على الهدى في أمر دنياكم وأمر آخرتكم، فمثل هذه الشريعة المتكاملة من شأنها أن تكون دلالة على نبوة من أتى بها؛ فمثلها في التكامل وملاءمة البشر واستكمال الهداية واستجلاب المصالح وإيجابها، ودرء المفاسد وتحريمها: لا يصدر عن بشر!

❁ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

هذه المسألة الثالثة في الآيتين بعد السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن النفقة، ومن خلال سبب النزول المروي يتبين الدافع الدقيق للسؤال عن اليتامى:

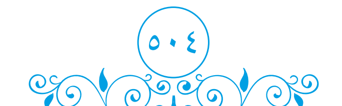
فعن ابن عباس رضي الله عنه قال:

لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ {الأنعام}، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ {النساء}؛ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شَرَابِه، فَجَعل يفضل له الشيء من طعامه، فيُحبس له حتى يأكله، أو يفسُد فيُرمى، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية: فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه"[٣٥٥].

فهذا وجه سؤالهم عن اليتامى، والجواب: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، والمعنى: أن من قصد الإصلاح في مال اليتيم فهو خير، وما فَعَلَ بعد هذا المقصد من مخالطة وانبساط بعوَضٍ منه فلا حرج، ورفع تعالى المشقة في تجنب اليتيم ومأكله ومشربه، وأباح الخلطة

---

(٣٥٥) أخرجه أبو داود في سننه (ج٣/ ص١١٤/ ح)، وقال الشيخ شعيب: ضعيف.





في ذلك إذا قصد الإصلاح ورفق اليتيم، مثال ذلك: أن يكتفي اليتيم دون خلطة بقدر ما في الشهر، فإن دعت خلطة الولي إلى أن يُزاد في ذلك القدر فهي مخالطة فساد، وإن دعت إلى الحظِّ من ذلك القدر فهي مخالطة إصلاح[٣٥٦].

الحذف / حذف المبتدأ

ورغّب بمخالطتهم: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، أي هم إخوانكم، والمبتدأ محذوف، و"إخوانكم" خبر له، وإنما حذف المبتدأ لأنه مفهوم من السياق، والإيجاز في مثل هذه الأحوال أولى من تطويل الكلام بما لا فائدة تحصل بذكره، ولقد جاءك مثل هذا من أغراض حذف المبتدأ.

وطمأنهم إلى المخالطة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، وهو يعلم نواياكم؛ فلا عليكم من بأس طالما كانت نيتكم الإصلاح لليتيم.

وبيّن من بعدُ أن هذا من رفق الله بهم؛ إذ إن هؤلاء اليتامى يساكنونهم في بيوتهم، ويخالطونهم في عموم أمر معاشهم، فعزْلُهم- كما في الرواية- فيه عنت؛ أي: مشقة بالغة لهم يواجهونها في تفاصيل حياتهم، ولما كان أمر هذا الدين مبنياً على التيسير كان ذلك مقتضياً رفع هذا الحرج عنهم بإباحة ذلك ما دام في إطار الإصلاح لليتيم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

۞ ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

(٣٥٦) المحرر الوجيز، ١/ ٢٩١.





انتقل في هذه الآية بعد الكلام عن اليتامى في الجزء الأخير من الآية السابقة إلى الكلام عن حكم الزواج من المشركين والمشركات؛ فبيّن حُرمة ذلك على القطع، وعدمَ جوازه بحال، وهناك استثناء يتعلق بأهل الكتاب بينته آية أخرى؛ نبينه إن شاء الله، وواضح أن الإصلاح الأسري، وتنظيم البناء الاجتماعي هو المقتضِي لهذا الانتقال والتتابع في الموضوعات.

قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾، النكاح: يُطْلَقُ بمعنى العقد، وبمعنى الوطْء، وهو هنا اتفاقاً بمعنى: العقد؛ عقد الزواج، فالنهي عن زواج المشركات وتزويج المشركين.

والمشركاتُ هُنَا: الكافرات؛ فتدخلُ الكتابِيَّاتُ في هذا العموم، ومن جَعَلَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ من عموم الكافرات[٣٥٧]، فالآية عامة في كل من انطبق عليها اسم الشرك، ولا شك أن من ادعى لله ولداً وكذب بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم داخل في هذا الإطلاق، لكن هذا العموم قد خُصّص بما جاء في سورة المائدة من قول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ {المائدة ٥}.

فالتوجيه الأصولي يُقال فيه:

إن الآية التي بين أيدينا فيها تحريم الزواج من عموم المشركات، وهذا العموم شامل للكتابيات في أصل الوضع، لكن هذا النوع من العام يطلق عليه: عام يدخله التخصيص، وهو حال معظم العمومات في القرآن؛ خصوصاً ما يتعلق منها بالأحكام الشرعية، ومعنى أنه يدخله

التطبيق الأصولي/ العام والخاص

(٣٥٧) البحر المحيط، ٢/ ٤١٦.





التخصيص: أن ثمة دليلاً متصلا أو منفصلاً دلّ على تخصيص بعض أفراد هذا العموم وإخراجه من الحكم العام هنا، وآية سورة المائدة المذكورة هي المخصص للعام؛ فقد أخرجت بعض الأفراد من هذا العموم؛ وهن الكتابيات، فالكتابيات مشركات لكن آية المائدة بيّنت تخصيصهن بحكم آخر؛ هو جواز الزواج بالمحصنات منهن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ بيان لغاية التحريم، وهو أنه ممتد حتى يدخلن في الإسلام، فإذا دخلن فالزواج بهن صار مباحاً؛ إذ زال عنهن اسم الشرك.

التطبيق الأصولي

وهذا النمط من الدلالة نسميه: مفهوم المخالفة، وهو إعطاء حكم للمسكوت عنه مخالف للمنطوق به: فالمنطوق به: عدم جواز الزواج بهن حتى يؤمن، والمسكوت عنه: الزواج بهن بعد الإيمان، فإنه لما قال: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فهمنا أنهن بعد الإيمان يعطى الزواج بهن حكماً آخر مخالفاً لما كان قبله، فقد كان التحريم وصار إلى الإباحة.

وما كل منطوق له مفهوم مخالفة، وهذا المفهوم من الدلالات الضعيفة؛ التي قد تتخلف إذا منع من الاستدلال به مانع، والمظانُّ من كتب الأصول محل الاستزادة.

وبيّن لهم: أن الأَمَةَ المؤمنة خير من الحرة المشركة في كل حال حتى في الحال التي تكون فيها المشركة في محل إعجابكم؛ فإن الشرك قدحٌ لا يَجبره شيء إلا الإيمان: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

وانتقل إلى بيان حرمة تزويج المشركين من المؤمنات، قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾، والأمر هنا كما هو هناك من قبل؛ سوى أنه لا



تخصيص للكتابيين في جواز الزواج من المسلمات، فالمسلمة لا ينكحها إلا مسلم، وتحريم زواج المسلمة من المشركين تحريم عام لم يدخله التخصيص، وقال: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن﴾ حر ﴿مُّشْرِكٍ﴾ في كل حال؛ حتى في الحال الذي يكون فيه المشرك في محل الإعجاب!

والعلة في هذا التحريم واضحة كبيرة: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فكيف يليق بالمؤمن الزواج بهن؟ وكيف يليق بالمؤمنة الزواج بهم؟ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، وذلك ببيان هذه الشريعة الهادية إلى سواء السبيل في الدنيا والآخرة: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فيرون أن كل خير هو ما شرعه الله لهم أمراً ونهياً، وإباحة وتحريماً!

❁ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

بعد أن حرم ما حرَّمه من زواج المشركات والمشركين؛ بين ما يجوز للرجل من زوجته وما يحرم عليه منها، وذلك بعد سؤالهم عن المحيض، ويبدو أن الذي أثار سؤالهم عن الحيض ما كان يراه اليهود في الحُيَّض من النساء؛ وكانوا يساكنون أهل المدينة في الضواحي؛ وكان ذلك مظنة التأثر بهم.

فعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ اليَهودَ كانوا إذا حاضَتِ المرأة منهم لم يُؤَاكلوها وَلَمْ يُجَامِعُوهَا في البُيوتِ، فَسَأَلَ أصحابُ النَّبِيِّ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ"، فبلَغَ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يُرِيدُ هذا الرَّجُلُ أن يَدع مِن أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ! فجاء أُسَيْدُ بْنُ حُضَير وعبَّاد بْنُ بِشْرٍ فقالا:



يا رسول الله، إن اليهودَ قالت كذا وكذا، أفلا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم حتى ظَنَنَّا أن قد وَجَدَ عليهما، فَخَرَجَا فاسْتَقْبَلَتْهُمَا هديَّةٌ مِن لبنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل في آثارِهما فسقاهما، فعرَفا أن لم يَجِدْ عليهما"[358].

والمحيض مصدر؛ يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً وبات مبيتاً، هكذا رأى الزمخشري[359]، وإن كان الراغب قد خطّأه ورأى أن المحيض[360]: وقت الحيض وموضعه، وقد قيل: يقال للحيض محيض، على أن المصدر في هذا الباب يجئ على (مفعل)، نحو: معاش ومعاد، والأظهر أنه اسم مكان.

وأصلُ الكلمة في اللغة مِن السَّيلانِ والانفجار، يقالُ: حاض السَّيلُ وفاض، وحاضَتِ الشجرةُ أي: سالتْ رُطوبتها، ومنه الْحَيْضُ؛ أي الحوضُ، لأن الْماء يحيضُ إليه أيِ يسيلُ، والعربُ تُدخِلُ الواو على الْيَاءِ والياء على الْواوِ، لأنهما مِن حَيِّزٍ واحِدٍ، قال ابن عَرَفة: الْمَحِيضُ والْحَيْضُ اجْتِمَاعُ الدَّمِ إلى ذلك الْمَوْضِعِ، وبه سُمِّيَ الْحَوْضُ لاجْتِماعِ الْمَاءِ فِيه"[361].

والحيض في لغة الشرع: هو الدم الخارج من الرحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص ويتعلق به أحكام عدة معلومة.

فالسؤال عن الحيض يتعلق إذن بحكم قربان الزوج امرأته وهي حائض، والجواب: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، بيّن أولاً علة الحكم، وبنى الحكم من بعدُ عليها: فالعلة أنه أذى، والحكم: اعتزلوا النساء في مكان حيضهن؛ أي الفرج، إذا قلنا: "المحيض": اسم مكان؛ كما ذهب إليه الراغب، ويجوز على ذلك قربانهنَّ فيما عـدا

---

(٣٥٨) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٢٤٦/ ج٣٠٢).

(٣٥٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٦١.

(٣٦٠) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٤٥٦.

(٣٦١) تفسير القرطبي، ٣/ ٨٠.



ذلك، وبذلك صح الحديث، وقد ذكرته في سبب نزول الآية أول الكلام في تفسير للآية.

وأتبع بياناً للغاية الزمنية للنهي عن قربانهن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ بانقطاع الدم والاغتسال؛ وهو مذهب الجمهور في تفسير هذه الآية، ويدل عليها: القراءة السبعية الأخرى: ﴿حَتَّىٰ يَطَّهُرْنَ﴾، وهي صريحة في أن المعنى: الاغتسال بعد انقطاع الدم، لا انقطاع الدم وحده، وههنا تطبيق أصولي ؛ فإن القراءات يفسر بعضها بعضاً، ونحمل القراءتين على بعضهما من حيث المعنى، ونعاملهما كأنهما آيتان، وعليه:

تطبيق أصولي / أصول الفقه والتفسير

فإن الجمهور قد رجحوا أن معنى: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ في قراءة بعضهم؛ وهي لفظة محتملة للمعنيين: انقطاع الدم أو الاغتسال؛ بقراءة: ﴿يَطَّهُرْنَ﴾ في قراءة آخرين؛ وهي صريحة في أن الشرط بالإضافة إلى انقطاع الدم: الاغتسالُ، فالتطهر: تفعل، يدل على اكتساب، وهو هنا: الاغتسال، وكذلك يدل عليه قوله بعد هذا: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾.

وثمرة المسألة: هل يحلُّ قربان الرجل زوجه الحائض بمجرد انقطاع الدم أو يشترط بالإضافة إلى ذلك الاغتسالُ؟ وإنما رجح الجمهور ما بيناه إعمالاً لأصول الفقه والتفسير، وتطبيقاً لهذه الأصول المتعلقة بتفسير القراءات ببعضها في هذا الموضع.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ ففعلن ذلك: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: إشارة إلى مراعاة كل ما أمر به من أحكام النكاح ومجانبة ما لا يحل مما هو أذى كذلك، والاشتراك في العلة يُنتج الاشتراك في الحكم، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ تنبيهاً أن من كان منه شيء من ذلك فحقٌّ عليه أن يتوب ويتطهر من بَعْد.





لمسة تربوية

والتطهر: عام في استعمال الماء، وتطهر القلوب من الذنوب.

وفي الآية التعظيم من شأن التوبة ومدح للتائبين، وتقريب لقبول توبتهم، وتعظيم كذلك لشأن التطهر، ومدح للمتطهرين؛ الذين يدأبون على التطهر مما علق بقلوبهم من ذنوب، وما علق بأجسامهم من نجاسات[٣٦٢].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

بعد أن مَنَع إتيان النساء في المحيض؛ بيّن أن إتْيانهنّ في المأْتى بعد ذلك جائزٌ لا حرج فيه.

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: مواضع حرث، والحَرْثُ في الأصل: شَقُّ الْأَرْضِ لِلزَّرْعِ، وقد يسمى الزرع نفسه حرثاً[٣٦٣]، ففي الآية- إذاً- تشبيه الجماع في إلقاء النطفة وانتظار الولد: بالحرث في إلقاء البذر وانتظار الزرع[٣٦٤].

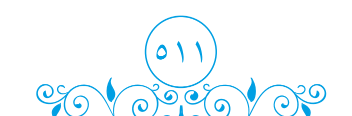
وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ استعارةٌ مبنيّةٌ على التشبيه السابق، أي فأْتوهنّ كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أيِّ جهةٍ شئتم، لا تُحظَر عليكم جهةٌ دون جهةٍ بعد أن يكون المأتى واحداً؛ وهو موضع الحرث[٣٦٥].

(٣٦٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٤٥٨، بتصرف كثير وزيادة ونقص.

(٣٦٣) البحر المحيط، ٢/ ٤٢٧.

(٣٦٤) تفسير ابن جزي: التسهيل، ١/ ١٢١.

(٣٦٥) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٦٦.





ولما كانت هذه أموراً خفية لا يدفع إلى الالتزام بها إلا محض الورع قال: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: أي قدموا لأنفسكم من الخيرات والالتزام بالطاعة ما يسركم إذا قدمتم على الله، وذلك بأن تصرفوا مثلاً هذا العمل عن محض الشهوة إلى قصد الإعفاف وطلب الولد الذي يدوم به صالح العمل فيتصل الثواب، ومن التقديم: التسميةُ عند الجِماع على ما وردت به السنة وصرح به الحبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على ما نقل عنه[٣٦٦].

وزاد مقدار الوعظ والتذكير لكون ما ورد في الآية من أحكام مظنة التساهل؛ فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾، وهو سائلكم عن جميع ما فعلتموه من دقيق وجليل، وصالح وغيره، فلا تقعوا فيما تستحيون منه إذا سألكم عنه الجليل سبحانه[٣٦٧].

وهذا المقام مقام أعدّ له المؤمنون الذي إذا ذُكِّروا تذكروا؛ وهؤلاء أهلٌ للبشرى بطيب اللقاء: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لمسة تربوية

وفي الآية لمستان تربويتان بديعتان:

أشار إلى الأولى منهما الزمخشري في تعليقه على الآية؛ قال:

"وقوله: ﴿هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام اللهَّ آدابٌ حسنةٌ على المؤمنين أن يتعلَّموها ويتأدّبوا بها ويتكلّفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم"[٣٦٨].

---

(٣٦٦) مقدمة في اصول التفسير، ابن تيمية، ٣٩

(٣٦٧) انظر: نظم الدرر، ٢/ ٢٨٢.

(٣٦٨) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٦٦.



وهذه إشارة حريٌّ بكل مسلم أن يتمثَّلها: أن يعبِّر عن الألفاظ المستقبحة بألفاظ تدل عليها، لا أَسِنَّةَ فيها تَخدِشُ الحياء! وفي الحديث: "ليس المؤمن بالطعان ولا باللعن، ولا الفاحش ولا البذيء"[٣٦٩]، وقد تقدم كلام يشبه هذا في آيات الصيام.

❖ **والثانية:** هذا المقدار العالي من ربط السلوك بالعقيدة، وتنمية الوازع الداخلي للمكلف بدوام التذكير بالله، والتنبيه على حرج الموقف بين يديه لمن لم يُعد له جواباً، وضرورة استحضار لقائه في كل حين، ثم التنويع في أساليب هذا التذكير وتكراره الحين بعد الحين؛ فإن مقام التربية ليس كمقام التعليم، وقد يقبح في التعليم تكرار المعلوم، ويحسن ذلك في التربية؛ فإنها أشبه بعملية نحت للنفس، تستعمل فيها أسنة دقيقة تكرر الضرب لرسم الصورة النهائية بمهارة!

❖ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

هذه الآية والآيات التي تليها في أحكام اليمين، وما يلي الأولين منها في حكم الإيلاء؛ وهو أن يحلف الرجل أن لا يقرب أهله؛ كما سيأتي، وهو ما يتعلق بشكل مباشر بالآيات السابقة التي تنظم علاقة الرجل بزوجته، إذ قد يعرض في هذه العلاقة ما يقود الرجل إلى الإيلاء، وبين يدي الكلام عن الإيلاء قدَّم بالكلام عن بعض أحكام اليمين العامة. وكان يمكن أن نجعلها في مقطع خاص، لكن بدء الآية بحرف العطف؛ وإن كانت الواو استئنافية؛ رجح لنا أن نجعلها مع ما بعدها مع المقطع نفسه، الذي يعرض باقة من الأحكام الشرعية التي أنتجتها عملية إنشاء المجتمع المسلم وبناء الأمة بناء تنظيمياً واقعياً.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾، نهانا الله تعالى في الآية عن جعله سبحانه عرضة لأيماننا، وقد اختلفوا في معنى الآية تبعاً لاختلافهم في معنى قوله: ﴿عُرْضَةً﴾، ولنقف

---

(٣٦٩) أخرجه الترمذي في سننه (ج٤/ ص٣٥٠/ ح١٩٧٧)، وقال الألباني: صحيح.





مع هذا اللفظ ثم نبين ما رأوه في تفسيرها: العُرضة "فُعلة" بمعنى مفعول، كالقُبضة والغرفة؛ فـ "عُرضة" بمعنى معروض، وتطلق على:

- ما يَعرض دون الشيء؛ فيصير حاجزاً عنه، كما يقال: فلان عُرضة للخير.
- وعلى المُعَرَّض للأمر، كما في قول الشاعر:

فلا تجعلوني عُرضة لِلَّوائِمِ

تطبيق أصولي / أصول التفسير

وبناء على ما تحتمله الكلمة اختلفوا في تفسير الآية، واحتمالُ الكلمة أكثر من معنى سبب شهير من أسباب اختلاف المفسرين؛ إذ يفسرها كلٌّ بمقتضى ما تحتمله الكلمة في أصل الوضع اللغوي، ولعله من اتساع النص القرآني وقدرته على احتمال معاني متعددة؛ قد يكون أحدها المقصود في نفس الأمر أو تكون كلها كذلك.

الأشهر فيما ذهبوا إليه بناء على ما سبق رأيان:

الأول: لا تجعلوا الله مانعاً للأمور الحسنة التي تحلِفون على تركها، و﴿عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ مانعاً لأيمانكم؛ وقد عُبِّر بالأيمان عن الأعمال الصالحة المذكورة؛ فيكون لفظ الأيمان مجازاً مرسلاً عن الخيرات المحلوف عليها: سمّى المحلوف عليه يميناً لتعلُّق اليمين به.

ويكون قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ عطفُ بيانٍ لأَيْمانكم أو بدلٌ منها لما أن الأَيْمان قد عُبِّر بها عن هذه الأعمال الصالحة من البر والتقوى والإصلاح كما عرفتَ؛ أي: لا تجعلوا الله لبرِّكم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عُرضةً؛ أي: برزخاً حاجزاً؛ بأن تحلِفوا به تعالى على تركها، أو: لا تجعلوه تعالى عرضة، أي شيئاً يَعترِض الأمورَ المذكورة ويحجُزُها بما ذُكر من الحَلِف به تعالى على تركها.





والثاني: لا تجعلوا الله مَعْرِضاً لأيمانكم تبتذلون اسمه بكثرة الحلف به؛ ولذلك ذُمَّ من نزلت فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ١٠﴾ {القلم} بأشنعِ المذامِّ، وجُعل "الحلاف" مقدمتها، و﴿أَن تَبَرُّوا﴾ حينئذ: علة للنهي، أي: إرادةَ أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا؛ لأن الحلافَ مجترئ على الله سبحانه غيرُ معظِّم له فلا يكون براً متقيا ثقة[370] .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالكم ويعلم نياتكم.

لمسة تربوية

والمقصود من الآية أمران:

- تعظيم الله سبحانه، وتنزيه اسمه تعالى أن يُستعمل في الامتناع عن الخير، أو أن يُبتذل اسمه بكثرة الحلف، فالله تعالى هو الآمر بالبر والتقوى والإصلاح؛ فلا يسوغ لأحد البتة أن يتخذ اسمه جنة يمتنع بها عنها، ولا أن يمتهن اسمه العظيم بكثرة الحلف على الكبيرة والصغيرة؛ إذ يتنافى ذلك كله مع التعظيم!

فالمؤمن معظم لله جل وعز؛ يذكره في طريق الإجلال، ويربأ به عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ضعف التعظيم في قلبه وفي قلوب من حوله.

- تقصد الآية كذلك إلى إزالة كل ما يعترض أعمال البر والاستكثار من الخير، حتى لو كان ذلك: الحلفَ بالله؛ فكيف بما دون ذلك من الأسباب؟!

فذكر اسم الله سببٌ حافزٌ يحثُّه على الخير لا سببٌ يمتنع به عنه!

ومن جميل العبارات التي تطرب لها الآذان في تفسير الآية ما جاء في لطائف الإشارات: "نزّهوا ذكر ربكم عن ابتذاله بأي حظ من الحظوظ، ويقال: لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً يُصطاد به حطام الدنيا"[371] .

---

(٣٧٠) انظر: تفسير أبي السعود، ١/ ٢٢٣، وانظر: روح البيان، ١/ ٣٤٩، وفتح القدير، ١/ ٢٦٣.

(٣٧١) لطائف الإشارات، ١/ ١٧٩.



﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

بيان لحكم ما يجري على الألسنة أحياناً من الأيمان بلا قصد، ومعهود أن الإنسان قد يحصل منه هذا؛ فاحتيج إلى بيان حكمه.

هذه الآية كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَان﴾، وبين هناك كفارة اليمين المنعقدة.

و"اللغو" من الكلام في كلام العرب: "كلّ كلام كان مذمومًا وسَقَطًا لا معنى له مهجورًا، يقال منه: "لغا فلان في كلامه يلغُو لَغْوًا" إذا قال قبيحًا من الكلام، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص ﴿٥٥﴾]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان ﴿٧٢﴾].

فإذا كان "اللغو" ما وصفت، وكان الحالفُ بالله: "ما فعلت كذا" وقد فعل، "ولقد فعلتُ كذا" وما فعل؛ واصلاً بذلك كلامه على سبيل سُبوق لسانه من غير تعمد إثم في يمينه، ولكن لعادة قد جرت له عند عجلة الكلام.

والقائلُ: "والله إنّ هذا لَفُلان" وهو يراه كما قال، أو: "والله ما هذا فلان! " وهو يراه ليس به، والقائلُ: "ليفعلنّ كذا والله، أو: لا يفعل كذا والله" على سبيل ما وصفنا من عجلة الكلام وسبوق اللسان للعادة، على غير تعمد حلف على باطل، والقائل: "هو مشرك، أو هو يهودي أو نصراني، إن لم يفعل كذا، أو إن فعل كذا" من غير عزم على كفر أو يهودية أو نصرانية؛ جميعهم قائلون هُجْراً من القول وذميًا من المنطق، وحالفون من الأيمان بألسنتهم ما لم تتعمد فيه الإثمَ قلوبهم = كان معلومًا أنهم لُغاةٌ في أيمانهم، لا تلزمهم كفارة في العاجل، ولا عقوبة في الآجل، لإخبار الله تعالى ذكره أنه غير مؤاخِذٍ عبادَه بما لغوا من أيمانهم، وأنّ الذي هو مؤاخذهم به ما تعمدت فيه الإثمَ قلوبُهم"[٣٧٢] .

(٣٧٢) تفسير الطبري، ٤/ ٤٤٩.



من لطيف المناسبات / مناسبة خاتمة السورة لهذه الآية

وهذا مقتضى رحمته سبحانه بهذه الأمة رافعةِ اللواء ويُسر شريعته، ولذلك ختم الآية معللاً حكمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وفي آخر السورة قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وهذه الآية متعلقة بتلك وصورة من صور عدم مؤاخذته إيانا سبحانه بالنسيان والخطأ؛ وهذه النكتة من روائع مناسبات خاتمة السورة بموضوعاتها، كما أن هناك نسيجاً عجيباً من المناسبات نترك بيانه هنا إلى مكانه اللائق به.

❖ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عرض هنا لنوع من أنواع الأيمان؛ وأحسبه المقصود في السياق؛ إذ السياق من قبل ومن بعد في تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة ضمن الأسرة، وما سبق هذه الآية من الكلام عن يمين اللغو وغيره استطرادٌ تمهيدي؛ فتأمل ذلك للحظة!

وهذه الآية يشرِّع الله سبحانه فيها السبيل للذين يؤلون من نسائهم لسبب من الأسباب، وقد يغضب الرجل من زوجته؛ فيريد تأديبها أو كفّ نفسه عنها؛ فيحلف أن لا يقربها، وهذا هو المقصود بالإيلاء.

وأصل الكلمة: آلى يؤلي إيلاء، إذا حلف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور]، ويقال لليمين: الألية، وفي هذا السياق من الآية؛ وهو الاصطلاح الفقهي: يمين خاص؛ يحلف فيه الرجل على أن لا يقرب زوجته.

وحكم الإيلاء: أن إذا حلف؛ فله أن يتربص؛ أي ينتظر ويتلبث أربعة أشهر: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، فإن جامع قبل مضي أربعة أشهر لزمته الكفارة والنكاح ثابت، وإن لم يجامع حتى انقضت أربعة أشهر، فالواجب عليه العود أو الطلاق، وإن عفت المرأة ولم تطلب حقها من الجماع فلا شيء، ولا يقع به طلاق على ما يراه الجمهور، وإن طلبت حقها وقف الحاكمُ زوجَها، فإما أن يطلق وإما أن يطأ، فإن أباهما جميعاً طلّق الحاكم عليه بالقهر والجبر، وهو قوله: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا، يعني: بممارسة الحياة الزوجية الطبيعية ومنها الجماع فبها ونعمت، ولْيُتِمّا حياتهما، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي: طلقوا بعد مضي أربعة أشهر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما قاله المطلق، عليم بما في قلبه[٣٧٣].

❁ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

لمّا ذكَر الإيلاء وما قد يؤول إليه من الطلاق؛ بيّن هنا عدة المطلّقة وشيئاً من الأحكام المتعلقة بها؛ فقال:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾: حكم لعموم المطلَّقات، وأدلةٌ أخرى خصَّصتْ هذا العموم وأخرجت بعض أفراده من هذا الحكم العام، وسيأتي.

الأمر في صورة الخبر/ الخبر والإنشاء

والآية أمر للمطلقات بالتربص، لكن هذا الأمر جاء في صورة الخبر، ورحم الله الزمخشري الذي عرض لفائدة ذلك وسرّه، وعرج أثناء

(٣٧٣) انظر: تفسير الوسيط للواحدي، ١/ ٣٣٢.





جوابه على سرِّ اختيار "الجملة الاسمية" قالباً للعبارة؛ فقال على طريقته التعليمية المشوقة التي سميت «الفنقلات»:

"فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً، ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضلَ تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلقات، لم يكن بتلك الوكادة"[374].

أبعاد نفسية في تفسير النص القرآني

ومعنى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ينتظرْن ويتلبَّثن، لكنّ التركيب يحمل بُعداً نفسياً يتوغّل في أعماق الخلجات الشعورية لتلك المرأة المطلقة ليحذرها من أن تُؤتَى من داخلها في عصيان هذا الأمر المؤكد، يعود الزمخشري بعباراته الدقيقة لإهدائنا هذا السر الآخر من أسرار الآية؛ فيقول:

"فإن قلت: هلا قيل: يتربصن ثلاثة قروء، كما قيل تربص أربعة أشهر؟ وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكر الأنفس تهييج لهنّ على التربص وزيادةُ بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملُهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمُرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص"[375].

---

(٣٧٤) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٦٧.

(٣٧٥) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٦٧، وانظر لمزيد من التفصيل: لطائف المنان وروائع البيان في رد دعوى الزيادة في القرآن، د. فضل عباس، ١٠٤، فإن بعضهم قد زعم أن الباء في قوله: (بأنفسهن) زائدة، وأن المعنى: يتربصن أنفسهن! وقد تولى أستاذنا رحمه الله الرد على هذه الدعوى وبيان خطئها التركيبي والمعنوي.





والقروء: جمع قرء، وهذا الحرف من الأضداد؛ يقال للحِيَض: قروء، وللأطهار: قروء، والعرب تقول: "أَقْرَأَتِ المرأةُ" للأمرين جميعاً، وأصل هذا اللفظ واشتقاقه مختلف فيه كذلك، وروي عن الشافعي: أنه اسم للوقت، فلما كان الحيض يجيء لوقت والطهر يجيء لوقت جاز أن يكون الأقراء: حِيَضاً وأطهاراً، وقال بعض الحذاق: والذي عندي في حقيقة هذا الأمر أن القرء الجمع في اللغة، ومنه: قرأت القرآن: لفظت به مجموعاً[٣٧٦]، ولعل هذا هو الأصل في الكلمة، واختلفوا من بعد في المعنى المقصود للأقراء في الآية على القولين؛ فقال: الجمهور: القرء: الطهر، وقال الحنفية: القرء: الحيض، واستدلَّ كلٌّ من الفرقين بأدلة قوية معتبرة، والمسألة من معتركات الأنظار، ولا ترجيح خاصّاً لدي فيها.

ولهذه العدة من القروء الثلاثة أحكام تتعلق بها؛ منها:

أن نهاية العدة يفقد الرجل عندها الحق في إعادة امرأته بقوله: أرجعتك أو بممارسة أي عمل من أعمال الزوجية، ولمّا كانت العدة بالنسبة إلى المرأة الحامل: أن تضع حملها؛ وهو من تخصيص العموم المذكور في أول الآية بقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق ٤]، لما كان الأمر كذلك؛ نهى الله تعالى المرأة عن كتمان حملها فقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحمل في أرحامهن؛ لما يترتب على ذلك من أحكام، وحثهن على الامتثال، واستثار وازع الإيمان بقوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وبيَّن- كما ذكرنا- أن الرجل أحق بإعادة زوجته في العدة المذكورة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى الزوجية ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من وقت العدة، والشرط: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ للحياة بينهما، وفي هذا الشرط احتراز عن التلاعب بالمرأة بردِّها إلى الزوجية قبيل انتهاء العدة إضراراً بها، ليعود إلى طلاقها مرة أخرى؛ حتى إذا قاربت عدتها على الانتهاء ردَّها إلى الزوجية؛ تطويلاً لعدتها إضراراً

(٣٧٦) انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٤/ ٢١٢-٢١٦، تحقيق: محمد عبد العزيز الخضيري، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٣٩هـ.



بها، وهذه الصورة محرمة، وقد قال الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، وهذه الصورة منه؛ نسأل الله السلامة.

ولما ذكر أحقية الأزواج بردّ زوجاتهم؛ بيّن أن العلاقة بينهما ينبغي أن تقوم- وقد أراد ردها إليه-: على ميزان الواجبات والحقوق: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فللمرأة حقوق يجب على الرجل أن يؤديها، وعليها واجبات يجب أن تؤديها، كل ذلك: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الشرع ومن العرف الحسن.

وعنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال فيما فهمه من الآية: "إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي: لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [٣٧٧-٣٧٨].

ومن الأحاديث التي يحسن تفسير هذا الجزء من الآية بها: ما في الصحيح عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة حجة الوداع: "فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطِئْنَ فرشَكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف"[٣٧٩].

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء"[٣٨٠]،

التطبيق الأصولي / أصول التفسير / التفسير بالمأثور/ تفسير القرآن بالسنة.

(٣٧٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج٤/ ص١٩٦/ ح١٩٢٦٣)، وهو ضعيف.

(٣٧٨) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج٤/ ص١٩٦/ ح١٩٢٦٣)، وهو ضعيف.

(٣٧٩) أخرجه مسلم في صحيحه (ج٢/ ص٨٨٦/ ح١٢١٨).

(٣٨٠) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص١٣٣/ ح٣٣٣١).



والأحاديث في ذلك كثيرة، وجمْعُها يفسر قول الله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تفسيراً وافياً، وهذا من تفسير القرآن بالسنة، وهو من التفسير بالمأثور، ويحسن بالمفسر في مقامات الإيضاح: أن يجول جولة في السنة لتفصيل ما جاء مجملاً في القرآن الكريم، وأن يتّكِئَ على السنة في فهم القرآن، وقد ذكر الله تعالى أن بيان القرآن من الوظائف النبوية؛ فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ٤٤]، فالمستغني عن بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن قد وقع في خلاف البيان القرآني الصريح في مكانة السنة من القرآن، وفي الدلالة على أن السنة مفسرة له.

تطبيق أصولي / أصول التفسير / تفسير القرآن بالقرآن.

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ تقرير لقيادة الرجل الأسرية؛ فإن الدرجة هنا هي "القوامة"، كما تفسرها آية سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء ٣٤]، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهو أعلى طرق التفسير وأصحها.

وعدم التسليم بقائد يتولى- بالمشورة- قيادةَ المركب مُؤدٍّ ولا شك إلى الغرق! وكم غرقت أسرة في بحر الخلافات بسبب عدمِ تسليمِ المرأةِ بِقِوامة الرّجل؛ فتسود علاقة بينهما مبنيةٌ على الندية؛ فتغرق الأسرة ولا تقوم لها حياة!

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيشرع من الأحكام بمقتضى ألوهيته وعزته ما يعلم أنه يناسب البشر بمقتضى حكمته.



﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

بعد أن ذكر عدة المطلقة، وبيّن حق رد الزوج لزوجته المطلقة طالما لم تنتهِ عدتها، فإذا انتهت لم ترجع إليه إلا بمقتضى موافقتها وعقد ومهر جديدين؛ بعد أن ذكر ذلك ذكر الطلقات التي يباح للرجل بعدها أن يعيد زوجته، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، والتقدير: الطلاق الرجعي مرتان، أو الطلاق الذي يجوز للرجل ردُّ زوجته في عدتها مرتان، وقد فهمنا ذلك التقدير على الوجه المذكور لأنه قال في الآية التالية: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، ففهمنا أن هاتين الطلقتين: طلقتان رجعيتان.

وفهمنا من قوله: ﴿مَرَّتَانِ﴾ الإرشاد إلى أنهما ينبغي أن توقَعا مرتين لا مرة واحد، ودفعتين لا دفعة واحدة[٣٨١].

وما بعد الطلقتين طريق من طريقين لا ثالث لهما: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾: إما إمساك بما هو معروف من الشرع بيد الزوجية: تعطيها حقها وتطلب منها حقك، وإما تسريح بإحسان؛ وذلك بتطليقها الثالثة وتركها بإحسان على حسب مقتضى الخلقُ اللائق بمروءة الأحرار.

ولو وقف الناس عند هذه الآية وحدها لما غرقوا في أتون المشكلات، ولَوقف كلٌّ عند حده؛ فالمسألة في غاية البساطة: إما الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، والموفق من وفقه الله!

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ ذلك أنه إذا أراد طلاقها فلعله يريد بمقتضى الشح أن يستعيد شيئاً مما آتاها من المهر؛ بأن يضطرها إلى التنازل عنه بالمضارّة والإلجاء، فنهى الله سبحانه عن ذلك ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾:

(٣٨١) انظر: تفسير الزمخشري، ١/ ٢٧٣.



إلا أن يعلم- حملاً لقوله: ﴿يَخَافَا﴾ على معنى العلم، أو نحمل الخوف على وجهه، بمعنى غلبة الظن- الزوجان: تَركَ إقامةِ حدودِ الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطته زوجها: ﴿فِيمَا افتدت بِهِ﴾ نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت من المهر[٣٨٢].

روي أنّ جميلة بنت عبد الله بن أبيّ كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكنى أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة؛ فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً، فنزلت، وكان قد أصدقها حديقة فاختلعت منه بها، وهو أوّل خلع كان في الإسلام[٣٨٣].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ﴾ وشرائعه التي حدها لتلتزموها في علاقاتكم ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يستحقون ما أعده الله للظالمين من العذاب.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

هذه الطلقة الثالثة؛ التي لا عود بعدها بين الزوجين إلا في حالة نادرة الحدوث؛ وهي ما إذا تزوجت من غيره فطلقها طلاقاً طبيعياً أو مات عنها: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ إلى حالة الزوجية من جديد ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

---

(٣٨٢) تفسير النسفي، ١/ ١٨٨.

(٣٨٣) الحديث عند البخاري في صحيحه (ج٧/ ص٤٦/ ح٥٢٧٣)



وبيّنت السنة أن التلاعب بهذه الشريعة الربانية محرم، ذلك أن بعضهم قد يلجأ إلى التحايل على الحكم الشرعي بإجراء عقد زواج صوريّ يتبعه طلاقٌ لتحليل عودة المرأة إلى زوجها الأول، فعن عائشة أمِّ المُؤمنين رضي اللهُ عنها أنه سمعها تقولُ: جاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: إِنِّي كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي وَتَزَوَّجْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم وقال: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «لَا، حَتَّى يَذُوقَ عسيلتك وتذوقي عسيلته»[٣٨٤].

﴿تِلْكَ﴾ الشرائع المبينة ﴿حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي الآية:

الحثُّ على تعلُّم أحكام الله التي شرّعها في تنظيمِ العلاقةِ بين الزَّوجين، والإشارة إلى أن تعلّمها مظنة أن يسلك المرء في سلك العلماء.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

عود إلى بيان ما بعد الطلقتين الأولين المذكورتين في قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾: وإذا طلقتموهن الطلقتين الأوليين الرجعيتين ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بأن أوشكت العدة على الانتهاء، وإلا فلو انتهت العدة ما كان له أن يردها إلا بعقد ومهر جديدين كما بينا، فأنتم - إذاً- أمام خيارين: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بأن تردوهن ما دامت المرأة في العدة لم تجاوزها، وشرط إباحة الرد أن يكون الإمساك من بعدُ بمعروف، ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ كما سلف البيان، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾، وصورته

(٣٨٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٣/ ص١٦٨/ ح٢٦٣٩).



التي بيناها من قبل: أن يردها إذا أوشكت عدتها على الانتهاء، ثم يعود إلى طلاقها، ويتركها في عدتها حتى إذا أوشكت على الانتهاء ردها؛ ليضارَّها في ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ السلوكَ المنافيَ للدين والخُلق ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لعذاب الله، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة للبعيد، والأصل أنه يُشار به إلى الشيء البعيد بُعداً حقيقياً، لكنه قد يُستعمل للإشارة به إلى بعيدٍ بُعداً مجازياً في العلوِّ والارتقاء، أو في السفول والانحطاط، والتعبير هنا في الآية باسم الإشارة للبعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى هُويِّ ذلك السلوك ودناءته وبلوغه منزلة بعيدة في الانحطاط؛ بحيث صار يُشار إليه باسم الإشارة للبعيد، وفي ذلك من تنفير المسلم عنه ما فيه.

التعريف باسم الإشارة / التعبير باسم الإشارة للبعيد

هذه الأحكام شرعها الله لتنظيم العلاقات ولإيتاء كل ذي حق حقه، فلا يليق بمسلم ولا يجوز له أن يتخذ ما شرعه الله لأجل ذلك مادة للتلاعب والإضرار: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، فإن تقدير آيات الله من تقدير الله، ومَن عظُم الله في قلبه منعه ذلك التعظيم من الإقدام على اتخاذ آيات الله هزواً.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبإخراجه إياكم من ظلمات الجاهلية وفوضى العلاقات وضياع الهوية، ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآنُ المودعةُ فيهِ حِكَمُ معاشِكم ومعادِكم، ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ النبويةِ ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾، ونِعْمَ الوعظ الذي هو بالقرآن والسنة.

وتسميةُ السنة النبوية حكمةً من حيث إن الحِكمة معناها تنزيلُ الأمور في أنصبتها الحقيقة بها، وكذا السنة: هي تنزيلُ القرآن على الواقع، وتنفيذُ منهجه في الوجود الأرضي، ولا شك أن الاستغناء عن النموذج



التنفيذيّ تعطيلٌ في الحقيقة للدستور القرآني نفسه، هذا ما يتغافل عنه اليوم أولئك الذين لا يقدُرُون "الحِكْمة" حقَّ قدرِها مِن مدّعي "القرآنية"!

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الذي تعظِّمه قلوبكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يعلم أعمالكم الظاهرة والباطنة، ويطّلع على ظواهركم كما يطلع على بواطنكم؛ فلا سبيل إلى اتقائه إلا بالْتزام أوامره ونواهيه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

اختلفوا في المخاطب في هذه الآية؛ فقيل: الأزواج؛ لقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، فإن الأزواج هم الذين يطلقون، وقيل: الأولياء؛ لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي فلا تمنعوهن من العودة إلى أزواجهم كما دل عليه سبب النزول الآتي ذكره؛ وإذا كان كذلك فإن ثمة ما استشكله بعضهم؛ إذ سيؤول التركيب إلى تفكيك النص: إذا طلقتم أيها الأزواج فلا تعضلوا أيها الأولياء!

ولم يرَ بعض العلماء بأساً في مثل هذا التركيب، وهو في الحقيقة مشكِلٌ كَما تَرى!

لكنّ مَخرَج المحقِّقين: أن الخِطابَ إنما هو للأمة التي فيها الأولياء والأزواج؛ وهو مَخرَجٌ حسَن، وقد عالجتُ هذه المسألة ببسط في كتابي في المناسبات القرآنية، فعدْ إليه فالمبحث عزيز[٣٨٥]، وقد وفَّق الله لمعالجة منهجية لهذه المسألة يمكن أن يقاس عليها.

وقد سبق بيانُ أن العضلَ هو المنع، ويمكننا أن نفهم الآية تماماً في ضوء سبب النزول زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا! ثُمَّ جِئْتَ تخطبها؟ ألا والله لا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وكان رجلًا لا بأس به وكانت الْمرأةُ تُريدُ أن ترجعَ إليه، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: فَلا تَعْضُلُوهُنَّ

(٣٨٥) تفسير الرازي، ٦/ ٤٥٥



أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، قال: فزوّجها إِيَّاهُ[٣٨٦].

وثمة رواية أخرى كذلك قريبة عن جابر بن عبد الله، فالمعنى في ضوء هذه الروايات الصحيحة إذن:

أن المرأة لا تُمنع من العودة إلى نكاح زوجها إن طلّقها وانتهتْ عدَّتُها؛ طالما كانتْ تَرغبُ بالعودة إليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر بتخليتهن ورغبتهن إذا اخترن العودة إلى النكاح ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا تحريك لداعي الامتثال؛ إذ لا يدفع إلى قهر النفس على ما لا ترضاه أَنَفة إلا وازعٌ قويٌّ؛ ولا وازع أقوى من تعليق الامتثال بالإيمان بالله واليوم الآخر، ولا وازع أعظم من استحضار عظمة الآمر سبحانه، ولا من تذكّر اليوم الآخر وما فيه من أهوال الحساب!

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الامتناع عن عضلهن ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، فاتركوهن واختياراتهن، ولا تعضلوهن فتنبت بينهم وبينهن علاقات في ظل تعنتكم! حيث لَمْ يُؤمَن أَنْ يَتَجاوَزَ ذلك إِلَى غَيْرِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُما، وَلَمْ يؤمَن مِنَ الْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْهُمَا مَا لَعَلَّهُمَا أَنْ يَكُونَا بَرِيئَيْنِ مِنْ ذَلِكَ فيأثمون[٣٨٧].

۞ ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

---

(٣٨٦) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٧/ ص١٦/ ح٥١٣٠).

(٣٨٧) انظر: تفسير البغوي، ١/ ٣١٢، والمحرر الوجيز، ١/ ٣١٠.



هذه الآية فيها بيانُ بعضِ أحكام الرَّضاع المهمّة للوالدات المطلَّقات، كما ذهب إليه الطبري وغيره؛ قال: "يعني تعالى ذكره بذلك: والنساء اللواتي بِنَّ من أزواجهن، ولهن أولاد قد ولدنهم من أزواجهن قبل بينونتهن منهم بطلاق، أو ولدنهم منهم، بعد فراقهم إياهن، من وطء كان منهم لهن قبل البينونة"[٣٨٨].

❖ ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، يعني بذلك: أنهن أحقُّ برضاعهم من غيرهن.

وليس ذلك بإيجاب من الله تعالى عليهن كما فهمه بعضهم، إذا كان الأبُ حيّاً موسرًا، لأن الله تعالى قال في سورة النساء الطلاق: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ {الطلاق}، فأخبر أن الوالدة والمولود له إن تعاسرا في الأجرة التي ترضع بها المرأة ولدها؛ أن أخرى سواها ترضعه، فلم يوجب عليها فرضاً رضاع ولدها، فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾، دلالة على مبلغ غاية الرضاع التي متى اختلف الوالدان في رضاع المولود بعده جُعِلَ حدّاً يفصل به بينهما، لا دلالة على أن فرضاً على الوالدات رضاع أولادهن[٣٨٩].

التعبير عن الأمر بصيغة الخبر / تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء.

لكن قد يجب الرضاع على الوالدة المطلقة إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه أو لم يجدا له مرضعاً، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار لموت أو فقر[٣٩٠].

والصيغة في قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ صيغة خبر، لكنه ليس خبراً في الحقيقة عنهن؛ إنما هو أمرٌ لهن بالإرضاع، وهذا المبحث من مباحث

(٣٨٨) تفسير الطبري، ٥/ ٣١، ولاحظ براعة الطبري رحمه الله في تصريف الضمائر والتنقل بينها!

(٣٨٩) انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٣١.

(٣٩٠) انظر: تفسير النسفي، ١/ ١٩٤.





البلاغة المهمة، وقد تناولناه في كتابنا "إرشاد المتدبر" ضمن مبحث: "تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء"، والحاصل أن هناك سرّاً ما ومعنى دقيقاً في استعمال هذه الصيغة الخبرية في معنى الأمر، وكان يمكن أن يقال: أيتها الوالدات أرضعن، أو فلترضع الوالدات أولادهن، أو غيرها، لكن اختيار الصيغة الخبرية يفيد تأكيد الأمر؛ جاء في تفسير الزمخشري:

"التعبير عن الأمر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر إشعاراً بأنه مما يجب أن يُتلقَّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهنّ امتثلنَ الأمر؛ فهو يخبر عنه موجوداً، ونظيرُه قولهم في الدعاء: "رحمك الله"، أُخرج في صورة الخبر ثقةً بالإجابة، كأنّها وُجدت الرحمة؛ فهو يخبر عنها"[٣٩١].

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ عامين كاملين، و"كاملين" تأكيد لإرادة تمامها مراعاة لحق الطفل، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ من الزوجين، وسيأتي قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، والحاصل في ذلك: أن الأصل أن يتم الأبوان لطفلهما الرضاعة المدة المضروبة: حولين كاملين، لكنهما إذا تشاورا واجتمعا على أن مصلحة الطفل في الفصال؛ الذي هو الفطام عن الرضاعة؛ فلهما أن يفطماه، والمنظور إليه في اتخاذ القرار: مصلحة الطفل؛ فإتمام الرضاع حق من حقوقه، والفصال لا يتم إلا مراعاة كذلك لمصلحته.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وهو الأب: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي الوالدات المرضعات من المطلقات: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ الذي تعارف عليه الناس في ذلك، وتسمية الأب بـ "المولود له" تنبيه على وجه إيجاب رزق الوالدات المطلقات وكسوتهن عليه؛ ذلك أنه الذي وُلد له الولد الذي يحمل اسمه!

---

(٣٩١) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٧٠.



لكن ذلك الإيجاب في ضوء قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ، فبمقدار ما وسّع الله عليه: يكلف بالرزق والكسوة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ {الطلاق ٧}، ولا ينبغي أن تقع المضارة بين الزوجين في الولد؛ بأن يحاول كل منهما إضرار الآخر عبر الطفل الذي بينهما: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾.

وقوله: ﴿تُضَارَّ﴾ بالتشديد أصله: تضارَر؛ على البناء للمفعول، وتضارِر؛ على البناء للفاعل، كلتا الصيغتين تحتملهما الصيغة البنائية للكلمة، وهذا من الإيجاز القرآني البديع، إذ استُعيض عن التفصيل؛ كما إذا قال: لا تضارِر ولا تضارَر؛ بقوله: لا تضارّ، لتشملهما[٣٩٢].

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي وعلى وارث الصبيِّ عند عدم الأب ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي مثل الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوة[٣٩٣].

وقد بينا معنى قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، وهذه توسعة عليهما بعد التحديد بالحولين، وقد سبق بيان المعنى، ومن لطائف الاشتقاق: أن كلمة "التشاور" في أصلها: استخراج الرأي من شرت العسل: إذا استخرجتُه[٣٩٤]، فكأنهما يستخرجان بالمشورة عسل رأيهما فيما يتعلَّق بمصلحة الطفل.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وإن أَردتم- أيها الآباء- أن تسترضعوا مراضع أُخرى أَولادَكم غير الوالدات، لمصلحة الطفل أو لأَي سبب آخر فلكم ذلك ولا جناح عليكم فيه، ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ المراضع ﴿مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾: ما أردتم إيتاءَه من الأُجرة بالوجه المتعارف المستحسن شرعًا عن طيب خاطر ليقمن

---

(٣٩٢) التسهيل لابن جزي، ١/ ١٢٤.

(٣٩٣) تفسير النسفي، ١/ ١٩٤.

(٣٩٤) تفسير البيضاوي، ١/ ١٤٥، وتفسير النسفي، ١/ ١٩٤.



بإرضاعه على خير وجه[٣٩٥].

وهنا يقول الزمخشري مستلًّا لفائدة رائعة من قوله: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾: "أُمروا أن يكونوا- عند تسليم الأجر- مُسْتَبِشري الوجوه، ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يُؤمَن تفريطهن بقطع معاذيرهن"[٣٩٦].

وذكَّر بالله كالعادة، وأثار وازع العقيدة في النفوس؛ حملاً لها على الامتثال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مطّلِعٌ على دقائق تصرفاتكم وخفيّ أعمالكم، وهذا يقتضي اتقاءه والعمل بموجب أمره ونهيه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

بيّن في الآيات السابقة عدة المطلقات وشيئاً من أحكام الطلاق، فناسب أن يبيِّن عدة اللواتي يُتوفى عنهن أزواجهن، وشيئاً من الأحكام المتعلقة بذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أيها الرجال المسلمون، وتوفيتُ الشيء واستوفيته: إذا أخذته وافياً تاماً، أي: تُستوفى أرواحهم بعد استكمال الآجال، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ ويتركون أزواجهم من بعدهم على قيد الحياة، و"يذرون": فعل مضارع؛ الماضي منه مهجورُ الاستعمال، إذ ليس مستعملاً أن يقال: وَذَرَ!

فإن قال قائل: فأين الخبر عن "الذين يتوفَّون"؟

قيل: متروك، لأنه لم يقصد إلى الخبر عن الرجال المتوفَّيْن، وإنما قصد إلى الخبر عن الواجب على المعتدّات من العدَّة في وفاة أزواجهن، فصرف الخبر عن الذين ابتدأ

---

(٣٩٥) التفسير الوسيط، ١/ ٣٩٤.

(٣٩٦) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٨١.



بذكرهم من الأموات، إلى الخبر عن أزواجهم والواجبِ عليهن من العدة، إذ كان معروفاً مفهوماً معنى ما أريد بالكلام[397].

وقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي يعتددن أربعة أشهر قمرية - بطبيعة الحال - وعشرة أيام، وقد سبق تفسير التركيب في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، وما قيل هناك من المسائل يقال هنا، ويجب أن تلتزم المعتدة بأحكام بيّنتها السنة في هذه المدة المذكورة، فقد جاء فيها أن المعتدة تعتدُّ عن التعرض للأزواج، والطيب، والزينة، والنُّقلة عن المسكن الذي كنَّ يسكنَّه في حياة أزواجهن[398].

وخصّص قولُه: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ {الطلاق٧} العموم الوارد في هذه الآية، فإن المرأة إذا كانت حاملاً؛ وجب عليها الاعتداد مدة الحمل طالت أو قصرت.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وانتهت عدتهن المذكورة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء، وأيتها الأمة الراعية لتطبيق أحكام الشريعة ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ كالتعرّض للخُطَّاب والخروج المباح من البيت، واستعمال الزينة فيما لا حرمة فيه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ يعلم خفيات النوايا، ومقاصد الأعمال جليها وخفيها، فاتقوه ولا تخرجوا عن أمره.

❖ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

استكمالٍ لأحكامٍ يجبُ مراعاتُها في عدة المتوفى عنها زوجها:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ اللواتي في العدة المذكورة،

---

(٣٩٧) انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٧٧.

(٣٩٨) انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٧٩، والمحرر الوجيز، ١/ ٣١٤.



والتعريض: أن تقول لها كلاماً تُشعرها فيه بالرغبة في نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول إني أريد أن أتزوجك.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من نية الزواج بهن، و﴿أَكْنَنتُمْ﴾ سترتم وأضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا معرِّضين ولا مصرحين.

ومن بديع جولات الراغب القرآنية: هذا الموضع الذي جال فيها جولة سريعة مع استعمال هذه الكلمة في القرآن، فلْأنقلها؛ فإن فيها فائدة عزيزة:

"الْكِنُّ: ما يُحفظ فيه الشيء، يقال: كَنَنْتُ الشيء كَنّاً: جعلته في كِنٍّ، وخُصَّ "كَنَنْتُ" بما يُستر ببيت أو ثوب، وغير ذلك من الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ {الصافات}، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ {الطور}، و"أَكْنَنْتُ": بما يُستَر في النّفس، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾، وجمعُ الكنّ: أَكْنَان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ {النحل ۝٨١}، والكِنَانُ: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء، والجمع أَكِنَّةٌ، نحو: غطاء وأغطية، قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ {الإسراء ۝٤٦}، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ {فصلت ۝٥}، قيل: معناه في غطاء عن تفهّم ما تورده علينا، كما قالوا: ﴿يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ﴾ {هود ۝٩١}، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ {الواقعة ۝٧٧}، قيل : عنى بالكتاب المَكْنُونِ: اللّوح المحفوظ، وقيل: هو قلوب المؤمنين، وقيل: ذلك إشارة إلى كونه محفوظا عند اللهّ تعالى، كما قال: ﴿وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ {الحجر ۝٩}، وسمّيت المرأة المتزوجة كِنَّةً لكونها في كنٍّ من حفظ زوجها ، كما سمّيت محصنة لكونها في حصنٍ من حفظ زوجها ، والْكِنَانَةُ : جُعْبَة غير مشقوقة"[٣٩٩] .

وقد علل الله تعالى إباحته لهم التعريضَ بالنكاح لهن، وإكنانَهم في أنفسهم العزمَ على الزواج بهن بأنهم ضعاف؛ ما تزال خواطر ذلك تجول في أذهانهم، وتراود قلوبهم: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: ثم نهى عن التصريح بخطبتهن فقال:

---

(٣٩٩) مفردات ألفاظ القرآن، ٧٢٧.



﴿ولكن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: هذا استدراك على مقدر، فكأنه قيل: فاذكروهنّ ولكنْ لا تواعدوهنّ سرًّا، والمراد بالسرّ هنا: النكاح، وأُطلق عليه السرّ لأنه يُخفي وراءَه ما هو سر، وهو المباشرة والجماع.

أو المعنى: لا تواعدوهن ما هو سرٌّ في أنفسكم من الزواج بهن، والمقصود: نهيهم عن التصريح بالزواج والوعد به أثناء العدة[400].

﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ تأكيد لعدم جواز التصريح بإرادة النكاح، والقول المعروف هو التعريض المباح من قبل.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ بالاتفاق العازم عليه ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ بانتهاء مدة العدة الواجبة، والنهيُ عن العزم على عقد النكاح يشير إلى أن نفس عقد النكاح أكثر حرمة، وهو باطل عند الفقهاء.

وهذه الأحكام كما أنها للمعتدة من وفاة زوجها هي كذلك لكل مطلقة طلاقاً بائناً، أما المطلقة طلاقاً رجعياً فالاتفاق على أنه لا يجوز التعريض لها بالزواج؛ إذ الرجعية في حكم الزوجة؛ لجواز أن يردّها الزوج بكلمة، ولأنه الأحق بها ما دامت في العدة، كما قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

ولما كان فيما مضى أعمال لا يطلع عليها الناس لخفائها وتعلقها بما يدور في الخواطر ويستكنّ في الصدور ختم الآية بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لمن فَرطَ منه ذنب وصدرت منه كلمة تجاوز بها الحد ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل بالعقوبة، وهذا أدعى إلى الاستدراك بالتوبة بمجرد الوقوع في الذنب ومخالفة المأمور.

وانسياح الكلام من موضوع إلى شبيهه ومن مسألة إلى أخرى اقتضى استكمال أحكام الطلاق؛ فقال:

---

(٤٠٠) التفسير الوسيط، ١/ ٣٩٩.



❖ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ وهو المسمى بالطلاق قبل الدخول، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أو تسموا المهر بينكم، والمقصود اجتماع الأمرين لا أحدهما؛ فـ "أو" هنا بمعنى الواو، وصورته الحالية: أن يعقد رجل على امرأة، ولا يسمَّى المهرُ بينهما، وقبل الدخول يقع بينهما الطلاق، ففي هذه الحالة: الواجبُ على الرجل: المتعة بقدر ما آتاه الله إن كان غنياً أو فقيراً؛ فيما وسّع الله عليه: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ المتعارف عليه بين الناس وما اقتضاه عرفهم في مستوى مثله، ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً واجباً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ بمقتضى الدين والعرف والمروءة.

وهذه المتعة جبرٌ لما أصابهن من الحرمان، وهي واجبة في هذه الحالة عند كثير من فقهاء السلف، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، أما غير هذا النوع من المطلقات فلا تجب المتعة لهن[401].

أما الحالة الأخرى:

❖ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ بالمباشرة ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: حددتم لهن مقدار المهر (فـ) الواجب عليكم ﴿نِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ من المهر المسمّى، فالمهر يجب كله في حال الدخول؛ فإن لم يحصل وحصل الطلاق فالنصف.

﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ أي يتنازلن عن النصف الواجب لهن أو عن شيء منه ما طابت بذلك نفوسهن- كما في آيات سورة النساء: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ {النساء}.

﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾، والذي بيده عقدة النساء هو الزوج المطلّق على الصحيح من أقوال المفسرين، وعفوه: أن يهب لها بقية المهر المسمى ولا يقتصر على إيتائها النصف الواجب.

---

(٤٠١) انظر: التفسير الوسيط، ١/ ٤٠٢.





وفي الآية:

لمسة تربوية

❖ تعليم الناس معالي المكارم، ورفع عيونهم نحو تتميم المكرمات؛ لا الرضى بالحد الأدنى منها.

حريٌّ بالمسلم أن يشخص بصره نحو الأحسن والأكمل، والضعفاء هم الذين يقبلون بالأقل، ومن سمَتْ نفوسهم وحلّقت في سماء المكرمات لم يقبلوا لأنفسهم بالدون من العطايا، وحريٌّ هنا بالزوج أن يسمو نحو وهبها كلَّ ما فرض لها؛ جبراً لخاطرها وتعالياً عن المشاحّة.

ولمعنى متعلقٍ بهذا قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

❖ وفيها تذكيرٌ لهم بلحظات الودِّ ونسماتِ الحب؛ وقد قيل وقول الله أبلغ: "الحر من راعى وداد لحظة"، واستذكارُ ما أمرتْ به الآية: مطفئٌ لغضبِ الاختلاف، ومُلجمٌ لسَبُعِ المشاحَّة بين الزوجين!

ولو وقف الناس مع هذه الآية لَكُفُوا أكثرَ الفجور الذي يقع بين الأزواج عند الطلاق، بل ولَعاد الكثيرون منهم عن عتبة الفراق؛ يأوون إلى واحات الفضل الذي عرفوه بينهم!

وعجباً للقلوب التي تنسى لحظات الحب والمؤانسة التي عاشوها مع أزواجهم في رحلة حياتهم؛ كيف يهون عليها هجرُها إلى الشقاق والمنازعة!

وإن كان لا بدّ من الطلاق فليكن خروجاً من عتبة بيت الزوجية بالإحسان الذي تم به الدخول، تلك تربية القرآن؛ فأين أهله من أخلاقه؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ {البقرة} وإن كان في المرء بقية حياء فأحرى أن يستحي من الله الذي يرى عمل كلٍّ من الزوجين ومقدار تخلقهما بما أمر القرآن به من كريم الخلق والإحسان.



في ظل هذا الجوّ المشحون برائحة الاختلاف يجيء توجيه يظن الظان لوهلة أنه أجنبي عن السياق، بعيد عن الموضوع، لكنَّ قليلاً من التأمل يقود إلى التسليم لبلاغة هذا القرآن، ولإحكام آياته وانسباك نظمه على وجه لا مزيد عليه:

بيان المناسبات القرآنية في المواضع الخفية آكد.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

من المهمات التي ينبغي أن يتنبه لها المتدبر لكلام الله تعالى ويبتدأ ببيانها: وجوه المناسبات بين الآيات، ويتأكد ذلك في المواضع الخفية التي تدعو الحاجة إلى التأمل فيها وتدبر سياقها، وهذا الموضع أحدها، ولنستعرض شيئاً مما ذكره حذاق المفسرين فيها:

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله مبيناً عدة وجوه في مناسبة الآية لما سبقها:

"اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ لِلْمُكَلَّفِينَ ما بَيَّنَ مِنْ مَعالِمِ دِينِهِ، وأوضح لهم مِنْ شرائِعِ شَرْعِهِ أَمرَهم بعد ذلك بالمُحَافَظَةِ على الصَّلَوَاتِ وذلك لِوُجُوهٍ أحدُها:

أَنَّ الصَّلَاةَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ تُفِيدُ انْكِسَارَ الْقَلْبِ مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَزَوَالَ التَّمَرُّدِ عَنِ الطَّبْعِ، وَحُصُولَ الِانْقِيَادِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالِانْتِهَاءَ عَنْ مَنَاهِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ {العنكبوت ٤٥}.

والثَّانِي: أَنَّ الصَّلَاةَ تُذَكِّرُ الْعَبْدَ جَلَالَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَذِلَّةَ الْعُبُودِيَّةِ وَأَمْرَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْهِ الِانْقِيَادُ لِلطَّاعَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ {البقرة ١٥٣}.

والثَّالِثُ: أَنَّ كُلَّ ما تَقَدَّمَ مِنْ بَيَانِ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ اشْتِغَالٌ



بِمَصَالِحِ الدُّنْيَا، فَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ مَصَالِحُ الْآخِرَةِ[٤٠٢].

وما ذكره الإمام الرازي بديع، ويستلزم بعض التذييل على الوجوه التي عدّها، وتَعدادُ وجوهِ المناسبات ميزة من ميزات الرازي في هذا الباب.

أما الأستاذ محمد رشيد رضا؛ فقد أدلى كذلك برأي سديد فيما يتعلق بمناسبة الآية لسياقها الذي امتلأ بِذِكْر المشكلات الزوجية وحلولها فقال:

"كانت الْآيَاتُ السَّابِقَةُ أَحْكَامًا بَعْضُهَا فِي الْعِبَادَاتِ، وَبَعْضُهَا فِي الْحُدُودِ وَالْمُعَامَلَاتِ، آخِرُهَا مُعَامَلَةُ الْأَزْوَاجِ، وَرَأَيْنَا مِنْ سُنَّةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَخْتِمَ كُلَّ حُكْمٍ أَوْ عِدَّةِ أَحْكَامٍ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالْأَمْرِ بِتَقْوَاهُ، وَالتَّذْكِيرِ بِعِلْمِهِ بِحَالِ الْعَبْدِ وَبِمَا أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى عَمَلِهِ، وَفِي هَذَا مَا فِيهِ مِنْ نَفْخِ رُوحِ الدِّينِ فِي الْأَعْمَالِ وَإِشْرَابِهَا حَقِيقَةَ الْإِخْلَاصِ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّذْكِيرَ الْقَوْلِيَّ بِمَا يَبْعَثُ عَلَى إِقَامَةِ تِلْكَ الْأَحْكَامِ عَلَى وَجْهِهَا قَدْ يَغْفُلُ الْمَرْءُ عَنْ تَدَبُّرِهِ، وَيَغِيبُ عَنِ الذِّهْنِ تَذَكُّرُهُ، بِانْهِمَاكِ النَّاسِ فِي مَعَايِشِهِمْ وَاشْتِغَالِهِمْ بِمَا يُكَافِحُونَ مِنْ شَدَائِدِ الدُّنْيَا، أَوْ مَا يَلَذُّ لَهُمْ مِنْ نَعِيمِهَا، وَلِهَذِهِ الضُّرُوبِ مِنَ الْمُكَافَحَاتِ، وَالْفُنُونِ مِنَ التَّمَتُّعِ بِاللَّذَّاتِ سُلْطَانٌ قَاهِرٌ عَلَى النَّفْسِ، وَحَاكِمٌ مُسَخِّرٌ لِلْعَقْلِ وَالْحِسِّ، يَنْتَكِبُ بِالْمَرْءِ سَبِيلَ الْهُدَى، حَتَّى تَتَفَرَّقَ بِهِ سُبُلُ الْهَوَى، فَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْمُكَلَّفُ مُحْتَاجًا فِي تَأْدِيبِ الشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ، إِلَى مُذَكِّرٍ يُذَكِّرُهُ بِمَكَانَتِهِ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ كَمَالُ حَقِيقَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهَذَا الْمُذَكِّرُ هُوَ الصَّلَاةُ، فَهِيَ الَّتِي تَخْلَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تِلْكَ الشَّوَاغِلِ الَّتِي لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا، وَتُوَجِّهُهُ إِلَى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَتُكَثِّرُ لَهُ مُرَاقَبَتَهُ، حَتَّى تَعْلُوَ بِذَلِكَ هِمَّتُهُ، وَتَزْكُوَ نَفْسُهُ، فَتَتَرَفَّعَ عَنِ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَتَتَنَزَّهَ عَنْ دَنَاءَةِ الْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ، وَيُحَبَّبَ إِلَيْهَا الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، بَلْ تَرْتَقِيَ فِي مَعَارِجِ الْفَضْلِ إِلَى مُسْتَوَى الِامْتِنَانِ فَتَكُونُ جَدِيرَةً بِإِقَامَةِ تِلْكَ الْحُدُودِ، وَزِيَادَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْكَرَمِ وَالْجُودِ، ذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى بِإِقَامَتِهَا عَلَى وَجْهِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللهِ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ الْمُؤَثِّرَاتِ وَأَكْبَرُ، فَإِذَا كَانَ

---

(٤٠٢) تفسير الرازي، ٦/ ٤٨٢.



الْإِنْسَانُ قَدْ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، فَقَدِ اسْتَثْنَى اللهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْحُكْمِ الْكُلِّيِّ الْمُصَلِّينَ، إِذَا كَانُوا عَلَى الصَّلَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ مُحَافِظِينَ[٤٠٣].

وهذا بيان كاف شاف!

أما الأستاذ سيد قطب وبكلامه نختم الكلام في مناسبة الآية؛ فقد نظر من زاوية أخرى؛ تناسب اهتمامه الفكري السائر في تفسيره، إذ قال:

"وفي هذا الجو الذي يربط القلوب بالله[٤٠٤]، ويجعل الإحسان والمعروف في العشرة عبادة لله[٤٠٥]؛ يدس حديثاً عن الصلاة - أكبر عبادات الإسلام - ولم ينته بعد من هذه الأحكام، وقد بقي منها حكم المتوفى عنها زوجها وحقها في وصية تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، وحكم المتاع للمطلقات بصفة عامة - يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة ومن جنسها، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن.

وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى: «وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله"[٤٠٦].

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾: أَمَرَ الله تعالى بالمحافظة على الصلوات، والمحافظة عليها أَمْرٌ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى جَمِيعِ شَرَائِطِهَا؛ طَهَارَةِ الْبَدَنِ وَالثَّوْبِ وَالْمَكَانِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى سَتْرِ الْعَوْرَةِ، وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى جَمِيعِ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ،

---

(٤٠٣) تفسير المنار، ٢/ ٣٤٥.

(٤٠٤) يقصد فواصل الآي؛ التي تذكر الإنسان بمراقبة الله وكمال إحاطته بالمبصَرات والمسموعات؛ ربطاً بين التشريع والعقيدة.

(٤٠٥) يقصد قول الله: (ولا تنسوا الفضل بينكم).

(٤٠٦) في ظلال القرآن، ١/ ٢٥٧.





وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الِاحْتِرَازِ عَنْ جَمِيعِ مُبْطِلَاتِ الصَّلَاةِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ أَوْ مِنْ أَعْمَالِ اللِّسَانِ، أَوْ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَأَهَمُّ الْأُمُورِ فِي الصَّلَاةِ، رِعَايَةُ النِّيَّةِ فَإِنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَمَنْ أَدَّى الصَّلَاةَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانَ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَاةِ وَإِلَّا فَلَا[٤٠٧].

وعبارة القشيري البارعة في تفسير المحافظة على الصلاة:

"أن يدخلها بالهيبة، ويخرج بالتعظيم، ويستديم بدوام الشهود نعت الأدب"[٤٠٨].

الصيغة البنائية للكلمة القرآنية / الكلمة القرآنية

والمحافظة : على وزن المفاعلة، وهذا الوزن يفيد المشاركة؛ كالمقاتلة والمحاورة، فكيف يمكن الاستفادة من هذه الملاحظة في استلال لطيفة من لطائف القرآن؟

والْجَوَابُ: مِنْ وَجْهَيْنِ:

- أحدهما: أَنَّ هَذِهِ الْمُحَافَظَةَ تَكُونُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: احْفَظِ الصَّلَاةَ لِيَحْفَظَكَ الْإِلَهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِالصَّلَاةِ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ {البقرة ١٥٢}، وفي الحديثِ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»[٤٠٩].
- الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ الْمُحَافَظَةُ بَيْنَ الْمُصَلِّي وَالصَّلَاةِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: احْفَظِ الصَّلَاةَ حَتَّى تَحْفَظَكَ الصَّلَاةُ، وإنما تحفظ الصلاة عنِ الْمَعَاصِي، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنّ الصّلاة تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ {العنكبوت ٤٥} فمنْ حَفِظَ الصَّلَاةَ حَفِظَتْهُ الصَّلَاةُ عَنِ الْفَحْشَاءِ، وتحفظه كذلك من المعاصي،

(٤٠٧) انظر: تفسير الرازي، ٦/ ٤٨٣

(٤٠٨) لطائف الإشارات، ١/ ١٨٧.

(٤٠٩) أخرجه الترمذي في سننه (ج٤/ ص٦٦٧/ ح٢٥١٦) وقال الألباني: صحيح.



وتضمن له نفسه أن تكون قريبة من الله، قريبة من رحمته[410].

و﴿الصَّلَوَاتِ﴾ المقصود بها: الصلوات الخمس المفروضة، و"الصلاة الوسطى" إحداها، وهذا العطف هنا هو ما يسمونه: عطف الخاص على العام، والخاص هنا: الصلاة الوسطى، والعام: الصلوات الخمس، فالصلاة الوسطى هي بالاتفاق من الصلوات الخمس، واختُلف في تحديدها على أقوال، بلّغها ابن الجوزي في زاد المسير إلى خمس[411]، في حين عد الفخر الرازي فيها سبعة أقوال؛ فبالإضافة إلى أن كلاً من الصلوات الخمس حظيت بقول، زاد الرازي قولين آخرين؛ وهما حريان بالنظر؛ وإن كانا مرجوحين كما سأبين، وهي:

❖ أنها إحداها بلا تعيين، لَمْ يُبَيِّنْها لنا خَصَّهَا سبحانه بِمَزِيدِ التَّوْكِيدِ، والوجه أنه إذا لَمْ يُبَيِّنْهَا جَوَّزَ الْمَرْءُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ يُؤَدِّيهَا أَنَّهَا هِيَ الْوُسْطَى فَيَصِيرُ ذَلِكَ دَاعِيًا إِلَى أَدَاءِ الْكُلِّ عَلَى نَعْتِ الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ، كما الحال في ليلة القدر، وفي ساعة الإجابة من يوم الجمعة.

❖ هِيَ مَجْمُوعُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْخَمْسَةَ هِيَ الْوُسْطَى مِنَ الطَّاعَاتِ وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً، أَعْلَاهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالصَّلَوَاتُ الْمَكْتُوبَاتُ دُونَ الْإِيمَانِ وَفَوْقَ إِمَاطَةِ الْأَذَى فَهِيَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ.

هذا مجموع الأقوال في تحديد المقصود بالصلاة الوسطى، وقد استدل كل صاحب قول بأدلة على مذهبه في تفسيرها، لكن الجمهور من السلف والخلف على تفسير الصلاة الوسطى بصلاة العصر، ويروون بذلك الأحاديث الصحيحة فيه، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره:

"قَالَ التِّرْمِذِيُّ والبغويُّ رحمهما الله: وهو قولُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ، وقال

(٤١٠) انظر: تفسير الرازي، ٦/ ٤٨٣

(٤١١) انظر: زاد المسير، ١/ ٢١٤.





القاضِي الْمَاوَرْدِيُّ: وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ التَّابِعِين، وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَثَرِ، وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ فِي تَفْسِيرِهِ: هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الناس".

ثم روى بأسانيده روايات أجمعُها:

"عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ: قَالَ قُلْتُ لِعَبِيدَةَ: سَلْ عَلِيًّا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: كُنَّا نَرَاهَا الْفَجْرَ -أَوِ الصُّبْحَ -حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: "شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَأَجْوَافَهُمْ -أَوْ بُيُوتَهُمْ -نَارًا""[٤١٢] .

تطبيق أصولي / أصول التفسير

وهذا الرأي هو الراجح إن شاء الله، فمقتضى الأصول: عدمُ الحياد عن مقتضى التفسير النبوي للقرآن إذا صحّت الرواياتُ ولم تُعارَضْ بمعارِضٍ أقوى، وقد صحَّت هنا، ولا معارِض لها؛ فوجب الذهاب إلى مقتضاها.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مسْتكِينِينَ بين يديه، والقنوت في الأصل- كما عند الراغب في المفردات-: "لزوم الطاعة مع الخضوع، وفُسِّر بكل منهما في قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾"[٤١٣] ، يقصد: فسر: قوموا لله طائعين، فالقنوت لزوم الطاعة، وفسِّر: قوموا لله خاضعين، ولا تنافي بين المعنيين؛ بل لعل المقصود كلاهما معاً.

وهذا الأَمرُ مُسْتَلْزِمٌ تَرْكَ الكلامِ غير المتعلق بالصلاة فيها؛ لِمُنَافَاتِهِ إِيَّاهَا؛ وَلِهَذَا لَمَّا امْتَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ حِينَ

---

(٤١٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص٤٣/ ح٢٩٣١).

(٤١٣) المفردات، ٦٨٥ .



سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، اعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَقَالَ. "إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا"[٤١٤]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ حِينَ تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: "إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله"[٤١٥] ومن جميل ما روي عن السلف في تفسير معنى قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾:

"قال مجاهد: من طول القنوت: الخشوع والركود، وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله.

قال: وكانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشذ بصره إلى شيء أو يلتفت، أو يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسيا ما دام في صلاته"[٤١٦].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

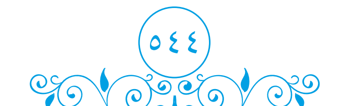
لما أَمَرَ تعالى عباده بالمحافظة على الصَّلَوَاتِ والقيامِ بحُدُودها، وشَدَّدَ الأمرَ بتأْكِيدِهَا ذَكَرَ الْحَالَ الَّتِي يَشْتَغِلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَدَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ وَالْتِحَامِ الْحَرْبِ فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، أَي: فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ؛ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا: يعني: مستقبلي القبلة وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابن عُمَرَ كان إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَهَا، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[٤١٧]، وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ

(٤١٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص٦٥/ ح١٢١٦).

(٤١٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٣٨١/ ح٥٣٧).

(٤١٦) تفسير الوسيط للواحدي، ١/ ٣٥٢.

(٤١٧) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٦/ ص٣١/ ح٤٥٣٥).



بلاغة استعمال الأدوات / بلاغة الكلمة في التعبير القرآني

قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ فَصَلِّ رَاكِبًا أَوْ قَائِمًا تُومِئُ إِيمَاء[٤١٨].

وأحسب أنه فرق بين: "إن" و"إذا"، فحالة الخوف استثنائية، قد لا تحصل مع المرء ما عاش؛ نسأل الله أن يتم علينا نعمة الأمن، ولذلك جاءت شرطيةُ حصولها بـ "إنْ" المفيدةِ لتقليل الاحتمالية، بينما حالة الأمن هي الحالة الدائمة، وهي التي يعود إليها الإنسان بعد الخروج من حالة الخوف؛ ولذا: جاءت شرطيتُها بـ "إذا"، التي تدخل على المؤكدات، بعبارة أخرى:

"إن" يتعلق الشرط باستعمالها على نفس فعل الشرط، ففعل الشرط قد يحصل وقد لا يحصل، و"إذا" يتعلّق الشرط بوقت الحصول لا بذاته.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: يعني: إذا ذهب الخوف فصلوا كما علمكم الله الصلاة المعروفة التي أمركم بالمحافظة عليها.

المجاز المرسل / علم البيان

وعبر عن الصلاة بالذكر لأن الذكر جزءٌ مهمٌّ من الصلاة، بل لا يخلو منه فعل من أفعالها، ونسمي هذا النمط من التعبير: مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية؛ ذكر الجزء؛ وهو الذكر، وأراد الكل؛ وهو الصلاة، وهذه طريقة سائرة في القرآن، منها:

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ {النساء ٩٢}، ذكر الجزء، وهو الرقبة، وأراد الكل، وهو الإنسان الرقيق.

وقوله في التعبير عن الصلاة كذلك: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ {الإسراء}، عبر بالجزء وهو القرآن، وأراد الكل، وهو الصلاة.

والمفسِّر الحاذق لا يقف عند هذا الحد، بل يُتبعه ببيان سر التعبير بالجزء

(٤١٨) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٥٧٤/ ح٨٣٩).

عن الكل، وفي هذا الموضع الذي فيه عبر عن الصلاة بالذكر؛ يمكننا أن نقول: إنه سبحانه أراد الحث على الذكر في هذه الصلاة وحضور القلب فيها؛ وهو المقصود الأول بـ «الذكر»، فعبَّر عنها، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

المعنى: والذين يتوقَّعون قرب الوفاة منكم أيها المسلمون، فالْمَيِّتُ لَا يُوصِي، ولكنهُ أراد إذا قَرُبُوا من الْوَفَاة، وتركوا بعدهم زوجات: كتب الله عليكم أيها الأَزواج- قبل الاحتضار- وصية- فـ "وصِيَّةً" بِالنَّصْبِ، منصوب بفِعْلٍ محذوف، أَيْ فَلْيُوصُوا وَصِيَّةً، وصية لهن: بأن يُمتَّعن بعدكم بالنفقة والسكنى إلى نهاية عام كامل بَعْد الوفاة، غيرَ مخرجاتٍ من مساكنهنّ طيلةَ الحول، أي لا يخرجُهن منه أَولياءُ الميت[419].

وقد دلّت هذه الآية: على أن المتوفَّى عنها زوجها: تتربص في بيت زوجها عامًا كاملًا، يُنفَق عليها فيها من مال المتوفى.

وظاهر ذلك: أنها منافية لما سبق تفسيره من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

وقد ذهب جماعة إلى أن هذه منسوخة بالتي قبلها؛ فهي- وإن تأخرت تلاوة- فهي متقدمة في النزول على الآية السابقة.

وقالوا في كلامهم: إن المتوفى عنها زوجها: كانت تجلس في بيته حولًا، وينفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح في قطع النفقة عنها، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر، ونسخت النفقة بالربع والثمن في سورة النساءِ، وعامة المفسرين على هذا القول.

وذهب آخرون إلى عدم النسخ، وسلكوا طريقًا آخر في التوفيق بينهما.

---

(٤١٩) انظر: تفسير القرطبي، ٣/ ٢٢٨، والتفسير الوسيط، ١/ ٤٠٨.





قال الطبري عن مجاهد: إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشرًا، ثم جعل الله لهن وصية منه: سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة - هي تمام الحول- فإن شاءَت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءَت خرجت، وتلك الوصية- على سبيل الإحسان والندب- قائمة لم تنسخ، وقال آخرون: هي حقّ للمرأة؛ أوصى الرجل أو لم يوصِ[420].

قال القرطبي: ما ذكره الطبري عن مجاهد- في أن الآية محكمة لم تُنسخ- صحيح ثابت[421].

روى البخاري عن مجاهد: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال: كانت هذه العدة، تعْتَد عند أهل زوجها واجبًا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إلى قوله: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية: إن شاءَت سكنت في وصيتها وإن شاءَت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[422].

وهذا الرأي قد نصرَهُ كذلك جمالُ الدين القاسمي رحمه الله في محاسن التأويل، وافتنّ في الانتصار له[423].

تطبيق أصولي/ أصول التفسير

ومقتضى الأصول:

أن النسخ هو ادّعاء رفع حكم آية نقرؤها، وتعطيل ما فيها من أحكام

(٤٢٠) انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٢٥٦، وما حولها.

(٤٢١) تفسير القرطبي، ٣/ ٢٢٧.

(٤٢٢) التفسير الوسيط، ١/ ٤٠٩.

(٤٢٣) تفسير القاسمي، ٢/ ١٧٠.



بدعوى أن ثمة ما ألغى أحكامها؛ فإن نهض دليل قويٌّ يستحق لأجله إلغاء عمل آية ثابتة ناطقة في كتاب الله؛ أخذنا به، وأثبتنا القول بالنسخ، وإلا فالوجه هو تجنب القول بالنسخ مهما استطعنا، وما وُجد وجه للجمع والتوفيق كان ذلك أفضل من الذهاب إلى القول بالنسخ.

وعليه؛ فالوجه هنا في الآية: أن الآية محكمة وليست منسوخة، والله أعلم بالصواب من ذلك.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الأربعة أشهر وعشرٍ، وقبل انقضاء العام، فلهن ذلك، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ فلهن أن يتعرّضن للخطاب، وأن يُنْهِينَ حِدَادَهنّ على أزواجهن، لكنهنّ إن فعلن قبل انقضاء الحول فقدن حقهن بالسكنى والنفقة؛ ما كان ذلك بعد الأربعة أشهر وعشرٍ.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يشرّع لكم ما تحصل به المصلحة لكم في الدين والدنيا.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

اختلف العلماء في هذه الآية اختلافاً كثيراً، ووجهه: اختلافهم في أي المطلقات قصدت الآية؟ وهل هي تأكيد للآية التي جاء تفسيرُها قبل قليل في أنها للمطلقة غير المدخول بها فحسب؟ أم تعمُّ غيرها من المطلقات؟ وهل هذه المتعة على سبيل الوجوب أم على سبيل الندب؟

والذي أختاره من أقوالهم:

أنها تشمل المطلَّقاتِ غيرَ المدخولِ بهن؛ كما في الآية التي خصتهن بالذكر قبلها، ومتعةُ هؤلاء المطلقات واجبة؛ إذ ليس لهن فريضة سواها، وتشمل كل مطلقة أخرى؛ وشمولها لهن على سبيل النّدب والاستحباب؛ إذ لكلٍّ من هؤلاء مهر استحقته إحداهن بمجرد الدخول.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، ترغيب ببذل النفقة للمطلقات، وأن ذلك من تمام التقوى ومن مقتضياتها، ومن مكارم أخلاق المتقين.



﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

على هذه الهيئة البينة المفصلة من الأحكام الهادية ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ المشتملة على محاسن التشريع الهادي ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه ما فصّله لكم، وتهتدون به في تنظيم أمور المعاش والمعاد.

المقطع الحادي والثلاثون
معالجة موانع الجهاد وروافده

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

الكلام في القتال أصل في هذه السورة، ولذلك يعود إليه الحديث بعد الاستغراق في غيره الحين بعد الحين، وذلك لأن هذه الأحكام التي تُشرَّع في آيات هذه السورة العظيمة من شعائر الإسلام ومن تنظيماته المجتمعية تستلزم إقامة "أمة" تمارس تطبيق هذه الأحكام، وهذه الأمة صاحبة رسالة تنضوي على أمر بالتبليغ للعالمين، ثم حراسة التطبيق من بعد التبليغ، وكلٌّ من هاتين المهمتين- التبليغ والتطبيق- يتطلَّب وجود الجهاد كقوة تدفع عملية التبليغ، وتحمي التطبيق بسياج الهيبة التي تحول دون اعتداء قوى الباطل واستنسارها.

ثم الكلام في الجهاد والقتال يتَّكِئُ على مهمتين لا بد من تهيئتهما لعملية الجهاد:

الأولى: الإعداد النفسي، وعماده: الاعتقاد بأن الجهاد لا ينقص من العمر، والكفّ عنه



لا يزيد، فالآجال مكتوبة منذ الأزل ومحددة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

والثانية: الإنفاق، وهو العصب الصانع للانطلاقة الجهادية المستهدفِةِ للمَهمَّتين الأساسيتين: التبليغ والتطبيق.

والإعداد النفسي، والإنفاق كعمليتين تأسيسيتين للجهاد عالجهما هذا المقطع؛ وهو مقدمة لسلسلة من المقاطع التي تدور حول ذات القضيتين؛ كما سنرى.

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

تطبيق أصولي / أصول / التفسير / تفسير القرآن بالإسرائيليات

لا نصَّ في المصادر الصحيحة عندنا حول تحديد هوية هؤلاء ولا مكانهم وزمانهم!

ما نعرفه عن هذه القصة لا يعدو ألفاظ هذه الآية الكريمة، ونحن نضرب صفحاً عن الخوض في التفاصيل المتدفِّقة من الإسرائيليات، ونرى أن إغلاق هذا الباب أولى، وأن فتحه قد عاد بضرر على علم التفسير؛ وذلك بتسرُّبِ قدر لا يُتسامح فيه منها، وقد فَتَح لها البابَ من فتحه بقدَر؛ وأثبتت التجربةُ أن التسربَ قد جاوزَ الحدَّ المُتسامَح فيه إلى حدٍّ شكَّل خطورة على فهم النص القرآني وتفسيره، وما دام الأمر بالتجربة أثبت ضرراً بالغاً مع غير فائدة أصلاً؛ فلنغلق الباب غير آسفين على ما فاتنا من قصص إسرائيلية غير موثوق بها!

ما نعرفه أن هناك مجموعة كبيرة من الناس خرجوا هرباً من الموت في موطن ما كان ينبغي لهم أن يهربوا فيه لطلب الحياة، ولعلهم فروا من



قتال أُمروا به، فلما هربوا ظانين أن نجاتهم في هربهم هذا لقيهم ما هربوا منه، فأماتهم الله ثم أحياهم، ليكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم من الناس: أن الموت يأتي ولا يُؤتى، وأن الأجل إن كان مكتوباً فلا مهرب منه، وأنه إن لم يكن مكتوباً فلا خوف من مجيئه، فلتقرّ النفوس إذاً بالركون إلى أمر الله والتسليم لقضائه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ هذا التركيب القرآني السائر: همزة استفهام داخلة على "لم" النافية، والغرض من الاستفهام: التعجيب من حالهم.

والرؤية هنا قلبية وليست بصرية، وفعل الرؤية يتعدى إلى المفعول بنفسه لا يفتقر إلى حرف جر، فتقول: رأيت الذين خرجوا، ولا تقول: رأيت إليهم! وتعدية فعل الرؤية هنا في الآية بـ "إلى" المفيدةِ انتهاء الغاية يشير إلى تضمين فعل الرؤية فعلاً يصلح أن يُعدّى بـ "إلى"، فليكن التقدير: ألم ينته علمك إلى أولئك ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾، الواو واو الحال، التقدير: خرجوا ألوفاً ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾: مفعول لأجله.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ قدَّر عليهم الموت، فلما ماتوا أحياهم مرة أخرى: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، إذ لم تنتهِ آجالهم التي كتب لهم في الدنيا، وإنما فعل ذلك ليريَهم ويريَ غيرهم آيةً من آياته فيما ذكرنا من أن قدر الله لا يُنْجِي منه الحذَر ولا يرُدُّه التّوقِّي، وأنه قادر على إحياء الموتى، وأن كل ذلك لا يعدو أن يكون عن أمره الذي هو بين الكاف والنون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ هؤلاء بأن أعادهم إلى الحياة ولم يؤاخذهم بالفرار من الموت، وعلى غيرهم بإظهار الآيات العاضدة للإيمان المثبتة له في القلوب.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك، وإذا مروا بآيات الله مروا عليها عمياً وصماً وبكماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نسأله سبحانه أن يجعلنا من عباده الشكورين.

❁ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾، لما بيّن أن العُمُرَ محدودٌ بما قدَّره الله؛ فلا زيادةَ ولا نقص؛ أمرَ بالقتالِ الذي كان قد أَمَرَ به من قبل في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ {البقرة ﴿١٩٠﴾}، وفي قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ



﴿الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ {البقرة ٢١٦}، وفي قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ {الأنفال ٣٩}.

ومناسبة السميع العليم: أنه يسمع أقوالكم ويعلمُ نواياكم؛ فلا يخفى عليه المجاهد ولا يخفى عليه القاعد، ولا يخفى عليه المخلص فيه ولا المرائي، أو سميعٌ لما يقوله المُتعلِّل في ترك الجهاد والقعود عنه، عليمٌ بما يضمره؛ فإيَّاكم والتَّعلُّلَ[٤٢٤].

❊ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

على العادة القرآنية العامة، وعلى عادة السورة هذه خاصة: ذِكْرُ القتال والجهاد مقرونٌ بذِكْرِ النفقةِ لِمَا لها من أهمية فيه، وجاء الحث هنا عليه بأبلغ أسلوب، وأطرف سبيل: وذلك من وجوه:

أولا: أنه قد بدأ الآية بالاستفهام: ﴿مَّن﴾، والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾: مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّحْضِيضِ وَالتَّهْيِيجِ عَلَى الِاتِّصَافِ بِالْخَيْرِ؛ كأنَّ المستَفهِمَ لا يَدري مَنْ هُوَ أَهْلُ هَذَا الْخَيْرِ وَالْجَدِيرُ بِهِ!

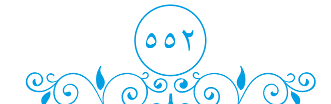
و﴿ذَا﴾ بَعْدَ أَسْمَاءِ الِاسْتِفْهَامِ قَدْ يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَاهُ كَمَا تَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتَ شَخْصًا لَا تَعْرِفُهُ: من ذا؟ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَقَامِ الْكَلَامِ شَيْءٌ يَصْلُحُ لِأَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالِاسْتِفْهَامِ كَانَ اسْتِعْمَالُ ذا بَعْدَ اسْمِ الِاسْتِفْهَامِ لِلْإِشَارَةِ الْمَجَازِيَّة؛ بأن يَتَصَوَّرَ الْمُتَكَلِّمُ في ذهنه شخصًا مَوْهُومًا مَجْهُولًا صدَرَ منه فِعْلٌ فهو يَسْأَلُ عن تَعْيِينِهِ، وَإِنَّمَا يكون ذلك للاهتمام بالفعلِ الواقِعِ وتطَلُّبِ مَعْرِفَةِ فاعِلِهِ، وَلِكَوْنِ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ يُلَازِمُ ذِكْرَ فِعْلٍ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ[٤٢٥].

وثانيا: التعبير عن الصدقة هذه بالإقراض، والإقراضُ: فِعْلُ الْقَرْضِ، وهو السَّلَفُ: بَذْلُ شَيْءٍ لِيُرَدَّ مِثْلُهُ أَوْ مُسَاوِيهُ، وَاسْتُعْمِلَ هُنَا مَجَازًا فِي الْبَذْلِ الَّذِي يُرْجَى الْجَزَاءُ عَلَيْهِ

---

(٤٢٤) الوجيز للواحدي، ١٧٨.

(٤٢٥) التحرير والتنوير، ٢/ ٢/ ٤٨٣.



تَأْكِيدًا فِي تَحْقِيقِ حُصُولِ التَّعْوِيضِ وَالْجَزَاءِ، وَوَصْفُ الْقَرْضِ بِالْحَسَنِ لأنه لا يرضى اللهُ به إِلَّا إِذَا كَانَ مُبَرَّأً عَنْ شَوَائِبِ الرِّيَاءِ وَالْأَذَى[٤٢٦] .

شبه الله تعالى في الآية عمل المؤمنين لله على ما يرجون من ثوابه بالقرض، لأنهم إنما يعطون ما ينفقون ابتغاء ما وعدهم الله من جزيل الثواب[٤٢٧] ؟

واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه من شَبَهِ القرضِ بالعمل للثواب، والله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء[٤٢٨] .

ثالثا: الوعد عليه بالأضعاف الكثيرة: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، ولا ثمة من يُعطِي الأضعاف على القرض؛ إلا هو أكرم الأكرمين سبحانه!

أما قوله تعالى: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ فِيهِ قَدْرًا مُعَيَّنًا، وَأَجْوَدُ مَا يُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ الْقَدْرُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾"[٤٢٩] .

رابعاً: في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾، إذ فيهِ تعريضٌ بالوعدِ بالتَّوْسِعَة على الْمُنْفِقِ في سبيلِ الله، والتَّقْتِيرِ على البَخِيلِ، وفي الحديثِ «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَمُمْسِكًا تَلَفًا»[٤٣٠] .

---

(٤٢٦) التحرير والتنوير، ٢/ ٢/ ٤٨٣.

(٤٢٧) تفسير الوسيط للواحدي، ١/ ٣٥٥.

(٤٢٨) المحرر الوجيز، ١/ ٣٢٩.

(٤٢٩) تفسير الرازي، ٦/ ٥٠٠.

(٤٣٠) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٢/ ص١١٥/ ح١٤٤٢).





وفي كل هذه المحفزات للنفقة كفاية لمن وفقه الله، ولعلها من أعظم الآيات المرجوة في الإثابة على النفقة!

المقطع الثاني والثلاثون

قصة طالوت وجالوت، ونموذج النهوض الجهادي لحفظ الدين

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾





﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ {البقرة}.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع من السورة فيه عرض لقصة طالوت وجالوت، أو قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله! ولا داعي لإعطاء ملخص عام للقصة هنا؛ فالآيات توضح ذلك، ونكتفي بما نعرضه في تفسيرها.

ومناسبة هذه القصة الثرية بالفوائد: الأمر بالقتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ {البقرة}، والأمر بالإنفاق على القتال كذلك في الآية السابقة، وتعظيم أمر الله تعالى؛ كما يدل عليه المقطع التالي للقصة.

ومناسبتها للسياق العام واضحة: هؤلاء هم بنو إسرائيل في تلكؤهم في تنفيذ الأمر، وهذا حالهم في الذل والهوان قبل الولوج إلى تطبيق أمر الله في القتال، فهم الذين نُزع لواء الاستخلاف من بين أيديهم، هذا مسلكهم العام مع الأنبياء؛ إلا قليلاً من المؤمنين، والله سبحانه ينصر رسله والذين آمنوا ويحطُم عدوَّهم، وهو القويُّ العزيز!

ثم النهوض إلى القيام بالمهمة متعلقٌ بالاستجابة لمراد الحق، وجودةُ النتائج والمآلات مناطة ببوارق الانطلاق، وهذه القصة كانت حقاً بداية مرحلة "استثنائية" انتُشل فيها بنو إسرائيل من وحل الذلة المضروبة عليهم، وسادوا من بعدُ باتباعهم نبيَّ الله داود عليه السلام؛ الذي أهلك الله تعالى على يديه الطاغية جالوت.



﴿التفسير﴾

❖ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: ألم ينتهِ علمك إلى خبر أولئك الملأ من بني إسرائيل، والاستفهام لتعجيبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم وكلِّ من يصلح له الخطاب من حالهم الآتي ذكره، ولتشويقهم إلى ما يأتي من القصة.

والملأ- كما قال الراغب-: جماعةٌ يَجتمعون على رأْيٍ؛ فيملؤون العيون رِواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً... يقال: فلان ملء العيون؛ أي: معظَّم عند من رآه، كأنه ملأ عينه من رؤيته[٤٣١]، فالمقصود بالملأ على هذا: الكبراء والأمراء من الناس، وإنما سُمُّوا ملأ لما أنهم يملؤون عيون الناس وصدروهم رواء وبهاء، ولا يبدو أن الملأ محلُّ ثناء في القرآن كله!

والملأ من بني إسرائيل هم الذين بادروا- كعادة الملأ- إلى طلب ما طلبوه من أحد أنبيائهم.

وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ بعد عهد موسى عليه السلام، ويمكننا أن نحدِّد الوقت بشكلٍ أدقّ ببدايات ظهور نجم داود عليه السلام؛ إذ عرَضَت القصة في آخرها أولَ ظهورٍ له في ميدان الأحداث الكبرى لبني إسرائيل، وسيأتي.

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يُظهر هذا الطلب الحالة العامة لبني إسرائيل؛ التي بَلَغُوا فيها دركاً من الذُّل؛ استطالتْ فيه عليهم الشُّعوب مِنْ حَولهم؛ كما يُشير إليه قول الله تعالى على لسانهم فيما سيأتي بعد قليل: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.



(٤٣١) المفردات، ٧٧٦.





وإزاءَ هذه الحال طلبوا إلى نبيٍّ من أنبيائهم أن "يبعث" ملكاً ليقاتلوا تحت إمرته ويجاهدوا؛ لإدراكهم أنهم إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه: بترك الجهاد.

اختيار الكلمة في القرآن

ولفظ : "ابعث" يوحي: بالسرعة، وهذا منبئٌ عن حالٍ بئيسٍ ما عادوا يستطيعون الصبر عليها، ويُوحي كذلك بأنهم أشبه ما يكونون في موت عام، وأن الأمر يستلزم إحياء، وهو ما يُشير إليه لفظ: البعث!

وقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يُلمح إلى فرقٍ ما في الوظائف بين الملوك والأنبياء وقتئذ؛ إذ لم يطلبوا من نبيهم قيادتَهم في الجهاد، وإنما طلبوا ملكاً ليقاتل بهم، فهل وجهه ما ذكرتُ من أن هناك فرقاً بين وظيفة النبي والملك أو القائد العسكري، هذا محتمل، خصوصاً أنهم بيّنوا أن القتال بهم هو ما طلبوا لأجله المَلِك، فهو قائد عسكريٌّ إذن.

أو أن هذا من توقُّحِهم وتجاوزِهم لقدْرِ نبيِّهم، وهذا محتملٌ كذلك، خصوصاً أنه قد جاء في الحديث أن بني إسرائيل كانت تسوسهم أنبياؤهم[٤٣٢]!

فأجابهم نبيهم بما عرَفه من طباعهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أنّ المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه[٤٣٣]، وعسى تفيد استقراب الأمر وتوقعه، ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، فهذا دأبكم المعهود منكم؛ أنكم توجبون على أنفسكم الشرائع ثم تنكصون وتتنكَّبون!

---

(٤٣٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٤/ ص١٦٩/ ح٣٤٥٥).

(٤٣٣) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩١.





ردوا عليه بما يؤكد توافر دواعي المسارعة إلى الاستجابة: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، فأيُّ شيء يمنعنا وقد وصل بنا الحال إلى الخروج من الأوطان وفقْدِ الوِلْدان؟!

وإنما عبر عن فقد الولدان بالخروج تبعاً لما ذكره من الخروج من الأوطان، وإن كان الأبناء يُفقدون لا أنه يُخرج منهم، وهذا من أساليب العرب في التعبير لأجل الإيجاز، وله في القرآن أمثال في مواضع: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ {الحشر ٩}، التقدير: والذين تبوؤوا الدار واعتنقوا الإيمان؛ مثلا، أو نقول:

بنى الكلام على استعارة تشتمل على تشبيه الأبناء بالأوطان والديار؛ فعبر عن فقدهم بالخروج كذلك؛ بأن كليهما مما يلجأ إليه الإنسان ويحتمي به، ولما لكلٍّ منهما من محلٍّ في القلب!

وأَجملَ القصة بقوله:

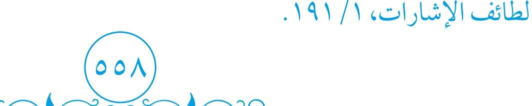
﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ هذا مجمل ما حصل منهم، وهو ظن نبيهم بهم، إلا قليلا؛ يأتي تفصيل ذكرهم، وهم من استنزلوا النصر من الله بإيمانهم وثباتهم.

وفي لطائف الإشارات:

"استقبلوا الأمر بالاختيار، واقترحوا على نبيّهم بسؤال الإذن لهم في القتال، فلمّا أُجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل، وعرجوا في أوطان التجادل والتغافل.

ويقال: إنهم أظهروا التصلب والجد في القتال ذبّاً عن أموالهم ومنازلهم حيث ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يخلص -لحقّ الله- عزمهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله لأنه قد أَمَرنا وأوجب علينا، فإنه سيدنا ومولانا، ويجب علينا أمره- لعلّهم وُفّقوا لإتمام ما قصدوه"[٤٣٤].

(٤٣٤) لطائف الإشارات، ١/ ١٩١.





وجميل ما ذكره ابن عطية رحمه الله فيما يُشبه فذلكة القصة إذ قال:

"ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كعَّت وانقادت لطبعها"[٤٣٥].

ووراء كل كلمة في الآيات- كما ترى- عبرة ودرس وعِظة، ونأتي على ما تيسر من ذلك أثناء التفسير، والله المستعان.

وضع الظاهر موضع المضمر

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، عليم بهم، عبر بالظاهر: "الظالمين" في محلِّ المُضمر: "بهم" للتسجيل عليهم بالظلم، وهذا أسلوب سائر في القرآن الكريم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

أجابهم الله تعالى إلى ما أرادوا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وقد صدّر نبيهم الكلام بأداة التوكيد: "إن"؛ تهيُّأً لما قد توقَّعه من اعتراضهم، وكذلك: أَسنَدَ الفِعلَ إلى الله، وبنى الجملة على الاسمية؛ فلم يقل: بعث لله لكم، وإنما: الله قد بعث لكم، وهذا أوكد في إسناد الفعل إلى الله، إذ يكرَّر مرتين؛ مرة على أنه مبتدأٌ والجملة الفعلية بعده خبره، وهو هنا اسم "إن"، ومرة على أنه فاعل مستتر للفعل:

(٤٣٥) المحرر الوجيز، ١/ ٣٢٨.





"بعث"، وكأنه يقول مؤكداً: إنه هذا الاختيار ليس اجتهاداً مني، إنما أبلغكم أمر ربي!

وطالوت اسم أعجمي، وكذا جالوت وداود؛ كلها أسماء أعجمية[٤٣٦] ، والبحث عن اشتقاقات لها في لغة العرب تكلف.

وكان كما ظَنَّ عليه السلام؛ فقد بادروا إلى الاعتراض: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، وهو اعتراض- كما ترى- موجهٌ إلى الله سبحانه وتعالى قبل أن يكون اعتراضاً على النبيّ!

وقدموا بين يدي اعتراضهم سببين رأَوْهُما مانعَيْن من تمليكه عليهم: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، ولعلهم يقصدون: أنهم أشرف منه نسباً، وفيهم كانت السيادة ولهم النفوذ، وكذلك: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾!

معاني الحروف / دقة الاستعمال القرآني

تأمل مع الزمخشري الفرق بين الواوين في كلامهم فيما قصه الله منه:

"فإن قلت: ما الفرق بين الواوين في: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾؟ قلت: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالا، قد انتظمتها معا في حكم واو الحال. والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بدّ للملك من مال يعتضد به"[٤٣٧] .

هم يرون مقوِّمات الملك في هذين العاملين: الوجاهة والنسب، والسعة من المال! وهذا هو حال أصحاب الدنيا، وهو منطق المادية الطاغية اليوم!

---

(٤٣٦) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩٢.

(٤٣٧) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩٢.



وترك القوم السبب الأقوى؛ وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبيّن لهم مع ذلك تعليلَ اصطفائه طالوت، وأنه زاده بسطة في العلم وهو ملاك الإنسان، والجسم الذي يعينه في الحرب وهو عدته عند اللقاء ورد عليهم عليه السلام ببيانٍ بليغ[٤٣٨]:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، فهل بعد هذا الاصطفاء الرباني من كلمة للبشر!

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ والبسطة: السعة والامتداد، وإذاً؛ فهذه المقومات الخليقةُ بتأهيل المرء للقيادة والسيادة: البسطة في العلم؛ لِمَا أنه يعينه على القيادة الحكيمة، ويهديه إلى الرأي الرشيد، والبسطة في الجسم؛ لما أنه يعينه على أداء مهمات الجهاد بكفاءة عالية، وهذا يتسق مع المهمة التي رُشّح لها، والتي طلبوا بعثة المَلِك لأجلها!

ثم الأمر من قبل ومن بعد لله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ صاحب الملك وواهبه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح له، ومن يملك مؤهلاته.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

يبدو أن المنازعة قد اقتضت تأييد النبي بآية تقهر تعنت بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ وعلامة اختيار الله له وتمليكه عليكم: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾، وهو صندوق كان قد أُخذ من بني إسرائيل كما يبدو، وكان محل اهتمام بينهم، وسبباً من أسباب اطمئنانهم واستقرار قلوبهم في مواجهة أعدائهم: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وَالسَّكِينَةُ: هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ ولَمَّا كانت حاصلةً بإتيانِ التَّابُوتِ، جُعِلَ التَّابُوتُ ظَرفًا لها،

---

(٤٣٨) المحرر الوجيز، ١/ ٣٣٢.



وهذا من المجازِ الْحَسَنِ، وَهُوَ تشبيه المعاني بالأجرام[٤٣٩]، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾، يعني: الأنبياء من بني يعقوب بعدهما، كما في الزمخشري[٤٤٠]، أو المقصود: بقيةٌ مما تركه موسى وهارون عليهما السلام، وإضافة الآل للتعظيم[٤٤١]، ﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ هذا ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ في الهواء؛ ترونه بأعينكم!

"إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدّه بتأييد مِن قِبَلِه، فلمّا مَلَكَ طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيّهم في اختياره، فردّ عليهم التابوت الذي فيه السكينة، فاتضحت لهم آية ملكه، وأن نبيهم عليه السّلام صدقهم فيما أخبرهم"[٤٤٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ كافية لانقيادكم وإسلامكم لأمر الله واختياره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❊ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

هذه الفاء الفصيحة، تطوي ذكر محذوف، والتقدير: فلما جاءتهم الآية وانقادوا لها كارهين لأمر الله واختياره وكذا وكذا فصل طالوت بالجنود! وهذا المطويُّ ذكرُه مفهوم من السياق!

---

(٤٣٩) انظر: البحر المحيط، ٢/ ٥٨١.

(٤٤٠) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩٣.

(٤٤١) تفسير الوسيط للواحدي، ١/ ٣٥٨.

(٤٤٢) لطائف الإشارات، ١/ ١٩٢.



والقصص القرآني يتميز بما سماه الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه الماتع: "التصوير الفني في القرآن"[٤٤٣]: الفجوات، وهي الفراغات التي يتركها النص القرآني بلا تفاصيل ليملأها ذهن القارئ، وهذه التفاصيل تُفهَم من السياق، ولا حاجة في ذكرها لكونها مما لا أثر له في العبرة التي تُساق القصة لأجلها.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ بمعنى أنه خَرَج بهم وفارق بهم القرية، أراد تمحيصهم واستخلاص الصفوة الثابتة الجادة منهم؛ فاختبرهم: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، ولا مكان له في جندي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ من لم يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ويحتفظ بمكانه في جندي ويستمر معنا في مهمتنا الجهادية المباركة، فتساقط القوم وشربوا من النهر؛ إما قصداً للانسحاب وجُبناً عن مواصلة المهمة، وإما عجزاً وضعفاً وقلة تسليم لقيادة طالوت، وعلى كلٍّ فمهما كانت الأسباب أسقط هذا الاختبارُ أكثر الجنود، والتعبيرُ القرآني الموحي بين ذلك: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، "كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم"[٤٤٤].

إنك إذ تقرأ قوله: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ يندفع إلى ذهنك أنهم جميعاً شربوا، ثم يجيء الاستثناء ليبين لك أن القلة القليلة لم تفعل، قارنْ بين هذا التركيب وبين ما لو قيل: "لم يشرب القليل وشرب البقية"! فرق كبير بين التركيبين من حيث الإيحاء بالقلة!

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي النهر ﴿هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ممن ثبت على الطاعة ولم يُخالف الأمر لا لقصد ولا لضعف إرادة: ﴿قَالُوا﴾ وقد رأوا قلة عدَدَهم وعُدَدِهم، وكثرة ذلك في أعدائهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ وقد التقينا ﴿بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ على ما تجهزوا به وتجهزنا! عندئذ تدخلت صفوة الصفوة من أصحاب طالوت، أولئك الذين وثقوا بالله، وأيقنوا بنصره: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

---

(٤٤٣) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب

(٤٤٤) لطائف الإشارات، ١/ ١٩٢.



﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وفي الآية مسألة مهمة:

ما معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾؟

بلاغة الكلمة في القرآن، وبراعة اختيارها.

أشكل استعمال الظن في مثل هذه المواضع على كثير من المفسرين؛ إذ حَمْلُ الظن على وجهه يوهم- كما يرون- معنى غير مراد، وقد مرَّ معنا بسط الكلام في موضع مشابه في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾ {البقرة}، وقد حصل فيه من البسط ما يناسب الموضع، وقد تُكلِّم هنا في الذي تُكلم به هناك من حمل الظن هنا على معنى العلم، والمعنى- على هذا التقدير-: قال الموقنون المؤمنون العالمون بلقاء الله؛ لا الظانون به، وما يغني الظن في الله واليوم الآخر؟! هكذا قالوا.

وذهب آخرون إلى أن الظن على وجهه، ومن الوجوه السائغة القريبة في التوجيه أن يقال: إن الذين يظنون أنهم مُلاقوا الله هنا: مَن ظنُّوا أنهم يُستشهَدون في المعركة فيلاقون الله تعالى وتنتهي آجالهم في الدنيا[٤٤٥]، وهو وجهٌ طريفٌ سائغ، وقيل غير ذلك في التوجيه مما سبق وذكرناه في الموضع المُشار إليه.

قال هؤلاء المقبلون على الله الواثقون بنصره الظانون أن يكرمهم الله بالشهادة في المعركة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾!

"كم" هذه خبرية للتكثير، وفرق بينها وبين الاستفهامية، ومقصودهم: أن يدفعوا خوف إخوانهم من الهزيمة، وأن يعلِّقوهم بالله، وأن يثيروا الأمل بالنصر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ مؤمنة ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾،

---

(٤٤٥) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٣٣٦.



كافرة، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ومن كان الله معه؛ فمن أين تأتيه الهزيمة؟

وقولهم: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يحثُّون إخوانهم على الصبر على معاني الإيمان في هذه لحظة اللقاء التي تُذهِلُ القلوب الرقيقة الإيمان، التي لم توثِّق صلتها به سبحانه، ومقاومة هذا الذهول أمام القوى التي تراها العين هائلة، واستحضار قوة الله ووعدِه ونصرتِه لعباده المؤمنين في مواجهة تلك المشاعر؛ يستلزم صبراً عظيماً ولا شك.

❖ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

لَمَّا تجلّى أمامهم عِظَم المشهد وعاينوا الجيش الذي أمامهم؛ ما كان منهم إلا المبادرة إلى سؤال الله النصر، وإفراغ الصبر، وهذا دأب المؤمنين في اللجوء إليه والاستعانة به، وهم يعلمون أنه القوي العزيز الذي لا يُغلب!

﴿رَبَّنَا﴾ حذفوا أداة النداء إشعاراً بقربه منهم وسماعه دعاءهم، وعبروا بعنوان الربوبية المؤذن بكمال التصرف والسيادة، وأضافوا ضميرهم إليه: لزوماً لبابه، وإقراراً بعبوديته، وإشعاراً بانتمائهم إليه؛ وكلُّ ذلك مما يستجلب الاستجابة.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، وهو تركيبٌ عجيبٌ مبنيٌّ على استعارةٍ بديعة؛ إذ فيه تشبيه ما طلبوه من إمدادهم بالصبر بإفراغ الماء المصبوب عليهم، وفيه إشعارٌ بأن ما يحتاجونه من الصبر كثير؛ بحيث إنه ينبغي أن يكون كأنه يُصبُّ عليهم ويُفرَغ بحيث لا يبقى منه شيء إلا وقد نزل عليهم!

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وهو كناية عن طلب النصر والصمود، فثبات الأقدام علامة ذلك، ومن ثبتت قدمه في المعركة انتصر، ومن زلّت كانت زلّتُها علامةَ الهزيمة والانكسار.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وهو الغاية، وطلب النصر إنما هو من الله تعالى، والتعبير عنهم بعنوان الكفر؛ استجلاب لنصر الله تعالى، من حيث إنهم يستدعون معيته على عدوه، ويجعلون كفر عدوهم سبب عدائهم له، فكأنهم يقولون: إنما نحن جندك،





وهم أعداؤك، وفرِّقَ بيننا وبينهم كفرهم بك، فانصرنا عليهم!

ويحتمل أن تختص كل دعوة بمقام هو أحوج لها من غيرها:

فإفراغ الصبر يكون قبل بدء القتال؛ لحاجتهم إليه في الإقدام ومدافعة الخوف من كثرتهم واستعدادهم، وتثبيت الأقدام: يلزمهم أثناء المعركة حتى لا ينهزموا أمام قوة أعدائهم وتدفقهم عليهم وهم بهذه الكثرة، والنصرة على الأعداء: نتيجة المعركة، وأيلولة الصدام بينهم وبينهم.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

لما أحسنوا الاستعداد وأجادوا اللجوء إلى الله ودعاءه بأحسن الأدعية مع حضور القلوب وانكسارها على بابه انتهت المعركة، وعُبِّرَ عن نتيجتها بعد كل تفاصيل الاستعداد بكلمة واحدة لا زيادة عليها: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾!

والفاء تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها، فهزيمة الأعداء ترتَّبتْ على ذلك الدعاء الخاشع الضارع، وتفيد التعقيب: نتيجة فورية جاءت مع الاستجابة الفورية، وهذه الهزيمة كانت ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فإن كل الأسباب وقفت في وجوه المؤمنين؛ العدَدُ والعُدَد، لكن أمر الله يوقِف الأسباب أن تعمل بمقتضى طبيعتها، كما يَحملها على أن تعمل بمقتضياتها من النتائج سواء بسواء!

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، لم يكن قد ذُكر داود من قبل، وكان هذا أول ظهور تاريخيٍّ له في ساحة الأحداث الكبرى في بني إسرائيل، وكان كما ترى بروزاً جهادياً، ومن بركاته: أنه سطع نجمه ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وجمع له بين النبوة والملك، كما جمعهما لابنه سليمان من بعده، ولا نعلم أنه جمعهما لغيرهما عليهما السلام، والله أعلم.





تقعيد فكري / فلسفة الجهاد

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وهي نعمة من نعمه عليه كبيرة: نعمة العلم، التي هي مؤهِّل من مؤهِّلات المُلك؛ كما جاء في بيان نبيهم لتمليك طالوت من قبل: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

ثم بيّن سبحانه سنةً من سُننه في الأرض: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؛ ولولا: أداة امتناع لوجود: لوجود الدفع امتنع فساد الأرض، ودفعُ الناس بعضهم ببعض: دفع الله تعالى كفر الكافرين بإيمان المؤمنين، وظلم الطغاة بعدل التقاة، وفساد الفسقة بإصلاح الدعاة، ولولا ذلك لعمّ الفساد وانتشر الظلم وزحف على الأرض حتى شملها!

ولأجل هذا شرع الله الجهاد، ففلسفة الجهاد قائمة على هذا المعنى بشكل مركزي: فهو قائم في الإسلام لقمع الظلم، ودفع الفساد، وإحقاق الحقوق، ونشر الحريات، وإرساء السلام؛ نعم بكل وضوح، وهذا هو مقتضى الاستخلاف وأهم وظائف المستخلَف!

وبيان هذا الأمر في هذه السورة الصانعة للأمة المستَخلَفة مع كثرة ما ورد فيها من الكلام عن القتال يهدف إلى أن يكون قتال هذه الامة مغيّاً ومهدّفاً؛ لا مشروع قتال مفتوح بلا أهداف ولا رؤى!

القتال في الإسلام ليس مقصوداً لذاته؛ ولو افترضنا أنه تحصل أهدافه بلا حاجة إلى قتال لما كان لازماً، إلا أنه قد جاءنا الخبر أنه لا يتخلف مقتضيه، ولا تزول أسبابه، ولا تحصل أهدافه بالعموم إلا به! وفي الحديث: "الجهاد ماض إلى يوم القيامة"[٤٤٦].

---

(٤٤٦) أخرجه أبو داود في سننه (ج٤/ ص١٨٤/ ح٢٥٣٢) وقال الشيخ شعيب: حسن لغيره.

«الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»



وهذا الجهاد تحصل به الفوائد لا للأمة وحدها وإنما للعالمين، فالله متفضلٌ بكَتْبِه على هذه الأمة؛ متفضل على الأمة بذلك لأن وجودها لا يستقر إلا به، ومهمتها في الخيرية في الأرض لا تحصل إلا به، ومتفضل بذلك كذلك على البشرية؛ لأنه أسند "أستاذية الأرض" إلى هذه الأمة العادلة؛ بحيث تستنقذ بموجبها البشر من طغيان الطغاة والمستبدين، وتقمع الفساد والظلم، ولهذا المعنى قال: ﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، لا على المسلمين وحدهم؛ كما أشرت.

❖ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ البينات الدالّات على محاسن الفوائد ونضيج المناهج في رسم خط الجهاد وفي الحكم وفي اللجوء إليه سبحانه وفي غيرها من الجوانب ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ نحن لا غيرنا؛ نتلوها، والفعل مسند إلى نون العظمة العائدة إلى الله سبحانه؛ إذ هو الذي يتولى تلاوتها على رسوله؛ متلبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ لا ينفك الحق عنها، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه الآيات معجزات دالة على ذلك، فمن أين يحصل لك أن تأتي بمثلها، إن مثلها لا يمكن أن يأتي به البشر، فتلاوتك الآيات عليهم دليل رسالتك ومعجزة نبوتك!

❖ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

بعد بيان ما احتوت القصة من تفاصيل الاصطفاف الإيماني في وجه الباطل والطغيان؛ قياماً بحق الرسالة وأمانة الدين، وكان ذلك الاصطفاف في ظل رسل الله المكرَّمين، وكانوا صلوات الله وسلامه عليهم قد ذُكر بعضهم فيما مضى من الآيات، وكان لبعضهم أدوار متقدمة في الدعوة والجهاد، ووصل آخرون إلى ما هو أكثر تقدماً في ذلك بين أن الله قد فضّل بهذا المقتضى بعضهم على بعض: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.



وبيّن بعض وجوه التفضيل فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾، وقد كلم الله تعالى فيما نعلم: آدم وموسى ومحمداً صلى الله عليه وعليهم وسلم، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بمقتضى ما بَلَغُوه في الدين ونُصرته بتوفيق الله، ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الدلائل العظام والمعجزات الباهرة، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، بأن جعلنا روح القدس جبريل يؤيده ويحرسه.

"فإن قلت: فلِمَ خصّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت: لِمَا أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ولقد بين اللهُ وجه التفضيل؛ حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خُصَّا بالذكر في باب التفضيل.

وهذا دليل بيّن أنّ من زِيدَ تفضيلاً بالآيات منهم فقد فُضِّل على غيره، ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي أوتيَ منها ما لم يُؤتَ أحدٌ في كثرتها وعظمها؛ كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع، اللهمّ ارزقنا شفاعته يوم الدين"[٤٤٧].

ثم بيّن سبحانه أن الاختلاف بين البشر سنتُه في خلقه، ولو شاء لمنع ذلك، ولجعلهم كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ {التحريم}، لكنه تعالى لحكمةٍ أرادها تَرَكَ لهم أن يَختاروا الطريق بعد أن بينها لهم: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ {الإنسان}، فترتَّب على هذا الاختلاف: الاقتتال بينهم، وهذا الاقتتال؛ وهو التجلِّي الأعلى للتدافع المذكور في الآية السابقة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، وهذا إنباء باستمرار القتال؛ كما بينت في الكلام السابق: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ أي من بعد أولئك الرسل ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والدلائل الواضحات على أيدي الرسل المكرَّمين، ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ فصاروا فريقين متمايزين ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ﴾ بالرسل وبدعـوتهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾

---

(٤٤٧) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩٨.





بهم وبدعوتهم، ولو شاء الله أن يختلفوا ولا يقتتلوا لكان ما أراد، لكن حكمته اقتضت حصول ذلك، وتجلي أنواع من عبوديته لم تظهر لولا هذا الاختلاف وذاك الاقتتال[٤٤٨] ! سبحانه إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب، وهو إذا حكم فلا معقب لحكمه، وإذا قضى فلا رادّ لقضائه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ {الأنبياء}: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

المقطع الثالث والثلاثون

أمر بالمبادرة إلى الإنفاق؛ مرتبط بتعظيم الآمر، ومبيِّن لتقابل الصفين واختلاف الانتهاءين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

(٤٤٨) انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٣٨١.





التمهيد والمناسبة

لمّا ذكر القصة الطويلة كثيرة الفوائد، وكانت قصةً جهادية؛ أتبعها بالأمر بالإنفاق مرة أخرى؛ تأكيداً على ما ذُكِر قَبْلَها من الحثِّ عليه والترغيبِ به، وعظَّم الآمرَ سبحانه بالجهادِ والإنفاقِ في آية الكرسي، وتعظيمُ الآمرِ يُعين على الامتثال، فمن عرف قدر ربه سارع إلى امتثال أمره، وكلما ضعفت المعرفة بالله ثقُل التكليف على القلب.

وأتبع ذلك بذِكر انتفاء الحاجة إلى الإكراه على الدين، وأن الإكراه منافٍ لطبيعة الإيمان؛ فالإيمان لا يمكن أن يُفرض على القلوب فرضاً، ولا سبيل لدخوله إلا بقبول القلب له، وانقياد العقل لمقتضيات أدلته، وما دام أمر الإيمان كذلك فإن في قوة حججه ودلالة براهينه كفايةً لتبيين الرُّشد من الغي، وختم المقطع ببيان ولاية الله للمؤمنين وحسن لطفه بهم، وخذلانه للذين كفروا ووكلهم إلى الشياطين التي تولوها، وعليه؛ فإن الفريقين؛ أولياء الله وأولياء الشيطان في طرفين متقابلين، فيالفوز أولياء الله، ويالخسارة أولياء الشيطان!

وذكر الرازي في تفسير آية الكرسي كلاماً جميلاً في بيان مناسبات الآيات السابقة واللاحقة، أوثر إيداعه في هذا الموضع، قال:

"اعلم أنَّ مِن عادَتِهِ سبحانه وتعالى فِي هذا الكتابِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ يَخْلِطُ هذه الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ بَعْضَهَا بِالْبَعْضِ، أَعْنِي عِلْمَ التَّوْحِيدِ، وَعِلْمَ الْأَحْكَامِ، وَعِلْمَ الْقَصَصِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ الْقَصَصِ: إِمَّا تَقْرِيرُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، وإِمَّا الْمُبَالَغَةُ فِي إِلْزَامِ الْأَحْكَامِ وَالتَّكَالِيفِ، وهذا الطَّرِيقُ هُوَ الطَّرِيقُ الْأَحْسَنُ لَا إِبْقَاءُ الْإِنْسَانِ فِي النَّوْعِ الْوَاحِدِ لأنّه يوجِبُ الملالَ، فأما إذا انْتَقَلَ مِنْ نَوْعٍ مِن العلومِ إلى نوعٍ آخر فكَأَنَّهُ يَشْرَحُ بِهِ الصَّدْرَ وَيُفْرِحُ بِهِ الْقَلْبَ، فكأَنَّهُ سافر مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ آخر وانتقل مِنْ بُسْتَانٍ إلى بُسْتَانٍ آخَرَ، وانْتَقَلَ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامٍ لَذِيذٍ إِلَى تَنَاوُلِ نَوْعٍ آخَرَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَكُونُ أَلَذَّ وَأَشْهى، وَلَمَّا ذَكَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِ الْأَحْكَامِ وَمِنْ عِلْمِ الْقَصَصِ مَا رَآهُ مَصْلَحَةً ذَكَرَ الْآنَ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ التَّوْحِيد"[٤٤٩].

---

(٤٤٩) تفسير الرازي، ٧/ ٥.



﴿ التفسير ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

هذا أمرٌ للمؤمنين بالمبادرة إلى الإنفاق، ودعوةٌ لهم إلى اغتنام الأوقات قبل الفوات، و"مِن" في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ للتبعيض، وفيه إشارة إلى أنه لم يُحْفِهم فيسألْهم أموالهم، وإنما أوجب عليهم إخراج شيءٍ منها؛ أداءً لحقِّ الله تعالى فيها، وذلك مع إسناد فعل الرزق إليه سبحانه؛ وفيه امتنانٌ يُرافِقُ الأمرَ بالإنفاق، فكأن المعنى: إن من أنعم عليك بالرزق أمرك بإنفاق بعضه، ومقتضى الطبع السليم؛ فضلاً عن الإيمان والتسليم يوجب المسارعة إلى أداء شكر النعمة، ومنهم من ينشغل بها عن المنعم؛ فينسى حقه، ويترك طاعته!

الاستدلال بالمناسبات القرآنية على ترجيح قول في التفسير.

قال ابن عطية: "وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال"[٤٥٠].

وهذا كلام رائع من ابن عطية رحمه الله، استدلَّ على ترجيح تخصيصِ النفقةِ المأمورِ بها هنا بالإنفاق في الجهاد في سبيل الله بالسياق العام وبالمناسبة بين الآية وما سبقها، وبين صدر الآية وفاصلتها.

وحذر تعالى من الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك بنفقة في ذات الله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا

(٤٥٠) المحرر الوجيز، ١/ ٣٣٩.



﴿خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾، وقد نفت الآية ثلاثة مذكورات: البيع:

ونفيُ البيعِ على أن ثمة مبايعة بين العبد والرب؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ {التوبة ١١١}، ومجيء ذلك اليوم مؤذن بانتهاء الفرصة المتاحة للبيع، وأن المشتري قد كفّ عن الشراء؛ نسأل الله أن يجعلنا من المسارعين إلى الخيرات.

أو يكون نفي البيع نفياً للفدية، إذ البيع فدية في الحقيقة، لأن المرء قد يشتري نفسه ومرادَه بماله، وكأن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن نفي فدية يوم القيامة.

الخلة: أخبر الله بنفي الخلة؛ والمعنى: المحبة والصداقة؛ التي تنفع أصحابها وتقتضي بينهم المساهمةَ والتعاون، كما كانت في الدنيا.

وأهلُ التقوى بينهم في ذلك اليوم خلة، ولكنها غيرُ مُحتاجٍ إليها، وخلة غيرهم لا تغني من الله شيئا[451]، والخلة أعلى أنواع المحبة؛ إذ تتخلل المحبة القلب، ونفيُها أو نفي الانتفاع بها نفيٌ للانتفاع بما دونها من مراتب المحبة وأنواعها.

الشفاعة، إذ قد أخبر تعالى أن الشفاعة أيضاً معدومة في ذلك اليوم، فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد: وَلا شَفاعَةَ للكفار[452].

وقد استدرك ابن عطية عليه، وبين أنه لا داعي لهذا الادعاء، وقال:

"وهذا لا يحتاج إليه، بل الشفاعةُ المعروفةُ في الدنيا- وهي انتداب الشافع وتحكُّمُه على كَرْه المشفوع عنده-؛ مرتفعةٌ يوم القيامة البتة، وإنما توجد شفاعة بإذن الله تعالى، فحقيقتها رحمة من الله تعالى، لكنه شرَّف الذي أَذِنَ له في أن يشفع، وإنما المعدوم- المنفي في الآية- مثلُ حالِ الدنيا من البيعِ والخلة والشفاعة"[453].

---

(٤٥١) المحرر الوجيز، ١/ ٣٤٠.

(٤٥٢) تفسير الطبري، ٥/ ٣٨٤.

(٤٥٣) المحرر الوجيز، ١/ ٣٤٠.



وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، سبق وبينا التعليق عليها من كلام صاحب المحرر الوجيز.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

نبهنا على مناسبة الآية إشارة في تمهيدنا عن المقطع، ونبسطه هنا:

بعد أَنْ أَمَرَنَا تعالى بالإنفاقِ في سبيله قبل أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَالٌ فِيهِ وَلَا كَسْبٌ، وَلَا يُنْجِي مِنْ عِقَابِهِ فِيهِ شَفَاعَةٌ وَلَا فِدَاءٌ انْتَقَلَ كَدَأْبِ الْقُرْآنِ إِلَى تَقْدِيرِ أُصُولِ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ الَّتِي تُشْعِرُ مُتَدَبِّرَهَا بِعَظِيمِ سُلْطَانِهِ تعالى، وَوُجُوبِ الشُّكْرِ له والإِذعانِ لأَمره، والْوُقُوفِ عند حُدُودِهِ، وبذْلِ المَالِ في سبيله، وتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغُرُورِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى الشَّفَاعَاتِ وَالْمُكَفِّرَاتِ الَّتِي جَرَّأَتِ النَّاسَ عَلَى نَبْذِ كِتَابِ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِم[٤٥٤]، وعدم الالتفات إلى أوامر القرآن ونواهيه!

وكل صفة من هذه الصفات تتضمن قاعدة من قواعد التصور الإسلامي الكلية، ومع أن القرآن المكي في عمومه كان يدور على بناء هذا التصور، فإننا نلتقي في القرآن المدني كذلك في مناسبات شتى بهذا الموضوع الأصيل الهام، الذي يقوم على أساسه المنهج الإسلامي كله، ولا يستقيم هذا المنهج في الحس إلا أن يستقيم ذلك الأساس ويتضح، ويتحول إلى حقائق مسلمة في النفس، ترتكن إلى الوضوح واليقين[٤٥٥].

ولهذه الآية فضائل عظيمة، وهي أعظم آية في القرآن كما سيأتي؛ فقد تضمَّنت وصف الله تعالى بصفات الكمال، ونزهته عن صفات النقص وصفاً لا غاية وراءه ولا أبلغ ولا أكمل.

---

(٤٥٤) تفسير المنار، ٣/ ٢٠، وقد ذكر أبو حيان الأندلسي وجهاً آخر مطولا، انظر: البحر المحيط، ٢/ ٦٠٧.

(٤٥٥) في ظلال القرآن، ١/ ٢٨٦.



مما ورد في فضائل آية الكرسي:

❖ قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله، فقد صح عن أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم سأَلَهُ: "أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله أَعْظَمُ"؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أُبَيٌّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قال: "لِيَهْنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ"[٤٥٦]

وفي الزمخشريّ:

"فإن قلت: لم فُضِّلتْ هذه الآية حتى وَرَدَ في فَضْلها ما ورد؟

قلت: لمَا فُضِّلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار"[٤٥٧].

❖ وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عنْ أَبِي هُرَيْرَة قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَان؛ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم قال: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَة، قال: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ " قال: قُلْتُ: يا رسُول الله شكا حَاجَةً شَدِيدَةً وعِيَالًا فرحِمْتُه وخلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبك وَسَيَعُودُ" فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّهُ سَيَعُودُ"، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فقال لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟" قُلْتُ: يا رَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ"؛

---

(٤٥٦) أخرجه أحمد في مسنده (ج٣٥/ ص٢٠٠/ ح٢١٢٧٨) وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

(٤٥٧) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٠٣، ودعك من كثير من كلامه فيها؛ فإنه من هذرمة الاعتزال.



فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وهذا آخَرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّك تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُود، فَقَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: ما هُنَّ؟ قال: إذا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما فعل أسيرك البارحة؟ "قلت: يا رسول الله؛ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: "مَا هِيَ؟ " قَالَ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وكانوا أحرص شَيْءٍ على الخير، فقال النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ، وهو كَذُوب، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هُرَيْرَة؟ " قُلْت: لا، قَالَ: "ذاك شيطانٌ"[٤٥٨] .

والوارد في فضائلها كثير، ونكتفي بهذين الحديثين، ولننتقل إلى التحليل:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ مخبر عنه أولاً بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾، وهذه كلمةُ التوحيد، المتضمنة لنفي كل معبود حق تُزعم له الألوهية، وإثباتِ الألوهية لله الواحد.

وقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ فيه ذكر اسمين جليلين، وصفتين عظيمتين، لهما أهمية خاصة كما ورد في أحاديث، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه بهما في الصعاب: "يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث"[٤٥٩] !

والحيُّ: في نَفْسِهِ؛ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، وهذه الصفة أصل من أصول الصفات العلى، ذلك أن الحياة تستتبع ما سواها وتترتب عليها غيرها من الصفات.

(٤٥٨) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٣/ ص١٠١/ ح٢٣١١).

(٤٥٩) أخرجه الترمذي في سننه (ج٥/ ص٥٣٩/ ح٣٥٢٤) وقال الألباني: حسن.



وحياته سبحانه ليست كحياة المخلوق، فحياة المخلوق حياة ناقصة محدودة، وليست كذلك حياة الخالق.

والْقَيّومُ: لِغَيْرِه، فجمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْه، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، ولا قوام لها دونِ أَمْرِهِ وحفظه وكلاءته، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم ٢٥]، فكل مخلوق إنما يُسند حاجته إليه، وينتظر مدده منه؛ قصد أو لم يقصد، أقرّ أو أنكر، فإن وجوده متعلق به، واستمراره منوط بإمداده.

وقد ذهب ابن عاشور إلى أن قوله: ﴿الْحَيُّ﴾ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تقديره: "هو" الحي، و﴿الْقَيُّومُ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ لِذَلِكَ الْمُبْتَدَأِ الْمَحْذُوفِ، والذي أحسّنه أن تكون كلُّ الأخبار متعلقة بالمبتدأ الأول: "لفظ الجلالة"، بحيث يكون: الحي، خبراً ثانياً للمبتدأ الملفوظ: "الله"، والقيوم خبراً ثالثاً وهكذا، وإنما آثرتُ هذا لفخامته، إذ جَعْلُها جميعاً مرتبطةً بلفظ الجلالة العظيم أفخمُ في المعنى وأبرعُ في النظم، والله أعلم.

وقوْلُه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَيْ: لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِه؛ بل هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا تخْفَى عليه خافِيَةٌ، ومن تمَام حياته وقَيُّومِيّته أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أَيْ: لَا تَغْلِبُهُ ﴿سِنَةٌ﴾ ، وهِيَ الْوَسَنُ وَالنُّعَاسُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلا نَوْمٌ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنَةِ[٤٦٠].

ونفَى النوم أوّلا التزاماً؛ إذ نفيُ السنة يلزم منه نفيُ النوم لأنه مقدمة له، ثم تصريحاً؛ بالنص على نفيه؛ ليدلَّ كمالُ نفيه على ثبوت كمال ما ينافيه؛ من الحياة والقيومية[٤٦١].

وفي الصَّحيح عن أبي موسى قال: قام فِينَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَع كَلِمَاتٍ فقال: "إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُه، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ

---

(٤٦٠) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٦٧٨.

(٤٦١) انظر: تفسير القاسمي، ٢/ ١٩٠.



قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ أو النَّارُ، لو كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحات وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"[٤٦٢].

والْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَإِبْطَالُ اسْتِحْقَاقِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَصْفَ الْإِلَهِيَّةِ لِانْتِفَاءِ الْحَيَاة"[٤٦٣]، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ {الروم}.

وقوله: ﴿لَّهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾؛ بيان لكمال ملكيته، ونفوذ مشيئته في السماوات والأرض باعتبار أنه مالكهما.

﴿مَن ذَا الَّذِى﴾ سبق الحديث عن مثل هذا التعبير، والاستفهام للإنكار، ﴿يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، والمعنى: إنه لكمال قدرته وعظيم سلطانه لا يتقدم أحد بالشفاعة عنده إلا بإذنه له؛ لا مِن تلقاء نفسه؛ ذلك أن الشفاعة فيها نوع إدلاء على المشفوع عنده، ولا إدلاء لأحد من خلقه عليه! وفيها- كما في الدنيا- إكراهٌ للمشفوع عنده أو إخجال له لإجابة الشافع، وكلُّ ذلك مستحيل في حقه، ممنوع في جانب عظمته.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: بيان لكمال علمه بعد بيان كمال قدرته وعظيم ملكه، واجتماع كمال القدرة وكمال العلم من لوازم مقام الألوهية التي لا تليق إلا به سبحانه، ولا تنبغي لأحد من عباده، وما بين أيديهم: مستقبلهم، وما خلفهم: ماضيهم؛ فالآية "دليلٌ على إحاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ: مَاضِيهَا وَحاضِرِها ومستقبلِها"[٤٦٤].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، وهو تصريح بقلة علمهم بالإضافة إلى علمه، وأنهم لا يبلغون من العلم إلا ما يؤذن لهم به، وما يفتح لهم فيه، ولولا ذاك لما

---

(٤٦٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٦٧٨.

(٤٦٣) انظر: التحرير والتنوير، ٣/ ٧.

(٤٦٤) تفسير ابن كثير، ١/ ٦٧٩.



علموا شيئاً البتة، وهذا كقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء]، وهذا القليل هو الذي "أوتوه" وفُتح لهم فيه، دون غيره.

وفيه:

دليل على أن المحجوب عنهم أكثر من المكشوف، وأن مساحات جهلهم أعظم وأكبر من مساحات علمهم، وما يزال الإنسان اليوم وقد انكشفت عليه كثيرٌ من العوالم عبر التكنولوجيا يطّلع على أن ما يعلمه من الكون لا يعدو ذرة هباء تطير في أفق رحيب!

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، اختُلف في تفسير الكرسي على قولين رئيسين، **الأول:** أنه العلم، والمعنى: وسع علمه السماوات والأرض، فيكون للتأكيد على قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

والثاني: أن الكرسي دون العرش، وهو متناهٍ في العظم، وروي أنه موضع القدمين، واختلفوا في تصحيحه.

وأخرج ابن جرير الطبري روايات عديدة فيه، منها ما رواه عن ابْنِ عَبَّاسٍ: لو أن السماوات السَّبْعَ والأرضين السَّبْعَ بُسِطْنَ ثُمَّ وُصِلْنَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْض؛ ما كُنَّ في سعة الكُرسِيِّ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الحَلْقَةِ فِي المَفَازَة، وبسنده إلى السُّدِّي قال: السماوات وَالْأَرْضُ فِي جَوْفِ الْكُرْسِيِّ وَالْكُرْسِيُّ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ[٤٦٥].

ومثل هذه الروايات إن صحت كافية في تفسير الآية، والله أعلم.

وهذا التفسير يدل كذلك على كمال عظمته وسعة سلطانه، فإذا كانت هذه حالة الكرسي؛ يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هناك ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكلُّ الأبصار، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها!

---

(٤٦٥) تفسير الطبري، ٥/ ٣٩٨.



وناسب لهذا قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ أي: لا يُثْقُلُه حفظ السماوات والأرض وتدبير أمورهما، و "يؤوده" من الوأد وهو الثقل، ومنه الموؤودة: التي تُقتَلُ دَفْناً بالثِّقل الذي يكون من هَيْلِ التراب عليها.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدْره لكمال صفاته ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي يتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتذلُّ في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء[٤٦٨].

❖ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾.

لما ذكر في الآية العظيمة صفات الله تعالى وحياته وقيوميته، وبيّن كمالَ قدرتِه وسَعَة علمه وملكه على وجه من البيان لا تدانيه قدرات البشر على البيان؛ قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، "فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه"[٤٦٧].

والدين هنا بمعنى: المعتقد[٤٦٨]، وقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ إما أن يكون خبراً، يخبر الله تعالى فيه أنه لم يُجْرِ أمر الإيمان على الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ {يونس}.

---

(٤٦٦) تفسير الطبري، ٥/ ٣٩٨.

(٤٦٧) تفسير الطبري، ٥/ ٣٩٨.

(٤٦٨) تفسير الطبري، ٥/ ٣٩٨.





الخبر بمعنى النهي / تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء

أو يكون خبراً بمعنى النهي[٤٦٩]؛ وكأنه قال: لا تُكرهوا أحداً على الدِّين، ولكنه عبَّر عن الإنشاء؛ والنهيُ منه؛ بالخبرِ تأكيداً على الامتثال، وكأن الأمر خَرَج من حيِّز النهي عنه إلى الانتهاء الواقعيِّ عنه؛ فكأنه منفيٌّ وجوده في الواقع، وهذا أسلوب سائر في القرآن الكريم.

وفي هذا المبدأ الذي تقرره هذه الآية العظيمة يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترْكِ أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني، التحررِ الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهبُ معتسِّفةٌ ونظمٌ مذلةٌ لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله- باختياره لعقيدته- أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونُظُمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها، فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا- وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرِّف هذا الكون- وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب!

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان»، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء..

ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة.. وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام- وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء- هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين.

(٤٦٩) انظر: تفسير الزمخشري، ١/ ٢٩٩، والتحرير والتنوير، ٣/ ٢٨.

فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المعتسّفة وهي تُفرض فرضاً بسلطان الدولة ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة[٤٧١] ؟!

ثم علَّل ذلك التقريرَ الإلهيّ الحاسم بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، فما دام حصل التبيين وامتاز الرشد من الغي، فالميدان ميدان النظر، ولا داعي لإكراه أحد على الدخول في الدين، فليتحمّل كلُّ عواقبَ نظره:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ وفيها مسائل:

❖ **المسألة الأولى**: ما معنى: "الطاغوت"؟ وما وزن الكلمة البنائي؟

بناء مبالغة من طغى يطغى، وحكى الطبري «يطغو» إذا جاوز الحد بزيادة عليه، وزنه فعلوت، ومذهب سيبويه أنه اسم مفرد كأنه اسم جنس يقع للكثير والقليل، ومذهب أبي علي أنه مصدر كرهبوت وجبروت، ويوصف به الواحد والجمع، وقُلِبت لامُه إلى موضع العين، وعينه موضع اللام فقيل: طاغوت[٤٧١] .

واختلفت عبارات السلف في تفسير الطاغوت، فقيل: الشيطان، وقيل الساحر، وقيل غير ذلك، وجاء تعقيب ابن عطية على ذلك بقوله:

"وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام ومن لا يعقل كالأوثان فسميت طاغوتاً في حق العبدة، وذلك مجاز، إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسِّنه، وهو الشيطان[٤٧٢] .

والعبادة في هذه النصوص لا ينبغي قصر مدلولها على التعبد المحض، فيكون "الطاغوت" شاملاً لكل من ادّعى الألوهية أو مارسها، ففَرَض منهجاً للحياة يُخالُف

---

(٤٧٠) في ظلال القرآن، ١/ ٢٩١.

(٤٧١) المحرر الوجيز، ١/ ٣٤٤.

(٤٧٢) المحرر الوجيز، ١/ ٣٤٤.



منْهجَ الله، ورأى أن له مزاحمة الله في التشريع للعباد، ويكون الكفر به: برفض منهجه المخالف لمنهج الله، ورفض التحاكم إليه دون شريعة الله.

❖ **المسألة الثانية:** ما سرُّ تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؟

نلاحظ أن المعادلة المذكورة في الآية مركبة من سببين مضافين إلى بعضهما ونتيجة، فالسبب الأول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، والثاني: ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾، والنتيجة: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، ونلاحظ تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، اهتماماً بالكفر بالطاغوت[٤٧٣]، وبياناً لكون الإيمان بالله لا يزاحم الإيمان بالطاغوت في القلب، ولا يدخل قلباً عابداً للطاغوت، والواجبُ بناءً على ذلك: أن يكفر العبد بكل معبود من دون الله، ويؤمن بالله الأحد من غير ندٍّ ولا شريك.

وكلمة التوحيد تقوم على هذا الأصل تماماً: لا إله إلا الله، نفي وإثبات: نفي للألوهية عن كل أحد، وإثباتها لله سبحانه وتعالى.

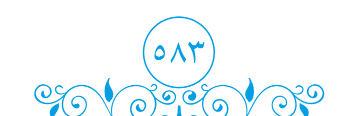
❖ وقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ يحتوي على تشبيه، بيانُه: أن معنى: ﴿اسْتَمْسَكَ﴾: تمسَّك، فالسِّينُ والتَّاءُ لِلتَّأْكِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ {الزخرف ٤٣}، وقولِهِ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ {آل عمران ١٩٥}، إذ لا معنى لِطَلَبِ التَّمَسُّكِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى بَعْدَ الْإِيمَانِ، بَلِ الْإِيمَانُ التَّمَسُّكُ نَفْسُه.

والْعُرْوَةُ: ما يُجْعَلُ كَالْحَلْقَةِ فِي طَرَفِ شَيْءٍ لِيُقْبَضَ على الشَّيْءِ مِنْهُ، فَلِلدَّلْوِ عُرْوَةٌ وَلِلْكُوزِ عُرْوَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ الْعُرْوَةُ فِي حَبْلٍ بِأَنْ يُشَدَّ طَرَفُهُ إِلَى بَعْضِهِ وَيُعْقَدَ فَيَصِيرَ مِثْلَ الْحَلْقَةِ فِيهِ. والْوُثْقى: الْمُحْكَمَةُ الشَّدِّ، وصف لمؤنث والمذكر منها: الأوثق: أفعل التفضيل، كأنها لا أوثق منها ولا أضمن من النجاة بها[٤٧٤].

---

(٤٧٣) المحرر الوجيز، ١/ ٣٤٤.

(٤٧٤) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٩.



و﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ أَيْ لَا انْقِطَاعَ، والْفَصْمُ: الْقَطْعُ بِتَفْرِيقِ الِاتِّصَالِ دُونَ تَجْزِئَةٍ بِخِلَافِ الْقَصْمِ بِالْقَافِ فَهُوَ قَطْعٌ مَعَ إِبَانَةٍ وَتَجْزِئَةٍ"[٤٧٥].

قال ابن عاشور في بيان التشبيه:

"والِاسْتِمْسَاكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى تَمْثِيلٌ، شُبِّهَتْ هَيْأَةُ الْمُؤْمِنِ فِي ثَبَاتِهِ على الْإِيمَان بهيأة مَنْ أَمْسَكَ بِعُرْوَةٍ وُثْقَى مِنْ حَبْلٍ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى صَعْبٍ أَوْ فِي سَفِينَةٍ فِي هَوْلِ الْبَحْرِ، وَهِيَ هَيْأَةٌ معقولة شبهت بهيأة مَحْسُوسَةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي «الْكَشَّافِ»: "وهذا تمثيلٌ للمعلوم بالنظر والاستدلال: بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوّره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به"[٤٧٦].

وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ إِذْ قال: «مُثِّلَتْ حَالُ الْمُتَوَكِّلِ بِحَالِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَدَلَّى مِنْ شَاهِقٍ فَاحْتَاطَ لِنَفْسِهِ بِأَنِ اسْتَمْسَكَ بِأَوْثَقِ عُرْوَةٍ مِنْ حَبْلٍ مَتِينٍ مَأْمُونٍ انْقِطَاعُهُ»، فالمعنى أَنَّ الْمُؤْمِنَ ثابتُ الْيَقِينِ سالمٌ من اضطرابِ الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ نَاجٍ مِنْ مَهَاوِي السُّقُوطِ فِي الْآخِرَةِ كَحَالِ مِنْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ حَبْلٍ مَتِينٍ لَا يَنْفَصِمُ"[٤٧٧]، نسأل الله من فضله!

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فيسمع كلامكم ويعلم ما في قلوبكم من استقرار حقائق الإيمان، فهو المطلع على كل ذلك منكم.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عظم الله سبحانه نفسه في آية الكرسي، ووصفها بجليل الصفات، وبيّن في الآية التالية لها ذلك الذي استمسك بالعروة الوثقى؛ فناسب من بعدُ أن يُبيّن أن هؤلاء هم أولياؤه

---

(٤٧٥) التحرير والتنوير، ١/ ٢٩.

(٤٧٦) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٠٤.

(٤٧٧) تفسير الزمخشري، ٣/ ٥٠٠.



الذين يخرجهم بولايته لهم من الظلمات إلى النور، وأن أولئك المحرومين من ولايته: يتولاهم الطاغوت؛ يخرجهم من النور إلى الظلمات، وكلٌّ حسب إمامه!

وقد تعلّقت هذه الآية بقوله في الآية السابقة: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾، وولايةُ الله المذكورةُ هنا للمؤمنين صورة جليَّةٌ من اهتدائهم وسبب من أسباب وأثر كذلك من آثارها؛ كلُّ ذلك معاً!

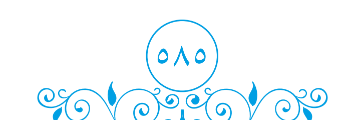
والوَلِيُّ: الحليفُ، وهذا التحالف يقتضي النُّصرة والنجدة، وههنا ولايتان:

- ولاية الله للمؤمنين: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأثرها المباشر: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
- ولاية الشيطان للذين كفروا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾، وأثرها المباشر: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وشتان بين الولايتين! وشتان بين الأثرين!

وأقف لأستجلي السرّ الذي عُدل عن المقابلة التامة فيها بين التعبيرين! ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يقل في التالية: "والطاغوت وليُّ الذين كفروا"؛ كما يتوقّع القارئ العَجِل! وإنما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾؛ إشعاراً بإقبال الكافرين بأنفسهم على الطاغوت، وأنهم هم المبادرون في هذه الولاية الخاسرة!

التعبير بالفعل المضارع / الجملة الاسمية والجملة الفعلية.

والتعبير بالمضارع في الفعلين: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾و﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ يُشعر بتجدد الإخراج في الناحيتين، وتكرار صورته، واقترابهم فيما يخرجون إليه في كل حين: اقتراب هؤلاء إلى النور وتوغّلهم فيه؛ يوشكون الوصول إلى مصدره وبؤرته!



واقتراب أولئك إلى الظلمات وتوغلهم في أعماقها: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ {النور}!

حتى إذا ترك الأشقياء النور خلفهم وأدبروا خارجين منه إلى الظلمات وجدوا أمامهم: "النار"! فالنور المتروك المنبوذ وراء ظهورهم تحول إلى نار تحرقهم أبد الآباد: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

المقطع الرابع والثلاثون

يقينية البعث، وصور من آياته سبحانه في إحياء الموتى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

التمهيد والمناسبة

يمكننا أن نلمح شبكة خيوطٍ كثيفةً تربط هذا المقطع بما سبقه مباشرة، وبما جاء في فاتحة السورة وبالروح العام الساري في آياتها:





❖ أما بالنسبة إلى مناسبتها لما سبقها مباشرة؛ فقد جاء في الآية السابقة ذكرُ ولاية الله تعالى للذين آمنوا، وهذه الآيات فيها صورة من صور ولايته لهم؛ ذلك أن إيتاء إبراهيم الحجة على ذلك المَلِك وسطوع برهانه واستقامة نظره: ولايةٌ من الله له وإخراجٌ من الظلمات إلى النور، وعمى ذلك المَلِك عن الحقائق، وضلالُ نظره، وفقدانُه الحجة خذلان، وإخراجٌ له من النور إلى الظلمات.

وكذلك: ذلك الذي مر على قرية فحصل معه ما حصل؛ قد بصّره الله بالحقائق رأيَ العين، فانتقل في مراتب اليقين إلى عينه، وهذا ضرب من الولاية: أن يهيئ الله لك ما ترتقي به في منازل اليقين!

ومنه ما حصل مع إبراهيم عليه السلام في القصة الثالثة؛ إذ أراه إحياء الموتى رأي العين! فهذه الصور من صور الولاية، وهي ولاية الهداية والكشف.

ثم إن هناك منحى آخر متعلقاً بالسياق؛ ذلك أن الجهاد الذي كثُرَ ذِكرُه في السِّياق السابق، يحتاج إلى زاد نفسي عالٍ يرتكز على التخفف من التعلق بالدنيا، والاستكثار من التطلع إلى الآخرة، واليقين بمحدودية الآجال وبحتمية البعث والحساب والجزاء، وهو ما حمله هذا المقطع من رسائل.

❖ أما مناسبة المقطع لفاتحة السورة ولروحها العام؛ فقد ورد في فاتحة السورة تعداد صفات المتقين؛ الذين تربوا على مائدة القرآن الكريم، وكان منها؛ بل كان أولها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وكذلك: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾، والمقطع الذي بين أيدينا يتناول موضوع الإحياء بعد الموت، وهو رأس الإيمان بالغيب، وعنوان اليقين بالآخرة، وهذا القصص الوارد هنا: يعمِّق هاتين الصفتين: الإيمان بالغيب؛ فيجعل للغيب مكاناً في حياة المرء، واليقين بالآخرة؛ فيزيل من الشبهات التي تعترض الطريق إلى التحقق باليقين، وتقدِّم نماذج واقعية للإحياء بعد الموت.





التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

هذه الآية بالإضافة إلى كونها أصلاً في إثبات الربوبية بالنص، وإثبات الوجود بالالتزام، وإثبات الألوهية بالاقتضاء: هي أصلٌ في الجدل مع الملاحدة والمشركين.

وهمزة الاستفهام الداخلة على "لم" النافية لإفادة التعجيب من حال ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه، وفي إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش فائدة عزيزة، قال:

"وقد عثرنا على تقرير هام للتفتازاني خلاصته: أن كلًّا من لفظ «ألم تر» و «أرأيت» مستعمل لقصد التعجب، إلا أن الأول تعلق بالمتعجّب منه؛ فيقال: ألم تر إلى الذي صنع كذا، بمعنى انظر اليه، فتعجب من حاله.

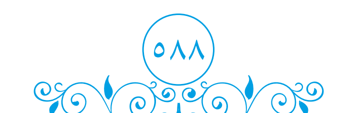
والثاني تعلق بمِثْل المتعجَّب منه فيقال: أرأيت مِثْلَ الذي صنع كذا؟ بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يُرى له مثل، ولا يصحّ: ألم تر إلى مثله، إذ يصير التقدير: انظر إلى المثل وتعجب من الذي صنع!

فلذا لم يستقم عطف «كالذي مرّ» على «الذي حاج»، واحتيج إلى التأويل في المعطوف بجعله متعلقا بمحذوف، أي أرأيت إلى، أو في المعطوف عليه، نظراً إلى أنه في معنى: أرأيت كالذي حاج، فيصح العطف عليه حينئذ.

قلت- والكلام لدرويش-: وهذه دقة نظر وبعد غور لا حدّ لهما، واستقصاء علمي منقطع النظير، ولم نصحح إعرابنا كما ارتآه، واكتفينا بإثبات هذه الملاحظة"[478].

انتهى كلام درويش، وهو دقيق وعال، وإن لم يَبنِ الإعراب عليه كما ذَكَر.

(٤٧٨) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، ١/ ٣٩٩.





وفي التفاسير عن الإسرائيليات أن هذا الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام اسمه النمرود أو النمروذ، ولا حاجة لنا بما يأتينا من الإسرائيليات لسقوط الثقة فيما يروونه، وقد جاءك في آيات السورة ما ينزع ثقتك بهم وبمروياتهم!

وقوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ كالتعليل لمحاجّته؛ من حيث إنه لعنه الله قد جعل إنعام الله تعالى عليه بالملك كالسبب لمحاجته فيه، وقد كان يجدر به أن يجعل الإنعام سبباً للشكر والطاعة.

لمسة تربوية

وكذا حال الكثير من المحرومين ممن ينعم الله عليهم بألوان النعم: المال والجمال والقوة، فيجعلونها سبباً لمعصية الله تعالى بها، ووسيلة للحرب على دينه!

إن أدنى مقومات الخُلُق تأبى على الحرّ أن يبارز المنعِمَ- ولو كان من البشر- بما كان أسداه إليه من معروف، فكيف يكون من العبد الشقي أن يحارب ربه بنعمه عليه، ويسخِّرها في التكبر على عبادته وعباده! وإن أهم مراتب شكر النعمة التي أنعم الله بها عليك أن تبادر إلى توظيفها في خدمة دينه والقيام بأمره!

وهنا لمّا أراد إبراهيم عليه السلام أن يعرِّف بالله- ويبدو أنه جاء في سياق جوابه عليه السلام على سؤال الطاغية حُذف للعلم به- قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فالإخراج من العدم إلى الحياة ومن الحياة إلى العدم؛ لا بد أن يكون بمرجّح، ولا يصحُّ أن يكون بلا مرجّح أو فاعل مُريد، وليس الكلام منحصراً بحياة الإنسان وموته، وإن كانت الحجة البالغة في هذا الباب؛ لكنه يشمل كذلك مظاهر الإحياء والإماتة في الكون مما يراه المخالف، فاحتجّ إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة عليه.



فأجابه بقوله: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، وجوابه هذا يحتمل وجهين: إما الحمق والجهل، أو العناد وإرادة التلبيس، وبيانه على الأول: أنه ظن أن ضرْبَ امرئ بالسيف إماتةٌ، وعفوَه عنه إحياءٌ، وهذا إن كان كذلك فهو من شدة حمقه إذ لم يفهم الحجة، ووقع وَهْمُه على السبب الظاهر، والصورة الظاهرة!

وبيانه على الوجه الثاني: أنه إنما أراد التشغيب على احتجاج إبراهيم عليه السلام فقال ما قال عناداً واستكباراً عن التسليم، وهذا حال كثير من فلاسفة الإلحاد اليوم!

فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وقد اختلف العلماء في توجيه كلام إبراهيم؛ هل هو انتقال من حجة إلى أخرى أوضح منها، كما ذهب إليه الكشاف[479]!

أو أنها الحجة ذاتها أراد أن يتمَّ كلامه المتعلق بها؟ كما رجحه الرازي[480] وابن كثير، وهو المتجه، كما سيتضح.

فلنبق مع كلام مهم للإمام ابن كثير؛ نكتفي به في هذا المقام:

"كَأَنَّهُ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيِ: الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُشَاهَدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا.

وهذا دَلِيلٌ على وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، فعند ذلك قال الْمُحاجُّ- وهو النُّمْرُوذُ-: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قَتَادَةُ ومُحَمَّدُ بْنُ إسحاقَ والسُّدِّيُّ وغير واحدٍ: وذلك أنِّي أُوتَى بالرَّجُلَيْنِ قد اسْتَحَقَّا الْقَتْلَ فَآمُرُ بِقَتْلِ أَحَدِهِمَا فَيُقْتَلُ، وبالعفْوِ عنِ الْآخَرِ فَلَا يُقْتَلُ، فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ.

---

(٤٧٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٠٦.

(٤٨٠) تفسير الرازي، ٧/ ٢٣.



والظَّاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أنه ما أراد هذا؛ لأَنَّهُ ليس جوابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَلَا فِي مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَانِعٍ لِوُجُودِ الصَّانِعِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ يَدّعي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ {القصص ٣٨} وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أَيْ: إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ أنت الَّذِي تُحْيِي وتُمِيتُ؛ فالَّذي يُحْيِي ويمِيتُ هو الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ وحركاته، فهذه الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ... وهذا التَّنْزِيلُ على هذا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مِمَّا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَنْطِقِيِّينَ: أَنَّ عُدُولَ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِلَى الْمَقَامِ الثَّانِي انْتِقَالٌ مِنْ دَلِيلٍ إِلَى أَوْضَحَ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُطْلِقُ عِبَارَةً رَدِيَّةً، وَلَيْسَ كَمَا قَالُوهُ بَلِ الْمَقَامُ الْأَوَّلُ يَكُونُ كَالْمُقَدَّمَةِ لِلثَّانِي ويُبَيِّنُ بُطْلَانَ مَا ادَّعَاهُ نُمْرُودُ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَللهِ الحمد والمنة[٤٨١].

وقوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾، بمعنى: أُخرس فلا يَتكلَّمُ، وقامت عليه الْحُجَّةُ[٤٨٢].

وضع الظاهر موضع المضمر / ظواهر سياقية

ووضع الظاهر في موضع المضمر؛ حيث قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾، ولم يقُل: بُهت، ويُبقِ ذِكرَ الشقيِّ مضمراً كما هو الأصل؛ إذ إنه ذُكر قريباً، والسياق يؤشّرُ عليه بوضوح فلا يلتبس: ليسجل عليه الكفر ولِيَنْعِتَه بالنعت المُشعر بالتعيير.

(٤٨١) تفسير ابن كثير، ١/ ٦٨٦.

(٤٨٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٦٨٦.



﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى مواقع النظر والانتفاع بالأدلة، لأنهم ظالمون، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ومن أظلم ممن اتخذ سبيل الغيّ في تحريف الأدلة والتلبيس بها على الناس؟!

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

هذه القصة الثانية من قصص هذا المقطع، وفيها ذكر الذي مرّ على القرية الخاوية، فأماته الله وأحياه، وتَذْكر الروايات أنه العُزَير، وأن القرية هي بيت المقدس، وأحسب أن مصدرها: القصصَ الإسرائيلي، ولا حاجة لنا به، وحسبنا أنه رجل؛ وهو رجل صالح كما يبدو من قوله في آخر الآية: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأنها قرية ملأتها مظاهر الموت بعد حياة؛ وكأنها لم تشهدها يوماً!

وفي الآيةِ نموذجٌ واقعيٌّ على إحياء الموتى؛ مادة الغيب التي لا يعرفها الماديُّون، وأسُّ الإيمان بالآخرة الذي حُرَمَه الدهريُّون!

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، هذا ما يسمُّونه بعطف القصة على القصة، وقد جاءك فيما نقلناه عن التفتازاني كلامٌ يَخصُّ هذا العطف؛ ونلتزمُ بما التزمَ به ناقلُه أ. محيي الدين درويش في إعرابها.

﴿وَهِىَ﴾ الواو واو الحال، والجملة حالية ﴿خَاوِيَةٌ﴾ فارغة لا يسكنها أحد ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ العروش: السقوف، والمقصود أن جدرانها ساقطة على سقوفها؛ إذ يسقط أول ما يسقط من البناء سقفه، ثم تليه الجدران، فتقع عليه[٤٨٣]، وهذا مشهد عميق الدلالة على هجران القرية، وخلوِّها من الحياة!

(٤٨٣) انظر: تفسير النسفي، ١/ ٢١٤.





تقديم المفعول به / التقديم الاصطلاحي / التقديم والتأخير.

وهذا الاستفهام للتعجب؛ ولم يستبعد الرجل على الله الإحياء، وإلا لما كان مؤمناً، ولا يدل السياق على ذلك، ولا التركيب كذلك كما سيأتي، وإنما أراد استبعاد حياة القرية بعدما وصلت إلى ما وصلت إليه من الموت، انظر إلى قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، والْحظ تقديم المفعول: ﴿هَٰذِهِ﴾ على الفاعل؛ وهو لفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾!

إن تقديم المفعول هنا للإشارة إلى ما ذكرتُ من كون الرجل لم يقصد استبعاد قدرة الله على ذلك، وإنما انصبَّ تعجُّبه على إحياء القرية لما رآه فيها من مظاهر الموت؛ فقدَّم للإشارة إلى ذلك محلَّ التعجب والاستبعاد، وهو القرية؛ المفعول به؛ على الفاعل الذي حقه التقديم على المفعول.

فأراد الله إراءته ذلك في نفسه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي الله تعالى، وفي الرازي: "أَجْمَعُوا على أنّ قائل هذا القولِ هو الله تعالى، وإنَّما عُرِفَ أنَّ هذا الْخِطَاب من الله تعالى، لأَنَّ ذَلِكَ الْخِطابَ كان مَقْرُونًا بِالْمُعْجِزِ، ولأَنَّهُ بَعْدَ الْإِحْيَاءِ شاهَد مِنْ أحوالِ حِمَارِهِ وَظُهُورِ الْبِلَى فِي عِظَامِهِ مَا عَرَفَ بِهِ أَنَّ تِلْكَ الْخَوَارِقَ لَمْ تَصْدُرْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى"[٤٨٤].

ويجوز أن يكون ذلك عن طريق الملك الذي تَصَوَّر له كما يتبادر إلى الذهن: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ ميتاً حتى حييت؟ أو قال له مُغَمِّياً: كم لبثت؟ ولم يذكر له أنه كان ميتاً! ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فهذا أقصى ما يلبثه المرء في نومه!

﴿قَالَ﴾: لم تلبث هذا الوقت القصير ﴿بَل﴾ التي للإضراب وإبطال الكلام المقدر المفهوم من كلام الرجل، كأنه قال: لم تلبث يوما أو بعض

(٤٨٤) تفسير الرازي، ٧/ ٢٥.

يوم بل ﴿لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾!

ولعلّ هذا الادعاء كان بحاجة إلى دليل ظاهر: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغير بالفساد؛ واشتقاقه من السَّنة، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان[485].

والفاء في قوله: ﴿فَانظُرْ﴾ فصيحة، لأَنها أفصحت عن شرط مقدر؛ بمعنى: إذا علمت أنك مكثت مائة عام ميتًا، ثم بُعثت فانظر إلى هذه الآيات البينات، وتبصر فيها!

وقد أمره الله أن ينظر إلى طعامه وشرابه اللذين كانا معه لزاده- وقد مرّ عليهما مائة عام وما زالا صالحين للتناول، لم يلحقهما أي تغيير، مع أن شأنهما المعتاد هو سرعة التغيُّرِ والفساد للاستدلال بذلك على أن المؤثر هو الله تعالى، لا الأسباب بذاتها، ولذا تخلف تأثيرها في الطعام والشراب، اللذين مكثا مائة عام، لم يتغيّر فيهما شيءٌ منهما، وهذا هو موضع الاعتبار الأول[486].

ولفت نظره إلى مشهد عجيب: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف صار عظاماً بالية!

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾: تعليل لما سيراه من الآيات العظيمة: والواو تشير إلى علل محذوفة؛ تُرك للعقل أن يملأها بالمناسب، ولعل من أهمها- سوى المنصوص عليه؛ وهو أن يجعله الله آية للناس-: أن يريه كيف يحيي الموتى، وأنه لا بعيد على قدرة الله ولا صعب أمام إرادته وأمره.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ عظام حماره الذي صار بالياً؛ كما يبدو، وقيل: عظام نفسه، أعاد الله إحياء عينيه لينظر كيف يحييه، وهذا بعيد، ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾: نرفعها ونحركها للحياة بعد أن التصقت مهترئة بالتراب، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ حياً طرياً تتدفق فيه الدماء!

---

(485) تفسير الزمخشري، 1/ 307.

(486) التفسير الوسيط، 1/ 443.





الاستعارة / علم البيان.

وزاد العبارة جمالاً أن ههنا استعارة؛ احتوت على تشبيه اللحم باللباس، وحَذَف المشبَّه به وهو اللباس، وصرّح بالمشبه؛ وهو اللحم، بجامع أن كليهما يستر ما تحته ويغطيه، فهي على هذا استعارة تصريحية!

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ الفاء هنا فصيحة كذلك؛ تُفصح عن مطويات يفترضها ذهن القارئ: فلما رآى ذلك المشهد وحصل له من معاينة آيات الله ما يذهل العقل ويُلجئ إلى اليقين؛ ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن علم ذلك كان أحرى به أن لا يستبعد شيئاً البتة على إرادة الله وقدرته!

❁ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

هذه القصة الثالثة في السياق؛ غرضُها غرض السياق نفسه، وفيها الخبر كذلك عن إبراهيم عليه السلام، ولعله إنما طلب رؤية كيفية إحياء الموتى لمناسبة قوله للملك: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فأراد أن يرى كيفية ذلك، والله أعلم[٤٨٧].

وسؤال إبراهيم عليه السلام كان عن الكيفية: ﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾؟ فليس الأمر كما هو منطق السؤال شكاً في قدرة الله؛ وحاشا الخليل أن يشك! وعلى هذا المعنى جاء في الحديث: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"، والمقصود أن إبراهيم عليه السلام لا يشكّ، والدليل على أنه لم يشكّ أننا لا نفعل، ولو كان يفعل لكنا أحق منه بذلك؛ فلما كنا لا نفعل كان هو كذلك حتماً؛ لأجل قوة إيمانه وإمامته في الدين.

(٤٨٧) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٦٨٨.



وإنما قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين[488].

وإجابته عليه السلام قوله: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، و"بلى": إيجاب لما بعد النفي، معناه: بلى آمنت، ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بضمّ علم الضرورة إلى علم الاستدلال[489]، فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، وكذلك لأن تظاهر الأدلةِ أسكنُ للقلوب وأزيدُ للبصيرة[490].

فأجابه الله لِمَا سأل؛ استجابة لدعوته، ولِمَا يحصل كذلك لغيره من العظة فيه: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، أي: فأَمِلْهُن واضمُمهن إليك لتتأمّلهن وتعرف شِيَاتهن لئلا يلتبسن عليك بعد الإِحياء[491].

التضمين

وقيل: قطِّعْهنَّ أو أوثقهن[492]، كما في ابن كثير، وفي الحديث النهي عن "المصراة"[493]، وهي الشاة التي أُوثِقَ ضرعها ليبدو ممتلئاً فينخدع بذلك المشتري، ولكن الفعل لا يُعدّى بـ "إلى"، فكأنه عُدّي بفعل آخر يصلح تعديته بها مما يناسب السياق، مثل: فأوثقهن وأمِلْهن إليك لتتأملهن،

---

(٤٨٨) تفسير النسفي، ١/ ٢١٥.

(٤٨٩) علم الضرورة هو ما لا سبيل إلى دفعه البتة، كبديهيات العقل، وما تقع عليه الحواس مباشرة، ورؤيةُ مثل هذا يُنتج علماً ضروريا، وعلمُ الاستدلال يحصل بتركيب الأدلة ليحصل بالاستدلال بها العلم، ويسمى العلم النظري، أي الذي يحصل بالنظر والتأمل.

(٤٩٠) تفسير النسفي، ١/ ٢١٥.

(٤٩١) انظر: تفسير البيضاوي، ١/ ١٥٧.

(٤٩٢) تفسير ابن كثير، ١/ ٦٨٩.

(٤٩٣) الحديث عند مسلم في صحيحه (ج٣/ ص١١٥٨/ ح١٥٢٤).



أما تقطيعهن؛ فيُستفاد من قوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، وهذا يقتضي تقطيعهن وخلط أجزائهن بعضها إلى بعض؛ ليَجعَل جزءاً منهن على كل جبل، وإنما أمره بفعل ذلك وإن كان يحصل ما طلب بإراءته إحياء أي ميت ليكون أبلغ في الآية، وأرشد إلى سهولته على الله.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ إليك ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ تجتمع أعضاؤهن ويحيين، ثم إذا عرفت ذلك فازدد إيماناً، وارتق في مراتب اليقين إلى عينه، ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يخفيه عن البشر، وفيما يطلعهم عليه.

المقطع الخامس والثلاثون

الترغيب في النفقة، وذكر ما يتعلّق بها من تضعيف وإبطال

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا



أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

التمهيد والمناسبة

هذا المقطع الطويل من أكثر المواضع بسطاً فيما يتعلَّق بالإنفاق في القرآن، وقد ورد فيه من الترغيب والتمثيل وتفاصيل الأحكام ما يجعلُه كُتلَةً قُرآنية ذاتَ موضُوع متكامل.

ومناسبته للسياق القريب تتعلق بالجهاد المذكور قبل القصص الثلاث، وقد ذكرنا أن القصص يعالج ما يتعلق بالجهاد من ناحية كون الموت والحياة جزءاً من معادلة عقيدة الجهاد في الإسلام.

وهذه المناسبةُ مع المقطع القريب تصل المقطع بجوِّ السورة وروحها العامّ؛ فهذا كلُّه جزءٌ من صناعة الأمةِ المُستخلَفَة، وهو جزءٌ مهمّ؛ كأنه رأسُ الحربة المدببة لرسالة الإسلام، وأداته في تطويع العقبة الكؤود، نعم؛ فالإسلام وإن كان دينَ الرحمة





والسلام؛ فإن القوةَ حاضرةٌ كإحدى الوسائل المتاحة التي تصنع السلام العالمي، والتي يتمُّ من خلالها ومن خلال غيرها مواجهة الواقع بعناصره المختلفة، ومنها القوى المعادية، والقوة لا تواجه إلا بمثلها، وتواجه بقية العناصر بمثيلاتها.

التفسير

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

لمسة تربوية

يضرب الله تعالى مثلاً للمنفقين أموالهم في سبيل الله، وهو مثل عميق الدلالة محفز للنفس، وقد صوَّر القرآنُ المعنى الذهنيَّ لمضاعفة الأجر في صورة حسيّة بارعة متشعبة يتتبعها الخيال.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، هذا تشبيهٌ تمثيليٌّ يشبَّه فيه الأَجر المُضاعَف بصورة الحبة التي تنبت سبع سنابل، تحمل كل سنبلة منها مائة حبة؛ ليكون مجموع ما تنتجه الحبة سبعمائة حبة، فالحبة هي النفقة الصالحة، وما تنتجه: ما يكتبه الله تعالى من الأجر عليها.

وقد قيّدها بعضهم كما جاء في تفسير القرطبي[٤٩٤] بالنفقة في الجهاد؛ استدلالاً بالسياق، واستدلالاً بقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ على اعتبار أن هذا المركب: "سبيل الله" مقارن للجهاد دال عليه.

والتعبير بالفعل المضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾ لإفادة التجدد وتكرار النفقة حالاً بعد حال كلما اقتضى الأمر، وكلما دعت الحاجة أو فُتح الباب.

---

(٤٩٤) تفسير القرطبي، ٣/ ٣٠٤.



وقد اختلفوا في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، هل يضاعف هذه المضاعفة المذكورة لمن يشاء؟ أم أنه يضاعف ما هو زائد عليها؟ والثاني المرجو اللائق بكرم الله تعالى، ولذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ العطاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بنوايا المنفقين إن كانت في سبيله وابتغاءَ مرضاته، وحسُن لأجل هذا المعنى أن يذكر ما ينافي هذا القيد الدال على الإخلاص وإرادة وجه الله.

ويوجب الذهاب إليه تفسيرياً ما جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدة"[٤٩٥].

ووجه الدلالة: قوله صلى الله عليه وسلم: "وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ"، من حيث إنه صلى الله عليه وسلم نصَّ على أن ثمة تضعيفاً بعد السبعمائة، فلله الحمد وله الشكر والثناء الحسن.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، لك أن تجعلها تابعة للجمل السابقة على أنها مبدلة منها، ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لذكر الإنفاق غير المشوب بالمن، على أن يكون: ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ أو بدل من ﴿الَّذِينَ﴾[٤٩٦].

---

(٤٩٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٩/ ص١٤٤/ ح٧٥٠١).

(٤٩٦) إعراب القرآن وبيانه، لدرويش، ١/ ٤٠٥.



والمضارع لإفادة ما ذكرنا من التجدُّد والتكرار المنبئ عن الممارسة وارتياد هذه الطاعة العظيمة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾، المن: الاعتداد بالصنيعة وذكرها، كأن يقول: قد أحسنتُ إلى فلان، وجبرت حاله وأغنيته! يمنُّ بما فعل، والأذى: هو أن يذكر إحسانه لمن لا يحبُّ وقوفه عليه[٤٩٧]، وأن يسيءَ إليه بالعنيف من القول وما أشبه.

وهذا الامتناع عن إتباع الصدقة بالمن والأذى يحسن أن يكون لشهود فضل الله ومنته بالتوفيق إلى الصدقة، لا شهود العمل ذاته، وكذلك لمعرفة أن الفقير وإن كان مستفيداً من النفقة التي يأخذها؛ فإن المنفِق استفاد أكثر بما ناله من الأجر، بل لعل بعضهم يشهد الفضل للفقير بقبول الصدقة؛ إذ لو لم يقبل لما تمكَّن المنفق من القيام بهذه الطاعة! وهذه منزلة جليلة من شهود الحقائق[٤٩٨].

قال الزمخشريّ: معنى ﴿ثُمَّ﴾ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وفي حواشيه للناصر ما نصّه:

﴿ثُمَّ﴾ في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبُعد ما بينهما، والزمخشريّ يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية، وحاصله أنها استُعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة.

وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصليّ تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ {فصلت}، أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتدَّ الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما

---

(٤٩٧) تفسير الوسيط للواحدي، ١/ ٣٧٧.

(٤٩٨) شيء قريب من هذا ورد في لطائف الإشارات، ١/ ٢٠٣.



هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً﴾ أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الأذية وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون، والله أعلم.

وقريب من هذا أو مثله، أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ {الصافات}، وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ {الشعراء}، فليس إلى حمل السين على تراخي زمان وقوع الهداية له من سبيل، فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخي بقائها وتمادي أمدها"[٤٩٩].

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والعندية هذه محل اعتناء عند المؤمن البصير؛ إذ تَرفَع من شأن الأجر في نفسه لاعتبار أنه "عند الله"، والتعبير بعنوان الربوبية المضافة إلى ضميرهم لتشريفهم، ولبيان كونهم في محل تربية الله ورعايته، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من قادم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت، نسأل الله من فضله.

❖ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

لما أثنى على المنفقين الذين لا يُتبعون صدقاتهم بالمن والأذى بيّن أن ترك الصدقة أصلاً إلى القول الحسن والمغفرة للسائل خيرٌ من الصدقة المتبوعة بالمن والأذى.

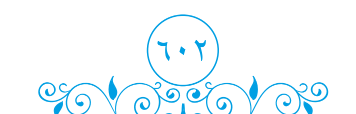
فالمعنى: لَأَن تبذل للسائل قولاً حسناً، وتغفر له إن آذاك بمراجعة وإلحاف خيرٌ من أن تعطيه وتمتن عليها، كقول الشاعر:

ومنعك للندى بجميل قول ...أحبُّ إلي من بذل ومنة

وهذا كقول الله تعالى؛ وهو أبلغ القائلين: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ

---

(٤٩٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١١، وانظر: البحر المحيط، ٢/ ٦٦٠، فإنه قد تعقب الزمخشري كذلك.





﴿تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ {الإسراء}، وقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ {الإسراء}"[٥٠٠].

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم، أمركم بها رحمة بكم وفتحاً لبابٍ من أبواب الجنة لكم، ﴿حَلِيمٌ﴾، فلا يعاجلكم بالعقوبة، فلا تغترّوا بحلمه، وبادروا إلى التوبة والاستغفار إن فرط منكم ما يستدعي ذلك.

وفي الآية دليل على:

لمسة تربوية

- أن قليل العمل على مقتضى الكتاب والسنة خير من كثيره من غير التزام بهما.
- أن قليل العمل من غير تخليط خير من كثيره مع التخليط.
- ليس الجانب المادي هو الجانب الوحيد الذي ينبغي مراعاته عند الفقير، بل الجانب المعنوي أولى بالمراعاة، ولذلك منع الصدقة التي يتبعها المن والأذى، وجعل في قول معروف ومغفرة مجردتين من الصدقة الفضل والخيرية.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

لما أَثْنى على المنفقين الذين لا يُتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى، وبين أن القول المعروف والمغفرة للسائل على تجاوزه في السؤال أفضل من الصدقة المتبوعة بالمن والأذى صرّح هنا بالنهي عن المنّ والأذى، وأفاد أثناء النهي بطلان الصدقة المقترنة بهما.

---

(٥٠٠) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٥٥٤.



وخص الصدقة المتبوعة بذلك بالنهي؛ إذ المنة فيها أعظم وأشبع ولكون ذلك فظيعاً مستبشعا قال عليه الصلاة والسلام: "ثلاثة لا يجدون ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمس مائة عام: العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان"[٥٠١].

وفي الآية دليل لمن قال: إن السيئات يُذهبن الحسنات، كما أن الحسنات يُذهبن السيئات، وهذا وإن كان قول المعتزلة؛ فقد انتصر له كثير من المحققين، ومن أبرزهم ابن القيم رحمه الله في "مدارج السالكين"، واستدل له بأدلة كثيرة، هذا الموضع أحدها.

وقوله: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في موضع الحال للمؤمنين، والمعنى: لا تبطلوها كما أبطل المنفق ماله رياء صدقته؛ تنبيها أن إنفاق الممتنّ كإنفاق المرائي الكافر بالله لأنه قال: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

واقترانُ الإنفاق رياء بالكفر، وتشبيهُ الممتَنّ بالمنفق رياء من غير المؤمنين بالله واليوم الآخر فيه من الترهيب عن سلوك تلك الطريق وإيجابُ مدافعة الأفكار التي تدفع إليه ما لا يخفى على بصير!

واختصاص الإيمان بالله واليوم الآخر بالذكر من دون سائر أركان الإيمان لأن هذين الركنين فيهما المانع المحقَّق عن اقتراف السلوكَيْن القبيحَيْن المذكورَيْن في الآية: المنّ والرياء! ذلك أن الإيمان بالله يوجب ملاحظته دون سواه، ويوجب تعظيمه والطمع بما عنده، والإيمانَ بالآخرة يحمل صاحبه على الاستعداد لذلك اليوم، والحرص على عدم تضييع شيء من الأعمال في غير ما فائدة تعود عليه في ذلك اليوم، وكلُّ ذلك مناف للمنة بالنفقة والرياء بالإنفاق!

وهذا كلُّه يبيِّن قيمة العقيدة والتصور في تصحيح السلوك، ويبيِّن كذلك أن الانحراف السلوكيَّ مردُّه إلى انحراف في التصوُّر وفساد فيه.

---

(٥٠١) أخرجه النسائي في سننه (ج٥/ ص٨٠/ ح٢٥٦٢) وقال الألباني: حسن.



وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ فيه تشبيه تمثيلي، لكن فلنمرَّ على غريب الآية، وننتقلْ بعدها إلى بيان التشبيه:

فالصفوان: الحجر الكبير الأملس، والوابل: المطر الكثير الذي يبلُّ الأرض، والصلْد: الأَجْرَد النَقِيّ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي كَانَ عَلَيْه[٥٠٢].

والصورة في الآية:

شبَّه فيها حالِ الكافر الذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ بِحَالِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ يُغَشِّيهِ، يعني: يَخَالُهُ النَّاظِرُ تُرْبَةً كَرِيمَةً صَالِحَةً لِلْبَذْرِ، فإِذَا زَرَعَهُ الزَّارِعُ وَأَصَابَهُ وَابِلٌ وَطَمِعَ الزَّارِعُ فِي زَكَاءِ زَرْعِهِ، جَرَفَهُ الْمَاءُ مِنْ وَجْهِ الصَّفْوَانِ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا وَبَقِيَ مَكَانُهُ صَلْدًا أَمْلَسَ فَخَابَ أَمَلُ زَارِعِهِ.

والتَّشْبِيهُ كما ترى تَشْبِيهُ مُرَكَّبِ مَعْقُولٍ بِمُرَكَّبٍ مَحْسُوسٍ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ الْأَمَلُ فِي حَالَةٍ تَغُرُّ بِالنَّفْعِ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَلَّا تَأْتِيَ لِآمِلِهَا بِمَا أَمَّلَهُ فَخابَ أَمَلُه، ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَخْلُونَ مِنْ رَجَاءِ حُصُولِ الثَّوَابِ لَهُمْ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، وَيَكْثُرُ أَنْ تَعْرِضَ الْغَفْلَةُ لِلْمُتَصَدِّقِ فَيُتْبِعُ صَدَقَتَهُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى انْدِفَاعًا مَعَ خَوَاطِرَ خَبِيثَةٍ[٥٠٣].

وفي التحرير والتنوير:

"المعنى: تَشْبِيهُ بَعْضِ الْمُتَصَدِّقِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ طَلَبًا لِلثَّوَابِ وَيُعْقِبُونَ صَدَقَاتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، بِالْمُنْفِقِينَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لَا يَطْلُبُونَ مِنْ إِنْفَاقِهَا إِلَّا الرِّئَاءَ وَالْمِدْحَةَ، إِذْ هُمْ لَا يَتَطَلَّبُونَ أَجْرَ الْآخِرَةِ.

ووجهُ الشَّبَهِ عَدَمُ الِانْتِفَاعِ مِمَّا أَعْطَوْا بأزيَدَ من شِفاءِ ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ حُبِّ التَّطَاوُلِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَشِفَاءِ خُلُقِ الْأَذَى الْمُتَطَبِّعِينَ عليه دون نَفْعٍ في الآخرة.

---

(٥٠٢) انظر: فتح القدير للشوكاني، ١/ ٣٢٧.

(٥٠٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٤٩.



وَمُثِّلَ حال الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ؛ الْمُشَبَّهِ بِهِ؛ تَمْثِيلًا يَسْرِي إِلَى الَّذِينَ يُتْبِعُونَ صَدَقَاتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ إِلَخ، وضَمِيرُ (مَثَلُهُ) عَائِدٌ إِلَى الَّذِي يُنْفِقُ مَاله رئاء للنَّاس، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ تَمْثِيلًا لِحَالِ الْمُشَبَّهِ بِهِ كَانَ لَا مَحَالَةَ تَمْثِيلًا لِحَالِ الْمُشَبَّهِ، فَفِي الْكَلَامِ ثَلَاثَةُ تَشْبِيهَاتٍ[٥٠٤].

وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ راجع إلى قوله: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾، أي المرائي بإنفاق ماله، لا يقدر يوم القيامة على اجتناء ثمرة ما أنفقه من النفقات التي لم يقصد الله تعالى بها، وكذلك حال المنفق بالمن والأذى، لاعتبار أنه شبهه به؛ فاقتضى التشبيه اشتراكهما في الحكم.

فإن قيل: وكيف يجوز أن يكون ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ متعلقاً بـ "الذي"، و"الذي" اسم موصول للمفرد، و﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ جمع؟ قلت: جاء التشبيه على مقتضى فعل الواحد من هؤلاء المرائين، وجاء الحكم على مقتضى فعل الجميع، وليس المقصود في التمثيل رجلاً مرائياً بعينه، وإنما الكلام عن هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل القبيح.

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: لا يهديهم هداية التوفيق للطاعة، هداية ثواب الآخرة؛ فإنها خاصة بمن يستحق الاهتداء، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ {العنكبوت ٦٩}، وهاتان الهدايتان لا تكونان للكافر[٥٠٥]، ولا ينافي هذا أنه يهديه هداية البيان والإرشاد؛ كما قال في حق ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ {فصلت ١٧}.

❊ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾.

---

(٥٠٤) التحرير والتنوير، ٣/ ٤٨.

(٥٠٥) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٥٥٧.



مثّل في الآية السابقة على ضياع حظِّ المانّين والمرائين من صدَقاتهم وعدمِ انتفاعِهم بها: بالحجر الأملس يعلوه تراب رقيق؛ فإذا نزل المطر لتنتفع به الأرض ولتنبت؛ ذهب المطر بطبقة التراب التي أوهمت أن الموضع صالحٌ للزرع؛ ففقدَ الزّارع ما كان يأملُه من الانتفاع!

وفي هذه الآية مثال مقابل تماماً؛ مثال للانتفاع بالمطر النازل؛ لأن الأرض خصبة صالحة للزرع.

والأرض في المثالين: قلب المنفق في إخلاصه وابتغائه وجه الله أو في خلوِّه عن ذلك واستبداله به: المن والأذى والرياء.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لا رياء وسمعة للخلق، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: اختُلف في ضبط معنى هذه الجملة القرآنية، لكن الآية تبيِّن على أية حال أنَّ غَرَضَ هؤلاء الْمُنْفِقِينَ مِنْ هذا الْإِنْفَاقِ أمرانِ أحدهما: طَلَبُ مَرْضَاةِ الله تعالى، والْغَرَضُ الثَّانِي: هُوَ تَثْبِيتُ النَّفْسِ، ومن أبرز ما قيل فيه:

- ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ فِي الْإِيمَانِ مُخْلِصَةٌ فِيهِ، وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مُجَاهِدٍ: «وَتَثْبِيتًا مِنْ بَعْضِ أَنْفُسِهِمْ».
- أَنَّ النَّفْسَ لَا ثَبَاتَ لَهَا فِي مَوْقِفِ الْعُبُودِيَّةِ، إِلَّا إِذَا صَارَتْ مَقْهُورَةً بِالْمُجَاهَدَةِ، وَمَعْشُوقُهَا أَمْرَانِ: الْحَيَاةُ الْعَاجِلَةُ وَالْمَالُ، فَإِذَا كُلِّفَتْ بِإِنْفَاقِ الْمَالِ فَقَدْ صَارَتْ مقهورة من بعض الوجوه، وإذا كلفت ببذل الرُّوحِ فَقَدْ صَارَتْ مَقْهُورَةً مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَلَا جَرَمَ حَصَلَ بَعْضُ التَّثْبِيتِ، فَلِهَذَا دَخَلَ فيه ﴿مِّنْ﴾ التي هي للتبعيض، والْمَعْنَى أَنَّ مَنْ بَذَلَ مَالَهُ لِوَجْهِ اللهَّ فَقَدْ ثَبَّتَ بَعْضَ نَفْسِهِ، وَمَنْ بَذَلَ مَالَهُ وَرُوحَهُ مَعًا فَهُوَ الَّذِي ثَبَّتَهَا كُلَّهَا، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف ١١]، وهَذَا الْوَجْهُ ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» باختصار[٥٠٦]، والبسط هنا للفخر الرازي،

(٥٠٦) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٢.



الذي علّق عليه بقوله: "وهُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ وَتَفْسِيرٌ لَطِيفٌ"[٥٠٧].

❖ أنَّ ثَبَاتَ الْقَلْبِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِذِكْرِ اللهَّ عَلَى مَا قَالَ: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ {الرعد ٢٨}، فمَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهَّ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ اطْمِئْنَانُ الْقَلْبِ فِي مَقَامِ التَّجَلِّي، إِلَّا إِذَا كَانَ إِنْفَاقُهُ لَمِحْضِ غَرَضِ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ إِنْفَاقُ الْعَبْدِ لِأَجْلِ عُبُودِيَّةِ الْحَقِّ لَا لِأَجْلِ غَرَضِ النَّفْسِ وَطَلَبِ الْحَظِّ فَهُنَاكَ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وَاسْتَقَرَّتْ نَفْسُهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لِنَفْسِهِ مُنَازَعَةٌ مَعَ قَلْبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ أَوَّلًا فِي هَذَا الْإِنْفَاقِ إِنَّهُ لطلب مرضات الله، ثم أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا الوجه ذكر الفخر الرازي أنه بدا له وقت كتابة تفسيره للآية.

❖ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ، أَنَّ تَكْرِيرَ الْأَفْعَالِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الْمَلَكَاتِ، وإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّ مَنْ يُوَاظِبُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ الله حَصَلَ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْـمُوَاظَبَةِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا: حُصُولُ هَذَا الْمَعْنَى، والثَّانِي: صَيْرُورَةُ هَذَا الِابْتِغَاءِ وَالطَّلَبِ مَلَكَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ فِي النَّفْسِ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ بِحَيْثُ لَوْ صَدَرَ عَنْهُ فِعْلٌ عَلَى سَبِيلِ الْغَفْلَةِ وَالِاتِّفَاقِ رَجَعَ الْقَلْبُ فِي الْحَالِ إِلَى جَنَابِ الْقُدْسِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ تِلْكَ الْعِبَادَةَ صَارَتْ كَالْعَادَةِ والخُلُقِ لِلرُّوحِ، فَإِتْيَانُ الْعَبْدِ بِالطَّاعَةِ للهَّ، وَلِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهَّ، يُفِيدُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ الْمُسْتَقِرَّةَ، الَّتِي وَقَعَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا فِي الْقُرْآنِ بِتَثْبِيتِ النَّفْسِ، وَهُوَ الْمُرَادُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ {إبراهيم ٢٧}[٥٠٨].

وهذا الوجه الأخير عميقٌ بقدر عمق الفخرِ الرازي الذي جاء به، رحمه الله وأجزل مثوبته، وإن كان ثمة تعليق فليكن:

(٥٠٧) تفسير الرازي، ٧/ ٤٨.

(٥٠٨) تفسير الرازي، ٧/ ٤٩، وثمة وجوه أخرى ذكرها الرازي وذكرها غيره، لم أنقلها هنا لما رأيت من ضعفها.



لمسة تربوية

أن العبد الموفق هو المواظب على الطاعة ظاهراً وباطناً، المجاهد لنفسه في سبيل تأديتها كما أحب ربه ورضي؛ يروِّض نفسه على سلوك صُعُدِها، فتتطامن له وِهادُها، ويأْطُر نفسه على اقتفاء مرادات الرب سبحانه؛ حتى لا يشهد نفسه البتة، فتنقاد له النفس بعد مجاهدتها انقياد الخيل لسائس خبير، وينتقل من المجاهدة إلى المشاهدة؛ فيحصل له من اللذة النفسية بعد أن سكنت نفسه إلى الطاعة وانقادت إلى المراد أضعاف أضعاف ما كان يبذله في مجاهدتها؛ نسأل الله من فضله.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾، شبه أولئك المنفقين ونفقاتهم بجنة بربوة، والجَنَّةُ: الْبُسْتَانُ، وَهِيَ: أَرْضٌ تَنْبُتُ فِيهَا الْأَشْجَارُ حَتَّى تُغَطِّيَهَا، مَأْخُوذَةٌ مِنْ لَفْظِ الْجِنِّ وَالْجَنِينِ لِاسْتِتَارِهَا، والرَّبْوَةُ: الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ ارْتِفَاعًا يَسِيرًا[509]، وهو مظنة أن تكون الأرض أخصب وأعرض للمطر وألطف في الريح: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر كثير ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها ونبتها، إذ الأُكل: ما يؤكل، ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ عما تؤتيه غيرُها من الجِنان؛ وذلك لخصوبة أرضها واستعدادها وملاءمتها للزرع، والوابل هنا: العمل الكثير، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، وإيتاؤها ثمرها حاصل حتى إن لم يأتها الكثير من المطر، بل الطل؛ وهو الندى واللّيِّن من المطر[510]؛ كافٍ في إنباتها الحسن وإيتائها الأكل الطيب.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من العمل الصالح والإنفاق في سبيله ﴿بَصِيرٌ﴾ فيثيبكم ويجزيكم عليها ما تفرحون به وتحمدون الله عليه.

---

(٥٠٩) انظر: فتح القدير، ١/ ٣٢٨.

(٥١٠) تفسير الطبري، ٥/ ٥٣٩.



❁ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

هذا المثل هنا كالفذلكة للمثلين السابقين، إذ الأول منهما للتمثيل على عدم انتفاع الكافر والمرائي بعمله، والثاني للتمثيل على عظيم الأجر على العمل الكثير والقليل إذا كان القلب مؤمناً مخلصاً، ثم جاءت هذه الآية لتؤكد المعنى في المثلَين؛ بالتوجه إليهم بالخطاب: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾، وهذا الخطاب كما ترى أبلغ في تحريك السامع وهزِّه إلى أن يقيم نفسَه في الموقف المتصَوَّر، والهمزة للإنكار؛ فإنه لا أحد يودُّ لو كان كذلك: ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ عظيمة الخضرة كثيرة الثمر، ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، فهي على الغاية من الروعة والجمال والتكامل، وفي الزمخشري:

"فإن قلت: كيف قال: ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ثم قال: ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، قلت: النخيل والأعناب لمّا كانا أكرم الشجر وأكثرَها منافع خصَّهما بالذكر، وجعلَ الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات.

ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ {الكهف ﴿٣٤﴾} بعد قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ﴾"[511] {الكهف ﴿٣٢﴾}.

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾، الواو واو الحال، فاشتدت حاجته إليه، ولا أحد من أولاده يعضده في كبره لضعفهم: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾؛ فصارت حاجته إليها مضاعفة؛ إذ أحاط به الضَّعف، ولا مُعِين! فحلّ وقت انتفاعه بها الأشد!

(٥١١) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٤.



فبينما هو كذلك: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ شديد ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ محرقة ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ وتركها أثراً بعد عين!

إنها هلكت في الوقت الذي كان يأمل فيه أن يتكئَ عليها في زمن حاجته إليها، أمَا وقد احترقت؛ فلا قوة فيه لاستئناف تجربة جديدة ولا إصلاح ما احترق، ولا ذرية يمكن أن تعينه على شيء من ذلك!

فهذا مثل مَن أنفق النفقة وعمل العمل في الدنيا، حتى إذا جاءت القيامة، وكان أحوج ما يكون إلى نَتاج عمله، ولا فرصة ثمة لعملٍ جديد: احترق عمله بنار الرياء والمن والأذى وغيره من المبطلات، ففقَده في أشد ما يكون حاجة إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعوذ به من الخذلان!

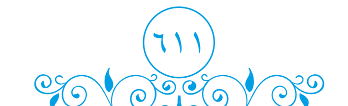
﴿كَذَلِكَ﴾ بمثل هذه الأمثال العميقة المفهمة ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها؛ فتنكشف عن بصائركم الحُجُب.

وأرى في تذييل هذه الآية حثّاً على التفكُّر في أمثال القرآن لِمَا فيها من العلم وتقريب المعاني وتصويرها بالمُشاهَد من الصور، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ {العنكبوت}.

✧ ﴿يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

بعد أن أوضحَ ببليغ الأمثال ما يرغِّب في الإنفاق، ويحذِّر بإبطال أجره بالمبطلات انتقل إلى الأمر ببيان ما ينبغي أن ينفقوا منه: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، والجيّد من الرزق؛ كما سيدلُّ عليه ما يأتي بعد قليل من الآية، ويدخل فيه المباح منه.

والكسب: ما يتملك به العبد من الأموال، وقد بينا أن المشترط فيه: الكسب المباح؛ فيدخل فيه: التجارة والإرث والهبة والصدقة وغير ذلك من الوجوه المباحة التي يُتكسَّب بها المال، وهذا الصنف الأول من المال المأمور بالإنفاق منه.



أما النوع الثاني؛ ففي قوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾، وهو ما كان ناتجاً من الأرض؛ من الزرع والركاز والكنوز وغيرها من المال المتقوم، وإنما عبّر بالإخراج لأنه أعمّ من الإنبات؛ فإنه لو قال: ومما أنبتنا؛ لاقتصرت الدلالة على الزرع دون غيره، في حين أن "الإخراج" يعمُّ الزرع وغيره مما يُستخرَجُ من الأرض كما أسلفنا.

ولم يُدخله في دائرة الكسب، بل عطفه عليه؛ وإن كان للعبد فيه نوع عمل، لأن عمله فيه لا يُذكر بجانب عمل الله فيه، ولهذا المعنى أسند الفعل: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ إليه، وماذا يفعل الزراع في النبت إلا إلقاء البذور والسقي وما إلى ذلك، ويبقى الإنبات على الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ {الواقعة}!

واختلف في دلالة الآية على الزكاة الواجبة، وهو قريب، أو عليها وعلى النفل من الإنفاق، وهو كذلك قريب[٥١٢].

ونهى سبحانه عن أن يعمِد الْمُنفق إلى رديء الأموال ليتصدَّق بها، فإن الله تعالى "طيِّب لا يقبل إلا طيبا"[٥١٣]: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ يعني تقصدوا، والتيمم: القصد، ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، الخبيث هنا بمعنى الرديء؛ بدلالة السياق، وإن كان قد يأتي في القرآن بمعنى المحرم، كقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ {النساء}، و"منه": جار ومجرور متعلقان بـ "الخبيث"، والمعنى: ولا تيمموا الخبيث من أموالكم، أو متعلق بـ "تنفقون"، والمعنى: ولا تيمموا الخبيث تنفقون منه، وكلا المعنيين وارد وصحيح، ولا مانع من إرادتهما.

وقوله: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ أي بآخذي هذا المال الرديء الذي تنفقون منه للصدقة: ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بيان على طريقة التمثيل، ووجهه: أن يضع المنفق نفسه في محل الآخذ لا المعطي، والإغماض: كالتغاضي، وهو مستعار من إغماض العين تغاضياً عن أخذ شيء ما خجلاً من رده[٥١٤]، والمعنى: أنكم لو كنتم أنتم من يقدّم له مثل هذا المال

---

(٥١٢) انظر: تفسير الرازي، ٧/ ٥٢.

(٥١٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ج٢/ ص٧٠٣/ ١٠١٥).

(٥١٤) البحر المحيط، ١/ ٢٢٠.





الرديء لما أخذتموه إلا في حالة أن تتغاضوا عن رداءته؛ فتأخذونه خجلاً من رده!

لمسة تربوية

وهذا المسلك الذي تشير إليه الآيات تعرفه وتفهمه القلوب المؤمنة؛ قلوب الذين لا يتخذون ما ينفقون مغرماً، ولا يجدون في العبادات ثقلاً على أنفسهم، بل يُعطُون وأنفسهم منشرحة راضية راغبة، ويتعبدون وقلوبهم قد وجدت محبوبها، وعيونهم قد قرت بقربه وطاعته.

إن لم يكن العبد على هذه الهيئة مع الله فيما أمر؛ فليعلم أن عليه المجاهدةَ للوصول لعله يصل، وليسألِ الله الوصل؛ فإنه من وصله الله لم ينقطع، وليخطط للوصول إلى هذه الغاية العالية؛ التي وجدها عباد الله المصطفَون: "وجعلت قرة عيني بالصلاة"[٥١٥]؛ كما في الحديث، وإنها "للذة، لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"؛ كما جاء عن مالك بن دينار.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم؛ لا حاجة به إليها سبحانه وله الحمد، ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود على ما اتصف به، محمود على نعمه الجزيلة وآلائه الجليلة، أو أنه يَحمَد للمنفق ما أنفقه، ويأجره عليه.

۞ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

بيّن هنا ما قد يمنع العبد من الإنفاق الحسن، وما يحمله على إنفاق الخبيث من أمواله ويُزيِّن ذلك له: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، فتُمسكون خشية الإنفاق، أو تنفقون الخبيث من الأموال حذراً من يوم تحتاجونها فيه؛ ويعظِّم من خطر إنفاقكم حتى يجعل الفقر مسبَّباً عن هذه

(٥١٥) أخرجه النسائي في سننه (ج٧/ ص٦١/ ح٣٩٣٩) وقال الألباني: صحيح.



النفقة، وهذا مُشاهد ملوس؛ ترى أحدَنا ينفق على الكماليات وكماليّاتها المبالغ الكبيرة، لكنه إن سئل صدقة؛ ضاق صدره، وصار فقره بين عينيه!

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ الفحشاء هي الْبُخْلُ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ؛ أَي: وَيُغْرِيكُمْ عَلَى الْبُخْلِ إِغْرَاءَ الْآمِرِ لِلْمَأْمُورِ، والمستفحَش في لغة العرب: ما يُستعظم من المعاني والأعيان غير المرغوبة، وإنما جعلنا الفحشاء هنا بمعنى البخل لدلالة السياق.

وقَدْ نَبَّهَ الله تعالى في هذه الْآيَةِ على لطيفةٍ وهي أَنَّ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُهُ أَوَّلًا بالفقرِ ثمَّ يَتَوَصَّلُ بِهَذَا التَّخْوِيفِ إِلَى أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْفَحْشَاءِ وَيُغْرِيَهُ بِالْبُخْلِ، وذلك لأَنَّ البُخلَ صفَةٌ مَذْمُومَةٌ عند كُلِّ أَحَدٍ فَالشَّيْطَانُ لَا يُمْكِنُهُ تَحْسِينُ الْبُخْلِ فِي عَيْنِهِ إِلَّا بِتَقْدِيمِ تِلْكَ الْمُقَدِّمَةِ، وَهِيَ التَّخْوِيفُ مِنَ الْفَقْرِ[٥١٦].

وهذا داعي الشيطان في نفس ابن آدم، أما داعي الرحمن: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ في مقابل الفحشاء التي يأمركم بها الشيطان، ﴿وَفَضْلًا﴾ من الرزق وسعة في مقابل وعده لكم بالفقر.

ويصير المؤمن بين الوعدين؛ وعد الرحمن ووعد الشيطان؛ ولْينظر أيها أوثق في نفسه؟! وأُكِّد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يرزقكم ولا ينقص ذلك من ملكه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل نفس وما اختارته من الوعدين.

❖ ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

لَمّا أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم؛ وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ الله عليه وآتاه الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، و"الحكمة" مأخوذة من "الحُكْم" وفصلِ القضاء، وهي: إصابة ما دلَّ على صحته[٥١٧]، ولذلك صارت الحكمة في كلامهم: العمل الصالح بالعلم النافع

---

(٥١٦) تفسير الرازي، ٧/ ٥٧٦.

(٥١٧) تفسير الطبري، ٧/ ٥٧٦



لمسة تربوية

وعند الزمخشري:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾: يوفّق للعلم والعمل به، والحكيم عند الله: هو العالم العامل[518].

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا﴾، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما؟!

و﴿خَيْرًا﴾ نكرة، والتنكيرُ فيه للتعظيم، كأنه قال: فقد أوتي خيراً وأيّ خير كثير أوتيَه هذا السعيد، إنه خير لا يُقادر قدره ولا يُتصوّر بالكلمات!

والمراد به الحثّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق[519].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتذكر، وأدغمت التاء بالذال تخفيفاً، وهو كثير في القرآن، ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أما غير أولي العقول من فاقديها؛ فلا ينتفعون بجودة البيان ولا بالوعظ والتمثيل والتصريف.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

بعد أن أمرهم بالإنفاق طمأنهم بأن إنفاقهم هذا تحت عين الله، وأنه سبحانه يعلمه، وما دام الأمر كذلك فإن الذي يترتب عليه أن يُثيبهم عليه، ويُخلفَهم خيراً.

و "مِن" في قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ و﴿مِّن نَّذْرٍ﴾، وإن كانت صلة عند النحاة فإنها لتأكيد علمه سبحانه بأي نفقة ينفقونها أو نذر ينذرونه على الإطلاق؛ حتى لا يفوت منها شيء.

---

(٥١٨) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٦.

(٥١٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٦.



ومجرد استحضار هذا الخاطر لدى المنفق يدفعه إلى الإقبال منشرحاً عليها؛ إذ يؤمل فيما عند الله، ويبذل مستحضراً مراقبة الله ليده الباذلة وقلبه المقبل!

وذِكرُ النذر هنا من باب أنه نفقة يُلزم بها المرء نفسه، وفي المحرر الوجيز: "كانت النَّذر من سيرة العرب تكثر منها، فذكر تعالى النوعين؛ ما يفعله المرء متبرِّعاً، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه"[520].

أما قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ فوعيدٌ على ترك الإنفاق، أو على إرادة غير الله تعالى به، أو على إتباعه بالمنّ والأذى، وهذا ما يوحيه السياق، والله أعلم.

❖ ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

هذه الصدقات التي رُغِّب بها بُيِّن هنا الحكم في طريقة إخراجها؛ أتُخفَى أو تُبْدَا؟

وقد جاءت الآية ببيان أن كلا الوجهين جائزٌ؛ مع تفضيل الإسرار: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وإنما فُضِّل الإخفاء لما أنه مظنة تجنب أمرين خطيرين سبق التحذير منهما والنهي عنهما: المن والأذى، والرياء، فالإسرار أرفق بقلب الفقير، وأقرب إلى الإخلاص.

أما إذا اقترن الإبداء بهما فتحريمه هو الوجه ولا شك.

واختلف: هل المقصود بالآية الزكاة المفروضة أو صدقة التطوع؟

مع التنبه إلى أن الصدقة تطلَق عليهما جميعاً في الاستعمال القرآني، "قوْلُ الأكثرين: أنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ، قَالُوا: لِأَنَّ الْإِخْفَاءَ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ أَفْضَلُ، وَالْإِظْهَارَ فِي الزَّكَاةِ أَفْضَل"[521].

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾، التَّكفيرُ في اللُّغةِ التَّغطِيَةُ والسَّتْر، ورجُلٌ مُكَفَّرٌ في السِّلَاحِ مُغطّى فيه، ومنهُ يقالُ: كفَّرَ عنْ يمينه، أي سَتَرَ ذَنْبَ الْحِنثِ بِمَا بَذَلَ مِنَ

---

(٥٢٠) المحرر الوجيز، ١/ ٣٦٥.

(٥٢١) تفسير الرازي، ٧/ ٦٢.



الصَّدَقةِ، والكفَّارةُ سِتَارَةٌ لِمَا حصل مِن الذَّنْبِ[522]، فهذا وعد من الله بالستر والتجاوز عن السيئات، فدلّ على أن من أهم المكفرات: الصدقات، وأنها تغسل الذنب، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على ذلك، ومنها: "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار"[523].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيكافئ كلاً بعمله ومقصوده معاً، وأنت ترى أن السياق هنا عن العمل؛ وهو الإنفاق، وعن النية المصاحبة له، وهذا العمل المركب من الظاهر والباطن يستلزم الخبرة ولذا ختم بها، والله أعلم.

❁ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

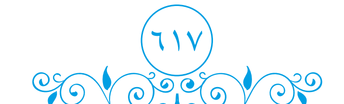
قد بيّن في الآيات السابقة أجر الصدقة في سبيل الله، وبيّن أن الإنعام الكامل في أن يؤتي الله العبد الحكمة؛ فيوفقه للعمل بالعلم، ويهديه لسبل الطاعات ويفتحها له، والتعبير بـ "يؤت"، و"أوتي" في قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يشير إلى هذا المعنى، ثم لما كان هذا محضَ تفضلٍ وتوفيقٍ خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هدايتهم بأكثر من البيان، أما الهداية بمعنى التوفيق إلى العمل بما جاءهم فهذه ليست عليك، ولا يسألك الله تعالى عنها؛ إذ هي في مشيئة الله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ إلى سبل طاعته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ {العنكبوت}، وأمثال هذه المعنى في القرآن كثير، نسأل الله من فضله.

---

(٥٢٢) تفسير الرازي، ٧/ ٦٤.

(٥٢٣) أخرجه الترمذي في سننه (ج٢/ ص٥١٢/ ح٦١٤) وقال الألباني: صحيح.





ثم حثهم على الإنفاق ببيان أن أحداً لا ينتفع من إنفاقهم إلا هم أنفسهم: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، حتى آخِذُ الصدقة؛ وإن كان ينتفع بها فمنفعته الزائلة بها لا تعدُّ منفعة إذا وُضعت بجانب المنفعة التي تحصل للمنفق، وفي آية أخرى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ {المزمل ٢٠}!

ولا بد من مراعاة كون هذه النفقة التي وُعِدتمُ الأجر عليها هي ما كان ابتغاء وجه الله، فإن لم تكن كذلك فكأنكم ما أنفقتم أصلاً: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾، وهذا معنى بديع! نفى حصول النفقة أصلاً إن لم تكن ابتغاء وجه الله، فكأنه يقول لهم: لا تنتظروا لها أجراً، لأنكم في عداد غير المنفقين!

أو نقول:

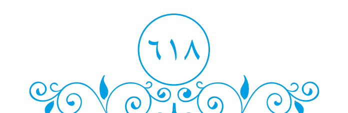
الخبر بمعنى النهي / تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء

إن قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: خبر بمعنى النهي، أي: لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، وإياكم والرياء، وقد عرفتَ أن هذا الأسلوب سائر في القرآن: أن يُعبَّر بالقالب الخبري عن معنىً إنشائي؛ من الأمر أو النهي.

وفائدة إقحام الوجه في قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أنك إذا قلت: فعلته لوجه زيد كان أشرف من قولك فعلته له، لأن وجه الشيء أشرف ما فيه، ثم كثر حتى عبر به عن الشرف مطلقاً.

وأيضا قول القائل: «فعلت هذا الفعل له» احتمل الشركة وأن يكون قد فعله لأجله ولغيره، أما إذا قال «فعلت لوجهه» فلا يحتمل الشركة عرفاً[٥٢٤].

(٥٢٤) تفسير النيسابوري؛ غرائب القرآن، ٢/ ٥٣.





وعاد بتذكيرهم بأن أي نفقة ينفقونها فإنها ستعود إليهم وسيوفيهم الله تعالى ما أنفقوه لوجهه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، وقد سبق تشبيهُ الإنفاقِ في سبيل الله بإقراضه تعالى وعز: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، ومن يقرضِ الله فهو الرابح الذي لا يخشى الفوات!

التضمين

وتعدية التوفية بـ "إلى"؛ مع أن فعل التوفية يتعدى بنفسه، نقول: وفَّيته ماله، ولا أقول: وفيت إليه؛ لتضمين التوفية معنى التأدية، فهي وافية في المقدار مُؤَدَّاةٌ إلى صاحبها؛ وإنما حسُن ذلك لأنه يمكن أن يُتَصَوَّر أن تكون وافيةً لكن لا تؤدَّى كلُّها إلى صاحبها، أو تؤدَّى إلى صاحبها لكنها ليست وافية، فلما جمع الفعلين على نهج التضمين جمع المعنيين معاً.

❖ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

هذه الآيات بيان لمصارف الصدقات بعد بيان جوانب أخرى متعددة تتعلق بها في الآيات السابقة، وعليه فقد قالوا: قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ جار ومجرور، والجار والمجرور شبه جملة، ولذا لا بد من متعلّق يتعلقان به لإفادة معنى مفيد، واختَلَفُوا في المُتعلَّق بالجار والمجرور، وقد ذكر صاحبُ الدر المصون فيه خمسة وجوه[٥٢٥]؛ لكني لا أطوِّل البحث بذكر وجوه بعضها محض تكلف؛ فأقول:

❖ شبه الجملة متعلق بفعل محذوف مناسب للسياق، تقديره: أدوها- أي الصدقات- للفقراء، أو بمبتدأ محذوف، والتقدير: الصدقات للفقراء، والسياق كله في الصدقات من قبل.

(٥٢٥) انظر: الدر المصون للسمين الحلبي، ٢/ ٦١٥، واللباب في علوم الكتاب، ٤/ ٤٣٣.

✥ ويجوز أن يكون متعلقاً بما ذكر في الآية السابقة، من مثل قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فيكون التقدير: وما تنفقوا من خير للفقراء الذين أُحصروا .. يوفَّ إليكم، والله أعلم بالصواب.

وأصلُ الفقيرِ: هو المكسور الفَقار، يقال: فَقَرَتْه الفاقرةُ، أي: الداهية تكسِر الفَقار[526].

وقوله: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ الإحصار: المنع، وقد سبق في قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ في آية الأمر بإتمام الحج والعمرة، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون السفر فيها والتحرك لطلب الرزق بسبب إحصارهم، ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بأحوالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ﴾ بسبب[527] ﴿التَّعَفُّفِ﴾ عن إظهار فقرهم وعوزهم وحاجتهم.

وإذا ما سأل سائل عن كيفية معرفتهم وهم يتعففون عن سؤال الناس وإظهار الفقر أُجيب بـ: ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أيها الناظر الفطن ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ التي يبدو منها الكد والحاجة.

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾: ثناء عليهم؛ فإنهم رغم حاجتهم إلى المال يترفعون عن السؤال ويأنفون من إراقة ماء الوجوه على الأبواب، واختلف: هل النفيُ منصبٌّ على سؤالهم الناس؛ فهم لا يسألون أصلاً، أم منصبٌّ على الإلحاف؛ بحيث إنهم يسألون ولكن من غير إلحاف؟

والذي يَستلزمه السياق ومقام المدح وبيان التعفُّف: أن النفي منصبٌّ على سؤالهم؛ فهم لا يسألون الناس أصلاً لا بإلحاف ولا بغيره[528]!

والمقصود: بيان أهم من يستحق الصدقات؛ وهؤلاء: الذين منعوا وحوصروا في سبيل الله: مُنعوا من أعمالهم وأخرجوا من بلدانهم، والمقصودون قصداً أولياً: المهاجرون،

---

(٥٢٦) المفردات، ٦٤٢.

(٥٢٧) انظر: الدر المصون، ٢/ ٦١٦، وذكر وجهين آخرين، والصحيح هو الذي اخترته هنا، ولم أر تطويل المباحث بالوجوه الضعيفة.

(٥٢٨) هذا ما رجحه النسفي مثلا في تفسير الآية، انظر: تفسير النسفي، ١/ ٢٢١.





تنزيل واقعي

ويلحق بهم كل من كان محصوراً في سبيل الله، ومن صور دلالات الآية في زماننا : أولئك الذي حوصروا في فلسطين وضُيِّقَت عليهم سبل العيش؛ وخصوصاً في غزة العزة والجهاد، ولو قدموا شيئاً من التنازلات عن دينهم وعن مقدسات المسلمين لفتحت عليهم الدنيا، وكذلك في القدس؛ التي يعمل الاحتلال على تهويدها وطرد ما تبقى من أهلها منها بالتضييق عليهم، وفرض الضرائب الباهظة والتمييز والاعتقال ومصادرة العقارات؛ وتُعرض المبالغ الهائلة على الواحد منهم مقابل بَيْع بيته للمحتل والخروج خارج القدس، فأمثال هؤلاء من "الذين أحصروا في سبيل الله"[٥٢٩]، هم الذين ينبغي أن تكون لهم الأولوية في إنفاق الصدقات؛ لتثبيتهم وضمان صمودهم على الثغر.

وهذه أمثلة؛ والمستَحقُّون في هذا الزمان ممن تنطبق عليهم الآية كثير.

المجاز المرسل / علم البيان

وختمت الآية بالترغيب والتأكيد على ما مضى ذكره من الوعد الكريم بالإثابة: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، وتسمية المال المنفَق منه : خيراً في هذا الموضع وفيما مضى من المواضع لاعتبار أنه يُنفَقُ في وجوه الخير ويتسبَّبُ به، وهذا على طريقة المجاز المرسل؛ وعلاقته المسبَّبية؛ عبر بالمسبَّب وأراد السبب، أو شيء قريب من هذا.

❖ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

حذف المبتدأ / الحذف

عود إلى الثناء على المنفقين والوصف لهم باللائق من الصفات السامية، و﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ الأظهر في إعرابها: أنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير:

---

(٥٢٩) أكتب هذه الكلمات وكلي أمل أن يقرأها قريباً مسلمون وطلبة علم وقد فرج الله كرب المسجد الأقصى والقدس وفلسطين، وكرب سوريا واليمن والعراق وليبيا ومصر كشمير، وإلى الله المشتكى.



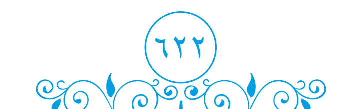


هم الذين..، وهذا الأسلوب من حذف المبتدأ في مثل هذه السياقات للمدح، كما في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ {البقرة ١٢١}، وكما في آيات كثيرة، أو أنها منصوبة على المدح والاختصاص بفعل محذوف تقديره: أخصُّ، وهذا مبحث ذائع الصيت عند النحويين.

والتعبير بالمضارع لإفادة التجدد والحدوث، وقوّى هذا المعنى وأثراه قوله: ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، ليدل على أنهم يَعمُّون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجَّلوا قضاءها ولم يؤخِّروه ولم يتعلَّلوا بوقت ولا حال[٥٣٠]، ولا يُفتح لهم فيها باب إلا دخلوه، ولا سنحت لهم فرصة إلا اقتنصوها بقلوبٍ مقبلة راغبة.

والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ للإشعار بمعنى الشرط في أول الجملة، فإن الفاء إنما تقع في جواب الشرط، كأنه قال: إن ينفقوا فلهم أجرهم، فالمراد الإشعار بالارتباط بين النفقة وبين انتفاء الخوف والحزن بما يُشبه الشرط وجوابه، والله أعلم.

(٥٣٠) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٩، وتفسير النسفي، ١/ ٢٢٣.





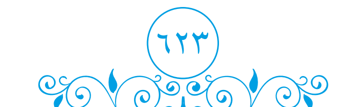
المقطع السادس والثلاثون

النهي عن الربا، وبيان خطره

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة].

التمهيد والمناسبة

لمّا كان الكلام في المقطع السابق الطويل عن الصدقات؛ وهي بذلُ المال من غير مقابل دنيوي؛ انتقل إلى ذكْر ما هو على الضد من ذلك؛ وهو الربا؛ الذي هو بذل المال في مقابل الحصول على مزيد منه استغلالاً لحاجات الناس، وإشباعاً لنهم تحصيله من أي طريق كان!



التقعيد الفكري

والكلام في المقطعين في إنضاج النظام الاقتصادي من جهتين:

- إذكاء الجانب الخيري، وتحفيزُ تداول المال والوصول إلى الكفاية في المجتمع، هذا من جهة.
- وإطفاء نار التوحُّش المالي، والجشع الرأسمالي، وتكسير أنياب المادية الشرسة، وما أحوجنا إلى غرس قيم هذه النصوص القرآنية في هذا العالم المعاصر؛ الذي يَفتقد الثقافة الأخلاقية بالقدر الذي تنتشر فيه قيم الحضارة الغربية المادية!

جاء الإسلام لينشئ عالَمًا آخر؛ ليس كالعالَمِ الذي تراه عينك أيها القارئ الذي كَتَبَ الله له أن يعيش في هذا الزمان، عالَمًا يمدُّ الغنيُّ فيه يدَ العون إلى الفقير على طريقة: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ {الإنسان}! وعالَمًا لا يأكل الكبير الصغار! ولا القويُّ الضعفاء! فما أحوجنا إلى ذلك العالَمَ وقد غزتنا المادية في عقور العقول!

أما بالنسبة إلى النظام الاقتصادي العام؛ فما يزال الواقع الاقتصادي وتحليلات خبرائه تؤكد اليوم تلو الآخر خطورة الربا على صناعة الاختناقات الاقتصادية، وقد عشنا قبل ما يزيد على عقد ونعيش في هذه الأيام[٥٣١] جوائح اقتصادية لا يحلها إلا هبوط الربا؛ الذي يسمونه: "سعر الفائدة" إلى ما يقرب من الصفر، وهذا والله من إعجاز هذا القرآن التشريعي، ومن آيات الله التي يمد بها مسلمي هذا الزمن الصعب.

---

(٥٣١) أكتب هذه الكلمات أثناء مراجعتي لنص الكتاب في ليلة الحادي عشر من رمضان من عام ١٤٤١هـ؛ في أواخر النصف الأول من عام ٢٠٢٠، الذي ابتلينا فيه بوباء الكورونا، نسأل الله الفرج ورفع البلاء.





التفسير

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾.

حذف المبتدأ / الحذف

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ؛ والتقدير: هم الذين يأكلون، وحذف المبتدأ في مثل هذه المواضع للذم، كما ورد عكسه في الآيات السابقة، والسياق هو القرينة الدالة على إرادة المدح أو الذم من حذف المبتدأ، أو يقال: منصوب على الذم؛ بفعل محذوف، وهذا كما ترى على العكس تماما مما ورد في الموضع السابق.

التعبير بالفعل المضارع / استحضار الصورة

والتعبير بالمضارع في ﴿يَأْكُلُونَ﴾ لإفادة التجدد من جهة، ومن جهة أخرى هي أوضح وأليق: لاستحضار الصورة، خصوصاً إذا ما تأملت سرَّ التعبير عن أخذ الربا بأكله، وما أقبح هذه الصورة! صورة أولئك الذين "يأكلون" الربا بنهم وشراهة.

واستحضار الصورة المستفاد من استعمال المضارع؛ إنما هو من حيث إن المضارع وضع أصلاً للتعبير عما يحدث الآن من الأفعال، فاستعماله هنا يستجلب صورة الآكل للربا؛ وكأنك تنظر اللحظة إليه وهو على مائدة الطمع يأكل أعمار الناس وآمالهم بالربا الذي فرضه عليهم يستغل به حاجتهم!

الرِّبا هو الزيادة وهو مأخوذ من ربا يربو؛ إذا نما وزاد على ما كان، وغالبه ما كانت العرب تفعله من قولها للمدين: أتقضي أم تربي؟ فكان المدين يزيد في عدد المال، ويصبر الطالب عليه، ومن الربا البين: التفاضل في

النوع الواحد لأنها زيادة، وكذلك أكثر البيوع الممنوعة إنما تجد منعها لمعنى زيادة إما في عين مال، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه[٥٣٢].

وقوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ اختلف في تفسيرها، ومعناها على ما نختار[٥٣٣]:

ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وابن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدي وابن زيد: لا يَقُومُونَ من قبورهم في البعث يوم القيامة، قالوا كلهم: يُبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود «لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم».

قال ابن عطية رحمه الله: وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيهَ حالِ القائمِ بحرصٍ وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزُّه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه، مخلط في هيئة حركاته، إما من فزع أو غيره: قد جن هذا، لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.

والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء، والمس: الجنون.

وقد استدلّ بالآية على مسألة تلبس الشيطان للإنسان، أنكر ذلك الزمخشري كعادته في مثل هذه المسائل، والآية على أي حال بمعزل عن الاستدلال بها في هذه المسألة على ما أرى، ولا داعي لبسط المسألة ههنا، ولها مظان؛ فليُرجَع إليها.

وعلّل حالَهم الرديئة هذه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، وردّوا على الشريعة تفريقها بينهما، وقابلوا النص القرآني بالقياس الفاسد؛ إذ النص يحرم الربا وهم يقولون: أباحت الشريعة البيع، ولا فرق بين البيع والربا؛ فيقتضي ذلك الإباحة!

---

(٥٣٢) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٣٧٢.

(٥٣٣) بتلخيص من المحرر الوجيز، ١/ ٣٢٧.





وما أشبه هذا بحال أقوام ينتسبون إلى الإسلام؛ ملأت عقولهم قمامة أفكار الغرب والشرق؛ ففاضت ألسنتهم بما أخبر الله أن مثله سيخرج من أفواه الذين لا يوقنون!

وفي الكشاف:

"فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع؟ لأنّ الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلا وقانوناً في الحِل حتى شبهوا به البيع"[٥٣٤].

قِس هذا المعنى الذي ذكره صاحب الكشاف بما تراه اليوم من قيام النظام الاقتصادي العالمي على الربا، واعتباره الأصل في التعاملات بين الناس وبين الدول، حتى بات الكلام عن إحلال نظام آخر ضرباً من الجنون غير المقبول!

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة على أنّ القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم تحليل الله وتحريمه.

﴿فَمَن جَاءَهُ﴾ بهذا الكلام الصريح ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ يتعظ بها ويقف عند حدها ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ الذي يملكه ويملك أن يأمره وينهاه ﴿فَانتَهَىٰ﴾ عن التسوية بين البيع والربا، ووقف عند حد الله تعالى فيه، وألجم داعي الهوى في نفسه: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ لا يُطالب به ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ ولعله يغفر له.

وهو يغفر له إن شاء الله؛ إلا أن هذا الأسلوب في ترك القطع بالمغفرة: لتعليق القلوب بالله، ورفع مستوى الشفافية الإيمانية في التحسس من الذنب، وقطع أطماع الذين لا ينتهون في المغفرة والعفو!

---

(٥٣٤) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٢١.



﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى ذلك القول القبيح وردّ أمر الشريعة بمقتضى الهوى ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الأباعد؛ واسم الإشارة للبعيد للإشارة إلى بعدهم في الضلال وتردّيهم في الدركات؛ بحيث صار يُشار إليهم باسم الإشارة للبعيد، ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جزاء ردّهم على الله قوله، وإبطالهم لقطعيات الشريعة ومحكماتها.

❖ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

ثم علّل الله لهم ذلك التحريم للربا، وبغّضه إليهم، وبيّن أنه كما أنه لا خير فيه في الدين؛ فإنه لا خير فيه في الدنيا، وقد جاءت الآية كالفذلكة والتلخيص للمقطعين الأخيرين: المقطع الذي يأمر فيه بالصدقات، والمقطع الذي ينهى فيه عن الربا.

ومعنى: ﴿يَمْحَقُ﴾: يُنقص ويُذهب، ومنه: محاق القمر وهو انتقاصه، ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾: ينمّيها ويزيد ثوابَها ويضاعفها كما وعد، تقول: ربت الصدقة وأرباها الله تعالى ورباها، وذلك هو "التضعيف لمن يشاء"، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيربيها له كما يربي أحدكم فصيله، أو فلوه، حتى يجيء يوم القيامة وإن اللقمة لعلى قدر أُحُد»[٥٣٥].

قال القاضي أبو محمد ابن عطية في التعليق على الآية: وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم، يظن الربا يغنيه وهو في الحقيقة مُمحق، ويظنُّ الصدقة تُفقِرُه، وهي نماء في الدنيا والآخرة"[٥٣٦].

وختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ تهديد رعيب، ودلالة واضحة على مذهب المستحلين للربا في العقيدة: ﴿كَفَّارٍ﴾؛ على وزنِ المبالغة، ذلك الذي يعاند الشريعة ويخطئها لصالح هواه، و﴿أَثِيمٍ﴾ في السلوك لا يرعوي عن تحصيل المال بـأي

---

(٥٣٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ج٢/ ص٧٠٢/ ح١٠١٤).

(٥٣٦) المحرر الوجيز، ١/ ٣٧٣، لهذا الكلام الأخير، وانظره لما قبل ذلك في تفسير كلمات الآية.





طريقة غير ملتفت إلى أحكام الشريعة وقيودها؛ التي تعود على حياة البشر أولاً بالانتظام.

التنزيل الواقعي

أما التجلّي الواقعي للآية فيما نشاهده اليوم في الأرض ؛ فأمرٌ يزيد الإيمان بمصدرية هذا القرآن، ويرفع مستوى اليقين بالشريعة وصلاحية أحكامها، والثقة بوعد الله ووعيده: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾، إذ تُظلُّ العالمَ بين الحين والآخر نُذُر انهيار محتّم للنظام الاقتصادي العالمي؛ القائم على الربا، ثم لا يجد الخبراء وسيلة إلى التخفيف من مدِّ الأزمات والاختناقات الاقتصادية إلا بما يسمونه: "تخفيض سعر الفائدة" لتصير صفراً أو قريباً من الصفر، ويصرِّحون بأن الحلَّ هو تصفير الفائدة! وقد أنزل الله تعالى إليهم من قبل: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾، وهذه صورة من صور محقِهِ الدنيوية، وما في الآخرة أعتى وأعظم!

❖ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

ذَكر المؤمنين الوقافين عند الحدود، القائمين بأمر الشريعة، المصطبغين بها؛ فهم مواظبون على العبادة البدنية وعلى العبادة المالية: الصلاة والزكاة، وهما مقترنان غالباً في القرآن الكريم، وهذا في مقابل مَن ذُكروا مِن قبلُ من المتحلّلين من قيود الشريعة في التصور وفي السلوك.

عطف العام على الخاص / الفصل والوصل

وعطفُ العمل الصالح على الإيمان من باب عطف الخاص على العام، فالعمل الصالح من الإيمان في الاصطلاح الشرعي للإيمان، تخصيصه بالذكر للتنبيه عليه، والإشارة إلى أنه مؤشر أدائه وقوته.

وكذلك كلٌّ من الصلاة والزكاة يدخلان في العمل الصالح، لكنهما عُطفا عليه من باب عطف الخاص على العام، وإنما عُطفا عليه للإيذان بأهميتهما ومركزيَّتهما من بين سائر الأعمال، وذِكر إيتاء الزكاة شديد الاتصال كما ترى بالسياق.

❊ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

جاء النهي هنا صريحاً مباشراً عن الربا بعد الإيعاد عليه، على أنه قد فُهم التحريم مما سبق بلا شبهة: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، لكن التصريح هنا لتأكيد النهي عنه والتغليظ في تحريمه، ثم الخطابُ أبلغ في النفس وآكد في حملها عن الانتهاء والكف عن تعاطي الربا.

وناداهم بعنوان الإيمان تذكيراً بالمقتضى من الإيمان، وحملاً على الامتثال لما في حيِّز النداء من الكف عن الربا بربط ذلك بالإيمان.

وقدّم بالأمر بالتقوى وعطف عليها النهي عنه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ تمهيداً للنهي عنه، وتضميناً للانتهاء عنه في مفهوم التقوى المأمور بها كثيراً في القرآن وفي هذه السورة على سبيل التحديد.

وقد سبق تعاهدُ التقوى في السورة وبيانُ آثارِها وكيفيات تنميتِها في قلوب المؤمنين، والربطُ بها كذلك عند كل أمر ونهي وتشريع، فلا جرم أن التذكير بها هنا في آخر السورة- بل وفي أواخر ما نزل من القرآن كما سترى- له وقعٌ خاص.

وقوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي في أيديكم مما تعاطيتموه من قبل نزول هذه الآية، وقد قيل: إن فيها إشارة إلى قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران ١٣٠]، فنهى عن تعاطي الربا المضاعف، وأمر في آية البقرة هذه بترك ما بقي منه، والأول أولى، والله أعلم.

وأكّد الأمر بترك الربا وعمّق الربط بين ذلك وبين الإيمان؛ بجعل ترك الربا مشروط الإيمان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والمشروط يدور مع الشرط وجوداً وعدماً!



وهكذا؛ ما أبقى النص القرآنيُّ سبيلاً يتنصّل المؤمن فيه من الالتزام بأمر الله بترك الربا قليله وكثيره، ولا سوّغ له التهاون فيه والتحايل لإتيانه، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

ثم أوعد المصرِّين على تعاطي الربا بعد نزول هذه الآية بوعيدٍ لا شبيهَ له في القرآن الكريم!

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ هذا الترك الذي أمرتم به ﴿فَأْذَنُوا﴾ من آذن بمعنى: أعلم، يعلمهم الله تعالى وجل بالحرب منه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وإنه لعمرو الحق تهديد لا يماثله تهديد! "ومن يغالبِ الله يغلب"!

ويكاد أثر ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم يفلق قلب المرء إذا تأمله: عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: "يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لآكِلِ الرِّبَا: خُذْ سلاحكَ للحَرْبِ! قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾"[٥٣٧].

وما أجمل عبارة القشيري في لطائف الإشارات: "إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار، ولا قدر ولا أخطار"[٥٣٨].

وهذه الحرب لها دلالات تنزيلية كثيرة؛ فإنها يمكن أن تشمل:

- العقوبة الشرعية التي ينزلها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه بالمرابين، وإن اقتضى الأمر قتالهم قوتلوا[٥٣٩].
- العقوبة الأخروية، وما أعدَّه الله للمرابين من عذاب يوم القيامة.
- الانهيارات الاقتصادية والأزمات المالية الخانقة على مستوى الأمم والدول.

---

(٥٣٧) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٩، وتفسير النسفي، ١/ ٢٢٣.

(٥٣٨) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٩، وتفسير النسفي، ١/ ٢٢٣.

(٥٣٩) تفسير الزمخشري، ١/ ٣١٩، وتفسير النسفي، ١/ ٢٢٣.



✣ فقدان البركة، وتتالي المصائب المالية على مستوى الأفراد، وغير ذلك من الصور؛ نسأل الله العفو والعافية.

ثم إنه بيّن لهم أنه لا يسألهم ترك أموالهم: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ عن تعاطي الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، وهي المبالغ الأصيلة محذوفاً منها النفع الذي جره الربا[540]، ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الربا المحرم، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقصكم شيئاً من رؤوس الأموال.

✣ ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إسقاط الربا أمر قد يترتب عليه التساؤل عن حالة ما إذا أعسر المدين فلم يرُدّ الدين؛ ماذا يصنع معه الدائن؟

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ وُجد ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ مدينٌ معسراً لم يتيسر له السداد في الوقت؛ فالواجب أن تنظره وتصبر عليه ريثما يتيسر له ذلك ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾، ونظرة: بمعنى: إنظار، وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره كما رأيتَ في التفسير أعلاه: فالواجب نَظِرة.

وفي الآية وجوب إنظار المُعسر، وليس المُماطِل الغنيُّ مُعسِراً بطبيعة الحال، بل قد جاء في الحديث: "مُطلُ الغنيِّ ظُلْم"[541]، ويحبسه القاضي إلى أن يؤدي، إنما الكلام في المعسر الذي عجز عن السداد.

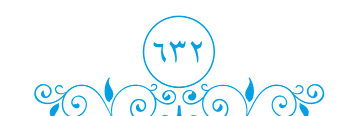
فائدة نحوية

وقد تتساءل فتقول: أليس ﴿ذُو﴾ في النص خبراً لـ "كان"، فكيف رفعت؟ أليس الأصل أن يقال: وإن كان المدين ذا عسرة؟! فالجواب:

---

(٥٤٠) تفسير الطبري، ٦/ ٢٦..

(٥٤١) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٣/ ص٩٤/ ح٢٢٨٧).





أن "كان" هنا ليست ناقصة، فلا تعمل عمل كان الناقصة مِنْ رفع اسمها ونصب خبرها، إنما هي بمعنى: وُجِد، وعلى هذا فسَّرتُها في النص أعلاه، وتنبه فإنها فائدة لغوية مهمة.

تقعيد فكري

وقد تثور دواعي العجب عند بعضهم بما وقر في القلوب من رواسب المادية التي يغرق فيها العالَم اليوم؛ فيقول: هل الحلّ في الإنظار؟ وماذا استفاد الدائن من الدّين إذاً؟ لا الربا حلال عليه فيأخذه، ولا أمامه إذا أعسر المدينُ إلا الإنظار؟ أليس هذا إجحافاً بحق الدائن ؟!

والجواب:

لا أشكُّ في أن الجوابَ بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ صادم في المعيار الماديِّ الرأسمالي المعاصر!

ذلك أن الله تعالى أراد أن لا يكون الدَّين وسيلة من وسائل التكسب!

إن الدَّيْن عملٌ شبيه بالصدقات، ولذلك قال بعدها: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بحط ديونكم أو جزءٍ منها عن المدين المعسر ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الحقائق؛ فتفهمون أن عوائد العفو والصدقة خير من مال الدنيا ولو اجتمع!

كلام صادم حقاً لأولئك الذين يرون كل تعاملات المال لا بد أن تعود بفائدة مالية دنيوية، أما أولئك الذين تلحظ قلوبهم اللهَ والدارَ الآخرة يُدركون أن في الدنيا مقداراً كبيراً للآخرة! وهو المقدار الأهم عندهم!

إن من يبتغي التكسُّبَ الماليَّ فهذا مشروع؛ بل مطلوب، لكن الدَّيْن ليس هو الوسيلة المناسبة لذلك الابتغاء، ووجوهُ التكسُّب المشروع كثيرة لا تحصى كثرة، لا تتركُها جميعاً لتقف بباب الربا وترى أنه لا باب سواه!

فالدَّين طاعة يُتطلب بها الأجر والرضى؛ عن طريق الإعانة والتفريج!



المادية الطاغية اليوم قد أفسدتْ طبائع الناس، ولوَّثت العلاقات الإنسانية، وصدّرت الأنانية الطبعية والجشع التحصيلي بشكل أفسد الدنيا، وقد آن الأوان لإنقاذ العالم عبر التبشير بهذا الدين، الذي يتناقل الخبراءُ اليوم أحكامَه وتشريعاته مؤشرين أن حلول المشكلات الاقتصادية العالمية تكمن هنا.

❖ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه الآية المؤثرة، ذات الإيقاع العالي؛ تملك حقاً أن تهزَّ الكيان البشري بقوة، تأخذُ بتلابيب القلب فتحرِّكه نحو التدارك والإقلاع عن الربا.. هذه الآية خاتمة آيات الربا؛ كما أنها خاتمة آيات القرآن نزولاً[٥٤٢]!

نعم؛ هذه الآية مع المقطع التي هي خاتمته آخر آيات القرآن نزولاً، وألفاظها تحمل معانيَ مناسبة لهذا الختم! إنها آخر آية نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل آخر ما خاطب به الله تعالى البشر إلى يوم القيامة! وصيةٌ حريٌّ أن يتأملها بقلبه وكيانه كلُّ ذي قلب:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ التنكير للتعظيم والتهويل، ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا ملجأ لكم إلا إليه ولا محيص، ولفظ الجلالة يُلقي التعظيم في النفوس ويُربي المهابة فيها: ترجعون فيه إلى الله ذي الجلال.. اقرأها ومدَّ صوتك بها فإن لها أصداء في القلب يَرجُف لها الكيان! أي كيان ضعيف هذا الذي يتأملها وما يزال متماسكاً! إنها والله لو نزلت ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٢١]!

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ توفية تامة ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على الإطلاق؛ نفوس الخيرين الذين وقفوا عند حدود الشريعة، وتلك النفوس الشريرة التي أرادت العلو وأعماها الجشع! ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، من طاعة أو معصية، ﴿وَهُمْ﴾ في كل ذلك ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً البتة.

---

(٥٤٢) انظر: تفسير الطبري، ٦/ ٣٩.





حذف المفعول / الحذف

والفعل "ظلم" فعل متعدٍّ، وهو هنا بمعنى النقص: لا يُنقصون، كقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ {الكهف ٣٣}، نقول: نرى الفعل قد حُذِف مفعوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولم يذكر المفعول، ليدلَّ على العموم؛ فهم لا يُظلمون أبداً؛ لا يظلمون البتة: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ {غافر ١٧}!

إنها وصية أخيرة مؤثرة، ولو جعلها المسلم على لسانه ذكراً يردده كل حين لانتفع قلبه بها أيما انتفاع، ولانتظم سلوكه على ما أَمَر به ربه، نسأل الله التوفيق لطاعته، وذكرِ المقام بين يديه.

المقطع السابع والثلاثون
أحكام الدَّيْن والرهن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ {البقرة}.



التمهيد والمناسبة

هذا المقطع فيه تتميم للأحكام المالية المذكورة في المقطعَين السابقين، وتكميل بالتالي لصورة النظام الاقتصادي، وتنظيم لباب مهم جداً من أبواب المعاملات المالية؛ تكثر الحاجة إليه، وهو باب الدَّين.

وما جاء في الآية الأولى منه من التفاصيل لم يأت في آية أخرى؛ اللهم إلا في آيات المواريث كثيرة التفاصيل، وكلتاهما في المعاملات المالية كما ترى، وطبيعة الموضوع اقتضت ذلك.

وهذه الآية هي الأطول في القرآن الكريم؛ حيث استغرقت صفحةً كاملةً في المصحف المدنيِّ المُتداوَل، وكلُّها في تنظيم أحكام الدَّين.

إن اعتناء الإسلام بشأن التنظيم المالي يظهر من خلال هذه التفاصيل المتفردة في القرآن، لا عجب؛ فحفظ المال مقصد رئيس من مقاصد الشريعة الإسلامية، والأمة التي تحفظ مالها تملك قرارها وسيادتها، وتتجنب الضغط من أعدائها المتنفِّذين.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

هذه الآية ممتلئة بالأحكام، وقد ذكر الإمام القرطبي اثنتين وخمسين مسألة فيها، ونحن نعرض لما تفيده الألفاظ باختصار دون الاستطراد في بيان مسائل الفقه على ما اخترنا في هذا الكتاب.



والعادة أن التشريعات التفصيلية مفتتَحَةٌ بنداء المؤمنين بعنوان الإيمان؛ تحفيزاً على الامتثال وتقوية لدواعي الالتزام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم﴾: إذا داين بعضكم بعضاً؛ فتداينتم على وزن المفاعلة: تفاعلتم؛ المفيد للمشاركة، ﴿بِدَيْنٍ﴾ صغير أو كبير، كما يفيده التنكير، وفي الزمخشري بيانٌ لوجه قوله: ﴿بِدَيْنٍ﴾؛ مع أنه لو قال: لو تداينتم إلى أجل مسمى لجاز:

"فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى؟ وأيُّ حاجة إلى ذكر الدَّين، كما قال: داينت أروى، ولم يقل: بدين؟ قلت: ذُكِر ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحُسْن"[543].

وَحَقِيقَةُ الدَّيْنِ عبارةٌ عن كُلِّ مُعاملةٍ كان أَحَدُ الْعِوَضَيْنِ فِيهَا نَقْدًا وَالْآخَرُ فِي الذِّمَّةِ نَسِيئَةً، فَإِنَّ الْعَيْنَ عِنْدَ الْعَرَبِ مَا كَانَ حَاضِرًا، وَالدَّيْنَ ما كان غائِبًا[544].

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنبيهٌ على أن الدَّين لا ينبغي أن يكون على غير هذه الهيئة؛ ويُعرِضُ الأمر كتحصيل الحاصل: فالدين ينبغي أن يكون دائماً إلى أجلٍ واضحٍ محدَّدٍ بين المتداينين، وسَترى مِن خلال الآية وغيرِها من الآيات حرصَ الشريعة على درء التنازع الذي يمكن أن يقع بين الناس، وتسميةُ الأجل الذي يَحِلّ سداد الدَّين فيه أحد أهم أسباب اتقاء النزاع.

ثَبَتَ في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قَدِمَ الْمدِينَة وهم يَسْتَلِفُونَ في الثِّمَارِ السَّنَتَيْنِ والثَّلَاث، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: "مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ"[545]

---

(٥٤٣) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٢٥.

(٥٤٤) تفسير القرطبي، ٣/ ٣٧٧.

(٥٤٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٣/ ص٨٥/ ح٢٢٤٠).



﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوه﴾ للتوثيق، والأمر للندب عند الجمهور، وسأنبه إلى القرينة الصارفة للأمر من الوجوب إلى الندب في الآية التالية[٥٤٦]، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ هذا طرف ثالث؛ ليس هو الدائن ولا المَدين، ﴿بِالْعَدْلِ﴾ الباء للملابسة والمصاحبة: كاتب يكتب مصاحباً العدل بين المتداينين بإسناد كلّ حق إلى صاحبه من غير ميل إلى أحدهما، وبتوضيح كل ما يتعلق بتفاصيل الدين حرصاً على درء النزاع.

وما كانت الكتابة منتشرة، وكان الكتَبَةُ قلة، ولذا نهى الكتبةَ عن الامتناع عن الكتابة: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ الدينَ بين المتداينين ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّه﴾ أصولَ الكتابة؛ فلا يغيِّر ولا يُغمِض، أو فليكتب شكراً لله على نعمة تعليمه، ومقابلَ ما منَّ الله عليه بالتعليم، ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ واللام لام الأمر، فأفادت الوجوبَ إذا تعيَّن هو للكتابة؛ كأن لم يكن ثمة غيره[٥٤٧]، ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، ليكون بذلك قد أثبت على نفسه الحق، فلا الدائن ولا الكاتب ألزماه بشيء، والإملال: الإملاء، قال ابن الجوزي رحمه الله في بيان الإملال: "قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: أمللت أمل، وأمليت أملي لغتان: فأمليت من الإملاء وأمللت من الملل والملال، لأن الممل يطيل قوله على الكاتب ويكرره"[٥٤٨].

﴿فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وهو المدين ﴿سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ والسفه: الجهل، والسفه لصغر أو لقلة الدراية بالتدبير، وقد يكون لغفلة دائمة وما أشبه، وكذا الضعيف، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لبكَمٍ أو عُجْمةٍ، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾، حرصاً على مصلحته، ومراعاة لجانبه، ووليه قد يكون أباه أو مَن عُيِّن ولياً عليه من قِبَل القاضي.

---

(٥٤٦) انظر: تفسير الطبري، ٦/ ٤٧، وتفسير القرطبي، ٣/ ٣٨٣.

(٥٤٧) انظر: تفسير القرطبي، ٣/ ٣٨٤.

(٥٤٨) زاد المسير، ١/ ٢٥١.



ثم هناك إجراء احتياطي إضافي للكتابة والتوثيق ووجودِ كاتب عدل يكتب بينهم وإملاءِ المدين أو مَن هو مِن جهته إن كان ضعيفاً: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ السين والتاء للطلب: اطلبوا شهيدين يشهدان ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ المسلمين، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ فـ "ليشهد" ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾؛ ومن يرضاهم المسلمون: هم من الصالحين الثقات ولا شك؛ خشيةَ ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تنسى، والنسيان يسمى في اللغة ضلالاً[٥٤٩]، ﴿إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ بما نسيته، واختُلفَ فيما إذا لم يوجد رجل أصلاً؛ فهل يستشهَد أربعٌ من النساء؟ خلاف، والقياس جواز ذلك، والله أعلم. ونهى الشهداءَ عن التخلُّف عن أداءِ الشهادة: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ إلى أداء الشهادة عند حصول نزاع.

ولمّا كانت هذه التفاصيل قد تؤدي إلى استثقال القيام بها عند الدين الصغير قال: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ من السآمة، وهي الضجر، ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾: ولا تملوا[٥٥٠] ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي الدين ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حالان من الضمير المفرد الغائب العائد على الدين، ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ مقيداً بالأجل المسمى، كما في أول الآية.

وعلّل كل ذلك بقول: (ذلك) التفصيل السابق ذِكْرُه في أحكام الدَّين، وذلك التوثيق الوثيق: ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل عند الله؛ أن تضيع الحقوق ويحصل التنازع، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾، وأعون على إقامة الشهادة[٥٥١]، فالقيام بالشهادة على وجهها أمانة، ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق فإنه قد يقع الشك في المقدار والصفات وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك.

---

(٥٤٩) انظر: تفسير الرازي، ٧/ ٩٥.

(٥٥٠) تفسير النسفي، ١/ ٢٢٨.

(٥٥١) تفسير النسفي، ١/ ٢٢٨.



لكن هناك ما يقتضي التخفّف لأنه مال يدور بين التجار؛ فيشقُّ عليهم تسجيل كل شيء على هذه الطريقة المفصلة، ومن يعرفُ التجارة "الحاضرة" التي يتداولها تجار الأسواق الشعبية يفهم صورة الاستثناء؛ إذ يأخذ بعضهم من بعض على مدار اليوم بضائع وتسجل بينهم حسابات؛ ولا يستطيعون القيام بالتوثيق على الهيئة المذكورة لما فيه من كلَفة! ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ على هذه الهيئة.

ثم أمرهم- إرشاداً- إلى الإشهاد على البيوع درءاً للنزاع المظنون: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، فإن الإشهاد يقطع الادعاء الباطل بين المتبايعين، وهذا أمر بالإشهاد عند التبايع مطلقاً أو في التجارة الحاضرة المذكورة أخيراً[552].

ونهى عن مضارَّة الكاتب الذي يكتب بين المتداينَيْن والشاهد الذي يشهد على ما تداينا عليه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿يُضَارَّ﴾ أدغمت راءاه، وأصله:

- "يضارِر"؛ بالكسر على اسم الفاعل، على معنى أنه لا يجوز للكتاب والشهيد أن يضروا المتداينين بأي نوع من الضرار.
- أو "يضارَر"؛ بالفتح على اسم المفعول، على معنى النهي عن الإضرار بالكاتب والشهيد!

وأما المختار؛ فكلاهما؛ ولا مانع، بل لعل المقصود الجمع بين نهي الكاتب والشهيد عن الإضرار بالمتداينين أو بالمتبايعين، وكذلك: النهي عن الإضرار بهما، والله أعلم، وهذا من إعجاز القرآن في الإيجاز.

---

(٥٥٢) انظر: تفسير النسفي، ١/ ٢٢٨.



والنظر في أصول التفسير يقتضي الذهاب إلى ما ذهبنا إليه:

تطبيق أصولي / أصول التفسير

إذا احتمل اللفظ معنيين يكمِّل أحدُهما الآخرَ ولا يتناقضان، ويحفِل بكليهما السياقُ؛ فلا معنى لترجيح أحدهما على الآخر، وليجمع المفسر بين المعنيين، والمثالُ السابق تطبيق أصولي مناسب على القاعدة.

ثم ختم الآية بالتذكير بالتقوى والربط بالعقيدة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ امتنان من الله العليم بهذا البيان المفصل لهذه الأحكام الحكيمة الشاملة، وحث على تعلمها، وقد ربط بعض النّظار العلم بالتقوى المأمور بها في الجملة السابقة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، وقالوا: إن التقوى طريق إلى التعلّم، ومن حُرِم التقوى يوشك أن يُحرَم التعليم، وهو استدلال لطيف، وإن لم يدل عليه النص.

❁ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ولما كان السفر مظنة لإعواز الكَتْب والإشهاد أَمَرَ على سبيل الإرشاد بحفظ الأموال لمنْ كان على سفر بأن يُقيم التوثُّق بالارتهان مقامَ التوثق بالكَتْب والإشهاد، لأن السفر مظنة لعدم وجود الكاتب والشهود، وقوله: ﴿فَرِهَانٌ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، والرهان: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب رهان مقبوضة، أو ما أشبه.

وقوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض، إذ هذا أوثق في القلب، وأحفظ للحقوق؛ إذ لا كتبَة ولا شهود!

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعضَ المديونين بحسن ظنه به فلم يتوثق بالكتابة والشهود والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ دينَه، وسمى المدين هنا: "الذي اؤتمن" حثاً له على أن يكون عند حسن ظن الدائن وأَمْنِهِ منه وائتمانِه له، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه، وتذكيراً له بذلك.

وسمى الدين: أمانة وهو مضمون؛ لائتمانه عليه بترك الارتهان منه[553].

وجعَل بعضُهم هذه الآية هي القرينةَ الدالَّة على عدمِ إِرادةِ الوجوب في الأمر من قوله في آية الدَّين: (فاكتبوه).

وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ تذكيرٌ له بالله بعد تذكيره في الجملة الأخيرة بالمروءة والخلُق، والتعبير بعنوان الربوبية مع إضافة ضميره إليه: "ربه"؛ لاستحضار تصرف الله تعالى فيه وسيادته وقدرته، فلعل ذلك يكون زاجراً عن الوساوس الشيطانية.

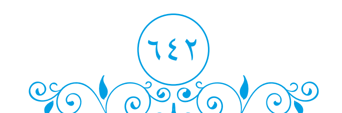
ثم رجع إلى النهي عن كَتْم الشهادة بعدما نهى في السابقة الشهداءَ عن الإباء إذا ما دُعوا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ﴾، وحذرهم عاقبة كتمها على قلوبهم: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾، فإن عاقبة هذه المعصية ومثيلاتِها ضارٌّ بالقلب مفسدٌ له، وإسنادُ الإثم إلى القلب بيانٌ لكون الإثمِ قد أصاب منه قلبَه؛ والقلبُ تلك المضغة التي يصلح المرء بصلاحها ويفسد بفسادها، ففيه من المبالغة والتحذير من عاقبته ما فيه!

وههنا تنبيه إلى أن ضرر بعض المعاصي قد يُجاوِز من العبد حتى يصلَ إلى قلبه فيفسدَه، وتستقرُّ المعصيةُ بالقلب؛ فتكون الإصابةُ إذ ذاك قاتلة!

لمسة تربوية

---

(٥٥٣) انظر: تفسير النسفي، ١/ ٢٣٠.



ولا يَدرِي العبدُ أي ذنبٍ يَفعل فيه ذلك؛ فالمعاصي سهام؛ ورُبَّ معصية تصيب مقتلة! والعاقل مَن اجتنب المعاصي ولم يتساهل تعاطيَها؛ حذراً من الإصابة في المقاتل، نسأل الله السلامة.

وذيّل الآية بما يتضمن التهديد والإحالة على الله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾؛ فلا تخفى عليه خيانة؛ وإن استتر الخائن عن عيون الخلق وعن شهود الشهداء وعن توثيق الكَتَبَة.

المقطع الثامن والثلاثون

الخاتمة الحافلة لما جاء في السورة

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].



التمهيد والمناسبة

هذا المقطع الأخير من السورة؛ هو كالخاتمة للسورة، وهو متصل بفاتحتها وآياتها وروحها العام أيما اتصال.

هذه السورة على ما فيها من موضوعات شديدة الإحكام والتماسك، لا يخفى على المتأمل فيها المتدبر لها وجود تلك الشبكة الكثيفة الخيوط الممتدة امتداد السورة كلها؛ تجمع بين مقاصدها ومقاطعها وآياتها وكلماتها برباط وثيق؛ وإن كان خفيّاً يحتاج إلى التأمل لإدراكه.

وسأبين وجوه الاتصال بين هذه الخاتمة الحافلة وبين السورة على نهج من الإجمال والإشارة أثناء تفسير الآيات؛ فتنبه إلى ذلك.

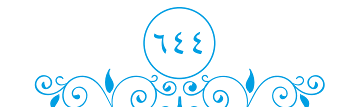
التفسير

❖ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

امتلأت السورة بالأحكام، والالتزام بهذه الأحكام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعظيم المشرِّع سبحانه، وهنا أعلمهم بأن ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾، وكمالُ ملكه لهما دالٌّ على العظمة التي يلزم منها استحقاق طاعته والانقياد لأحكامه، فإن مَنِ انقادت له السماوات بعظمتها وشدتها والأرض بما عليها: حقٌّ على الإنسان أن ينقاد له؛ فينسجَمَ مع كل ما في الكون من الانقياد والخضوع والتسبيح.

وفي تفسير الرازي:

"إِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ كَمَالَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ لَيْسَتْ إِلَّا الْقُدْرَةَ وَالْعِلْمَ، فَعَبَّرَ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ بِقَوْلِهِ لله مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مُلْكًا وَمِلْكًا، وَعَبَّرَ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِالْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ



﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وَإِذَا حَصَلَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ، فَكَانَ كل من في السموات وَالْأَرْضِ عَبِيدًا مَرْبُوبِينَ؛ وُجِدُوا بِتَخْلِيقِهِ وَتَكْوِينِهِ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْوَعْدِ لِلْمُطِيعِينَ، وَنِهَايَةَ الْوَعِيدِ لِلْمُذْنِبِينَ، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَتَمَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ"[٥٥٤].

وقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من النوايا والمقاصد ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فيها فلا تبدوه؛ فإن كل ذلك ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بمحض رحمته، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بعدله، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يُعجزه شيء ولا يسبقه أحد، بل هو محيط بكل أحد بواسع قدرته، وعظيم سلطانه.

واختلف في هذه الآية؛ فقيل هي منسوخة، وقيل: لا، وموطن الاستشكال في كون حديث النفس داخلاً في مدلول الآية أو ليس داخلاً، ذلك: أن قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾؛ فيه حساب الله على ما في النفوس مُخفَىً أو مُبدىً، وقد استطردَ الفخرُ الرازيّ في معالجة الإشكال كما هي عادته رحمه الله[٥٥٥]، ولكن حاصل معالجة المفسرين للمسألة تنحصر في أحد الاتجاهين الآتي ذكرهما؛ بعد اتفاقهم على أن: الأمر مستقرٌّ على أن الله لا يحاسب على الخواطر وأحاديث النفس.

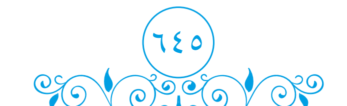
الأول:

أن يقال: إن الآية تتناول الخواطر وأحاديث النفس، وعمومُ مَن قال بذلك ذهب إلى أن الآية منسوخة بقول الله تعالى في الآية التالية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ورووا في ذلك أحاديث صحيحة؛ منها ما رواه أبو هُرَيْرَة قال: لَمَّا نَزَلَتْ على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلَّى الله عليه وسلّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله صلَّى

---

(٥٥٤) تفسير الرازي، ٧/ ٩٨.

(٥٥٥) تفسير الرازي، ٧/ ١٠٤.



الله عليه وسلَّمَ، ثم جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطيق: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"، فلَمَّا أقر بِهَا الْقَوْمُ وذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ الله في أَثَرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ فَأَنْزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نسينا أو أخطَأْنا﴾ إلى آخره"[٥٥٦].

والثاني:

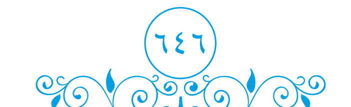
أن يُقال: إن الآية لا تتناول الخواطر وأحاديث النفس ابتداء، بل الكلام فيها على ما استقرَّ في النفس، وانتهى إلى العزم، قال النسفي مرجحاً هذا القول كما يظهر من آخر كلامه، وآثر نقله لما فيه من تحصيل المسألة: "ولا تدخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكنْ: ما اعتقده وعزم عليه.

والحاصل: أن عزم الكفر كفر، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوّة، وعزم الذنب إذا ندم عليه ورجع عنه واستغفر منه مغفور، فأما إذا همَّ بسيئة وهو ثابت على ذلك إلا أنه مُنِع عنه بمانع ليس باختياره فإنه لا يعاقَب على ذلك عقوبة فعله، أي بالعزم على الزنا لا يعاقب عقوبة الزنا، وهل يعاقب عقوبة عزم الزنا، قيل لا؛ لقوله عليه السلام: "إن الله عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به"[٥٥٧]، والجمهور على أن

---

(٥٥٦) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص١١٥/ ح١٢٥).

(٥٥٧) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٧/ ص٤٦/ ح٥٢٦٩).





تطبيق أصولي / أصول التفسير

الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة في العزم ثابتة، ..، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنّ الذين يُحِبُّونَ أن تشيع الفاحشة﴾ {النور}، وفي أكثر التفاسير أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة رضى الله عنهم وقالوا: أنؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا فنزل قوله: ﴿آمَنَ الرّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ فتعلق ذلك بالكسب دون العزم، وفي بعضها أنها نسخت بهذه الآية، والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار"[٥٥٨].

ويَظْهَرُ مِن إعمال الأصول أن عندنا قاعدتين تتنازعان المسألة:

الأولى: ما ذكره النسفيُّ في آخر كلامه حول النسخ: "والمحققون على أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار"، والآية إخبار أن الله يُحاسب على ما في النفوس، وادِّعاء النَّسخ هنا هو صورة ما ذهب المحققون إلى منعه، لأنه نسخ أخبار.

وقد يُقال: نعم؛ إن الكلام جاء في صيغة الخبر، لكنّ النّسخ متصوَّر من حيث: إنه كلَّفهم بما يخطر في البال ثم نسخ تكليفهم بذلك، والحسابُ المذكور في الآية فرع التكليف؛ فلا إشكال.

الثانية: الحديث الذي استدل به الذاهبون إلى النسخ من رواية أبي هريرة؛ والحديث صحيح؛ هو سبب نزول، وسبب النزول عند أكثر الأصوليين والمحدِّثين له حكم الرفع؛ إذ الصحابيُّ يحدِّث عما رآه؛ فلا اجتهاد ولا رأي.

---

(٥٥٨) تفسير النسفي، ١/ ٢٣٢.



لكن قد يُقال:

إن مصطلح "النسخ" لم يكن قد استقرَّ على ما انتهى إليه من دلالة الإلغاء، فقد يقصد الراوي معنىً آخرَ غيرَ المعنى الاصطلاحي المحدَث للنسخ؛ والدلالة اللغوية للنسخ: الإلغاء والإزالة، ويمكن أن نتصوَّر أن معنى النسخ في كلام أبي هريرة: إزالة المعنى المتوهم من أذهان الصحابة رضي الله عنهم لبيان أن الخواطر وأحاديث النفس لا تدخل في الآية؛ لأنها ليست في مقدور العبد و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾.

أو يُمكن أن يقال:

هذا ما يسمونه: تخصيص العام وليس هو النسخ الاصطلاحي الذي استقرّ مفهومه عند الأصوليين، إذ خُصِّص العموم الوارد في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّه﴾، بقول الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾، فاستثنى ما لا طاقة للإنسان به، ولا قدرة له عليه، وهذا لا يُسمى نسخاً عند جمهور الأصوليين، وإن كان المتقدِّمون يسمونه كذلك.

وكذلك:

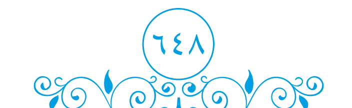
قد ذكرنا أننا نتجنب القول بالنسخ ما استطعنا، فإنْ ما تيسر سبيلٌ لتجنب ادّعاء إلغاء آية أو حكم آية سلكناه.

والحاصل:

أننا بين قاعدتين تتنازعان الترجيح، والظاهر الذي تميل إليه نفسي:

أن الآية لا نسخ فيها بمعنى النسخ الأصولي: "إلغاء حكمها"، وأن معنى النسخ في الحديث يحتمل أحد الاحتمالات التي أوردتُها، وإذا وُجد الاحتمال سقط الاستدلال، وأنها لا تتناول الخواطر وأحاديث النفس ابتداء، والله أعلم.

✣ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.



هاتان الآيتان العظيمتان فيهما من الفضائل ما هو معلوم مشهور، وهذه الآية في خاتمة السورة مناسِبةٌ أتمّ المناسَبة لفاتحتها وآياتها.

جاء في فاتحة السورة قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ {البقرة}، وهنا في الخاتمة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، فالرسول والمؤمنون هم المتقون الذين ذُكروا في أول السورة وأثني عليهم ذلك الثناء؛ أو قل: هم أول من تحققوا بذلك، وجاءت الخاتمة لتشهد لهم بتمام التمثل بما جاء في الفاتحة من الإشادة بالمتقين.

قال الإمام أبو حيان مشيراً إلى هذا المعنى، مضيفاً فائدة ثمينة حقاً:

"وقدْ تَتَبَّعْتُ أوائلَ السُّورِ المُطَوَّلةِ فوجدتُها يُناسبُها أواخرُهَا، بحيثُ لا يكاد يَنْخَرِمُ منها شيءٌ، وسأُبَيِّنُ ذلك إنْ شاء الله في آخِرِ كلِّ سورةٍ سورَةٍ، وذلك مِن أبْدَعِ الفصاحةِ، حيثُ يتلاقى آخِرُ الكلامِ المفرِطُ في الطُّول بأوَّلِه، وهي عادةٌ للعربِ فِي كَثِيرٍ مِنْ نُظُمِهِمْ، يَكُونُ أَحَدُهُمْ آخِذًا فِي شَيْءٍ، ثُمَّ يَسْتَطْرِدُ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، ثُمَّ إِلَى آخَرَ، هَكَذَا طَوِيلًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَا كَانَ آخِذًا فِيهِ أَوَّلًا.

وَمَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ سَهُلَ عَلَيْهِ مُنَاسَبَةُ مَا يَظْهَرُ ببادئ النظم أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ لَهُ، فَبَيَّنَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم"[٥٥٩].

﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ ومنهم جبريل وميكال؛ اللذَيْن ذُكرا في آيات السورة في سياق الجدل مع بني إسرائيل، ﴿وَكُتُبِهِ﴾ التي أنزلها على أنبيائه؛ آمنوا بها بالإجمال، وآمنوا بما جاء ذكره في القرآن منها على التفصيل، وفيه تعريض باليهود الذين ذكر عنهم في السورة الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ {البقرة ۝٨٥}.

---

(٥٥٩) البحر المحيط، ٢/ ٧٥٥.



﴿وَرُسُلِهِ﴾ الذين هم أئمة الهدى، أرسلَهم الله تعالى إلى البشر ليأخذوا بنواصيهم إلى الحق، ويعرِّفوهم بالله ويدلوهم على طريق الوصول إليه، وقد ذُكر العديد منهم في السورة الكريمة.

وقال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾؛ فهم جميعاً مشتركون في أصل الرسالة، فلا سعة لأحد بالتفريق بينهم بالإيمان ببعض والكفر ببعض، وهذا الوجه هو المقصود بهذا النص هنا، ذلك أن بعضهم قد يَتوَهَّمُ التعارض بين هذه الآية وبين قول الله تعالى مما فسرناه من السورة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ {البقرة ٢٥٣}، أي في الدرجات، لكنهم مشتركون في أصل الرسالة، والإيمان بجميعهم واجب لا يسع المؤمن غيره، وفيه تعريض باليهود؛ الذين فرقوا بين الرسل، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ {البقرة ٩١}، والآيات في تعيير اليهود بذلك في السورة قد تعددت.

﴿وَقَالُوا﴾ أي الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ فلا تردد ولا تلكؤ ولا استكبار، كما كان كل ذلك من بني إسرائيل فيما أشارت إليه السورة: قصة البقرة مثلا، وما حصل من تلكؤ بني إسرائيل؛ حتى غدا هذا التلكؤ مثالاً حتى على ألسنة العامة، وما قالوه كذلك عليهم لعائن الله في مواجهة ميثاق الله: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ {البقرة ٩٣}!

وهذا فرق ما بين المنهجين: منهج أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتمثل في قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ومنهج بني إسرائيل المتمثل بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ، وشتان بين المنهجين!

وهذا سرُّ الأسرار التي لأجلها استُلبَ لواء الاستخلاف من الأمة الملعونة على ألسنة أنبيائها!

﴿غُفْرَانَكَ﴾ نسألك غفرانك وسترك يا ﴿رَبَّنَا﴾، وحذف أداة النداء للإشعار بالقرب وانكشاف الحجب، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيرك؛ فلا تردَّ دعاءنا ولا تخزنا إذا صرنا إليك.

❁ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

الآية الأخيرة من السورة فيها ارتباط شبكيٌّ عال مع آيات السورة وروحها كذلك، فالسورة التي احتوت على التشريعات التأسيسية لبناء الأمة، واحتوتْ على الكثير من التكاليف، وتخللها الأمر والنهي خُتمتْ طمأنة للمؤمنين وتقعيداً لقاعدة مهمة من قواعد التشريع: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فلا يكلِّفُها ما لا طاقة لها به؛ إنما هو وُسعها فحسب، و"الوسع اسمٌ من قول القائل: وسعني هذا الأمر، مثل: الجهد والوجد من: جهدني هذا الأمر ووجدت منه"[٥٦٠]، والوُسع يوحي بالاتساع، والنفسُ تتّسع لتنفيذ ما جاء في الشريعة وما كَلَّف الله تعالى به عباده، أما ما زاد على ذلك فلا يقع التكليف به في الإسلام، بل الآية تتسق مع قوله في السورة نفسها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ١٨٥]، وهذا من مباني الشريعة الكبرى ومعالمها الرئيسة.

﴿لَهَا﴾ للنفس المكلفة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير والبرِّ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الإثم والمعصية، وخالفَ بين ما لها وما عليها في صياغة الفعل: كسب واكتسب؛ فوزن "افتعل" مفيد للتكلف؛ وفيه إشارة إلى أن المعصية فيها مخالفة للأصل، ومعاكسة للطريق!

---

(٥٦٠) تفسير الطبري، ٦/ ١٣٠.



وليست كذلك الطاعة؛ فهي مُنْساحَة مع مقتضيات الفطرة ومقرَّرات العقول، في الكشاف وجهة نظر أخرى؛ قال:

"فإن قلت: لم خصَّ الخير بالكسب، والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال، فلما كان الشرُّ مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"[٥٦١].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: "هذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه، وما يقولونه في دعائهم إياه"[٥٦٢]، والجملة بناءً على هذا مقول قول مقدر: قولوا: يا ﴿رَبَّنَا﴾ لا تؤاخذنا؛ حساباً وعقاباً ﴿إِن نَّسِينَا﴾ التزام ما أمرتنا به فتركناه ناسين، أو نهيتنا عنه ففعلناه ناسين، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ففعلنا أو تركنا من غير قصد إلى ذلك.

وهذا الدعاء يعلمناه الله تعالى وقد أعلمنا أنه قد استجاب له؛ كما في الرواية الآتي ذكرها، ويُقعِّد هذا الجزءُ من الآية قاعدة من قواعد التشريع في عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ فيما يتعلق بالمؤاخذة الأخروية، وبالعبادات المتعلقة بحق الله، ولا يمنع هذا من ضمان حقوق العباد، ورفعُ المؤاخذة فيه إنما هي من جهة حط الإثم.

والمعنى مناسب للسورة التي تضمنت الأحكام التشريعية الكثيرة، والتي قد ينسى العبد أو يخطئ التنفيذ، فجاءت الآية لتبيّن عدم المؤاخذة في الحالين.

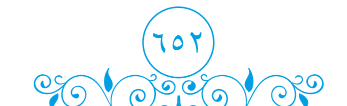
﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: الإصر: الثقل[٥٦٣]، والعبء الذي يأْصر حامله، أي يحبسُه مكانه لا يستقلُّ به لثقله، استُعير للتكليف

---

(٥٦١) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٣٢.

(٥٦٢) تفسير الطبري، ٦/ ١٣٢.

(٥٦٣) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٣٩١.





الشاقّ، من نحو قتْل الأنفس، وقطْع موضع النجاسة من الجِلْد والثوب وغير ذلك[٥٦٤]، مما روي أنه شُدِّد به على بني إسرائيل، ولأجل هذا المعنى فسره الإمام الطبري رحمه الله بالعهد، فقال:

"وإنما عنى بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾: ولا تحمل علينا عهداً فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، يعني: على اليهود والنصارى الذين كُلِّفوا أعمالاً وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها، فلم يقوموا بها فعوجلوا بالعقوبة"[٥٦٥].

والحاذقُ الفخر الرازي حصّل لنا الخلاف في تفسيرها وبيَّن أن الإصر: الثقل أو العهد؛ مع بيان أن الوجه الأول أرجح، فقال:

"ذكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فيه وجْهَيْنِ؛ الْأَوَّلُ: لا تُشَدِّدُ علينا في التَّكاليفِ كما شددْتَ على من قبلنا مِن اليهودِ،...، والْمُؤْمنون إنَّما طلَبوا هذا التَّخْفِيفَ لأَنَّ التشديد مظنة التَّقْصِيرِ، وَالتَّقْصِيرُ مُوجِبٌ لِلْعُقُوبَةِ، وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِعَذَابِ الله تَعَالَى، فَلَا جَرَمَ طَلَبُوا السُّهُولَةَ فِي التَّكَالِيفِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: لَا تَحْملْ علينا عَهْدًا ومِيثَاقًا يُشْبِهُ مِيثَاقَ مَنْ قَبْلَنَا فِي الْغِلَظِ وَالشِّدَّةِ، وهذا القولُ يَرْجِعُ إلى الأَوَّلِ في الْحَقِيقَةِ؛ لكِنْ بإضمارِ شيءٍ زائِدٍ على الملفُوظِ، فيَكونُ القولُ الأَوَّلُ أَوْلَى"[٥٦٦].

تطبيق أصولي / أصول التفسير

وهذا الترجيح الدقيق من الرازي يعيننا على تقعيد قاعدة تفسيرية في الترجيح بين الأقوال: «القول الذي لا يقتضي إضمار شيء زائد أولى بالترجيح من القول الذي يقتضي ذلك».

---

(٥٦٤) تفسير الزمخشري، ١/ ٣٣٣.

(٥٦٥) تفسير الطبري، ٦/ ١٣٦.

(٥٦٦) تفسير الرازي، ٧/ ١٢٢.



﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية[٥٦٧].

﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ بحيث تندرس ذنوبنا ولا يبقى شيء منها، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ بحيث تستر عيوبنا في الدنيا والآخرة وتغطيها، لننجوَ من النار، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بحيث تزيدنا من إحسانك، وتعاملنا بمقتضى رحمتك؛ فتدخلنا الجنة.

﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ ونصيرنا، ومقتضى الولاية: الإنجاء والنصرة؛ ﴿فَانصُرْنَا﴾ ونحن عبادك المتقون ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين عادَوك وكفروا برسالاتك، والتعبير عنهم بعنوان الكفر: لاستمطار استجابته سبحانه ونصره؛ من حيث إن معركتنا معهم تدور حول كفرهم بك ورفضهم لسلطانك، ونحن جندك وأولياؤك!

التعبير بالاسم / دلالات التعبير بالاسم والفعل.

والتعبير بالاسم: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ مفيد لدوامهم عليه وثباتهم فيه؛ بخلاف ما لو قال: الذين كفروا، إذ الاسم يدلُّ على الثبات والاستقرار، والفعل يدلّ على الحدوث والتجدد، كما علمتَ في التقعيد.

ولْأختمْ بذكر شيء مما رُوي في فضائل الآيتين من آخر سورة البقرة:

عن أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاه"[٥٦٨].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي"[٥٦٩].

---

(٥٦٧) تفسير البيضاوي، ١/ ١٦٦.

(٥٦٨) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٥/ ص٨٤/ ح٤٠٠٨).

(٥٦٩) أخرجه أحمد في مسنده (ج٣٥/ ص٤٤٦/ ح٢١٥٦٤) وقال الشيخ شعيب: صحيح.

❖ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: لَا أَرَى أَحَدًا عَقِلَ الْإِسْلَامَ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ[٥٧٠] .

❖ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده جِبْرِيلُ؛ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِح قط. قَالَ: فنزل منه مَلَك، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقَالَ: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ[٥٧١] .

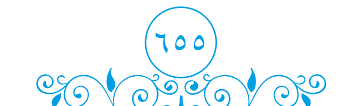
❖ عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾، قال: قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلى قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، قال الله عز وجل:"قد غفرت لكم"، فلما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال الله عز وجل: لا أحملكم، فلما قرأ: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾، قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم، فلما قرأ: ﴿وَارْحَمْنَا﴾، قال الله عز وجل: "قد رحمتكم"، فلما قرأ: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال الله عز وجل: قد نصرتُكم عليهم[٥٧٢] .

---

(٥٧٠) أخرجه الدارمي في سننه (ج٤/ ص٢١٣٠/ ح٣٤٢٧) وقال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

(٥٧١) أخرجه مسلم في صحيحه (ج١/ ص٥٥٤/ ح٨٠٦).

(٥٧٢) أخرجه البزار في مسنده (ج١١/ ص٣٠٢/ ح٥١٠٣) وإسناده حسن.



الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

إن في هذا القرآن لبُلْغة لمن أراد البلوغ، وهداية لمن أراد الهدى، ودواء لمن ألَمَّت به الأدواء، وارتقاء لمن أرهقته الانتكاسات؛ وقد والله أرهقتنا!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد ١٦]؟

بلى والله لقد آن! آن لفلاسفة الصحوة وشبابها أن يتلمسوا الطريق فيما أضاءه لهم القرآن، وأن يُحدِثوا أثراً يحمدهم عليه المارّة، أن يستلهموا فلسفة الصحوة ورشدها من المرجعية العليا لهذا الدين وأهله، وأن يجنوا ثمرات هذه الصحوة من بعد؛ حلوة الأُكل نضيجة الثمرات.

هذا كَدِّي في فهم كتاب الله، أقدِّمه للمتدبرين الحذاق والدعاة الأصفياء، وأضعه بين يدي طلبة التفسير وعلوم القرآن، وقد حرَصتُ على تقديمه بأبهى حلة وبأعذب صياغة وأجمل تصميم وتقسيم؛ ليكون نموذجاً لأعمال أخرى عسى الله تعالى أن يوفق إليها.

وإن كان لا بد على ما جرت به العادة من توصيات في الخاتمة فلْأقل:

- أوصي أساتذتي العلماء والدعاة وأذكِّرُهم بضرورة تقديم القرآن للأمة اليوم وقد حمَلْنا الأذهانَ على بذل اللائق به من الجهود في صورة عصرية، موشَّحةٍ بالفوائد التي تروي ظمأ الأمة فيما تهيم لأجله على وجهها عطشى؛ تستجدي الهداية من مستنقعات الغرب العفنة، أو من قيعان الشرق السبخة! وكتاب هدايتها حاضرٌ بين يديها ينادي عليها: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة]!

ثم فلْيحفِلْ هذا التقديمُ بمعالجاتٍ تنتظرها مشكلات الأمة، وأدويةٍ تطبّبُ ما بنا من أدواء وجراح فكرية ونفسية ومجتمعية وسياسية ومنهجية.

ولتكن مواجهة عدوِّ الأمة الألد من اليهود الغاصبين ومن والاهم من الطغاة والمنافقين نُصْبَ العينين، وقوفاً على الثغر، وقياماً بالواجب؛ فإن واجب العلماء: التعليم والبيان، وتربية جيل الفتح بالقرآن.



وأوصي الشباب بورود القرآن الكريم للرَّواء، والترس به للاحتماء، والتسلح به للتقدم، والتأدب به للكمال، واللجوء إليه في كل ملمة فكرية وسياسية وإيمانية...

- وأوصي المتدبرين وطلبة العلم بالاعتناء بالرسائل الكلية في القرآن؛ تلك التي تقدمها السورة بمجملها، وتقدمها المقاطع فيها، بالإضافة إلى ما في الآيات وكلماتها وحروفها ونظمها من فرائد دقيقة ورسائل رشيقة، وإنما يتم ذلك عبر الاهتمام بالمناسبات السياقية للآيات والمقاطع، والتأمل في وحدة الموضوع وترابط النص وتماسكه وإحكامه.

- وأوصي المتدبرين وطلبة العلم بالاشتغال بالمهم من علوم البلاغة المتعلقة بالتفسير، و"هضمها"؛ بحيث ينقاد لهم توظيفها في استنباط فوائد القرآن التربوية والدعوية والسياسية وغيرها.

- كما أوصي طلبة العلم بالإقبال على علم الأصول؛ أصولِ التفسير مع ما فيه من تداخلات مع أصول الفقه والاعتناء به؛ ليتم للمشتغل في التفسير توظيفه في ضبط الفهوم في الكتاب، وترجيح الأوفق من أقوال المفسرين وإجادة الحكم في مطارحاتهم.

- وأوصيهم كذلك بالمحافظة على "جو القرآن" أثناء تقديمه للناس من غير ما استطرادٍ مفسد لرسائل القرآن ومغيِّب لها تحت ركام المسائل اللغوية والخلافيات الكلامية والروايات والقصص غير المتعلق بالآيات ومعانيها الأساسية.

الحمد لله الذي وفق وأعان، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف ٤٣].

هذا كَدِّي في فهم الكتاب؛ أستذكر إذ أزجيه لقرائي الكرام كلاماً للإمام الفخر الرازي رحمه الله وأجزل له المثوبة كتبه آخر تفسيره لآية الوضوء من سورة المائدة في ظروف سياسية مشابهة لما نعيش، وقلب مشوَّش بما يُسفك من دماء المسلمين كقلوبنا، وإلى الله المشتكى:

"فهذا جُمْلَةُ الكلامِ في المسائلِ الفِقْهِيَّةِ المُسْتَنْبَطَةِ مِنْ هذه الآية، وهي مائةُ مسألة، وقد كَتَبْنَاهَا في مَوْضِعٍ ما كان معنا شيءٌ من الكُتُبِ الفقهيَّةِ المعتبرةِ، وكان الْقَلْبُ مُشَوَّشًا





بسبب استيلاء الكفَّارِ على بلادِ المُسلمين، فنسْأل الله تعالى أن يَكْفِينَا شَرَّهُمْ، وأن يَجْعَلَ كَدَّنَا في اسْتِنباطِ أحكامِ الله منْ نصِّ الله سببًا لِرُجْحَانِ الحَسَنَاتِ على السيئات، إنه أعز مأمول وأكرم مسؤول"[٥٧٣] .

وقد كتبتُ ويحدوني في كتابتي أن أجد سورة البقرة أمامي في ذلك اليوم العظيم تذبُّ عني وتدفع النار، أعوذ بالله منها؛ إنه الكريم الرحيم الغفار.

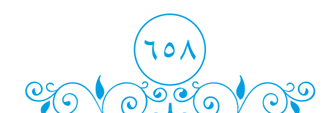
انتهيت من التصحيح وكتبت الخاتمة في سحَر ليلة التاسع عشر من رمضان من عام ١٤٤١ للهجرة، الموافق للثاني عشر من أيار من عام ٢٠٢٠ للميلاد، أثناء محنة انتشار وباء "الكورونا"، وأسأل الله بمنه وفضله ورحمته أن يرفع عنا وعن عباده ما نحن فيه، وأن يجعل جهدنا في فهم كلامه سبباً لرفع الغمة؛ إنه أكرم مسؤول.

رأفت محمد رائف المصري

عمان / شفا بدران

---

(٥٧٣) تفسير الرازي، ١١/ ٣١٦



فهرس المراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت

٢- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء، عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة

٣- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، ط٤، ١٤١٥ هـ

٤- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ

٥- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤.

٦- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٧- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط٣، ١٤٠٩ - ١٩٨٩

٨- الإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط «هو إعراب القرآن مستلًّا من (البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي (ت ٧٤٥ هـ) » المؤلف: د. ياسين جاسم المحيميد

٩- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ





فهرس المراجع

١٠-التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط١، ١٤١٦

١١- التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠ هـ

١٢- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي - القاهرة

١٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي،محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٤- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

١٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق

١٦- الزهد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

١٧- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط١، ١٩٦٨ م

١٨- العجاب في بيان الأسباب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي



فهرس المراجع

١٩- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر الجمل

٢٠- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، ط١، ١٤٠٩

٢١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ

٢٢- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م

٢٣- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

٢٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٢٥- المسند الصحيح المختصر، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت

٢٦- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م



فهرس المراجع

٢٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

٢٨- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

٢٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ

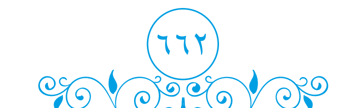
٣٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة

٣١- "التحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤

٣٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، دار الكتب العلمية - بيروت

٣٣- تفسير الإمام ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله، د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية - تونس، ط١، ١٩٨٦ م

٣٤- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م



فهرس المراجع

٣٥- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

٣٦- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩ هـ

٣٧- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، دار الكتب العلمية - لبنان.

٣٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

٣٩- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٤٠- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى)، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

٤١- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٥ هـ

٤٢- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ

٤٣-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ



فهرس المراجع

٤٤- سُبُل السَّلام مِن صَحيح سيرة خَيرِ الأنَامِ عَليه الصَّلاة وَالسَّلام، صالح بن طه عبد الواحد، مكتبة الغرباء، الدار الأثرية، ط٢، ١٤٢٨ هـ

٤٥- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

٤٦- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى ، أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

٤٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه - بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ

٤٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩

٤٩- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

٥٠- في ظلال الإيمان، د.صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم-دمشق، ط٤، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

٥١- في ظلال القرآن، سيد قطب ابراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق .

٥٢- لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٣





فهرس المراجع

٥٣- لطائف المنان وروائع البيان في نفي الزيادة والحذف في القرآن، أ.د. فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م

٥٤- لطائف قرآنية، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م

٥٥- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه - بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ

٥٦- مجالس القرآن، فريد الأنصاري، دار السلام، ط٤، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

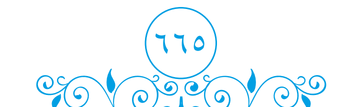
٥٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٥٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أحمد محمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

٥٩- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط١

٦٠- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م

٦١- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م





فهرس المراجع

٦٢- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

٦٣- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ

٦٤- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، صفوان عدنان داوودي، دار القلم - الدار الشامية، ط٤، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩

٦٥- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م

٦٦- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان

٦٧- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، ط١، ١٤١٦ - ١٩٩٥

٦٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات